

الليدي آن بلنت

قبائل بدو الفرات عام 1878م



عام ١٨٧٨

للرحالة البريطانية

الليدي آن بلنت

ترجمة

أسعد الفارس   نضال خضر معيوف



للطباعة والنشر

دمشق - سوريا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الترجمة

لم تشهد الارض العربية مثل هذه الحشود من الرحالة وضباط المخابرات الاجنبية مثلما شهدته في القرنين الميلاديين ، الثامن عشر والتاسع عشر ، وفي مطلع القرن العشرين ومعظم نشاطاتها كانت تستهدف التجمعات القبلية أكثر من غيرها ... فما هي دوافعهم ؟ ولماذا عرضوا أنفسهم لاخطار التجول في البوادي والقفار ؟ جاؤوا ـ كما يقولون ـ للاستكشاف وتعلم المجهول والسياحة في الديار ، والبعد عن الحياة الاوروبية الصاخبة ، وتعلم اللغة العربية ، وشراء الخيول العربية الاصيلة ! الا أن أهدافهم باتت مكشوفة ، وعلى الاخص عندما جاءت جحافل المستعمرين الى بلادنا وبيد قادتها مذكرات هذا الرحالة ، وخرائط ذاك الضابط الذي كان يتخفى في بلادنا بثياب تاجر أو حاج الى الديار المقدسة ... كانوا يتغنون بالحرية ويعيبون على العثمانيين اتباعهم سياسة فرق تسد ، ويدعون العرب للتحرر من نيرهم الاستعماري . فلما جاء قومهم سحقوا الاحرار والحرية ، ونصبوا أنفسهم أوصياء على الشعوب باسم الحضارة والتمدن ولم يخرجوا من الديار الا على أكوام الجماجم . بعد أن زرعوا في كل قطر مشكلة . وفي كل بلد استعمروه بلية .

عرف الترحال أنه وسيلة لجمع المعلومات وتدوينها . يقوم به أفراد مختصون ينتمون الى مجتمعات قوية متفوقة تملك القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية . وعلى الرحالة كتابة مشاهداته وتبويب الاخبار التي جمعها في رحلته ، وتقديمها جاهزة لابناء بلده وساستهم ومفكريهم الذين يودون غزو

البلدان المستطلعة ، أو تمتين الروابط معها • وزاد بعضهم على هذا التعريف قوله : ان الرحالة رجل متحضر يملك مفهوماً فكريا وصاحب رسالة حضارية يريد نشرها بين الشعوب المتخلفة ، الا أن الاستكشاف كان ولا يزال مرتبطا بالسياسة لا بالحضارة ، ونادرا ما حاد عن أهدافه السياسية أو تخلى عنها . ودليلنا على ذلك هوية الجهات التي شجعت الرحالة ومولتهم وتتبعت أخبارهم •

فالدول الاوروبية ـــ ومنها بريطانيا بالذات ـــ تملك ركاما هائلا من كتب الرحلات ومذكرات الجواسيس عن المناطق التي تطمع بها • كانت تدعمهم مؤسسات متخصصة أمثال : الجمعية الملكية الجغرافية ، وشركة الهند الشرقية، والمتحف الوطني ، ومصلحة الاستخبارات العسكرية • فالكولونيل شيزني مسح وادي الفرات عام ١٨٣٥ بتكليف من وليم الرابع ، ونيبور[١] قاد بعثته الى ديار العرب بتوصية من ملك الدانمارك نفسه • وكارل شوان[٢] بتكليف من المخابرات الالمانية • ولاسكاريس[٣] بتكليف من قادة حملة نابليون في مصر • ولورانس[٤] بتكليف من المخابرات البريطانية •

لن نحيط بكل الاسماء التي مارست نشاطها الاستكشافي السري أو العلني في بلادنا ولكن نذكر من أهمها :

١ ـــ بركهارد « ١٧٨٤ ـــ ١٨١٧ » الرحالة السويسري الذي زار سورية ولبنان وفلسطين ، وتسلل الى الحجاز متنكرا • كتب مذكراته في كتاب « رحلة الى بلاد العرب » •

---

(١) مستشرق دانيماركي ١٧٢٣ ـــ ١٨١٥ م جاب مصر والعراق وبلاد الاناضول واليمن . له كتاب « وصف بلاد العرب ».

(٢) كارل شوان : ضابط الماني قدم الى عرب الرولة في بادية الشام خلال الحرب العالمية الاولى محاولا كسبهم الى جانب الالمان وسمى نفسه رضوان الرويلي .

(٣) لاسكاريس : عسكري فرنسي كلفته قيادة حملة نابليون بالتسلل الى عرب بادية الشام للتمهيد لوصول الحملة الى بلاد الشام .

(٤) لورنس توماس : ١٨٨٨ـــ١٩٣٥ ضابط الاتصال بين جيش الشريف حسين والجيش الانكليزي عام ١٩١٤ .

٢ ـ وليم جورج براون « ١٧٦٨ ـ ١٨١٣ » رحالة انكليزي جاب مصر وسورية والسودان وبعض البلاد الافريقية . وضع مذكراته باسم « سياحة في افريقية وسورية » . قتل وهو في طريقه الى طهران .

٣ ـ وليم بالغريف « ١٨٢٦ ـ ١٨٨٨ » رحالة انكليزي صاحب كتاب « رحلة الى بلاد العرب » .

٤ ـ الليدي الانكليزية « آن بلنت » صاحبة كتاب « حج الى نجد » و « قبائل بدو الفرات » ، وزوجها ولفرد سكاون بلنت صاحب كتاب « التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر » .

٥ ـ القناصل وأعضاء البعثات الدبلوماسية ، أمثال الانكليزي ريتشارد بورتون « ١٨٢١ ـ ١٨٩٠ » وزوجته السيدة بورتون صاحبة كتاب « الحياة الداخلية في سورية » .

تعتبر قصص الرحلات جزءا لا يتجزأ من نشاط الاستشراق . وآثار المستشرقين تعتبر حلقة هامة من تراث الامبراطوريات المستعمرة التي كانت ترغب بتوطين نفسها في المستعمرات أطول مدة ممكنة .

سافر الرحالة لخدمة الأوطان التي انطلقوا منها ، ليكونوا عيونها التي ترى وآذانها التي تسمع وأقلامها التي تكتب ... ورب حادث عابر أو خبر طريف ينقله الرحالة لقيادة بلده يغير مجرى عملياتهم جذريا في المناطق المحتلة . ذهب الكابتن بورتون الى مكة متنكرا بزي حاج مسلم[1] من أفغانستان . وهناك اختلط بالحجاج المسلمين . وتعرف على رجل هندي ظنه من الافغان فأسر اليه الهندي ـ بدافع التعاطف الديني ـ خبر الاعداد لانتفاضة شعبية ضد الانكليز في الهند فأسرع بورتون وأرسل برقية الى القيادة البريطانية هناك .

---

(١) اساطير اوروبا عن الشرق . السيدة رنا القباني .

كان العداء للاسلام والمسلمين من بديهيات الامور عند الرحالة الغربيين، ولهذا عملوا جاهدين لتنشيط الدعوات القومية،وتشجيع الحركات الانفصالية واثارة القلاقل والفتن ، وحملوا الاسلام مسؤولية الاخفاق في الاقاليم التي تحكمها الدولة العثمانية ، وتباكوا على أطلال المدن الاثرية الرائعة التي كانت ذات يوم تعج بالسكان المبدعين،الذين بنوا معالمها وعجائبها . وعندما آلت الى المسلمين قالوا : انها أصبحت خاوية بسبب سوء الادارة ووحشية العقيدة الاسلامية . قال ولفرد بلنت : « اذا ما أريد للعرب أن يعودوا الى حياة البادية الاصلية ، وأن تنطلق طاقاتهم الكاملة من مكانها ، فلا بد من أن يتحرروا أولا من نير الحكم العثماني » .

ورث الرحالة الغربيون عقد سابقيهم من كتاب العصور الوسطى وكرههم للشرق الذي وصفوه موطنا للفسق والعنف والملذات، فساروا على نهجهم على الرغم من مشاهداتهم الحية في بلاد الشرق . ولن أستطيع القيام بمسح شامل لآثار الرحالة الذين جسدوا فكرة العصور الوسطى عن الشرق في أذهان الغربيين ولكن نذكر منهم : غالان(١) و لين(٢) و بورتون(٣) و دوتي(٤) و لورنس.

ترجم غالان حكايات ألف ليلة وليلة الى الفرنسية ـ تلك الحكايات التي وصلت وتفاعلت أخبارها في أوروبا ما بين عامي ١٧٠٤ و ١٨٣٨ ـ واستغل منصبه في البعثة الفرنسية في القسطنطينية لينسج على منوالها ألف حكاية وحكاية ، صوّرت المرأة الشرقية مومسا وجارية وسلعة تباع وتشترى على الرغم من أن

---

(١) غالان : ١٦٤٦ ـ ١٧١٥ م باحث فرنسي درس اللغة العربية ، ورحل الى البلاد الشرقية ، وترجم كتاب الف ليلة وليلة ، وحكم لقمان .

(٢) ادوارد لين ١٨٠١ ـ ١٨٧٦ مستشرق انكليزي اقام في مصر ما بين ١٨٣٣ ـ ١٨٣٥ فلقب بمنصور افندي وضع كتاب « سلوك المصريين المعاصرين وعاداتهم ».

(٣) بورتون : عسكري ورحالة ودبلوماسي انكليزي ١٨٢١ ـ ١٨٩٠ عمل في الهند وسورية .

(٤) دوتى : ١٨٤٣ ـ ١٨٦١ رحالة انكليزي جاب شمال الجزيرة .

العرب تعتبر حكايات ألف ليلة وليلة نوعا من التسلية الهابطة[1] التي لا شعبية لها الا في صفوف الاميين •

تبعه لين عام ١٨٤٠ فحمل مذكراته: «سلوك المصريين المعاصرين وعاداتهم» أخبار ألف ليلة وليلة معتبرا نفسه خبيرا بأحوال الشرق • ترك لين كل ايجابيات المجتمع المصري ليحشو كتابه بالتفاهات والسلبيات التي شاهدها في مصر • فوصف المصري بالرجل المتراخي الهمة المؤمن بالخرافات ، المفرط بالملذات المحرمة ، والمتعصب الديني الاعمى •

أما بورتون الذي عمل في سورية والهند فقد أضاف الى هوامش كتاب ألف ليلة وليلة قصصا داعرة عن الشرق ، حتى إن زوجته مزقت أحد كتبه بعد موته لبذاءته وعهره • وعلى هدى كتابات هؤلاء قام الفنانون والرسامون بنشر اللوحات الفنية والشرقية • فهذا يرسم الحمام التركي وفيه أكوام الاجساد العارية ، وذاك يرسم مشهد الاعدام بالسيف في بلاط الملوك ، وآخر يرسم سوق الجواري وهنّ يعرضن فيه عاريات ••• هذه هي العقلية التي ينظر بها الغربيون لبلاد الشرق •

ولكن هذا لا يعني انعدام وجود الرحالة المنصف أو المعتدل الا أن وجوده يندر في صفوف الغربيين • التقطت من بين الرحالة كتاب الليدي آن بلنت الانكليزية عن بدو الفرات، وفيه قصة رحلتها في سورية وبلاد الرافدين عام ١٨٧٨ وكتابها عن رحلتها النجدية « حج الى نجد » ، فوجدت الثاني قد ترجمته دار اليمامة السعودية عام ١٩٦٧، ووجدت الاول على حاله بلغة الانكليز دون ترجمة ــ بعد أن وصلني من أحد مدرسي جامعة اكسفورد بوساطة مشكورة من مؤرخنا السوري الدكتور[2] عارف تامر ــ وثيقة تاريخية جديدة بالاهتمام والدراسة • فقررت ترجمته والزميل نضال خضر •

---

(١) مروج الذهب للمسعودي

(٢) وضع ــ حفظه الله ــ هذا الاثر الثمين بين ايدينا وشجعنا على ترجمته .

آثرنا أن يكون النص مبسطا مفهوما يراعي كافة المستويات الثقافية في الوطن العربي ، وبطبيعة الحال تصدينا لمهمة صعبة تهيبها المترجمون قبلنا للحشد الهائل من أسماء الاعلام العشائرية ، وأسماء المدن والقرى التي مرت بها من خلال الرحلة في بلاد الشام والفرات ودجلة ، اننا نعتقد أن الترجمة لن تكون سليمة بأيدي غير أبناء الفرات ولهذا وفقنا والحمد لله بتحقيق الاماكن والاعلام تحقيقا دقيقا . فيندر أن يجد القراء شخصا في غير اسمه الصحيح ... كان تعاملنا مع أديبة عالية الثقافة أتعبتنا وهي تقتطف مثلا من الفرنسية وقصيدة من الاسبانية وحكمة من الصينية ، وأرهقتنا بتقصي أسماء الخيول وذكر أنواع من الحيوانات والنبات في المناطق التي استطلعتها .

يا ترى في أي زمرة من زمر الرحالة نصنف الليدي آن بلنت ورفيق دربها وزوجها ولفرد سكاون بلنت ؟ انه سؤال تصعب الاجابة عليه بدقة ، لان الرحلة لم تكن بدون أهداف سياسية بعد أن قال ولفرد في المقدمة : « ان وادي الفرات معروف لدى كل الناس جميعا كطريق بري مستقبلي للهند ، وندرك على أعلى المستويات أن امتلاكه من قبل دولة صديقة هو أمر حيوي للمصالح البريطانية» فهدف الرحلة كان لصالح الاستعمار البريطاني : اكتشاف وادي الفرات وعقد صلات حميمة مع البدو وتعطيل مخططات الروس والالمان في المنطقة .

ولان ولفرد عمل مخلصا في البعثات التبشيرية في أكثر من بلد عربي . هذه هي الصورة التي احتفظ بها لولفرد وزوجته في مخيلتي ، ولكنني للحق والامانة أقول : لم أجد في آثارهما المعلنة التحامل والتجني الذي اتبعه غالان وبورتون واين وغيرهم من رحالة الغرب ، وعلى العكس من ذلك نسبت اليهما بعض المصادر الميل الى الاسلام والمسلمين والتحمس لقضاياهم الوطنية .

١ ـ نقل الدكتور عدنان البني في كتابه نساء على دروب تدمر قولا لثوربون عن ولفرد في كتاب مرآة دمشق : « كان لديه مشروع مملكة عربية متحدة يكون على رأسها الامير عبد القادر الجزائري » .

٢ ــ جاء في الموسوعة العربية الميسرة[١] عن بلانت قول دون أدلة :

« بلانت ولفرد سكاون ١٨٤٠ ــ ١٩٢٢ شاعر وكاتب سياسي انكليزي . ناصر الاسلام والقوميات الشرقية . عمل حينا في السلك الدبلوماسي ، ثم كرس حياته للرحلات والدفاع عن البلدان التي استعمرتها انكلترا . وبشّر بحقها في الحكم الذاتي . مثل ايرلندا والهند ومصر . له عن مصر كتاب مشهور ترجم الى العربية عنوانه : « التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر » سجن من أجل مواقفه تلك من الاستعمار . ولد كاثوليكيا ولكنه مال الى الاسلام . وان لم يعتنق دينا بعينه . لـه شعر ومذكرات شخصية » .

٣ ــ قالت السيدة رنا القباني في كتابها « أساطير أوروبا عن الشرق »[٢]:
« بلانت سليل عائلة اقطاعية كان يحب الريف ومتعاطفا مع كل ما هو ريفي . ويرى أن العرب يمثلون الريف والفروسية .. فالعرب في نظره هـم النبلاء والكرماء الذين يشمخون بأثوابهم الفضفاضة مع خيولهم المطهمة » . ونقلت قوله بعد زيارته للجزائر : « عندما نرى العرب وهم بين قطعان خيولهم وابلهم، ونرى حياتهم الريفية النبيلة الغنية بالتقاليد الرفيعة والمفعمة بذكريات البطولة ، ثم نرى الى جانب ذلك قذارة المستعمرين الشائنة وحاناتهم وخنازيرهم ، فانه من المستحيل أن يخفى على أنظارنا التباين الهائل بين هؤلاء وأولئك ، أو أن تبعد عنا غضبا يتملكنا حيال هذه المفارقة العجيبة التي جعلت من الفرنسيين أسيادا ومن العرب خدما لهم » .

٤ ــ حل الشيخ محمد عبده ضيفا في منزل الليدي بلنت وزوجها ولفرد في بريطانيا بعـد هروبه من مصر[٣] واستنكرا حادثـة دنشواي والمحاكمات الصورية والاعدامات التي تلتها ، وقابلا « أحمد عرابي »في مصر . وقال ولفرد:

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة . عن مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .
(٢) صدر الكتاب بالانكليزية عام ١٩٨٦ عن دار ماكميلان البريطانية بعنوان : Europe's Myths of Orient . استفدت منـه في وضع هذه المقدمه . والمصادر المذكورة ضبطت الكنية « بلانت » بينما آثرنا كتابتها « بلنت » .
(٣) من مقال لولفرد كتبه في صحيفة « بال مال جازيت » في آب عام ١٨٨٤ .

« زرت عرابيا لآخر مرة صباح يوم سفري الى بريطانيا ، وكان قد مضى على وجودي في مصر أكثر من ثلاثة شهور ، بدت لي وكأنها العمر كله اذ أنني استغرقت تماما في التعرف عليها ، وأصبحت أرى فيها وطنا ثانيا لي ، وعزمت على ربط مصيري بمصير أهلها وكأنهم أقران وطني » •

وعلى الرغم من كل ما ذكر تبقى شخصيتا «ولفرد بلنت» وزوجته آن بلنت محاطة بالالغاز وتتخللها التناقضات • ولعل هذه المقدمة ، وهذا الكتاب المترجم سيكونان فاتحة أمل لمزيد من البحث لكشف ما تبقى من خفايا حياة هذين الرحالين في المستقبل •

وردت في الطبعة الانكليزية بعض الهوامش المنسوبة للمندوب السامي البريطاني في بغداد « اللورد جيمس كلوديوس ريش » ترجمتها وأضفت لها كثيرا من الهوامش الضرورية لتزيل الغموض عن بعض الاماكن والاعلام والاحداث الهامة التي وردت في النص •

وفي ختام هذه المقدمة أتوجه بالشكر الجزيل الى أستاذنا الدكتور عدنان البني ــ مدير التنقيب في مديرية الآثار والمتاحف السورية ــ الذي قرأ معظم النص وقدم لنا نصائح هامة لاتقدر بثمن،كما أشكر الزميل عدنان الفيصل لمساعدته لنا في تهذيب النصوص من الناحية اللغوية •

اننا لا ندعي الكمال فيما فعلنا ونترك للقراء والباحثين تقدير جهودنا في ترجمة هذا الأثر الثمين من أدب الرحلات والله ولي التوفيق •

اسعد الفارس ٢٩ صفر ١٤٠٩
البوكمال ــ سورية ١٠ ــ ١٠ ــ ١٩٨٨



سهـل المالحـة ونهـر الفـرات

الإهداء

إلــى

سعــادة نــواب بهــادور إقبــال دولــة [1]

سليـــل أمــراء أود (OUDE)

(1) أمير هندي شاهدته في بغداد .

تقـــديم

في الوقت الذي تتجه فيه الانظار نحو الشرق تحاول آسيا بعد طول انتظار أن تأخذ دورها التاريخي القديم • وما نقدم له مشهد حي لما يجري في أشهر المقاطعات الاسيوية • وبودنا أن لا يمر هذا المشهد دون أن نلفت انتباه الرأي العام البريطاني الى أن وادي الفرات هو طريق المستقبل الى الهند ، وأن امتلاكه من قبل قوة صديقة يدخل في صلب المصالح الحيوية للشعب البريطاني •

وعلى الرغم من الاستعدادات التي تجري على قدم وساق لتنفيذ خرائط ومخططات الخط الحديدي الى الخليج العربي ، فما أقل الذين يكتبون عن ذلك من الذين يملكون المعرفة بالمناطق المذكورة وبالقبائل التي تسكنها • ان وادي الفرات يعتبر غامضا في ذهن الشعب البريطاني أكثر من أي واد آخر يماثله من حيث الاهمية في العالم القديم • ولم أجد له وصفا وافيا منذ أيام[1] كزينوفون « Xenophon » الا وصف الكولونيل شيزني « Chesney » المكلف بمسح النهر عام ١٨٣٥ م من قبل وليم الرابع والذي قدم لنا مجلدات

---

(١) كزينوفون : مؤرخ وفيلسوف وقائد اثيني ٤٢٧ ــ ٣٥٥ ق.م . كان من تلامذة سقراط .

ضخمة من الاحصائيات والخرائط ، كانت حصيلة بعثته الاستكشافية الى الفرات • كما لا أجد من رحالة كان قد أجرى دراسة للمنطقة أو قص لنا مغامراته في كتاب مطبوع • وفي العشرين عاما الماضية كان الفرات منطقة خطر بالنسبة للاوربيين والآسيويين على حد سواء ، وكان الرحالة على حق في تجنب ارتياد الفرات لأن قبائل العنزة كانت تستأثر بالسيادة المطلقة على المنطقة • ولكن هذا الواقع قد تبدل اليوم وأصبحت طرق القوافل آمنة على الاقل خلال أشهر الشتاء • وليس من سبب معقول يجعل مغامرا مثل كوك « Cook »[1] يقود جماعته الخاصة من حلب الى بغداد بالسهولة التي يقودها من « دان » الى بئر السبع •

ولا أبالغ عندما أقول : ان المجلدين اللذين أقدم لهما يخصان السائح الذي سلك طريق الفرات وقد أعذر بسبب تأخير نشر هذه المذكرات حتى اليوم والمغامرات البعيدة التي قامت بها المؤلفة بين القبائل البدوية في العراق والجزيرة والصحاري الغربية •

ان هذه البوادي كانت قد وصفت من قبل أكثر من مرة • وزار قبائلها أناس كثيرون الا أن ظروف الرحلة الحالية في هذه المجلدات ستكون محاولة رائدة في اعطاء نظرة شاملة عن الحياة البدوية ، وعموم السياسة المتبعة هناك ، وعلى سبيل المثال لا أذكر رحالة كان قد زار قبائل شمر المستقلة في العراق أو

---

(١) كوك مغامر شجاع ١٧٢٨–١٧٧٩ سهل وصول الانكليز الى الشمال الامريكي ومنها منطقة دان ، وقام برحلات استكشافية الى جزر شرق آسيا ، وفتح طرق الاسفار العلمية. قتله سكان جزر السندويس «جزر هاواي» في آخر رحلة له الى هناك .

قبائل العنزة في الحماد[1] • ان الصحاري في ديار العرب تعتبر كأرض « توم تيدلر » بالنسبة للاوربيين ، فبدلا من أن تبحث فيها عن القبائل تكون عرضة لارتياد المجهول • ولكن الظروف الحالية غيرت الوضع ، وجعلت الصحراء مسكنا للرحالة مثلما هي مسكن للقبائل ذاتها •

أما عن مساهمتي في فصل من فصول الكتاب في نهاية المجلد الثاني ، فاني أقدر أنني أملك حجة مقنعة تخولني كتابة ذلك بسبب اقامتي عشرين عاما في بغداد ، وانشغالي لتسع سنوات في عمل تبشيري في سورية • ولكن هذا لن يزيد الكتاب قيمة أكثر مما فيه • فلا أنا ولا المحررة ندعي أننا قد لبينا كافة طموحات السياح ، والذين سيحالفهم الحظ في معرفة المزيد واكتشاف كثير من المجهول • فنحن تركنا انكلترا بهدف متواضع نرغب فيه تعليم الاجيال ما يجب أن يحيط به الرحالة • ولم نكن ندري بأن الحظ قد وضعنا في طريق اكتساب معارف حقيقية وثمينة كنا قد نذرنا أنفسنا جديا من أجلها ، وفي وقت قياسي لا يتناسب مع حجم العمل المنجز • وأعجب للشجاعة والمصادفة التي لعبت دورا بارزا في تحقيق المشاريع الجدية والمصادفة وحدها كانت قد خدمتنا في كثير من الاحيان •

بدأت رحلتنا في ظروف مثيرة عندما كانت الحرب البلغارية في أوار مستعر وفي وقت تحررت فيه مصادر الباب العالي « الامبراطورية العثمانية »

---

(١) قد يكون السيد « هنري ليارد » لديه شيء يقوله في هذا المجال الا ان مذكراته لم تنشر بعد. أما الدكتور بورتر وكانون تريسترام والسيد غراهام فهم وحدهم الذين يعرفون القبائل عند الحدود السورية ، أما السيد بالغريف فقد كان عبر الصحراء كحضري وكتب عن الحضر أكثر من سكان البادية ، وقد نجد الصورة الحية لسياسة بدو الصحاري في القصص والروايات التي كتبها لامارتين وغيره من كتاب الروايات الحالمة .

من قيود الانضباط في الاصقاع البعيدة ، حيث كنا نخاطب الناس بحرية ونحصل على معلومات ميدانية كان بعضهم يمضي سنوات طويلة من أجل الحصول عليها .

وأقول ثانية : ان الظروف أجبرتنا على أن نوغل في البوادي في بعض الاحيان بدون موكب مرافقة ولا مترجمين ، وأحيانا بدون مرشدين ، فشاهدنا الواقع بوضوح ، وقد قربنا ذلك من مزاج أهل البادية ، وأصبحوا يميلون الينا . فلم تكن الزيارة بالنسبة لنا وللذين جئنا لزيارتهم محفوفة بالمخاطر والصعاب ، ولكنها كانت من الامور غير الاعتيادية التي جعلت البدو يثنون على الثقة التي تتوقعها فيهم ، ولهذا أصبحنا أصدقاءهم الجدد .

كانت البادية في شتاء العام الماضي في فوضى عارمة ، وكنا شهود عيان على حدوث الازمة السياسية هناك ، وعلى بعض مراحل الحرب القبلية . ولم يكن بوسعنا الا أن نكون مستمعين . كان لأساليب العطف والمودة فعل سحري في نفوس الاصدقاء الجدد ، اذ شجعتهم على الثقة بنا ثقة لم تكن تمنح للغرباء من قبل . وهكذا أحطنا في غضون أسابيع قليلة بكثير من الحقائق عن البادية وعن سكانها هي أدق مما جمع في سنوات عديدة في مدن الحدود السورية . ولعل عذري في الفصول الختامية من هذا الكتاب الذي تجرأت فيه على القول وبمقتضى المسؤولية : ان البحث كان يشكل يوميات محررة ، وكل ما يفترض فيها من زخرفات وتنميق فأنا الوحيد الذي أعتبر مسؤولا عنها . انها خلاصة المعلومات التي جمعتها في الصحراء . ولا أضمن الدقة المطلقة في كل ما جمعت عن الحياة والعادات والقصص المذكورة . وأعترف انني اعتمدت القليل من

المصادر المباشرة والكتب • ولكني أضفت حقائق مثيرة عــن تربية الحصان العربي وجداول نسبه التي تدل على سلالة الحصان العربي الأصيل •

ومما لا شك فيه أننا قد لاقينا صعوبات بالغة في تهجية مفردات البحث الذي نقوم به • فلا أنا ولا المؤلفة يدعي الالمام بالعربية المكتوبة ولا باللهجات العامية غير لهجة الصحراء • ومن غير المناسب لذوقنا أن تتبنى نظاما صوتيا لنطق الكلمات مغايرا للمألوف ، وعلى سبيل المثال لا يمكننا تهجئة كلمة علي « بآرلي » ولا حسين « بحوسين » دون أن نحك عيوننا أكثر من مرة • ومن جهة أخرى نجد القليل من قراء الانكليزية مــن يهتم برؤية الكلمة الفرنسية « أودي » أو الالمانية « دسشيبل » مقابل كلمة الوادي أو الجبل •

وقد استعذنا بالله من الشيطان عند التقيد باللهجة أو التهجئة القديســة للغة المشتركة التي استخدمها غالان Gallad في ترجمة كتاب ألف ليلة وليلة• فالاحرف الصوتية مكتوبة كما في الايطالية باستثناء حالة الحرف الطويل « i » أو قبل ساكنين مزدوجين حيث يتبعان القاعدة الانكليزية : والاحرف الساكنة تتبع الانكليزية أيضا ومع ذلك فنحن لا ندعي الدقة ، فربما تجاوزنا القواعد في بعض الاحيان لأن العمل كله قد كتب على عجل ، والعجالة عذرنا في حال عدم قيامنــا برحلات تغرينــا بالعودة الى الشرق مــن جديد قبل أن تتقدم في السن •

وفي الختام : اننا نحتج على الخضوع الكامل لكل المعارف الترفية التي جمعت حتى الآن ، وانني أتخذ موقفا محددا من الناقد الذي لم يجرب حياة

الترحال وأقول له بلسان المثل العربي الذي يقول : « ان حافر جوادي يقف فوق مركز الارض وان لم تصدق فاذهب وقس بنفسك » ٠

كرابيت ــ تشرين الاول
عـــام ١٨٧٨
ولفرد سكاون بلنت(١)



(١) زوج الليدي بلنت ورفيقها في الرحلة .

الفصـــل الاول

« طالما ان الفيافي واسعة والصحارى ساكنة والقالع والصخور والتلال الوعرة فيها تلامس باعناقها كبد السماء كـان علي ان اشدو واتكلم » .

شكسبير (١)

أهداف الرحلة ــ زيارة الجمعية الجغرافية الملكية ــ سرنا باتجاه حلب ــ الرحلة عبر اسكندرون ــ قصة التاجر المتجول عن الفرات ــ جبـة حلب ــ حططنا الرحال في آسيا .

تركنا انكلترا في العشرين من تشرين الثاني عام ١٨٧٧ م ، عاقدين العزم على زيارة بغداد وامضاء الشتاء في بعض الاصقاع الآسيوية ، لنجد المنـاخ مناسبا والطريق خالية من الاوروبيين . ولم تكن هذه هي المرة الاولى التـي عرفنا بها ديار العرب ، بل زرنا من قبل أكثر من بلد عربي ، واكتسبنا خبرة وذوقا بالحياة البدوية وطرق عيشها . وتعلمنا بعض الكلمات العربية ؛ ولكننا تتلهف الى تحصيل المزيد من الخبرات في رحلة جادة وهادفة أكثر من أي رحلة قمنا بها حتى الآن وهكذا توالت أحداث رحلتنا حتى أصبحنا في المشرق .

عبرنا من اسبانيا الى المغرب ومنه الى مصر وسورية ، ومن هناك اخترنا وادي الفرات وأرض العراق مسرحا لأحداث بعثتنا القادمة . وعندما شرعنا بتنفيذ الخطة اعترضتنا مجموعة من العقبات والمصاعب التي عملنا على تذليلها الواحدة بعد الاخرى ومن هذه المصاعب : ضآلة المعلومات الجغرافية الرسية في انكلترا عن المنطقة التي ننوي زيارتها ، وعندما استشرنا « برادشو » قدم لنا خطة مثالية تتبع فيها طريق السكة الحديدية عبر الفرات الى الشرق ، ولكن فوجئنا بأن ذلك المشروع لم يكن الا مجرد خطة لم ينم تنفيذها بعد . الا اننا

(١) تبدأ بلنت الفصل بحكمة او بأبيات من الشعر لمشاهير الادباء .

اطلعنا في مقر الجمعية الجغرافية الملكية على خرائط المسح الذي أجراه الكولونيل « شيزني » في وادي الفرات عام ١٨٣٦ بالاضافة الى أننا لم نجد في الجمعية أي رحالة كان قد زار الفرات منذ ذلك التاريخ باستثناء السيد ليارد[١] والكولونيل رولنسون[٢] وقد نُصحنا أن نمر بالقسطنطينية في طريقنا لنستشير السفير البريطاني هناك . ولكن الفكرة البديلة كانت في استشارة السيد هنري نفسه الذي يقيم في لندن ، وهو الشخص الذي يستطيع الاجابة على كل استفساراتنا نتيجة لاقامته الطويلة في بغداد . اتصل « ولفرد » بالسيد هنري فاستقبله الاخير بلباقة فائقة ، وشرح له بأن الخط الحديدي لوادي الفرات لم يدشن بعد ؛ ومن المستحيل السير مع قافلة البريد عبر ذلك الطريق نظرا لوجود القبائل الثائرة التي تستوطن قرى معينة على ضفاف النهر . وقال : ان الطريق النظامي الى بغداد يمر من ديار بكر الى الموصل ، وهو طريق ممتع ولكنه يمر بالقرب من ميادين الحرب بين روسيا وتركيا ، وهو ما نرغب بارتياده في الوقت الحاضر . الا أن السيد هنري يعتقد بأن الانسب لنا هو أن نأخذ خط سير السفن التركية التي تقوم برحلات اسبوعية من حلب الى بغداد ، وعلى متن تلك السفن تتوفر الراحة والامان على حد قول السيد هنري .

بحثنا أمر السفن التي تبحر عبر الفرات من الذين خبروها أو يعرفون مالكيها هناك ، فتبين لنا أنهم يعرفون السفن التي تبحر عبر دجلة وليس الفرات حتى انهم لم يتمكنوا من أن يقترحوا طريقا مختصرا الى بغداد ، الا عن طريق بومباي والخليج العربي . والشخص الوحيد الذي زودنا بمعلومات واضحة حول الموضوع هو سيد نبيل كان قد ارتحل منذ بضع سنين الى بلاد فارس ، منحدرا عبر دجلة الى الموصل وبغداد على ظهر طوف[٣] خشبي .

---

(١) هنري ليارد : رحالة وباحث زار بدو دجلة والفرات حوالي عام ١٨٤١ م ، وعاش بين الجبور فترة من الزمن

(٢) لعلها تقصد المستشرق الانكليزي هنري رولنسون ١٨١٠ — ١٨٩٥ م ، الذي تمكن من حل رموز الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين !.

(٣) الطوف : صفائح خشبية ، وجلود منفوخة يستخدم في عبور الانهار في بلاد الرافدين .

ويفترض أن شيئا مماثلا قد يوجد على الفرات • وقال ان « الطوف » وسيلة سفر ممتعة ومريحة ، وعلى الاخص في الاجواء الحارة حيث يجلس المسافرون وأرجلهم مدلاة في الماء في غالب الاحيان •

تلك هي الصعوبات التي واجهتنا في الحصول على معلومات صحيحة عن البلد الذي نود زيارته ، ونضيف اليها العقبات التي بدت لنا أكثر جدية وخطورة، ومفادها أن مدينة قرص[1] كانت قد سقطت • ويفترض أن اقليم أرمينية مليء بفرق الجيوش الممزقة والهاربة من ساحات القتال •

وأن عثمان باشا[2] تقلد منصبه في بلغاريا • وقد هرع كل جندي ورجل الى القسطنطينية للدفاع عن العاصمة من كافة أرجاء الدولة العثمانية ، في الوقت الذي جاءت فيه الاخبار في الصحف بقصص المذابح التي ارتكبت والعصيانات المسلحة والفوضى التي تسود الاقاليم المجردة من الحاميات النظامية ، وأن البلاد ستشهد موجة تعصب اسلامي وشيكة الوقوع ، وربما يخضع الرحالة الانكليز للتفتيش أكثر من غيرهم ، ويعاملون معاملة سيئة لأن الشعور العام في تركيا يزداد مرارة ضد انكلترا التي خانت تعهداتها •

تبين لنا صدق المعلومات السابقة ، وأن البلد يعج بالفارين من الجيش وباللصوص وقطاع الطرق الذين يستفيدون من الفوضى وانعدام القانون • وتوقعت بعض الصحف حصول تمرد في الهند ، وأن طاعونا قد ظهر في بغداد • وفي مثل هذه الاجواء لم يعد الامر مناسبا للسفر • ومن حسن الحظ أننا لم نتأثر بالروايات التي كان يبعث بها مراسلو جريدة التايمز عن قصص الاسود المفترسة وقصص قطاع الطرق • وأعلن ولفرد عن رأيه بسخافة تلك المعلومات،

---

(١) قرص : مدينة في ارمينيا كانت سببا للخلاف بين تركيا وروسيا .

(٢) عثمان باشا : قائد عثماني ، نظم الجيش في ايام السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٣٧ ـ ١٩٠٠ ، ولد في اماسيا وتوفي في استنبول .

وقال : ان حلب ليست في أرمينيا ، وان آخر ما يمكن أن ينسحب اليه الجيش المهزوم هو الصحراء السورية . واذا كان الطاعون قد انتشر في بغداد فان الجدري الآن ينتشر في لندن وعلينا أن نعرف كل مستجد في وقته المناسب .

كم كنت مقتنعة ومسرورة للتأكيدات والتمنيات التي تفاءل بها ولفرد في الوقت الذي كنا فيه نشرع في الرحلة . وقد أخذنا لكل شيء عدته . فاذا ربح الاتراك الحرب فهم سيكونون وقحين وخطرين ، ولكن لسوء حظهم أنهم كانوا بحاجة الى أي صديق يمد لهم يد العون والمساعدة .

أخذ التجنيد الالزامي كل الشباب المشاغبين من المقاطعات العثمانية ، ولم يبق سوى العجائز والشيوخ ، وتبين أن غياب الجنود والشرطة أثلج صدر كل الشرفاء في سورية ، وجعل هذه الفترة فترة ارتياح ممتعة ، وربما مثيرة للاستياء في بعض الاحيان . ولم يكن أحد يتصور في أوربا بطء الطريقة التي تنتقل بها الاخبار في الشرق وكيف أنها تقابل بالشك في غالب الاحيان ، ولهذا كنا قد أسرعنا في رحلتنا لنعود بعدها الى أرض الوطن قبل أن تصل أخبار كوارث السلطان ، وقبل أن ينجلي الموقف بشكل كامل في البادية .

كل شيء جاهز للتنفيذ .. تأثرنا لحفل الوداع المثير ، فعانقنا أصدقاءنا بحرارة ، وولينا وجوهنا شطر المشرق معلنين بدء الرحلة . كانت نقطة البدء الاهتداء بمعلومات بسيطة تقول : ان الوصول الى حلب يتطلب منا المرور بميناء بحري يدعى « الاسكندرون » ، نصل اليه من ميناء مرسيليا بواسطة السفن التجارية التي تقوم برحلات أسبوعية الى هناك . لن أصف الاثني عشر يوما التي أمضيناها في رحلتنا البحرية ، قبل أن نتتبع بعض الاحداث والتطلع بذكاء الى الارض التي تمتد أمامنا .. كان القبطان رجلا أمينا على سلامة المسافرين . أبحر عبر المتوسط منذ أربعين يوما ، ولكنه لم يسمع بمسافرين

على ظهر السفينة يريدون النزول في ميناء اسكندرون وهم في طريقهم الـى بغداد ، بينما يعرف أن مدينة حلب تقع على مسافة مائة ميل في البر ، ولم يكن هناك من طريق واضح يصل اليها • وأضاف قائلا : ان السياح يتجنبون المرور بها بسبب مرض غريب يصيب كل من يمر بتلك البلاد ، وكرر ذلك أمامنا أكثر من مرة • وعلمنا أن حبة حلب عبارة عن انتفاخ يظهر على الوجه أو اليدين • وربما على القدمين ، ثم يتقيح ويتقرح لستة أشهر أو سنة ، ثم يختفي بعد ذلك تاركا على وجه الاطفال ندبات واضحة ، ويفضل أن يترك بدون معالجة ، لأنه سيزول من تلقاء نفسه ، ويترك آثاره في جلد الصغار أكثر من الكبار • وآثاره في وجوه السكان بمدينة حلب تتضح بندبات عميقة ، ولا يعرف سببه فيما اذا كان الماء أو الهواء • وليس هناك من وسيلة ناجعة تقي من شر هذا المرض ، وليس له دواء معروف ولا معالجة[1] تذكر • فبعضهم يعزو سببه الى الماء في نهر صغير في مدينة حلب ، ولكنه قد يظهر في الموصل وبغداد وفي كل المـدن العليا من العراق تحت أسماء مختلفة ، ففي بغداد يسمونه علامة البلح • وهناك قصص عن رحالة كانوا قد أصيبوا بهذا الداء بعـد أن تجاهلوا خطـره • وأضاف طبيب الباخرة ـ مخاطبا بالفرنسية ـ القول : ان براعم المرض قـد تزهر من جديد بعد عشر سنين من بدء الاصابة • أوقفنا التحدث عن مثل هذه الامور لأنها لا تخدم أغراض رحلتنا ، ولا نرغب بالمزيد من مثبطات الهمـة • صاحبنا في مدينة أزمير مسافر معروف من بلد « ڤو[2] »، جاء الى ظهر السفينة بحبات تظهر في وجهه ، وعرض علينا مبادلة أي شيء نملكه بما يحمله من التين وريش النعام ، وهو التاجر الذي عانى الكثير من أجـل التجارة ، اذ جـاب الحبشة وحوض النيل الازرق ، وسافر من تفليس[3] الى بغداد ومن بغـداد

---

(١) كان هذا في الماضي البعيد ، اما اليوم فيمكن بسهولة .

(٢) « ڤو » : تعني مقاطعة او كانتون « Canton » وهو تعبير يستخدم في سويسرا بصورة خاصة .

(٣) تفليس عاصمة اذربيجان .

الى دمشق في قافلة • ويزعم أن الرحلة قد كلفته« ٣٠٠ » جنيها استرلينيا ناهيك عن عناء السفر • ولم يسمع في حياته بشخص يزور بغداد لمجرد المتعة • ونصحنا ــ فيما اذا كنا لا نزال نصر على المضي في الرحلة ــ أن نتاجر بالحرير، فقد يساعدنا ذلك على تغطية نفقات السفر •

يعرف هذا التاجر الفرات ويصفه بأنه نهر عظيم كنهر « الراين » ، ولكنه مجرد من الروافد • وتمنى علينا هذا التاجر أن نقضي الشتاء في بيروت حيث الفندق الفرنسي والمقهى الممتع • ونضيف الى صفوف الرواة شخصا «بولنديا» يعمل في خدمة الاتراك ، ومهندسا فرنسيا كانا في طريقهما الى مدينة أضنة أحدهما ابتاع جيادا من مدينة الدير[1] على الفرات ، والاخر كان قد شارك في رحلة مائية تجريبية قامت بها سفن بخارية حكومية في أعالي النهر قبل أربع سنوات • ولم يشجعانا على ارتياد البر الا عن طريق ديار بكر ومن ثم الى الموصل ، وهي مسيرة خمسة أسابيع للقافلة ، ثم نطوف منها الى بغداد عبر دجلة ، وقالا : لم يصدف لأحد منا السفر عبر الفرات ، ولا ندري فيما اذا كانت الرحلة عبره آمنة • ولكن في الخامس من كانون الاول انتهت بنا الشكوك والحيرة الى نهاية مفاجئة عندما وصلنا الى خليج اسكندرون • وفي الصباح الباكر وجدنا أنفسنا وقد حططنا الرحال في البر الآسيوي • وانتهت قبل وصولنا المتاعب والشكوك •



---

(١) تعني دير الزور على الفرات .

الفصـــل الثاني

« يجب ان تعلموا ان ابي كان تاجراً تركي الأصل » .
ترسترام شاندي

ميناء اسكندرون ـ بقايا شركة الشرق ـ تاجر بغال ينقلنا الى حلب ـ جيـاد البوني[1] في بيلان ـ عبرنا بوابات سورية ـ مقتل تاجـر البغال ـ الجنود الاتراك ـ لهو على العاصي ـ ليلة في خـان ـ عواصف ثلجيـة ـ حصان ميت ـ قرية طوقان ـ اليوم الاخير من بؤس الشتاء ـ الوصول الى حلب .

الاسكندرون : الاكسندرينا ـ كما كانت تدعى أيام شركة الشرق ـ هي اليوم مجموعة من الاكواخ المتناثرة على شاطىء البحر عند أقدام جبال الامانوس ، وعلى خليج مهجور يصلح لرسو السفن ، وتحيط بها المستنقعات من كل جانب . وفي تلك الزاوية النائية من البحر الابيض المتوسط حيث ملتقى سورية مع آسيا الصغرى ، يقع ميناء عظيم الاهمية كان لسنوات خلت المحطة الرئيسة للتجارة الانكليزية مع الهند ، الا أن اكتشاف رأس الرجاء الصالـح جلب الى اسكندرون أولى الكوارث ، وتلتها الضربة القاضية باتخاذ الطريق البري عبر مصر . فمنذ خمسين عاما أنهت شركة الشرق أعمالها في المنطقة ولم يبق من آثار عصرها المزدهر في هذا الميناء البحري غير كومة من الانقاض تمثل بقايا مؤسساتها التجارية ، وقبور بعض الانكليز الذين جمعوا ثرواتهم وماتوا هناك . انه منظر يدعو الى الاسى والكآبة فمباني المؤسسات التجارية تسكنها الخفافيش والضفادع ، وغمرت المستنقعات فناء الدور وباطن المساكن ، وكأنها لم تكن عامرة في يوم من الايام ! انه مشهد يبعث في النفس المرارة بمجـرد النظر اليـه .

---

(١) خيول البوني : خيول صغيرة في أوربا .

تبدو الاسكندرون اليوم بدون خان ولا مسجد . ويروى أن سوقها قد احترق بكامله منذ أيام ولكنها لا تزال أقرب ميناء بحري بالنسبة للقوافل المتجهة الى بغداد . واذا كان مشروع خط الفرات الحديدي سيزيد من عزلة اسكندرون من جديد ، الا أن المستنقع يمكن تجفيفه . وستختفي الحمى الشائعة من هناك ، عندها ستتمتع المدينة بأجمل منظر في الدنيا عبر الخليج الى جبال القرم[1] التي تغطيها الثلوج البيضاء في وقتنا الحاضر .

حللنا بارتياح ضيوفا على نائب القنصل البريطاني السيد كاتوني الكورسيكي المولد ، والذي تقلد مهام منصبه مؤخرا ، بعد نائبين سابقين أحدهما سويدي والآخر يوناني ، فاستضافنا بحفاوة بالغة لأن المسافرين الانكليز الذين يمرون من اسكندرون قلة ، وباستقرارنا في داره أزيح عن كاهلنا كثير من المتاعب والهموم .

أرسل نائب القنصل في طلب الحاج محمود ، وهو الحمال المحترم في المدينة ، وكلفه نقلنا مع حاجياتنا الى حلب ، مقابل أربعمائة قرش . كان محمود حسن المظهر كما هو حال كثير من السوريين ، وقد ارتدى حلة أنيقة بعمامة مخططة و « جاكيت » وبنطال مخططين مع زوج من الاحذية المراكشية الطويلة، وقف بكبرياء وتعهد أن ينقلنا بأمان على ثلاثة بغال للمتاع ، وعلى جوادين قدمهما لنا . كان المبلغ معقولا لأربعة أيام من السفر في كانون الاول ، في وقت تتوقع أن تكون الطرق فيه صعبة العبور ، على الرغم من أننا لم نلاحظ في اسكندرون أية اشارة لقدوم الشتاء ، قد بدت الاسكندرون بشاطئها الازرق وسمائها الصافية وكأنها في صيف أبدي متواصل ، الا أن الثلوج كانت تتوج قمم جبال طوروس على بعد مائة ميل كانت تنذر بشتاء وشيك . كان علينا أن نأخذ بعض الخبز كمؤونة في السفر ، فقد لا نعثر عليه في الطريق ، وعلينا كذلك أن نتدبر كمية من البيض ولحم الدجاج التقليدي الذي ينتظر المسافرين في تلك البلاد ... ذهب طباخ القنصل معي الى السوق وبمساعدته اشتريت ثلاثين

(١) كتبت هذا الكلام قبل ضم قبرص .

رغيفا من خبز التنور الساخن مع بعض الملح والفلفل ، ودورقا من الزيت وربطة من البصل . وبتوفر الخبز والبصل يمكن للمرء أن يسافر بعيدا في تلك البلاد . وهكذا سرنا بمتاعنا وبحقيبة لا بأس بها من « البيشليك » وهي العملة السورية الدارجة في ذلك الوقت ، وقد ادخرناها لحاجاتنا الماسة . ارتفعت معنوياتنا ، ودب فينا النشاط بسبب المناظر الخلابة التي تطالعنا والبلد الجديد الذي فتح ذراعيه لاستقبالنا . ركبنا في ساعة مبكرة من الصباح في اليوم السادس من كانون الاول عبر شوارع الاسكندرون الموحلة ، وعبر المستنقعات باتجاه طريق صاعدة اعتبرناها بوابة الارض السورية في طريقنا الى حلب . كان الصباح دافئا الى درجة تركنا فيها العباءات الثقيلة ترتمي عن أكتافنا . ولكنها أبقيت في متناول اليد خشية تقلبات الجو المفاجئة . كان المستنقع الذي مررنا به مرتعا لطيور الرفراف ـ القاوند أو ملاعب ظله ـ التي كانت تنتصب على أسلاك أعمدة التلغراف ، وبين الفينة والاخرى تنقض على الماء ليندفع رشاش رائع في الهواء . أما خيول البوني الشعثة فقد مشت بنا الى الامام ، في الوقت الذي جلجلت فيه أجراس البغل الذي يقود الركب بسرور بالغ ، وفي جو شاعري بهيج يوحي الينا بأننا نشق طريقنا عبر آسيا ، وفي نفوسنا شعور غامض بالمغامرة يجعلنا نتوقع بأن اليوم الاول من الرحلة سيكون أقل متعة من اليوم الاخير . تجاوزت بنا الطريق مجموعة من المستنقعات ، وانعطفت بلطف بين الوهاد والمجاري المائية أسفل التلال .

ضم الموكب كثيرا من رفاق السفر من راكبي البغال والحمير والخيل والجمال وبعض المشاة . وبدا لي أن هذا الممر هو من أعظم الممرات المرتفعة في آسيا ، كما مر بقربنا كثير من الناس بدون كلام ولا سلام باستثناء واحد أو اثنين تبادلوا الايماءات مع محمود . وحالما استدرنا خلف التلال قابلتنا ريح عاتية كادت تعصف بنا ونحن على ظهور البوني ، وأمام هذا الواقع أثرنا همم الجياد البيض ، واستعنا بالمعاطف ذات القلانس التي كان محمود ومساعده قاسم يرتديانها . وبعد صراع دام ساعتين وصلنا الى ملجأ احتمينا به حيث

توقفنا في مدينة بيلان ، أول محطة للاستراحة في الطريق وفي هذه الاثناء مر بنا القنصل[1] والذي كان قد سلك الطريق على ظهر جواد أبيض فألقى تحيته وتركنا في الخان . بدا لنا الخان مكانا لائقا قام فيه صف من الغرف الخالية في الطابق العلوي شوهت جدرانها كتابات تنبيء عن أسماء تجار وبحارة شرقيين وفرنسيين قدموا من انطاكية ، أو ذهبوا اليها مرورا بهذا المكان . أمضينا هناك نصف ساعة قام القهوجي فيها بقلي البيض واحضار القهوة من حانوته . وفي هذا المكان تابعنا الطريق بوسائلنا الخاصة الضعيفة أمام المتاعب الكبيرة . تعلمنا قليلا من مفردات اللغة العربية في مصر والجزائر ولكنها لم تعد تنفع مع الحاج محموذ ورفاقه اطلاقا . فالسوريون الشرفاء الاتقياء كانوا غير معتادين على الخوض في حديث مبهم اللسان . لقد كنا في منطقة بعيدة عن المترجمين والباعة المتجولين من اليهود والاولاد الطليقي اللسان الذين يركبون الحمير ويقتفون أثر السياح في الاصقاع الاسيوية طمعا في الحصول على بعض النقود . اننا نشبه هذه المعالم من البلاد بما كنا نشاهده في مرو وأصفهان . وكان الحاج محمود طيب السريرة وان لم يكن سريع البديهة . وكنا نملك ذخيرة من الصبر وددنا أن لا تنفذ قبل تحسن الامور .

توسل الينا محمود بأن تتكفل بالبغال قبل فوات الاوان ، فوافقنا بسرعة وأخذ اعدادها للسفر بنا بضع دقائق كانت بعدها خلف ذروة الشعب في طريقها الى انطاكية في جو شديد البرودة ، وكأن اعصارا بدأ يهب علينا هناك في وقت بدت فيه البحيرة ومستنقعات انطاكية تطل علينا من بعيد . لقد اجتزنا المرتفعات العالية وبدأنا بالهبوط باتجاه السهل الذي لم يكن يرتفع فوق مستوى سطح البحر أكثر من بضع مئات من الامتار . ان الانحدار الذي نمر فيه هو أسهل من انحدار الجانب الغربي من الجبال . وعندما هبطنا مسافة أربعمائة أو خمسمائة متر وجدنا أنفسنا في قفل قادم من حلب فيه جنود في طريقهم الى

(١) لم تشر الى اسم القنصل بوضوح .

الحرب ، بعضهم في ألبسة نظامية وبعضهم ربطوا بأصفاد خشبية ، وتبين لنا بأن هؤلاء من الفارين من الخدمة العسكرية ، ألقي القبض عليهم ليعادوا اليها من جديد . وعلمنا فيما بعد بأن ألفا وخمسمائة شخص غادروا حلب الى ميادين القتال ، الا أن ثلثهم أفلح في الهرب في الطريق بعد أن دفع مجيديا ــ مقدار أربعة شلنات ــ رشوة لقائده . وعندما ألقي القبض عليهم فيما بعد احتجوا بقوة لأن المال لم يعاد اليهم . ان الجنود الذين شاهدناهم كانوا مجموعة من الرجال في مظهر حسن وصحة جيدة ، ولكن معنوياتهم منهارة ونفوسهم حزينة لأنهم تركوا ذريات فقيرة من أجل أمجاد زائفة تريدها الامبراطورية من وراء الحرب . كانــوا يتحدثون باختصار ، وبعضهم يمشي بدون انتظام ، وقــد استفسروا منا عن المسافة التي تفصلهم عن بيلان . كنت أرثي لحالة هؤلاء البائسين الشباب الذين دفع بهم حظهم العاثر الى هذا المصير المجهول مع ندره الطعام ، وضعف الامل بأن يعودوا الى أوطانهم من جديد ، بعد أن سمعوا بسقوط مدينة قرص . وعندما تركنا آخر جندي في هذا الرتل أتينا الى بستان من أشجار الزيتون قتل فيه منذ عدة أسابيع بغّال بيد التركمان في جبــال الامانوس . كان البغال ينقل تاجرا غنيا عاجزا من حلب على محفة ، أوقف التركمان قافلته وطلبوا من التاجر المبلغ الذي يحمله من المال ، ومقداره أربعة آلاف من الجنيهات الا أن التاجر عــرض عليهم مستندات التبادل التجاري « الفواتير » ، وأخبرهم بأنها كالمال المدون « الشيكات » بينما أخفى بعنايــة في محفته المبلغ المطلوب ، عندها توجه التركمان الى سائق البغال شريكهم في الجريمة ، وأطلقوا على رأسه النار قائلين هذا جزاء الصديق الخائن المزيف ووصل التاجر الحلبي الى بلده بسلام مع كل ذهبه و « فواتيره » .

كانت الشمس على وشك المغيب عندما انتهى بنا المطاف الى مجموعة من الاكواخ الطينية ، فأدركنا الليل وكان لزاما علينا أن ننام هناك في المكان الذي يسمى خان ديار بكري ، وعلي أن أقول : ان معنوياتي قد ضعفت بعــد أن استطلعت تلك الاكواخ غير المضيافة ، وأسفت أشد الاسف لأننا تركنا خيامنا

في انكلترا ، فالريح قاسية ولم يكن بوسعنا أن نفعل أكثر من أن نختار كوخا فارغا في الخان ، ولذلك رتبنا الامتعة في المكان المخصص لنا على الرصيف حيث ينام المسافرون . يتألف الخان من بناء بسيط فيه أربعة جدران طينية وسقف من الجريد ، وعمود يتوسطه ليعلق عليه « الفانوس » ... أرضه ترابية يتوسطها موقد حفر في الارض ، أما الاسرة فهي مصاطب لا تليق حتى بالكلاب التي تعيش في بلادنا ، ولكنها طريقة عملية لأنك عندما تكون في نومك على هذا السرير المتواضع تكون بمنأى عن الزواحف والقوارض ، وتنام على عرض مناسب لا تطؤك فيه الاقدام ،و ترتمي فوقك الاجسام المتدافعة الى النار . كنا متعبين في اليوم الاول من الرحلة ، وما ان نشرنا أغطيتنا حتى باشرنا في نوم عميق ساعة أو أكثر على الرغم من الضوضاء وغرابة الساكنين معنا من الفلاحين الذين لم يتدخلوا بشؤوننا قط . وعندما استيقظنا من نومنا سمحوا لنا بمشاركتهم الاحاطة بالموقد لنسخن عليه الخبز ورأينا أنه ليس من اللائق تناول الطعام دون مشاركة الاخرين ، فبدأ كل واحد منا يمضغ خبزه راضيا بوجبة عشائه ، وأعددت بعض القهوة وقدمتها لجلسائنا . وعند النوم سمعت قوقأة ديك تذكر بالعشاء من الليل . ولكننا لم نعر ذلك أي اهتمام لأننا فوق أرض الاحلام ثانية . وكان آخر الاصوات التي سمعتها تلك الليلة صوت طفل مصاب بالسعال الديكي وشخير سائق البغال العالي الوتيرة . ثم هدأ الخان بمن فيه عدا القطط التي كانت تجوس خلسة حول المكان حتى الصباح ، وتزحف لتشم وجوهنا الواحد بعد الاخر . وعند صياح الديك أيقظ الحاج محمود البيت معلنا بصوته الجهوري أن الوقت حان للمغادرة ، لأننا نمنا تسع ساعات ، ولأن المسلمين يستيقظون من نومهم عندما يميزون الخيط الابيض من الاسود من الفجر ، فطوينا الفرش وانتعلنا الاحذية وتوجه كل الرفاق الى الموقد لتدفئة الايدي والاطراف الباردة . كنا آخر من تحرك بينما أرسلت الامتعة مع الحاج محمود ، وغادر المسافرون الخان فبقينا بضع دقائق حول الموقد حيث جلب لنا صاحب الخان القهوة و « فاتورة » الحساب فجعلناه سعيداً بثلاث «شلنات»، وهكذا انتهت مغامرات ليلتنا في ذلك اليوم المنصرم .

كانت السماء قد أمطرت منذ يومين ، وكانت الريح باردة خارج الكوخ ؛ فأصبت بصداع ، وهدنا التعب ، ولفنا الحزن والاسى ، ولكن بعد فوات الاوان ، فنحن نسير بعيدا على حافة التلال المتجهة شمالا في طريق يهبط الى السهل ، فبدا على يميننا مستنقع كبير تتطاير منه أسراب دجاج الماء ، وطيور الشنقب ، وطيور الزقزاق ومالك الحزين يتبعها بين حين وآخر سرب من البط • اني ألاحظ طيور البوشار والحذف كالتي كنا نراها في انكلترا ، ومنها البط الابيض والاحمر الجميل الذي لا بد وأن يكون الشهرمان الجميل • وتخترق المستنقع طريق رومانية قديمة مررنا عليها ، ثم انعطفنا بحدة الى اليمين لنجد رواحلنا فوق جسر مرتفع أقيم على نهر العاصي • وهنا ترجل ولفرد ليؤمن لنا بحرص بالغ وجبة عشاء سخية ؛ وكان محظوظا عندما تمكن من ايقاف زوج من طيور الشولر ، كان يطير عبر النهر ولحسن الحظ أنها سقطت فوق الجسر حيث كنا نمر والا لما استطعنا التقاطها ، ثم توسل قاسم في طلب المزيد ، فقام ولفرد بتسديد ضربة مزدوجة الى طيور الغراء فأحضر الى الحقيبة أربعة طيور منها ، وتشجعنا في طلب المزيد من الطرائد ولكن الجو لم يسمح لنا بذلك فقنعنا بما في أيدينا من صيد ، وسارعنا الخطا في المسير لنصل قبل المطر ، وبينما نحن نسير صادفتنا قوافل الجمال وفيها ألف بعير يقودها بدو من العقيل[1] وقوم من الحضر ، وأقدر بأنها كانت تحمل الذرة للحكومة ، وقد شكلت الجمال قافلة كبيرة يقودها بعير ضخم يحمل العلم التركي ويرافقه بعض الجنود ، كانت تلك أروع قافلة وأروع جمال كنت قد رأيتها في حياتي • وصلنا الى عفرين في الوقت المحدد ، ولكن المطر بدأ بالهطول ؛ وقبل حلول الظلام تدفق السيل بغزارة ، ولكننا جاوزنا المضائق التي تتعطل عندها القوافل أياما بسبب الفيضان في فرع من فروع العاصي كان بدون جسر ولا معدية • حللنا في خان عفرين الذي يدعى بالعربية الخان الاخير فوجدناه أكثر ازدحاما

(١) العكيل او العقيل : جماعة من بدو نجد كانوا يرافقون البريد والقوافل التجارية في زمن الحكومة العثمانية .

بالمسافرين ، ومنهم كوكبة من الجنود تحلقوا حول الموقد فنظروا في خرائطنا وسألونا عن أخبار الحرب ، وحدثونا بذكاء واضح ولكن بمعلومات جغرافية بسيطة وأكثر ما سألونا عنه مدى صحة المعلومات عن سقوط مدينة قرص ، فأفدناهم عن صدق المعلومات وأخبرناهم أن عثمان باشا في بلغاريا بخير وفي هذه الاثناء تقدم منا صاحب الخان وتوسل الينا بالفرنسية أن لا نوغل في الحديث حتى لا تغضب الجنود ، وقال : اني مسيحي ويسرني اندحار الاتراك الا أن التصريح بهذا يغضب الجنود ، طلبت من هذا الرجل أن يطبخ البط للعشاء ويقلي لنا بعض البصل . جلس الجنود يتجاذبون أطراف الاحاديث السياسية طوال المساء حتى وصل بهم الامر الى الضرب والمشاكسة . ويبدو أن بعضهم كانوا سكارى والدخول مع السكارى بعراك قد يؤدي الى نتائج لا تحمد عقباها ، وكنت أخمن أن يكون لمحمود ولع بالخمرة والا لما كانت عيناه تتقادحان ولما تعرض لنوبات مفاجئة من الفرح والابتهاج بدون أي سبب ظاهر ، اني أتمنى أن أكون قد أسأت الظن فيه وقد يكون غير ذلك .

استقبلنا اليوم الثالث من رحلتنا ، وقد ارتدينا المعاطف والعباءات لتحمينا من المطر الذي أخذ ينهمر بغزارة ومن الريح التي كانت تهب من الشمال . كان الطريق موحشا موحلا بوحل صدئي أحمر، ويتعرج في هضاب صخرية منخفضة تعصف من ذراها الريح بشدة محولة المطر الى برد ، بينما سفوح تلك التلال تنعم بهدوء نسبي ان اجتياز تلك الطريق أرهقنا وأرهق مطايانا التي عبرت بقايا حقل فأصابها البال حتى العراقيب ، مع أنها تمضي بمرح على الرغم من خطر الانزلاق على الصخور ، فما من مخلوق يمشي فوقها الا ويركع على ركبتيه في أيام المطر . ان المشي كان مستحيلا وكم من مرة حاول فيها ولفرد المشي فلم يفلح لأن الصخور كانت ملساء كالزجاج ، كانت أقدامي تؤلمني من شدة البرد بشكل موجع لم أشعر بمثله من قبل ، وقد تجمدت أصابعي الى درجة انعدام الحس على الرغم من أنها كانت في جيوبي ، وجلسنا فوق ظهور الخيل كتماثيل بشرية فاقدة القدرة على الحركة ، وتركنا لها حرية اختيار الطريق والاعنة مسيبة فوق أعناقها ، معتمدين على العناية الالهية وعلى الحس السليم

الذي كانت تتمتع به • وتصورت بأن السقوط الى الارض محتمل ، واذا ما حصل فستكون فيه النهاية لنا ، وأنه لا الخيل ولا الفارس تستطيع انهوض من الوحل ثانية ويؤكد صحة هذا الاعتقاد مرورنا بحصان ميت يقف فوقه رجل عجوز في صورة معبرة عن اليأس ، ويبدو أنه كان منسحبا من الجبهة بطريقة افرادية ودون توقف ، وكم مررنا بقوافل من الخيل كانت ترعى في أماكن محمية ، وأصحابها ينعمون بالدفء تحت خيامهم السوداء ، وقد تكدست الاحمال حولهم لتصنع لهم حاجزا من الريح •

كان الركب يائسا بشكل واضح ولم تتوقف ولو لحظة طوال اليوم كله : ولم يكن لدينا وقت للتوقف والاعتبار لأننا نمر بساحة المعركة التي هزمت عليها زنوبيا[1] من قبل أورليان ، وأن الاطلال التي انتصبت هنا وهناك على تمم التلال كانت قصورا عامرة دمرها أيوب في عهد الملك داوود • ويبدو أن المنطقة كانت مأهولة في يوم من الايام وأن آلاف « الفدادين » من الارض الصالحة للزراعة قد هجرت منذ آلاف السنين وتحولت المنطقة الى خراب مهجور ، ولم نمر بأكثر من قرية أو قريتين كانتا في الطريق ، وان السهل الذي نمر عيه يبدو محروثا للتو ، وفي هذا العام بالذات نظرا لظروف الحرب والبطالة من العمل ، وهو جزء بسيط من الارض البور التي تنمو فيها النباتات الشوكية •

ان ملكية الارض في تركيا أمر يخص السلطان وحده الذي يتلقى من فالحيها ضريبة العشر والقانون الزراعي يعطي الحق بالاستملاك للمزارعين ، ويسقط هذا الحق اذا ترك المزارع أرضه بدون زراعة ثلاث سنوات ، ويحق لجيرانه عندها أن يهبوا لامتلاكها واحيائها • والاستئجار في هذه الاحوال أبدي والارض المستملكة تباع وتشترى حتى ولو كانت بدون استملاك دائم تماما كما نبيع ونشتري الاراضي المستأجرة في لندن ، وتبين لي أن التنافس على الارض يكاد لا يذكر ، وأن معظم الاراضي في مقاطعة حلب ليس لها سوق

(١) زينب ملكة تدمر : حاربت جيوشها في شمال سورية جيوش الامبراطور الروماني أورليانوس •

رائجة . التقينا برجل سوري في مدينة حلب ، فأخبرنا بأن أفضل أرض للبناء تباع في المدينة بخمسة عشر قرشا للمتر الواحد ، وفي الضواحي بقرش ، وفي الارياف ربما تحصل عليها بدون قيمة . وسمعت أن بعض الاوربيين حاول امتلاك الاراضي البور في المنطقة ، الا أن محاولاتهم قد باءت بالفشل لأن الحكومة لا تشجع مثل هذه المشاريع . ان في سورية ملايين الفدادين من الارض الزراعية الجيدة والمروية في طقس مناسب ، ولكنها تحتاج الى الفلاحين المهرة لاحيائها وفي نظرة تأملية كئيبة لمآسي البشرية بالاضافة الى المعاناة الخاصة التي نكابد فيها ونعاني من تجمد الاطراف والايدي ، انقضى يومنا على هذه الشاكلة .

وأخيرا بدت تلوح في الافق بلدة طوقات[1] ونحن نتخبط في الطريق اليها بسرور بالغ لأننا نطمع أن نأوي الى ملجأ من البرد اذا كنا لم نطعم فيها . كان لمحمود أصدقاء في طوقات لذلك جئنا الخان وسار بنا الى بيتهم .

كان البناء مربعا وجدرانه من الحجر الاثري المنحوت ويمتد خمسة عشر قدما بدون نافذة أو فتحة سوى الباب الذي يطل على الشارع ويصعد اليه بدرجتين ويرتكز البناء على قناطر منتظمة ، وطلي بالجص الى درجة الاناقة والراحة التي لم نكن نتوقعها فيه ، وليس له من أرضية سوى الصخر الذي سوي بدقة ومدت فوقه الحصر الانيقة النظيفة ، وفي زاوية منه تقبع أربعة أحواض متواضعة امتلأت بالذرة ، وفي الجدار خزانة مفتوحة على شكل فجوة مقوسة قبالة الباب ، وفي الجانب المقابل اصطفت مجموعة من العيون المربعة صنعت من الطين على شكل برج الحمام وكأنها رفوف المكاتب في الدوائر الرسمية ، وبدا المكان وما فيه وكأنه قطعة نحت واحدة ظهرت بلون أبيض جميل . انها بالفعل غرفة جميلة جدا تشرح الصدر ، وعلى الارض هذه باشرنا تناول طعامنا حالا .

---

(٢) انها بلدة خان طومان جنوب غرب حلب .

استقبلتنا في الدار امرأة أنيقة تحمل طفلا ، ورحبت بمحمود ، وأمطرته بسيل من الاسئلة والاستفسارات اللطيفة ، ثم أحضرت كانونا يتقد فيه جمر حي ، وأشعلت نارا من أغصان ذات رائحة زكية دفأنا أيدينا عليها ، وساعدتنا على خلع ثيابنا الرطبة ونشر فرشنا على الارض . ولكننا لم نجد هناك القهوة ولا أي شيء يؤكل سوى نصف دزينة من البيض مع خبزنا وبقايا ديك عشرين . ومع ذلك كله كانت وجبة شهية بجانبها ابريق من الماء وكأس من التنك شربنا به بهدوء وطمأنينة .

كانت مضيفتنا رائعة أحسنت ضيافتنا ، ثم جلست تغزل القطن بدولاب خشبي من الطراز القديم ، وتهز بقدمها مهد طفلها المدلل تماما كما تفعل أية زوجة عاملة انكليزية،وهي بعمر الخمسين ومع أحمد الذي تسميه : أحمد بك، قضت وقتاً لا بأس به في التدليل والمداعبة . وتصورت أن كل شخص يرتاد المنزل عليه أن يشارك في الاعتناء بالطفل وتسليته . كان محمود يشعر بالارتياح مع صحن من البيض وكومة من اللحف على الارض . ونحن في زاويتنا حاولنا جهدنا أن ندفأ ولكن البرد كان قد نفذ الى عظامنا على الرغم من جمر الكانون الملتهب ، وحاولنا أن نتكلم مع أدوبة[1] كما كانت تدعى الا أن لهجتها العربية لم تتفق واللهجة التي كنا نتحدث بها ، ولم نتابع التحدث معها باللهجة المصرية التي لا تفهمها . وكان علينا أن نبدأ كل شيء من جديد ، ومن المؤسف حقا أن نجد نبرات ونمط التشديد في الكلام مغايرا تماما لما كنا نسمعه في القاهرة . استمرت أدوبة في الغزل على ضوء نار خافتة وكان دولاب الغزل يدق كالطبل وعلى صوت طنينه استغرقت في النوم حتى الغسق . استيقظت ثانية قبل أن ينطفيء « المصباح » . شاهدت صاحب الدار خليلا وزوجته قد لفا نفسيهما في كومة بجانب أحمد وعلى الطرف المقابل من الموقد ... استلقى الحاج محمود

---

(1) اسم الدلال لامرأة تدعى اديبة .

بارتياح وأخذ يشخر مدثرا نفسه بكومة من اللحف قرب الخزانة ، بينما كان المكان الذي يخصنا جانب الصف الاول من العيون الطينية والذي كان أنسب مكان في الغرفة ، الا أننا لم نستطع النوم بسبب البرد القارص فأمضينا الليل ونحن نرتجف ، بينما كانت الريح الهجوم تزمجر خارج الدار ترافقها طقطقات من المطر .

أسرعنا بما تبقى من الطريق كما فعلنا في اليوم الماضي ، لنطارد مآذن حلب التي شاهدناها قبل خمس ساعات من وصولنا الى المدينة ، وكانت لا تزال تمطر بغزارة عندما وصلنا فجأة الى حلب عند منعطف تلة تحفها الاشجار والبساتين وبجانبها غابات وأبراج ومآذن ، وقد شكلت منظراً من أروع المناظر في الدنيا .ولم نتوقف لنعجب بل مضينا مع حشد من المسافرين والبغال والخيل والحمير الى وسط المدينة فوجدنا أنفسنا أمام باب الفندق « اللوكندا » وعندها كانت نهايــة متاعبنا !

وهنا يرد الى ذهني قول بويك :

« إن الأوقــات العصيبة ، والأوقات السعيدة وكــل الأوقــات قــد انقضــت » .



الفصــل الثالث

اكتب ما اقــول ... حــدث هــذا مــرة في حلب .
شكسبير

في مضافة كريم ـ حكايات السيد الافطاعي ـ قصة جدعان مع الباشا ووفائه لصديقه أحمد ـ العنزة في نجعتهم ـ التفكير بزيارة البدو ـ سيد أحمد واليهود ـ الشحاذ الوقح لا يعرف الاستسلام .

انه من حسن الطالع أن تحتجزنا العواصف والثلوج شهرا كاملا في مدينة حلب . فشتاء عام ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ أقسى شتاء مر في تاريخ سورية . ومدينة حلب لم تكن وحدها التي شغلتنا ـ على الرغم من كونها مدينة شرقية رائعة ـ بل شغلنا بتفقد الحال الذي صرنا اليه ، ولنكون فكرة متكاملة عن الديار التي نزمع زيارتها ، ولنلم بعادات سكانها وتقاليدهم . وكل المعلومات التي حصلنا عليها أثناء مكوثنا في حلب كانت أكبر خدمة يمكن أن تؤدى لرحالة .

لم يكن بوسعنا البقاء الا ساعات قليلة في فندقنا . اذ حشرنــا في مكان بائس موحش مزود بباحة تشبه البئر . وقبل أن نستقر في المكان بعثنا في طلب القنصل البريطاني السيد « سكين[1] » عن طريق الرسائل التي حملت اليــه بواسطة زوجته اللطيفة فهرع القنصل الينا وأجبرنا بلباقة على تبديل مكان اقامتنا المرعب والنزول ضيوفا في بيته المريح . وعلى الرغم من أن القنصلية كانت قد دمرت جزئيا بواسطة زلزال ضرب المدينة منذ خمس سنوات ، فقد بدت جذابة ببناء شيد من حجر متين على شكل أقواس فوق نهر صغير تسمع منه صوت الماء ينساب عند أقدام الحجرات بوضوح تام . انه نمط من الابنية

---

(١) لم تشر الى اسم القنصل صراحة واشارت بحرف «S» فقط ، واوردت بعض المصادر انه طلب منها ذلك لحساسية الظروف السياسية في المنطقة.

الشرقية التي تقوم بين الماء والاشجار المحببة • كان المنزل ديرا فيما مضى ولا يزال محافظا على الهندسة التي تناسب تقاليد الرهبنة فها هـي مغارة في الحديقة تدفن فيها الراهبات ، وها هي حفر نحتت في الصخور تحتوي على العظام ، حيث جمجمة وبعض الاضلاع البشرية ملقاة ومكشوفة هناك ، وذلك شائع في أديرة الشرق وبجانب ذلك كله انتصبت طاحونة من الحجر المنحوت، وسط أشجار الصفصاف وتوت العليق • ان الماء والطاحونة والجمال الطبيعي على ضفاف النهر كان يجتذب حشود المتنزهين في أيام الجمع والاعياد ، جاعلا من هذا المكان منتجعا طبيعيا يماثل ما كنا نراه من جمال طبيعي في استانبول •

حظينا في حلب بالراحة الجسمية والطعام والمأوى وبالتسلية الذهنية التي تمثلت في معرفة مزيد من الارض التي تمتد أمامنا ، فمضيفنا في الستين مـن عمره وله خبرة ثلاثين عاما بالحياة الشرقية ، ويعتبر مرجعا متخصصا وصادقا في كل القضايا المتعلقة بتركيا • والسيد « سكين » جعلنا نهتم بصورة متزايدة بالبادية وساكنيها الغرباء عنا ، ومنه عرفنا لأول مرة الحقيقة عن وادي الفرات ومنطقة العراق والطريق التي يجب أن تسلك والطرق غير السالكة الى هناك . لأن السيد « سكين » كـان نفسه من المغامرين الشجعان الذيـن تحمسوا للاستكشاف في الماضي ، وأقام صداقات مع البدو ، وتنقل بين القبائل كواحد من أفرادها •

وأخيرا وجدنا في هذا الانسان الزميل المتعاطف الذكي الذي يشاطرنا حب المغامرة في وقت يمر فيه العالم بمآسي وآلام تثبط الهمم وتوهن العزيمة ، ويعود الفضل اليه في تطوير مشروعنا المبهم ، الذي نود فيه أن نمضي الشتاء في جوار بغداد • ومن حسن الحظ أن هذا المشروع قد تحول الى حقيقة كان من نتائجها اصدار هذا الكتاب • انها مفاجأة سارة تخيلنا فيها أنفسنا على عتبة بلاد الشرق مع دليل بارع في حل اللغز الاسيوي الجميل • كل هذا والمطر يتحول الى ثلج في حلب وتصل الاخبار الينا بقصص عن توقف القوافل في الطين ، فقد غطتها الثلوج في الجبال ، عندها أقنعنا أنفسنا بسهولة بالبقاء في

حلب نصغي فيها الى حكايات السيد القنصل باهتمام بالغ ، وتحولت هـذه الحكايات الى حياة البدو وطرق عيشهم ، وهي أشياء كنا ننظر اليها ونحن في الغرب بغباء وجهل ، ولكنها الان بسطت أمامنا على ضوء ساطع جديد .

ان طرق الفرات سالكة ، ولكن لا تسير فوقها القوافل يوميا ؛ وأمام هذا الواقع يمكن لنا السير فيها بروح معنوية عالية ، ومثلنا الاعلى في تذليل الصعاب الرحالة كوك نفسه .

وحتى الان لا توجد موانىء صالحة تصلح لرسو السفن على ضفاف الفرات باستثناء واحد . ويروى أن قاربا للحكومة يقوم بين الحين والاخر بنقل المسافرين ، ولكن الاهم من ذلك كله وجود الطريق البرية التي تسير عليها القوافل ، وقد حمتها الحكومة بسلسلة من النقاط العسكرية الصغيرة . وتسير عليها دوريات الجنود التي ترافق تجار بغداد وحلب الذين كثيرا ما يغامرون في الشتاء بقصد التجارة . ومع ذلك علينا أن لا نغامر بالسير في هذه الطريق لأن الحرب قد جردت الحاميات الصغيرة من جنودها ، ولكن مضيفنا القنصل كان له رأي آخر فهو يرى أننا نستطيع السير على هذه الطريق بسلام ولا خطر علينا سوى جماعات البدو التي تطوف هناك ، وقد زودنا السيد « سكين » بمعلومات كافية عن جماعات البدو وقلل من أهمية الخطر الذي تشكله هذه الجماعات على المسافرين .

لخص لنا القنصل الوضع الراهن في البوادي المجاورة للفرات على الشكل التالي : تستوطن بوادي الضفة اليسرى من نهر الفرات قبيلة « شمر » ، وهي قبيلة قوية كثيرة العدد بدوية خالصة ، وهم أساسا من قبائل منطقة العراق ، بينما الضفة اليمنى لنهر الفرات قد سيطر على بواديها « العنزة » وهي تضاهي شمر في العدد والعدة اذ انتشرت هذه القبيلة من نجد في أقصى الجنوب وحتى حلب في الشمال . بقيت هاتان القبيلتان في حالة حرب دائمة ، وكثيرا ما تعبر سرايا الغزو النهر من كلا الجانبين للسلب والنهب وقطع الطرق . والمسافرون الذين يصادفون تلك المجموعات يتعرضون لخطر السلب فقط ، ونادرا

ما يتعرضون لاعتداء على أشخاصهم • يضاف الى ذلك كله كـون الوادي مسكونا من قبل عدد من القبائل المسالمة والتي تستهن الرعي ، وترفد القبائل المتقاتلة في بعض الاحيان ولكنها لا تشكل خطرا على المسافرين •

احتل الاتراك طريق القوافل على وادي الفرات منذ عشرين عاما تقريبا وأصبحت القبائل الصغيرة تتمتع بحماية الدولة •

لم تكن للقنصل خبرة كافية بقبيلة شمر ، ولا بالمكان الذي تستوطنه شرقي النهر ولكنه على صلة وثيقة بالعنزة ، وهو الذي قدم لهم خدمات جليلة وكثيرا ما كان يتوسط بينهم وبين الحكومة التركية، فوعدنا أن يعرفنا بهم درءاً للمخاطر وتحسبا من أجل المستقبل • وصديقنا القنصل « حكواتي » من الطراز الاول فقد بدت قصصه عذبة كقصص مواطنه والتر سكوت[1] وقد أدهشنا بقصصه عن جدعان[2] أحد شيوخ العنزة ، الذي وصفه لنا بأنه داهية البادية • وتبين لنا فيما بعد أن جدعان لم يكن ينتمي الى عائلة مشهورة ولكنه بدا لنا جنديا مغامرا شق طريقه بطريقة غامضة ، واكتسب مهارة حربية وشجاعة ومواهب بوأته لأن يصبح القائد الاعلى في قومه وركنا من أركان العنزة . ونادرا ما نجد قصة غير صحيحة تروى عن هذا الرجل الذي دخل في أحداث مسرح رحلتنا الى الشرق • وروى لنا القنصل أنه تعرف على جدعان عام ١٨٥٧ في الوقت الذي كان فيه عصمت باشا واليا على ولاية حلب وكان رجلا عسكريا طموحا • أراد عصمت باشا أن يجرد حملة عسكرية لتأديب الفدعان من العنزة• والفدعان بقيادة جدعان كانوا يقيمون في سهل الملح أو المالحة على الفرات .

---

(١) والتر سكوت : كاتب وشاعر اسكوتلندي « ١٧٧١ ــ ١٨٣٢ » من اشهر رواياته رواية « ايفانهو » .

(٢) هو جدعان بن نايف بن خثعم بن تركي آل مهيد من الولد من قبيلة الفدعان ومنها : آل غبين والخرصة والولد وآ مهيد .
ومقر المهيد الاساسي في عين عيس وفي الجزيرة غربي البليخ وشمال الرقة بخمسين كيلو مترا ونبع عين عيسى غزير كانت تنهل منه ابل المهيد .

وثقة بالنفس وطمعا باظهار المهارة العسكرية طلب عصمت باشا من القنصل الانكليزي السيد « سكين » الانضمام الى الحملة كشاهد أوربي على ما يفعل • كان عصمت باشا يقود الحملة بنفسه وفيها كوكبتان من الخيالة وسرية مشاة تحمل البنادق ترافقهم أربعة مدافع مقطورة بواسطة البغال •

كان على الحملة أن تسير ستين ميلا ، وأن تنام في العراء على هضبة فوق مملحة « الجبول » وكانت الليلة مظلمة ، والسماء ملبدة بالغيوم • وفي الصباح الباكر اكتشفت الحملة أن البغال المخصصة للمدفعية قد سرقت مما دفع الحملة لأن تقطر المدفعية بواسطة خيول العسكر • وفي المسيرة الثانية وصل الانراك الى السهل وساروا فيه عشرة أميال دون أن يصادفوا العدو • وعند المبيت شددت الحراسة على الخيول ولكنها جفلت أكثر من مرة في الليل • وفي الصباح كان عدد كبير منها قد نقص ، مما أغضب عصمت باشا ولكنه تابع المسير حتى وصل الجروف المطلة على وادي الفرات ، فبدت مضارب الفدعان التي أسرعت للرحيل محدثة ضوضاء وجلبة عالية • انها تعبر النهر بأقصى سرعة ، وقد فوجئت بوجود الحملة التي ظنوا بأنها عادت من حيث أتت لأنها فقدت خيولها ••• كان العنزة ينسحبون بأقصى سرعة ، باستثناء قطيع من الابل يصل تعداد جماله الى خمسة آلاف جمل يبدو أنها تركت بدون حماية • فاعتبر الباشا القطيع في حوزته ولذلك زحف الى أسفل السهل الى نقطة على شكل تل صغير اعتبره الباشا موقعا « استراتيجيا » يصلح لنصب المدافع ، ثم أرسلت مجموعة من الخيالة لتمنع الجمال من انسحاب محتمل باتجاه الفرات نفذت المناورة بدقة وحصرت الجمال • وبينما كانت الانظار تتجه الى الابل ظهرت مجموعة من ثمانية خيالة يعبرون النهر الذي كان منخفضا ، وقبل أن ينتبه الملازم المسؤول لهذا الخطر انطلق قائد المجموعة يعدو على ظهر جواده فطعن الملازم برمحه وتبعثر الجنود من هول المفاجأة ، ثم اتجه الجمع كله ــ البدو والجنود ــ

باتجاه التلة حيث المقر الرئيسي للمشاة والمدفعية . فأمر الباشا رماة المدفعية باطلاق النار وهو نفسه كان يصوب مدفعا ونتيجة للرمي الخاطىء أردى أحد الجنود أرضا.والاهم من ذلك كله هيجان الابل بسبب قصف المدافع فتدافعت فاقدة الوعي وهي تطأ بقسوة كل من تصادفه بينها وبين النهر في الوقت الذي أفلت فيه البدو ونجحوا في قيادة القطيع كله عبر النهر ، وهم يهتفون كالمعتاد : « ها ... هــوه » .

كان قائد حملة الانقاذ هو جدعان نفسه الذي بمهارته وشجاعة رجاله أرجع الحملة فاشلة ، بعد أن فقدت اثنين من رجالها . وعاد عصمت باشا الى حلب دون أي تذكار للشجاعة والذي حرص على تحقيقه دون نتيجة .

ان هذا الحادث أعطى للقنصل فضولا كبيرا لرؤية هذا البطل المغامر عن كثب ، وقد سمحت له الظروف بتحقيق هذه الرغبــة .

فبعد أيام قليلة وصلت الى القنصل رسالة من جدعان يتوسل فيها أن يشفع له عند الباشا ، لأنه تواق للسلام وله مصالح تجارية مع مدينة حلب .. أراد القنصل ذلك ولكنه لم يعد الترتيبات بانتظار وصول جدعان الى حلب ، لأن هذا الطلب يعتبر غير مألوف بالنسبة لقنصل غريب عن المنطقة ، وبالنسبة للبدو كانوا دائما يجمعون بين ملذات الحرب وفوائد السلام ، ولكنهم كانوا يخشون التفاوض بشكل مباشر مع الاتراك لأنهم لا يصدقون في نواياهــم وكثيرا ما كانت تؤدي الى نتائج مخزية . وعلى الرغم من رغبة القنصل بتحقيق طلب جدعان ، فهو لا يستطيع أن يضمن سلامة جدعان في حلب . ومال الى ترتيب التصرف الآمن ، الا أن الرسالة التي سلمها القنصل للرسول أسيئت ترجمتها، وفهم جدعان منها بأنه لن يرفض في حلب فما أحس به القنصل الا وهو ــ في صباح أحد الايام ــ في مبنى القنصلية ، فسأله السيد « سكين » ما الذي جاء بك يا جدعان فقال : الرسالة وطلب حمايتك . اضطرب القنصل ولكنه

أخذ الامر على محمل الجد ، فهو لا يستطيع أن يبقي جدعان تحت الحماية البريطانية ، ولكن عليه على الاقل أن يؤمن له طريق العودة سالما .. طلب القنصل من الشيخ جدعان الرحيل فورا اذا كان يحرص على حياته ثم أمر خيل القنصلية أن تسرج وركب مع جدعان ومعهما مفرزة حماية القنصلية عبر شوارع المدينة ، وبين كوكبة الفرسان كان جدعان آمنا من الشرطة العثمانية وخارج المدينة عليه أن يعتمد على سرعة جواده ليكون آمنا من الخطر . وعندما وصل الركب الى مسافة ميل خارج المدينة افترق القنصل عن جدعان: فرجع الاخير الى دياره يغمره الشعور بالامتنان من صنيع القنصل ، ووعد بأن يرد عليه معروفه اذا ما خدمته الظروف في المستقبل وبقي الصديق المخلص للقنصل مدى الحياة .

عاد القنصل لزيارة جدعان بعد ذلك بوقت قصير ، بعد أن دفعت رشوة كبيرة للحصول على صك عفو عن جدعان . وخلال الزيارة استعرض السيد جدعان برفقة القنصل فرقة خيول المدفعية التي غنمها من الاتراك بكامل تجهيزاتها . انها تذكرة انتصاره في الحرب ومنذ ذلك الوقت أصبح جدعان خارجا على القانون . وكم من مرة أصدرت الحكومة بحقه العفو تلو العفو ؛ ولكنه لم يعرض نفسه للخطر بدخوله المدينة مرة أخرى ، وأصبح القائد المحارب الذي يقود السبعة والفدعان في المعارك الدامية ، وذاع صيته ، وعد من شيوخ العنزة الذين يتميزون بالحكمة وبعد النظر .

وفي مناسبة أخرى كانت الفدعان متعبة من الحرب بسبب المؤامرات التي تديرها وتحيكها الحكومة التركية بين القبائل ، وقد أرادت شق صف الفدعان بتعيين ابن عم جدعان شيخا للقبيلة بدلا من جدعان ، واعترفت به شيخا على الفدعان وهجرت جدعان ورفاقه ، الا أن جدعان لم يقبل العزل ، وركب وحده الى منافسه وقابله عند باب خيمته وقتله بحضور جميع رجاله دون أن يجرؤ أحد على اعتراضه ، وعاد معلنا نفسه الشيخ العام للفدعان . وفي الوقت الذي سمعنا فيه بجدعان كان الاخير في حالة حرب مع الرولة أكبر

قبائل العنزة ، وكانت تردنا الاخبار يوميا عن انتصارات جدعان في هذه الحرب، وسنوغل في الشرح عندما تتكلم عن ضغائن البادية والسياسة المتبعة هناك .
وأراني متورطة في سرد هذه الحوادث لمجرد المتعة التي أوحت لي بها عمليات التجاوز على القانون في البادية •

ونورد من أبطال الصحراء بطلا آخر هو الشيخ « أحمد بك »[1] شيخ قبيلة الموالي التي تكونت في القرن الثامن بواسطة « تيودورا » زوجة الامبراطور « يوسطينانوس » الثاني على شرف أحد أبناء خلفاء بني أمية في دمشق والتي كانت تعجب به وعلى اتصال دائم معه •

كانت القبيلة تعتمد في تعدادها على العبيد الذين بيعوا لها والذين عرفوا فيما بعد بالموالي • والموالي كانوا يتمتعون باحترام الاتقياء من العرب وباعتبار

---

(١) انه الامير احمد بك بن محمد باشا الجحجاح بن محمود بن حمد الازرق من شيوخ الموالي وجد الامير شايش عبد الكريم . يقول الموالي المعاصرون : انهم من نسل حمد العباس ، من ابناء ولد لهارون الرشيد يدعى « شقير » امه بدوية تزوجها هارون الرشيد في البادية . وهذا القول لم نجد له اثرا في المصادر التاريخية بل الذي نجده هو ان الموالي من بقايا ربيعة من طي في بلاد الشام . وبمر العصور وتغير الرؤساء اخذوا اسماء مختلفة : « آل الفضل ، وآل عيسى ، وآل مهنا ، وآل الحيار » وعن سبب تسمية بعضهم بآل ابي ريشة فيرجح ان عيسى بن مهنا امير آل الفضل كان قد ناصر الملك المنصور قلاوون في موقعة عام ٦٨٠ هـ قرب حمص فهزموا التتار وكان الامير يضع فوق راسه ريشة في الحرب ليعرف بها . ويروى ان الملك المنصور اعطاه مالا عظيما اشترى به عبيدا واعتقهم فيما بعد ودعاهم بموالي آل مهنا .
اما رواية « الليدي بلنت » فلا ادري على ماذا استندت في تحريرها ، فلعلها مما سمعته من بلاد الشام وقد تاثر الاوربيون بهذه الرواية ومنهم المقدم الفرنسي « مولر » عام ١٣٣٨ هـ الذي قال : « ان اصل الموالي مجهول لكنهم يقولون : ان آخر خليفة اموي ذهب الى القسطنطينية ، ودخل على السلطان مراد العثماني . . وامر بتنصيبه رئيسا على احدى العشائر . . وجمع له السلطان كل العبيد والمتشردين من البدو وولى قيادتهم الى ذلك الامير » .

أن شيوخهم من سلالة الخلفاء ، كانت لهم مكانة جايلة بين القبائل ، وكـاد زعيمهم يحظى بلقب « بك » وهو لقب مستحدث في البادية ولم يكن معروفا مـن قبـل •

كان أحمد ذا قدرة جبارة ، ويعد عملاقا اذ يبلغ طوله ستة أقدام ووسيما وشجاعا نادر المثال • وكنا نسمع عنه الاحاديث التي تصفه بالاتزان بين البدو وتقول : « آه » عايك أن ترى أحمد الموالي ــ لأن اسم الشخص كان يضاف الى اسم القبيلة ــ انه يحب الخيول العملاقة التي تقدر على حمل جثته الكبيرة، ومظهره وحده يجعل ثلاثين شخصا يفرون من أمامه ، كان عمود رمحه بطول ستة عشر قدما وفي جسمه آثار لجروح قديمة متعددة ، وكان قد أقسم أن لا يموت في فراشه كما يموت البعير ، ومع ذلك فهو محارب نزيه وشريف على العكس من جدعان الذي لا تعرف لشراسته حدود • ويروى عن أحمد بك أنـه أنقذ السيد « سكين » وابنه من عصابة من قبيلة شمر حاصرتهم ، فما كان من أحمد الا أن ظهر على فرسه البيضاء فاضطرهم الى الهـرب وطارد المجموعة حتى استعاد حصان القنصل المغتصب • وفي هذه المعركة قد ألقى رمحه جانبا واستخدم الدبوس ــ انه قضيب شائك نهايته مرصعة بالمسامير ــ وطارد رجلا من الفارين فضربه على رأسه بالدبوس فأرداه صريعا في الحال •

هذا العملاق الشريف كان واقعا في شراك الحب الذي انتهى بطريقـة « رومانسية » انه سمة جيدة في تقاليد البادية • وأحداث قصة الحب هـذه دارت بينه وبين جدعان صديقه القديم • فأحمد حالف جدعان وأقسما على التآخي والتحالف وهذا يقتضي أن يقدم كل منهما العون للاخـر في حالات الحرب • وفي احدى معارك جدعان الكثيرة تركه أحمد يخوضها وحده على الرغم من طلبات المساعدة التي وصلت اليه أكثر من مرة وعندما انتهى القتال

أرسل جدعان مستوضحا من أخيه عن سبب تأخره في نجدته فكان الجواب الذي عاد به الرسول يقول : « ان أحمد يرفض أن يقاتل من أجل زوج المرأة التي يحبها » وكان جدعان قد تزوج من فتاة من الموالي منذ سنتين ورزق منها ولدا ، وربما لا يدري أن أحمد يحبها ؛ عندها أدرك جدعان سر غضب صديقه الحميم ، وتصرف لرأب الصدع تصرفا لا يقوم به كل الرجال ، فقال هـذه قضية تافهة ، وحب امرأة لا يقف عائقا في سبيل ارضاء الاصدقاء فنادى على المرأة التي تزوجها ، وأرسلها الى مضارب أحمد شيخ الموالي ، وقال لـه : « خذها انها لك » وهي كما سمعت لا زالت تعيش مع الموالي ولها أطفال من كلا الزوجـين .

حقق أحمد أمنيته بأن لا يموت حتف أنفه . فمنذ سنتين كان قد طعن في شجار مع قبيلة شمر[1] فمات دون أن ينطق بكلمة واحدة . واستلم ابن عمه محمود قيادة الموالي . وهو الذي تدعمه الحكومة العثمانية ، وكان قـد أمضى عدة سنوات في القسطنطينية .. ان محمود بك رجل مغمور في القبيلة، وقد نصبه الموالي مكان أخيه ريثما يكبر ابن أحمـد بك الذي هو الآن في الرابعة عشرة من العمر ، وعندما يكون في العمر المناسب فسيحل مكان أبيـه شيخا شرعيا على الموالي . تلك هي الحكايات الممتعة التي قصها علينا القنصل في أمسيات كانون الاول فأعطت مشروع رحلتنا الى بغداد عبر نهر الفرات وضوحا في الرؤية ، وقد بني على دراسة دقيقة للمناطق البدوية التي كان لزاما علينا أن نمر بهـا .

في الخامس عشر من كانون الاول تحدث « ولفرد » مع القنصل عـن

(١) قتله الحسنة من العنزة بسبب صراع على فتاة تدعى حربة المزيد ودفن في ديار الحسنة ونجد اثر ذلك في الشعر الشعبي لكلا القبيلتين .

الهجرة السنوية للعنزة باتجاه نجد ، واحتدم النقاش حول مدى تجوالهم في الجنوب ، اذ يؤكد السيد « سكين » بأنه قد يصل الى جبل شسر والى نجد . الا أنه لم يسمع بأوربي كان قد رافق العنزة في رحلاتهم ، وهو نفسه لم يزرهم الا في مضاربهم الصيفية في البادية السورية العليا ، وأخذنا نفكر جديا بحل هذه المسألة فبدت الفكرة مشجعة لولفرد فسأل القنصل فيما اذا كان بامكانه أن يجند نفسه كأول أوربي يشاركهم في رحلتهم ؟ فدهش القنصل وقال : ان ذلك ممكن بكل تأكيد ، ولن يكون تجربة خطيرة وكل ما يتطلبه الامر هـو الصبر واللباقة في تحمل ضجر الحياة البدوية ولعدة أشهر ، والتحلي بالشجاعة لوقت طويل بعيدا عن وصول أي مساعدة مسيحية .

راقت الفكرة لولفرد أما بالنسبة لي فخشيت أن أظل بعيدة عن انكلترا أطول مما كنت قد قررته ؛ ولن تتلقى الرسائل خلال الفترة المقترحة ، الا أن مما يطمئن هو أن ترحال البدو لن يكون متواصلا ، ولن يكون مملا الى هذا الحد. فهم يقطعون من عشرة الى عشرين ميلا في اليوم فقط . ونحن نتوق لرؤية نجد الموطن الاصلي للجياد الانكليزية وهو ما تتمناه وبودنا لو تحقق .

قررنا أن ننطلق فورا اذا كان البدو قد شرعوا برحلة جدية ، وقررنا أن ننضم الى العنزة حيثما يكونون . فهم قد رحلوا عن جوار حلب ، ويفترض بأنهم الان في الجنوب الشرقي بين تدمر والفرات .

أرسل القنصل الى السيد أحمد[1] ــ شيخ قبيلة صغيرة تعيش في أطراف

---

(1) الهنادي اعراب من ارياف مصر قدموا الى بلاد الشام مع حملة ابراهيم باشا بن محمد علي « ١٢٤٨ ــ ١٢٥٦ » هـ وهم من أصول مختلفة الفوا عشيرة سميت بالهنادي أكبر فروعها . وهم موجودون ويقطنون في منطقة الباب قرب حلب وفي الجبول وفي قضاء منبج وعين العرب في سورية ومن اشهر رؤسائهم جنيد الحاج موسى البطران . ويروى ان بطران عام ١٨٦٤م كان مسؤولا عن توطيد الامن في منطقة سفيرة وانحاء الجبول . ويبدو أن سيد احمد هو من اخوة بطران .

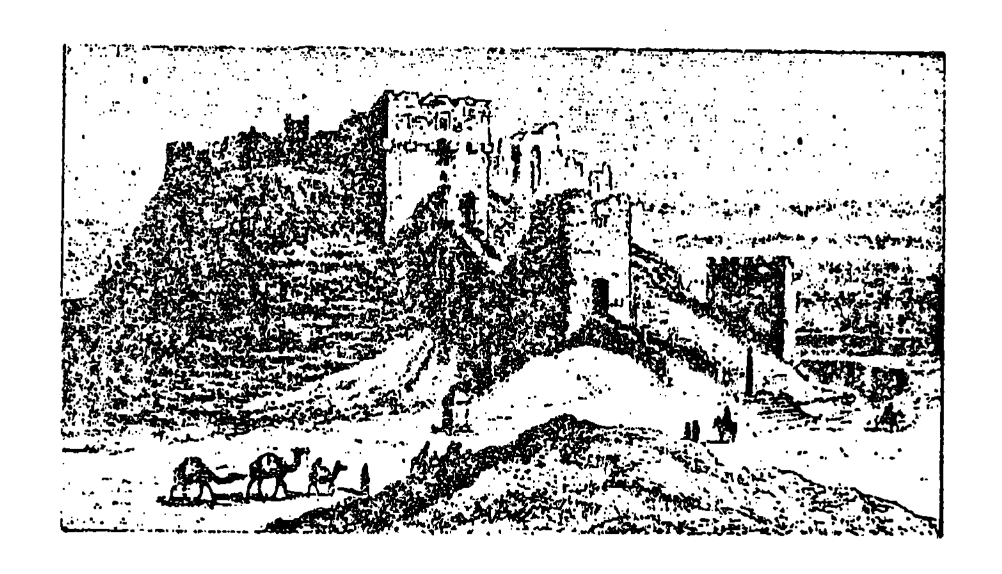
الصحراء ـ للحصول منه على معلومات دقيقة عن قوة العنزة وعدتهم ، الا أن الشيء الاهم هو توفير خيمة تصنع لنا خصيصا لان الخيام الجاهزة في حلب هي من الخيام التركية المدورة ، وهذا النوع من الخيام لا يناسب نظام المسير الخفيف الذي نزمع أن نقوم به ، فالخيمة التركية مرهقة جدا وتتطلب نصف « دزينة » من الرجال لنصبها ، وتحتاج الى جمل . يكاد لا يقوى على حملها.. انها غير عملية ولا تقاوم هبوب الرياح ، ويصعب طيها في الجو البارد ، لذلك آثرنا أن نصمم خيمة تلبي لنا كل ما نطلبه ، وقد جسدنا فيها كل خبرتنا في الترحال فجاءت مرضية بما فيه الكفاية . انها منخفضة وتغطي مساحة لا بأس بها من الارض وتقاوم الرياح وتعزلنا عن الجو الرطب ، ويمكن تحويلها الى مظلة عملاقة تحت وهج شمس البادية الحارقة .. انني لن أصفها أكثر من ذلك على الرغم من مشاركتي في صنع أجزاء كبيرة منها ، لكنني أصبت بالخيلاء عندما قامت ببطانتها الحمراء المطوقة بجديلة بيضاء . كان قد خاط الخيمة ثلاثة من اليهود كانوا يترددون على مبنى القنصلية يوميا من الفجر وحتى الغروب لينال كل واحد منهم كروانا[1] ونصف الكروان يوميا، وكانوا يجلسون متربعين على الارض في غرفة خارجية . انهم عمال أمناء حريصون على وضع كل قطعة قماش في مكانها المناسب . وعندما كنت أقف مرة بجانبهم لاعطاء التعليمات في الصباح، ولاريهم كيف يديرون الدرزات الخارجية ليصبح السطح مقاوما لنفوذ الماء سمعت خطوات رجل غريب يقتحم الغرفة صائحا : والله ... مما دفع اليهود للعمل من جديد . انه سيد أحمد شيخ الهنادي وباعتباره أول بدوي أصادفه دونت انطباعي عنه مباشرة : السيد أحمد رث الهيئة خشن القامة بين الخامسة والخمسين والستين من العمر ، وليس هناك ما يميزه سوى عباءته

(١) الكروان ضرب من العملة .

البدوية وبشاشته ، حاد الطباع يحالفها مكر ودهاء • انه تماما كالرجال الذين يطلقون عليهم في انكلترا ـ أيام المزارع الفردية والطرقات المهجورة ـ اسم الشحاذ الذي لا يعرف الاستسلام • فيه مزيج من الوقاحة والمزاج المرح والخنوع بآن واحد ••• صفات تكمل بعضها بعضا وتمنعك من أن تحترمه كلية أو أن تحتقره كلية • وتجد نفسك ترغب في الضحك والابتسام في وجهه• كنت مسرورة لانني أسمع لغة أجمل من لغة الخدم في القنصلية • وبتقديري : ان هذا الشخص من أصول قدمت من مصر لانه ينطق حرف الـ « ج » مخففا ولكن بصعوبة ، وقد تأثر بلهجة البدو الذين يتكلمون بوضوح أكثر من سكان المدن « الحضر » الذين يختصرون الكلام تاركين بعض الاحرف كحرف الـ«ك» كما يفعل اللندنيون عندما يتغاضون عن النطق بحرف الـ « هـ » • كانت كلمات أحمد تنساب بهدوء الواحدة تلو الاخرى ، وكان لدينا الوقت الكافي لنعرف فيه بعضها على الاقل •

قال سيد أحمد : ان قبيلة العنزة تركت جوار حلب منذ عدة أسابيع •





قلعـة حلـب

الفصـــل الرابع

في مدينة كزيرو عاش إسكافي اسمه كولوبث .

لا يخاف الموت

● **من الموشحات الأندلسية .**

قلعة حلب ــ سجون حلب ــ العدالة الغريبة ــ كرو الكردي ــ نصف كروان للقاتل وغضب الرأي العـــام .

قلت الكثير ولم أتكلم بعد عن حلب ، التي وددت أن تكون موضوع الفصل الاخير الا أنني وجدت نفسي ومعي ولفرد مقصرين في ذلك ، اما لقصر في النظر ، أو بسبب اشتغالنا بأمور ألهتنا عن مشاهدة المساجد والمعالم الاثرية. فبعد اسبوعين من مكوثنا في حلب تشجعنا لزيارة قلعة حلب ، ذلك الحصن المنيع والفريد في العالم . ومن الخطأ أن نغادر حلب دون أن نزوره أو نصفه .

قلعة حلب أكمة دائرية عرضها في القمة نصف ميل ، وترتفع عن الارض مقدار ثلاثمائة قدم . جدرانها من الحجـــارة الناعمـــة الملساء الصلدة ، تلـــي الاهرامات روعة وجمالا . يحيط بالقاعة خندق عريض بعمق ستين قدما حفر في الصخر حفرا فأخذ بمرور الزمن مظهر الوادي الشديد الانحدار . والقمة توجت بجدران ضخمة من الحجر الاحمر لتطل بعدها على بوابة مهيبة وطريق مغطى ينتهي بدرج لطيف الميل . احتفظت الواجهة ببنائها الحر غير المحطم . وترتفع عمودياً الى مئتي قدم ، ويمهد للوصول اليهـــا قوس اعتلى الخنـــدق بارتفاع أقل . ومن حقنا أن نسأل من صنع هذه القلعة المنيعة ؟ لا أحد يعرف ذلك[1] بدقة ، الا أن الجدران الحالية للحصن تدل على أنها بنيت في زمـــن كسرى ملك الفرس في القرن السادس الميلادي ، وافتتحها صلاح الدين الايوبي

---

(١) قال الباحث الاثري السوري الدكتور عدنان البني : بنيت على تل حلب الاثري الذي يعود الى الالف الثالث قبل الميلاد .

في الثاني عشر من حزيران عام ١١٨٣ • ومن قبله فتح مدينة حلب خالد بن الوليد قائد عمر بن الخطاب وبوفاة صلاح الدين ملكها ابنه الملك الظاهر[1] عام ١١٨٩ م • انني ألاحظ بسهولة صورة الاسد الثائر مرسوما على الجدران وهو شعار كسرى ملك الفرس •

تصدع بناء القلعة بسبب الزلازل التي حدثت في حلب منذ خمسين عاما ومنذ زمن « يوسطيناوس » وحتى هذا التاريخ والبناء الاساسي للقلعة لا يمكن أن يكون قد تغير • انني أستغرب في هذه الايام وفي الوقت الذي عرف فيه كل شيء في العالم كيف أن مثل هذا الصرح العظيم لا يملك شهرة سياحية حتى الآن ، فهو في حلب ملتقى طرق السياحة السورية ، ويعبرها عشاق السياحة لرؤية بابل ونينوي الى الشرق والجنوب منها كل هذا ولا أجد من يهتم بها سوى عامة الناس وعابري السبيل الذين يشاهدونها في طريقهم • ونظرا للكوارث والزلازل التي تعرضت لها المنطقة فيرجح أن الكثير من سجلاتها وشواهدها قد طمرت داخل الركام المتساقط ، وقد يكشف التنقيب في المستقبل عن آثار مثيرة في هذه القلعة وباستثناء القلعة وبقايا أبراج كنيسة القديس جرجس أو زكريا فاني لا أجد المتعة الكافية في حلب على الرغم من كون المدينة تعتبر من أجمل المدن الشرقية وقد قيلت في معابدها القصص والاساطير والحكايات المثيرة •

في التاسع والعشرين من كانون الاول فكرنا بزيارة السجون العثمانية لمشاهدة لص شهير لا يزال محتجزا هناك ، وهو اللص الظريف الذي تروى عنه الحكايات المشوقة ، فذهبنا الى كامل باشا الوالي المعاصر في مدينة حلب فاستقبلنا الاخير بأدبه التركي المعروف ، وتكلم معنا باللغة الانكليزية ، وفي الحال بلغناه رغبتنا في زيارة السجون ولكنه قبل الاستجابة دعانا لزيارة بيته فقادنا بنفسه عبر مجموعة من الغرف والردهات يجلس فيها عدة كتبة وأمناء للسر وحظينا برجال يصعدون السلالم وبآخرين يهبطون حتى انتهينا الى زاوية مدورة في نهاية درج حجري شديد الانحدار قادنا الى باحة مربعة واسعة

---

(١) راجع تاريخ ابي الفداء وكتب تاريخ الحروب الصليبية .

فيها خزان مربع من الماء، وعند باب احدى الغرف الجميلة التي فرشت بطاولات وكراسي فرنسية الصنع استقبلتنا زوجة الوالي السيدة الاولى في المدينة فبدت بعمر السابعة عشرة طلقة المحيا ذات عيون لوزية جميلة وتنحدر من عائلة معروفة فهي حفيدة جيسار باشا ، قابلتنا « بروب » قرمزي من غزل الصوف الناعم منذب بتخريم أسود يضيق تدريجيا ، وأسندت ضفيرتيها الى قطعة من الشاش ثم ربطتهما على شكل قوس باتجاه الرأس مكملة بذلك زيها الجميل . جلسنا فتحدثنا الا أن زوجها كامل باشا كان يقاطعنا أكثر من مرة لانها لم تكن تتقن سوى التركية .. ثم قدمت لنا القهوة وبانتهائها تصورنا بأن الزيارة انتهت الا أن الباشا لم يدعنا نذهب دون أن نأكل الحلوى والفواكه ونرى الاطفال الصغار ، فطالعتنا خادمة بدينة بصينية فيها بعض الحلوى المصنوعة من « البرقموت »[1] الذي يشبه في طعمه « الكريمة » المتلبدة ، ثم ذهبت وعادت ومعها الاطفال ، فأحدهما طفل صغير والثاني يكبره بثلاث سنوات وكلاهما يرتدي « باوزة » من القماش الاسود الداكن . فبدا لي أن الطفلين ليسا محط رعاية كافية من الابوين ، وبعد ملاطفتهما استأذنت بالمغادرة فقادنا الباشا الى غرفة الاستقبال حيث يجلس ولفرد منتظرا ساعة من الزمن ، وقد أمضاها بتدخين التبغ والتحدث الى الشاب الخجول ابن كامل باشا الاكبر .

انتهت زيارتنا لمنزل الباشا ، وانطلقنا برفقة دليل لرؤية السجن الذي يجاور المقر الحكومي « السراي » . وعلى الرغم من أن اسم السجن عادة لا يشرح النفس الا أن هذا السجن كان من طبيعة مغايرة تماما ، ولو خيرت أن أسجن لستة أشهر فاني أرغب أن أسجن في حلب أكثر من رغبتي في سجن « لويس » أو « غولافورد » أو أي سجن بني حديثا في البلاد التي تدين بالمسيحية . وصحيح أن السجين في السجن يخسر حريته الا أن السجناء هنا ليس لديهم ما يشتكون منه .

يتألف السجن من ساحة كبيرة مفتوحة ، تصطف الابنية على جوانبها المختلفة ، وينتهي السجن بواجهة جنوبية شرقية مبهمة ، وجدران السجن لم

---

(١) نوع من الليمون او البرتقال العطري ، ونظنه النارنج او الكباد .

تكن مرتفعة جدا ولا تحجب الرؤية عن القلعة ، ومنظر المدينة الجميل • كانت عنابر السجن مخصصة للسجناء العاديين ، وكانت الدور التي دخلناها مريحة بما فيه الكفاية ، وفرشت بالسجاد والوسائد تماما كما تفرش أية غرفة ريفية من أرياف سورية ، ويجلس في كل غرفة من ثلاثة الى أربعة سجناء كانوا يتمتعون بامتياز الطعام والحديث والمشاجرة والنوم كما يحلو لهم،ويستطيعون الخروج الى باحة السجن لينضموا الى رفاقهم الاخرين في السجن ، وكلهم يخضعون لسلطة السجان الذي ينظر اليهم شزرا وهو يحمل عصا غليظة •

وخصص الطابق العاوي لاخطر السجناء ، كالقتلة وقطاع الطرق والمتهمين بجرائم مالية • وتطامنت شرفة الطابق لتمكن سكانه من التحدث الى سكان الطابق الارضي بسهولة فبعض السجناء كان مقيدا بالسلاسل • وجميع رواد هذا الطابق بدوا بكروش بارزة وصحةجيدة وبلباس برجوازي يصعب تمييزهم فيه عن أي مواطن نبيل يمكن أن تراه في مدينة حلب ، أما في فترات النهار فتظهر للمشاهد باحة السجن أكثر حيوية من سوق المدينة : مع فارق بسيط هو غياب الحوانيت والناس يزدحمون هنا بدون عمل سوى التسلية • وأحد الذين التقيناهم كـان شابا في الثامنة عشرة ، هو ابن أحـد مرافقي القنصل البريطاني كان يواجه حكما بالموت وقصة محاكمته تظهر الطريقة الغريبة التي تنفذ فيها العدالة في هذا البلد وعموم الامبراطورية العثمانية ، فوالد الفتى رجل وجيه يرافق القنصل وكان مسلما سخر منه بعض ذوي النفوذ في السوق لأنه خادم الرجل الكافر ، فامتعض بحماقة ودافع عن شرفه معلنا أن خدمته شريفة ولا يعاب عليها ، لكنه دفع من قبل الرعاع بخشونة وطعن حتى الموت • أحدث هذا الامر غضبا في القنصلية وألقي القبض على القتلة ، واتهموا بشهادة الذين كانوا يمرون بجانب الحادث الا أن تنفيذ الحكم بقي معلقا بسبب مذكرة قدمها أهالي الحي تفيد بأن الشهود هم من الذين لا ضمائر لهم ، ويدلون بشهاداتهم الكاذبة بسبب المال • وكان المتهمون على وشك أن يطلق سراحهم . ولكنهم أوقفوا ثانية بسبب برقية وصلت من القسطنطينية تخبر الوالي بقدوم لجنة تحقيق ثانية يرأسها رشيد أفندي فوجدت اللجنة بأن التواقيع الموضوعة

على المذكرة مزورة ، وأمرت باعادة المحاكمة ، ومن الطبيعي ــ حسب تقاليد المحاكم التركية ــ أن يرأس جهة الادعاء أقرب قريب الى الميت وهو ما حدث في الجلسة الأولى من المحاكمة ، اذ مثل الادعاء ابراهيم ابن المتوفى وهو الفتى الذي رأيناه في السجن • وعندما حان موعد الجلسة الثانية من المحاكمة الثانية ضبط ابراهيم متلبسا بجريمة،وأودع السجن وحوكم بسرعة وأدين•وباعتباره مجرما فهو غير مؤهل لمقاضاة قتلة أبيه • وبالتالي سقطت القضية ضد المتهمين• يصعب علي التعليق أكثر من ذلك ولكن شخصية ابراهيم تثبت لي براءتهـا وتعطيني الدليل بأن معطيات الاتهام تعتبر غير كافية • وعلمت بأن مشكلته سوف تحل وسيطلق سراحه لأنه أعطى تعهدا بأنه لن يقاضي ثانية قتلة أبيه[1] •

خاب أملنا في رؤية كرّو قاطع الطريق ــ الرجل الكردي الغريب ــ الذي سمعنا عنه الشيء الكثير لأنه قد نقل الى السجن في يافا منذ أيام قليلة ، وقصة كرو تشابه قصة سميّه كرو لوبيز[2] في اسبانيا ، ونظن أن اسمه قــد انتحل هنا في سورية • بدأ كرو الكردي حياته ضابطا يحمل قربينية أي بندقية قصيرة حصل على ملكية صغيرة وبساتين للعنب في منطقة عينتاب وأمضى عدة سنوات يحيا حياة هادئة الا أن حظه العاثر قد جلب اليه جارا طمع في أرضه ورفع عليه

---

(١) سمحت الدولة العثمانية للقناصل في المدن السوريــة بتوفــير الحمايــة للرجال الذين يعملون لديهم . ومن وصف للدكتور يوسف جميل نعيسة لموظفي القناصل في مدينة دمشق نقتطف ما يلي : « يحق للقنصل ان يوفر الحماية لــ (٨ ــ ١٠) اشخاص الا ان القناصل زادوا عددهم واستخدم « البراء تلية » الامتياز الممنوح لهم من الدولة للتهرب من دفع الضرائب وحتى الامتناع عن المثول امام المحاكم . ويعمل في القنصلية عادة : ترجمان اول وترجمان ثان ، وكاتب القنصلية « ويسقجي » وخدام ، وعدد مــن القواصة وكيخية القنصل وخزنداره ، وعبيد للخدمة » .
وكان قواص القنصل يقوم بحراسته وحراسة اسرته واذا ما اضطر القنصل ان يسير في الشوارع ... كان القواص يتقلد سيفه ويسير امامه ، واذا ما ركب القنصل في العربية كان يجلس القواص امامه في العربة الى جانب « العربجى » وله زي خاص واعتبرت مرتبة القواص ارقى درجات الخدم لدى القناصل ومعاشه ثلاثمائة قرش او اكثر » .
عن كتاب مجتمع مدينة دمشق ج١ ص ٣٥٧ .

(٢) كرولوبيز : رجل كان يقطع الطريق في اسبانيا .

دعوى أمام المحاكم لامتلاكها ، وكان هذا الجار غنيا فربح القضية مما دفع كرو للنزوح الى الجبال ، وهو في أوج ثورته وغضبه •

أخذ كرو يقطع الطريق وأول عمل قام به ايقافه لنقيب في المشاة كان في طريقه الى حمص وسلب منه سبعة آلاف قرش ثمنا لعنب باعه حديثا ، وأرسله الى حلب ومعه فاتورة الحساب ليأخذها من الوالي • شكل كرو بعد هذا الحادث عصابة لقطع الطرق والسطو على ممتلكات الاخرين ، وكانت خطته في اختيار رجاله الركض معهم في سباق لتسلق قمم الجبال ، ومن يستطع أن يجاريه في الركض يقبل عضوا في العصابة • كان كرو عدّاء ماهرا ويمشي على قدميه في غالب الاحيان الا أنه في المناسبات السعيدة كالاعراس وولائم الختان وما شابه يظهر ممتطيا صهوة جواد أصيل • كان كرو صغير الجسم ولكنه حسن المظهر والمعشر ، ويحترم في كل مكان يحل فيه ، وكل مناسبة فرح في المدينة يتوقع المرء أن يصادف كرو فيها •• وهو يملك الادب والشجاعة بآن واحد على النقيض من سميّه الاسباني الذي كان يريق الدم في كثير من حالات الدفاع عن النفس • تلك كانت صفات كرو في صباه ، وبعد أن شكل العصابة عاش حياة التنقل والتخفي والحذر ، فلا أحد يعرف أين ينام ليلته لأنه لا يثق برفاقه ولكنه ينضم اليهم عند الفجر ويستطيع القاص أن يدون المجلدات حول أعماله البطولية الخارقة التي كانت كأنها من نسج الخيال •

قابل كرو فلاحا يحمل سلة من العنب فوق رأسه فسأله ماذا تحمل في هذه السلة ؟ ألا تملك حمارا ؟ فأجاب الرجل : لا • فحماري قد مات ، وليس لدي مال أشتري به حمارا آخر • فقال كرو : كم يكلف الحمار في قريتك ؟ أجاب الفلاح خمسمائة قرش فقام كرو على الفور بدفع المبلغ للفلاح وقال له : ان صادفتك ثانية حاملا المتاع سأقطع رأسك •

ومرة صادف رجلا يعمل في حلب ، كان قد غاب عن أهله سنة وعاد اليهم وهو يحمل النقود ليدفعها مهرا لفتاة يحبها ، فتوسل الرجل الى كرو ورجاه أن يترك له المبلغ والا سيضطره للعودة ثانية الى حلب وقضاء سنة أخرى لجمع

مثل هذا المبلغ فقال كرو : يا غبي هل من المعقول أن تتزوج بست ليرات ؟ انها لا تكفي أجرة راقص واحد ، هاك هذا المبلغ الاضافي ، فأنا أكره العرس المتواضع فتابع الرجل طريقه فرحا مسروراً •

وفي يوم من الايام كان رجل أفندي من الاتراك يرتحل من حلب الى أورفة للنزهة فخيم بجانب قرية تدعى كاظمة فأرسل بعض القرويين في طلب بعض أصدقائه للسمر معه • وفي نهاية السمر ذهب كل شخص الى بيته ، ونام الافندي آمنا مطمئنا ، وهو يظن بأهل القرية خيرا •

في منتصف الليل رفع قاطع الطريق باب خيمة الافندي وطلب منه أن يتخلى عن المال الذي يحمله • وعندما تفحص كرو المكان وجد العديد من الاسلحة النارية ومن بينها بندقية صيد انكليزية بسبطاتين • التقط كرو البندقية بسرعة فتوسل الافندي أن لا يأخذ منه سلاحه ، لأنه لا يستطيع أن يجد مثله وهو الرياضي الذي يحب الصيد وسيكون تعيسا بدونه ، ففوجيء كرو بأن السلاح كان محشوا ، فضحك وأعاد السلاح ، وقال له : يا جبان تملك كل هذا السلاح ولا تجرؤ على قتلي !

سلب كرو يهوديا من حلب من رعايا بريطانيا ، فتقدم الاخير بشكوى الى القنصلية البريطانية قال فيها : ان كرو سلبني « ١٦٠ » جنيها استرلينيا وعندما سمع كرو بهذا كتب الى الباشا رسالة خاطبه فيها بقوله : صديقي العزيز ان المبلغ الذي سلب من اليهودي لا يتجاوز السبعة والعشرين جنيها وان اليهودي كذب عليك ثم ألحق بالرسالة فاتورة رسمية ببضائع التاجر مع عينات منها ليرى الباشا كذب التقرير وصدق ما يقوله وختم الرسالة بقوله : انه ملزم أن يفعل هذا من قبيل الامانة والشرف •

التقى كرو ذات يوم بموكب عرس على الطريق بين قريتين ، فانضم اليه وعرّف بنفسه ، فأكدوا له بأنهم لا يملكون نقودا ، وأنهم من الناس الفقراء • فقال كرو : وما هذا الذهب الكثير في عنق العروس • فقالت العروس : تدعي أنك كرو وتساب حلي الفتيات فخجل كرو وخلى بينهم وبين الطريق •

اعتاد كرو الذهاب الى حلب في وضح النهار ، وكان يمشي في الاسواق علانية ، ويقطع الشوارع ويعرفه كل شخص يصادفه ، ولم يخنه أحد طوال هذه الفترة ولم يش به أحد للسلطات • ولكن القدر خانه هذه المرة على الرغم من أنه تفادى الوقوع في شراك السلطة أكثر من مرة ••• وأخيرا ألقي القبض عليه في كمين نصب له رتبه طحان مسيحي كان على صلة حميمة بكرو ويأوي اليه مرات كثيرة ، اذ اختبأ الجنود له في الطاحونة ثم ألقوا عليه القبض وسلم للعدالة •

لم تكن هناك تهمة بالقتل يمكن أن توجه الى كرو ، ولكن حكمت عليه السلطات بالسجن مدة خمسة عشر عاما بتهمة السطو وقطع الطريق •

انها قصة جميلة لو سلمت لميرامي[1] لنسج عنها رواية رائعة الجمال • وقبل أن نغادر السجن طلبنا رؤية السجين الذي طال حبسه هناك ، فنودي عليه من أعلى الشرفة ، وأمر أن يقف استعداد ، وأن يقف منفردا لتظهر لنا بوضوح سماته غير الجذابة ••• انه السجين الذي ارتكب جريمة منذ ثمانية عشر عاما ، وبدا شخصا متوحشا سيء السلوك ، ولكنا كنا نأسف لمدة حبسه الطويلة فقام ولفرد وأعطاه مجيديا ، فاستاء المسؤولون عن السجن . وأسفنا لذلك وشعرنا بالحرج والخجل لما قام به ولفرد لاننا كافأنا مجرما بشكل علني ، وازداد هذا الشعور مرارة عندما أخذنا السيد نيكوس ـ ترجمان القنصلية ـ جانبا وشرح لنا أننا قد ارتكبنا خطأ ، فتوسلنا اليه أن يشرح لحاكم السجن بأن نيتنا كانت من باب الاحسان فقط • فقال نيكوس : انني أتفهم وجهة نظركما وبودي أن تكون قطعة من ذهب وليس من فضة •

وبعد تحية الباشا وتوجيه الثناء والاطراء للحالة التي بدت فيها السجون تحت امرته عدنا الى القنصلية متأثرين بكل ما سمعناه وشاهدناه •

* * *

(١) مريميه أو ميرامي بروسير : روائي وكاتب مسرحي فرنسي «١٨٠٣ــ١٨٧٠» .

الفصـــل الخامس

حتى الأحذيـة المبطنـة بالفـرو اخذت في الرحلـة .

ـ إعلان كوكل ـ

اشترينا الخيل لأننا قررنا اللحاق بالعنزة ـ هاجر ـ أخبار الصحراء ـ شائعات الحرب ـ جدعان في موقف حرج ـ اختلاط الامور في الصحراء ـ فصل في السياسة .

قررنا الالتحاق بالعنزة لنجرب حظنا معهم في الشتاء ، وعلينا أن ننطلق من حلب حالما تكون الترتيبات قد انتهت ، وفي وقت بدأ فيه الجو بالتحسن الا أن رحلة كهذه ولأمد غير معروف لا يمكن أن تنفذ بسهولة ، فهي تحتاج أشياء كثيرة ، وتتطلب مزيدا من التفكير قبل مغادرة حلب . فالخيمة قد أعدت وبقي علينا شراء الخيول والبغال بمعونة من السيد أحمد ، وكانت الفرصة سانحة للمشترين لأن الحرب قائمة في البادية ، وفي كل يوم ترد السوق فرس ، وعليها آثار الجروح كبرهان على اشتراكها في الحرب وبالتالي يمكننا تمييزها عن خيول الحضر لشعرها الاشعث الخشن وهزال جسمها ، لأن الكثير منها قد امتطي ليلا ونهارا من مسافات بعيدة ليعرض في السوق ، ان هذه الخيول لا يمكن اعتبارها حسنة المظهر ، ولكن قد نجد بينها جوادا من سلالة واضحة قد تكون علته الوحيدة في ركبته المكسورة ، وآثار اطلاق النـار في جسمه وبعد التجربة والاختيار والتمحيص كان ولفرد محظوظا بشراء أحد الخيول النادرة بمبلغ معقول . لم نجد في العنزة من يفهم العلاقة القائمة بين الحصان العربي الاصيل وبين الحصان الانكليزي ، ولم تكن الخيول حسنة المظهر لأنها

برقبة تشبه رقبة الشاة وبرأس وحشي غريب غير أنها بخصرها العميق وأطرافها الخلفية الطويلة وقدراتها العضلية تبشر بما فيها من قوة وسرعة ، وهذه المزايا هي المطلوبة في المغامرات حيث التعب وطول الطريق . وجلد الحصان وتحمله تحت تأثير شح الغذاء كثيرا ما يؤخذ بالحسبان عند الشراء . ولا يهمنا كيف يبدو الحصان العربي ولا لأي سلالة يعود بقدرما تهمنا قدرانه على تحمل أعباء السفر ، فنحن لا ننشد السرعة التي تتوفر في السلالات النقية الدم .

اشترينا في حاب فرسا عربية بملامح انكليزية من سلالة كحيلان عجوز السريعة القوية . كانت هزيلة متعبة بسبب الترويض القاسي وجولانها في ميدان الحروب ، ويبدو أنها من خيول القمصة[1] ــ أشهر قبيلة عربية بتربية الخيل ــ ثم تحولت ملكيتها الى الرولة ، ولكن أسرت على بعد مائتي ميل ، وركبت بسرعة جنونية لتباع في السوق .

هاجر مهرة بعمر خمس سنوات كستنائية اللون منقطة بالسواد ، ولم نجد في رحلتنا أية فرس يمكن أن تنافسها بالسرعة وبقطع المسافات الطويلة وتصلح حتى لمطاردة الثعالب والارانب البرية بدون أية مساعدة فتلحق بها حتى لو كانت تحمل على ظهرها ثلاثة عشر حجرا . انها لطيفة الطبع رشيقة الحركة هادئة الطبع لا تعرف الهياج والتسرع تسير بخطا طويلة منخفضة بالنسبة للجواد الانكليزي ، يضاف الى ذلك كله ارتفاعها المناسب الذي قدره ولفرد بخمس عشرة قبضة[2] وهو ارتفاع غير عادي بالنسبة للخيل العربيه ، ولهذا السبب تعتبر الكحيلة مناسبة لولفرد . أما أنا اشتريت فرسا معنقية[3] من الخيول العربية المشهورة السلالة ، ولكني لم أركبها لأنها كانت تعاني من

---

(١) القمصة من السبعة .

(٢) كل قبضة تساوي اربعة انشات . والانش يساوي ٥٤ر٢ سم .

(٣) سلالة المعنقية من الخيول العربية المستولدة في ديار العرب .

ندبة عارضة في ظهرها قبيل مغادرتنا حلب ؛ ولهذا استعرت حصانا ما لبثت أن استبدلته بأفضل منه في الدير .

أما القنصل الذي رافقنا في جزء من رحلتنا ، فقد امتطى حصانا « بونيا » طحيني اللون عديم الاصل محزن المنظر ، ولد في بيلان واستخدمه ساع للبريد بين حلب والاسكندرون . تعتبر هذه الخيول وضيعة في سورية وتشبه الجياد المنقوشة على صخور نينوى[1] التي كانت تستخدم في الحروب الاشورية . ان التشابه بينها وبين حصان القنصل يكاد أن يكون تاما ، ولكنها تتضارب مع هيئة الحصان العربي ، ولم تكن تعرف في ديار العرب في ذلك الوقت ؛ ومن المرجح أنها من خيول الاشوريين القدماء .

في غمرة الاستعداد لرحلتنا المرتقبة احتجنا لطباخ يعد لنا الطعام في الطريق فعثرنا على رجل مسيحي يدعى حنا ، وافق على السفر معنا في الحال ... فوجدنا فيه الخادم الوفي الامين ولكنه كان قليل المعرفة بأحوال البادية . يتكلم العربية بلهجة حلبية أنيقة دون تصنع فأثبت لنا بسلوكه أنه خادم أمين وشجاع ومغامر اصطحبناه لقاء أجر شهري قدره مئتا قرش فقط . أي ما يعادل أربعين فرنكا .

فكرنا بالحيوانات التي ستنقل لنا الامتعة ونحن نسير على امتداد نهر الفرات فاستبعدنا الجمال لأنها لن تنفع في السير فوق الاراضي الرطبة ، فعدنا الى صديقنا الحاج محمود وبغاله ثانية ، وقررنا شراء الجمال عندما نلتحق بالقبائل ، وفي هذا نكون قد اخترقنا القاعدة التي اعتمدناها وهي أن نشتري كل شيء وأن لا نستأجر أي شيء خلال رحلتنا . دفعنا الى هذا التصرف ندرة حيوانات النقل والحمولة في حلب . وأكد لنا بعض الاصدقاء أننا سنجد لها

---

(۱) نينوى قرب الموصل .

سوقا أفضل في الدير على بعد مئتي ميل وهناك سنعد العدة لتحقيق تطلعات المستقبل • علينا توقع ضخامة المتاعب ، ولهذا دققنا بقدرات البغال والرجال الذين سيرافقوننا ، واختبار استعداداتهم للذهاب معنا الى تلك الديار البعيدة• وبالاضافة الى ذلك كان علينا شراء بعض الحاجيات هدايا لشيوخ القبائل مثل العباءات والاحذية الطويلة والتبغ والسكر ، لكي يسن علينا هؤلاء بحسن الضيافة وهذه الهدايا لا يمكن اعتبارها ثمنا لما سيقدم لنا من خدمات، ولكنها جزء من أساليب المجاملة المعتمدة في البادية • وان قيمة الهدية يجب أن نقدر حسب مرتبة المهدي والمهدى اليه ؛ وهذا يتطلب منا اللباقة في معرفة من يستحق التكريم ، واختيار الهدية المناسبة • فأطوال قليلة أو كثيرة من المطرزات يمكن أن تؤثر في تقدير أهميتك كزائر عند الشيخ الذي نود التلطف بين يديه أو مع جيرانه الذين لا نستطيع الاساءة اليهم • فالاحذية الطويلة على سبيل المثال ليستذات أهمية ولكنها يمكن أن تقدم للخدم ، بينما التبغ والسكر من الهدايا المحببة التي نستعطف بها حاشية الشيخ وحرمه ، والنساء الثرثارات في خيامه ••• وأخيرا علي طي الصحائف التي أسطرها لنستمتع بالايام الاخيرة التي نقضيها في حلب •

في صباح الثلاثين من كانون الاول دخل الحديقة سيد أحمد وابن أخيه جمعه مع بدوي صغير رث الهيئة يرتدي عباءة بالية ويمتطي فرسا وضيعة ، انه من العنزة من قبيلة القمصة أرسله شيخهم ابن مرشد مزودا برسالة وبالتحيات الشفوية وليبلغنا رغبته في أن نشرفه بزيارة • جاء الرجل من البشري[1] مسرعا بعد أن سمع أننا نعد العدة لزيارة العنزة ، ممضيا عشرة أيام في الطريق •

(١) البشري جبل شمال غرب دير الزور .

فبدا لنا أن البدو يملكون مصادر موثوقة لتلقي الاخبار ، فلم تكن قد مضت أكثر من ثلاثة أسابيع على قرارنا القيام بالرحلة ، وأسبوعين على علم سيد أحمد بها أول مرة . جاء البدوي ــ بالاضافة الى الرسالة ــ بأخبار هامة وجدية تقول : ان الرولة على أبواب الحرب مع باقي العنزة ، ويقدر أن الحرب قد بدأت غنموا بعض الابل من السبعة ، والسبعة قبيلة موسرة مسالمة، ولكن دفعتها الى الحرب خسارة خمسة من رجالها أسرى عند الرولة اثر غارة شنت عليهم . وخلافا لأعراف البادية قام الرولة بقطع رؤوسهم علامة للانتصار[1] ، وهو أمر مستهجن لم تعرفه أجيال البدو منذ سنوات وخوفا من الانتقام هربت قبيلة الرولة الى براري حمص واضعة نفسها تحت حماية يوسف باشا الحاكم التركي للمنطقة . سعد الباشا بما حدث وقام بتعيين ابن شعلان شيخا على الرولة مضفيا عليه ثوب الشرف ولقب أمير البادية ، وأرسل له فرقة من الجنود لمساعدته ، فتقدمت هذه المجموعة التي نوت على الشر باتجاه السبعة الذين انسحبوا أمامهم طالبين النجدة من جدعان ابن مهيد فوفرها لهم على جناح السرعة ، وانقلب الموقف لصالح السبعة والفدعان ، فدحروا الرولة الذين أخذوا يفرون أمامهم وأسروا عشرين من رجالهم ، فعاجلهم جدعان بالقتل انتقاما وثأرا للرجال القتلى الخمسة من السبعة وعاد الى قرب الدير مخيما هناك بينما فرت الرولة جنوبا باتجاه الحماد .

ان في هذه الاخبار قصة مفجعة ، ولكنها لم تؤثر على استعداداتنا للسفر . لن تنسى الرولة اساءة أبناء عمومتهم من العنزة ، وبالتالي فهي لن تذهب معهم الى جبل شمر في الجنوب هذا العام .

أخذنا زمام المبادرة بأيدينا . فكل القبائل تعيش دوامة المشاكل . ومن

---

(١) لم تكن هذه الاخبار صحيحة .

المحتمل أن تعجل العنزة في رحلتها نحو الجنوب ، وجدعان يتلهف لأية مساعدة يمكن أن يقدمها لشخص قوي يحالفه مثل السيد « سكين » • وعلينا أن نبدأ في الحال اذا ما رغبنا اللحاق بالقبائل الراحلة •

أرسل ولفرد في طلب الحاج محمود ، وعرض عليه أن يحملنا الى الدير فوافق الاخير أن يأخذنا مع خمسة بغال لحمل الامتعة ، وقررنا الانطلاق يوم الاربعـــاء •

في الثالث من كانون الثاني عام ١٨٧٨ وصلتنا أخبار مثيرة من الدير تقول : ان قبيلة الرولة المندحرة أرسلت الى ابن صفوق زعيم قبيلة شمر طالبة النجدة والمساعدة فأرسل لهم نجدات هامة بقيادة ابن أخيه وابن عمه سميّر[١]. وعندما شاهد سمير الرولة في الحماد ذهب الى جبل شمر لطلب المساعدة من محمد ابن رشيد فانضمت اليهم شمر بقيادة ابن رشيد واخذوا يزحفون مـــع الرولة لمهاجمة جدعان وبقية العنزة في الشمال • انسحب جدعان من البشري، واتخذ من عين عيسى موقعا دفاعيا حصينا تجاوره وتحالفه قبيلة الولدة[٢] في تلك المنطقة ، مما ساعده على الدفاع عن نفسه : الهضاب الممتدة على جانب نصف الطريق المؤدي من تدمر الى دير الزور ، مؤمنة طريق الامداد القادم اليه من حلب • ولهذا السبب تعثرت خططنا للوصول الى جبل شمر ، وخامرنا الشك في جدوى ما نعد له • أخذ ولفرد يضرب أخماسا بأسداس ويقول : لعل فرصتنا الوحيدة تكمن بالانضمام الى جدعان حالا لنساعده في حربه مع ابن رشيد ، واذا ما انتصر فسنذهب معه الى الجنوب وهو يطارد شمر ، الا أن هذا يعتمد على فرص نجاح جدعان في الحرب • فمحمد ابن رشيد يملك المدافع

---

(١) هو سمير بن زيدان آل الجربا •
(٢) الولدة من قبيلة « البوشعبان » الزبيدية •

بينما لا يملك جدعان شيئا منها • ودرسنا خطة أخرى فكرنا بموجبها الانضمام للرولة وعن طريقهم نصادق ابن رشيد ونعود معه الى الجنوب ، واستبعدناها. لأن عواطفنا كانت مع السبعة وتقديرنا لهم منعنا من الانحياز ضدهم في مثل هذه الازمات الخطيرة ، يضاف الى ذلك كله : الصداقة والعلاقات الطيبة التي متنها السيد « سكين » مع الطرفين المتحاربين ، وبتقديري أن ذلك لا يمنعنا من الانضمام الى جدعان • فالمسافة بعيدة بين ساحة الميدان وجبل شمر • ولا يستطيع محمد ابن رشيد أن يكون سيد الموقف مهما عظمت قوته •

يبلغ الجمع المحارب عند الرولة حوالي عشرين ألف مقاتل • ولكن يمكن للسبعة أن يدفعوا الى الميدان ضعف ذلك العدد ، وعندها سيصبح متعذرا على بنادق الفتيل عند ابن رشيد أن تجعل القوى بينهما متكافئة • ويمتلك جدعان سمعة طيبة في الحرب وفن القيادة وهو يقاتل فوق أرضه ، ونأمل أن ينتصر في حربه • واذا ما وقعت الحرب ونحن مع العنزة فان ولفرد بكل تأكيد سيشارك فيها ، ولم يكن في نيته استخدام السلاح الا في حال الدفاع عن النفس ، وعليه أن يبقي سلاحه جاهزا للاستعمال ، لذلك أمضينا الصباح ونحن نصب الرصاص للمسدس ونضع « الخرتوش » • وفي هذا الوقت يحضرني قول « كانون ترسترام » عندما وضعت الرصاص في بنادق الصيد ، تضرعت الى الله بأن لا يراق الدم •

في الرابع من كانون الثاني عاد سيد أحمد ثانية ليؤكد الاخبار الحربية التي جاءت من الدير ، وأخذ كل منا يتكهن بما يحلو له ، فمن قائل : ان جدعان سيهزم لا محالة وقد يجبر على الاستسلام ولكنه يستطيع التراجع بانتظام الى عين عيسى أو الى البشري ، وحتى في هذه الحالة نجده مهددا بعبور ابن صنوق للفرات يقود قبيلة شمر لتمزيقه ، واذا ما نجحوا في ذلك فسيجد نفسه معزولا عن الموالي وحلفائه الذين لا يزالون في أقصى الشمال •

توقع ولفرد خوف الفدعان وحلفاءهم من المدافع التي يملكها ابن رشيد، ولكنه يظن أن تلك المدافع تعتبر من المدافع البالية وفي حالة يرثى لها ، وقد لا يستعمل منها في الميدان أكثر من اثنين ، وعلى الرغم من كثرة التوقعات نجد الاكثرية تقول ان جدعان هو الخاسر في هذه الحرب .

انها أكبر حالة حرب تشهدها البوادي العربية منذ أن طردت العنزة قبيلة شمر قبل مئتي عام ، واذا استسلم فيها جدعان فستنكب الفدعان والسبعة معا، وهم أكثر القبائل تسدنا على الرغم من قدراتهم الحربية الكبيرة ، ان قوانين الحرب ستعطي المنتصر حق امتلاك كل شيء من الامهار والجمال والغنم والخيام ، وحتى القدور وأدوات الطبخ ، وسيكون لزاما على هذه القبائل أن تستجدي الصدقة من بني صخر ومن روافدهم من القبائل الصغيرة كالولدة والعقيدات[1] . وبسبب هذه المعلومات عقدنا مجلس حرب حضره مرافقنا سيد أحمد الذي وافق على اصطحابنا الى الدير ، وبسط أمامنا خريطة أحداث البادية ، وقال ان الدنيا قائمة قاعدة والاوضاع قلبت رأسا على عقب ، ومن الافضل التريث حتى ينجلي الموقف ، ولكن أترك القرار النهائي للبيك الذي أخدمه ، وعندما يقول كلمته فاننا رهن الاشارة لامتطاء الخيل .

كان ولفرد أكثرنا حماسا للسفر الى الدير حالا ، لنكون على مقربة من مسرح الاحداث ولنتمكن من رؤية أشياء جديدة ولنتصرف حسب مقتضيات الظروف ، وهي بالنسبة له نكرة رائعة ، لأن فيها فرصته الذهبية لشراء الخيول، والخيول المأسورة تنتقل عادة من يد لأخرى ، ومن المحتمل أن المزيد منها سيباع في السوق . أما بالنسبة لي فأنا آمل أن يكون جدعان ندا لأعدائه ، ولكني لا أرغب أن ألتقي معه في مثل هذه الظروف .

---

(1) الولدة من « البوشعبان » في الرقة . والعقيدات : هم من القبائل التي تنتسب الى قبيلة زبيد اليمنية .

في الخامس من كانون الثاني وصلنا نبأ عاجل جديد عن مسبب الحرب في البادية ـ تلك الحرب التي شغلتنا كثيرا عن الحرب الدائرة في بلغاريا وأرمينيا ـ انه مشهور[1] فتى القمصة الشاب من قبيلة السبعة ، وهو الذي أرسل لنا دعوة لزيارته منذ أيام . فالنزاع متواصل بين السبعة والروله ، وكلا الطرفين من العنزة الا أنهما غريمان قديمان ، وسبب ذلك الحكومة التركية ـ التي تدعم الرولة ضد السبعة ـ كانت قد دعت الطرفين للاجتماع من أجل البحث عن تسوية ، فدعى سطام ابن شعلان[2] عن الرولة ومشهور عن القمصة، وخلافا للعادة جاء سطام بصحبة بعض الضباط الاتراك مما أغضب مشهورا فتشاجر مع ابن شعلان ، وطعنه برمحه ...

جاء بتلك المعلومات محمد علي ـ المرافق القديم للقنصل ـ صاحب الخبرة الطويلة بالبادية غير أنه لا يؤكد صحتها ، ولم يصدق قصة قطع رؤوس الاسرى مطلقا لأن ذلك يخالف العادات وعرف البادية .

أثارت هذه الانباء مخاوف الحاج محمود ، فتنصل من تعهده بالذهاب معنا الى الدير ، الا في حال مضاعفة الاجر العادي لأنه يضع في الحسبان أن نصادف حملة من بدو شمر وهي في طريقها لمناصرة الرولة ، ولأن السيد سكين لا يستطيع حمايتنا من شمر لأنه من أصدقاء جدعان وعلاقاته سيئة مع قبيلة شمر . أمام هذه المستجدات طلبنا حماية الباشا الذي كان يرسل الفرق العسكرية لحماية الدير من خطر السلب الذي يتهدده من هذه القبيلة أو تلك .

قدمنا هذا الطلب على مضض لأنه سيفقدنا الاستقلال وحرية الحركة الا أن جهلنا بالمنطقة جعلنا نفضل السلامة والأمن مع الحماية . وهكذا مرت

---

(١) مشهور بن مدبغ بن سلاب المرشد .وصنف باسم بشير في بعض المصادر .
(٢) سطام بن احمد بن منيف الشعلان زعيم الرولة في ذلك الوقت .

الايام الاخيرة من اقامتنا في حلب بين الشكوك والمخاوف وأخبار الحرب وهواجس المخاطرة وكم كانت العواقب التي أثارت مخاوفنا تافهة ! ولكن بعد فوات الاوان . قبل أن أضع اللمسات الاخيرة على هذا الفصل سأوضح حقيقة النزاع في البادية الذي سمعنا عنه الكثير ودوناه دون أن نمحص حقيقته ، ولهذا بذلنا مجهودا اضافيا للوصول الى الحقائق التالية :

طيلة حكم الاتراك لسورية ساروا على مبدأ ثابت يتم بموجبه ابقاء القبائل البدوية مشغولة في حروب متواصلة ، وبهذه الطريقة تكون الحكومة آمنة من خطر التحرش والتهديد المتمثل في قوة هذه القبائل غير المستقرة . وفي ذلك ضمان لعزل مقاطعات المدن عن البادية . ولعل من أصول اللعبة عند الباشوات التخلص من الخصوم السياسيين بهدوء وبأية وسيلة كانت حتى وان كانت هذه الوسيلة غير أخلاقية . فأنا ملزمة أن أقولها علانية : انهم يطبقون مبدأ الغاية تبرر الواسطة ، وعلى سبيل المثال أذكر : منذ سنتين دعا حاكم الدير سليمان ابن مرشد[1] ــ شيخ أكبر فرقة من فرق السبعة ــ الى مأدبة عشاء كبيرة دعي اليها وجهاء المدينة ، فقام الباشا بحسن ضيافة الشيخ وأكرمه وحمله بالهدايا الى قومه ، وعندما رجع الشيخ مات فجأة في البادية ، فصعق أتباعه لهول الصدمة وحملوا الوالي مسؤولية موته ، وعزوا ذلك الى فنجان مسموم من القهوة تناوله الشيخ من يده دون أن ينتبه ، وهو الحادث الذي سبب توتر العلاقات بين السبعة والسلطات التركية ، وأحدث تعقيدات وجروحا لا تندمل بسهولة ، غير أن السبعة يملكون حقا رسميا للرعي في براري حمص وحماه مثلما يملك الرولة حقا للرعي في براري دمشق .

كثرت الجمال والماشية عند الرولة بسبب مواسم الربيع المتلاحقة وكثرت المواليد ، فضاقت المراعي وأخذوا يبحثون عن مراع اضافية ، فأراد استغلال

(١) هو سليمان بن سلاب المرشد جد الشيخ راكان المرشد .

الخلاف القائم بين قوم ابن مرشد وبين الاتراك ، انها نقطة الضعف عند البدو على الرغم من استقلالهم التام عن الحكومة خلال جزء كبير من السنة • فهم مضطرون في الربيع للبحث عن أسواق لتصريف الجمال الصغيرة والخيول والصوف في هذه المدينة أو تلك ، وليتاجروا بالفائض من الذرة والتمر والقهوة والتبغ والثياب ، ولهذا فهم يرغبون برضاء الباشا وكسب مودته ، ويدفعون له مبلغا معينا من المال سنويا لقاء الحصول على الامتيازات التجارية • وحاجة البدو هذه تعطي الباشا فرصة الايقاع بينهم وتدبير التآمر • فالسبعة تدفع للباشا مبلغا ثابتا لقاء امتياز الرعي قرب حمص وحماة ، الا أن سطام ابن شعلان أفسد عليهم هذا الحق هذا العام فجاء وعرض على الحكومة ضعف المبلغ الذي تدفعه السبعة مع هدية من المهار الأصيلة لوالي حماه ليدعم طلبه في امتلاك المراعي بدلا من السبعة • وعندما عادت السبعة من نجعتها الجنوبية وجدت الرولة تحتل المراعي ولم تتراجع فقام الرولة بمساعدة فرقة من المشاة الاتراك بالهجوم على مضارب القمصة والموالي ، فأخذوا خيامهم وابلهم وطردوهم الى جنوب البادية ، الا أن القمصة استنجدوا بعقيدهم الجديد جدعان ابن مهيد ــ الزعيم العسكري المحارب ــ واستنفروا كامل قواهم ؛ وقلبوها على رؤوس الرولة الذين خذلتهم الحكومة التركية التي حصلت على كل ما أرادت وتركتهم يقاتلون وحدهم •

انتصر جدعان على الرولة في معركة حاسمة قرب الجبول ، واستولى على كثير من الخيل وقتل أكثر من خمسين من الرجال وهو عدد كبير بالنسبة لمعركة بين البدو وأجبر الرولة على التقهقر بفوضى الى مراعيهم القديسة قرب دمشق • وأمام هذا الموقف الصعب طلب الرولة من فرحان[1] شيخ قبيلة شمر

(١) فرحان بن صفوق آل الجربا من شيوخ شمر الشمال .

ومن ابن رشيد،إرسال الشيخ فرحان ابن عمه الشيخ سمير في مهمة دبلوماسية الى حائل ليفاوض أبناء عمومته في جبل شمر في أمر نجدة الرولة الا أن ابن رشيد لم تعجبه فكرة سحب مدفعيته الى مسافة خمسمائة ميل عبر البادية ليساعد الرولة وشمر الشمال ، وهكذا فشلت مهمة سمير وتركت الرولة تحت رحمة أعدائها ، فانسحبت الى ديارها القديمة لتقضي الشتاء في وادي السرحان تاركة جدعان مع السبعة يجنون ثمار النصر عند جبل البشري ، ويطاردون فلولهم حتى في الحماد • وغادرنا حلب وأخبار جدعان تصلنا من البشري •

أخشى أن أكون قد أطلت الوصف الا أنه من الضروريات لفهم أبعاد اللعبة في البادية التي كانت قد شغلتنا طوال فصل الشتاء ، وهكذا أكون قد حددت أسماء الممثلين الهامين على مسرح السياسة البدوية ، وآمل في المستقبل أن أجعل القضايا أكثر جاذبية ومتعة •



الفصـــل السادس

لا يحق للممتطي صهوات الخيل الآسيوية المدللــة غــير الاصيلة والتي لا يمكنها السير اكثر من ثلاثين ميلا في اليوم ..
لا يحق له ان يتطاول بها على خيل القياصرة او خيل اكلة لحوم البشر ولا حتى على حصان طرواده .
شكسبير

غادرنا حلب ــ تجوال في الظلام ــ قرية عربية ــ الصحراء ــ نحــن والفرات ــ الدرك أو الضابطية ــ منفى كئيب وطبق من الدراج ــ عسكرنا في العراء قرب النهر .

التاسع من كانون الثاني عام ١٨٧٨ كان يوم الانطلاق . ان السفر لكبار السن أمثالنا يضني ويتعب ، ولذلك كان من الحكمة السير في الايام الاولى بتمهل ، ولهذا اخترنا الجبول المرحلة الاولى من الرحلة على بعد خمسة عشر ميلا من حلب ، وعملنا على اعداد لوازمنا وكل ما نحتاجه للسفر قبل حلــول الظلام ، ورتبنا الامور مع سيد أحمد ليأخذنا الى بيت قريب له في الجبول ، وتوقعنا أن نجد في بيته المأوى والطعام في الليلة الاولى من الرحلة ، الا أن كل شيء جاء مخيبا للامال عندما وصلنا الى هناك . نهض ولفرد كالعادة على صياح الديكة عند الفجر ، فأخرج الحقائب الى ساحة الدار قبل شروق الشمس دون انتظار بقية التحضيرات ، الا أن الساعة شارفت على التاسعة والنصف ، ولــم تصل حيوانات النقل بعد ، بينما سارت التحضيرات قــدما من جانبنا أمــا استعدادات دار الحكومة فلم تكن على مستوى المسؤولية ، وفوجئنا برسولهم يسأل فيما اذا كنا لا نزال نرغب بالسفر في هذا اليوم ، لأن حرس المواكبة الذين وافقنا على اصطحابهم معنا كانوا في تردد وحيرة ، ولأن القنصل كان في مهمة

تجاربة عليه أن يقوم بها قبل مغادرته القنصلية • ومهره الذي اشتراه ليقاسم حصانه « الكريمي » واجبات السفر ، وجـده يعاني من تقرحات في ظهره ، بالاضافة الى أن سيد أحمد لم يطل علينا بعد ورأينا أنه من الحكمة عـدم الانتظار لمدة أطول ، لأن وقتنا قد ذهب سدى ، وعلينا أن نتناول طعام النطور قبل متابعة تطورات الرحلة •

حان وقت الضحى ووصول أربعـة من الدرك برفقـة رقيب يمثلون ــ كما علمنا ــ مجموعة حماية قوامهاخمسون من الرجال أمرهم الباشا بمرافقتنا، ولم نطلب مثل هذا العدد ، فلو كانوا أقل من ذلك لكنا أسعد حظا لأن الدرك رفاق درب لا تميل اليهم النفس ويفتقرون الى اللطافة ، الا أن مظهرهم شيء يتعلق بالطبيعة الشخصية • فالرقيب سليمان آغـا رجل تركي عريض المنكبين قوي البنية أسمر اللون ارتدى حلـة بنية ووضع فوق رأسه غطاء موشحـا بالسواد ولف جسمه بعباءة عسكرية غير رسمية وبدت الرجال من حوله بهيئة لا يمكن تمييزها عن هيئة أهل الريف لأول وهلة الا من خلال غطاء الرأس الخاص بهم ، الا أنهم جاؤوا بروح مرحة وربما سيكونون أفضل عند التعارف •

في تمام الساعة الواحدة والنصف أسرجت الخيل ، وقمنا بمراسيم الوداع الاخير ، وركبنا في كوكبة من الفرسان يتبعها خدم القنصلية وهم يتصايحون ويقبلون ركائب القنصل داعين اه بالسلامة ، وأخذنا نغذ السير بعيدا عن حلب، ولم تبق أمامنا سوى أربع ساعات قبل أن تغيب الشمس ويخيم الظـلام • ولا نظن بأننا سنصل مكاننا المحدد قبل حلول الظلام ، وفي طريقنا هذا تفقدنا سيد أحمد فلم نجده في الركب ولم يرسل من يمثله ، وساورتنا الشكوك بنجاح الرحلة فأين نحط رحلنا هذه الليلة ؟ واللقاء لم يكن في الجبول بالضبط • على كل حال سررنا لمغادرة حلب ، وتتمنى أن لا نجد في طريقنا مزيدا من العثرات • شعرنا ببرودة في الطقس لم نكن نجدها في الصباح ، لأن الريـاح كانت تهب في وجوهنا ونحن نشق طريقنا عبر الهضاب المقفرة باتجاه الجنوب الشرقي • وبدت السماء بلون فضي وكأن الثلج على وشك السقوط ، وما أشبه هـذا

الطريق بالطريق الذي قطعناه من اسكندرون الى حلب تماما بصخوره ووحوله، واقترحت على رفاقي أن نعدو بخيلنا عندما نصبح خارج المدينة طلبا للدفء ولنعوض ما فاتنا من ساعات الصباح ولكن فوجئنا بتخلف جواد القنصل عن الركب ، ولا نستطيع تركه في المؤخرة ، ولهذا علينا التحلي بالصبر ونحن نسير فوق الارض الزراعية طوال هذا اليوم ، وربما نكون فوق أرض البادية في وقت قريب •

اننا نمر بمواقع وقرى قديمة تتناثر هنا وهناك ، وربما كانت خرائب لمدن طواها النسيان • وعند الغروب طالعتنا بحيرة الملح في الجبول فهبطنا فورا من الارياف العلوية الى السهل الذي استحال الى مستنقع بسبب الامطار التـي تعرضنا لها ، فتخبطنا فيه ساعة من الزمن أو ساعتين • تعثر جواد القنصل وجثا على ركبتيه أكثر من مرة في الطريق ، انه حدث لا يسر الراكب لأن الماء يكاد أن يجمد • قررنا أن نمضي الليل في العراء لولا أن سمعنا عـواء الكلاب ، ورؤيتنا لبصيص من النور عرفنا أنه لا بد وأن يكون منبعثا من قرية مأهولة بالسكان ، انها لم تكن الجبول ولم نصل الى مصدر الضوء الا بعد أن تخبطنا في مستنقع غاصت فيه أقدام الخيل الى الركب • وليس من الاصول أن تركب جوادا الى قرية عربية لتطرقها ليلا ، خشية التعثر بالجدران التي بنيت حولها كأقراص العسل ، وخطر السقوط بحفر خزن الذرة • وكم من مرة وجـدت نفسي على بعد خطوات منها • ولكن يبدو أن الخيل ترى في الظلام ، وأخذنا بالمثل العربي الذي يقول : ان كنت تسير في الظلام فاترك جوادك يشق طريقه بعنان مُرخ •

لم تكن القرية هي الجبول التي نقصدها ، الا أننا استعنا بسكانها لمعرفة الطريق الصحيح وما ان أمضينا في الطريق الجديد نصف ساعة حتى سمعنا حصانا يعدو نحونا فارتحنا لذلك ، وسرعان ما تبين لنا بأنه رجل استطلاع كان قد أرسله مضيفنا القلق ليدلنا على الطريق المؤدي الى بيته •

كانت ديار الهنادي قذرة كما هو الحال بالنسبة للعرب الذين يقيمون في

مكان ثابت • فالخيمة غير مريحة وبدون أبواب ولا نوافذ ولا أرضية مناسبة؛ كانت الخيمة ثابتة ولهذا نجدها وسخة لا تليق بأحد • ولا عجب أن يكون البدو يرفضون استبدال البيوت الثابتة ببيوت الظعن والترحال •

أدخلنا مضيفنا الى غرفة صغيرة مساحتها ثمانية أقدام مربعة ، علق على بابها كيس وسخ ليصد عنا هبوب الريح ، وطرحت في احدى زواياهـا بعض الوسائد الوسخة وفي هذا المكان وضعنا أمتعتنا الموحلة لنمضي ليلة تعيسة قررنا أن تكون الاخيرة تحت هذا السقف مهما كانت برودة الجو الخارجي • ويتعذر مضيفنا عيسى لأنه لم يتلق اشعارا بوصولنا حتى جاءته الامتعة ، ولم يتسن له أن يقيم على شرفنا وليمة ولذلك تلمسنا ما بجعبتنا من طعام فلم نجد سوى أطراف ديك رومي باردة كانت قد قدمتها لنا زوجة القنصل لمثل هـذه الظروف الطارئة التي قد تتعرض لها في الطريق فالتهمناها في الظلام وتابعنـا ملاحظة ما يدور حولنا ، فها هي فتاة في الخامسة عشرة مـن عمرها ــ أخت لزوجة عيسى ــ تنطلق لتحلب الشياه في ساحة الدار على بعد مائة ياردة منا انطلقت وهي في حالة فزع شديد من الذئاب التي يدفعها البرد القارص لمهاجمة القرى ••• وعلمنا أن واحدا منها هاجم الحظيرة نفسها ظهر هذا اليوم •

ان مؤسس الدار التي تنام فيها هو الشيخ بطران الهنادي والد عيسى الذي جاء مطرودا مع قومه من مصر قبل عهد محمد علي باشا •

يتمتع الشيخ بطران بشجاعة فائقة ، ويؤخذ عليه البطش والقسوة • ففي احدى المرات وكل بثلاثين سجينا من قبيلة شمر[1] ، وفي الطريق قطع رؤوسهم وألقى بهم في كهف قريب من هناك • توفي بطران وترك عيسى طفلا صغيرا لا يصلح أن يأخذ مكان والده فحل فيه عمه سيد أحمد •• تجاذبنا أطراف الحديث مع عيسى وسألناه كيف يمكن لمثله من البدو أن يقنع بعيش فلاح ؟ فأجاب بأن الفلاحة تدر عليه مالا مناسبا وأن غناه يزداد يوما بعد يوم•والهنادي مصريون أولا وأخيرا ولا يمكن أن نعتبرهم من البدو الحقيقيين • ولو عرض

---

(١) لانه قد أسندت اليه مهام امنية في عهد العثمانيين •

عيشهم على أي رجل من العنزة فلن يوافق على مثل هذا الواقع الذي يعيشون فيه • قطع الحديث بسؤال وجهه القنصل له قائلا : يا عيسى ما هي أخبار أحمد ؟ وماذا حل به ؟ فلم يجب بشيء فأردف القنصل القول : عرفت سيد أحمد منذ عشرين عاما ، رجلا يحفظ العهد ويبر بالوعد أخشى أن يكون غيابه لعارض طارىء صادفـــه •

في العاشر من كانون الثاني بدت الجبول في النهار أقل اثارة كما هي حالتها في الليل • انها من القرى التي تحف بالبادية وحالتها في منتهى البؤس والقذارة، والحياة فيها لا تطاق وهي في هذا الواقع المرير • فحياة الرعي لا يمكن أن تكون ممتعة بدون الترحال والتنقل والحياة البدوية الخالصة • ان العرب حتى بعد استقرارهم لا يمكن لهم أن يستغنوا عن تربية الماشية والرعي المستمر من الارض المحيطة بالقرى يجعل القطعان تعيث فيها الفساد وتحيلها الى براري قاحلة تاركة الاقذار في كل مكان • فحظيرة ثابتة للغنم تجدها منتنة في الجو الماطر تنبعث منها الروائح الكريهة وكأنها حظيرة للخنازير • عرفنا كل هذا في الصباح ، ولم يكن من الصعب علينا أن ندرك لماذا يشعر البدوي بالاحتقار لزملائه الذين يتحولون الى فلاحين •

ان عدم الارتياح الذي انتابنا البارحة جعلنا ننطلق باكرا ، وما ان قطعنا عدة أميال حتى أصبحنا بمتناول البادية ، فارتفعت معنويات رجالنا ونحن نقطع ممرا عبر سهل ممتد باتجاه هضبة مخروطية حجبت عنا نور الشمس ، لكننا تجاوزناها وتركناها خلف ظهورنا لنصبح بعيدا عن القرية التي أفسدها الفقر ، فبدت الارض أمامنا أكثر اشراقا وجمالا واختفت الحجارة السائبة من الطريق، وسرنا في أرض عشبية خفيفة لا شيء ينقص من تناسقها سوى خطوط عرضية من كومات الخلد المتطاولة المنتظمة ، وكأنها بنيت آليا بطريقة هندسية تمتد في بعض الاحيان الى مائة ياردة • وهنا وهناك نصادف حفر اليرابيع ، وما عـدا ذلك فالارض سهلية تكاد تصلح لسباق الخيل •

واصلنا السير فوصلنا الى سفح تلة فوجدنا عندها الخيام والمضارب المهلهلة ، ولكنها بدت أنيقة بالنسبة للبيوت التي تركناها في الصباح ، انهـا مضارب الهنادي أهل سيد أحمد وبجوارها قطعان من الغنم كل مع راعيه ، وذلك بمنظر مبهج جعلنا نندم لأننا لم نحث الخطا بالامس لنصل الى هذا المكان .

ركبت وولفرد الى قمة التلة لنتمتع بمشهد بساط أخضر في سهل منبسط فسيح على مد البصر . انه المكان الذي قاد فيه جدعان معركته الاخيرة مـع الرولة ، حتى ان هاجرا ــ فرس ولفرد ــ أخذت تتذكر المكان وأصابها الفزع والانهاك عندما اقتربنا من المكان ، فلعلها من الخيل التي شاركت في هـذه المعركة وصالت فيها وجالت ... وربما يكون ذلك من قبيل المصادفة ولكن ذلك وضعنا في الجو الرهيب للمعركة . علما بأن هذا التل يدعى تل خشاف[1] . وعلى بعد عشرة أميال بدت لنا تلة أخرى جعلناها نقطة علام ، ورغبنا بالتوجه اليها في المرحلة التاليـة .

تركنا القنصل والدرك لمرافقة الامتعة ، واندفعنا الى الامام بهمة ونشاط لأن كل شيء بدا أمامنا ممتعا وجديدا فاشراقة الصحراء وهواؤها النـدي يدفعان اليوم للمغامرة التي لا ندري فيما اذا كان بالامكان القيام بصحبة مثل هذه المجموعة المملة من الاتراك .

جلسنا عند بعض الرعاة ، وطرحنا عليهم بعض الاسئلة ، فأجابونا بلطف وهم منهمكون بفصل الحملان الوليدة عن أمهاتها ، وتدريبها على الفطام الذي يبدأ من اليوم الاول لولادتها ، وعن ّ عن بعد قطيع ظننا بأنه قطيع من الغزلان أو الحباري ، ولكن سرعان ما عرفنا بأنها طيور الكركي قادمة من البحيرة ، وحامت في الجو غربان الغداف والغربان الرمادية والحدايا والصقور الصغيرة. وتابعنا السير حتى وصلنا الى جدول صغير على أكتافه عشب أخضر جلس عليه بعض الرعاة ، وهنا تركنا خيولنا تعب الماء لأنها لم تذق الماء منذ البارحة .

---

(١) تل خشاف وتل حسن من التلال المميزة على الطريق بين مملحة الجبول ونهر الفرات في الشرق .

بدت لنا هذه البادية أكثر جاذبية ومتعة من كل البوادي التي شاهدناها في مصر أو الجزائر ، فهي منبسطة كما لو كانت قد أعدت للسباق •• كان علينا أن نشاهد مقر الحراسة العسكرية من التلة الثانية أو من هذا المكان . ولكن لم نشاهد أية علامة فانتظرنا حتى جاءت القافلة تتقدم من بعيد •

ستة خيول وبغل لحمل الامتعة بقيادة القاطرجي ـ سائق البغال ـ شقيق الحاج محمود يرافقه الطباخ حنا الحلبي الذي جاء على ظهر حصان صغير كان مطية ولفرد من اسكندرون الى حلب ، مرتديا زيا بدويا فبدا مزهوا متباهيا مقلدا بنش[1] في حركاته ، والاسم المجرد لحنا يوحي بأنه امرأة ولكنه اسم رجل بلغة العرب يقابل اسم جون باللغة الانكليزية •

وقدم محاذيا حنا جورجي خادم القنصل بلباس مشابه للباس حنا على مهر لسيده ، ويقود بجانبه فرس القنصل ذات الظهر المتقرح ، ويتبعهم الرقيب سليمان يقود مجموعة الحراسة على ظهر جواد عربي هجين صبور على قطع المسافات الطويلة وحمل جثته الثقيلة ، وجاء الدرك على خيول متنوعة كان أصغرها عمرا جواد عمره سنتان •• وأخيرا جاء القنصل ليضفي على الموكب جلالا ووقارا بعباءته السوداء الطويلة وحطته الصفراء التي لفها حول قبعته •

سرنا في يمين الطريق كثيرا الا أننا الآن ننعطف نحو الشرق فسرنا حتى الساعة الثالثة من نهار هذا اليوم لنصل بعدها الى أرض وعرة ، استنتجنا من سحنتها أن نهر الفرات العظيم في المكان المجاور ، فكانت الفرحة عارمة بوصولنا اليــه •

أفعم السيد « سكين » الطريق حيوية بحكاياته عن البدو وعن حياتهم وعاداتهم ، ثم قص علينا قصة نجاته من البدو على يد أحمد بك الموالي التي ذكرتها سابقا • وما ان انتهت قصة مغامرة القنصل حتى وجدنا أنفسنا في مغامرة جديدة • فنحن الآن أمام سهل الفرات وأصبح الوادي أمامنا . فهالني المنظر

---

(1) شـخصـية مهرجة انكليزية .

أكثر مما كنت أتوقع وبدت لي صورته الجميلة أكثر مما كنت أتخيل ؛ لأن الحقيقة فاقت كل التوقعات . وجدنا نهر الفرات من الانهار العميقة المجرى وقد حفر سريرا عريضا في البادية ، وترك على جانبيه جروفا غضارية كلسية تتدلى نحوه بانحدار شديد في بعض الجوانب . وفي النقطة التي وصلنا اليها بدت المسافة بيننا وبين النهر خمسة أميال وربما بعمق مائة وخمسين قدما أسفل مستوى الوهاد العلوية والسهول .

تعرج الوادي أمامنا وشكل مرجا مستويا كلل باللون الاخضر الزمردي، وتناثرت فوقه قطعان الاغنام التي قدرت بعشرين قطيعا ، وتعداد القطيع الواحد ألف رأس تقريبا . انها تعود لقبيلة الولدة من القبائل العربية النبيلة المزدهرة في هذه المنطقة ، اذ ترعى الغنم وتتعهد غنم العنزة عندما يهاجرون جنوبا ؛ وقد يشاركون سكان مدينة حلب في تربية هذه الاغنام ويباع الخروف الواحد عندهم بخمسة أو ستة شلنات ، يعرف هذا الجزء من الوادي بأرض الملاح وهو المكان الذي حصل فيه الاصطدام بين جدعان وعصمت باشا . طاردنا نهر الفرات عبر الافق فوجدناه ينعطف جيئة وذهابا في مرج مترامي الاطراف أما جوانب النهر فمغطاة بحزام بني عميق من أشجار الطرفاء التي تنحني بألسنة منبسطة كبيرة ولعل الشبه كبير بين هذا النهر ووادي نهر الدانوب في مدينة بلغراد .

هبطنا أسفل الجرف المحاذي لأرض المسيل ، وهناك مررنا بقبر احد زعماء شمر يدعى عبد العزيز كان قد قتل في هذا المكان في معركة مع العنزة منذ عشر سنوات ... ويرقد الآن تحت الثرى مغيبا بالحجارة . انعطفنا نحو اليمين مواصلين السير في أرض اتصال البادية بسهل النهر لمدة ساعة من الزمن حتى وصلنا الى منعطف نهري قطع الوادي بلطف ليصل الى مكان يصلح لرسو السفن وهو المكان الذي نود أن يكون محطة للسفن التجارية التي نقترح أن تجوب النهر في المستقبل . وبطبيعة الحال ستجد السفن المرسلة من بغداد في الجنوب لاغراض حكومية ،محطة ترتاح فيها في الشمال ، ولن تجد أفضل من هـذه النقطة .

تجولنا في المكان فلم نجد غير حصن صغير يدعى مسكنة وبعض الابنية التي شيدت لحمايته ، وفوجئنا أن هذا المكان لم يكن معلما على الخريطة التي نحملها . لا تزال المنطقة مهجورة بسبب الحرب ، ولذلك تجولنا بين دورها وأكواخها فلم نجد مكانا يصلح أن نقيم بداخله فقررنا النوم في العراء .

في الحادي عشر من كانون الثاني أصيب القنصل بالاعياء لأنه لم يركب حصانا منذ سنوات عدة وقلقنا من أجله ، وحالما وصلنا مسكنه ترجل عن حصانه وتمدد على العشب واستغرق في نوم عميق ، ولم تتمكن من ايقاظه الا في المساء .. أصبح في اليوم التالي بخير فقدرنا معه أن المسافة التي قطعناها في سفرنا المتواصل كانت أربعين ميلا . ومن حسن الحظ أن الليلة كانت دافئة على عكس الايام الماضية . تأخر سائقوا البغال بالوصول ولهذا لم يسمح لنا الوقت بنصب الخيام فأخرجنا السجادات والبطانيات ، ونمنا كما نحن بقليل من الطعام الذي سددنا به الرمق وهو بقايا الديك الرومي وقطع الخبز ، ونمنا ليلة تعيسة حيث التعب والارهاق الا أنها رغم تعاستها كانت أفضل من الليلة التي قضيناها في الجبول . ومن الجدير بالذكر ان النائم في العراء يكون دوما جاهزا للنهوض في الصباح الباكر وقبل شروق الشمس اذا ما كان الجو باردا . نهضنا عند الفجر فوجدنا الخدم يشعلون النار ويغلون الماء لاعداد القهوة ووجدنا نارهم تشتعل في حطب الطرفاء الجيد الاشتعال ، وحطب الطرفاء كثير في الغابات المحاذية للنهر ، وعند شروق الشمس تناولنا طعام الافطار ، وحزمنا الامتعة ، ثم انطلقنا في طريق يمتد على طول الضفة اليمنى للنهر لتأخذنا الآن باتجـاه الشرق .

مررنا بالاطلال الشهيرة لبالس، ونخص منها بالذكر البرج الثماني الطويل المرتفع الذي يمثل فن العمارة الاسلامية المصممة بدقة ، انه يعطي فكرة عن أهمية المنطقة في الازمنة الغابرة . ومررنا بأطلال قلعة أخرى تدعى الدبسي كانت تنتصب على نتوء صخري على شكل جرف تحيط به الوديان العميقة مما يجعلها محصنة ضد الهجمات . انها لسان من الارض يربط الصحراء العليـا

بالنهر أشبهه بمقدمة جسر متحرك كان يقوم في هذا المكان في الماضي البعيد ؛ وعند أقدامها يمر النهر باندفاع قوي يمنع المرور ويحتم على المسافر الصعود الى التلال ثانية • بدا الجرف مطبقا بالكلس والصخور المختلطة ، الا أن الكلس لضعف قساوته شكل الكهوف والتجاويف التي تتدلى فوقها صخور متنوعة • تعتبر هذه الكهوف مأوى للطيور والحيوانات حيث تسكن الثعالب وبنات آوى الكهوف السفلى ، بينما تسكن الصقور وزاغ الزرع والحمام الصخري في الكهوف العليا • وأعتقد بأني قد لاحظت عقاب البونلي[1] يجثم في أحد هذه الكهوف الليلة الماضية على الرغم من أنني لم أجزم بتحديد هويته •

أخذت بنا الطريق الآن فوق برزة صخرية قطعت انحناء النهر لتربط البادية بالنهر مباشرة فهبطنا منها ثانية الى السهل بعد أن تمتعنا بمناظر خلابة شاهدنا فيها من علو مناسب ••• غابات الطرفاء التي تمتد لأميال طويلة يتلوى بينها النهر ليغيب في الافق البعيد ••• وهناك في أسفل السهل تناثرت أكواخ طينية متداعية في منطقة تسمى « أبو هريرة » • وهذه قرية من سلسلة من القرى كانت قد بنيت بأمر من أرسلان باشا الرجل المغامر الذي حاول منذ أربع سنوات اقناع عرب العنزة بالتحول من حياة البداوة الى حياة الاستقرار والفلاحة • وكان عبثا ما فعل لأن الاكواخ لم تسكن مطلقا على الرغم من محاولة الاجبار بالقوة ؛ فالعنزة لا يرضون بحياة الفلاحين • وعند منعطف آخر من منعطفات النهر مررنا بأسراب عديدة من البط والوز والزقزاق في هور سببه الفيضان ، ومعها بضع مئات من طيور الغرة[2] أغرانا هذا الصيد الثمين فانتزع الرقيب سليمان بندقيته دون أن يحررها من محفظتها الجلدية الحمراء واللفافات المحيطة بها ، وانحدر ليطارد الصيد خلسة الا أن طيور الغرة لاتنتظر ساكنة أمام الخطر فطارت بعيدا • تصرف سليمان بحكمة عندما ادخر الطلقات وتوقف عن اطلاق النار ، وتحسر ولفرد لأنه ترك بندقيته مع حنا مغيبة بين

(١) عقاب البونلي : Bonelli's Eagle من فصيلة الصقور ويعتبر من الجوارح المستوطنة في البيئة السورية .

(٢) نوع من دجاج الماء ، يرتاد الفرات خلال فصل الشتاء .

المؤن والحاجات ... وما أن مالت الشمس الى المغيب حتى وصلنا الى مساكن للولدة نصبت على حافة غابة الطرفاء ، وبقربهم عسكر خمسة وعشرون جنديا قد حلوا ضيوفاً على العرب .

طلب منا أن نترجل ونقبل ضيافة قائد المفرزة العسكرية بدلا من ضيافه شيخ قبيلة الولدة الذي توارى عن الانظار بسبب خلاف بينه وبين الضابط .

جلس الضابط على السجاد يحتسي القهوة ، ويقص علينا قصص الوحوش والحيونات البرية التي تكثر في المنطقة ونغزو المساكن المجاورة . كان هذا رجل ككل الاتراك في المنطقة يأسف لوجوده في هذا المكان ، ويندب حظه العاثر الذي جاء به من استنبول منفيا في هذه الديار البعيدة واشتكى من العرب ، ومن الحروق التي أصابت يديه ، وذم المكان على الرغم من جماله الذي لم نشاهد له مثيلا ، وتفجع محزونا لما حل به .

تمركزت فرق عسكرية في هذا المكان ستة أشهر بعد انسحابها من الحرب ، ورحلت تاركة هذا الضابط وجنوده بدون عمل يذكر ولا يملكون أية وسيلة من وسائل التسلية الا التسلية مع النفس ، ولذلك طلب منا أن نقضي الليلة في خيمته بدلا من النوم في العراء الذي يعرضنا لهجمات السباع في الليل. فمنذ أيام افترست بغلا والتهمته في وضح النهار ، كما قامت بخطف طفل من خيمته في المنازل المجاورة . سر الضابط بوجودنا ، وعرف المسافات التي قطعناها والمتاعب التي واجهتنا حتى وصانا الى هذا المكان .. وأخبرنا بأنه كان منعما في بلاد الترف والهناء في تركيا ، وعجب لوجوده بين هؤلاء العرب المساكين ، وأشار اليهم قائلا : لن يحلم هؤلاء التعساء برؤية جمال بلادي .

سألنا الضابط عن الحرب أو بالاحرى عن توقعات السلام . وعندما أخبرناه بأن ذلك وارد الاحتمال أجابنا بصوت حزين : ان شاء الله .. ان شاء الله وأخذ يردد ذلك لمدة ربع ساعة من الزمن . انصرف حنا لبعض شؤونه ، وأخذ ولفرد بندقيته وذهب الى الادغال ليرى فيما اذا كان يستطيع جاب شيء

للعشاء ، لأنه سمع أصوات الطيور الصياحة التي توقع أن تكون من طيور الحجل ؛ فغاب مـدة طويلة حتى الغروب وسمعناه يطلق النار عـدة مرات . فانتابتني موجة من القلق بعد أن سمعت قصة السباع ولم أهدأ حتى رأيتـه عائدا ليخبرنا بأنه تتبع الطيور الى مسافة كبيرة ووجد أنها تصيح مثل طيور التدرج[1] وتطير من أمامه لتحط في الاعشاش دون أن يتمكن من صيد أي منها . وقال : ان الغابة تعج بطيور العقعق وفي مثل هذه الادغال والاجمات يصعب التمييز بين الطيور عندما تختلط ولذلك تتل عقيقا عن طريق الخطأ بدلا من طير آخر ؛ ثم خرج الى مكان مكشوف ليستريح فطارت فوق رأسه مجموعة من دجاج الارض فاصطاد ثلاثا منها . ومن الجدير بالذكر : ان الغابة تعج بنات آوى التي سمعناها تعوي طوال وقت المساء قرب المخيم ، ولكن ولفرد لم يسمع أويرى حيوانا بريا آخر في هذا اليوم .

أقمنا مخيمنا المؤقت تحت شجرة خارج مخيم الجنود الاتراك الذيـن كانوا يتسامرون ويغنون حتى ساعة متأخرة من الليل .. كل هذا مع عواء الكلاب وحنجلة خيل الجنود . كان المساء يمر بهدوء مضطرب غير مريح ، الا أننا كنا في تعب شديد جعلنا نغط في نوم عميق على الرغم من برودة الطقس. أخذنا كل شيء بالحسبان ، ولهذا فرشنا العوازل المشمعة على الارض وطرحنا فوقها السجادة التركية واللحاف القطني المضاعف ، وفوق هذا كلـه وضعنا لحافا محشوا بزغب العندر[2] وسجادة تركمانية يعلوها مشمع آخـر ... وبهذه الطريقة عزلنا جسمينا حتى عن الندى الثقيل .

في الثاني عشر من كانون الثاني كان الصباح مشرقا ، فطالعنا منظر بديع لقلعة جعبر[3] ــ المكان التاريخي العريق ــ ولم نكن نبتعد كثيرا عن المخيم

---

(١) التدرج او طائر الفيزيان .
(٢) نوع من البط .
(٣) قلعة جعبر « جابر » حاصرها عام ١١٤٦ عماد الدين الزنكي حاكم الموصل واغتيل فيها فانسحب منها جيشه وعانت هذه القلعة من حصارات اخرى ذكرت في التاريخ .

حتى شاهدنا زوجا مــن الدراج يستمتعان بأشعــة الشمس خارج الغابــة . فاصطادهما ولفرد بمهارة • ان ذكر الدراج[1] بلا ريب هو واحد من أجمــل الطيور في العالم ، ويعطي شبها لطائر التدرج والحجل الرائع الريش ••• أسود اللون منقط بالابيض وظهره وجناحاه ملونان باللون الخمري ورجلاه حمراوان؛ أما الانثى فنجدها أفتح لوناً وكأنها أنثى من اناث التدرج التي فقدت ذيلهـا والدراج مثل التدرج يستطيع الوقوف فوق الاشجار انها بالتأكيـد الطيور التي سمعها ولفرد تصيح في الليل•اتتشى حنا لرؤية هذه المؤن الكثيرة فوعدتنا أن يقدم لنا هذا المساء طبقا يضاهي أي طبق يقدم في بلرت ــ سافرين[2] •

ويبدو أن الدراج يحقق حلم الشاعر الذي قال :

لوكان للحجل فخذ دجاجة الارض   لكان أفضل طائر كان قد طار

وبالاضافة الى هذه الطيور جلب ولفرد في جعبته بعض الازواج الاخرى من الطيور وثلاث أو أربع حمامات من الحمام البري ؛ واذا ما اجتمعت هــذه الانواع في قدر واحد فنحن اليوم في ترف ونعيم •

(١) الدراج Black Francolin هو من اجمل الطيور الابدة على وادي الفرات وهــو بالفعــل من فصيلــة التدارج أو ما يعرف بالفيزان Phasianidae وبهذا الوصف الجميل أقدر ان الليدي كانت على دراية بمبادىء علم الطيور وعموم صنوف الحيوان . الا أن الدراج الفراتي لا يحط على الاشجار مطلقا ولكن يعيش بين الادغال كالدجاج البري تماما .

(٢) منتجع انكليزي .



مطحنة اسلامية على نهـر الفرات

الفصـل السابـع

تـزار اليـوم السبـاع الجائعـة
بينمـا يعوي الذئب في ضوء القمر

أسود منطقة الفرات ــ صيادو العفادلـة ــ البدوي برهوم ــ قائمقام الرقـة ــ الحمار البري ــ لهـو في غابة الطرفـاء ــ الحصان المـدهش ــ وصولنا الى الديـر •

ركبنا اليوم في طريق ضيقة تحت الجرف محفوفة بالمخاطر بين صخور رخامية وغابة كثيفة من الطرفاء نمت فيها وتشابكت أجمات هائلة من النباتات الشوكية وصريمة الجدي التي تمتد أميالا في عمق الغابة ، وفي مثل هذه الديس والاشجار تعيش الحيوانات البرية المفترسة ، فمنذ سنوات قتل في هذا المكان بدوي اسمه فوزان افترسه أسد ضار • أسود الفرات هي من الاسود البابلية غير الخطيرة ولكن اذا وجد منها من تذوق لحم البشر فسيعتاد هـذه العادة ويهاجم البشر باستمرار تماما كما تفعل النمور الهندية في الشرق ، ومثل هذه الاسود أحدثت الرعب في نفوس العرب ، وما قصة الرجل العنزي الذي أكله الاسد بغريبة عن أذهانهم • كـان فوزان من الخرصة[1] عائدا الى منزله في كوكبة من الفرسان ، فلاحظ وزملاؤه أسدا يتبعهم في الطريق ، وكان فوزان الرجل الوحيد الذي يملك سلاحا ناريا بينما البقية كانوا يتسلحون بالرماح ، وبدافع من التحدي والتظاهر بالشجاعة كر على الاسد وأطلق عليه النار من مسدس كان يحمله فزمجر الاسد واختفى ، تابعت المجموعة طريقها دون أن تسرع أو أن تكترث لعواقب ما حدث ، ولكن بعد نصف ساعة من الحادث حل الظلام وسار الجمع في ممر ضيق في رتل أحادي ، وفجأة سمع الرجال

---

(١) الخرصة من الفدعان والفدعان من العنزة •

صرخة والتفتوا الى الوراء ليجدوا فوزان قد اختفى فأصابهم الهلع ، وتصرفوا بجبن عندما فروا بجيادهم مبتعدين عن الخطر تاركين فوزان يواجه مصيره المحتوم . عادوا في اليوم الثاني ليروا ما حدث فوجدوا بقايا جثة زميلهم على بعد خمسين ياردة من الغابة . سررت لخروجنا من هذا المكان المرعب الى مكان آمن مكشوف . أصبحت ضفة الوادي عريضة ثانية ترامت فيها السهول العشبية وتناثرت فيها شجيرات الطرفاء هنا وهناك ، وفي أماكن أخرى وجدنا مساحات من الارض كانت كما لو حرثت بمحراث ، أو نبشت بواسطة الخنزير البري الذي تخبرنا آثاره في المنطقة عن وجود قطعان كبيرة منه . يحرث فلاحو الفرات الارض بانتظام الا أنهم لا يحبون الخنازير لأنها تعيث الفساد في المزروعات.

شارفت الشمس على المغيب في وقت مررنا فيه ببعض الاثار الاغريقية أو الرومانية التي كانت معلمة على الخريطة بوضوح ، كانت تشبه حمامات زنوبيا ذات القرميد المسطح الاسمنتي وحولها جلاميد حرة من جدار مهدم لا زال حتى اليوم يسمى الحمام . وجدنا قرب الحمام مساكن العفادلة ، والعفادلة قوم شجعان من قبيلة[1] مغمورة اشتهروا في المنطقة باصطياد السباع . كان مخيم العفادلة متميزا ولا يشبه أيا من المخيمات التي مررنا بها في الطريق . ويصعب علينا اعتبار العفادلة من البدو لانهم لا يغادرون ديارهم ويسكنون في منازل ثابتة بين الادغال ، مجاورين النهر في غالب الاحيان ، ولا يملكون الغنم بل يربون البقر العادي وقطعان الجاموس ويعيشون على منتجاتها ، والجاموس ــ كما يقولون ــ لا يخاف الاسد ويمكنه العيش في أكثف غابات الطرفاء دونما خطر يهدده ، يذهب رعاة القطعان الى المرعى متسلحين بالرماح القصيرة والبنادق التي تصيب أهدافها بدقة .

لا يملك العفادلة خياما بدوية ، ولكنهم يبنون الاكواخ من أغصان الطرفاء التي تنسج متشابكة وهي طرية وغضة وتغطي الاكواخ بقطع من الخيام ، وبالاضافة الى هذا المعسكر يوجد معسكران قريبان على بعد مائة ياردة داخل

---

(١) العفادلة من الابي شعبان في محافظة الرقة .

الادغال ، يمكن الوصول اليهما عبر ممرات ودروب شقت بصعوبة ؛ وسيج كـل تجمع سكني بنوع من الجريد والوتل ــ الاغصان المضفورة من القصب والاغصان ــ تتلوى الدروب بين الاكواخ لتشكل متاهة يصعب الدخول اليها أو الخروج منها ، وهكذا تصبح الاكواخ قرية غير منتظمة متصلة بشوارع وأمام كل منها حوالي نصف فدان أو أكثر من الارض التيأزيلت عنها الاشجار٠

ركبنا الى داخل القرى قبل المغيب وبعجلة شديدة لنقتفي أثر الماشيـة التي كانت تخب عائدة للمبيت ٠ وصلنا الى القرية فهرع كل السكان لاستقبالنا وكل واحد منهم يصر على استضافتنا ويعرض علينا النوم داخل كوخه ، الا أن الاكواخ لم تكن مرضية ، وفي الوقت نفسه كانت الفسحات من الارض أمامها مغطاة بأصول الشجيرات المقطوعة ، ولا يمكن النوم فوقهـا الا بصعوبـة بينما خلت الارض من الاعشاب التي تحتاجها الخيول الجائعة ، ولا بد من تأمين الحد الادنى منها على الاقل ، لذلك قرر ولفرد النوم في العراء سواء أكانت هناك أسود أم لم تكن ، فاخترنا مكانا مناسبا لنصب الخيام على تلـة مرتفعة حيث يتوفر بعض العشب وخندق مناسب يفصلنا عن الغابة ، وحالما فرغنا من مهمتنا أخذ ولفرد بندقيته وذهب في نزهة مشيا على الاقدام ، بينما انهمكت مع حنا في اعداد العشاء اللذيذ لهذه الليلة ٠

تعافى السيد « سكين » من وعكته وجلس يستمع الى العفادلة الذين اخبروه عن طريقـة اصطيادهم للاسود : كلمـا سمعوا بوجود أسد ذهبوا لمحاصرته مصطحبين قطيعا من الجاموس،فاذا ما جرحوه أطلقوا عليه الجواميس لتطؤه بأرجلها حتى الموت وممـا يشجع على ذلك المكافأة التـي خصصتها الحكومة التركية ومقدارها ثلاث جنيهات لكل جلد أسد يتم احضاره الى الدير ، وكم من مرة حصل السكان على هذه المكافأة في هذا المكان بالذات ٠ فمنذ أسبوعين قتلوا أسدين في وقت واحد عندما وجدوا بقرة افترسها الاسد

والتهم جزءاً منها ، كمن رجل من أهل السبخة[1] المجاورة للاسد في حفرة قرب جثة البقرة الصريعة مموها المكان بأغصان الشجر ، وجلس ينتظر قدوم الاسد ليلا ، وعند الفجر ذهب الناس لتفقد الرجل فوجدوا الاسد عند الفريسة والرجل مشدوها في حفرته .

أطلق الرماة النار على الاسد وعادوا به ميتا الى حصن صغير كنا قد مررنا به لسلخ جلده والحصول على المكافأة ... وفي اليوم التالي وبينما كان الاسد ممددا في ساحة الحصن سمعت لبوة تزأر خارج المكان محاولة الدخول الا أن الابواب كانت محكمة الاغلاق فأطلقت عليها النيران عدة مرات دون فائدة ، وأخيرا قتلت اللبوة وسلخ جلدها وجلد الاسد . قام ابراهيم الشجاع وطاف بجلد الاسدين على ظهر حماره بين القبائل ليكسب عيشه بهذه العروض المشوقة . كان الاسد من زمرة الاسود البابلية المعروفة التي تخلو من القنزعة ، وبتقديري ان هذا النوع من الاسود يعتبر من الحيوانات النادرة في العالم[2] .

في يوم الاحد الثالث عشر من كانون الثاني طالعنا النهار بضباب كثيف ، ولم تشرق الشمس الا عند الساعة السابعة والنصف ، فأفطرنا من حليب الجاموس الذي قدمه لنا العفادلة ، وغادرنا المكان في تمام الساعة الثامنة .

لحق بنا هذا الصباح الشركسي علي بك المدير الجديد لمنطقة تدمر ، وهو في طريقه لاستلام مهام منصبه الجديد الذي عينه فيه صهره كامل باشا ، فأدركنا على ظهر حصان رمادي جميل من سلالة الصقلاوي الجدراني ، وأخبرنا بأنه قد غادر حلب بعد يومين من انطلاقنا ، وأنه أمضى الليلة البارحة في أكواخ

---

(1) السبخة مدينة صغيرة على الطريق بين الرقة ودير الزور .

(2) قتل ركاب السفينة التجارية الانكليزية التي كانت تبحر في دجلة بين بغداد والبصرة منذ ثلاث سنوات ثلاثة من هذه الاسود ، وعندما جرح احدها نزل الى الماء وحاول الصعود الى ظهر السفينة المبحرة في دجلة في منطقة لا تذكر فيها الادغال .

العفادلة التي مررنا بها • انه المسافر الصادق الوحيد الذي شاهدناه في الطريق لأن وصفه للاكواخ جاء مطابقا لما شاهدناه بالامس •

سرنا قليلا في البادية ومنها لاحت لنا معالم الرقة المكان المأهول بالسكان بعد الجبول التي مررنا بها ، وكنا نتوقع أن تكون الرقة مدينة كبيرة لأنها كانت في الماضي كذلك ، ولكنها اليوم نصف مسكونة ، وتنتصب على الشاطىء المقابل للنهر في المنطقة التي تمتد نحو العراق ولا يمكننا الوصول اليها الا عبر معدية على بعد ميلين من المكان الذي نسير فيه ، ولم نكن نرغب بالعبور ولكن سليمان كان متحمسا ليرينا فرسا أصيلة لها سمعة طيبة في المنطقة ، ولهذا تركنا الخيول مع أحد الدرك وركبنا المعدية الى الطرف الاخر للنهر في مركب غير عريض بدا لنا كسفينة نوح التي شقت نصفين ، طفنا في نهر عرضه ربع ميل، ونبغي الوصول الى بلاج متحدرعلىالشاطىء بهدوء وهو أمر نادر على جوانب النهر • وبوصولنا توقعت أن نمشي باتجاه المدينة سيرا على الاقدام لكن سليمان ــ كونه من الضابطية ــ هيأ لنا فرسا ومهرا وجعلهما في خدمتنا ، الا أن ولفرد فضل السير ماشيا فاصطاد في طريقه عددا لا بأس به من الدراج بينما امتطى القنصلحصان الرقيب سليمانالذي كان قد أحضره معهفيالمركب• مررنا بأرض محروثة وبعرب كانوا من الرجال والنساء في طريقهم الى المعدية • كان الاول حسن الطلعة وسيم التقاطيع بدا بأسنان لماعة ، أما المرأة التي كانت تقود الحمير المحملة بالشجيرات فبدت من بعيد كالشياهم[1] ••• أوقفونا ليسألونا عن أخبار الحرب ، وهل السلطان في حالة نصر ؟ فأجبنا شوية[2] ، فانفجروا بالضحك وتبين لنا بأن التعاطف مفقود نسبيا بين العرب والاتراك وحصل هذا وسليمان كان بعيدا عن السمع والا لبدلنا كلمة شوية بجملة ان شاء الله الطريقة المناسبة للاجابة على أي سؤال طائش •

كانت الرقة مدينة عربية اسلامية ، شيدها كما قيل الخليفة العباسي هارون الرشيد منتجعا صيفيا له • بدت أسوار المدينة ببوابتين من النمط

(١) الشياهم : من الحيوانات الثديية الشائكة الجلد ويسمى الدلول .
(٢) كلمة عامية تعني قليلا .

المراكشي في فن العمارة أي أنها بنيت من القرميد المرتب بطريقة هندسية رائعة على شكل قوس يشبه حدوة الحصان ، الا أنها كانت منهارة عنـد القاعدة . ويبدو أن كل الآثار في المنطقة تتهدم بهذه الطريقة كأشجار نخرت من الجذور . ومن الصعب أن نعرف سبب خرابها.لم نعثر على بيوت داخل الاسوار الا الخيام، واستقبلنا القائمقام بشكل رسمي جدا وقدم لنا الفناجين المعتادة من القهوة مع « نرجيلة » للسيد « سكين » الذي تحدث معه بالتركية . كان الرجل صغير الجسم ويرتدي معطفا دخانيا محشوا فك أزراره وينتعل « خفافة » متسعة ويلبس « بنطلونا » أوربيا ويضع طربوشا فوق رأسه ، وبدا ببشرة جميلـة ولحية بنية وسخة غير مشذبة ويظن به من يشاهده واحدا من الاغبياء البائسين من الاتراك في مثل هذا المكان . ساعده في الحديث مرافق بعنيين لامعتين ــ من المحتمل أن يكون من اليونان ــ قام بشرح ما يعجم عليه من الحديث الذي كان يدور حول السياسة والحرب . وعندما فرغنا من الحديث قادنا خارجا ليرينا الفرس التي كانت قد أهديت لأخته . انها صقلاوية جدرانيـة تعود في أصولها لحصان مشهور رأيناه في حلب ، تبخترت الفرس بلون كميت أشقر ولكن دون حيوية تذكر لأن عراقيبها كانت غير طبيعية . ورغبنا باستبدالهـا بالمعنقية المعطوبة الظهر التي كانت معنا الا أن المفاوضات بهذا الشأن توقفت فجأة عندما وصلت الخيول التي خرجت من المدينة للمرعى تعدو يتقدمها حمار وحشي صغير اصطيد حديثا ليعيش معها ، انه الآن في السنة الاولى من عمره وأليف ، ولكنه يرفس من حوله بعصبية وحنق عندمـا يمس بسوء ، لونـه الى حمرة عليه خط عريض غامق حتى نهاية الظهر ... أذناه قصيرتان ومؤخرته متدلية فوق أرجل دقيقة تشبه أرجل الغزال . اشتكى منه القائمقام لأنه كان يعض أذناب الامهار التي تعيش معه .

سألنا المسؤول التركي عن جدعان والعنزة فلاذ بالصمت ولم يقل لنـا شيئا ، لذلك تمنينا له ولأصدقائه السلامة وودعناهم وافترقنا نريد الطريق الذي جئنا منه ، وبعد أن ركبنا المعدية عدونا بخيلنا طويلا لنجد قافلتنا التي توقفت بانتظارنا في السهل المقابل لمدينة الرقـة .

في الرابع عشر من كانون الثاني خدعتنا فرسنا الذهبية الممتازة هاجر هذا الصباح ، فبعد أن أسرجت تفلتت وعدت راجعة الى بعض الامهار في السهل وتوقفت على بعد نصف ميل لترعى العشب في المكان الذي كنا نعسكر فيـه . كان الصباح مفعما بالحيوية والنشاط ، وأرادت المسكينة تدفئة أوصالها،وعلى الاخص بعد أن تناولت في الليلة الماضية وجبة دسمة من الشعير بدلا من الدخن العادي . فانطلقت مع سليمان لمطاردتها ، ولكنها لم تدعه يقترب منها،وجالت راكضة قبل أن أقنعها بأخذ العنان ، وبذلك نكون قد تأخرنا قليلا عن السير .

سرنا في طريق يكثر فيه الحمام ، فقتلنا منه ثماني حمامات بطلقة واحدة. والحمام يحتاج الى صياد محترف ولا شيء أفضل من صيد الحمام ، ولكـن « ولفرد » لا يملك الطلقات الكافية ليضيعها في مثل هذا اللهو البريء .

أخذ اليوم يمر برتابة لأن مناظر النهر لم تكن مثيرة كما كانت وكنـا مسرورين أن نتوقف في أول بقعة تصادفنا عند الظهيرة ، انها تختلف قليلا عن المكان الذي كنا نرغب باختياره فالجروف علـى حافة الوادي تفسح مجـالا للمنحدرات المتدرجة للمرور باتجـاه النهر وهي مخضرة بعشب في التـلال المجاورة ، وفي منعطفات تلك المنحدرات على طريق صغيرة تتجه نحو النهر وجدنا مساكن السبخة قربها قطعان الحملان في مكان دائري تحجبه التلال عن الريح أشبه بوعاء أخضر من السبانخ ... في هذا المكان توقفنا ونشرنا فرشنا على المنحدرات المريحة جدا . ابتعد ولفرد كالعادة باتجاه النهر الى غابة الطرفاء ورغب في التجوال هناك حتى حلول الظلام ، ولما عاد طلبت منه أن يكتب لي وصفا لغابات الفرات فكتب الآتي : أشجار الطرفاء تنتشر في المكان بارتفاع يماثل نبات جار الماء في انكلترا خصوصا عندما تكون الشجيرات في السنة العاشرة من عمرها عادة عند الساق بحيث يمكنك أن تشق طريقك من خلالها بانحناءة قليلة ، وهناك ممرات صنعها الخنزير البري يسهل تتبعها والسير عليها في الغابة،والارض نظيفة من القمامة والدبال ولا تصدر صوتا عند المشي فوقها . ولكن قد يغوص الماشي فيها بعد أشهر الفيضان لأن مستوى أرض الدغل

تكون في تلك الايام أخفض من مستوى، ماء النهر ، ولا يمكن أن نرى من خلال أكثر من بضعة ياردات أما الاغصان العلوية فنجدها متشابكة كثيفة عشعشت فيها طيور العقعق منذ سنوات طويلة وكلما مررت بها أخذت تنعق وتصيح ، وكلما تقدمت فعليك الحذر وأخذ الحيطة خوفا من الحيوانات المتوحشة التي أخبرنا بها العرب الذين مررنا بهم في الطريق •

كنا في الماضي نسخر من هذه الحكايات ، أما الآن فأية همسة أو فرقعة غصن كافية أن تجعلنا نلتفت الى الخلف بسرعة ونحن نتوقع أن نرى عيني الاسد الهادئتين تحدق بنا من خلال الشجيرة ، ولكننا ننسى الفزع فورا بمجرد سماعنا تغريد الطيور التي لا تبعد عنا أكثر من خمسين ياردة ، وقد نجدها أمامنا على الاشجار بشكل واضح وجلي • فالدراج ما ان يطير حتى يكون على وشك أن يحط على الاشجار ثانية، فنتوقف لنصغي الى صوته المغرد من جديد• وقد يصادفنا طائر غريب لا نتمكن من رؤيته بوضوح فيطير من أيكة كثيفة ليحط في أخرى دون أن نعرفه وحتى قبل أن ينزل الصياد بندقيته عن كتفه • وبينما نركز اهتمامنا بكتلة من الشوك أو صريمة الجدي المتدلية من حولنا • يقفز خنزير مندفعا الى الخارج بسرعة فائقة فتصوب اليه البنادق على عجل لتخطئه فيولي هاربا دون أن نحظى به ، وذلك من حسن الحظ لأن اصابته بجرح تجعله يستدير الى الصياد ليصبح تحت رحمة أنيابه وأرجله ، والطاقة التي تطلق باتجاهه تهيج الدراج فيطير الى أعلى فتعاجله بطلقة خاطفة حالما يرتفع في الجو• كلما تجولنا في الغابة ينتابنا شعور أننا سنصادف شيئا جديدا في كل لحظة • والسير في دروب الخنازير عبر الغابة يوصل فجأة الى النهر الذي ينساب بصمت مسرعا بكتلة كبيرة من الماء الموحل ، وعندما نقف فوق جرفه نجده يرتفع الى أكثر من اثني عشر قدما ، ومن هناك نشاهد طيور الوز ، واذا ما صادفنا ماء راكدا فربما وجدنا أسراب طائر البجع الجميل • وعند حافة النهر نجد السرور من جديد بتصحيح الحسابات الخاطئة عندما ننظر الى السماء المكشوفة فنحن الآن خارج حدود الغابة • غابت الشمس وحان موعد العودة الى الخيام ، وهنا

لا بد من السير في طريق مستقيم تسمع على جوانبه بنات آوى تعوي بشدة ، ومن بعيد عبر النهر يمكننا سماع زئير الاسد ، ولا ندري فقد يكون رغاء البعير في غالب الظن ، وقد نمر في طريق العودة بفسحة قطع العرب الاشجار منها لتستخدم وقودا لنيرانهم فنجلس فيها لنأخذ نفسا ، وفي هذا الوقت تحط على الارض طيور عند أقدامنا واحد يحط بعد الآخر فنظن أنها من طيور البوم، تتقاتل عند الاقدام فنطلق النار لنجدها من دجاج الارض ، ويغرينا هذا أن ننتظر قدوم الآخرين ، ولكن لا نستطيع الانتظار طويلا بسبب حلول الظلام ، والظلام يجعلنا تتعثر في الطريق ، وعندما نسرع فقد يمر بنا ابن آوى خلسة عبر الطريق ، وعندما يتعذر الاهتداء بشيء من حولنا فلا بد من التطلع بقلق الى النار التي يفترض أن الاصدقاء قد أشعلوها في مكان مرتفع لترشدنا ونحن في طريق العودة . طلع القمر فعلمنا على ضوئه الجميل أننا عند أطراف الغابة.. رأيناه يحاذينا وكأنه يريد أن يتركنا وراءه في أرض مكشوفة ... وعلى حين غرة تبلغ القلوب الحناجر لرؤية حيوان أحمر يتحرك بسرعة بين الاشجـــار ، وسرعان ما ندرك أنها بقرة عادت مهرولة من المرعى لترضع عجلها الذي ربط منذ الصباح في البيت ، وعندها ــ كما يقول الرومانسيون ــ تتنفس الصعداء، وتتبعها في الطريق لنصل الى المعسكر ولنفرغ ما في جعبتنا من صيد على تراتيل حنا وتبريكاته .. ما شاء الله ! ما شاء الله !.

في الخامس عشر من كانون الثاني في منتصف الليل أيقظنا قصف الرعود فوق رؤوسنا وصوت الخيول الهائجة التي حاولت التحرر والانطلاق بسرعة، وفي وميض آخر وفرقعة أخرى انطلقت الفرس هاجر لتقف فوقنا ، الا أنهـا ولحسن الحظ لم تصب أحد منا بسوء ، ثم انهمر المطر واعتقدنا بأننا بمنأى عنه ونحن في داخل الفراش ، الا أن سقوط المطر لم يدم طويلا ، والا لبللنا بشكل كامل ولهذا تابعنا النوم حتى الصباح . كان هذا الحادث بمثابة انذار لنا ، وعلينا في المستقبل أن ننصب خيامنا قبل النوم تحسبا للطوارىء لأن الخيام تحمينا من الطل الغزير ناهيك عن المطر .

أفقنا في الصباح على صوت نواح في السبخة لأن رجلا قد مات في الليل وهم يحملونه الآن الى قمة التل لدفنه هناك • سألنا عن عمره فأجابوا أن لحيته لم تشب بعد • كانت رحلتنا في هذا اليوم قصيرة لأننا أمضينا الوقت في مطاردة الاوز الاحمر ، ولكن لم نحصل الا على واحدة منه ، وبينما كنا ننتظر الطائر ليحط على الشاطىء شاهدنا على الضفة الاخرى من النهر ثلاثة خنازير برية ضخمة ، وحالما شاهدتنا اندفعت واختفت في الطرفاء بسرعة •

حان وقت الظهيرة عندما وصلنا الى عدد من الاهوار والخاجان الصغيرة التي غطتها أسراب هائلة من البط والغرة ، وعندما شاهدنا ذلك قررنا التوقف عن السير بقية النهار ••• انشغلنا بنصب الخيام فنهضت خيمتنا ببطانتها الحمراء أولا وبدا النوم بداخلها وكأنه نوع من الترف بعد أن أمضينا بعض الليالي تنام في العراء ، وحسنا ما فعلنا لأن السماء كانت تنذر بحدوث شيء ما، والجو قد تحول الى البرودة •

رجع ولفرد ليستكشف الاهوار وشبه الجزيرة التي تقع خلفها ، فوجدها تعج بالبط ودجاج الارض، فأعجبه المكان ولهذا قرر البقاء فيه يوم غد بكامله• شاهدنا فرسا جميلة عرجاء تجري بعيدا عن الخيام ، وتوقعنا أن تكون من خيول العنزة التي تركت في هذا المكان عند رحيلهم الى الجنوب ، وهم غالبا ما يفعلون ذلك اذا ما عجزت جيادهم عن الرحيل ، فيعطون جزءا من ملكيتها لعرب السبخة أو للولدة أو الى أي من القبائل الصغيرة ومالكها الجديد له الحق بتملك مولودها الاول الذي تضعه في دياره • بدا ذلك المهر كالحصان الصياد الانكليزي ولكن برأس جميل وارتفاع نقدره بخمس عشرة قبضة •

السادس عشر من كانون الثاني كان يوما هادئا جميلا على الرغم من الريح العالية • أمضى ولفرد سحابة يومه بالصيد ، فوصل بحقيبة تحتوي الآتي : تسعة طيور من الدجاج وبطة واحدة وحذافا[1] واحداً وبوشاراً[2] واحداً وحمامة من الورشان وزوجا من رؤوس الذئاب وعددا كبيرا من دجاج الماء ،

---

(١)و(٢) الحذاف والبوشار انواع من البط التي ترتاد الفرات .

وكان باستطاعته أن يصيد المزيد الا أنه كان يمشي ويستطلع أكثر مما كان يصيد • وعلى كل حال سيكون مطبخنا اليوم عامرا بأصناف اللحوم التي ستطبخ بيد حنا الطباخ الممتاز المقتصد في كل المؤن التي نقدمها له فحتى الخبز الذي جلبناه من حلب لا يزال بحوزته مايكفي ويصلح للاكل عندما يحمص • انه من النوع الثخين ويمكن تناوله أكثر من مرة واحدة •• ونسيت أن أقول اننا مررنا بقبرين يعودان للالمان قتل صاحباهما منذ أربع سنوات وهما في طريقهما من بغداد الى حلب على الرغم من أنهما لا يحملان أية أمتعة ، ولكنهما كانا يمتطيان خيولا أصيلة مرا بها بالدير فأغرت بعض الرجال من هواة الخيل الذين كمنوا لهما في هذا المكان وقتلوهما ••• ويبدو أنهما أبديا شيئا من المقاومة الا أن حياتهما ورحلتهما انتهتا في هذا المكان بآن واحد • استيقظت في الليل على صوت حيوان يلعق داخل الخيمة فوجدته حيوانا من رباعيات الارجل يقف فوق وسادتي وأنفه يتدلى في اناء الحليب ، ولم يكن لدي وقت للتفكير في نوع هذا الحيوان ، فأمسكته من قوائمه الخلفية ودفعته خارجا • قال بعضهم انه من بنات آوى ، وقال آخر انه من جماعة الكلاب •

في السابع عشر من كانون الثاني شاهدنا في الصباح أسرابا من الاوز تمر فوق رؤوسنا ، وأسرابا من غربان الغداف والزاغ التي كانت تدور وتصخب كما تفعل في انكلترا قبل هبوب العاصفة • وكنا في هذا الوقت نميل نوعا ما لتأجيل رحلتنا والمبيت في هذا المكان للمرة الثانية ، وخصوصا عندما بدأ المطر بالهطول ولكن الخيام قد أنزلت فبدأنا بارتداء معاطفنا وعباءاتنا الثخينة، وسرنا في طريق يقودنا نحو الجرف وعرجنا بعدها في طريق يمر فوق البادية ، فهبت ريح هوجاء تثليت بتساقط ثلج كثيف لم يسمح لنا بالرؤية لأكثر من مائة يارده أمامنا ، ولم نستطع تلمس الطريق الذي غطته الثلوج • ومن حسن الحظ أن الريح كانت تهب في ظهورنا •• فساورتنا الشكوك في صحة الطريق الذي نسلكه حتى أدركنا راعيا وضعنا في الاتجاه الصحيح • بدأت الريح تهدأ بعد منتصف النهار ، وعملت الشمس جاهدة لتشرق ثانية : ثم هبطنا الى الوادي وتوقفنا دقائق في ملاذ تحت الجرف يحمينا من الريح ، الا أننا لا نرغب

بالتوقف طويلا لأننا نود الوصول الى الدير غدا ، وهكذا تابعنا المسير طوال اليوم حتى وقت الغروب ، اذ وصلنا الى جدار متهدم عند حافة غابة من الطرفاء عندها بعض الخيام • كان الماعز يحتمي بالجدار ويرعى من بقايا الارض ؛ فقمنا باشعال النار فورا لتدفئة أنفسنا أو على الاقل لتدفئة أصابعنا المتجلدة •• فلا أعتقد أنني قد صادفت مثل هذه الريح القاسية باستثناء العواصف الثلجية التي هبت علينا في منطقة الشط الشرقي في الجزائر منذ أربع سنوات •

حل الظلام قبل وصول سائقي البغال ، وفي هذه الفترة تجمدت أوصالنا حتى العظام وذقنا مرارة البرد ، وبوصول القافلة نصبت الخيام فأصبحنا بمنأى عن الريح ، ولن نجد أفضل من خيمتنا نحتمي بها من الجو العاصف ، وتتقي بهـا شر الرياح العاتيـة •

زالت الغيوم وسطع القمر باستدارة كاملة ، ولكن البرودة جمـدت الخيمة وأحالتها الى قطعة يابسة وحولت أيدينا الى أطراف وأشلاء يابسة •

الثامن عشر من كانون الثاني أفقنا في الصباح لنجد الماء قد تجمد في أحد الاوعية داخل الخيمة بسماكة انش واحـد ، وحبل الخيمة منهـارا متيبسا باتجاه الريح • وفي هذا الصباح أنعش حنا صباحنا بمشهد مسرحي بسيط دارت قصته حول قطعة حبل كان قد أخفاها بعض الاعراب الذين زودونـا بالحليب من عرب العقيدات ، ولهذا توقعنا أن نتعرض لسرقات أخرى ، فأصر حنا على استعادة المادة المفقودة وطلب من السيد « سكين » التدخل ، وهكذا أصبحت القضية جدية وبدأ الاعراب يتهمون بعضهم بعضا حتى تم التعرف على اثنين منهم فاعترفوا بفعلتهم وأعادوا الحبل ، وكم كان ممتعا رؤية حنا وهـو يوبخ اللصين المسكينين لجريمتهم وسوء تصرفهم ، فتدخل سليمان عمليـا ولكمهما بقسوة وانتهت القضية عند هذا الحد •

كان هؤلاء من العقيدات الذين يملكون فرسين ممتازتين حصلوا عليهما مـن العنزة ، وسمعنا منهم أخبار جواد عربي أصيل من سلالـة « المعنقي

الهدرجي » في البيوت المجاورة ، وقبيل مغادرتنا المكان قابلنا رجلين منهم عرضا علينا مشاهدة ذلك الحصان ، فوافقنا حالا على الذهاب معهما لأن السلالة المعنقية تعتبر من الخيل الاصيلة ولكنها تفتقر الى التناسق والجمال ، وذلك لا يضر ما دامت الاصالة متوفرة مع القوة .. استمر الرجلان بترديد جملة معنقية ابن سبيل[1] وكأنهما يعزفان نغما يتذوقان فيه نكهة كل حرف ومقطع لأن احترام الدم يصل عندهم الى حد التعصب . عدنا ثانية الى الطريق وسرنا أكثر من ميل خلال الشجيرات حتى وصلنا الى مكان مكشوف فيه بعض النسوة يقمن بتجميع خيمة كانت قد أنزلت للتو ، فقلن : ان الرجل الصالح كان خارج البيت على ظهر جواده ، ذهب ليستعير حميرا لنقل الخيام الى ديار أخرى يتوفر فيها الربيع . أعرضنا عن الحصان ، لأن جوادا من سلالة المعنقي لا يمكن استخدامه لأغراض التحميل . ولم نتحدث عنه بعد ذلك عندما شاهدنا محمدا يسوق أمامه ستة من الحمير ، وهو يمتطي الحصان . كان الحصان صغيرا أسود اللون ظاهر العرف نامي الذيل وديعا ، وكل هذه الصفات نسبت الى والده الحصان الذائع الصيت في المنطقة .. وجدنا عند هؤلاء العرب تعصبا زائدا لهذا الحصان وأصالته ، ولم يفهموا مبررات اعراضنا عنه، ولهذا قلنا لهم بلباقة : نأسف للون الحصان الاسود ، ولن نشتريه لأن اللون الاسود لا يجلب الحظ ، وغادرنا المكان حالا .

قررنا الوصول الى الدير في هذا اليوم ، ولهذا تركنا أمتعتنا تلحق بنا ، وأرسلنا سليمان ليعلن عن وصولنا ، وسرنا بعده باندفاع وحماس . فبدا الدرب طويلا نفذ فيه صبرنا . وما أن صعدنا التلال حتى رأينا نقطة في الافق ، توقعنا أن تكون مئذنة مسجد الدير وعندما تقدمنا بالسير صادفنا ثلاثة مسافرين من تجار بغداد ، وكانوا المسافرين الوحيدين الذين قابلناهم في الطريق ، بالاضافة الى علي بك الذي قابلناه في الايام العشرة الاولى من رحلتنا . أخبرونا بأن المدينة قريبة وفي متناول اليد . وفي هذه الاثناء سرنا في سهل صغير فشاهدنا

---

(١) ابن سبيل من القمصة ، من السبعة العنزة الذين يملكون ارقى سلالة للخيول المعنقية (والاصح ان نقول الصدرجي) .

كوكبة من الفرسان تتقدم باتجاهنا وفي مقدمتهم السيد النبيل سكرتير الباشا بلباسه الاوربي فقدم نفسه الينا ، وهو يحمل رسالة مؤدبة من سيده يطلب منا أن نضيفه ، ونحل على شرفه في البناء الحكومي « السراي » حيث ذبحت الثيران والحيوانات المسمنة احتفاء بقدومنا ؛ وقد أخذت كافة الاستعدادات لاستقبالنا وهذا لم نتوقعه ولم نكن مستعدين له اطلاقا ، وكان أملنا أن نسوي الامر في نصب خيامنا بجوار الباشا ، الا أن الشاب كان عنيدا ولم يستمع لأي طاب منا غير الموافقة فوافقنا . تولى ولفرد قيادتنا في مراسيم الاستقبال ؛ وارتفع الى وقار المناسبة وقام برزانة وهدوء يرد على تحية الخمسة عشر رجلا الذين كانوا يمثلون القوة العسكرية للباشا وعندما وصلنا اليهم انسحبوا على جانبي الطريق تكريما لنا ، ولنواجه بعدها وجهاء المدينه الذين جاؤوا على أفضل الجياد . يبدو أن كل الدير خرجت لاستقبالنا بحرارة ؛ وتقدمنا في موكب يحيط به أكثر من خمسين فارسا ... يتقدمهم شاب يحثهم من وقت لأخر وهو الذي قادهم مرة أخرى بفرس هرم مرتديا « بنطالا » مزموما وزوجا من الاحذية الطويلة التي جهزت بسحابات جانبية ، ابتدأ الحفل بعزف الموسيقى « الفتازية » ذلك الاسلوب الرائع للترحيب المؤدب الذي حظينا به من العرب والاتراك على حد سواء .

لست في موقف يتطلب مني المزيد من الوصف ، لأن سعادة الوالي حسين باشا جاء للترحيب بنا عند أول بيت في المدينة على ظهر بغل أسود جميل كلل بغطاء مزركش له شرابات سوداء ذهبية وبرفقته ستة من الخدم . وقف لاستقبالنا ، ولم يكن لنا أن نرفض مثل هذه العروض النبيلة من حسن الضيافة حتى أصبحنا في دار الحكومة .

لم نكن نادمين على استبدال الحياة القاسية والنوم في العراء بغرف نظيفة فرشت بالسجاد وبأثاث مترف وممتلكات ثمينة لا يمكن أن تجهز الا للاثرياء من الناس .

الفصـــل الثامــن

يعتبر هذا الحادث على الاقل بمثابة انذار لنا جميعاً كي ندرك البئر وشانه .

ماريا ايدجورث

حسين باشا وسلطته الموروثة ــ سياسة العثمانيين في الصحراء فرق تسد ــ وضعنا تحت المراقبة ومنعنا بلباقة من زيارة العنزة ــ الدير أفضل سوق للخيول العربية الاصيلة ــ المعلومات الاولية عن شمر وعن بطلهم عبد الكريم ومغامراته وموته ــ الدير في خطر ــ الدركي الخائــن ــ سقطت في البئر وأنقذت ــ رحلنا الى بغــداد .

حسين باشا حاكم الدير رجل عمره يناهز الخمسين عاما ، يقابلك بمظهر وقور وقسمات وسيمة على الرغم من لحيته التي شابت وحبة حلب التي في وجهه ، شأنه شأن كل الوجوه في المنطقة . ولد في حلب ويتعاطف مع العرب أكثر مما يتعاطف مع الترك وهو عثماني فقط بسبب تمثيله للسياسة العثمانية التقليدية المسيئة وبسبب حكم المقاطعة الذي تقلده بالوراثة ... لا أقول هذا لكي أشوه سمعة هذاالرجل لأنني أعتقد أنه من أنزه الموظفين الذين شاهدناهم ما بين حلب والبصرة ، ولكن الحكومة التركية لن ترضى عن نظام اداري في بلاد العرب ما لم يعتمد على اضطهاد الضعيف وخداع القوي . التزم حسين باشا بتنفيذ هذه السياسة باخلاص منقطع النظير ، ووجدنا في هذا الرجل كياسة الاتراك مقرونة بشيء من صراحة العرب . وكنت أتردد في قبول الوصف الذي أطلقه على نفسه وادعى فيه أنه ليس من رجال الفكر . ان الاحترام الذي نكنه لهذا الرجل يجعلني أخجل منذكر أي شيء لا يليق به ... كان الحاكم المضياف والرجل السخي الذي يعجبك عندما يحتج على شيء بعبارته اللطيفة « موت

شريف »[1] ولو كنا نستطيع فصل كرم الضيافة وحسن الاستقبال عن بعض السلوك الممل والمماطلة في بعض الامور لكان علي أن أقول : انه أفضل وأكرم الاصدقاء الذين قابلناهم في ترحالنا كلـه •

انني أطلب من القراء عدم الشك فيما أكتب • فالرجل منذ البداية كانت ضيافته لنا بدون أية دوافع أو أهداف محدودة ، الا أنني أتصور ــ حتى قبل وصولنا الى الدير ــ أن الرجل كان على دراية تامة بأهداف رحلتنا ، وربما تلقى بعض التلميحات من السلطات العليا لوضع العراقيل اللبقة في طريقها • والرجل المحنك من أمثاله لا بد من أن يقوم بمهمته بصدق واخلاص ، ولهذا نفذ خطط أسياده جامعا فيها كل اللباقة والمجاملات المؤدبة • كان هدفه منذ البداية أن يقودنا بشرف وأمانة الى أقرب نقطة حدود خارج مقاطعته وهو ما كنا نتوقعه ، لأن الحكومة التركية كانت على الدوام تخاف من المؤامرات التي تحاك بين القبائل البدوية ، فاقتضت سياستها ابقاء رجالها كالاطفال في جهلهم يعمهون وعزلهم تماما عما يدور ويحدث في العالم الخارجي ، كما كانت سياستها تهدف أيضا الى بذر الخلافات بينهم ورسم الخطوط العريضة لتنفيذ ذلك • فأخطر القبائل قد شغلت كثيرا في شتاء هذا العام بحروب أهلية • ومما يؤسف له : أن الحكومة التركية تعتقد أنه من غير المعقول أن يتدخل فضوليون من أوربا في مثل هذه الصراعات ، واذا ما تدخلوا فسوف يخبرون البدو بالدور المشين الذي تقوم به السلطات التركية في بلغاريا وفي الحاميات المتمركزة على الطرق العسكرية في سوريـة •

سار العثمانيون على تطبيق المبدأ القائل : فرق تسد فوجدوه شعارا ممتازا يحقق أغراضهم لأن الاوربيين حاولوا في الماضي توحيد القبائل العربية ضد الحكم العثماني وحاولوا أن يرمموا سبل السلام بينها بعيدا عن بعض الدوافع السياسية السخيفة • والادهى من ذلك كله تشجيع البدو لمتابعة

(1) كأنـه يتمثل قول الشاعر :

عش عزيزا او مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

الاحداث والاخبار التي تزيد في أزمة الحكم في الامبراطورية العثمانية ، في وقت علم فيه أن بريطانيا تضع اليوم عيونها على الفرات • وأي شيء أكبر من أن يظن بنا بأننا نقوم برحلة رسمية تجسسية على عرب المنطقة التي نمر بهـا اليـوم •

ومما زاد الطين بلة وجود القنصل البريطاني السيد « سكين » معنا • ومثله يصعب عليه ترك منصبه في هذه الظروف والسير معنا بدون أهـداف سياسية •

ان حسين باشا من الرجال الاذكياء ولن يغفل عمـا يدور في أذهاننا ، ولكن حكمته وصدقه وأمانته جعلته يتعامل معنا بوضوح ، ولهذا أراد أن نرسل الى البدو تحت المراقبة بصمت وبهذا يحقق أغراضه •

ان تفاصيل الخطة التي رسمها ــ اذا كانت هناك خطة ــ نفذها ببراعة عن طريق حسن الضيافة وكأنه حاتم الطائي أو شيخ من شيوخ البادية • لـم يسمح لنا الباشا بالنزول الا في بيته ، ومنعنا من نصب الخيام خارج المدينة أو بجانب دار الحكومة مدعياً أن ذلك سوف يجلب عليه الخزي والعار ، ولهذا تخلى لنا عن شقته وأقام في مكان مستأجر آخر ، وقال عليكم البقاء كمـا تشاؤون اسبوعا أو عشرة أيام أو شهرا أو الشتاء بكامله في منزله وهو أقل ما يمكن أن يؤديه راضيا ممنونا •

كان الباشا خادمنا ووكيلنا في كل ما نحتاجه من الدير ، سواء أكانت الخيل أو البغال أو المؤن • ولكن كل شيء سيتم في حينه • ولم يتكلم في مثل هذا من قبل أن نبادره • وفي يوم كانت تعد لنا فيه وليمة داخل البيت عصفت الريح في الخارج بشدة حتى ان ولفرد الذي كان قد أقسم أن يقضي الشتاء كله في العراء حنث بقسمه في هذا المكان وفي مثل هذه الاجواء ، فوافقنا في الحال على كل الطلبات ومن دون أن نشعر أصبحنا أسرى سيدنا المحترم •

أصبحنا داخل أسوار دار الحكومة تحت أنظار مضيفنا الباشا • فـلا أحد يستطيع الدخول الينا أو الخروج من عندنا الا باذن مصدق منه • فصعبت

علينا الاتصالات مع سكان الدير الا عن طريق خدم الباشا • وليس هناك من وسيط بيننا وبين جدعان يمكنه أن يغامر بالدخول الى باحة سعادته ليقدم لنا المعلومات •

تعب القنصل من عناء السفر وكان يرغب بالبقاء داخل « السراي » ينعم بالهدوء ، وكنا غرباء عن طريقة التعامل وعن لغة المكان الذي نسكنه ، ولم يكن بوسعنا التجول وحدنا في السوق لكي نطرح الاسئلة على الناس كما نشاء فكل المعلومات كانت تطبخ لنا قبل أن تقدم وكنا في عجز مطلق عن أي تصرف مناسب • وتلك قضية لا تحتاج الى برهان •

علمنا فيما بعد : أن كل الشيوخ ذوي الاهمية كانت لهم عيون في المدينه ومراسلون خاصون • فلو كنا نخيم خارج المدينة لتسارعوا الينا ولعرفوا وجهة رحلتنا ولكتبوا الى أسيادهم التقارير المناسبة ، الا أن حسين باشا كان قد أعطى أوامره بحجز كل ما يحمله الغرباء بخفة وحذر عند مدخل الباب ، ولهذا تعذر علينا أن تتكلم مع أي شخص في موضوع جدعان •

كان الباشا حسين متحدثا مقبولا يتقن فنون الكلام ، ولكنه أمضى جل وقته بالتحدث بالتركية ــ اللغة الرسمية ــ مع السيد « سكين » أكثر من تحدثه باللغة العربية • ودارت أحاديثه حول موضوع زيارتنا الى قبائل العنزة ــ ليس لاحد[1] حتى وان كان من نجد نفسها أن يتحدث بالعربية ــ • لم يستطيع الباشا أن يسدي لنا النصح بشأن الرحلة في هذا الوقت الراهن ، لأن الحرب كانت دائرة في البادية السورية ، وعصابات الغزو وجماعات السلب والنهب كانت ناشطة • وكل جماعة كانت تضم أربعين الى خمسين رجلا ، وكانت هذه العصابات تعمل مستقلة ، وليس بمقدور أحد السيطرة عليها حتى وان كان جدعان ابن مهيد نفسه • وانطلاقا من هذا الواقع لم يتجرأ الباشا باعطائنا الامان ، وكل ما كان يستطيع فعله هو تأمين خط الاتصال والطريق مع بغداد ، يضاف الى ذلك وجود جدعان ابن مهيد في مكان خطر يصعب الوصول اليه وهو يحارب الرولة الذين ذهبوا الى الجوف للحصول على العون من ابن

(١) ذلك في الدوائر الرسمية .

رشيد الذي يتوقع الناس ظهوره في الحماد في كل لحظة . وشمر الشمال كانت على أهبة الاستعداد ، وصار من المؤكد أن يهاجموه عندما تسنح لهم الفرصة. أما أنصاره من السبعة فهم اليوم في حالة انقسام ، ولا يمكنهم مساعدته ... وهكذا فقد سبق السيف العذل . غادر جدعان منطقة البشري وهو يعرف كافة تحركات البدو في البادية . ومن المحتمل أن جيوشه تطارد الرولة في الجنوب اليوم . ولهذا فضلنا البقاء في الدير ننعم بالهدوء في ضيافة الباشا لمدة شهر على الاقل ، حتى تعود العنزة الى الشمال من جديد ، وعندها سيكون جدعان تواقا لرؤيتنا ، وعلى الاخص عندما يحين موعد تجديد الاتفاقية التجارية ــ الرأي أمان[1] ــ بين البدو والحكومة .

وربما يأخذنا الباشا بنفسه الى جدعان ان شاء الله . وكلمة ان شاء الله هي كل ما نستطيع تقديمه من شكر الى سعادة الباشا ، للطف والكرم والعناية التي أحاطنا بها ، فنحن نعامل بمراسيم ملكية خاصة ، اذ صدرت الاوامر الى حرس الشرف بمرافقتنا أينما ذهبنا سواء أكنا نمشي على الأقدام ، أو في حالة ركوب خارج دار الحكومة . وحتى سكان المدينة ــ الذين من طبعهم احترام الغرباء ــ أجبروا على الوقوف كلما مررنا في الشوارع ووجدنا في ذلك نوعا من التشريفات المملة لم نكن نفضله لأنه يحول بيننا وبين صداقتنا للسكان ، وفضلنا أن نقول لهم عن بعد : شكرا لولائكم أيها الناس الطيبون فلا داعي للوقوف ... اجلسوا .

كرس اليوم الاول من اقامتنا لاستقبال الوفود بحضور الباشا ، جاء في طليعتهم مستشارو الباشا وبينهم أعراب وقورون من كبيري السن يرتدون حلة بدوية هي الرداء السوري المعروف الذي يشد بحزام حول الخصر مع العمامة أو الطربوش ، وبعضهم دخل عاري الاقدام ، فجلسوا بعدم ارتياح على أطراف كرسي الباشا ، أو على الارض حسب درجة وجاهتهم . ومن مجلس هؤلاء لم نحصل على أية معلومات باستثناء جملة واحدة : جدعان في مكان

(١) امتياز خاص تمنحه الحكومة في ذلك الوقت .

بعيد من البادية • جاء المسيحيون مع الوفد فأخبرونا أن عددهم في الدير يبلغ مائة رجل برئاسة قس كلداني طويل الانف جاء من الموصل ، وقالوا انهم يتآلفون مع السكان في الدير ••• وكثر كلامهم •

اشتكى المسيحيون من بعض المعاناة ، فهم قد قدموا من ديارهم في حلب والموصل ليجمعوا المال في الدير عن طريق التجارة ، ولكنهم لم يحصلوا على كفايتهم منه بعد ، وطلبوا حمايتنا لهم ، واستيفاء ديونهم الميتة • ثم استقبلنا وفدا من الجيش برئاسة ملازم يرافقه رجل كان يجمع ضرائب الارض في السنة الماضية ، ولم يستطع الحصول على المتأخرات المدفوعة بسبب الحرب ، ثم وفدت علينا النساء الا أن صبرنا قد نفذ ، وتوسلنا أن يأتي البقية في يوم آخر •

ركبنا عند الظهر خارج المدينة لنروض جيادنا والتي بدت بحاجة الى الهواء العليل مثلما نحن بحاجة اليه ، فحصاني أصيب بطفح جلدي بسبب الاصطبل الحار أما هاجر فيبدو أنها مصابة بالبرد ••• ذهبنا الى التلال التي تبعد عن النهر قرابة ميل واحد وأشرفنا من هناك على المدينة فبدت الدير مبنية من الطين مثل كل القرى التي قامت على الفرات • كانت الدير تنتصب في برية موحشة ، الا أن النهر أضفى على المنطقة مناظر حية جميلة من غابات الطرفاء البرية والمروج الخضراء التي تصبح جرداء كريهة المنظر عندما يخيم العرب حولها ويقيمون مدة طويلة •

تبدو المواقع الحالية لدير الزور أقل بهجة لأنها انتخبت لأغراض زراعية • جزيرة هنا ، وقطعة أرض غرينية منخفضة قريبة من مستوى النهر هناك ، حتى تسهل عملية ريها • تتناقض الدير بواقعها الحالي مع أطلال المدن القديمة في المنطقة التي تدل بقاياها على مدن كانت عامرة في الماضي ، وتقوم على أجراف عالية ومواقع حصينة ، ولعل السبب يكمن في اختلاف الظروف التي عاشها سكان الوادي القدماء عن الظروف التي يعيشها السكان في الوقت الحاضر•• فقديما ـ كما أتصور ـ كانت المدن تتحدى بدو البادية ، أما اليوم نجدها تدفع الاتاوة لسكان البوادي وتعاني الكثير من تسلطهم ، وهو ما كان يحدث

في السنوات القليلة الماضية • أما سكان الريف والقرى المحيطة بالدير فيلفهم الاهمال ، ويعيشون عيش من لا حامي له على الرغم من موقعهم الاستراتيجي• ويبدو أنهم يعتمدون على فقرهم في حماية أنفسهم • ان الدير بشكل خاص غير ممتعة • وحتى النهر الجميل يفقد وقاره هناك عندما يتشعب الى فرع ضيق يمر بجانب المدينة ، والى فرع كبير يمر في الجانب الاخر من جزيرة منخفضة منبسطة شوهتها عمليات الحراثة غير المنتظمة •• بدا كل شيء حول المدينة أجرد لمسافة عدة أميال حول المدينة ، باستثناء الرقع المهشمة بحراثة سيئة لتزرع عشوائيا بالشعير ، ولتروى بوسائل بدائية سيئة ، قد تكون الطبيعة قاسية في الصحراء ، ولكنها في هذا المكان بدت منفرة تماما أشبه بوجه قبيح بدا متبرجا•

ارتفعت مدينة الدير فوق ربوة صغيرة ، وحولها بعض الاطلال التي تدل آثارها في الروابي على العمران القديم، والاقنية التي تمتد خلفها بوضوح• وهناك عدد كبير من القبور حول المدينة ، والتي تدل على ماضي مدينة كبيرة• غيرت الدير معالمها بزخارف الباشا المغامر ، الذي أضفى عليها منذ سنوات قليلة تقاليدا عظيما لضاحية أوربية ، بطريق عريض ومستقيم على جانبيه ثكنة وحديقة عامة سيجت بسور حديدي ، ستة من البيوت التي ركبت من طابقين وكانت من أهمها دار الحكومة • وفي خارج المدينة وبين القبور ترى النساء يتنزهن اذا كان المساء جميلا ، أو يقعدن في وقت يتقاذف فيه الصبية بالحجارة ، أو يلعبون لعبة الكرة الخشبية والصولجان[1] أو يلعبون لعبا أخرى يدورون بها حول بعضهم ، بينما الشباب يركبون الخيل ويعدون بها لترويضها وخصوصا الامهار المشتراة من العنزة لتعوّد على مراوحة أرجلها في جري الخبب بسهولة ، ولعل هذا هو المشهد الوحيد المفرح الذي يمكن أن يشاهده في الدير • ان الدير معروفة كسوق ممتاز لبيع الخيل ، وربما تكون المدينة الوحيدة شمال جبل شمر المشهورة في هذا المجال ، اذ يملك السكان فيها خبرة جيدة في معرفة

(١) تسمى هذه اللعبة في دير الزور « بالحورة » وهي تشبه لعبة الهوكي مع بعض التعديل .

سلالات وأنساب الخيول • ولا عجب في ذلك لأن سكان المدن هم حلقة وسطى توصلهم بأسلافهم البدو الذين لا يشك بأصالتهم • انهم لا يزالون يحتفظون بتقاليدهم العربية ، وتقاليد الفروسية بصورة خاصة بقيت عندهم سالمة دون أن تمس بتشويـــه •

يشتري سكان الدير الامهار وهن بعمر سنة واحدة ، اما من القمصة من عرب السبعة أو من القبائل الاخرى ، ويروضونها بمهارة ، ويبيعونها ــ عندما تبلغ الواحدة ثلاث سنوات من العمر ــ الى تجار حلب في غالب الاحيان ، وفي أحيان أخرى يترك العنزة عندهم الخيل على سبيل المشاركة ، فتلد عندهـــم وتربى وفقا لأقسى تقاليد البادية ، ولهذا فالدير بالنسبة للغريب تعتبر أفضل سوق لشراء الخيل الاصيلة في كل القارة الاسيوية • يمكننا أن نجد في الدير أفضل سلالات الخيل التي تفضل على خيل البلدان الاخرى ، كما نجد صدق التعامل والإخبار عن الاصول الذي نفقدهما في كل من حلب ودمشق ، ولهذا أجزم وأقول : لا توجد في الدير سوى الخيول الاصيلة • قمنا في الدير بعقد بعض الصفقات واجراء بعض المساومات ، فوجدنا فرسا كميتا من سلالة سعدة طوقان كانت من أفضل وأجمل الخيول التي شاهدناها[1] ، وكانت ذائعـــة الصيت في طول البادية وعرضها ، وتصاح للشراء لولا الظن أنها من الخيول العقيمة العاقرة • ووجدنا مهرا كميتا عمره ثلاث سنوات من سلالة المعنقي الشلاجي • عرض علينا فسابقناه مع فرسنا هاجر وفاز عليها بمسافة نصف ميل• وشاهدنا فرسا صغيرة معنقية استبدلتها بالجواد الذي كنت أركبه ، لأنني كنت أظن أن المناسب لنا بعد الآن ركوب الافراس في البقعة الباقية من رحلتنـــا •

كانت أسعار الخيول في الدير متهاودة ومعتدلة ، بسبب حالة الفقر التي يعيشها أهل المنطقة وندرة المشترين ، وبسبب السلطة المعنوية اللطيفة التي كان يتمتع بها حسين باشا في المنطقة •

أخذ التركي سليمان يماحك في سعر فرس كانت للخوجة ــ الرجل المعلم

(١) سلالة المعنقي والسعدة من سلالات الخيل المعروفة في بوادي الفرات .

في مدينة الدير ـ كان قد اشتراها منذ بضع سنين ولكنه لم يركبهـا بسبب جموحها العالي ، ولأنها لم تلد أي مهر منذ سنتين على الاقل ، وكان يتلهف لبيعها • ساومه سليمان على السعر واتفق معه على مقدار محدد ، ولما تم ذلك دفعنا المال الى سليمان ليسلمه الى البائع • ولكن سليمان لم يطاوعه قابه في أن يعطي كل النقود ، فأخفى خمس ليرات من السعر فجاء الخوجة مشتكيا يريد استرجاع الفرس ، واكتشفنا ونحن نحادث الرجل أن سليمان بلصنا عشرليرات، وأنقص خمس عشرة ليرة من المبلغ المستحق للخوجة دون حياء ولا خجل . وتلك قصة نموذجية لا تدل على الخيانة فحسب ولكن تدل على غباء الدركي وبلادته ، فلو كان قانعا بالمقدار الذي خدعنا به لما اكتشفنا شيئا ولبقي كـل شيء طي الكتمان ، ولكن جشعه أفسد عليه كل الحيل • وعندما سمع الباشا بما حدث بدا رزينا للغاية وأجاب قائلا : ان ما حدث جلب على بيته العـار ؛ وأجبر الرقيب على اعادة المال •

أعاد سليمان المال مكرها وتذرع بكونه يعيل زوجة وأطفالا وهو بحاجة الى المال لإعاشتهم • وفي هذه الاثناء تدخل ولفرد ليعطي الليرات الى الرجل المسكين الذي خدع الا أن حسين باشا توسل وقال : ان القضية قد انتهت والرجل أخذ نقوده وكفى ، وسررنا لأنه سامح سايمان الذي جاء في اليوم التالي معفرا وجهه ورأسه بالتراب أسفا نادما على ما فعل • عرفت بفعلـة سليمان التفاهة المطلقة ، وأن الخيانة في الامور المالية ليست حصرا بالاتراك • ويكفينا أننا خرجنا من هذه القضية دون أن يشار الينا باصبع الاتهام •

اكتشفنا فيما بعد أفعالا مماثلة لسليمان ـ الرقيب التعيس ـ فهو لم يقم بهذه الضربة غير الموفقة فقط • ولكنه كان يقوم بالاحتفاظ بمعظم المبالـغ الصغيرة من مجيديات وبشليكات كنا قد عهدنا بها اليه أثناء الرحلة من حلب سلفة لثمن الخبز والحليب في الاماكن التي توقفنا فيها •

كان حسين باشا يمتلك كثيرا من الامهار والجياد في الاصطبلات الخاصة به وكان فخورا في عرضها علينا ، ويبدو أن خيل الباشا لم تغادر معالفها غير هذه المرة لأنه فارس جبان ، ولا يثق بأحد يركب خيله •

وفي مجموعته شاهدنا جوادا حمدانيا من سلالة السمري عطبت ركبتاه بشدة ، الا أن الركب المكسورة لا تعتبر في الدير عيبا ذا أهمية ، ولا يمكن لأي شخص أن ينتقص من قيمة الجواد . نستطيع القول : ان الخيول التي وجدناها في الدير كانت أمهارا تركت من أجل أن تكبر في المستقبل ، ولم أجد عربيا يسقط هنا من ظهور الخيل ، ولم أجد من يهمل الاهتمام بشية ورشاقة فرسه ، حتى انني لم أشاهد أي حادث من هذا النوع طوال الوقت المخصص لرحلتنا . وبعد هذه النقلة البعيدة أعود لصحائفي ثانية .

يوم الاحد في العشرين من كانون الثاني كانت لدينا خطط جديدة . فالباشا يؤكد أنه من غير المنطقي أن نذهب الى العنزة في الوقت الراهن ، ويقترح علينا بدلا من ذلك أن نقوم بزيارة لقبيلة شمر في العراق ، لأننا لا نرغب في زيادة المكوث في الدير . جاء اقتراحه في وقت كنا نكره فيه التخلي عن خططنا المرسومة من قبل ، الا أن زيارة جبل شمر تبدو مستحيلة علينا هذا العام ، أو اننا على الأقل نشك في نجاحها . وبات من المؤكد أن جدعان لا يستطيع الذهاب بعيدا عن الدير . وأعدنا النظر في صدق قصة ذهاب العنزة الى الجنوب ، فاستنتجنا أنها غير صحيحة على الاطلاق . فمن جهتي أبديت كامل الاستعداد لتنفيذ الخطة الجديدة ، ورأيت من الحماقة أن نورط أنفسنا الآن في نزاعات قبائل العنزة .

قدم لنا الباشا شروحا وافية عن المواقف السياسية لقبيلة شمر العراق . فشمر قبيلة كبيرة قوية وتعتبر القبيلة المقاتلة الوحيدة في شرق الفرات ، كما تعتبر المنافس والعدو التقليدي للعنزة منذ أن قدموا الى القطر . يرأس هذه القبيلة الشيخ فرحان بن صفوق الذي ترث عائلته زعامة القبيلة أبا عن جد ، ويقيم علاقات طيبة مع الحكومة ، وقد منح مؤخرا لقب الباشا مع علاوة من باشوية بغداد تقدر بثلاثة آلاف جنيه كل عام ، لأنه تكفل أن يبقي شعبه هادئا قدر المستطاع وأن يحثهم على الاستكانة والعمل فلاحين في وادي الدجلة ، وجعل من نفسه قدوة لهم حيث أقام في منطقة الشرقاط في مكان يبعد حوالي ستين ميلا جنوب مدينة الموصل .

أسهب الباشا في شرح ملابسات الاحداث وقال : ان الأمر يتعدى حدود شخصية فرحان لأن الشمر غير راضين مطلقا عن خضوعه للحكومة ، حتى انه كان محط احتقار لأنه ابن امرأة بغدادية ، ولأنه يتكلم التركية التي تعلمها في القسطنطينية منذ عدة سنوات عندما كان رهينة هناك . وسمعنا أن الكثير من أتباع القبيلة كانوا قد تركوا فرحان وانسحبوا منذ مدة طويلة واضعين أنفسهم تحت امرة عبد الكريم ــ الأخ غير الشقيق لفرحان ــ الرجل الاسطوري الذي سمعنا عنه كثيرا من القصص ، انــه البطل العظيم في تاريخ البدو المعاصر . وبدوري أدون ما سمعته عن هذا الرجل ، كانت أم عبد الكريم من قبيلة طي ، والطائيون من أنبل القبائل البدوية على الرغم من أنهم يعتبرون اليوم مــن روافد قبيلة شمر ، ولهــذا السبب كان أهل القبيلة يفضلونه علــى فرحان ؛ ويفضلون قيادته لهم في كل الحروب ، وبوجوده جعل سلطة أخيــه الاكبر محدودة لا تتعدى مشارف بغداد ، ويبدو أنه كان يجمع تحت امرته نخبة من الفرسان الشجعان استحوذ بهم على ثقة البدو من كل البادية ، بالاضافة الى كرمه وسخائه وشجاعته . لم يكن يعقد صلحا مع الاتراك بل أذاقهم طعــم البطش والقسوة والهزيمة أكثر من مرة . كان صديق الطفولة بالنسبة لجدعان. لأن جدعان ــ بحكم احدى عادات السلم ــ كان قد أرسل لتعلم الفروسية في بيت صفوق والد عبد الكريم ... انها مبادرة سلمية تعبر عن حسن النية بين شمر والفدعان .

حافظ عبد الكريم على مودته لجدعان ، وساعده في بداية حياته العملية . وقد أعطاه مالا وجمالا وأغاثه في أكثر من ضائقة وملمة ، الا أن العداوة بين قبيلتي الرجلين جرتهما للتخاصم فيما بعد . فجدعان الفقير أصبح من خلال مهارته وشجاعته قائدا لقبيلة الفدعان ومن ثم طمع أن يكون شيخا على كــل العنزة ، ونتيجة لذلك وجد نفسه وجها لوجه مع صديقه القديم عبد الكريم ، فجرت بينهما حروب ومنافسات . وفي احدى الغزوات حاصرت شمر جدعان

ابن مهيد في منتصف الليل في خمسين من أتباعه ، فانتظر الشمريون ساعات الصباح الاولى ليقوموا بالهجوم لأن أعراف البادية لا تجيز مهاجمة الخصم ليلا . كانت فرصة الفدعان في النجاة ضئيلة، وكانوا يعدون أنفسهم للاستسلام والتسليب في الصباح،لأن خيولهم متعبة والعدو يحكم الطوق حولهم ويستعد لشن الهجوم .تسلل رجل من شمر الى صفوف الفدعان خلسة في منتصف الليل يحمل رسالة من عبد الكريم الى جدعان ويقود فرسا بيضاء ، فقال الشمري : ان عبد الكريم يرسل لك فرسه الخاصة تذكارا للصداقة ، ويرجوك أن تركبها غدا في ساحة النزال لأنها أنجب فرس في خيول شمر فامتطاها جدعان في اليوم التالي وقاتل عليها في معركة خاسرة ، ولما سنحت له الفرصة هرب عليها ناجيا بنفسه ، بينما أخذ كل رجاله أسرى حرب . وذكرتنا هذه القصة بالسماحة التي كان يتحلى بها صلاح الدين .

كان عبد الكريم مزهوا في قومه ، ويضايق الاتراك في كل مناسبة ، وهو الذي أعاد والي بغداد من حيث أتى بعد أن قدم لزيارته ، ومنذ ذلك التاريخ اعتبر عبد الكريم خارجا على القانون في بغداد ، ولهذا استحق الموت بموجب القانون التركي فكانت نهايته ـ كما رويت لي ـ على الشكل التالي :

كان عبد الكريم مغرما بابنة خاله من قبيلة طي[1] وبدورها كانت مولعة به وينوي الزواج منها الا أن والدها ـ لأسباب غامضة ـ كان قد أعطاها لخاطب آخر فأرسلت الفتاة رسالة الى عبد الكريم تخبره بما حدث وتتوسل اليه أن ينقذها من الزوج الجديد . انطلق عبد الكريم على رأس عشرين من الفرسان الشجعان يريد تخليصها الا أن المؤامرة كشفت ، فعندما وصل عبد الكريم وجد الزوج في مجموعة من رجاله يمتشق سيفا وعلى الفور شطر الفتاة قسمين أمام عيني عبد الكريم ، وصاح به : فعلتها يا عبد الكريم ؟ انظر اليها انها لك خذها أو اتركها كما تشاء .

---

(١) يقال : ان نساء طي هن من اجمل نساء البادية .

لا أدري ماذا حدث بعد ذلك ، ولكن يبدو أن عبد الكريم قد طار صوابه وطاف أياما حول المكان يقتل كل من يصادفه . ويقول بعضهم في ضرب من المبالغة : انه حاصر أربعين قرية ، فاضطر حاكم الموصل الى أن يرسل جيشا كبيرا لصده فساقوه جنوبا باتجاه الفرات الى ديـار عرب المنتفك[1] حيث استجار بشيخهم ناصر[2] الا أن الاخير كانت تربطه علاقات طيبة مع الحكومة التركية فأرسل عبد الكريم سجينا الى بغداد ، ومنها أرسل الى الموصل ليشنق على مرأى من الناس فوق الجسر مثله مثل أي مجرم عادي .

نشرت أخبار نهاية عبد الكريم الرعب في نفوس شمر العراق ، ومضى وقت كان فيه قسم من شمر بدون قيادة يشعرون بذل الانكسار ولم يكن في عائلة صفوق من يستطيع شغل منصب عبد الكريم ، فأصبحت الظروف مواتية لأن يستعيد فرحان منصبه من جديد،فاعترف به شيخا علىشمر كلها من جديد.

كانت المرأة الطائية ــ والدة عبد الكريم ــ شخصية محترمة مسموعة الكلمة ، فهربت الى نجد مع فارس ــ ولدها الصغير ــ حاملة كل ما تستطيع حمله من ممتلكات ، وبقيت مع ولدها هناك أكثر من سنتين ، الا أنهما عادا مؤخرا ، وأخذ فارس يأخذ مكانة أخيه من جديد فالتف حوله معظم المحاربين من شمر . كان فارس عالي الهمة يمتلك شخصية جذابة مدبرة ، ولهذا وصفه باشا الدير بالرجل الشجاع ، لأنه ضم عددا كبيرا من الاتباع واستقل بهم عن أخيه فرحان وسيطرته ، ولأنه استقطب النصف الشمالي من منطقة العراق كلها. بدت لنا رؤية مثل هذا الرجل عملية ممتعة على اعتبار أنه لم يسبق لأوربـي مقابلته من قبل . اعتقد الباشا أنه من الافضل لنا أن نرسل رسالة الى فارس

---

(١) المنتفك : من عشائر جنوب العراق وتكتب المنتفك اما في لهجة الفراتيين فتكتب المنتفج .

(٢) ناصر آل السعدون : شيخ عرب المنتفك عام ١٨٦٦ م .عين واليا للقطيف. نفي الى استنبول عام ١٨٧٧ وسجن عام ١٨٨١ م .

نقترح عليه أمر الزيارة مفضلا ذلك على السفر الى جدعان . وافقنا على خطة الباشا ورغبنا بالسفر الى فارس ولكن قررنا في حال تعثرها التوجه فورا الى بغداد.

من الصعوبة بمكان الاتصال بالبدو دون مساعدة أو تعارف مسبق ، ومن المحتمل الذهاب اليهم هكذا مجازفة . مهما يكن من أمر فالافضل لنا أن نقوم بذلك بسرعة لأن ولفرد قد ضجر من الجلوس بين الجدران .

في الحادي والعشرين من كانون الثاني طرأ تعقيد جديد على مواقفنا في الدير جعلتني أشك بنوايا الباشا مقتنعة أنه يخطط لإعادتنا الى حلب من جديد. ففي هذا الصباح جاء رجل ليخبر الباشا أن عصبة من شمر أغارت على قبيلة البقارة — من القبائل الرعوية الصغيرة على الفرات — التي تقيم قبالة الدير في الضفة اليسرى من نهر الفرات ، وساق الغزاة ثمانين فرسا وخمسة آلاف شاة . أظهر الباشا نوعا من الاعتذار عن تأجيل رحلتنا الجديدة ، ولكن بدت عليه علائم الخوف وأخذ يتكلم عن الحصار المضروب حول الدير وقال : ان الغزو قد يحدث في أية لحظة . ولهذا أرسل رسولا الى حلب مهددا بالاستقالة من منصبه ان لم يعزز حالا بالقوات لأنه لا يملك سوى خمسة عشر رجلا بما فيهم سليمان ورفاقه . وعلى الرغم من وفرة العتاد والسلاح بين يديه فلم يجرؤ على تجنيد شعب المدينة للدفاع عن مدينتهم ، الا أنه أرسل في النهاية الى المجلس البلدي عارضا السلاح على كل متطوع يرغب بتجنيد نفسه . اقترح ولفرد أن تحفر الخنادق عبر نهايات الشوارع ، وأن تبدأ المفاوضات مع فارس في الحال في مكان لا يبعد عن الدير أكثر من ستين ميلا .

تبين فيما بعد أن الغزاة لم يكونوا من رجال فارس ، ولكنهم رجال آخرون قدموا من الجنوب بقيادة مجول بن فرحان ... انهم أقرباء فارس وخصومه بآن واحد . استنتج السيد سكين أن فارسا قد انتهز الفرصة ليؤلب الحكومة ضد ابن أخيه ، وقدم عروضا مناسبة لمساعدة الحكومة في حربها معه.

في الثاني والعشرين من كانون الثاني رويت قصة أخرى عن الغزاة تقول: جاء مجول ليلة البارحة طالبا جزية من سكان الخيام القريبة من الدير : بساطا

وكيسا من الشعير ونعجة من كل بيت ، وبوصول هذه القصه ازداد ارتباك الباشا وخوفه أكثر من ذي قبل • اقترح ولفرد الذهاب في بعثة الى فارس الا أن الباشا لم يصغ الى هذا الطلب قبل أن يوفد رسولا ، وفي الحال ارسل في طلب بدر آغا ــ نقيب الدرك ــ وأمره بحضورنا أن يستعد لسفر طويل . ثم كتب رسالة بهذا الخصوص جاء في مضمونها : على فارس اذا رغب في آن يحظى برضا الحكومة أن يفعل الكثير لكي يبقى البلد هادئا ، ودوره قد حان اليوم لأن الدير بدون قوات ، وعليه أن يتحرك ريثما تصل القوات في القريب العاجل، وسيكافأ على ذلك وينال اعتراف الباشا بجميله ، وفي حاشية من الرسالة أبلغ الباشا فارسا رغبتنا بالتعرف عليه وبنيتنا لزيارته • تناول بدر آغا الرسالة ثم جلس وكأنه ينتظر بقية الاوامر[1] • فقال الباشا : هل فهمت ؟ عليك أن تأخذها الى فارس ، فأجاب : نعم أفندي وكرر الباشا القول عليك الذهاب في الحال وهو يجيب نعم أفندي •• نعم أفندي فصاح الباشا لماذا لا تغادر ؟ فلم يجب بدر بشيء ولكن سحب يده اليمنى محركا الابهام فوق الاصابع الاخرى موحيا الى النقود في وقت كان يصغي فيه الباشا ، وقال : كيف علي الذهاب ؟ فقال له على ظهر الجواد لتكون آمنا • فقال النقيب: وهل لي أن آخذ زوجتي وأطفالي؟ فرد الباشا بالطبع لا • فقال النقيب : اذا يجب أن يتوفر شيء يأكلونه فأعطني مرتب شهر من متأخراتي ومرتب شهر لكل من رجالي ، فأحرج الباشا ، وقال : هذا هراء وماذا تفعل بهذا المبلغ الكبير ؟ خذ راتبا اضافيا لمدة أسبوع واحد • أدى النقيب التحية ، ثم مضى مسرعا بصمت •

مارس ولفرد هواية الصيد طوال اليوم في جزيرة صغيرة ، وجلب طيورا من الدراج ، وأخبرنا أنه شاهد العديد من الخنازير البرية •

في الثالث والعشرين من كانون الثاني قمت بهروب رائع من دار الحكومة، اذ ركبنا صباحا في موكب سار بهدوء عبر الشارع الرئيس في الدير يتبعه

---

(١) كانت مسرحية مثلها الباشا وبدر آغا .

دركيان للحراسة ، وبينما كنا نسير في مقدمة الموكب خسفت الارض بفرسي فجأة ودون سابق انذار مثل الذين غاصت بهم الارض في موجات الزلازل ، ولم يكن لدي وقت للصراخ أو التفكير لأن التربة كانت تنهال فوق رأسي وأنا في أحشاء الارض لقد سقطت في بئر كان عمر باشا[1] قد غطاها بألواح خشبية خفيفة عندما كان يرمم المنطقة ويوسع الشارع ، وتركها شراكا للغافلين ••• يبدو أن الالواح قد تعفنت وسقطت في البئر من خلالها ، ولحسن الحظ لم يكن البئر عميقا لأن الامطار التي سقطت مؤخرا ساقت اليه طبقات من الطين ، ولهذا مددت يدي مستغيثة فوجدتها تصل الى الايدي التي امتدت لتتناولني، وخرجت في الحال بينما بقيت الفرس في وضع حرج — يا للحيوان المسكين — لقد انحشرت في برزخ ضيق لم يترك لها مجالا للمقاومة ، وكان عليها الانتظار هناك ساعة أو ساعتين قبل أن يتمكن فريق الانقاذ من اخراجها ، جهزت طريق منحدرة الى أسفل البئر ثم لفت الحبال حولها وسحبت على المستوى المائل بقوة حتى وصلت السطح ، وما ان فك رباطها حتى قفزت على أقدامها وصهلت ثم وقفت بعدها هادئة مستسلمة•ولم يكن لأي انسان أن يشعر مقدار ما عانت• في وسط هرجنا وصل الباشا الطيب يهز رأسه متأسفا لما حدث واعتبره من حكم القضاء والقدر ، وتأوه مرارا وهو يضرب كفا بكف أواه يا عزيزتي •• أواه يا عزيزتي •

عندما أتحدث عن بيت الباشا علي أن أقول : ان كل شيء فيه يجري بانتظام ففيه ساق ممتاز وطباخ ماهر وفيه خدم ذوو كياسة وأدب • ألحق البيت باصطبل تجري فيه الخيل بحرية وتجد فيه كل متطلبات الخيل ، ولهذا أخذت

---

(١) يوجد في تاريخ الدير عمران الاول هو المشير عمر باشا الكرواتي الذي أخضع الدير والعشائر عام ١٢٨١ هـ والثاني هو عمر باشا ابو منقور وسمي بذلك لنقرة كانت في انفه وهو قائمقام المدينة في ذلك الوقت ونظن ان الاخير هو المقصود .

خيولنا تسمن يوما بعد يوم وأصبحت أكثر نشاطا وحيوية ففضلنا أن نبقيها في الخارج على الرغم من الطقس البارد والثلج والمطر ، مما سبب حرجا للسائس ولكن فعلنا ذلك لأن الخيل كانت مكسوة برداء من ثلاث طبقات الخارجية منها كانت تصل الى الكعبين،ولأن العراء هو المناسب لخيول السفر، وفي مثل هذه الحالة يجب أن تكسى الاغطية الثخينة الا في الليالي الحارة • ان نوم الخيل ليلا في العراء يجعلها أسرع وأنحف وأقل حاجة للطعام • كانت معاطف خيولنا بسماكة انش واحد ، ولكن لم نقم بتنظيفها أو تدثير الخيل بها تاركين هذه المهمة للسائس،ولهذا بدتخيولنا خشنة الشعر ولكن بصحةجيدة •

في الرابع والعشرين من كانون الثاني لم يعد بدر آغا من سفرته ، وقد يكون في البلد ولم يسافر مطلقا ، حتى إن الباشا لم يشر الى مصير الرسالة التي بعث بها الى فارس • وبتقديري أن القضية برمتها ربما هي من قبيل المناورة والتضليل ليلهينا الباشا عن جدعان وعن العنزة • وربما تراجع عندما رأى أننا قد أخذنا الموافقة ــ التي أعطاها ــ على محمل الجد • كان الباشا يكثر من الحديث عن جدوى سفرنا الى بغداد متفقا بالرأي مع السيد « سكين » الذي رأى أن نتوجه الى بغداد • أما بالنسبة له فلن يستطيع المضي معنا الى أبعد من هذا المكان لأن حدود مقاطعة قنصليته تنتهي عند الدير • وهكذا وجدنا في هذا الامر خاتمة لكل طموحاتنا الواسعة ، وأخذنا نعزي أنفسنا كما قال الفرنسيون بعد معركة ورث : « نحن نتراجع كي نتقدم جيدا في المستقبل » •

لم يعد الباشا يهتم بأي شيء الا بحصار الدير بالاضافة الى هموم منصب بعيد عن البيت والوطن ، ويعيش وحيدا بدون أي فرد من عائلته ، وكان حلبيا حقيقيا في خوفه من البدو والبادية ومخاطر الغزو • بثنا شكواه أكثر من مرة قائلا : لماذا ••• لماذا تركت وطني ؟ وأي طموحات كاذبة أغرتني بقبول لقب الباشا ؟••• وأخذ يلعن الساعة التي أدار بها وجهه عن حلب وجاء ليموت في

هذه البوادي ، لم نعرف كيف نعزيه لأن قلوبنا كانت معلقة بالبادية لا بالمدينة. وأخيرا هدد الباشا أنه سيحزم أمتعته ويترك الدير إن لم يرتح بسرعة لوصول الفرق والنجدات . وهكذا أنسينا هموم قضيتنا في دوامة هذا الحزن العميق.

في الخامس والعشرين من كانون الثاني وصلت قافلة من حلب تحرسها مجموعة من الجند في طريقها غدا الى بغداد : وبسبب ما كنا نعانيه من يأس وقنوط وافقنا على الرحيل معها دون تردد لأننا لا نريد أن نمضي الشتاء كله في الدير . فالشتاء فيه كان مملا رهيبا وأردنا أن نشغل وقتنا برؤية الجزء الادنى من النهر وبرؤية مدينة الخلفاء ، ومن ثم العودة الى الشمال لرؤية العنزة في وقت يعود فيه السيد « سكين » الى حلب وقد وعد أن نلتقي معه في الدير ثانية في الاسبوع الاول من آذار ، وعندها سيأخذنا فعلا الى جدعان ، ولهذا عقدنا العزم أن نلحق بالاصدقاء في شمر بمساعدة الكولونيل نيكسون في بغداد وبمساعدة الباشا هناك الذي يستطيع السفر معنا ان شاء . وهكذا صار لزاما علينا أن نسير في طريق ملتوية طويلة لنصل الى بغداد ولننطلق منها في اتجاه يبعد أكثر من ثلاثمائة ميل عن الاتجاه الذي نود أن نسير فيه . ولكني واثقة من الوصول الى هناك وعندها سنعتمد على مصادرنا الخاصة وسنتدبر الامر ونخرج من حالة الوصاية التي نعيشها اليوم في الدير .

تركنا لولفرد تدارس الترتيبات مع القنصل الذي يعرف المنطقة . فنحن لم نمنع بعد من الذهاب الى أي مكان فكرنا به ، ولكن نأمل بالافضل وأخيرا استقر بنا الرأي الذهاب الى بغداد . كان الباشا أكثر حماسا للإسراع بالسفر . استأجرنا بغلين للامتعة وحصانا صغيرا لحنّا . ورصدنا للرحلة ألف قرش أي ما يساوي ثمانية جنيهات قدرنا أنها تكفي لكامل الرحلة ... نصفها دفعناه مقدما ، وقررنا شراء الحيوانات طائعين بدلا من الاستئجار ، لنكون مستقلين في القرار ، ومنينا أنفسنا بالترف عندما نصل بغداد حيث سنحصل على الجمال

ونذهب الى حيث نحب ونفعل ما يحلو لنا ، والاهم من ذلك كله هو أن نهرب من الدير لأننا كنا نشعر فيه وكأننا في السجن •

وصل كولونيل بلباس نظامي يصحبه عشرون من الرجال في حملة ــ يمتطون فيها البغال ــ قدمت من تدمر لتعزيز حامية الدير ، لذلك تحسن الوضع حول الباشا ، ويبدو أنه أصبح سعيدا لهذه التطورات ، وأصبح قادرا على أن يرسل معنا في الغد ثلاثة أو أربعة من الرجال مع القافلة التي ستنطلق في الصباح • نقررنا أن نترك الامتعة الثقيلة هنا وكثيرا من الاشياء التي كنا نعدها للذهاب الى جبل شسر ، لأنه لا ضرورة لها في رحلتنا الجديدة ؛ وحتى خيمة السيد « سكين » تركت هنا أيضا • حزمنا أمتعتنا في حقيبتين كبيرتين صنعتا في انكلترا لهذا الغرض ، فشكلت حمل بغل ، بينما تركت الخيام والمؤن على البغل الآخر ، وحنا على الحصان الصغير •

بدت الكآبة على وجه حنا لأنه يتوقع أن يذهب معنا وحده وأصيب بنوبة من الحمى ولكن علينا الرحيل قدر المستطاع • توسل سليمان أن نأخذه معنا لأننا سامحناه من قبل،ولا نستطيع رفضه على علاته،فعلى الاقل نحن نعرفه•

في السادس والعشرين من كانون الثاني كانت بداية لانطلاقة غير متوقعة• فسائقوا البغال « القاطرجي » بدلا من أن يأتوا في الساعة الثامنة جاؤوا في الساعة الثانية عشرة ، وجلبوا معهم بغلا واحدا • فأصر ولفرد على مجيء الحيوانين الآخرين وفقا للإتفاق المبرم ، ولأنه أنزل الأمتعة الى باحة الدار • في هذه الاثناء جاءنا وفد من القافلة يطلب تأجيل الانطلاق الى يوم غد ، الا أن ولفرد قد حمل الامتعة وبدأ يودع مضيفنا اللطيف •

كانت لحظة الانطلاق في ساعة متأخرة من النهار أي في الساعة الثانية ، وفي يوم من أيام الشتاء • وكان الحزم ضروريا وإلا لبقينا نؤجل الانطلاق من

يوم الى يوم حتى يضيع علينا أسبوع بكامله ، ولهذا كنا هذا اليوم في شغل شاغل ، فأنا مشغولة بكتابة المزيد من المذكرات ، متمنية أن لا أرى الدير مرة أخرى ، ومع هذا علينا أن نكون في الدير ثانية في غضون أسابيع ، وأقول كما يقول الناس هنا ان شاء الله .



الفصـل التاسـع

بينما كنت معك داخل الاكواخ نستلقي بارتياح وننعم بجمـال القرميد تطاولت المدخنة التي شمخت فوق راسينا .

● سي سونـغ

انطلاقة سعيدة ـ انضممنا الى قافلة بغداد ـ ابن الحصان ـ سيدات من الاتراك في الرحلة ـ كيف نقيد الحصان الحرون ـ الصالحية ـ مخيـم العقيل ـ مدير البوكمال ـ الذئاب في الليل ـ الخنازير البرية ـ سجل أداء عريف الملاحين ـ بستان النخيل ـ وصلنا الى عنة .

في السابع والعشرين من كانون الثاني غادرنا الدير ، وها نحن مرة أخرى في بيت مريح ننعم بالراحة تحت سقف خيمتنا . كان سفرنا في يوم غائم قاس من أيام الشتاء ولينا فيه وجوهنا نحو الجنوب بعد أن تركنا السيد « سكين » لوحدنا ، وها نحن في طريقنا الى ما نريد ، ولأول مرة بدأنا نحس بضعفنا في استخدام العربية وسيلة للتفاهم . تحرر سليمان من ساطة القنصل وفاجأنا بخفته وسلوكه المتعالي ، ونبرات صوته التي تنم عن شيء من الاحتقار كـان يكنه لنا في نفسه ، متناسيا عاره في الدير ، فعلمنا أننا نقوم برحلة فيها كل شيء باستثناء السرور . وحتى حنا الذي تؤثره على غيره بدا شاحبا مكتئبا يشكو من دوار وصداع في رأسه بتأثير عشرين حبة من مادة الكينين[1] تناولها هذا الصباح ، فخشينا أن ينهار في أية لحظة .

تتألف القافلة التي نرتحل معها من ثلاثين بغلا وجواد ، حملت بربطات مربعة من البضائع القطنية ـ فربما كانت من مانشيستر[2] ـ معهـا عشرة

---

(١) مادة شبه قلوية شديدة المرارة تعالج بها الملاريا .
(٢) مدينة انكليزية حافلة بمصانع القطن وحياكته .

« قاطرجية » يرتدون « التنك » السوري الجميل ــ رداء طويل تشد بحزام ــ ذا اللونين الاحمر والذهبي ، فتراهم تارة يمشون على الاقدام وتارة يستطون الحمير الصغيرة، فتبدو وكأنها هيئة اضافية لأرجلهم التي كانت تلامس الارض . كان يتقدم المجموعة كلها حصان صغير أنيق المظهر ، علقت في عنقه الاجراس . ولعل سلالته الاصيلة الواضحة هي التي جعلته دوما في المقدمة ينوء تحت حمل ثقيل يعجز عن حمله حيوانان كاملان من زمرته . وفي الحال تمكنا من رؤية وجهه فهو قد ولد لغير هذه الاحمال الثقيلة ، ويبدو أن هذا الحيوان المسكين الصغير كان يحب المنافسة ، ففي كل مرة يجتاز بها القافلة يقوم بمحاولات غير عادية للحاق بنا محركا بتلك الوسيلة غضب أسياده الذين يميلون لجعل القافلة تبطىء من خطواتها بعيدا عن نزوة أي شخص . عندما مررنا به قلنا : حيوان جميل . فأجاب صاحبه : « الحمد لله » حتى لا يصاب بالعين أو يحصل لـه طالع سيء ، وقال : والده حصان ابن حصان ، وهو اصطلاح يستعمل عندما تكون أم الحصان غير أصيلة ، ليعلم أن الحصان مخصص لحمل الامتعة ، الا أنه نعت مهين لحيوان ذي خيلاء كبير . في جناح من أجنحة القافلة سار بغل طويل بدا متميزا فيها لأنه حمل زوجا من السلال الكبيرة المغطاة ، يتقدمه رجل ريفي يرتدي سروالا قصيرا مفتوحا عند الركبة ، وينتعل حذاء نصفيا مـن المطاط ، ويرتدي كذلك وشاحا أحمر و « جاكيتا » وحطة لفت حول رأسه ؛ وكأنه « أريرو » في الاندلس يخلع قبعته ــ يدعى هناك الرجل الامين ــ لأنه تكفـل بسيدتين تركيتين جلستا في السلال الكبيرة[1] كانتا زوجة وحمـاة « لميجر » في بغداد تعهد هذا الرجل أن يوصلهما بأمان الى هناك .

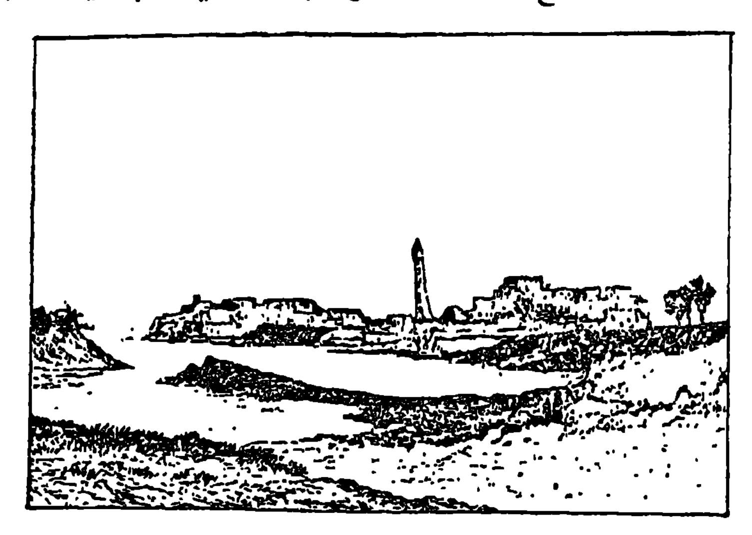
كم كان حجم المعاناة التي تعانيها السيدتين كبيرا وهما في هذا الكرب الشديد ... اني أفترض وجود أزمة في الاخلاص بينهما وبين الميجر ؛ والا كيف يرضى بفكرة رحلة تمتد أربعة أسابيع ، وهما حبيستا الاقفاص كدجاجتين

---

(١) يبدو أنه ضرب من الهوادج التي تنصب على ظهور المطايا ويبدو كذلك ان الليدي لم تدرك بعد مشروعية الحجاب في الاسلام وان الامر هو اكبر من موضوع أزمة الثقة بين السيدتين والميجر التركي .

في قن تنظران من السلة الكبيرة وتتمايلان طوال اليوم كسفينة في بحر مظلم ، وقد جللتا بحجاب قطني سميك ، وكنت أستغرب من قبل قول الناس : أنه لا توجد هناك روابط اجتماعية حقيقية بين المسلمين !.

سار مع القافلة أربعة درك بالاضافة الى سليمان . أحدهم كان حلبيا ولهذا تصادق فورا مع حنا ، وأعاننا عن طيبة خاطر في نصب خيامنا وربط



قريـــة الميادين

جيادنا . خيمنا على بعد نصف ميل من قرية الميادين التي كانت شبه جزيرة حيث العشب الاخضر ، في موقع كنا نأمن فيه على أمهارنا من السرقة . وما ان وصلنا حتى ذهبت القافلة وسليمان وبقية الدرك ليقضوا الليلـة في الميادين باستثناء محمود ، بينما بقينا نحن هنا ننعم بالهدوء والسكينة . جاء مدير القرية مع أصدقائه ليقدموا لنا التحية فشكرناهم على ذلك ... كانت السماء صافية والليل تزينه النجوم في مكان كنا نشاهد منه الميادين بوضوح بمئذنتها المائلة. قمنا بربط الجياد قريبا منا ورؤوسها داخل الخيمة وقيدنا أعقابها بحبال حتى لا تدخل كلية في الخيمة ، وباتت تأكل الطعام الغني من الذرة ، بعد أن رعت العشب ساعتين من الزمن . كنا نصطحب من الخيل هاجرا وطرفاء جوادي

الصغير الجديد ، أما البقية أعيدت الى حلب مع السيد « سكين » • أما الدركي محمود فكان يركب مهرا عمره سنتان تمادى اليوم بحركاته الكثيرة وهو يحاول أن يحرر نفسه من رباطه بين الفينة والاخرى • أما طرفاء ـ فرسي الحرون ـ فهي الاخرى استأثرت باهتمامي ومراقبتي لها طوال الوقت •

في الثامن والعشرين من كانون الثاني طالعنا صباح بارد حقيقي•وسليمان الذي كان يعظنا بفوائد النهوض المبكر لم يظهر علينا الا عند الساعة الثامنة ، وحتى « القاطرجية » كان علينا انتظارهم ، الا أننا سبقناهم في الرحيل وابتعدنا عن الميادين ، لحق بنا المدير بسرعة ترافقه كوكبة من الفرسان ليؤدي لنا تحية الوداع وليقوم بمراسيم التشريف في فرقة من الموسيقى الاعتيادية • أعجبنا في خيوله فرس كميت ـ أخبرنا أنها من سلالة العبية شراك ـ والالوان الكميت الشقراء في كل الخيول التي كانت تجري • ونسيت أن أذكر المهر الجميل الذي أحضر الينا الليلة البارحة بلونه الماوردي • كان المهر من سلالة الكحيلات،وعلى درجة كبيرة من الرشاقة والجمال ، لقد دخلنا في مفاوضات مع مالكه الذي تظنه من العقيدات أو من البقارة ، ولكن الرجل عجز عن اثبات تفاصيل السلالة ولم يزد على القول : انه كحيلان دون أن يذكر أي اسم اضافي ونسي فيما اذا كان من الخيل « الهدودة »[1] أم لا ، لذلك لم تتابع القضية الى أبعد من ذلك• ذكرتني هذه الحادثة بالقاعدة التي تقول : ان العربي ـ خلاف ما يجري في المدن ـ لا يمكن له أن يكذب حول أصل الخيل ، وان القضية هي قضية مبدأ، والا فمن يمنع مثل هذا الرجل أن يكذب في غياب الشهود ، خصوصا وأن صدقه يجعله يخسر سعرا جيدا لحيوان هو بأمس الحاجة الى بيعه ، وباستثناء هذه الحالة لا يمكننا أن نعتبر الصدق حالة سائدة بين العرب •

مسيرتنا اليوم كانت عبر أرض مفلوحة ، وبالتالي فهي غير ممتعة باستثناء الاسراب الكبيرة من القطا التي كنا نصادفها من وقت لآخر ، والقطا طيور

---

(١) الفرس الهدودة او الطلوقة حصانها من الاصالة بمكان يحق له ان ينزو على اي فرس لياتي مولودها اصيلا معترفا به .

معروفة جيدا بحيث لا تحتاج الى وصف ، وتنوعها هنا لا يختلف أبدا عما رأيناه في مصر وفي الاماكن الاخرى التي مررنا بها • اصطاد ولفرد ــ وهو على ظهر جواده ــ خمسا منها كانت تطير أمامه • سعدنا باصطياد القطا الجميل[1] على الرغم من أنه لا يصلح لأغراض الطبخ ، واعداد الوجبات الدسمة • في منتصف هذا اليوم وصلنا الى هور كبير غطته طيور الوز والبط ، ومن حسن حظها لم نجد مكانا يمكن الاحتماء به أو الوقوف عليه ، وبالتالي لم تكن الفرصة مواتية لممارسة الصيد ، فتأسفنا لضياع الوقت سدى بينما تجاوزتنا القافلة كثيرا ، ولم نلحق بها الا بعد أن توقفت عند خيام العقيدات[2] التي كانت في حقل مزروع بالشعير • كانت الخيام منصوبة طوال الشتاء ، وكان المكان قذرا بشكل يبعث على الاشمئزاز تجوبه الكلاب النابحة • لم نرتح لهذا المكان ولهذا التقت آراء الدرك وسائقي البغال وحنا مع آرائنا على أن تتابع المسير بينما كان سليمان يحاول عبثا الاستعطاف ليثنينا عن متابعة المسير ، وألح في الطلب قائلا : تمهلوا لأننا لن نجد العشب ولا الماء أمامنا في الطريق ، وربما اضطررنا للنوم في البادية • أخبرناه أن يهتم بشؤونه الخاصة أولا وعليه أن يتابع كما يشاء ، فلحق بنا مكفهر الوجه • واصلنا المسير مدة طويلة قبل أن نصل الى مكان جميل يطل عليه جروف عال كثير الاعشاب والشجيرات وحطب النار ، يحف ببركة صغيرة من الماء ترتادها أنواع من الحذف والبط ، فتوقفنا هناك في مكان ممتع بعيدا عن أصوات البشر والحيوانات • وما أن توقفنا حتى أشعلت النار ونصبت أواني الطبخ فوقها تحت اشراف حنا لطبخ القطا والحمام•

عاد الدركيان الى مزاجهما الحسن مرة ثانية اذ سمعتهما يضحكان ويتحدثان بدون انقطاع في وقت كانت تغرب فيه الشمس تاركة شفقا أحمر

---

(١) القطا (Gutta Katta) طائر جميل كالحجل وفقاً لوصف بالغريف قارنه بوصف ماركو بولو للطيور : وهي كبيرة كالحجل ولها اقدام كأقدام الببغاء وذنب كذنب السنونو كثيرة الطيران (المؤلفة)القطا : فصيلة من رتبة الحمام ومن انواعه في ديار العرب : المصري والكدري والجوني والعراقي والارقط والمكلل والموشم .

(٢) هم عرب الثلث من العقيدات .

ينذر بسقوط المطر • ولكن لم نعد نفكر بشيء، وحصرنا الاهتمام بكيفية هضم الطعام الدسم الذي أعده حنا في هذا المساء •

في التاسع والعشرين من كانون الثاني أصبحت طرفاء مصدر ازعاج لنا طوال الليل ، اذ كانت تنبش الارض وتضربها بأيديها وأرجلها ، وتحاول أن تتحرر على الرغم من تكتيف أقدامها ؛ فربما كانت خائفة من الذئاب والضباع وبنات آوى التي كانت تعوي حولنا ! وشارك طرفاء الخوف الدركي محمود فأبقى النار مضرمة حتى الصباح ، ولهذا اشتكى لي في الصباح وقال : ان النوم في البادية يبدو مرعبا ومخيفا بين الذئاب والوحوش • أما أنا فأحييتها أكثر من سماع كلام العرب وصياح الديكة وثرثرة الرجال التي لا تنقطع •

كانت فرسي حيوانا مملا على الرغم من مظهرها الجميل ••• مخادعة محتالة،ولهذا لم أعد مغرمة بها مثلما كنت من قبل•يبدو أنها صممت على العودة الى الدير مهما كلف الثمن ، كما فعلت في السابق •• قال الرجل الذي اشتراها أول مرة ، كانت طرفاء قد سرقت منذ حوالي ستة أشهر وبقيت شهرين بعيدة عن موطنها ولكنها ظهرت ذات مساء على معدية مقابل الدير وفرت منهم • وهو ما تحاول أن تفعله الآن على الرغم من أنها مقيدة القدمين • وكم من مرة تحاول فيها سحب الوتد من الارض الا أن ولفرد خطط لمنعها من ذلك بطريقة ناجحة ، اذ قيد الاقدام الامامية ثم مرر حبل الرأس مقصرا عبر القيد قبل ربطه بالوتد ، مما حرمها من سحب أي شيء مهما حاولت ومع ذلك زاد هياجها أكثر من ذي قبل •

عند شروق الشمس هبت ريح عاتية فتجمدت أطرافنا حتى اننا لم نعد نقوى على حزم الامتعة • لم نتمكن من الرحيل قبل مجيء « القاطرجية » الذين غادروا القافلة لقضاء الليل في مكان مجاور ، وتلك مشكلة من مشاكلنا مع أصحاب الحيوانات المستأجرة،ولكن لن ندع القافلة تغيب عن الانظار بعد الآن•

كان علينا أن نسير ساعتين أو ثلاث في البادية قبل أن نمر بالصالحية[1] والصالحية في مثل مساحة الرقة وربما كانت معاصرة لها . لها بوابة جميلة تطل منها على الغرب تدعى باب الشام . ويفترض أن الصالحية كانت مدينة عامرة ، لأنها في مكان يقع على الطريق المحاذي للنهر آتيا من عنة ، ولارتباطها بطريق يؤدي الى دمشق ، ولكن طرق الصالحية توحي أنها كانت مهجورة منذ أمد طويل . عدنا الى الوادي فوجدنا أمامنا سهلا فيه الشعير الاخضر ! وأكوام من الشوك اليابس تناثرت هنا وهناك ، ولم يفكر العرب بازالتها والافادة من مكانها في مجال الزراعة . سرنا أكثر من ميل دون أن نتبع أي طريق حتى ان الممر الذي كنا نسلكه قد اختفى فأخذنا نتلمس طريقنا بين الصخور والتلال الطبيعية التي تجبر المسافرين أن يطؤوا فوق أقدام بعضهم البعض . وفي بعض الاماكن وجدنا النهر يقطع الطريق بتدة ، وعلى المسافر أن يكون حذرا في الظلام،اذ لا يدري أين موقعه من الاجراف التي تطل على النهر بانحدار شديد.

يعتبر هذا الجزء من وادي الفرات أكثر كثافة بالسكان وأفضل مكان مزروع مررنا به ... وعندما جاوزنا حقول الشعير وجدنا أنفسنا في غابة مكشوفة تتألف من أشجار كبيرة من الطرفاء . وكانت كل شجرة تنمو على كومة منفصلة من التراب حتى انه يصعب على المرء أن يتصور فيما اذا كانت الكومة أوجدت الشجرة أم أن الشجرة أوجدت الكومة .

وجدنا جماعة من العقيل[2] كانت في طريقها من حلب الى بغداد تعسكر في مكان قرب الطريق كانت ابلهم ترعى فيه بحرية ، فتوقفنا عندهم لشرب القهوة التي اعتادوا على تقديمها لضيوفهم بكرم وسخاء .

---

(١) اطلال مدينة اثرية على الضفة اليمنى لنهر الفرات تسمى الصالحية . ويعود تاريخها الى القرن الثاني بعد الميلاد وفيها آثار رومانية وتدعى هذه المدينة في مصطلحات علم الاثار دورا اوربيوس .

(٢) كانت العرب تسمي كل جندي اصله من مقاطعة القصيم في نجد عقيليا . وكل حارس من حراس القوافل عقيليا حتى ان لم يكن منهم .

العقيل قوم من العرب الاصلاء في مدينة بغداد على الرغم من أنهم ليسوا من القبائل المشهورة ، وهؤلاء القوم يهجرون منازلهم وأهليهم ويكثرون من الترحال في القوافل التي تسير على الطرق الهامة محملة بمختلف البضائع المنقولة بين المدن .. ومن عادتهم الترحال ببطء حتى لا تتعب رواحلهم ، ولم يعرف عنهم أنهم قطعوا أكثر من عشرة أميال في اليوم الواحد .

وطبيعتهم مضيافة .. كانوا يتركون أهليهم في بغداد ويسافرون ثم يعودون اليهم من جديد . وجدناهم اليوم يكومون أحمالهم على شكل دائرة ويجلسون داخلها .

غادرنا معسكر العقيل وسرنا في غابة حتى بدأت الشمس بالمغيب ، ولم تظهر علينا معالم البوكمال[1] بعد . وكان لزاما علينا أن نصلها في الليل . فلو كانت القافلة معنا لخيمنا حيث نحن الآن ، أما وقد حدث تأخرها فعلينا متابعة المسير ولا خطر يترتب على تركها خلفنا لأن جماعتها ستلحق بنا الى البوكمال فيما بعد .

تسلق ولفرد قمة تلة كانت تشرف على مساحة شاسعة من البلدة فوجد أربعة من القبور ، ودار ببصره نحو الخلف فلم ير أثرا للقافلة . واتفقنا أن نعدو لنصل قبل حلول الظلام ، شاهد ولفرد حصنا كبيرا على بعد ثلاثة أميال فعدونا بجيادنا نحوه بلطف ، اذ حاذت طرفاء هاجرا دون أن أتوقع منها ذلك . تركنا الدرك خلفنا وفي غضون ربع ساعة وجدنا أنفسنا عند حصن البوكمال فاستقبلنا المدير بترحيب كبير ، وذبح لنا حملا صغيرا في الحال ، وقادنا الى السطح ، وحاول أن يدخلنا الى غرفة القيادة هناك حيث كان يعيش ويشعل نارا كبيرة بداخلها ، الا أننا فضلنا البقاء خارجا والاستلقاء على السطح ، حيث استغرقنا في نوم عميق في الحال ، لأننا سرنا اليوم بكامله . وما ان أفقنا حتى

---

(١) البوكمال بلدة صغيرة قامت عام ١٨٦٤ م حول بعض الخانات التي شبهتها الليدي بالحصون . كان اولها خان النقيب والثاني خان السيد صالح . وفي الخان الذي وصفته كان يقيم مسؤول الحكومة العثمانية .

وجدنا الظلام يخيم على المعمورة والقمر يبعث بنوره الفضي والنجوم تتلألأ في كبد السماء • وبما أن الريح قد هدأت أشعلنا شمعة على المصطبة مكنتني من الكتابة • وأصبح العشاء بعدها جاهزا ، اذ اصطفت ثلاثة صحون فيها لحم الخروف ، بينما وقف مضيفنا ;وهو يرتجف ليسهر على خدمتنا • وصلت القافلة فارتحنا لوصولها ؛ وذهبنا لننام في ليلة شديدة الصقيع بعد أن فرشنا أغطيتنا على السطح دون أن نلزم أنفسنا بالمبيت في برج القيادة •

في الثلاثين من كانون الثاني علمنا أن كل الحصون التي شاهدناها على الفرات كانت مبنية بمخطط واحد يتألف من : باحة مربعة أحاط بها جدار من الطين يرتفع اثني عشر قدما ولا ينفذ على العالم الخارجي الا عبر بوابة مفردة ؛ وعلى الاضلاع الثلاثة اصطفت غرف منخفضة وغرف علوية أشبه ما تكون بالصندوق ، كان ينام فيها كبير القوم ، ومن هذه الغرفة كان يشرف على كل البلد من حوله ويمضي وقته في ترقب القوافل التي تأتي الى هذا المكان في نمط من الحياة الرتيبة المملة • أخبرنا مضيفنا أن العنزة لا يزالون في الجوار على بعد مسيرة يومين فقط • وفي هذا المكان استنتجنا خداع الباشا الذي أخبرنا أن جدعان قد مر من هنا منذ وقت طويل وفي مائة وخمسين من فرسانه عائدين عبر النهر حيث كان في غارة على شمر •• انه خبر مثير ولكنه وصل بعد فوات الاوان ، ولم يكن بوسعنا أن نغير الخطط •

اتخذنا طريقا ــ هذا اليوم ــ عبر ريف جميل لا زراعة فيه ولا سكان باستثناء الطيور والوحوش ، فيه برك محاطة بأجمات النبات ، وفي هذا المكان أطلق ولفرد بعض العيارات النارية ، وفي اندفاعه ناجحة لي عبر الطرفاء حصلت على خمس بطات من أنواع مختلفة • وفي الحقيقة ان هذا الجزء من النهر يعتبر مكانا رائعا للنزهة والصيد بآن واحد ، لأننا قد وجدنا بركا وسبخات تعج بالإوز والبط والشنقب وعموم الطيور المائية ، وبجوارها غابة للطرفاء كبيرة مليئة بالدراج ودجاج الارض والخنازير البرية التي شاهد ولفرد كثيرا منها في الغابة • أطلق ولفرد النار على ذئب فمضى بعيدا وهو يركض بقدم مكسورة •

وكم كانت هذه المرحلة مريحة لأن القافلة لم تكن معنا ، وتخلفت في مكان ما منذ الليلة الماضيـــة .

خيمنا الآن في مكان يدعى القائم[1] اذ وجدنا جدولا صغيرا من المـــاء يجري ، وأمامنا مشهد جميل من العشب الاخضر ، ومنظر رائع من غابة الطرفاء والنهر الرائع الجميل قربها ، وهناك محرس للدرك كان على مسافة قريبة منا . فأرسلنا الى عسكره نطلب منهم الذرة للخيول . ان معظم بيوت الحراسة على هذه الجهة من الدير لا تزال محمية ــ على الرغم من ظروف الحرب ــ باثنين آو ثلاثة من الدرك ، وكان من الحكمة أن نعسكر في جوارها لأن المنطقة كانت مهددة بغزو دائم ولأن جدعان قريب من هذا المكان .

ستصل القافلة الى الموقع الذي توقفنا فيه ، ولهذا جلسنا بهدوء نستمتع بجمال الطبيعة الساحرة ، ولكن قافلة كانت قادمة من مدينة عنة استقرت قربنا لقضاء الليلة تحت حماية سليمان ، أفسدت علينا السرور والبهجة بالضوضاء والجلبة ونهيق حميرها التي لم تنقطع لحظة واحدة ، فغطت بأصواتها علـــى أصوات سائقيهـــا .

استطلعت القافلة فوجدتها تتألف من مائة حمار ، ولم أجد أي بعير بينها ، ولهذا توقعنا أن ننام ليلة قاسية مزعجة على الرغم من توفر الماء والعشب والحطب .

أخذنا جانب الحيطة والحذر خوفا على خيولنا من السرقة ، فنمنا بعين

---

(١) سميت المنطقة بدير القائم ولا ندري فيما اذا كانت الليدي تقصد دير الزور ام دير القائم ومن المرجح انها تقصد دير القائم . ودير القائم منطقة خربة فيها دير ومرقب قائم قال فيه عبدالله بن مالك منشداً احد خلفاء بني العباس:

بديـــر القائـــم الاقصى   غـــزال شـــادن احـــوى
بـــرى حبي لـــه جسمي   ولا يـــدري بمـــا القى
واكتـــم حبـــه جهـــدي   ولا والله مـــا يخفـــى

وتركنا الاخرى تحرس[1] لأن الدرك لا يصلحون للحراسة ، فهم يسهرون مع الغناء حتى منتصف الليل ، ثم يغطون في نوم عميق في النصف الآخر ... وهكذا حملنا العبء الاكبر في حراسة الخيمة هذه الليلة . أعد حنا طعاما ممتازا للعشاء : حساء الحذف والبرغل وقطع اللحم وبقايا خروف البارحة بالاضافة الى ديك يحفه البصل المقلي،وعندما فرغنا من الطعام نمنا على أصوات الذئاب وعواء بنات آوى . وكان عزاؤنا في النار العظيمة التي كانت نوقدها القافلة ، اذ أبعدت الحيوانات المتوحشة عن المكان .

كان محمود الحلبي ــ مثله مثل كل الحلبيين ــ يخاف من الوحوش ولهذا بقي يقظا وقال : ان الجياد تراها كلما نظرت في ظلمة الليل البهيم .

وددت في هذا المكان تغيير حشوة سرج الفرس التي باتت غير مريحة . ولكن الوقت لم يكن كافيا فأرجأت العمل الى وقت آخر .

في صباح الحادي والثلاثين من كانون الثاني رحلت قافلة الحمير مبكرا عن المكان . فغطت المكان مئات من طيور العقعق باحثة عن البقايا والروث وفتات الطعام .

وصلنا الى بلد جديد اختفت فيه الاجراف على الضفة اليمنى للنهر وأخذت المنحدرات المنخفضة تتقاطع مع المسيلات المائية ، بينما انتصبت على الضفة المقابلة من النهر قمم جبيلة تطاولت بانتظام . وبعد أن سار النهر نحو الجنوب عدة أميال وجدناه يتجه نحو الشرق بشكل عام ، وضاق الوادي تدريجيا ليصبح عرضه ميلا على وجه التقريب ، بينما اختفت غابات الطرفاء فجأة من المنطقة ... سألنا عن ذلك فقالوا ربما يكون هذا لصالح رحلتكم .

عبرنا ــ اليوم ونهار البارحة ــ مجموعة من الوديان المتحدرة الى النهر. كان من أشهرها وادي علي ، الا أننا لم نجد في أي منها ماء يجري على الرغم

(١) يتطابق وصف الليدي لنومها مع وصف حميد بن نوار الهلالي لنوم الذئب:

ونمت كنوم الذئب في ذي حفيظة ... اكلت طعاما دونه وهو هاجع

ينام باحدى مقلتيه ويتقي ... باخرى الاعادي فهو يقظان هاجع

من أننا في شتاء ماطر . ومن الصعب أن نفهم تحت أي ظروف يمكن اعتبارها أنهارا ، وعلى كل حال فنحن وجدنا أثر الماء يعلّم في بطونها ، وهو ما يدل على أنها كانت يوما ما مليئة به . وفي مكان قريب من منعطف النهر كان الكولونيل « شيسزني » قد فقد احدى سفنه التجارية في عاصفة هوجاء عندما كان يقوم بمسح نهر الفرات . وهناك تدوين طريف لما حدث لايزال محفوظا في «أرشيف» القنصلية البريطانية في حلب ، وهو التقرير الذي قدمه أحد ركاب السفينة من الانكليز كان على ظهر السفينة عندما وقع الحادث مع مجموعة من الرجال العرب ... غرقت سفينتهم وانتشلوا في مدينة عنة . انني أتذكر من ذلك التقرير المقطع التالي :

« عصفت الرياح وعلت الامواج ثم تلاطمت بشدة . ولم يكن هناك من سبيل سوى الدعاء والبكاء تضرعا ، وعبثا ما كنا نفعله ، ولهذا ألقينا المرساة في الماء ، فانعطفت السفينة بزاوية وغرقت ... » .

بعد الظهر قطعنا مرة ثانية جزءا من البادية بشكل زاوية ، وقمنا بجولة ناجحة لصيد القطا ، ثم جئنا الى طاحونة متهدمة بنيت على النهر لم نفهم في البداية ماهيتها . فان كانت بقايا ناعورة فالنواعير كانت قد اختفت منذ زمن طويل[1] ، ومن المحتمل أن تكون بقايا لمنشأة اسلامية رممت فيما بعد ، لأن الجزء العلوي منها يبدو أكثر حداثة فلا بد وأن تكون مثل هذه المنشأة قد استخدمت لإرواء الوادي على جانبي النهر ، ومن الجدير بالذكر أنني أجد أسماء الطواحين على الخريطة بكثرة ، ومن المحتمل أن تكون هذه من أوائلها . ومن الغريب أن لا نجد مثل هذه في الاقسام الشمالية من الوادي حيث الاراضي الخصبة والتربة الجيدة ، فربما كان الناس يعتمدون على الزراعة البعلية في الشمال أكثر من اعتمادهم عليها في الجنوب . لم نجد في هذا المكان زراعة ولا

---

(١) كانت النواعير دائرة على الفرات في العصر العباسي . قالت علية بنت المهدي عام ٢٠٠ هـ :

اشرب وغن على صوت النواعير ... ما كنت اعرفها لولا ابن منصور
لولا الرجاء لمن أملت رؤيته ... ما جزت بغداد في خوف وتغرير

سكانا ، ولم نعد نفهم كثيرا من الاماكن التي وضعها الكولونيل « شيسزني » على الخريطة ، إما لأنه قد وضعها خطأ ، أوأن الاسماء قد تغيرت في غضون الاربعين عاما الماضيــة •

كان الاول من شباط يوما شاقا اذ ترامت البادية أمامنا ثم انحدرت باتجاه النهر لتجعل من أكتافه مناطق جرداء لم نجد فيها أية بقعة خضراء• لقد غبنا عن الانظار طوال اليوم ونحن نتعثر فوق أرض صخرية وعرة جدا حتى ان الفرسين كلتيهما قد نال منهما التعب • أما مهر محمود فقد تخلص اليوم من سلطتــه وأخذ يمرح ، ولهذا ألقمه اللجام كما يفعل الدرك بخيولهم • وفي آخر المطاف ارتحنا لرؤية طلائع أشجار النخيل التي تطاولت فوق خط الانق وهي تنمو وتتعالى فوق سرير النهر في شريط ضيق من الارض نحت بشكل حاد خــلال البادية الصخرية ، انها المنطقة الامامية لواحة عنة[1] • وبعد ساعتين كنا علــى مشارفها ننظر من الحافة الى النهر حيث امتدت عنة في منظر جميل مريح بالنسبة للعيون المسافرة المتعبة ••• ان ما أشاهده من مناظر لم أكن أشاهده من قبل وعلي أن أصفه : يضيق الفرات بشدة في هذا المكان لأنه يشق طريقه عبر خط ضيق من الهضاب الكلسية ، ويعبر مجراه في زاوية قائمة الامر الذي جعلــه يشكل ممرا ضيقا بمنعطف عميق ممتدا عدة أميال • وفي قاع هذا الصدع يجري النهر في سلسلة من المنحدرات التي ازدانت بأشجار النخيل • يبدو أن المدينة هي من المدن الموغلة في القدم ••• تتألف من شارع واحد يمتد طولا مسافة كبيرة وعلى جانبيه بيوت منخفضة بنيت من الطين لها سطوح منبسطة ؛ وزود كل بيت بحديقة صغيرة سيجت معه بجدار واحد • شاهدنا في عنــة مجموعة من الازقة الضيقة كانت تقود الى النهر ، وتمتد الى أكثر من ستة أميال • ولكن لم نتجول فيهــا •

---

(١) عنة مدينة قديمة يعود تاريخها الى القرن الثالث عشر والثاني عشر قبــل الميلاد . حولها بقايا لآثار قديمة وبعض الاديرة الا أن مياه سد الحديثة في العراق غمرت هذا المكان التاريخي الجميل الذي لا يزال يذكر في مذكرات السياح والرحالــة •

في مقدمة النقطة التي وصلنا اليها وجدنا منعطفا نهريا جميلا يلتف حول جبل شديد الانحدار حيث تقوم القلعة التي بنيت مؤخرا .

تعود عنة في تابعيتها الى باشوية بغداد ، وكما أخبرنا فان قلعتها هي واحدة من سلسلة قلاع كانت قد بنيت بأمر شخصي من مدحت باشا[1] لحماية طريق الفرات . وعلى الرغم من كونها حديثة النشأة فهي ليست من الطراز السيء ، وتظهر بوضوح في المشهد الذي آطالعه وأصوره . تعذر علي أن أشبه عمق الممر الضيق والجمال المتناهي لبساتين النخيل الخضراء العاتمة التي تواجه الصخور الحمراء . أما بالنسبة للذين زاروا مصر فان معالم المنظر لم تكن غريبة عليهم .

ركبنا خيولنا لنتجول في الشارع الرئيس للبلدة فتجمع الناس في مجموعات ليشاهدونا ونحن نمر بهم ، وأخذوا يردون على تحياتنا بأدب ووقار ... وأخيرا وصلنا الى مكان مكشوف يحاذي النهر حيث وجدنا القافلة قد خيست قبلنا . رغبنا بالتوقف على الرغم من أننا نطمع في أن نجد مكانا مناسبا ، غير أننا لم نجد أفضل من مجموعة من أشجار النخيل نصبنا خيامنا تحتها حيث النهر الجميل وبجانبه الابنية في مناظر رائعة جميلة . والاهم من ذلك كله أن نجد أنفسنا في مكان يحمينا من الريح على الرغم من ندرة العشب الذي تنشده الخيل، ولكن تغلبنا على ذلك بالكمية الوافرة من الذرة والتبن التي كنا نملكها. جاء قائمقام المدينة ليقدم لنا التحية ... وعدد من ثقلاء الدم الذين لم نتخلص منهم بسهولة . وبعد ذهابهم حمدنا الله لأننا تناولنا عشاءنا بسلام ، ولأننا في مكان آمن هادىء نأمن فيه على جيادنا من السرقة ، ولهذا سننام الليلة ملء الجفون .

* * *

(١) مدحت باشا « ١٨٢٠ ـ ١٨٨٣ » من رجالات الادارة في الدولة العثمانية ، نشر الروح الدستورية في البلاد العثمانية واراد الاصلاح . مات مخنوقا في السجن على ايام السلطان عبد العزيز .

الفصل العاشر

برناردو هنا ... هوراشيو هنا كذلك
اما مرسيلس فقد ذهب

● هاملت

غزوة بدوية ــ تحدثنا الى شبح ــ وعد زينل أغا ــ التصميم على الرحيل ــ القائمقام يرافقنا ــ سطم يضيفنا ــ وجبة بدوية ــ أخبار من الوطن .

الثاني من شباط كان يوما من أيام الكسل والراحة الممتعة . ففي مطلعه تفقدنا ظهور الخيل بدقة والسروج التي حيكت ، فبدت هاجر مرهقة بذبول موجع ، ولعلي بتبديل حشوة السرج أكون قد وضعت الامور في مسارها الصحيح ، ولحسن الحظ كان اليوم جميلا والشمس دافئة بقدر مناسب مكن الخيل من المرح والتمرغ بالرمل في سعادة بالغة . وبينما كنت أعد السرج ذهب ولفرد في نزهة مشيا على الاقدام الى تلة مجاورة برفقة دركي شاب من سكان المنطقة عين لحراستنا ما دمنا في المنطقة ، ولم يعودا الا عند الثانية عشرة وبجعبتهما زوجان من الحجل ، بدت بلون الحمام الرمادي التاحب ، وكأنها من لون الصخور التي تعيش فيها ، أرجلها صفراء ومناقيرها برتقالية ، وعيونها برتقالية ذات بؤبؤ أسود[1] .

كانت التلال التي تجول فيها ولفرد مهجورة تماما ، غير أنه في طريق العودة صادف مجموعة من الرجال يركضون الى قمة الهضبة فأخبروه أن جماعة من العنزة قد غزت المنطقة وساقت بعض المواشي ، وهو شيء طريف يوضح العلاقة بين وادي الفرات والبادية ، اذ لا يعرف أي نوع من الاتصال

---

(١) غالبية حجل بوادي الفرات هي من الحجل المقوقيء Chukar واسمه العلمي : Alectoris chukar تغلب على أثوابه الالوان الرمادية الباهتة.

بين البدو وسكان الوادي الا عن طريق الغزو ، ويبدو أن الامر لا يتم الا في مواسم معينة من السنة • ان البادية أقليم مثير للجدل ، اذ لا يرتاده شخص دون خوف ورعب ، وعلى الاخص عندما يكون من سكان الحاضرة • كانت البادية قربهم والسلب والنهب كان قائما على قدم وساق ، وهو أمر يجهلـه الاوربيون ولم يكونوا قد سمعوا به الا من خلال قصص وروايات الرحالة •

جلسنا قرب النهر ظهر هذا اليوم نراقب السكان وهم يردون الى النهر للوضوء والصلاة ، فتقدم منا رجل مهيب المظهر حسن الطلعة بلحيـة بيضاء طويلة وعمامة خضراء فوق رأسه فحيانا بوقار ••لقد كان من ملاحي الكولونيل « شيسزني » قديما حتى اننا نلاحظ أن زيه خاص به • بادرنا بقوله : ان الميناء أمامكم وأخذ يعرفنا بنفسه ، فهو يعلم لغتنا لأنه خدم مع الكولونيل قبـل أربعين عاما ، وأخذ يسأل بتأثر بالغ عن الضباط الذين عملوا معه في المسح ؛ وسُر عندما أخبرناه أن قائده شيسزني لا يزال على قيد الحياة ، وعندها نزل الى النهر في وقت هممنا فيه بالنزول لنغتسل فيه كالاخرين ، وبذلك قطعنا حديثنا معه ، وعندما عدنا للبحث عنه ثانية اختفى وكأن الارض قد ابتلعته ! فهل هو شبح من الذين غرقوا في اعصار عام ١٨٣٦ ؟ وأكثر الظن أنه سبح عبر النهر دون أن نتنبه ، ولكن يبقى اختفاؤه بهذه السهولة لغزا من الالغاز التي يصعب علينا حلهـا •

وأخيرا تخلصنا من سليمان وكان التخلص منه أمنية تبعث على السرور والغبطة ، فقد جاء هذا الصباح ليقول : انه لا يستطيع أن يذهب معنا الى أبعد من ذلك ، وطلب مكافأة للخدمات التي قدمها لنا ، فأعطاه ولفرد أكثر مما يستحق ، ولكنه ذهب غاضبا مكفهر الوجه وبدا غير راض عما قدم له • ويبدو أنه قد نثر النقود في خيمة حنا وهو يسب ويشتم بلغة بذيئة ، فجاءنا ليخبرنـا بما حصل بسرور وليعلم فيما اذا كان يستطيع أن يحتفظ بالنقود التي تركها سليمان ، ولكننا أخبرناه أن يتركها في مكانها وليفعل سليمان كل الذي يريده•

علينا أن نرحل غدا صباحا على الرغم من أن الجياد كانت تحتاج الى يوم

آخر من الراحة ، الا أننا نفضل أن نكون خارج المدينة • ان الزوار الذين قدموا لرؤيتنا جاؤوا ومعهم التمنيات والدعوات المؤدبة لنتناول معهـم طعام العشاء أو الفطور ، غير أن التعب الذي نحس به منعنا من أن نعيرهم الاهتمام المناسب ، كما جاءنا رقيب جديد من الدرك ليحل محل سليمان ، انه الالباني زينال أغا أو زينل ، فتسنينا أن يكون مقبولا أكثر من سابقه سليمان •

في الثالث من شباط كان يوم الاحد الذي طلع علينا بسطر غزير بعد عاصفة في الليل كثيرة المطر الا أن خيمتنا كانت ضد المطر ، وبسقوط المطر تذرع سائقو البغال لطلب يوم آخر من الراحة ، كما أن القافلة التي وصلت البارحة كانت قد أرسلت احتجاجا جديا باسم السيدات اللواتي كن في السلال الكبيرة واللاتي كن في غاية التعب والعجز عن متابعة المسير • كانت الطرقات زلقـة يصعب عبورها والامتعة مبللة بشدة ، فأصبحت عبئا ثقيلا على البغال وعلى الرغم من أن الاعذار كانت كافية ومقنعة غير أننا لم نقبل أي عذر منها • حتى ان الرئيس الجديد لمجموعة الحراسة الرقيب زينل كان قد عبر عن رأيه بلهجة حازمة وقال : ان الرحيل يجب أن يؤجل ، فرددنا على ذلك بالشروع بهـدم الخيام وأرسلنا في طاب البغال لتحمل الامتعة • لقد حالفنا الحظ في اتخاذ هذا القرار لأن المطر الذي كان ينزل بغزارة طوال الوقت قد توقف فجأة ، ولم تمض أكثر من ساعة حتى أصبح كل شيء جاهزا للانطلاق ، وعلي أن أقول : انـه منذ اللحظة التي حسمت فيها القضية كان الجميع يمارسون مهامهم ببهجـة . لأن العبوس لم يكن شائعا بين العرب ، وتكفي كلمة لطيفة لتزيل كامل الغضب من النفوس • كان يحضرني المثل القديم: «ان الناس غير مصنوعين من السكر»؛ وحالما ترجمته الى العربية زالت المعارضة فكان مدعاة لجلب المرح والفكاهة في هـذه المناسبة •

هممنا بالمسير فانضم الينا القائمقام ، وركب معنا بأدب كبير ؛ ورافقنا الى ضواحي المدينة • وعلى الرغم من أن يوم الاحد يعتبر يوم راحة لنا الا أننا واصلنا المسير مدة ساعتين في شارع طويل مليء بالطين وماء المطر ، حتى ان الجسور المحدبة التي كانت مقامة فوق المجاري المائية بدت زلقة تثير مخاوف

السائقين من خطر السقوط ، الا أن القافلة أصبحت فوق أرض صلبة ، ولـم يعد لدى القافلة ــ التي حثثناها على مواصلة السير ــ ما تتذمر منه .

ودعنا القائمقام عند آخر بيوت المدينة بعد أن أمر خاصته باعداد طعام الفطور من الخبز والتمر واللبن حيث جلسنا على عباءة وأكلنا معا ، وعندما فرغنا من الطعام أعطى أوامر صارمة وقدم النصائح كي نسير معا دون تفرق خشية هجوم العنزة الذين سرقوا الليلة الماضية عشر بقرات من المكان نفسه.. ودعنا في هذا المكان ثم انصرف .

حجبت عنا الشمس واستمتعنا بركوب جميل وبشعور الانتصار ، فمرة نجري خببا على ظهور الخيل ومرة نتوقف ، وهكذا بالتناوب ، وكانت الخيل تأخذ قضمة من العشب هنا وهناك ، بينما القافلة تسير خلفنا بهدوء كان زينل دمث الاخلاق ، ويحرص على صداقتنا، ويقدم لنا الشروح عن القبائل والاماكن التي نود المرور بها ، ولا يقاس طبعه بطبع سليمان الغبي الذي كان طوال الوقت عابس الوجه..قد مللنا السفر الممل ومن « الروتين » الذي اعتدنا عليه بصحبته ولهذا تقربنا من رفاقنا الدرك في كل ليلة كنا نتوقف بجوار محارسهم ، نطمع في رؤية أشياء جديدة ، ولهذا عندما وصلنا في حوالي الساعة الثالثة الى مكان في الطريق تراءت لنا بعض الخيام العربية فقررنا الذهاب اليها والتعرف على أهلها بعد أن سرنا طوال اليوم في الاراضي المرتفعة . لا تزال عدة أميال تفصلنا عن النهر ، وهذا أول مخيم عربي نحط رحالنا عنده خارج حدود البادية .

لم يعترض زينل على الفكرة بل قادنا اليهم في مساء ممتع جميل . وقـد ندمنا أشد الندم وندبنا حظنا العاثر الذي كنا نسير فيه كل هذه المسافة مـع سليمان الذي كان مستبدا برأيه وفظا في معاملة العرب الذين كنا نمر بهم في الطريق ، حتى انه كان يحرص على منعنا من مصادقتهم أو التعرف عليهم على العكس من زينل الذي كان لطيفا مع الجميع دون استثناء .

العرب الذين نزلنا عندهم هم من الجغايفة[1] احـدى القبائـل العربية الرعوية على وادي الفرات • الجغايفة أناس مسالمون غير متبججين يرفدون في السنوات الاخيرة قبيلة شمر ، ويعيشون في العراق ، ولكنهم عبروا النهر طلبا لمراعي أفضل • ان وجودهم في هذا المكان يعرضهم لخطر غزو العنزة الذي كنا قد سمعنا في عنـة • ولكني أقدر أن العنزة لا تكترث لهم بسبب حالتهـم المادية وملكيتهم من الغنم والبقر والقليل من الخيل غير الاصيلة •

ضفنا في مضارب الجغايفة عند سطم[2] أوجه رجل فيهم ميزناه بمظهره وطباعه • كان سطم متواضعا شريفا ، حسبناه في البداية فظ الطباع ، لأنـه استقبلنا بفتور حتى ظننا أنه لا يرغب بوجودنا في بيته ، ولكن تبين لنا أن تصرفه هذا كان حياء ، وأن قدومنا اليه كان مفاجأة كبيرة ، وهو الذي اعتاد أن يرى في مضافته قليلا من تجار بغداد لا جماعة من الفرنجة ! كانت زيارتنا لسطم أشبه بزيارة البابا أو امبراطور فرنسا لمزارع في ريف سوسيكس[3] بحيث يصعب عليه التماسك وضبط العواطف ، وهو ما حل بهذا المسكين وهو يضيف هذين الفرنجيين في بيته •

مضت عشر دقائق لم ينطق فيها بكلمة واحدة ، باستثناء كلمات أطلقهن بصوت متهدج مرتفع آمرا بعض الرجال لذبح خروف ، وآخرين لجلب الحطب واشعال النار ، بينما كانت النسوة خلف الستار منهمكات بصنع الخبز واعداد التمر والزبدة في أوان كبيرة •

لم يلتفت سطم الينا بل جلس يدق القهوة بنفسه كما لو أن حياته كانت تعتمد على هذا الدق ••• جلسنا ببساطة على سجادة طرحت خلف موقد النار

(١) عد المحامي عباس العزاوي الجغايفة من عشائر العراق التي تنتسب الى الجبور واحيانا الى اللهيب . منازلهم القديمة كانت بين مدينة عنة وحديثة على الفرات والحي الذي مرت به الليدي هو حي « البوخلف » ومنهـم السطم من الجغايفة .

(٢) هو سطم سليمان العبد الله ، من جماعة « البوخلف » من الجغايفة .

(٣) اسم لمقاطعة انكليزيـة .

في زاوية من زوايا الخيمة ، وسرعان ما توافد الجعايفة ، وكأنهم يعلمون أن وليمة ستقام في هذا المكان لا محالة • لم يكن الجعايفة يشعرون بأية مسؤولية عن تكاليف ضيافتنا ، ولهذا كانوا فضولين ثرثارين أكثر من المعتاد يتوسطهم شاب أعجبتنا أحاديثه غير أن الاخرين كانوا يسكتونه بين حين وآخر • قدمت لنا الزبدة الطازجة مع التمر بعد أن مُهدت بأيدي النساء التي تركت انطباع الاصابع بوضوح ، فاضطررنا لمشاركة الجعايفة الطعام حيث قمنا بغمس التمر بالزبدة مثلما كانوا يفعلون ، وتناولنا لقيمات ثم توقفنا •

انتهى سطم من دق القهوة ، وأضرم النار بحزمة من نبات الخزامى[1] البري الزكي الرائحة ، ثم وضع الماء في دلة كبيرة ، وقربها من النار حتى الغليان بعد أن وضع القهوة فوقها •

التزم سطم بهدوئه طوال الوقت ، وأفرغ القهوة في دلة ثانية ثم قدمها لنا • تذوقت القهوة العربية فوجدتها قوية ممتازة ، وأعجبت بفناجينها الخزفية التي تدار لكل الناس أكثر من مرة،وفي كل مرة يضع الساقي عدة ملاعق في الفنجان الواحد •• وهكذا حتى نهايتها •

فرغ سطم من اعداد القهوة وانضم الينا ليشاركنا في الحديث بعد أن شعر أنه قد أدى واجبه • وكان جل حديثه مع زنيل لأنه أكثر مهارة منا في الذهاب بعيدا في خفايا الحديث ، ومن خلال الحديث تبين لنا أن سطما يملك فرسا يعتز بها ويرغب في بيعها ، لذلك نهضنا جميعا خارج الخيمة لنرى الفرس قبل حلول الظلام •

كان سطم رجلا شريفا بسيطا ، وقليل الخبرة في أمور البيع والشراء . ولهذا أخذ يطري مهرته بالمديح الزائد ، وختم حديثه بصوت عال معلنا زنيل وكيله في تحديد سعر الفرس•لم تكن الفرس رشيقة،بل كانت كستنائية اللون ناقصة الحوافر ، وذات رأس قليل الاناقة • اكتشفنا تشوهات في كشح الفرس وآثار طلقات ناربة ، ومع ذلك كان علينا التظاهر بالاعجاب بدافع التأدب مع

(١) تتصد نبات الشيخ ذا الرائحة الزكية .

مضيفنا فقلنا : ان الفرس ليست بالحجم الذي نرغب بشرائه ، واعتذرنا لسطم لانسحابنا من عملية الشراء • قبل سطم العذر عن طيبة خاطر على الرغم من أننا قد خيبنا ظنه ؛ عرض علينا فرس جيرانه التي كانت من سلالة الهدباء ، الا أنها لم تكن أفضل من سابقتيها وخشينافي البداية أن يكون الرفض سببا في التخفيض من حرارة الترحيب غير أن الامور كانت خلاف ما نظن ، فبعد أن انسحبنا الى خيمتنا مؤقتا جاء مضيفنا ليعلن أن العشاء بانتظار الضيوف •

هذه أول وجبة بدوية تتناولها فعلا، وكان الطعام سيء الاعداد، فالخروف يبدو أنه قد قطع ببلطة بعيدا عن مفاصله الطبيعية ، والعظام قد اختلطت باللحم، ومن المستحيل أن تحصل على قطعة لحم خالية من شظية أو غضروف •• ويبدو كذلك أن التطع ألقيت في قدر سلقت دون أن تتبل أو أن تضاف لها المقبلات، ثم صبت في صحن توسط وعاء خشبيا كبيرا قطــره ياردة ، ووضعت الزبدة بجانب الطعام ، والارغفة المدورة كانت تحف بالصحن ندية لانها قد نقعت حتى منتصفها في المرق ، وفي الوسط استلقت مؤخرة الخروف الدهنية وقطعة كبيرة من الشحم وقطع من الكبد وأشياء أخرى[1] •

وعلى الرغم من كوني وولفرد في غاية الجوع ، الا أننا لم تتقدم كثيرا في تناول الطعام لأننا كنا نأكل على ضوء خافت كان ينبعث من موقد النار حيث تعذر علينا أن نلتقط باختيار ، وكم كنا نرغب باستمرار الظلام لأنــه حجب اخفاقنا عن سطم الذي وقف قربنا يراقب بحرص خشية أن نتوقف عن الاكل قبل الاوان • لم يستطع سطم أن يدرك أن أيدينا أحيانا كانت ترتفع الى أفواهنا فارغة • ولم تمض أكثر من ثلاث دقائق حتى نهضنا ليقدم الطعام بعدنا لزينل وحنا ومحمود وسائقي البغال الذين وصلوا متأخرين مع بقية الغرباء ، وعندما فرغوا من تناول الطعام عزلت للمضيف جانبا بعض قطع اللحم ، ثـم تركت

---

(١) ان الذي شاهدته الليدي هو المنسف الفراتي وقد تربعت فوقه الذبيحــه بكاملها من الكبد الى الطرف في ترتيبة عجيبة مــن اللحم والدهن والخبز . وهو عادة اصيلة عند عرب الفرات من الشمال الى الجنوب ، ولا زال يقدم للضــيفان بهذه الطريقة حتى اليوم .

الفضلات ليتزاحم عليها أصدقاء سطم وجماعته ، فاختفى الطعام بينهم بسرعة • اني أقدر لو أن صحنا مليئا بالطعام وضع في وجار للكلاب لما كان اختفى مثلما اختفى بسرعة بين أيدي هؤلاء الجعايفة الجياع •

كفكف سطم آكمامه وجلس يتناول نصيبه ، وهو يمسح بأصابعه التي كانت تقطر بين وقت وآخر فوق رؤوس أطفاله ، ويوزع عليهم في كل حين اللقيسات تلو اللقيسات !••• انتهت الوليمة بتناولنا بعض اللبن من اناء خشبي وانصرف الضيوف بعدها دون سلام أو كلام •

يسرني الآن أن أقول : اننا في خيمتنا العزيزة حيث كان حنا يعد خفيــة وجبة من بقايا عشاء البارحة • كنا وحدنا في الخيمة نراقب بعدم ارتياح ما يدور حولنا لأن المخيم كان كبلدة في الريف الانكليزي في وقت ازدحام السوق حيث الاغنام تثغو والحملان والابقار تخور • يبدو أن الحيوانات هنا تتجول حولنا دون أن نراها وفي كل مرة نجدها تتعثر بحبال الخيمة • ويبدو أن مظهر خيمتنا الاجنبية كان يدهشها لكنها كانت أليفة جدا ولا حاجة لطردها بعيدا عنا • وكم من مرة كنا نسمع صوت فرس أو مهر يحجل بقيوده الحديدية جاء ليتعارف مع خيلنا ، ولهذا لم نعد تنعم بنوم هادىء طوال هذه الليلة •

في الرابع من شباط وقبل وقت طويل من شروق الشمس كنا نسمع صوت العرب يخرجون أغنامهم وأبقارهم الى المرعى ، وفي وقت لا يزال فيه المخيم ينعم بالهدوء حزمنا الامتعة وهممنا بمغادرة المكان •

يملك الجعايفة بعض الابل ذات السنام التي يوجد ما يماثلها في الهند ، بالاضافة الى بعض الانواع الاوربية • وكأن هذا الجزء من النهر يشكل خطا فاصلا بين السلالتين ! كما أن أغنامهم جميعها كانت من السلالة ذات المؤخرة الثقيلة من السلالة[1] السورية المعروفة ، بالاضافة الى أن الماعز كان يشبه الماعز الموجود في اسبانيا وايطاليا •

---

(١) غنم الفرات هي من الاغنام العواسية ، وماعزه هو من جنس قديم على الفرات يدعى « Capra » وجدت عظامه في كوخ مندثر قرب دير الـزور في الالف السابعة قبل الميلاد .

جاء سطم ليودعنا ومعه اللبن والزبدة من أجل الفطور ؛ وكنا فضوليين لنرى فيما اذا كان هذا الكرم هومن طبع هذا الرجل أم أنه يرغب في أن يعود الى بيته وفي جيبه ثمن ما قدمه لنا ، الا أن كل تلك الظنون قد تبددت عندما طلب منا أن نعيد الكرة وأن نأتي لضيافته ثانية • وعندما ودعنا تمنينا لـه السلامة وتأثرنا لكرمه ولم نعرف كيف نرد له الجميل ، الا أننا ــ على سبيل المجاملة ــ وجهنا له الدعوة مع أصحابه وقطعانه لقضاء الصيف معنا في انكلترا. فقدر لنا هذه المجاملة ووعدناه أننا اذا ما عدنا في الطريق نفسه فان نمر دون أن نتوقف عنده ، وهكذا امتطينا خيلنا في سيل من التحيات الطيبة ، لم نكن نتوقع كرم هذا الرجل ، لأن خبرتنا بالكرم العربي كانت محدودة ، ولم نكن نظن بهم الا جماعة من رعاة البقر •

أصبح وادي الفرات أقل اثارة ومتعة مما كان عليه في قسمه الاعلى ، فقد اختفت غابات الطرفاء ، ولم نعد نرى الا القليل من الواحات الخضراء ، لأن الطريق سارت بنا عبر القفار والبوادي ذات الحجارة الكريهة المنظر ، وكم من مرة صادفنا فيها بعض المسيلات المائية وهي في طريقها الى النهر •• وعلى كل حال نشطت الخيول ثانية بعد عدو قمنا به في الصباح ، ولم تعد تهدأ في مشيها بقيـــة النهـــار •

توقفنا مقابل قرية حديثة[1] في بستان أحاطت جدرانه ببعض أشجـــار الفاكهة ، وبالعشب الذي كانت تفضله الجياد • جابت السماء غيوم ثقيلة وهطل بعض المطر في جو يميل الى الحرارة • بدت حديثة أشبه بجزيرة جميلة تتناثر فيها بساتين النخيل وتطاولت فيها مئذنة عالية ، ولم نعثر مطلقا على أي جسر يوصلنا بها ، انما كان الناس يعبرون النهر سباحة على جلود منفوخة كالتي كنا نشاهدها في الاشكال المحفورة في الاثار التي وجدت في نينوى •

سقط حنا من ظهر حصانه فرض وجهه وبدا حزينا ، غير أني قد سررت لما حصل له لأن الحادث قد ألهاه عن التفكير بالمرض الاساسي الذي يشعر به،

(١) حديثة اليوم مدينة من مدن الفرات الاوسط .

ولكن أخذت أخشى أن يسقط ثانية في غفلة منا ودون أن نشعر ، وكنت أشير عليه أن يضع لزقة من الخردل غير أنه كان مهملا جدا ويعرض نفسه للبرد . وأظن أنه يعاني من أعراض خطيرة،ولهذا تتمنى له الشفاء وقدوم الجو الدافىء.

في الخامس من شباط مررنا ببحيرة كبيرة دافئة ، في واد متصل بالنهر كانت تجوبها مختلف أنواع الاسماك ، وعند اتصال النهر بالبحيرة شاهدنا أسماكا من السلمون تقفز بقوة فقدرنا وزنها باثني عشر رطلا .

وصلنا الى قرية الويزيه فوجدناها قريبة الشبه بحديثة ، وأنبأتنا معالمها أنها مدينة غير عادية كان يسكنها أيوب[1] في الماضي البعيد .. انه المكان نفسه الذي لم يتغير ، لأن المذكور كان يسكن مدينة عربية في بيت يماثل البيوت التي نشاهدها ، وربما كان يربي الماشية في الجزيرة ، ويذهب الى البادية مع العرب في نجعتهم لينصب الخيام في الربيع هناك ، ومن المحتمل أن يكون الصابئة[2] هم الذين يغزونه وينهبون مواشيه كما يفعل البدو اليوم في غزواتهم .

أخبرنا زينل أن ألفا وخمسمائة شاة قد سيقت منذ عدة أيام من جوار الويزية واستغرب وجود المعسكر الذي شاهدنا خيامه على بعد أكثر من ميل عن قرية جباب في مثل هذه الظروف ، غير أننا لم نعد نخشى قصص«الحرامية» وقطاع الطرق ولا حتى الغزو . قبل حوالي ساعة ونصف توقفنا ثم عبرنا وادي حوران الذي حدده شيسزني وقال : انه يأتي من جبال حوران جنوب دمشق. كان الوادي جافا والقمر في ليلة بدر ونحن قرب طواحين بعضها كان يعمل والاخرى في حالة خراب وركام ، فيئس حنا من العثور على حطب ولهذا أغار أحد الدرك على طاحونة وعاد بجزء من دولاب خشبي ، وما فعله كان من صميم

---

(١) يبدو أن الليدي قد تاثرت بقصة سيدنا ايوب عليه السلام التي ذكرت في القرآن الكريم وفي سفر ايوب من اسفار العهد القديم وهو من اقوى الكتب شاعرية واعمقها في العاطفة الانسانية .

(٢) الصابئة : قوم ورد ذكرهم في القرآن بين اهل الكتاب ومنهم من كان يعبد الكواكب . مقرهم في حران بين النهرين . خرج منهم علماء وفلاسفة ومنجمون .

اجراءات الدرك المعهودة ، غير أن الجو كان مشبعا بالرطوبة ، ولم تنفع لإشعال النار الا غصينات الخزامى وجذور بعض النباتات الصحراوية التي أشعلت النار جيدا لأغراض الطبخ •

عاد الرجال ومعهم بعض الكمأ الذي نبشوا الارض وحصلوا عليه ، ولهذا تشجع حنا متحاملا على نفسه ليقدم لنا ــ كما يقول ولفرد ــ طبقا مناسبا لا يقدمه الا هنري نفسه كبير الخدم السمين في بيغنون[1] كان الكمأ أبيض اللون وأكثر طراوة من النوع الاسود ، وبدا كالبطاطا على الرغم من أن مذاقه لا يدل على أنه من النوع الجيد جدا ، الا أنه يعتبر عمليا أكثر فائدة من بقية النباتات •

في السادس من شباط تغير الجو وبدلا من الدفء أصبح الجو باردا ، ويا لها من ريح قاسية ! فتركنا الامتعة لتلحق بنا قدر المستطاع ، وأخذنا نعدو حتى ندفيء أنفسنا فقطعنا مسافة يوم واحد في ساعات قليلة • في الطريق مررنا ببعض الناس القادمين من بغداد مشيا على الاقدام ، فأخبرونا بأن الانكليز وبعض الفرنجة قد انضموا الى السلطان في حربه ضد الروس ، وأن ثلاثين سفينة محملة بالجنود قد أرسلت الى القسطنطينية ، ولم نكد نفهم منهم أي الفرنجة بالتحديد هم • سرنا ساعتين في محاذاة النهر ، فمرة نرتفع الى البادية، ومرة نعود الى النهر حتى الساعة الثانية تقريبا ، هبطنا بعدها من بادية صخرية الى سهل مجدب جدا وأرض ذات تربة سوداء مبللة بالماء جزئيا ، ومن خلالها كنا نشم رائحةواخزة كرائحة الشوارع في لندن عندمـــا تفرش بالاسفلت • تدخل زينل وأخبرنا بأن الرائحة كانت تأتي من الآبار ذات الماء الآسن في جوارنا. وحالا وصلنا الى جدول صغير من الماء القذر يصب في واد مر ّ ومستنقع أسود في بقعة مهجورة من البلد علمت أنها سبخة علان ، وهي منطقة مجردة من الزرع في سهل وعر تحيط به الربا البركانية ذات المنظر غير المألوف،فهي أشبه بكومات الفضلات ، حتى إن المرء يتخيل أنه في ساحة خلفية لخزان ضخم • عبرنا المنطقة

---

(1) يبدو انها تقصد مطعما ذائع الصيت في لندن .

ونحن نعدو لأن الارض كانت مناسبة لجري الخيل ، حتى وصلنا الى بستان نخيل انتصبت خلفه بلدة صغيرة فوق رابية مخروطية تتوسطها مئذنة عالية قيل انها هيت ــ مدينة الحثيين ــ كانت أشبه بجباب[1] التي مررنا بها البارحة والتي لا بد وأن تكون مدينة العبرانيين .

تعتبر مدبنة هيت مدينة قديمة ملفتة للنظر وممتعة جدا أكثر من آي مدينة مأهولة على الفرات كنا قد مررنا بها حتى الآن. كان الماء الاسود الذي يتحدثون عنه قادما من ينابيع قيرية كنت قد شاهدتها معلمة على الخريطة بكثرة ، ويبدو أن مكامن الاسفلت تتواجد في هــذه المنطقة دون أدنــى شك . شاهدنا في الشوارع وفي ارض المحرس التي مررنا بها في هيت أرصفة مغطاة بالاسفلت وكأننا في منطقة غربيــة .

نحن في مدينة هيت نجاور نهر الفرات ومن هنا يمكنني رؤيه العديد من السفن المطلية بمادة القار ، ومن المرجح أن نوحا كان قد بنى سفينته في هذا المكان وطلاها من الداخل والخارج « بالزفت » الذي هو في متناول اليد ، حتى إن هذا المكان المنخفض هو المكان المؤهل لأن يجتاحه الطوفان العظيم . وعلى الرغم من بساطة التصور الا أنه الطريقة المناسبة لتدوين وصفه ليماثل ما جاء في رواية سفر التكوين[2] . وبناء على ذلك نقول : ان نوحا ربما كان في هيت لأنه شخصية تاريخية وله الفضل في انقاذ الحيوانات الاهلية معــه في السفينة كالجمال والاغنام والحمير وربما الخيل معها كذلك .

تركنا أمتعتنا خلفنا بعيدا عن هذا المكان الا أن البرد القارص قد قادنا الى المحرس اذ انتظرناها ، ومما لا شك فيه أن نقول : كان أفضل من كل البيوت فهو أشبه بالخان وفيه غرفتان صغيرتان مدت فيهما السجاد ، وطرحت فيهما الوسائد القذرة التي سنستبدلها حالمـا تصل أمتعتنا .

(١) ربما تكون جباب موقعا متقدما للعبرانيين Jebusites ، الذين حــاربوا الحثيين في اكثر من موقع .
(٢) احــد أسفار الانجيل .

لم نقم بالتشريفات المناسبة مع المدير الذي صرفناه بعيدا ، فقد مللنا التعامل مع أمثاله ، لأن الموظفين هم على شاكلة واحدة .

في السابع من شباط كانت ليلة باردة جدا أيقظتني فيها جلبة الخيل في الساحة . وعندما خرجت وجدت طرفاء ـ كانت من أشد الحيوانات التي تعاملت معها ازعاجا ـ تزيح رداءها عن ظهرها وترتجف بشدة من الريح الثلجية . ويبدو لي أن الخيل أقل الحيوانات حكمة ، فمن أجل متعة التدحرج للحظات ـ دون تفكير ـ تعرض نفسها لبرد الليل كله غير أن الناس لا يوافقونني في رأيي ، ويتحدثون عن الذكاء الرائع للخيول .

هدأت الريح نسبيا في الصباح على الرغم من انتشار الصقيع القاسي . ولهذا تركنا الامتعة تنطلق مبكرا . وذهبنا مع زينل لنلقي نظرة على الينابيع القيرية على بعد نصف ميل من هيت ، وكان علينا أن نستخدم حاسة الشم لتحديد مكانها ، غير أن الرائحة لا تنطلق من الينابيع وحدها بل تنتشر من الافران التي يغلى فيها القار بعد عمليات جمعه .

كانت الينابيع ملفتة للنظر ، لأنها تدفع من الفوهات بماء صاف جدا لا يلبث أن يتحول الى حثالة سوداء سميكة تركد قليلا ثم تجتمع فوق السطح ، والماء فيها غير حار مذاقه لا يستساغ . ويبدو أن الينابيع كثيرة في هذا المكان فهي على شكل فوهات تشبه فوهات البراكين الخامدة في المنطقة . ولم نلاحظ الا واحدة تبقبق فيها الفقاعات الغازية في مساحة واسعة من الماء . كان النبع بعرض اثني عشر قدما وبعمق لا يتجاوز أربعة أقدام . وبقرب الينابيع أقيمت أفران طبخ القار التي توقد بأغصان الطرفاء التي تجلب من غابات النهر ، وربما بالقار نفسه . وعلى بعد مسافة من هذه الينابيع مررنا بنبع حار ينبعث منه البخار بكثافة في جو الصباح البارد . ويعتبر هذا النبع عديم الفائدة كما يقولون ، وربما ينفع كدواء لأنه يخرج الماء فقط دون القار كان مذاق مائه يشبه مذاق الماء في « كالسباد » . وفي أماكن أخرى كنا نشاهد أحواضا اصطناعية لتجميع الملح تقع في مكان بعيد عن النبع .

سررنا لقضاء بعض الوقت في تفحص هذه المواقع ولنلتمس عذراً في عدو الجياد لأن القافلة أصبحت أمامنا،وعلى الفور كانت الخيل على أهبة الاستعداد فعدونا ولحقنا برفاقنا لنجدهم يعبرون قطعة من أرض صخرية رائعة ناعمة كالزجاج ... ويبدو أنها من مواد رسوبية تكونت بعوامل طبيعية قديمة . انها تمتد على شكل صفائح مربعة مثل قطع « الكاتو » المحشوة باللوز كانت مرتبة في أوضاع متناسقة جميلة .

انضم الى الركب مسافران من هيت . أحدهما جاء على ظهر جمل عربي سريع المتي كنا نغبط صاحبه عليه ، ووصلنا معهما الى مستوى سهل وعر بسلسلة متوجة بالحصى ، وعندما اقتربنا وجدناها على شكل سلسلتين متجاورتين متوازيتين . انها بالتأكيد ليست من صنع الطبيعة . قال ولفرد : ربما تكون جزءا من جدار مزدوج قديم[1] كانت قربهما بعض الشجيرات والعشب الاخضر فجلسنا هناك فترة من الوقت لنحتمي من الريح ، فتناولنا بعض التمر والخبز وتركنا الخيل تحظى ببعض العشب . وعندما تلفتنا حولنا وجدنا مقدارا مناسبا من الارض المفلوحة ولكن يبدو أننا لا زلنا بعيدا عن السهل الغريني العراقي الكبير ، ذلك السهل الذي يقال : انه يمتد حتى نهر دجلة . كان هذا السهل في الماضي يعتبر من أخصب الاراضي الزراعية في العالم.

مررنا بالعديد من السواقي عبر الحقول كانت تتصل بالنهر لتجلب ماء السقاية تعثرت فيها فرسي طرفاء كثيرا ، الا أن هاجرا كانت تقفز ببراعة لتجتاز كل الحواجز في خطواتها الواسعة . كانت تضع قدمها في أصعب الاماكن كما لو كانت صيادا ماهرا من صيادي الانكليز القدماء، عبرنا بعدها هضابا منخفضة مكسوة بالحصى كانت أعلى قليلا من وادي الطمي ، حتى أصبحنا على مرمى حجر من الرمادي .

بدت الرمادي مدينة واسعة بمئذنة عالية تنتصب وسط سهل أخضر .

---

(١) على الرغم من اننا لم نعرف هاتين السلسلتين ، فربما تكونان اول الاقنية البابلية الكبيرة والتي تغطي بقاياها الجزء المنخفض من الجزيرة العراقيه .

وعندما هممنا بالنزول اليها اعترض طريقنا ثعلب ، فطارده ولفرد في الحال على ظهر جواده ، ولكنه فشل في اصطياده لأن بندقيته لم تكن محشوة فتوارى عن الانظار ، كانت السماء تنذر بشيء ما ، وعلينا أن نكون داخل بيت هـذه الليلة • أرسل زينل رجلا الى الرمادي ليعلن عن وصولنا ، وفي الحال استقبلتنا مفارز حرس الشرف خارج البلدة ، فواكبتنا حتى مبنى الحكومة • كـانت الرمادي مركزا مهما وصل بمركز اتصالات برقية مع بغداد وبقية العالم ، وفيه وجدنا القائمقام المؤدب الذي قام على خدمتنا بنفسه لكي يجلب على قلوبنا السرور • ان الرمادي لا تشبه المناطق السابقة حيث لم نشاهد فيها أشجـار النخيل ، غير أنها تقوم في أرض واسعة تحيط بها حقول الذرة المروية ، وهي مكان جديد جعله مدحت باشا ذا أهمية كبيرة ، حيث بنى فيه بناء الحكومـة الجميل وزوده بساحة كبيرة تبلغ مساحتها مائة ياردة مربعة • في الرمادي نزلنا في غرفة مريحة جدا ، وكنا نأمل أن يصل سائقو البغال قبل هبوط الظلام لأن الثلج قـد بدأ ينزل •

الجمعة في الثامن من شباط لم يكن لنا حظ في الخروج ، لأن الثلج الذي قال عنه ولفرد : اننا قد تركناه في أقصى الجنوب عاد ليسقط أمامنا وليحيل البلد كله الى رداء أبيض كئيب مقفر من المارة • تفقدنا مطايانا هذا الصباح فوجدنا الفرسين ــ اللتين ربطناهما في زاوية الساحة لتكونا بمعزل عن الريح ــ تقفان في بركة من الثلج المتجمد جزئيا ، فيا للحيوانات البائسة كيف كانت ترتجف ولكن دون ضرر واضح ، وعلى العكس من ذلك كانتا سعيدتين بالمشي حول الساحة حيث توفر بعض العشب ، وحيث الملجأ الذي مكنهما من الوقوف أو الاستلقاء حيثما شاءتا • واذا عادت وأثلجت ثانية فسنضعهما في « زريبة » فارغة في البناء ، غير أن الاصطبلات كانت باردة • أعجبت فكرتنا الدركي محمودا فأبقى مهره خارج الاسطبل طوال الوقت •

كان قائمقام الرمادي يمتلك سلطات كبيرة أكثر من أي موظف قابلناه ، لأنه في مركز اتصالات « تلغرافية » عالمي ، ويتكلم من منطلق المعرفة التامـة بالشؤون الاوربية • تلقى هذا الصباح برقية تقول : ان صلحا قد أبرم مـع

روسيا ، وقد سر لهذا النبأ على الرغم من أنه لم يسمع بشروط الصلح بعـد . ولا يعلم مدى صلاحيتها لبلاده . قال المدير : هناك مؤشرات كثيرة تدل على أن الامور من حسن الى أحسن ، ولكن علينا الحصول على نص الاتفاق لنطلع على حقيقة ما حدث .

نركنا بريطانيا والرأي العام يعتقد أن المسلمين في غايـة الغضب ، لأن انكلترا تخلت عن مساعدة تركيا في الحرب . غير أنا لم نجد ما يدل على الناس هنا يحملونا تبعية المسؤولية ، فكل ما قيل في بريطانيا عن هذه الامور هو هراء لا صحة له . ولكن تعرضنا لبعض الاسئلة والاستفسارات التي تؤكد أن الناس في هذه البلاد يعلمون أن بريطانيا لم تساعد السلطان في الحرب هذا العـام . مع العلم أن ملك الانكليز هو من أنصاره! . لم نجد صعوبة في اقناع المتسائلين، وقدمنا أعذارا كانت مقبولة نوعا ما، قلنا فيها: يبدو أن السلطان رغب فيمحاربة القيصر وحده في هذه المرة .

تهربنا من ذكر الاسباب الحقيقية ، لأن المناقشات ستقودنا الى طـرح موضوعات كنا لا نرغب بوضعها على بساط البحث .. ولطفنا الأجواء بقولنا : ان السلطان قد دعا انكلترا فاستجابت لندائه ؛ وكان من ثمار الاستجابة هذا الصلح المجيد . وعلى كل حال سينجلي الموقف عندما نصل الى بغداد .

ان الشخص الوحيد الذي كان يكثر من كلمة ان شاء الله هو زينل ، لأنه مسلم ألباني مغسور بالافكار المتعطشة للدم ، على الرغم من أننا وجدناه رجلا خلوقا ، ومن أفضل الدرك الذين تعاملنا معهم غير أنه سيتركنا ويعود من حيث أتى ، وقد جاء ليودعنا بانحناءته المعهودة بعد أن قبل الهدية التي قدمناها لـه . كانت الهدية بمثابة ثروة بالنسبة لممثل فرنسي في شخصية « دوارتغنان » أو بالنسبة للاخرين أمثال هذا البطل الذين ينتسون الى مدارس أخلاقية كبيرة . أراد زينل متابعة الطريق معنا الا أن دافع الغيرة والرغبة بالحصول على الهدية جعل رجال كل مقاطعة يرغبون في مواكبة المسافرين ، وسيكون لنا شأن آخر عندما نسلم لضابط جديد من ضباط المرافقة .

كان اليوم يوم الولائم لأن القائمقام المضياف قدم لنا أطعمة شهية من اليخني والكمأ ونوعا من الكرفس يدعى بامية[1] وطبقا من البطاطا كانوا يطلقون عليها اسم شجر ، بالاضافة الى الكليجة أو الكعك البغدادي ورمان الرمادي المشهور في العالم بكبر حجمه . وحتى الخيل تناولت نصيبها من التبن والشعير ، لذلك ان لم يسقط الثلج ثانية فان يوم غد يعتبر يوم الرحيل ؛ فالسماء صافية ويمكنني رؤية صقر جارح يحط على عسود عال في الباحة باتجاه السماء الغربية ، ومن الصعب عليه أن يذهب الى هناك ليجثم لو أنه كان يتوقع هبوب الرياح أو قدوم الانواء الصعبة .

التاسع من شباط كان يوما من أكثر الايام اثارة في رحلتنا على الاطلاق ، فالخيل كانت جاهزة لتعطي أداء عاليا وحيويا بعد راحة نعمت فيها في الايام الماضية ، وها هي تنشط مع هبوب الهواء الصباحي القارس .

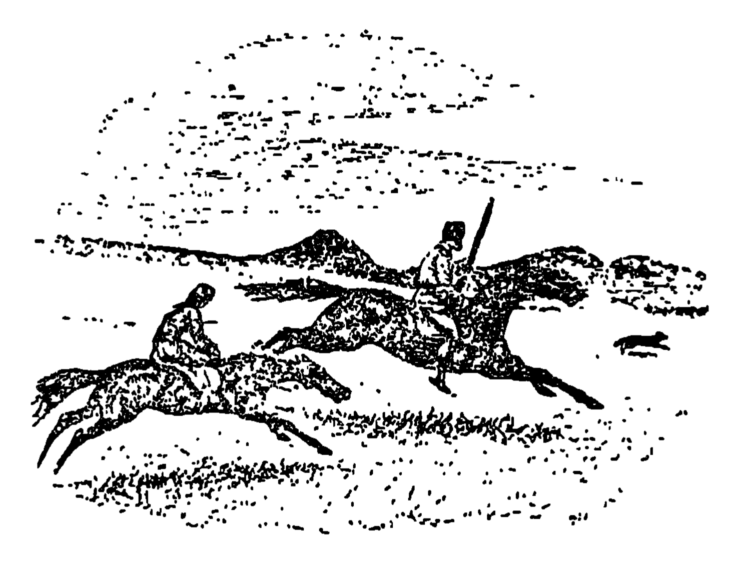
كانت انطلاقتنا في طريق تعبر سهلا زلقا بسبب الجليد ، ثم أصبح طينا زلقا جدا بعد أن ذاب الجليد تحت أشعة الشمس ، غير أننا كابدنا مشاقه حتى وصلنا الى أرض صالحة مكنتنا من السير مسافة كبيرة حتى وصلنا الى الذيبان أو هضاب الذئاب . وبالفعل كانت أرض الذئاب ، فقد شاهدنا ذئبا عاجله ولفرد بطلقة طويلة فهرب بعدها الى أعلى تلة ثم انحدر ، فترجل ولفرد عن فرسه وتركها معي وذهب مشيا على الاقدام لأن الذئب توقف قليلا عند قمة التلة ، وعندما وصل قمة التلة سمعت دوي أربع طلقات من بندقيته فعاد ولفرد على الفور ليخبرني بأنه شاهد ذئبين عند أعلى التلة وأنه صوب باتجاههما من على بعد مائة ياردة فأخذا يركضان الى الوراء والامام ليعرفا مصدر الرصاص والضجة ، لكنهما ذهبا بعيدا بعد أن أخطأهما ولفرد . على كل حال لم تذهب الذئاب بعيدا واقترح ولفرد أن نلحق بها فانطلقنا في الحال لنجدها على بعد ربع ميل من المكان السابق وعلى مسافة غير بعيدة عنا في منطقة نجدية مرتفعة

---

(١) البامية : نبات صيفي من الفصيلة الخبازية تطبخ قرونه وتجفف لوقت الشتاء وليس من الكرفس اما الشجر المذكور فهو نوع من اليقطين او القرع وليس من البطاطا .

مغروشة بالحصى الناعم تشجع على العدو بسهولة ، لذلك تبعنا الذئاب بأقصى ما نستطيع وبقدر ما تجري به أرجل المطايا التي تحملنا .

بدأت الذئاب ترجع عندما شاهدتنا ولكن دون أن تسرع في العدو وكانت بدينة ممتلئة عند الاكتاف ، وعندما اندفعنا نحوها تفرقت فانفردنا بذئب ركض أمامنا بسرعة . وفي الحال سبقته هاجر وهي تنزلق فوق أرض غير مستوية كالسنونو بينما جاهدت طرفاء لتلحق بهما ولكن جاءت في المؤخرة . وأظن أننا أدركنا الذئب فنحن خلفه وولفرد لا يبعد عنه أكثر من عشرين ياردة ، غير أن هاجرا تعثرت فأطلق ولفرد النار على الذئب الذي انحرف عندما أصابته الطلقة ، الا أنها لم ترده قتيلا لأنها من عيار خمسة مليمتر ، فاختفى في لحظات عند حافة المنحدر .



مطاردة الذئاب

على الرغم من أن هذه المطاردة غير ناجحة الا أنها كانت متعة رائعة في ظروف استثنائية مكنتنا من الاقتراب من وحش بري أول مرة . لن أنسى أبدا تعابير وجه الذئب عندما نظر الينا ملتفتا من فوق كتفيه .

مررنا بكثير من الذئاب في هذا اليوم • كان أحدها يتلصص على قطيع من الغنم فاقتربنا منه مسافة سبعين ياردة ، وقد جلس ـ ونحن نقترب منه ـ يحك أذنه بقدمه الخلفية تماما كما يفعل الكلب ، ثم نهض متمهلا وهرول منطلقا الى المسيل حيث أفسد علينا فرصة مطاردته •

في حوالي الساعة الثانية وصلنا النهر في مكان كانت تحف به أشجار الطرفاء وشجيرات شوكية تدعى محليا بالزر[1] • وفي هذا المكان طاردنا بعض طيور الدراج التي لم نعد نشاهدها منذ أن مررنا ببلدة البوكمال • وبينما كان ولفرد يبحث عنها أطلق النار على ابن آوى كان قد قفز من بين قدميه •

وصلنا الى ضفة النهر فوجدنا معدية جاهزة لتقلنا عبر الفرات الى الجزيرة ••• كنا في محيط منطقة بغداد ، ولا نبعد عنها أكثر من أربعين ميلا • تعتبر المنطقة برزخا ضيقا يفصل نهر دجلة عن نهر الفرات • وقفنا ننتظر وصول القارب بينما القافلة قد وصلت فتذكرت المثل القائل : تأخرت أم بكرت فلا بد من الوصول الى المعدية •

نزلت السيدتان اللتان كانتا في المحفة لأول مرة ـ باستثناء الليل ـ خلال كامل الرحلة ، وكانتا لطيفتين ومؤدبتين جدا ، غير أن لقاءنا لم يدم طويلا لأنهما لا تتكلمان العربية ، وأنا بدوري لا أعرف التركية • يبدو أنهما قد اعتادتا على ظروف الرحلة وأتوقع أنهما ستكونان آسفتين للعودة مرة ثانية الى حياة الحريم الغبية في بغداد • وقد تأسفان يوما ما على البغل العجوز والسلال الكبيرة التي احتوتهما ومكنتهما من رؤية جزء من العالم على الاقل • كان لباسهما نوعا من فستان فضفاض أحمر اللون ببياض ، وحجابا قطنيا أسود ، وأحذية أوربيـة طويلة ، وعندما جلستا على ضفة النهر تنتظران القارب كانتا تبدوان كزوج من الحقائب حشي فيهما شيء حي عديم الحركة •

كان عبورنا خطرا نسبيا لأننا قد حشرنا في السفينة مع الخيل والبغال

(١) الزر : نبات يشبه العوسج وهو شجيرات أوراقها صغيرة ، كثير الشوك يشاهد في البادية وفي روابي الفرات .

والحمير وكل الناس • وكان سائقو البغال يدعون حيوانا بعد الاخر ليقفز في السفينة ، فبدا المركب وكأنه لم يعد يتسع للمزيد • لم يستغرق العبور أكثر من خمس وعشرين دقيقة ، غير أن الانتظار وتفريغ الحمولة ، ومن ثم خزن الامتعة جعلنا ننتظر ساعتين عند الضفة الاخرى من النهر ، يضاف الى ذلك كون الحقائب قد تركت وراءنا ولم تصل الا في ساعة متأخرة من الليل • عبرنا بسلام دون حوادث باستثناء حادثة كادت أن تسقط سعدونا ــ سائق البغال ــ في الماء • نصبنا الخيام في بقعة جميلة كانت تنمو فيها شجيرات الزر ، حيث شاهدنا قطيعا من الخنازير البرية بالقرب من المكان • قام ولفرد ليبحث عن الدراج من أجل العشاء ، لأننا نواجه ليلة باردة جدا تتوقع فيها حصول الصقيع في ساعات الصباح المبكرة • اننا اليوم في مكان يسمى الصقلاوية •

في يوم الاحد العاشر من شباط طالعنا صباح بارد، فنحن عند خط العرض « ٣٤° » في مكان لا يرتفع أكثر من مائتي قدم فوق مستوى سطح البحر ، ولا يبعد عن بغداد أكثر من أربعين ميلا مدينة السموم والطاعون ، ومن شدة البرد تجمد الماء في وعاء داخل الخيمة حتى أصبح قاسيا كالحديد ، وحتى الخيمة ذاتها تيبست مثل قطعة الخشب • أما لحية ولفرد فكانت هي الاخرى محملة بحبات الجليد ••• هذه حالنا تحت الخيام فماذا فعل البرد القارص في أناس يبحثون عن مأوى خارج الخيام ؟ حتى ان رقيب الشرطة الذي رافقنا من الرمادي أعلن هذا الصباح أنه يعتزم الرجوع الى البيت لأن قسوة البرد والحراسة وحالة الترقب في « البرية » كانت فوق طاقته • ظن هذا الرجل أن « البخشيش » هو ذاته سواء أذهب معنا الى بغداد أم رجع من هذا المكان ، لكنه كان مخطئا لأننا صرفناه فارغ اليدين في وقت ضقنا فيه ذرعا وبأمثاله من الدرك والجنود والمدراء وبكل ممثلي الحكومة الدستورية في هذا البلد وقررنا عدم التعامل معهم بعد اليوم ، ولهذا أخبرنا كل من يحب العودة الى بلده أن يفعل في الحال ثم انطلقنا نريد بغداد بدون أية رسميات ، بعد أن تخاصنا من كل الذين أقلقوا راحتنا باستثناء واحد من الدرك رغب بالحصول على وثيقة مختومة كان يراها ضرورية ليبرزها لرؤسائه وليثبت بأن المهمة قد أنجزت •

ركبنا اليوم ركوبا ممتعا عندما أمضيناه سيرا فوق سلسلة من المرتفعات المنخفضة المتموجة ذات الحصى الناعم الكثيف ، تناثرت فيها نزعات من العشب الاخضر هنا وهناك . مررنا بقطعان من الغزلان ، وشاهدنا الارنب البري غير أنا لم نكن نرغب بمزيد من اللهو ، بل كنا نأمل أن نرى مآذن بغداد قبل حلول الظلام . لم نعد نشك في أننا عند مشارف البلد لأن أعمدة الهاتف كانت تضفي على المكان مسحة عصرية ، وهكذا نأتي في الايام القادمة على نهاية مرحلة هامة من مراحـــل رحلتنا دون أن تصيبنا مكروه ، بينمـــا نعمنا بالدفء والركوب الجميـــل الممتـــع .

كان الوقت لا يزال مبكرا عندما وصلنا الى بحيرة مغطاة بأعداد كبيرة من الطيور المائية وبالبجع والبط واللقالق ، ومن ثم مررنا بمضارب كبيرة للبدو الحقيقيين . فهذه ابلهم وغنمهم حول الخيام ، وهذه رماح الفرسان مثبتـــة أمامها . سألنا عن القوم فقالوا لنا : انهم عرب الزوبع المتحالفين مع قبيلة شمر الذين جاؤوا مؤخرا من الجنوب . أردنا أن نعسكر بجانب خيام الزوبع لولا أن الوقت كان مبكرا ، وكم كنا حمقى عندما صدقنا رواية الدركي الوحيد الذي بقي معنـــا والذي أكـــد لنا أن شيخ الزوبع قـــد انطلق منذ ساعات في رحلة الى مكان مجاور لبرج النمرود الذي يطل علينا بهامته عبر الافق ، ولهذا بدلا من أن نتوقف تابعنا المسير ، غير أنا أخفقنا في الوصول الى المكان المحدد، وفقدنا الامل في رؤية البدو الحقيقيين وبعد مسير دام أربع ساعات نزلنا قرب قوم جدد من قبيلة مغمورة تدعى العمر أو البوعمر[١] .

كنا عند مغادرتنا البحيرة ننعطف في سيرنا نحو اليسار لكي نتجنب بعض الاراضي المستنقعية التي جعلت الطريق النظامي طريقا يصعب اجتيازه ، وكنا

---

(١) البوعمري ذكرهم العزاوي في كتـــاب عشائـــر العراق من زبيد الحلـــة . والبوعميرة قوم آخرون ذكرهم من عرب بغداد وما حولها ونظن ان الذين مرت بهم الليدي هم « البوعميرة » .

نمر بخط مزدوج طويل من كومات التربة الاصطناعية كتلك التي مررنا بها منذ ثلاثة أيام ، فاعتقدنا أن لها علاقة بمدينة بابل القديمة ، ثم عبرنا مساحة مربعة أحاطت بها التلال قدرنا مساحتها بميلين مربعين فمن يدري فلعلها مدينة مندثرة! فلا الدركي المرافق يعرف ماهيتها ولا يوجد قربنا من نسأله . نفذ صبرنا ثانية عندما لمحنا البرج قبل حلول الظلام ، وكنا بمنتهى الحيرة عندما مر بنا عرب يركبون الحمير فأخبرونا أنهم من مخيم العمر الذي لا يبعد كثيرا عن موقعنا ، لذلك عدونا بجيادنا خببا حتى وصلنا اليه في مكان يدعى هور ثابت ... كان المخيم قذرا وسكانه طباعهم فظة . استقبلنا في المخيم شيخ طاعن بالسن يرتدي أسمالا بالية، وحفر الزمن في وجهه أثلاما حتى شابه وجهه وجه ابن مقرض[1]. استقبلنا هذا الرجل بحفاوة أفسدها عليه ضعف سلطته على قومه الذين كانوا يدخلون الى خيمته ويخرجون بطريقة فوضوية ، وكم من مرة طرحوا على ولفرد أسئلة خاصة عن عدد زوجاته ، وحتى حنـــا سألوه عن معتقداته الدينيـــة . البوعمر الذين مررنا بهم كانوا من العرب الوضيعين جدا ومن ذوي السلوك غير المحمود الذي لم نكن نلاحظه في العربان الذين مررنا بهم في الطريق من قبل ، ولهذا تمنينا لو أننا بقينا بجانب قبيلة الزوبع المحترمة التي مررنا بها قرب البحيرة ، ولكن لا ينفع الندم . فنحن الآن في خيمة الرجل العجوز حسان الذي لم نشاهد في داره الا ثورا صغيرا ربط في احدى الزوايا وفرسا خشنة المظهر في زاوية أخرى من البيت ، وما ان مضت نصف ساعة على قدومنا حتى وصل عربي بملابس محترمة جدا وجلس قربنا ، وسرعان ما بين أنه صاحب سلطة على بقية القوم . ظننا أنه من الغرباء عن هذا الحي ، ولكن بعد أحاديث المجاملـــة عرفنا أنه من العنزة ومن قبيلة العمارات بالذات فدهشنا لذلك.قال الرجل:انه شيخ قومه وشيخ العمر في هذا المكان ، وقد ورث الوجاهة عن جده الذي تركه شيخا منفصلا عن قبيلته الاصلية . كان دون ريب يختلف عن الناس الاخرين وبدا مهيبا بلباسه الجميل وأخلاقه العالية . نودي عليه باسم الشيخ

(١) ابن مقرض Putorius Furo : حيوان يشبه ابن عرس ولكنه اكبر منه . لونه ابيض يميل الى صفرة .

محمد بينما كان ينتقد الديانة التي يدين بها محمود • قطع حديثه وشرع في صلاة جثا فيها وركع وسجد ، وعندما فرغ منها استجوب محمودا عن سبب تركه للصلاة ؛ فأنبه وأخافه بآن واحـد •

كنا بين جماعة يدينون بالاسلام ، ويحافظون على صلواتهم ، ويريدون من كل الناس اعتناق الاسلام ؛ ولهذا دفعت موعظة الشيخ مضيفنا العجوز حسان للنهوض وممارسة الصلاة خارج الخيمة •• وبين كل فاصل كنا نسمعه يصرخ في وجه فرس أو حمار ، أو يهش بعصاه على بقرة • كان الشيخ ودودا لنا فطلبنا منه أن تتناول عشاءنا في خيمتنا لنكون بمعزل عن الضجيج ••• استجاب ولحق بنا فيما بعد وهو يدخن التبغ ، وعندما جلس أخرج ولفرد علبة تبغ فاخرة قدمها له فتردد في قبولها ، وعندما ألح عليه قبلها قائلا : انني أقبلها على أساس الصداقة التي تجمعنا في هذا المكان ، والا فالتبغ في خيمتي التي تبعد ميلا عن هذا المكان • كان الرجل في طريقه الى الرمادي لقضـاء بعض حوائجه ، وعليه أن ينطلق مبكرا في يوم غد متجنبا المرور عبر خيام قبيلـة الزوبع في وضح النهار لانهم من أعدائـه •

في الحادي عشر من شباط لم تردد مطلقا في مغادرة مخيم العمر في هور نابت ولكن رغبنا بزيارة برج النمرود ، ولهذا تركنا القافلة تسبقنا على أمـل اللحاق بهما عدوا على ظهور الخيل في الطريق المؤدي الى بغداد ، بيد أن الجو كان مخيبا للامال • برج النمرود ــ كما يدعوه العرب ــ كان معلما علـى الخريطة باسم « أخاكوف » أو برج بابل التقليدي على الرغم من قول الكتاب الحثيين : « ان موقعه يوجد في مكان آخر » • كان يُرى بوضوح من مخيم العمر ، ولا يبعد عنه أكثر من ميل واحد ، وكان يشبه كثيرا قمة جبل «سيرفن»، ومن غير المعقول أن يكون بناء على الاطلاق ، ولكن عندما اقتربنا منه وجدناه مبنيا من القرميد الصلب ، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن يكون ذا فائدة ممكنة باستثناء ما يقوله الانجيل : انه برج يصل الى السماء ، فهو اليوم لا يرتفع عاليا ، وبدا بعلو أربعمائة الى خمسمائة قدم بما فيها الاطلال التي يقوم فوقها، ولا شيء يجعله جليلا سوى حجمه ، ولا يصلح أن يكون أفضل من برج عملاق

للحمام . وجدنا حوله ركاما من الحجارة الزرقاء ، فتمشينا حوله وقمنا بالتقاط بعض القطع من الفخار الازرق ، ثم غادرنا الموقع على ظهور الخيل مباشرة : لأن الجو أخذ ينذر بحدوث شيء ما ، والموقف لا يحتمل البقاء ، في وقت بدأ المطر فيه يهطل . سرنا سيرا حثيثا لندرك القافلة التي سارت أمامنا ، وكنا في عجلة من أمرنا قبل أن تصبح الارض زلقة من البلل ، وكانت الخيل تتلمس الطريق بصعوبة بالغة حتى في حالة المشي العادي ، لأننا فوق التربة الطينية التي كونها الطمي في العراق ، والتي سمعنا عنها الشيء الكثير في الماضي ، فهي ربما تكون خصبة ولكنها موحلة للسفر في جو رطب . من منطقة برج النمرود أطلت علينا مآذن الكاظمية ــ ضاحية من ضواحي بغداد ــ كما شاهدنا بساتين النخيل التي كانت تجاور المدينة ، فتوقعنا أن نصل اليها في غضون ساعتين أو ثلاث على الاغلب ، ولكن علينا الآن أن نلتف حول بحيرة من الفيضان اعترضت طريقنا ، وعلينا كذلك أن نتخبط في هذا الطين المرعب الذي جعلنا نيأس أكثر من مرة من الوصول الى بغداد بسلام ... اننا لم نستطع ترك القافلة بسبب بعض الجسور التي تحطمت من جراء العبور فوقها ذات الجوانب المنحدرة الزلقة التي تزحلق كالجليد المنحدر ، كانت البغال تزلق وتتعثر في كل دقيقة حتى وصلنا الى مكان متعذر علينا اجتيازه ، لأنه على شكل حاجز طويل مثل قمة جبل « روزا » الذي سمعت عنه ، وكان علينا الزحف على طوله لنصل الى بركة لا قرار لها من الماء الراكد على جانبي الطريق،عندها ترجلنا بحذر شديد وتركنا الخيل تعبر منزلقة بقوائمها الاربع معا الى الضفة الاخرى ، الا أن البغال المحملة التي كانت تنوء تحت حمل ثقيل أخفقت في العبور ، وأخذ سائقوها يميلون الى التخلي عنها ، غير أن ولفرد خاض في الطين لينقذ الحيوانات أولا وليحمل الحقائب ويعيد تحميلها على الجانب الآخر من الحاجز . استغرق هذا التصرف وقتا طويلا تحت مطر غزير لم يبق لنا أي رداء أو غطاء سالم من البلل . وفي غمرة هذه الاحداث وصلت السيدتان التركيتان التعيستا الحظ في السلال الكبيرة ، وعندما وصلنا الى المعبر رفض البغل ــ ذلك الحيوان الحكيم العجوز ــ أن يتقدم خطوة واحدة ، لذلك كان على المسكينتين أن تقتحما

الطين وهما في فاخر الثياب التي يلبسانها ليدخلان بها على بغداد . وكان عليهما أن تمشيا بتثاقل بأحذيتهما الاوربية عبر هذا الطين الرقيق القوام ولهذا جلستا تحت المطر حتى يمكن اقناع البغل أن يلحق بهما .

لم يكن لدينا وقت لنرى كيف تخرجان من ورطتهما ، وقد نسيتهما وهما على الضفة الطينية كشخصين أخرقين مضحكين في منظر يدعو للشفقه ، وهمـا بثوبيهما الحريريين البائسين اللذين كانتا ترتديانه،وقد تبللا كلية بالماءوالوحل. على الرغم من التندر الذي كنا ننظر به الى جيراتنا غير أننا لم نكن أحسن حالا منهم ، فقد أصابنا البلل والبرد حتى نخاع العظام، وما حل بنا كان أسوأ مما حل بنا عندما دخلنا الى حلب ، لقد كانت الريح لاذعة ووحل الدروب كان مزعجا في وقت بدت فيه بغداد تنتصبُ أمامنا هناك .

لاحت لنا مدينة الخلفاء عبر المطر الجارف كصف من البيوت الطينيـة القذرة التي يجللها سواد السخام ، وكانت تقوم بين بحرين من الوحل ، وحتى أشجار النخيل حولها بدت وكأنها مرغت في الوحل ، أما نهر دجلة وجدناه كئيبا مثله مثل أي نهر يمكن أن يُرى عند سقوط المطر .

تطاولنا فوق أعناق خيولنا كتلة من الطين الخالص من الرأس الى القدم ، وسرنا يلحق بنا الدركي المتبقي معنا يجر خطاه بتثاقل بعد أن سقط جواده أكثر من مرة .

دخلنا المدينة التاريخية وسألنا بوجل عن دار المندوب السامي البريطاني أو بيت القنصل . في البداية لم تتلق أجوبة من الناس ، حتى وجدنا جنديا شابا يجلس في مقهى فتطوع ليدلنا على الطريق مقابل مكافأة ، حيث أخذنا الى خان لنربط فيه الخيل لأن علينا أن نجتاز النهر فوق جسر معلق . كان الخان على شكل باحة بائسة حيث ربطنا خيولنا فيه تحت المطر المنهمر بغزارة ، ثم تبعنا دليلنـا الى النهـر لنركب القفـة ــ قارب دائري الشكل على شكل حوض الاستحمام ــ عبر نهر الفرات ، ثم سرنا بعدها مشيا على الاقدام مجهدين في زقاق ضيق حتى وصلنا أمام باب دار المندوب السامي البريطاني ، وعنـده

انتهت مشاكلنا جزئيا في الوقت الحاضر • جلسنا ــ بعد ارتداء الملابس الجافة ــ أمام طاولة مغطاة تناثرت فوقها السكاكين وشوكات الطعام والزهور والفاكهة، وفي زاوية من المكان كنت أرى فخذ خنزير مملح • ظهر الخدم حالا بزي هندي يرتدون الالبسة البيضاء وأخذوا يدخلون ويخرجون بسرعة •• وبالاختصار نحن الآن في غرفة الكولونيل نيكسون وعلى أتم الاستعداد لتناول الاشياء الطيبة التي ستقدم لنـا •

هناك طعـام للعقل كذلك ، فنحن جائعون بنهم لسماع أخبار أوربـا : الروس على أبواب القسطنطينية • هدنة وقعت من قبل • كل الاوربيين الذين انضموا الى جانب تركيا انسحبوا من روسيا • نوافذ السيد غلاد ستون[1] تكسرت في لندن • فكتور عمانويل[2] وقداسة البابا يلتقيان في روما •

❋ ❋ ❋

(١) وليم ايوارث غلادستون ١٨٠٩ ــ ١٨٩٨ سياسي بريطاني تولى الوزارة في بلـده عـدة مرات .

(٢) فكتور عمانويل : اسم لثلاثة ملوك من ملوك ايطاليا . ونظن ان المقصود هو فكتور عمانويل الثاني ملك سردينيا عام ١٨٤٩ وملك عموم ايطاليـا ١٨٦١ ــ ١٨٧٨ .

الفصــل الحادي عشر

« حملت معي رسائل الى تاجر غني في بغداد »

الليالي العربية[1]

بغداد الحديثة في منطقة متواضعة ـ أسباب زوال مجدها ـ الطاعون ـ مدحت باشا يهدم أسوارها ـ وجهة نظر الدكتور كولفيل بالبدو ـ أمير هندي ـ ثروة عاكف باشا ـ جواده الفحل ـ اشترينا الحمير والجمال للهروب من بغـداد •

بغداد في ماضيها القديم وعظمة خلفائها هي غير بغداد اليوم «بدراويشها» المتسولين المألوفين • وعلى الرغم من ذلك فهي مدينة رائعة • واذا ما قورنت بدمشق وحلب فسنجدها تحتاج الى وصف خاص بها يختلف عن هذه المدينة أو تلك ، وحتى عن القاهرة نفسها • في العشرين سنة الماضية لا بد أنها كانت أكثر روعة وجمالا وجاذبية مما هي عليه اليوم ••• أعتقد لو أننا دخلنا الى بغداد من الشمال بمحاذاة نهر دجلة لبدت أكثر جمالا من رؤيتنا لها من الغرب، فالجهة الغربية من بغداد التي دخلنا منها الى المدينة لا يوجد فيها ما يدل الزائر على أنه قادم الى مدينة كبيرة ، والأسوار القديمة قد تهدمت والذي يدخل منها سوف يتعثر بأكوام من النفايات والركام المتهدم من الابنية التي كانت قائمة ، وعليه أن يقطع خلاء يتوسط أرضا وعرة تجوبها الكلاب وبنات آوى • ابتعدت المدينة عن الاسوار تدريجيا وانكمشت متراجعة عن محيطها القديم كبندقة ذبلت داخل قشرتها • يبدو أن بغداد مدينة قد تجاوزت أيام شبابها الرائع ،

(1) الف ليلة وليلة التي ترجمت الى اللغات الاوربية •

وارتدت ثوبا قد ضاق عليها وقصر وما بداخله لا ينبىء عن أيام العظمة والابهة التي عاشتها في الماضي • فبيوتها اليوم وضيعة بنيت من الطين على جانبي شوارع ضيقة غير مرصوفة مثلها كمثل أي قرية في الجزيرة لا أكثر ولا أقل • فلم نعد نشاهد الفسحات المكشوفة ولا النافورات المائية ولا المساجد الكبيرة ولا الابنية الرائعة الجميلة ، فمآذن اليوم متواضعة قليلة الارتفاع ، والاسواق خاوية قليلة الحركة ولا تجد فيها أي علامة تدل على الازدهار ، وحتى القوافل التي كانت تزدحم في خاناتها قد تلاشت عبر بواباتها • ومن النادر أن تصادف بعيرا يسير في الشارع • وأصبح التاجر الغني مثل الخليفة لا يمكنك أن تراه بسهولة • وكل المتسولين « والدراويش » يبدو أنهم قد تركوا المدينة • فلماذا حدث كل هذا ؟ فما على بغداد الا أن تكون مزدهرة • ان مظاهر زوال عظمتها مثيرة للدهشة ولا تكاد تصدق • أما وقد آلت حالتها الى هذا الواقع المرير فهي اليوم مدينة شرقية باهتة ولا شيء أكثر من ذلك •

ان أهم ما تتميز به بغداد هو نهر دجلة بطبيعة الحال الذي يخترقها بتواضع ولا يزال محافظا على جماله ، أما على الضفة الاخرى عند أقدام المدينة فقد ترامت بساتين النخيل على مد النظر والحدائق تحتها تشكل منظرا بديعا لمن يقترب من النهر ، فيعوضه ذلك عن المناظر غير السارة في البيوت الطينية الصفراء ، وحتى لا نظلم المدينة أقول : هناك بعض الابنية الحية الجميلة حولها أرض زراعية وأمامها أشجار البرتقال ، الا أن جمالها لا يؤثر في النفس بما فيه الكفاية ، وذلك في غياب كامل للابنية الكبيرة والتجمعات السكنية المهمة ، بينما انبساط ضفتي النهر وعيب الشوارع المؤدية اليها لا يعطي فكرة واضحة عن مدى توسع المدينة باتجاه العرض •

يعتبر دجلة من الانهار الجيدة ، وهو يجري في مثل هذا الوقت من العام بماء عكر موحل ويسرع في جريانه ، أقدر عرضه بثلاثمائة ياردة ، غير أن البيوت تقترب من حافتيه كثيرا ، وتتناثر على شواطئه السفن والقوارب التي تعطيه

مظهرا جميلا ، ولم نشاهد جسورا مقامة عليه سوى جسر واحد من القوارب الخشبية رفع عن النهر طوال فترة اقامتنا في بغداد خشية الفيضانات . وحتى الآن لم نجد مكانا في بغداد أجمل من دار المندوب السامي البريطاني ، فهي بيت قديم بني حول ساحتين واسعتين يطل على النهر بواجهة عريضة ، وأمامه مصطبة جميلة تشرف على النهر بممشى تحف به أشجار البرتقال « وكشك » : أو بيت صيفي مزود بسلالم تقود الى أسفل النهر حيث نجد رصيفا أعد لترسو عليه قوارب القنصل . أما من الداخل فان البيت مزين على طراز فارسي من القرن الماضي ، ويعتبر طرازا ساحرا ومن أجمل فنون العمارة، فالسقوف زينت بنقوش نافرة بشكل واضح ، والجدران رصفت بالخشب المصنوع بدقة تتخللها المرايا وأشياء تعطي بريقا ذهبيا ، وصالة الطعام هي وحدها التي بنيت على الطراز الانكليزي مع مراعاة واضحة لنسط الـ « أنغلوهندي » ... رتبت فيها الزخارف والاثاث الانيق من قبل مابل[1] لتعطي فكرة ملؤها الاعجاب للبغداديين الذين يأتون ليقدموا تحياتهم الى أصحاب الجلالة في القنصلية .

كان الكولونيل نيكسون مضيافا لأن أبوابه تبقى مفتوحة دائما وعلى مصراعيها لتستقبل الغرباء تعيسي الحظ أمثالنا الذين يصلون في حالة يرثى لها وفي جو سيء الى مدينة غير مضيافة ، حيث لا تتوفر في بغداد الاماكن العامة التي تصلح لأن تستقبل الغرباء ، ولا حتى الفنادق البدائية كما كنا نشاهده في حلب . واذا ما ذكرت الخانات البغدادية فهي خاوية وأشبه بالثكنات التي لا تقدم للمسافر سوى سقف يحميه ومكان لربط حيواناته . بينما نحن الآن في دار المندوب السامي وقد عشنا فيها أسبوعين في بحبوحة من العيش الرغيد تتمتع فيها بمنجزات الحضارة بالنسبة لأولئك الذين كانوا يرتحلون أياما متواصلة في همجية وينامون فيها الليالي تلو الليالي على الارض مباشرة .

(١) يبدو أنه من مهندسي الديكور المشهورين .

قــدم لنا الكولونيل نيكسون معلومات هامة عن السكان والتاريــخ والعلاقات العامة في المدينة وعلي أن أدونها على الرغم من كونها مملة وغــير مشجعة • بغداد مدينة تحتضر ، وعوامل انحطاطها بدأت تتراكم منذ زمن بعيد، ولـكنها أخذت تتسارع منذرة بالكوارث ، ولعل الكارثة الكبرى التي ألمت ببغداد كانت اجتياح التتار لها في القرن الثالث عشر ، ولم تكن بغداد وحدها المدينة التي أصابها الدمار بل كثير من المدن الاسيوية الهامة أصابها ما أصاب بغداد ، ثم تلا هذا الوضع المأسوي استيلاء الاتراك عليها قبل مائة عام . وبقيت بغداد محاصرة من الشرق لمائة عام أخرى ، فانتهت أهميتها السياسية ، وأصيبت تجارتها بكساد كبير ، ومثلها مثل حلب واسكندرون وبقية المدن التي تضررت باكتشاف رأس الرجاء الصالح الذي سلبها تجارة الهند • أما وقد عرف خط السفن الذي يصل مدينة بومباي بالخليج العربي في الآونة الاخيرة فيمكننا أن نقول : ان بغداد فقدت كل ما تبقى لها من عوامل الازدهار • فلم نعد نرى القوافل الاسيوية في خاناتها ، ولم تعد تزدحم أمام بواباتها قوافل التجار •

بقيت التجارة البغدادية ناشطة جزئيا مع سورية عن طريق تصدير الذرة والاقطان وتبادل الاقمشة التي تجلب من مانشستر ويتم مبادلتها مع حاصلات بغداد ، يصعب علينا تقدير نشاطات طريق الفرات بغداد ، تلك الطريق المقفرة المهجورة ومدى أهميتها الاقتصادية للمنطقة [1] •

هرب التجار من بغداد لأن دخلهم فيها لم يعد يكفيهم مؤونة العيال ، ولهذا أقاموا الحوانيت التجارية في البصرة التي أخذت دور ميناء بحري في هذا الجزء من العالم • وحتى طريق الحج الفارسي الذي كان يجلب الثروة على بغداد في الايام السابقة تحول الى طريق آخر بسبب العداء التقليدي بين السلطان

(1) كانت على هذا الطريق تمر جنائز الموتى من الشيعة لتدفن عند قبر الحسين . والفرس كانوا يدفعون رسوما باهظة مقابل مرور هذه الجنائز، غير ان السلطان منع مثل هذه الظاهرة بحزم .

مصراعيها لتستقبل الغرباء التعيسي الحظ أمثالنا الذين يصلون في حالة يرثى لها والشاه ، وستكون نهاية بغداد الحتمية في شق الخط الحديدي لوادي الفرات، وهو المشروع الذي تحدثنا عنه في أكثر من مناسبة وعندها ستفقد بغداد طريقها التجاري وستترك لتموت كبقية المدن التي اندثرت في بلاد الرافدين في الماضي .

انه مما يحز في النفس أن تصعد الى منارة عالية في بغداد ــ كما فعل ولفرد ــ وتعد الفسحات الخالية والخراب المهجور داخل الاسوار القديمة ؛ كانت هذه المئذنة التي نسيت اسمها مكانا يلقى منه المجرمون في أزمنة ماضية: وهي مرتفعة بمقدار كاف لتمكن من الاشراف على بغداد كلها .

هناك أرض كالحة جرداء في قلب المدينة ألقيت فيها القمامة ، تجوبها بنات آوى خلسة حتى في وضح النهار ، وتتخللها المستنقعات والغدران هنا وهناك. وقد تركت دون قناة للتصريف بعيدا عن النهر . منذ يومين شاهدنا سربا من البط الحذاف على بعد خمسين ياردة من جامع علي ... بدت بغداد كتلة مشوهة من الروابي القاحلة وأنقاض القرميد . ولا أدري كيف أتصور وأصدق أنها ستصبح مدينة مهجورة في يوم من الايام .

لم تكن خسارة التجارة الكارثة الوحيدة التي ألمت ببغداد بل الاوبئة والامراض المعدية كذلك . وعلمت من الطبيب المقيم في بغداد الدكتور كولفيل أمورا خاصة عن وباء بغداد ، ويعتبر توضيحها للناس في انكلترا من الامور البالغة الاهمية .

كانت الهجمة الاولى لهذا الوباء عام ١٧٧٤ م فأباد معظم سكان المدينة . واذا ما صدقت السجلات المحفوظة في دار المندوب السامي فيمكن القول : ان مليوني شخص قد ماتوا في بغداد والبصرة ، ولكن هذا الرقم قد يشمل المدن والاقاليم المحيطة ببغداد لأن بغداد في ذلك الحين لا يتجاوز تعداد سكانها أكثر من مائة وخمسين ألفا من البشر .

وبعد ثلاثين عاما ــ أي في عام ١٨٠٤ ــ عاد وأصاب بغداد ثانية ، ثم

اجتاحها للمرة الثالثة في عام ١٨٣١ فأودى بمائة ألف ضحية من السكان ...
بلغ تعداد سكان بغداد اليوم ما بين الثمانين الى المائة ألف نسمة : ثمانية عشر ألف يهودي ، وألفان من المسيحيين الارمن ، وسبعة آلاف من الاتراك والفرس والهنود ؛ أما البقية فهم من العرب المسلمين . بقي وباء بغداد مستمرا حتى عام ١٨٦٧ كما هو الحال مع جدري البقر المتفشي في لندن . وكان منتشرا في بغداد في أحياء اليهود أكثر من غيرها،لأن البيوت كانت وسخة مكتظة بالسكان.

قال الدكتور كولفيل : ان المرض في بغداد لا يعتبر وباء حقيقيا لأنه ينتقل عن طريق الجو والبيئة الملوثة أكثر من انتقاله عن طريق اللمس وتجول المصابين في الشوارع ، غير أنه يلازم البيوت والضواحي . ومن الحماقة ارتياد بيت عشعش فيه الوباء ، ومن الخطورة المبيت أو النوم فيه . ويبدو أنه كان ينتقل من بيت الى آخر عن طريق الزوار ، وكلما كان البيت وسخا وفاقدا للعناية الصحية كلما كان أهله عرضة للاصابة ، ولهذا السبب نعلل تفشيه بين اليهود في بغداد أكثر من غيرهم .

ان الاوربي الذي يعيش في بيت صحي نظامي لا خطر عليه ؛ الا اذا نقل الخدم اليه عوامل العدوى . ومن الملاحظ أن البدو لا يعانون منه . ولهذا فان الطاعون على نقيض حاد مع الكوليرا التي لا تفرق بين الريف والمدينة . ويقدر أن خمسين بالمائة من المصابين بها يلاقون حتفهم عندما يعم الوباء .

يبدأ المرض أولا بنوبات من الحمى الخفيفة لمدة يوم أو يومين ؛ ثم يحصل تورم في المغبن وتحت الابط ، وتليهما ثانيا أعراض الحمى الشديدة والاسهال الشديد الذي ينتهي بالانهيار . فاذا ما تقيح الورم فان المريض سيتعافى ، واذا لم يحصل ذلك فقد يموت المريض في اليوم الخامس أو السادس من بدء المرض. لم تعرف لهذا المرض طرق ناجعة للعلاج . غير أن الدكتور كولفيل يؤكد أنه يمكن التخلص منه . ومما يذكر أن بغداد تعتبر خالية من الوباء تقريبا .

تحيط ببغداد البادية ، وهواؤها يعتبر نقيا بشكل عام على الرغم من الحرارة المرتفعة في الصيف ، لا تهدد الحمى والامراض الاخرى بغداد مثلما تهددها الكوليرا التي لا تميز بين البيئة الصحية والبيئة غير الصحية ؛ ومما زاد الطين بلة انتشار المستنقعات حول المدينة ، ومنها انتقلت عدوى مرض الملاريا ذي النتائج السيئة ، وهذا ما يتطلب اجراء دراسة وافية وشاملة عنه • بالاضافة الى الكوارث السابقة امتحنت بغداد بالباشا المجدد مدحت باشا . ذلك الرجل صاحب الدستور الشهير لعام ١٨٧٧ الذي ينفذ اليوم في تركيا ورجل الدولة غير المحظوظ الذي أرسله السلطان عبد العزيز ليجرب خبرته في بغداد قبل أن تجيز الامبراطورية أساوبه الحديث •

ان مدحت باشا رجل نزيه يتلهف باخلاص لخير بلده ومصلحة وطنه . ولكن عيبه يكمن في كونه نصف متعلم ، وينتمي الى مدرسة سياسية تركية كانت تفكر في جعل تركيا على غرار الدول الاوربية ، فالبست تركيا ثوبا أوربيا زائفا لا يتناسب مع واقع حالها • لا بد وأنه قد أعجب بمبدأ الحرية ، والحرية المطلقة في كل ما يصمم من مشاريع ، وبهذا لا نستطيع أن ننفي نجاحه في تصميم وتنفيذ بعض المشاريع الرائعة ، غير أنه كان عاجزا عن تنفيذ تفاصيل خططه وحساب الكلفة الحقيقية لما خطط له ، فقادته بعض المشاريع الى نتائج عقيمة، وفي بعض الاحيان انتهت به الى نتائج وخيمة • ومن اصلاحاته الهامة الجيدة : رغبته في مد خطوط المواصلات مع حلب عبر الفرات ، وبناء على هذه الرغبة تم بناء الحصن الشهير في مدينة عنة وفي الرمادي والمناطق الاخرى ••• أقام مراكز الحراسة على الطرق العامة وطلب سفنا بريطانية لتبحر في النهر • وعلى الرغم من كون القلاع ليست كبيرة الا أنها حققت الاغراض المرجوة منها ولا تزال قائمة حتى اليوم • أما القوارب فقد اختفت باستثناء واحد ، فربما نقلت الى البصرة ليأكلها الصدأ ، وأن محركاتها انتزعت منها • والقارب الوحيد في أسطول الفرات النهري يعب الماء من النهر ولا يصلح للسفر في أيام النيضان ، وكثيرا ما كانت تلغى رحلاته في موسم الفيضان •

ومن اصلاحات مدحت باشا الناجحة في بغداد نذكر مده لخط الترام بين بغداد وضاحية الكاظمية ، والذي لا يزال العمل فيه مستمرا حتى اليوم ، الا أن المغامرة غير المعقولة التي أقدم عليها مدحت باشا والتي أظهرت عدم صحة ما قيل عنه : أنه رجل الدولة الواقعي ، كانت بتهديمه أسوار بغداد ومعالمها الاثرية .

سمع مدحت باشا أن تحصينات مدينة فينا وتحصينات بعض المدن الاوربية قد أزيلت وهدمت لكي تسمح لها بالتوسع ، ولأن الاسوار كانت تعيق مثل هذا التوسع بينما المدن تكبر وتتسع باستمرار ، وانطلاقا من هذه الفكرة باشر بتسوية أسوار بغداد التي تخيل أنها بشعة ، ويمكن أن تذكر الغرباء بعصور الظلام ، على الرغم من أن الحضارة العربية الرائعة في زمن هارون الرشيد كانت قد سبقت مرحلة صنع البارود ، وكانت قبل مجيء الامبراطورية العثمانية .

قام مدحت باشا بتنفيذ خطة غريبة عندما شغل الجنود في مثل هذا العمل، ودفع أجورهم قرميدا أثريا ليبنون به مساكنهم ، وهكذا بُني القليل ولم يصلح الكثير في وقت أزيلت فيه أسوار الخلافة وتركت المدينة مفتوحة لكل من هب ودب من اللصوص والذئاب والبدو ، ولم تمض الا سنوات على هذا الهدم حتى هددت المدينة بحصار ضربته عليها قبيلة شمر ، فاحتج سكان المدينة على هذا الواقع ، ولكن بعد فوات الاوان ... فبغداد اليوم غير محمية ولا تختلف عن أي قرية من قرى الريف العراقي . فكر مدحت باشا بجر قناة للري في بغداد تماثل الاقنية التي كانت تروي جنوب الجزيرة فاستدعى المهندسين وبدأ بالعمل وفرض الضرائب ، وقبل أن تنتهي فترة حكمه لبغداد دشن القناة الجديدة شخصيا وبحضور رجالات رفيعة المستوى من أوربا ، غير أن القدر القاسي كان بالمرصاد لما فعله مدحت باشا ، ففي أول فيضان لنهر دجلة وبدلا من أن يكون نهرا مفيداً يخصب الارض العطشى جاء بطوفان كبير لأن معاول عمال مدحت باشا قد أزالت كل الحواجز من طريق النهر ، وتركت الفيضان يدخل

الى بغداد ليحولها الى جزيرة في منتصف مستنقع وبائي كبير ، ولم تعد تتصل بالعالم الخارجي الا عن طريق القوارب ، ومع ذلك استدعى مدحت باشا الى تركيا لتسند اليه مهام اعـادة تنظيم الامبراطورية ، لمـا يمتلكه من مقومات الفضيلة • يروى أنه ترك بغداد وهو لا يملك شلنا واحدا حتى أنه ترك ساعة يده رهينة في بغداد لكي يمكنه استئجار الخيول من أجل السفر • ذهب مدحت باشا دون أن يترك أثرا سيئا أو اسما مكروها • كان رجلا شريفا في ديار غـير أمينة ، ومتحمسا فعالا وليس وغدا مثل بقية الاوغاد •

لم نعد نفكر في بغداد بغير فكرة الخروج منها ، وما ان خلعنا ملابسنا المبتلة وتناولنا العشاء حتى بسطنا ما نفكر به أمام الكولونيل نيكسون الذي أبلغناه أننا قد جئنا الى بغداد ليس لمجرد التسلية أو الفرجة،ولكن جئنا لنتعرف على قبيلة شمر ولنلتحق بها في أقرب فرصة ممكنة •

وافق مضيفنا في الحال على كل خططنا ، على الرغم من معرفته المحدودة بشؤون البدو حتى انه لا يدرك الفرق بين شمر والعنزة ، وبلطف متواضع عرض على ولفرد أن يقوم بزيارة الى عاكف باشا والي بغداد ، وأخذ على نفسه عهدا بتذليل كل الصعاب التي تواجه أي مشروع نقترحه •

في هذه الايام لم نكن نرغب بمغادرة دار المندوب السامي البريطاني لكي نأخذ قدرا كافيا من الراحة ، ولنكون بعدها على أهبة الاستعداد لمغادرة بغداد• ومع هذا وافقنا على مقترح نيكسون بمقابلة الباشا • وقرر ولفرد أن يعرض الموضوع نفسه على الباشا ، ولحسن الحظ تأخر لقاؤنا به الى اليوم الثالث من وصولنا الى بغداد ، مما سمح لولفرد أن يعيد النظر في كل ما خطط له ، فقرر أن يتخلى كلية عن مساعدة الباشا ، وكان هذا القرار هو القرار الحكيم الذي اتخذه ولفرد بهدوء ورويـة •

دهش الدكتور كولفيل لما كنا نخطط له،ونظر بملء عيونه الى التحضيرات

التي نقوم بها والى كامل خططنا ، فسخر من الافكار « الرومانسية » التي نحملها عن البدو ولم يوافق على قولنا بأن البدو يتوزعون في كل مكان بعيدا عن وسط الجزيرة العربية . واعتقد أن العنزة وشمر قد خضعت للحكومة منذ زمن بعيد ، واستقروا بهدوء كفلاحين في الاراضي الزراعية ، لأنه يعرف فرحان شيخ شمر وناصرا شيخ المنتفك وعبد المحسن الهذال شيخ العمارات ، فالاول والثاني قد حصلا على لقب الباشوية أما بقية شيوخ البدو فهم في حلف مع الحكومة البغدادية ، غير أنه لا يعرف شيئا عن جدعان ولا عن العنزة المستقلين، بينما يعرف عبد الكريم ــ بطل شمر الشجاع ــ أنه من قطاع الطرق الذي ألقي القبض عليه وشنق في الموصل منذ سنوات . ولم يكن قد سمع شيئا عن فارس حتى ذكرناه له ؛ ونصحنا قائلا انكم لن تجنون شيئا من الذهاب اليه وعليكم أن تذهبوا الى المنتفك لتروا أن ما عندهم يفوق ما عند فارس بعشرات المرات.

أخذنا الدكتور كولفيل الى نواب هندي يقيم في بغداد يدعى أحمد أغا[1] صديقه الذي يعتقد أنه يعرف بعض الشيء عما نبحث عنه . وسأصف وقائع الزيارة كما دونتها في مذكراتي : في الثالث عشر من شباط قمنا بزيارة أحمد أغا في بيته الجميل على الضفة الاخرى من نهر دجلة مقابل دار المندوب السامي .

انطلقنا بصحبة الدكتور كولفيل على ظهر قارب الكومت التابع لدار المندوب السامي ، فاستقبلنا النواب عند سطح داره الذي جعله صالة انتظار والذي صعدنا اليه بدرج خارجي ، ثم قادنا باحترام زائد الى غرفة الاستقبال المجاورة لمقصورة أخرى حيث كانت تعيش سيدات مؤسسته في طابق علوي منفصل عن البيت . وجدنا ولدين صغيرين من أولاده كانا في سن الحادي عشر والثاني عشر من العمر ، على الرغم من أننا أخبرنا أن سنهما هو أكبر من ذلك ، كانا يرتديان « سترتين » سوداوين تصلان الى حد الركبة وتضيقان عند الخصر

---

(١) لقب نواب كان يطلق على حكام المقاطعات البريطانية ، وعلى أفراد العائلات العريقة ، كما كانت تطلق على الامراء المسلمين في الهند .

بوضوح ، وعلى رأسيهما قبعتان مطرزتان بالذهب ، وفي أقدامهما أحذية براقة أنهما خجولان ولكن كانا يتمتعان بأدب رفيع وأخلاق عالية، وكم كانت دهشتي عندما علمت أنهما قد تزوجا منذ شهر من ابنتي عمهما الوريثتين الكبيرتين له!... دخلت علينا الفتاتان حالا وكانتا أكثر حياء من زوجيهما الصغيرين . لا يمكن للمرء أن يتصور أنهما أكبر من أطفال الحضانة قليلا على الرغم من أنهما كانتا في سن العاشرة والثالثة عشرة من العمر كانت الصغيرة منهما رائعة الجمال ، وطلعتا علينا بلباس واحد من الثياب الخضراء الطويلة الموشاة بالذهب ذات الاحزمة الذهبية ، وقد وضعتا الاقراط الذهبية في الاذان والعصائب المرصعة بالماس على الرأس ، وخزامتين جديدتين في أنفيهما . قامت الفتاتان بدعوتي للسلام على حماتهما في غرفة داخلية ، وعلمت قبل الدخول أن البيجوم[1] سيدة مسلمة رفيعة المستوى لا تظهر عندما يكون الرجال موجودين ، ولهذا تركت أحمد وولفرد وكولفيل يتحدثون وحدهم وذهبت للتحدث مع ربة البيت بالعربية ، غير أنها لا تفهم منها شيئا ، وردت علي بالهندوستانية[2]، التي لا أفقه شيئا منها . حاولت التهرب من هذه المحادثة المحرجة باحضار رقعة الداما ، وجلست ألعب مع البيجوم لكي لا تبدو علي علائم الضجر .

انشغل ولفرد وكولفيل في مشاهدة حصان فحل تابع للنواب الذي يملك خيولا أصيلة تعتبر أفضل من كل الخيول التي شاهدناها في بغداد . وعندما انضممت اليهما كانا ينظران الى فرس كميت كان يمتطيها عبد الكريم ـ شيخ شمر ـ ... من سلالة كحيلة مزنة . كانت الفرس بارتفاع خمس عشرة قبضة وعمر الثانية عشرة . أثارت اهتمامي بسبب سمعة مالكها السابق ، وبدأت أجمع المعلومات عن تاريخها وطريقته في الحصول عليها ، فدلني الدكتور كولفيل على رجل عربي كان يقف على مقربة منا بهدوء ووقار ، فأخبرني أن الفرس كانت مطية الشيخ عبد الكريم عندما غدر به ناصر شيخ المنتفك . اتضح لي بأن هذا

(١) لقب السيدة الهندية .
(٢) الهندوستانية : هي اللغة الاكثر تداولا في الهند .

الرجل كان من قبيلة شمر ويخدم نايفا[1] بن فارس الشخص الذي نريد مقابلته من قبيلة شمر • كانت ضربة الحظ رائعة عندما تعرفنا على هذا الرجل الذي يدعى نعمان ، فطلبنا منه أن يأتي الينا بعد الظهر لنتحدث على انفراد بشأن رسالة كنا نود ارسالها لسيده ، واعتقدنا أنه من السهل علينا المرور من نايف الى والده فارس • أعجبت بوجوه رجال شمر ، وبالفرس الكميت التي نسبت اليهم ، الا أنه لم يعد بامكاني الصبر على سؤال كنت أنوي التوجه به الى الرجل البدوي ، ليتبين لي فيما اذا كان يعرف قصة عبد الكريم والفرس البيضاء التي أرسلها الى جدعان شيخ الفدعان ، فرد الرجل بقوله : أتذكر ذلك والله ، واغرورقت عيناه بالدموع عندما سمع اسم البطل عبد الكريم يذكر أمامه ؛ وتذكر ما فعله عبد الكريم لقومه ، وتأثر لنهايته المأساوية •

كان النواب أحمد أغا صديقا لنايف ، ووعد أنه سيزودنا برسالة اليه ، ولذلك تناسى ولفرد زيارتنا الى عاكف باشا • وأخذنا نستعد لكي نرحل مع خادم نايف حالما تنتهي مهمتنا في بغداد ، وتصورنا أن الامور ستكون سهلة جدا وسنكون عندها في استقلال كامل عن الجنود والشرطة والباشا وعن كل ما يمت اليهم بصلة • كان أول شيء فكرنا به هو الحصول على الجمال التي تتوفر في بغداد ، وكنا نرغب بالاستئجار أكثر من الشراء • عرض كولفيل علينا المساعدة ، ووعد بالحصول عليها من خارج بغداد من قبيلة الزوبع ، وقال : انه يعرف صديقا مسيحيا يعمل بالتجارة ويستخدم كثيرا من رجال العقيل في أعماله التجارية • وأكد بأنه سيأتينا بطابنا في الوقت المحدد مع رجلين أمينين سيرافقاننا سائقين للجمال ، وسيفعل كل ما بوسعه ليحصل على ما نريده لأن هذا التاجر كان مدينا للدكتور كولفيل بمعروف جميل ، عندما أنقذ حياة ولده الوحيد في السنة الماضية من مرض ألم به ، وهكذا أخذ كل شيء يعد نفسه لنا طائعا دون تلكؤ أو ابطاء •

---

(1) هو نايف بن محمد الفارس ابن عم فارس الصفوق الذي تبحث عنه الليدي ، وبطبيعة الحال يكون فارس جده هو غير فارس المطلوب ، وستكتشف الليدي ذلك فيما بعد •

في اليوم التالي لزيارتنا السابقة قام ولفرد والكولونيل نيكسون بزيارة الى الباشا ، فاستقبلهما الوالي عاكف باشا بحرارة ، وعاكف باشا من ولاة بني عثمان[1] كان قد سلح المسلمين في صوفيا في وقت اندلاع المذابح البلغارية ، لأنه من الاتراك المحافظين ، وينتمي الى مدرسة فكرية قديمة في تركيا ، ولم يكن يتكلم مع زواره بغير اللغة التركية .

نقلت المحادثة بينهم عبر مترجم خاص ، وتشعبت لتتعدى حدود المجاملات العادية . عاد ولفرد مادحا للباشا وقال : انه من ذوي الاخلاق الحميدة والادب الرفيع ، وقد قابلنا بلطف وبشاشة . ولم يكن مديح ولفرد للباشا كافيا ليمحو من ذاكرتي كل ما أعرفه عنه . تحول مجرى الحديث بينهم الى الخيول التي كان يملكها عاكف باشا ، فتبين أنه يملك منذعدة سنوات أفضل سلالات الخيل الاصيلة في بغداد ، الا أنه لا يلم بتقاليد الفروسية وسياسة الخيل وفقا لأعراف البادية ... ولم يجد في بغداد من يملك الاطلاع الواسع بهذا الشأن ، بل وجدنا على العكس من ذلك أخطاء واضحة في تحديد السلالات التي كنا نعرفها بدقة .

سمعت في اليوم التالي أن الباشا يملك فرسا من سلالة كحيلة جدرانية ، وسرعان ما تبين لي أنها من سلالة السمري ! عاكف باشا يشتهر في بغداد بأنه من أكثر الحكام ــ الذين حكموا بغداد ــ فسادا ، غير أن هذا القول يعتبر كبيرا بحق عاكف باشا . قال بعضهم : انه لم يمض على توليه الحكم ثمانية أشهر حتى كدس في جيبه خمسين ألفا من الجنيهات ، بالاضافة الى المجوهرات والخيل وثروات أخرى . وقد وردت مثل هذه المعلومات في كثير من التقارير الصادرة من بغداد . ولكن علينا أن نتأمل في صحة المعلومات ومدى دقتها ، فالمبلغ المذكور في مقداره كثير من المبالغة ؛ الا أنه كان يملك ستين أوسبعين فرسا أصيلة في اصطبلاته الخاصة ، ويصعب علينا التصديق بأنها مشتراة ، وتم

---

(1) محمد عاكف باشا : سياسي تركي تقلد عدة مناصب حكومية منها : وزارة الخارجية والداخلية في أيام السلطان محمد الثاني . توفي بالاسكندرية .

دفع أثمانها من دخل مكتبه مباشرة • ولا أدري فيما اذا كان الوالي قد سمع ما دونته عنه جمعا من أفواه الناس ! وهل سيأخذ دفاعي عنه في بعض المواقف على أنه من أبواب المجاملــة ؟

ان الاتراك لا يربطون بين أية فكرة مخزية وبين قبول الهدايا من الناس عندما يكون أحدهم على سدة الحكم بل كانوا يعتبرون الهدية جزءاً من راتبهم المعاشي مثل حال الخدم عندنا في انكلترا عندما يقبلون بالعطايا من التجار لقاء العناية والرعاية ، كما أن قبول الرشوة في تركيا لا يعتبر اهانة حتى لأكثر الموظفــين سموا ورفعة ، وان تسعة وتسعين بالمائة من رجال السلطة في تركيا يعتبرون تلك الهبات بمثابة هــدايا من أناس بسطاء الى مقامهم العالي الــذي يستحق التكريم ، ومن المعيب أن يأتي أحد الى الباشا بيدين فارغتين ، واذا ما تم ذلك فهذا يعني أنه يعامله معاملة واحــد من الفرسان وأنه يستهين بقدرته علــى مساعدته • يصعب على المرء في تركيا أن يقرر فيما اذا كانت الاخلاق قد أهينت بقبول تلك العطايا دون أن يكون هناك رد مناسب لها • وتعني العطية الولاء للمعطى يقابلها الدعم والحماية ••• هكذا كان أسلوب التعامل في تركية ، ومع ذلك وجدنا حدودا معينة للمقدار المنهوب الذي يسمح به الرأي العام التركي• ويبدو أن عاكف باشا لم يعد يهتم فيما اذا كان الناس الذين يحكمهم يتذمرون أو يشكرون •

يقال ان المشروع الجديد لتوسيع مسجــد الحسين كان سيدر علــى « السراي » مبلغ عشرة آلاف جنيه ، ولكن قبــل أن يبنى يحتاج المشروع لتوقيع الوالي ودفع الضريبة المناسبة ، شأنه شأن كل المشروعات والاعمــال الحكومية ، وبهذا يبدو أن الحكومة في القسطنطينية قد ساهمت فعلا في الدخل المــالي لسعادتــه •

ردا على زيارة ولفرد أرسل عاكف السيد روبنرام ــ سكرتيره الخاص ــ يحمل رسالة مؤدبة يرجونا فيها أن نسوس الخيول التي يملكها ، فقبلنا الدعوة لأنه يقتني مجموعة رائعة من الخيل ••• علمنا أن السيد روبنرام أرمني الاصل

عالي الاخلاق ، ويلم بالثقافة الفارسية ، ويتكلم معها الفرنسية أفضل منا ؛ ويتميز بلطف المعاملة ، ويتودد الى محدثيه بشكل واضح .

أعد لنا سرادق خاص كان قد جهز لاستقبال شاه ايران في احدى زياراته لبغداد وذلك في حديقة دار الحكومة بالقرب من اصطبل خيول الوالي . وهناك جلسنا على كراسي وثيرة جهزت بمساند لنستعرض الخيول التي تمر أمامنا طوال فترة الصباح . قدرت عدد الخيل بستين أو خمسين جوادا كانت تمر أمامنا بجسم ممتلىء ، يدل على العناية الفائقة بها ؛ اذ خصص لكل واحد منها سائس خاص ليعتني به ، فمتعنا أنفسنا بمواكب الخيل الساحرة . سارت في كل موكب ستة جياد معا ، وعندما كانت تصل أمامنا يتوقف كل جواد لكي نتفحصه منفردا عن غيره ولنحدد صفاته . كان سائسو خيل الوالي أكثر خبرة بشؤون الخيل من البدو وسكان الريف الذين أحضروا خيولا لفحصها ، وعلي أن أقول:ان هذه المجموعة من الخيل كانت رائعة المظهر أكثر مما كنا نتصوره.

طلب منا أن نشير الى الخيول التي أعجبتنا أكثر من غيرها ، فترددنا خشية أن يطلب منا السيد روبنرام قبولها هدية وفقا للعادات الشرقية ، ولكن سرعان ما تبين أن وراء العملية صفقة تجارية لأن الوالي قد استدعي لتوه الى القسطنطينية ، وهو اليوم يتلهف للتخلص من الخيل مضحيا بها جملة أو فرادى لقد تحمسنا بشكل طائش لخيل الباشا على الرغم من أننا نعرف جيدا أنه لا يوجد أي جواد منها يمكن أن تثبت أصالته ، وحتى لو أثبتت فلا ضمان لنا في حفظ تسلسل نسبها. وقفنا بين الخيول لنسأل عن فرس سوداء جميلة كانت تنتصب فوق الارض بعلو خمس عشرة قبضة واثنين تقريبا ، وتتميز عن غيرها بجمال رائع ، فلم نجد عند روبنيرام ما يدل على سلالتها ، غير أنه وعدنا أن يرسل كل الخصوصيات المتعلقة بها .

كم كانت دهشتنا بالغة عندما كنا نسمع الجدل المتناقض بين ساسة الخيل في بغداد عن أصول الخيول !!، وكان اسم سلالة الصقلاوي الجدراني غالبا

ما يلصق بكل فرس بغدادية كانت تمر بهم • وجدنا البغداديين يتظاهرون بازدرائهم لأصول الخيل لأن خيولهم قد هجنت منذ زمن بعيد بسلالات الخيل الفارسية والتركمانية طمعا بالحجم الكبير الذي تتطلبه السوق الانكليزية في الهند ، ولأن الحصان البغدادي أو العراقي بشكل عام هو من الخيل الطويلة القوية البنية المتباهية بأعراف جميلة ، كان الجواد البغدادي ينظر الينا بعينين كانتا تشبهان عيون خيول العنزة ، ويصلح لأن يكون حصانا للخيالة في الاستعراضات العامة ، لأنه كأسلافه التي هجن منها ضخامة ، ولكنه لا يماثلها في الجودة وسرعة العدو •

ان أفضل الخيول التي شاهدناها في بغداد كانت تنحدر من سلالة خيل الهذال[١] التي تماثل خيول بقية العنزة في الجودة والاصالة ، غير أن المعروف عن الهذال في البادية اتصالهم ببغداد لغرض التجارة أكثر من بقية العنزة • والقليل من الخيل التي شاهدناها في بغداد كانت من خيل شمر التي يفترض أن تكون من سلالات صافية بينما كانت آتية من قبيلة المنتفك ؛ ومن قبيلة الدليم[٢] والقبائل الاخرى نصف المستقرة في الفرات الادنى ، ومن المحتمل أن تكون بعض السلالات قد استولدت في العراق نفسه •

حصلنا من الوالي على جواب شاف حول أصل الفرس التي كنا نسأل عنها عندما أخبرنا أنها من خيل الشيخ ناصر ــ شيخ المنتفك ــ وتنتسب الى سلالة معروفة بين البدو هي سلالة :كحيلان عجوز ــ السميري[٣] • قد شبهت بيع خيول الوالي بقطيع غنم في بلادنا يتوجب على مالكها القول : انها متحدرة من سلالة رامبوليت ليستر ليروج لها في عمليات البيع والمساومة •

---

(١) شيوخ العمارات من العنزة .

(٢) الدليم من قبائل العراق ، ومركزهم الرمادي .

(٣) لا يمكن لسلالة كحيلان عجوز ان تقترن بالسمري ، واسم السمري هو اسم فرعي لسلالة الحمدانيات من الخيل ، ولهذا سيكون هذا التصنيف مثيرا للضحك عند عرب البادية .

قدر سعر الخيل بثلاثمائة جنيه ، الا أن عاكف باشا لم ينتظر ، فأرسل الخيل الى المزاد العلني ، ولم يزد سعر الجواد الواحد عن خمسين جنيها أو الثمانين ، وهناك بيع القسم الاكبر منها بسبب قلة المتنافسين على الشراء . أعجبتنا فرس صغيرة من سلالة عبية شراك كانت مرسلة من فرحان باشا ـ شيخ شمر ـ الى السلف السابق لعاكف باشا ، ولم ننتخب غيرها من بين المجموعة. كانت فرسا رمادية متعددة الالوان ، بارتفاع أربع عشرة قبضة واثنين . وكان سعرها رخيصا لا يتجاوز الخمسين جنيها ؛ ولكن أعرضنا عن فكرة شرائها بسبب لونها الرمادي الذي لم نكن نفضله .

ان الخيل في بغداد رخيصة الثمن ، فالحصان العادي الصغير لا يجلب لبائعه أكثر من عشر جنيهات ، حتى ان الدركي محمودا ـ الذي جاء معنا من الدير ـ اشترى عند عودته مهرا جميلا عمره أربع سنوات بسبع ليرات تركية فقط !

ربما كانت الخيول التي نشاهدها كديشة[1] على الرغم من أنها أفضل من السلالات في حلب وعموم الشمال . ويبدو أنه من العبث أن نبحث عن خيول أصيلة حقيقية في بغداد . بطبيعة الحال كان اهتمامنا بالخيل طاغيا ، ولهذا أهملنا زيارة المساجد ومعالم بغداد الاثرية ، وماذا نفعل ونحن نهم بمغادرة المدينة الى الشمال ؟ لم نزر آثار بابل ، ولم نتجول في المناطق المجاورة باستثناء طيسفون[2] لأنها وصفت كثيرا في مذكرات الرحالة.وأجمل ماشاهدناه هناك كان طاقة كسرى التي تعتبر من أجمل المواقع الاثرية .

لم نعد العدة لرحلتنا بعد بغداد بسبب انشغالنا بأمور كثيرة ، ولأننا ذاهبون الى منطقة مجهولة نود التزود بمزيد من المعلومات .

---

(١) الكديشة عند عرب الفرات هي الخيول المعدة للحرث والفلاحة .
(٢) طيسفون : المدائن .

لم نجد عند الدكتور كولفيل ما يفيدنا في هذا المجال ؛ ولكن يبدو أننا لن نمر في طريقنا بالاسواق ومراكز الحراسة، ولن نجد المواقع التي تزود المسافر بالمؤن ، ولهذا أخذنا نكدس في أمتعتنا الخبز والقهوة والسكر والتبغ وكل ما نحتاجه في السفر .

اشترينا المشالح والعباءات وأكثر الثياب تشريفا ؛ لنهديها لكبار رجالات البادية الذين نود استعطافهم مع مجموعة من الاحذية الحمراء لخدمهم .

جاء المسيحيان شكوري وذنون بالجمال،وفاء بالوعد وأكراما لصديقهما الدكتور كولفيل . نالت الجمال اعجابه ... فكانت أربعة جميلة قرنت مثنى مثنى وقيل :.انها سريعة المشي . ولم نكتف بها بل اشترينا معها ناقة ذلولا لنركبها عند الضرورة ، ولتشارك هاجرا في جزء من الواجبات . بلغت كلفة الجمل الواحد عشرة جنيهات ، بينما اشتريت الذلول بسعر يقل عن سعر الجمل ستة عشر شلنا . ولم تنس حنا الذي أردناه أن يسافر مرتاحا مع عدة الطبخ ، ولهذا خصصنا له حمارا أبيض اشتريناه بستة عشر جنيها ... كان الحمار صغيرا عمره أربع سنوات ، ولكنه كان يرتفع عن الارض حوالي اثنتي عشرة قبضة رشيق الحركة مديد الخطوة جيد البنية ، ولهذا توقعنا أنه لن يتعثر في الطريق .

ركب حنا حماره الابيض وشبهناه ببنش في سكناته وحركاته. وفي معرض الحديث عن الحمير نقول : كانت عادة ركوب الحمير شائعة في حلب بين التجار وأئمة المساجد ، لأنهم وحدهم الذين يكثرون من الترحال ، وكانوا يشترون الحمير الكبيرة من منطقة الاحساء[1] على الشاطىء الجنوبي الغربي من الخليج العربي ، وأغلى سعر لهذه الحمير في الكويت كان أربعين جنيها ، الا أن غلاء السعر يعتبر متناسبا مع حجمها وقدرتها على التحمل ورشاقة حركتها وخلوها من عيب التعثر في الطريق .

(١) اسم الحمير الحساوية لايزال يذكر حتى اليوم في الفرات .

كثيرا ما كان التجار يزيدون في سعر الاتان ، ويفضلونها على الذكر لأن الذكر ينهق في الطريق وربما دل على أصحابه وهم في حالة المبيت •

تملكتنا الحيرة ونحن نهم بمغادرة بغداد وكأننا غرباء يرتادون غابة مجهولة • اننا نغامر في رحلة لا نعرف نتائجها ، فهي بالنسبة لولفرد بمنتهى السهولة ، وتعتبر خطرة في رأي بعض الاصدقاء ، ومما زاد الامور تعقيدا هو أننا لم نصطحب معنا من يعرف قبيلة شمر ، ولا من يعرف الطريق أكثر من أميال قليلة خارج بغداد ، وحتى نعمان الشمري الذي كان يدعي أنه من خدم نايف تنصل من مرافقته لنـا •

فاجأنا هذا الرجل بطلب كبير للمال لقاء خدماته على أن ندفع له عشرين جنيها مقدما • كان هذا الرجل بمنتهى الوضوح في السابق ، فأصبح شخصية لا نعرف حقيقتها !!

فاما أن تكون قصة خدمته لنايف مكذوبة من الاساس ، أو أنه لايضمن سلامتنا عند سيده ! وحتى الآن لا نعرف حقيقة الظروف المحيطة بفارس قرب الدير ، بعد أن ترامت الى أسماعنا أنباء علاقاته غير الحميمة مع أخيه فرحان•• يروى أنه شاب في مقتبل العمر ، ويسود اعتقاد هنا في بغداد بأن لديه ولدا في الخامسة والعشرين من عمره •• فهل يقر الرجل بحقيقة الخلافات القائمة بين أجنحة قبيلة شمر أم لا ؟ وعلى كل حال سنتأكد من صحة هذه الفرضيات في المستقبل القريب باذن الله •

أكملنا طاقم الرحلة برجلين من العقيل[1] لقيادة الجمال بأجر معقول جدا مقداره ستة عشر شلنا في الشهر ، وقررنا أن ندفع لهم نصف المبلغ مقدما ، لأن العقيل قوم شرفاء ، ويستحقون التكريم وفقا لما يعرف عنهم في هذا الزمان• لم نخبر أحدا عن وجهة رحلتنا باستثناء الكولونيل نيكسون والدكتور كولفيل وشخص آخر • أما السيد روبنيرام فربما ظن أننا نعد لرحلة قنص في بابل ،

(١) اسم احد الرجلين فرحان والاخر اسمه نجران •

كان الشخص الاخر هو الصديق الطيب نواب اقبال دولة ملك أود[1] السابق الذي يعيش اليوم منفيا في بغداد ، وتربطنا به علاقات حميمة ، ويعلم بكل ما نخطط له ، ولهذا سهل لنا عملية التملص من بغداد بدعوته لنا لزيارة بيته الريفي في الكاظمية ، وهكذا بدون تشريفات أو طلب بالاذن من الباشا أو من مستشاره أو من رئيس الشرطة ؛ قررنا أن ننسل الى البادية ونترك للعناية الربانية تدبير أمور الرحلة وخطواتها المستقبلية .

* * *

(1) اود : قديما مملكة في الهند . مهد الشعوب الارية . وهي الآن جزء من اقاليم اغرا واود المتحدة . عاصمتها لكنو .

الفصل الثاني عشر

« وما كاد أن ينتهي الحديث حتى تحلق رؤساء القرية حوله لرؤيتنـا وبدؤوا يقصون علينا قصصا مخيفة •• فأحدهم قال : بائع جوال ذهب من حلب الى البادية فسلبه البدو الذين يتربصون بالمسافرين •

وقال آخر : بائع للخضار كان يرتحل من دمشق ، قتل في الطريق • وكانوا على اتفاق مطلق حول خطورة ما نقوم به ، وكانوا يبحثون شتى السبل لثنينا عن تنفيذ مشروع محفوف بالمخاطر •• وقد تراجع السيد لاسكاريس ؛ والتفت الي قائلا بلغة ايطالية : لن ندرك كهوف الانسانية • ولم أصدق ما يقول •• وعلى الرغم من هذه المثبطات التي قد تكون حقيقة قررنا أن نصمم على تنفيذ مشروعنا ••• قرأها فتح الله سيجر » •

● من رحلة لامارتين في بلاد الشرق[1] .

ملك أود في بيته الريفي ـ أيدينا حملت بالهدايا ـ بادية الجزيرة العراقية ـ متع الحرية ـ عبورنا للبادية ـ ـ انذارات كاذبـة ـ اصطياد الذئب ـ وصولنـا الى شمـر •

في الرابع والعشرين من شباط كنا في الكاظمية من بغداد ، مقر المنفيين السياسيين المسلمين من الهند الذين لا يرغبون في العيش تحت الحكم المسيحي.

---

(١) هو الفونس دي لامارتين ١٧٩٠ ـ ١٨٦٩ . شاعر فرنسي . له كتب شعرية وكتاب نثري بعنوان رحلة في بلاد الشرق . وورد في كتابه الاخير اسم لاسكاريس : الجاسوس الفرنسي في بادية الشام بين عامي ١٨١٠ ـ ١٨١٥ ومرافقة الماروني الحلبي فتح الله سيجر . للاخير مذكرات صاغها جان سوبلان في رواية لاسكاريس العرب عام ١٩٨٣ ، ونقلها الى العربية الاديب السوري فريد جحا عام ١٩٨٧ . وفتح الله كنيته في بعض المصادر ترد باسم الصايغ .

ويستقرون هنا في بلد مسلم على مقربة مـن بلادهم ، وهم في هـذه الديار يتمتعون بفائدتين : الوفاق الديني مع البغداديين ؛ والحماية الاجنبية التـي توفر لهم كرعايا بريطانيين في الدولة العثمانية • وكثير منهم يعيشون في بغداد أغنياء من عائدات أراضيهم الزراعية في الهند • ويندر أن تجد منهم من يقيم علاقات سيئة مع القنصل البريطاني العام في بغداد • ومن أكثر هؤلاء شهرة بأصله النبيل وثروته وكرامته الشخصية هو نواب إقبال دولة ملك أود المحال على المعاش في بغداد • نحن اليوم في بيته الصحراوي قرب الكاظمية المحطة الاولى في رحلتنا نحو الشمال ، وقلما تكلمت مع نواب دون الشعور بأني قد قلت الكثير أمام هدوئه وصمته • فهو الرجل الفيلسوف العجوز المتواضـع الذي لا يحب أن تذكر أمامه أعماله الخيرية الطيبة ، الا أنني لا أستطيع الا أن أذكرها • فهو نادرا ما يتصنع شخصية الملك السابق ، فأنا أمام أكبر شخصية مبجلة كنت قد قابلتها حتى الآن ، غير أنه كان متواضعا في طريقة عيشه ولديه بعض الاحتقار لحياة البداوة مع غياب حقيقي للتبجح بكونه انكليزي المولد منذ خمسين عاما • كان النواب من محبي السفر والسياحة ، اذ سافر كثيرا وتجول في كثير من بلدان العالم ويعرف أفق التفكير الاوربي ، ويزينه بسلوكية شرقية ، بالاضافة الى أصالة معقولة ونمط من التفكير الخاص به الذي ينفصل عن أي مدرسة فكرية أخرى •• كانت طريقته في المحادثة سلسلة جدا ، وقـد يفاجيء محدثيه بتحولات غير متوقعة في طرق الافكار وطرح الاشياء الجديدة• ولو قدر لنا أن نستوعبه جدا فأنا متأكدة بأننا سنجده من أفضل الرجال فكراء كان النواب حسن المعشر ، ومكانته كبيرة في بغداد وهو — من وجهة نظـر أخلاقية — ما يعزيه ويواسيه لضياع ملكه وسلطانه في الهند وأمجاد حكمه في لكنو • فهو في بغداد يمتلك اليد الطولى لفعل الخير والحرية الحقيقية فيما يريد أن يقوله وما يراه صحيحا للتناصل والمفكرين الدينيين وغيرهم وحتى الفقراء البدو لا يملون من الوقوف أمام بابه لقضاء حوائجهم • وكنت أعجب لنصائحه التي يقدمها لدار الحكومة — عندما تطلب منه — اذ تعكس معرفته بالناس والمدن ممزوجة بالحكمة الشرقية وبالذكاء والمهارة في التعبير عـن

أفكاره ، كان يتحدث بدون تجريح للاخرين ، وبصدق غير معهود في رواد الدوائر العالية ، وتيجة لهذه المواصفات يعتبر اسمه مصدر قوة في بغداد • أحاط النواب نفسه بمجموعة من الاصدقاء من كافة طبقات المجتمع ، حتى اني سمعت بأن فرحان باشا ـ شيخ شمر ـ كان ينزل في بيته كأخيه • ويعرف عند البدوبالنواب ملك الهند •

كل هذه الاعتبارات جعلت رحلتنا في ظروف أفضل لاننا سننطلق من بغداد برسائل وتوصيات يفترض أن تمنحنا استقبالا مناسبا في البادية •

اننا في المنتجع الصحراوي تتمتع بحسن الضيافة غير الرسمية . في واحد من البيوت التي يملكها النواب في بغداد وخارج بغداد •

يقوم البيت وحده في سهل مقفر يحيط بالمدينة على بعد نصف ميل عن جامع الكاظمية • يعتبر البغداديون النواب متهورا جدا عندما يعيش في مثل هذه البقعة النائية • لأنهم كانوا يهابون المغامرة في المبيت خارج المدينة ليلا، ولكن ـ بالنسبة للنواب ولنا ـ سحر المنزل يكمن في انعزاله•ان النواب يسكن بشكل دائم داخل بغداد ولا يأتي الى هذا المكان الا في أوقات متباعدة للراحة والتأمل الفلسفي وللعبادة الدينية والتعلم بين العلماء والوعاظ في الكاظمية ، لأن جامع الكاظمية يعتبر من الاماكن المقدسة ويؤمه الاتقياء من الشيعة في كل وقت •

يعتبر منزل النواب في الكاظمية طرازا فنيا أصيلا • وقد بني وفقا لتصاميم النواب نفسه اذ شيد على شكل حصن تحيط به الاسوار العالية ، وله مدخل وحيد كاحتياط ضروري ضد قطاع الطرق وعصابات السلب والنهب • وفي الطابق العلوي تتوضع الغرف التي يطل بعضها على الخارج بنوافذ تركية الطراز ، وغرف أخرى تطل على مصطبة حملت على أكتافها دعائم الدور الثاني من البناء • كان مدخل البيت يكبر عبر باحة تحيط بها الاصطبلات وأبراج الحمام التي تؤمها آلاف الحمائم البيضاء • أما الطابق الارضي فكان القاعدة بشكل عام ••• فيه درج حجري يقود من الساحة مباشرة الى الشقق العلوية

وكل شقة مؤلفة من غرف مؤثثة بالسجاد الفاخر فقط ، مع غرفة كبيرة خصصت في تصميمها للاستقبال •• كانت أعمدتها متصالبة ، عند كل نهاية متصالبة نافذة صغيرة • فبدت الغرفة في قسمها العلوي كالمصباح المنير يدخله الضوء من كافة الاتجاهات • أما الفجوات الجدارية فملئت بالارائك العريضة ، ويتمتع الجالس فوقها بالنظر الى المشهد في أحد جوانب مسجد الكاظمية بقبتـه الذهبيـة ومآذنه الاربع التي تحيط بها أشجار النخيل • ومن الطرف الثاني تطل على البادية بأفقها المترامي البعيد والذي لا يحجبه عن النظر سوى برج النمرود الذي ينهض من بعيـد •

كانت الشمس تشرف على المغيب ، وكانت البادية كلها تتلون بلون أحمر وردي جميل ومما يزيد الوجود بهجة توهج القبة الذهبية في منظر رائع الجمال يبشر بيوم جميل من أيام رحلتنا في صباح الغد المرتقب •

أتينا اليوم من بغداد نركب مطايانا بهدوء في حوالي الساعة الثانيـة ، تاركين الجمال تلحق بنا برفقة حنا ورجل مرافق أعاره لنا الكولونيل نيكسون حتى لا تثر فضول أحد فيسأل عن وجهة رحلتنا ، اذ لا يعرف أحد الى أين سنذهب بعد الكاظمية ، وبودنا أن ننطلق بدون اذن رسمي الى أقاليم الجزيرة، آملين أن نكون غدا في منأى عن أي سائل • أما الليلة فنحن في حرم آمن من بيت النواب الذي لا يجرؤ أي دركي على دخوله مطلقا •

كان حول مقر النواب في الكاظمية جماعة عربية صغيرة تخيم منذ مدة ، هي الشاكوح من فروع قبيلة البطة[1] • عرفناهم حول آثار « المدائن » وعند الخور يسكنون في أكواخ متناثرة بنيت من القصب الذي يكثر في البحيرة التي تحاذي بغـداد ، وسقفت بقماش الخيام العـادي • كانت طريقتهم في العيش والسكن تدل على الحياة نصف المستقرة يجمعون بين حياة البداوة والاستقرار المؤقت ، ويربون الماعز والاغنام ، ويرعون بها قرب الخور • وفي السـاعـة التاسعة بعد العشاء أرسل النواب في طلب بعض هؤلاء ليغنوا ويرقصوا أمامنا

---

(١) البطة قبيلة غنامية عدها العزاوي من الجحيش في العراق .

غير أني لو خيرت لأغنيتهم من ذلك ، فلم تكن الموسيقى تنبعث الا من طبـل ومزمار مزدوج بطول ثماني انشات ، وكان المزمار يطلق صوتا عميقا تمامـا كالمزمار العادي ، غير أن النغمة الموسيقية العالية كانت نشازا سيئة الوقع على السمع ، بينما كانت النغمة الموسيقية المزدوجة الخامسة والسادسة أفضل أداء. وبشكل عام كانت الاصوات الموسيقية سيئة حقا ، بينما كان الرقص أفضل من الموسيقى قليلا . وكم كنا سعداء عندما انتهوا ، وعندما أمرهم النواب بالانصراف . كان النواب يجلس هادئا طوال فترة الغناء مداعبا حبات المسبحة التي كانت في يده فقط . علمني هذا المشهد بأن الاعراب حول بغداد يعيشون حياة تعيسة ، فاسدة وضيعة متأثرين بحياة المدينة اللاهية ، ولو لم يكونوا هم كذلك لما قباوا بهذه المهمة .

أقام لنا النواب حفل وداع مؤثر ، وكتب بخط يده رسالة الى آخيه فرحان يوصيه بنا خيرا ، وحمّلنا سلة من الرمان والبرتقال لنعطيه اياها ، ثم أحضر سلة أخرى كبيرة كانت تحتوي على المؤن المختلفة ، وسلة ثالثة ملأها بنفسه بالكعك والمعكرونة والاطعمة المحفوظة وفاكهة من طاولة العشاء مع جرة فخارية للماء . وقبل أن ألتقط أنفاسي من وقع المفاجأة قدم لنا سجادة فارسية جميلة لأضعها على ظهر جمالي العربي ، وزودني بطاسة فضية صغيرة حتى نشرب بها كلما مررنا بنبع في الطريق ... كانت عطاياه ثمينة ومما زادها أريحية الطريقة المؤدبة التي قدمت بها .

تعذر علينا أن نرفض هدايا النواب ، أو أن نكون غير مسرورين بقبولها مطلقا . انها الليلة الاخيرة التي ننام فيها تحت السقوف ، لأننا سننطلق عند الفجر الى البادية . الاثنين في الخامس والعشرين من شباط تركنا منزل النواب بعد شروق الشمس بقليل ، وسرنا في البداية في الطريق الموصل الى هيت . ومعنا الدكتور كولفيل ومضيفينا اللذان سارا معنا أكثر من ميل وهم يمطراننا بسيل من عبارات التشجيع ثم عادا الى بغداد .

طالعنا صباح مشرق هذا اليوم تلألأت فيه رمال البادية تحت أقدامنا . فبدت كما لو أنها رشت بالملح ، وهبت علينا فيه رياح خفيفة من الشمال الغربي

لامست وجوهنا بلطف وعذوبة • كنا بمعنويات عالية • ومن الطبيعي هـذا الشعور ، فأي شيء يبهج ويسر أكثر من هذا الركب المرح في صباح مشرق جميل ؟ وأي شيء يمكن أن يكون باعثا على الحيوية في النفس أكثر من مغامرة بعيدة في قلب البادية ؟ وأعتقد هذه المرة أننا نقوم برحلة أكثر جدية ولن أتكلم عن المخاطر التي تتوقعها نسبيا بمقدار ما أتكلم عن المجهول الذي نواجهه في أرض مجهولة ندخلها أول مرة •

ان الجزيرة العراقية ــ في جزئها الذي نعبره ــ على حد علمي لم تعبر من قبل أي أوروبي أبدا في طولها وعرضها لا قديما ولا حديثا ، ولم يتردد عليها سوى تجار المدن في حلب وبغداد • كما أن بوادي جنوب هضاب جبل سنجار تعتبر أرضا جديدة ، واليها يجب أن نذهب اذا ما رغبنا في رؤية فارس وجماعته المستقلة عن شمر • ولكن لم نكن نعرف ماذا سيخبىء لنا القدر في الطريق !•• على كل حال علينا أن نعتمد على مصادرنا الخاصة حتى نصل الى الدير في رحلة تمتد أربعمائة ميل ، ولن نمر خلالها بأية قرية أو بيت خلال المسافة كلها باستثناء تكريت في اليوم الرابع أو الخامس من الرحلة ، ولم يكن لدينا من دليل الا خرائط مسح الاراضي التي وضعها الكولونيل شيسزني وبعض الآثار المعلمة على النهر • كان الفرسان يصعدون أعالي التلال يستطلعون الطريق ، فربمـا يرون قطعان الغزلان ، وربما يجدون قبرا على طريق الملازم فيتز جمس[1] عام ١٨٣٦ أو في الطريق الذي عادت به الحملة عام ١٨٣٧ • وكان عيب الخريطة التي نحملها يكمن في دقة تحديد المواقع ، فكأنها شمال بغداد سطرت في فراغ• جعلنا خطة الرحلة في السير بخط مستقيم يمتد الى أربعين أو خمسين ميلا باتجاه الشمال الغربي حتى نصل منعطفا لنهر دجلة ، ثم نحاذي الضفة اليمنى للنهر الى مسافة مائة ميل ، حتى نصل الى منطقة الشرقاط التي يسكنها فرحان شيخ قبيلة شمر ، والذي نرغب أن نسلمه الرسالة التي زودنا بها النواب ، ونطلب منه أن يوصلنا الى الشيخ فارس حيثما يكون • ومن الشرقاط حتى

(١) أحد ضباط بعثة الكولونيل شيسزني •

الدير تبلغ المسافة خمسين أو ستين ميلا نقطعها مثل طيران الغراب[1] ، غير أن الرحلة ستطول اذا ما توغلنا شمالا في هضاب سنجار • الا أن عقدة الحل تكمن في انتقالنا من فرحان الى فارس • وعلى الرغم مما كنا نسمعه في بغـداد فمن المستحيل أن يكون الاخوان على وفاق وفي علاقات طيبة • وعلى كـل حـال سننجز المهمة باذن الله ، وعلينا أن نكون في الدير في الخامس عشر من آذار لنقابل السيد سكين ـ القنصل الانكليزي في حلب ـ حسب ما اتفقنا عليه •

كنا في البادية وكان هاجس تعرضنا لغزو البدو يراودنا في كل لحظـة • فقمت بمناقشة الامور مع ولفرد لنعد خطة محكمة في حال تعرضنا للخطر • فنحن مسلحون بشكل جيد ، الا أننا لا نتوقع من بقية الجماعة أيـة مساعدة، ويجب أن لا نخاف من الغزو اذا كانوا أقل من خمسة عشر أو عشرين رجلا ، لأن سلاح البدو يقتصر على الرماح ومسدساتهم لا تطلق جيدا بينما كنا نملك بندقية ذات سبطاتين لولفرد ، وبندقية أخرى من نوع ونشستر تطلق أربع عشرة طلقة دون أن يعاد تزويدها بالطاقات • ان هذا التسليح سيجعلنا أقوى بكثير من أي مجموعة صغيرة من العرب الغزاة • ومع ذلك اتفقنا أن نتريث في الرد ، وعلينا أن نثق بأنهم سيكونون أكثر حكمة من أن يدفعونا الى مثل هذه التصرفات • أما في حال تعرضنا لغزو كثير العدد فعلينا أن نعترف أن عملية قتالهم ستكون عقيمة وغير مجدية ، عندما يكونون أكثر من خمسين فارسا ••• واذا ما رفضوا منا شروط الاستسلام فاننا سندع الجمال والامتعة لقدرها المحتوم ، وسنترك لخيولنا مهمة اخراجنا من هذه الورطة ، لأننا كنا نمتطي الخيول السريعة التي لا يمكن اللحاق بسهولة • وهكذا هيأنا أنفسنا لمواجهة أسوأ الاحتمالات ، الا أنه لا خوف على حياتنا لأن البدو يهتمون فقط بالسلب وأقصى ما يمكن أن يحل بنا اذا ما أسرنا هو تجريدنا من ملابسنا وتترك لنجد طريقنا مشيا على الاقدام حتى أقرب مكان مأهول بالسكان • كل الذي ذكرته يعتبر من التوقعات غير السارة ، ومع ذلك تبقى متوقعة في كل

(١) يهاجر الغراب في طيران متقطع . يطير ثم يستريح وهكذا ...

حين ، وأنظر الى هواجسها بعصبية غير أني أعتقد أن هذا لن يحصل وتمنى أن لا نصادف أي شخص يحمل نوايا سيئة شريرة • كنا تتسلح برسالة النواب التي نحملها الى فرحان على الرغم من أن البدو لايستطيعون قراءتها ، غير أنهم يحترمون محتواها عندما نذكره لهم • ويقيننا أن جدعان والعنزة هم اليوم في انشغال مطلق ، وليس لديهم من الوقت ليقوموا بحملات محدودة في الجزء الشرقي من أرض الجزيرة •

كان حنا وبقية الركب في درجة متناهية من الجبن والخوف ، ولم يكفوا عن التحدث بشؤون الغزو،ولكن لحسن الحظ ليس لهم من متاع يخافون عليه في القافلة سوى ملابسهم التي يرتدونها ، الا أنهم يعرفون أنها اذا ما فقدت فسوف نعطيهم بدلا عنها ، غير أن حنا يتظاهر بالشجاعة أمام مخاوف الغزو : ولديه ايمان مطلق بالبيك والعناية الربانية • كان مرافقنا البغدادي السمين علي لا يستطيع امتطاء حصانه الا بمساعدة ، وما ان ينزل عنه حتى يطلب المساعدة؛ ولم تكن له أهمية في تقرير مصير القافلة ، الا أنه حسن المزاج ، ويرغب دوما في أداء واجبه ، أما العضوان الاخران في القافلة فهما من جماعة العقيل الشرفاء لكنهما كانا بطئي الحركة ويعملان بسرور ويعتنيان كثيراً بالجمال ، ومن الصعب أن نصف أي واحد منهما بهذه السرعة •

وكانت الجمال حيوانات ممتازة في المشي ، تقطع ثلاثة أميال في الساعة في مشيها غير الاعتيادي • ومن دواعي سرور ولفرد ركوبه الجمل أول مرة بينما أبقى هاجرا نشيطة ــ قدر الامكان ــ للملمات وطوارىء الحرب أو الصيد • وما أن سرنا في الطريق بعد الكاظمية حتى توقفنا عند خليج صغير قرب الخور لندع مطايانا تشرب ولنملأ القرب وعندما اكتفينا من الماء تركنا طريق القوافل الذي كان ينحاز نحو الغرب ، وعبرنا الى السهل المستقيم نحو الشمال الغربي حيث كانت الشمس مرشدنا الوحيد في البادية • سرنا في هذا الاتجاه طوال الصباح ، وكنا نراقب ظل جيادنا الذي انتقل من الطرف القريب الى الطرف البعيد ، ولم تتوقف دقيقة واحدة عن السير في تربة بابل الناشئة عن الطمي والتي تكون في مثل هذا الوقت جرداء أكثر من البادية نفسها ،

والنباتات الوحيدة التي كنا نصادفها هي نباتات العاقول[1]من النباتات الشوكية التي كانت الجمال تلتهمها بنهم على طول الطريق . وكانت الارض تشوهها صدوع عميقة شكلت خطرا على مشي الجياد ، وترتادها قطعان كثيرة من الغزلان مررنا ببعض منها في هذا الصباح ولم نطاردها مطلقا ، وكنا نمر بعد كل ميل أو ميلين بصف من الكومات المزدوجة اعتبرناها من بقايا أقنية الري القديمة التي بدت لأول وهلة تلالا طبيعية ، لأنها كانت ترتفع فوق مستوى السهل من عشرين الى ثلاثين قدما .

شاهدنا أسرابا من القبرات[2] . واصطاد ولفرد نوعا من زقزاق نورفك[3] وفيما عدا ذلك كان الوادي خاليا من الحياة . ومرة أو مرتين مررنا بجماعات صغيرة من عرب تميم تسوق حميرا حملت بحطب للوقود ، فأخبرونا أنهم كانوا يحتطبون الشوك[4] الذي ينمو على شكل شجيرات صغيرة في الربيع والصيف ويجف مثل نبات البادية في الشتاء .

وعند الظهيرة وصلنا الى أرض متموجة حصوية عند حافة البادية ، وكانت الجمال جائعة جدا لأنها لم تأكل وجبتها المناسبة في يوم أمس ، ولأن الجمال لا تأكل الذرة ، والمكان حول منزل النواب كان خاليا من نباتات الرعي وكأنه طريق أجرد من كل شيء ، ولهذا أمرنا القافلة لكي تبطىء الخطوة وتترك الجمال تأكل على راحتها ، وعندما حانت الساعة الثالثة وصلنا الى مكان فيه

---

(١) العاقول : نبات من الفصيلة الفراشية أزهاره وردية وثماره قرنية صفيرة . شوكي صغير الوريقات ويعرف باسم علمي Alhagia maurorum . يكثر في روابي وسهول دجلة والفرات .

(٢) قبرة الحقل بنوعيها Wood lark , Skylark من الطيور العصفورية المألوفة في الجزيرة .

(٣) زقزاق نورفلك لعله الزقزاق الشامي Lapwing وهو من زوار البادية في الشتاء .

(٤) الشوك هو نبات الخرينيبة « Prosopis Farcta » من الفصيلة الزمزريقية وهو من النباتات الشوكية ذات القرنيات القابضة والبذور البنية ويسمى في الجزيرة والفرات بالشوك .

بعض العشب وبركة من الماء فتوقفنا هناك على بعد ميل من مضارب المشخب[1] القبيلة نصف الرعوية ونصف الفلاحية ، وهم قوم طيبون مسالمون ولا يؤذون أحدا ؛ فأحضروا لنا الحليب ليس على سبيل الضيافة ولكن من أجل البيع والشراء . قطعنا في هذا اليوم ستين ميلا فقط . وشعرت بالتعب لتغير نمط الحياة والطعام وبسبب ظروف السفر بعد الوجبات الدسمة التي تناولتها في مقر المندوب السامي غير أن ولفرد كان سعيدا لأنه مرة أخرى في خيمته المفضلة، وحوله الجمال وخدمه بعيدا عن الحراس أو الدرك الذين يغيظونه في كل حين . ان الذين قضوا حياتهم في أوربا لا يعرفون ما هي السعادة والشعور بالحرية في غياب حرس الحكومة في بلاد الشرق .

في السادس والعشرين من شباط توجب على ولفرد أن يتكلم مع رفيقنا علي بحزم وجدية فهو سمين ويعاني من صعوبة امتطاء السرج عندما ينزل عن ظهر جواده ، وعليه أن يفهم أن رجال العقيل الذين يقودون الجمال لا يمكنه أن ينادي عليهم كلما أراد أن ينزل عن حصانه أو كلما شعر بالعطش ، لأن كل فرد في القافلة لديه عمل محدد ، ولا يمكن أن نقبل بأيد عاطلة عن العمل بيننا ، الا أن هذه القضية التافهة سويت وسار كل شيء على ما يرام بعد ذلك . مشينا اليوم مسافة مناسبة تقدر بسبعة وعشرين ميلا وفقا لحسابات الاماكن التي قدرها ولفرد .

انطلقنا من موقعنا لنمر بمضارب المشخب ، فتوقفنا عند خيمة كبيرة لنسأل بضعة أسئلة ولنشرب قليلا من حليب الماعز الطازج . فنحن الآن على بعد ثلاثة أو أربعة أميال الى الشرق من بناء يسمى خان السوادية على الطريق الموصل الى تكريت . والقوم الذين نمر بديارهم هم من القبائل الصغيرة التي لا تمتلك الجمال بل الغنم والماعز ، وبعض دوابهم كانت تحرث الارض عند الدجلة . ويقدر عقيل نجران ــ الذين نصطحبهم ــ عدد خيامهم بألف خيمة وعدد خيام البطة بنصف هذا العدد .

---

(۱) المتسخب « Meshoabe » او المتسهاب من فلاحي الدجلة .

لا زلنا نسير على الطريق نفسه الذي سلكناه البارحة في الاتجاه الشمالي الغربي لنقطع أرضا حصوية ناعمة في بعض الاماكن ، وفي أماكن أخرى كنا نجد تربة غرينية تتناثر فوقها الروابي والاقنية البابلية . ويبدو أن المقاطعة كلها قد قسمت الى مربعات متساوية وكأنها كانت مسيجة ومعمورة في يوم من الايام، غير أنها اليوم مهجورة ولا يقطنها سوى الغزلان بأعداد كبيرة وتحوم فيها الطيور الجارحة ، وهناك على بعض الروابي ينتصب زوج من النسور الذهبية الجميلة وحولها المراعي والشجيرات الشوكية ، وفي زاوية أخرى من المنطقة وجدنا حفرة مموهة يحتمي بها صيادو الغزال ، وباستثناء ذلك لم نشاهد أثرا لساكن في هذه الديار بتاتا ، ولم نصادف أي شخص طوال هذا الصباح . حان وقت الظهيرة فرأينا مجموعة من الفرسان تقترب منا ورماحهم تلمع على ضوء الشمس وهم يعدون بجيادهم نحونا ... أمرنا ولفرد بالتوقف في وقت كان أربعة منهم يترجلون على بعد نصف ميل منا ، واثنان أو ثلاثة تفرقوا بغير انتظام ، ثم أقبلوا يخبون بجيادهم نحونا ، فترك ولفرد ناقته وامتطى فرسه بصحبة علي والنجراني ليقابلهم بينما بقيت أنا مع الجمال . وفي الحال تبين أن كل شيء على ما يرام ، فهاهم جميعا يعودون وهم يضحكون . لقد كان انذارا كاذبا ، فلم يكن الفرسان من البدو ولكن من عسكر الحكومة الذين كانوا في مهمة جمع الضرائب من الرعاة في المقاطعة ، ويتقاضون نصف بشليك على كل خروف أو عنزة ، وكانوا يصطحبون رجلا يركب بغلا كان يريد الذهاب الى سامراء خلف الدجلة وعندما سمع أننا ذاهبون في ذلك الاتجاه تعلق بقافلتنا وتفرق البقية بعد أن ثرثروا بما فيه الكفاية مع رجال القافلة ... ويبدو أن الحديث بحد ذاته يعتبر متعة بالنسبة للعربي سواء أكان من المدينة أو من أهل الريف ، ولا يفوتون أبدا فرصة الانغماس فيه . لم نكن نرغب برفقة الرجل الغريب لنا ، ولكن لم نستطع التخلص منه لاعتبارات مقدسة في بلاد الشرق والتي تعطي الحق لكل شخص يريد أن يرافقك في الطريق وأخذنا بالمثل المقبول من الجميع ، « كلما ازداد العدد ازداد الانس والمرح » ، ولهذا فقد تبعنا هذا الشخص وهو يسير على بعد أمتار من القافلة ، وما ان صعدنا فوق أرض

مرتفعة حتى شاهدنا في بطاحها قوما يسيرون على أقدامهم وينظرون الى الارض، وعندما سألنا عنهم قالوا انهم يلتقطون الكمأ الابيض الذي كنا قد شاهدناه من قبل • ويوجد هنا بكثرة •• ان هؤلاء القوم هم سكان قرية تدعى سميچة[1] كانت ذات أشجار ونخيل ، ووجدت معلمة على الخريطة ، فها هي تنهض أمامنا الآن والى اليمين فوق خط الافق منتصبة على حافة قناة نهر دجلة • فتلهف العقيليون للوصول الى تلك الاشجار على الرغم من أنها بعيدة عن مسارنا ، وكانوا لا يوافقون على أن نسير في خط مستقيم في بادية مكشوفة خالية، وقد أبدوا كلهم هذه الرغبة فكان لزاما علي أن أستخدم حكمة بحريـــة تقول : « الزم الشاطىء » • وكان ولفرد على ظهر ذلوله يواكب الجمال في سيرها ، بينما كنت في المقدمة أقود الركب وهذا يتطلب مني مزيدا من الانتباه والحذر في بلد لا تميز فيه معالم الارض ، غير أن الامور لم تكن صعبة ما دامت هناك الشمس والريح التي يمكن الاهتداء بها • وحتى عنق الحصان يمكن استخدامه كساعة زوالية رائعة ، وبممارسة بسيطة يمكن حساب المعدل الذي يجب الاتجاه نحوه لكي نصبح في مسير مستقيم • فالرياح غالبا ما تهب على هذا البلد من الشمال والشمال الغربي ولا تغير من اتجاهها سواء أكنا في السهل أم في التلال• ويعتبر الامر بمنتهى السهولة بالنسبة لولفرد لأنه كان يكثر من الرحلات بدون مرشد ، ويشعر وكأنه في بيته عندما يكون في البادية • وعلى الرغم من خبرتي المحدودة في هذا المجال فقد تعلمت الكثير وشاهدت بما فيه الكفاية ليجعلني أجد طريقي بسهولة هنا وفي أي مكان • وفي الحقيقة أجد أن سوسيكس تعتبر محيرة لي أكثر بعشرات المرات من هذه البادية • وصلنا عند الظهيرة الى صف مزدوج من الربى يتجه تماما في خط مستقيم الى الشمال والشمال الغربي فيبدو أن هذه هي قناة بابل العظيمة التي كنا قد شاهدناها ، ودهشنا عندما لم نجد لها ذكرا على الخريطة ، وباعتبارها معلمة بشكل واضح على الارض فهي بدون شك آتية من الدجلة ، حتى إن العقيليين والرجل صاحب البغل كانوا يدعونها

---

(١) سميكة تصغير كلمة سمكة .

خرسعيدة[1] وفي المنطقة مجموعة من الربى وآثار القرى القديمة ، ثم وصلنا الى أرض مربعة تبدو وكأنها حصنا من الحصون القديمة . ونزولا عند رغبة العقيليين وراكب البغل غيرنا قليلا من مجرى سيرنا وسايرنا القناة ، حتى قادتنا الى أرض منخفضة حيث نصبنا الخيام عند حافتها على مقربة من قبر يعتبره فرحان كنقطة علام شاهدها من قبل ويدعى قبر أبي المحاسن .

تطلعنا نحو الشرق فشاهد علي بعض الخيام على بعد أميال عنا،فأرسلناه مع ذلول ليرى فيما اذا كان بالامكان التزود بالماء والحصول على الحليب أو البيض . قال رفيقنا صاحب البغل ــ الذي رفسه بغله وآذاه في هذا اليوم ــ انه جسر حربا على بعد ثلاثة أميال من القناة فقط وبوصولنا الى هذا المكان المعلم على الخريطة تم تحديد مكاننا في الجزيرة بدقة .

كانت هذه الارض مثالية وتصلح لأن نقيم فيها ، فهي منخفضة جميلة ومليئة بالعشب الجيد والشجيرات الشوكية التي ترعاها الخيول ، أما الجمال فكانت تفضل الرعي في الارض المرتفعة . قمنا بنصب الخيام على الحصى دون أن نشعر بوجود جيران نضجر منهم . ومن روائع الحياة في الخيام والبراري الشعور بالامتلاك المطلق لأي بقعة تخيم فوقها . فأنت سيد الموقف فيها تصل وتقطع وتحط وتغادر بدون اذن من سيد أو رئيس ، وتعفى من ضريبة الارض وتربط خيلك في أي مكان تشاء بمنأى عن أية أعباء أو تكاليف كتلك التي نشاهدها في انكلترا فأنت في البادية في حرية مطلقة حتى في اغلاق حق المرور. فالمرء حر في معاملة كل القادمين كأعداء أو كأصدقاء . ونحن الآن لا نملك الشعور بالعدوانية تجاه أي مخلوق ، ومن الجمال والمتعة أن نحافظ على

---

(١) توجد في هذه المنطقة آثار قناة للري قديمة اخذت اكثر من اسم واحد . كانت تربط الانبار في الشمال الغربي على الفرات بدجلة عند بغداد . وفي كل مرة يغمرها الطمي ويعاد فتحها . أعاد فتحها عيسى بن علي في زمن المنصور العباسي فسميت بنهر عيسى : قال الشاعر :

في نهر عيسى والهواء معنبر ... والماء فضي القميص صقيل
والطير اما هاتف بقرينه ... او نادب يشكو الفراق ثكيل
والغصن مهزور القوام كأنها ... دارت عليه من الشمال شمول

السلام وأن نبيت النية الحسنة والشعور الانساني . فنحن لا نتكلم عن قوانين الارض لأن الحرية هي الحرية على الرغم من الجرائم التي ارتكبت باسمها ، وهي أعظم نعمة يملكها الانسان وفي مفهومها الدقيق لا يمكن لنا أن نظفر بها في أوربا .

عاد علي بالماء وبأشياء مفيدة يرافقه اثنان من عرب الخزرج الذين أكدوا للرجل راكب البغل بأنهم يقيسون فعلا حول جسر حربة ، ويقولون ان قبيلتهم تملك عشرين ألف خيمة . ولكن هذا الرقم كان ضربا من المبالغة ، غير أن النجراني يقول : هم أكثر من البطة والمشخب ، لكنهم ليسوا بهذا العدد .

ان مثل هذه القبائل الصغيرة تعتبر من القبائل نصف المستقرة ، لأنها تمتهن الرعي والفلاحة بآن واحد . فالخزرج لديهم بعض الحقول أسفل منا بانجاه فرع صغير من فروع دجلة والمنطقة لا تبعد عنا كثيرا حتى اني أسمع بطبطة البط ، وهذا يعني أن الماء عنا ليس ببعيد . وعلى بعد ميلين باتجاه الغرب نهض تل مرتفع يدعى « أبو راسين ».

في السابع والعشرين من شباط قطعنا مسافة يوم آخر وكانت مناسبة لتقربنا من دجلة . وقد أمضينا البارحة في مجادلات مع الرجل راكب البغل . أما اليوم فعلينا أن نسير مسافة مناسبة بعد أن عبرنا خرسعدة وفرعا منه يدعى الفرحانية ، اذ لم تعترض سبيلنا أية صعوبات .. يبدو أن الخزرج لا زالوا يستفيدون من هذه القناة التي تطاولت عدة أميال مشكلة خندقا عريضا جدا يصعب على الجمال اجتيازه ، الا أن الخيل قفزت فوقه بسهولة ، وبعد هذه المنطقة أصبح ارشاد القافلة شيئا مزعجا ، لأن الخيل كانت في حالة هياج ، وفي كل مرة كنا نبحث عن مصادر ازعاجها .

وعندما تنحرف الجمال نحو اليمين ، نعود لنصر على أن تسير وفقا لما نريد . ولم يكن بوسع رجال العقيل أن يفهموا كيف نعرف الاتجاه بعيدا عن النهر . وغضبوا لأننا نبتعد كثيرا في الجزيرة نحو الچول ــ أي الفيافي ــ قالوا ذلك بلهجة الخوف على مصير القافلة .

لم يكن نصرا لنا عندما لاحت أمامنا عند الساعة الثالثة بقعة داكنة، فأصر الرجل راكب البغل على أنها برج سامراء المعروف .

ظهر البرج على بعد أميال منا ، ولكن سرعان ما اتضح أنه على بعد خمسين أو ستين ميلا ، وينتصب فوق أرض مرتفعة تقوم على أساس شامخ جدا ، ويقع على الطرف الاخر لنهر دجلة ، وبعدها مباشرة مررنا بخيام حولها أمهار وخيول ، وعلمنا أن أصحابها من قبيلة الدليم . ودهشنا لوجودهم بعيدا عن مقر القبيلة على الفرات ، ولكنهم أخبرونا أنهم ينجعون الى الجزيرة من أجل الرعي كل عام .. وهكذا لم نشاهد أحدا غير الذي ذكرناه مع أعداد من الغزلان وطيور الحباري[1] وثعلبين أبيضين . فمعظم رحلتنا كانت فوق بادية حصوية . انتصف النهار بينما كنا نعبر صفا آخر من الربى والتلال ، وهنا توقفنا لندع الجمال ترعى عشب البابونج الذي وصفه العقيليون بأنه يماثل الشعيرفائدة بالنسبة للجمال. وعندما اقتربنا كثيرا من برج سامراء [2]، شاهدنا حوله أبنية ضخمة أخرى على شكل أطلال على اليمين على الضفة اليسرى لنهر دجلة في جهة تواجهنا تماما . يبدو أن المنطقة مقبرة ضخمة لمدن وعمران كانت تمتد عدة أميال ، فتلهفنا لزيارتها . لكننا لا نستطيع أن نجعل الجمال تعبر النهر ولم نكن نجرؤ على تركها بدون حماية ، فواسينا أنفسنا مقنعين اياها بأن المواقع قد استكشفت جميعها بشكل كامل ولكن دونا آسماءها من أفواه العرب فكانت على التوالي : جادش ، والقائم ، والملويّة ، والآشد ، وهي اليوم خالية من الناس ومجرد آثار قديمة كما يقولون باحتقار . أما الضفة اليمنى من النهر لم نشاهد عليها الا آثار مدينة قديمة واحدة تدعى الاصطبلات . ويعتقد ولفرد أنها آثار لمدينة اغريقية ، مررنا بها ونحن في طريقنا فبدت مكانا جميلا جدا على شكل ساحات يتوسطها شارع جميل بعرض خمس عشرة يارده .

---

(١) الحباري Bustard من الطيور الجميلة اللذيذة اللحم ، كان بألف الجزيرة بكثرة .

(٢) سامراء من بلدان العراق اسسها بنو العباس عام ٨٣٦ م على بعد ١٠٠ كم شمالي بغداد ومن آثارها المهمة : جامع المتوكل وبيت الخليفة وقصر المنصور والقادسية .

وعلى الرغم من كون البيوت مهدمة،الا أنها لاتزال تنتصب بقرميدها الجميل • وبدا السور في حالة صالحة تحيط به مجموعة من الابراج الدائرية ، وعلى ضوء المساء ظهرت الاطلال وكأنها مسكونة وكانت أكثر جاذبية من ربى بابل المملة • تخترق المدينة قناة لا زالت دعائم الجسر فوقها بادية للعيان حتى اليوم• انها جافة اليوم نصف مردومة،وحتى طريق القوافل القديم العريض ظهر مهجورا منذ وقت طويل ، ويمتد من بوابة المدينة حتى الشمال الغربي • تابعنا المسير لنجد أنفسنا فجأة أمام نهر الدجلة الذي يندفع بانسياب جميل تحت أجراف شاهقة : وجاهدنا بعض الوقت لنجد طريقا يوصلنا الى أسفل الوادي لأننا نحب أن نخيم قرب النهر • ولكن وجدنا مكانا مرتفعا لنصب الخيام يبعد قليلا عن قمة واحدة ومكانا آخر يناسب الجمال المحملة أسفل منه حيث تكثر شجيرات الطرفاء • وهكذا وجدنا نهر دجلة نسخة طبق الاصل عن نهر الفرات، غير أنه يختلف عنه بكون مستوى سريره يختلف عن مستوى سرير الفرات ، وغزارة النهرين بدت لي متساوية غير أني أقدر أن دجلة أسرع من نهر الفرات

مررنا بقوم يدعون الجمعة فشكوا لنا من الدليم الذين مررنا بهم هذا الصباح كانوا قد ساقوا أمام بيوتهم قطيعا قوامه عشرون خروفا منذ ثلاثة أيام ، وكانوا يتحدثون عن غزو العنزة ، ولهذا خيموا في غابات الطرفاء لتمويه مساكنهم • وفي هذه المنطقة شاهدنا الدراج والحمام والخنازير البرية وبنات آوى • وكما يقول الاولاد اذا دار المرء حول نفسه ثلاث مرات فعند عصى الاعمى يمكن للفرد أن يمتع نفسه بالفرات • نحن الآن نخيم في مكان يدعى سريت الغزال •

في الثامن والعشرين من شباط أقلقت راحتنا عند منتصف الليل أصوات اللصوص ، وتفقدنا خيلنا فوجدنا رؤوسها داخل الخيمة والجمال تجثم بهدوء حولها ، غير أن حصان علي قد اختفى • هذا الحصان الذي كان مصدر ازعاج لنا فمنذ أن غادرنا بغداد ، وهو يتسلل بعصبية ويصهل محاولا فك رباطه كل ليلة ، ولهذا فان تعاطفنا مع نبأ اختفائه لم يكن خالصا ولم يكن هناك سبب للحزن أو التأسف عليه ، وكنا في موقع عند سلسلة من الصخور والاجراف

لا تناسب اللص للهرب بعيدا بغنيمته في الظلام فاستطلعنا المكان ونحن نزحف ورؤوسنا تلامس الارض لنلمح اللص عند الافق ، فظهر الحصان عند الحافة وعلى ظهره اللص ، ولما شعر بوجودنا ولم يكن بمقدوره الاختفاء سقط منحدرا بين الصخور ، فسمعناه يعدو بسرعة بعيدا بين أشجار الطرفاء الموجودة تحتنا مباشرة .

جعلنا هذا الحادث متيقظين ، وقضينا الليل كله ونحن تسامر ونغني ليعلم اللصوص أننا في يقظة . وباعتبار أن فرحان لا يزال بعيدا عنا غط الجميع في نوم خفيف وهم يصغرون بلحن كئيب طويل متهدج .

أشرقت الشمس في يوم كان ينذر في الافق البعيد بقدوم غيوم كثيفة ، وعندما كنا نحمل الجمال هبت الرياح الجنوبية الشرقية فكادت أن تطيح بالقافلة من فوق الجرف ، بينما طارت الامتعة الخفيفة من فوقها ، ولفتنا عاصفة رملية تلاها سقوط قطيرات من المطر ثم تلا ذلك كله هبوب الريح .

طريقنا في هذا اليوم كان عبر جزء من وادي الدجلة بين الاراضي المزروعة. فتقدمنا فيه ببطء تاركين الجمال ترعى وتمشي بآن واحد ، ونحن نريد قلعة الآشد التي وجدناها على الضفة اليمنى للنهر وسامراء على الضفة المقابلة على بعد ميلين عنا ، فبدت جميلة بجامعها الجميل المطلي بالذهب كجامع الكاظمية ذي المئذنتين ــ يقولون انه مكان مقدس ــ وبدا البرج الذي شاهدناه عن بعد ــ البارحة ــ كبيرا جدا ، يذكر المرء بصور برج بابل الذي يشبهه . انه مدور ويتناقص قطره تدريجيا نحو القمة ويدور حوله درج لولبي ، وينتصب البرج وسط أبراج عالية على بعد نصف ميل مربع . ولو لم نكن نخشى أن نورط أنفسنا بمشاكل مع السلطات لذهبنا الى هناك لزيارته ، فلا بد وأن تكون هناك معدية ، اذ لم نشاهد أحدا فيها ، غير أن الرجل صاحب البغل تركنا وتأهب للعبور . وبالاضافة لهذا المشهد من سامراء هناك صخرة كروية تتأت من الوادي كقطعة من بناء حر ، ولم نمر بشيء مهم حتى وصلنا الى الآشيد الذي علم على الخريطة باسم قصر بنت الخليفة ، وهو من الآثار الحية الرائعة

بمناظرها الجميلة ، اذ كان ينتصب على الجرف الناتيء ويطل على النهر الى مسافة كبيرة .. مربع الشكل ولا يزال محتفظا بمظهره العام جيدا ، حتى احترنا في كيفية عبور أسواره المهدمة على ظهور الخيل ، فسرنا حوله حتى وجدنا صدعا فدخلنا منه . ويبدو أن البقاء في هذا المكان المهجور يعتبر من أصعب الامور . ومع ذلك التجأنا اليه حتى لا تعصف بنا الريح في الاماكن المكشوفة . كانت القلعة مبنية من القرميد المشوي وهناك بقايا القوالب المعمارية واضحة فيها .. انها بلا شك من الابنية الاسلامية . وعندما كنت أرسم . ذهب ولفرد ليصطاد زوجا من الحجل وحمامة واحدة كنا بأمس الحاجة اليها .

بدأ المطر يهطل بغزارة لأول مرة منذ أن غادرنا بغداد في أيام كانت تميل الى الحرارة ، ولهذا عزمنا على التوقف حالما نجد المأوى الذي يحمينا على الرغم من أننا لم نسر أكثر من اثني عشر ميلا فقط . فهنا يتوفر العشب الممتاز في كل مكان : فأقمنا الخيام في جانب صغير من الوادي في مكان يحمينا من الريح تماما تحت عرف من جرف منخفض ، وحالا غيرنا ملابسنا المبتلة وأشعلنا النار وأصبح العشاء جاهزا في وقت كان الجو يهدد بليلة قاسية ، ورغبنا في المطر ليبقى اللصوص بعيدا عنا ومع ذلك لففنا حبلا حول المكان المكشوف من المخيم لنجعل الدخلاء يتعثرون عندما يهمون بدخوله .

في الاول من آذار تغيرت الريح فجأة فهبت من الشمال الغربي ثانية وعصفت بالخيام حتى كادت أن تسقطها ، وهكذا نجد آذار يستأسد علينا في معظم أيامه . كان الجو باردا بشكل قارص بعد أن توقف المطر فنظر ولفرد تلقاء سامراء فوجد الآشد والقبر ودور الامام تقابلنا كلها وقد أشرت على الخريطة خطأ . ومن الصعب علينا أن نفهم ماذا كان الكولونيل شيسزني يفكر في هذا المكان في وقت كان فيه أكثر دقة على نهر الفرات ؟

شربنا القهوة قبل أن ننطلق ، وبينما كنا نفعل أطل علينا ذئب من أعالي الهضبة خلفنا وجلس هناك وهو يراقبنا ، فأصر ولفرد على اصطياده فتسلل

اليه بنجاح حتى وصل الى مسافة عشرين ياردة قبله وأطلق عليه النار فأرداه قتيلا • ويؤسفني أن أقول : ان الذئب المزعوم كان من بنات آوى غير أنه بدا على ضوء الصباح أكبر من المعتاد ولم نستطع عندها أن نتبين ذيله . وفيه يكمن الاختلاف الوحيد بين الذئب وابن آوى •

اضطربنا هذا الصباح لسماعنا أخبار غزو قوامه سبعون فارسا من العنزة. وتأكدنا من صحة أخباره من المسافرين الذين صادفناهم في الطريق • ويقال انهم مروا على طول هذا الطريق البارحة ، وقد يبالغون في قولهم غير أنه لا دخان بدون نار ، خصوصا وأن العرب الذين أخبرونا كانوا خائفين بشكل واضح ، الامر الذي جعلنا نحذرهم وتترقب كل حركة من حولنا • ركبت وولفرد في مقدمة القافلة كحراس ، وتركنا المسافة بيننا وبينها بمقدار نصف ميل بينما أوكلت مهمة حراسة المؤخرة الى علي صاحب العينين القويتين أكثر من غيره • ان قوة البصر شيء رائع ، ولكن من السخف أن نقول : ان العرب أبصر منا . وعمليا كنا نشاهد الاشياء أمامنا قبل الاخرين ، وعلى سبيل المثال اليوم لمحنا في الافق جزءاً من لمعان وخيال كان يتذبذب في السراب وما لبثنا أن ميزناه بوضوح حيث كان سلسلة بعيدة من الهضاب • فقال العقيليون انها غيوم قادمة غير أنها بدون شك هضاب جبل حمرين التي كانت معلمة على الخريطة التي كنا نحملها • انها الآن تبعد عنا مسافة خمسين ميلا ، وشاهدناها أول مرة ، وهي شيء جميل لأنها تكوّن الحد الفاصل بين تركيا وبلاد الفرس . وبدت لنا واضحة تماما عندما ارتفعنا فوق تلة كانت أمامنا •

مررنا اليوم من خلال ديار السوامرة وعلى مسافة بعيدة مر أمامنا خنزير بري خارجا من أجمة للطرفاء ، فاقترب مني وهو يبتعد راكضا في وقت اصطاد فيه ولفرد الدراج والحجل وأرنبا بريا ، وهو الارنب الاول الذي نشاهده من خلال كامل رحلتنا ، فسر حنا سرورا بالغا ، وقال : سنأكل اليوم ما يكلف نصف مجيدي في حلب ، ونصف المجيدي بالنسبة لمقاييس حنا الاقتصادية هو مبلغ كبير جداً •

أخذت أخبار الغزو تتضارب . أحدهم أخبرنا أن الغزو اتجه الى تكريت، وآخر قال انه اتجه جنوبا الى التلال ، ومجموعة من القرويين يقولون انهم لم يقابلوا أحدا في الطريق وليس هناك من غزو بل عصابة من قطاع الطرق ، وهؤلاء بالطبع تكره مقابلتهم ولكن نرجو من الله أن نتفاداهم .

ذهب ولفرد ليصطاد في غابة الرغل[1] التي كانت تحتوي على شجيرات شوكية ذات أوراق خضراء غضة ، قامت مكان الطرفاء في هذا المكان ، بينما خيمنا تحت جرف جميل جدا غطت أرضه نباتات الشعير الطبيعي والجاودار[2] المفيدة للجمال والخيول ، وبسببه توقفنا مبكرا بعد مسيرة لا تتجاوز الستة عشر ميلا . أقبل ولفرد في جعبته أربعة طيور من الدراج وخمسة من الحجل الصحراوي ، وحجلى كبيرة ذات أقدام حمراء ، وبطتان من الحذف وأرنب بري وواحد من بنات آوى .

في الثاني من آذار غادرنا الوادي ونحن نشق طريقنا الصاعدة بمحاذاة الجرف ، فوجدنا أنفسنا حالا في عالم آخر من البادية . وهذا التغيير بطبيعة الحال لم يحمل معه شيئا جديدا ، ولكنه يؤثر في مشاعري كحدث غريب كلما حصل.والفرق الذي يصنعه قطع تلك الخطوات يبدو واضحا دون أدنى شك. ولم يمض وقت طويل على انطلاقتنا حتى شاهدنا « تكريت » القرية البائسة المنظر الخالية من المئذنة والتي أشبه منظرها بمظهر الدير على الفرات ، فقمنا بالتفاف حولها لأننا لم نكن بحاجة الى المؤن ولم نكن نرغب برؤية القائمقام ولا المدير ولا الدرك فيها ، ثم عبرنا طريقا يقود الى عنة ويعرفه فرحان جيدا ، وهناك يكمن الخوف من الخطر . على بعد مسافة منا وقف النجراني الذي كان يتقدمنا واستدار وصاح : ان بعض البدو قادمون ، كانت الارض متموجة وكانوا بالقرب منا قبل أن نراهم،ولكننا لم نكن نخشى شيئا هذه المرة..كانوا تسعة على ظهور الابل . بدون سلاح فأخبرونا بأنهم ذاهبون الى تكريت في

---

(١) الرغل : اسم محلي لبعض النباتات .

(٢) الجاودار : نوع من الشعير البري .

عمل يخص فرحان[1] ، انهم أول الشمريين الذين تقابلهم ، ولكن نظرنا اليهم باهتمام وخوف ، وقد بدت عليهم علائم المرح « والشيطنة » وهم يتكلمون بخبث جدا عما كنا نشاهده عند الفلاحين الذين تعاملنا معهم وكأنهم من عرق مختلف ، وسألونا بعض الاسئلة فأجبناهم عليها ، وسألناهم كذلك ثم تابعوا طريقهم دون تكلف بعــد ذلك .

وصلنا عند الساعة الثانية الى وادي الدجلة ثانية ، فوجدنا سهلا أخضر يسرح فيه بقر الجاموس مــع بعض المواشي ، وبقربه مساكن كثيرة لعــرب الجواري[2] ، وسرنا ساعتين عبر السهل لنتوقف في مكان يماثل المكان الذي خيمنا به الليلة الماضية تحت جرف محاط بعشب أخضر ، ومن حسن حـظ مطايانا أنها سمنت بسرعة لأنها وجدت العشب في هذه الديار بالاضافة الــى الذرة التي نقدمها لها . وعند توقفنا لا زالت قطعان الجاموس على مقربة منا، ولكنها أخذت تعود الى ديار الجبور[3] الذين لا يبعدون عنا كثيرا . ويبدو أن الجبور هم من أفضل القبائل التي قابلناها من حيث حسن الخلق والطيب والشرف ، ويبدو أن كل مالكي الجاموس هم على هذه الشاكلة . كان الجبور على استعداد لتزويدنا بالحليب والزبدة وكل مانحتاجه،ولكن لأغراض تجارية وهم يتوقعون أن ندفع لهم قيمة ما يحضرونه لنا .. انهم في حالة سلام وازدهار وسعادة ، وفلاحون من الطراز الاول ، أخبرونا أنهم يرفدون قبيلة شمر ولا يشكلون قبيلة مقاتلة . وعندما يغزو العنزة شمر كل عام لا يتدخلون بشؤونهم ويتركون لهم حرية تدبير أمر جواميسهم .

علمنا أن مضارب قبيلة شمر على بعد مسيرة ثلاث ساعات فقط ، غير أن

---

(١) المقصود فرحان الصفوق شيخ قبيلة شمر ، بينما فرحان الذي عــرف الطريق هو العقيلي المرافق للرحلة .

(٢) يقول العزاوي في عشائر العراق : الجواري من الفزي والفزي من الفضول في بنــي لام .

(٣) الجبور من العشائر التي تنتسب الى الزبيد ويسكنون في الجزيرة السورية، وجنوب العراق وعلى نهر دجلة .

فرحان لم يكن بينهم لأنه يقيم ب الشرقاط على مسافة أبعد من ذلك ، ولكن قوم فرحان اليوم هم تحت امرة شيخ غريب الاسم لفظا وكتابة انه الشيخ مطني وان كان الامر من حسن حظنا أو من سوئه فسنرى غدا أول مخيم حقيقي للبدو ونأمل أن يكون في الامر خيرا •

سرنا في هذا اليوم ستة عشرين ميلا ، ونحن ننتقل من مكان لآخر على هدى خريطة شيسزني • ومو ننا الان يبعد حوالي ثلاثة أميال شمال غرب أبي الريش الموقع الاثري الذ وصلناه بعد مسير رائع بالنسبة لجمال كانت تحمل أثقالا ، وتغذ السير أ من أي حيوان يماثلها • بقيت أمامنا مسيرة ثمانية وأربعين ميلا كي نصل ا الشرقاط التي نأمل أن نصلها بعد غد •

جاء الى مخيمنا مسافر على الاقدام ، يحمل حقيبتين معلقتين بعصاه بمدها على كتفيه،انه بائع منج يبيع التبغ للعرب ومعه كفتا ميزان من الخشب ويحمل حصاة يستعملها للوز ، كان عجوزا طيب السريرة مضحك المنظر ، ولم يسألنا شيئا ، وجاء بعض سيوف الاخرين — كأنهم من غاسلي الصحون في بلادنا — يطلبون الانس وا خول الى الخيمة •

في يوم الاحد الثالث من ذار لم نكن في عجلة من أمرنا لكي ننطلق هذا الصباح ، لأننا كنا نقدر سير هذا اليوم بثلاث ساعات فقط ، ولهذا كان عندي من الوقت ما مكنني من أرسم منظرا للبادية من فوق رابية ، بينما قام ولفرد بجمع بقايا الفخ باجية التي تظهر طريقة صب الزجاج في فترة ما قبل التاريخ ، وكل ما حو راف من الحجر الرملي ترتفع ما بين الخمسين والمائة متر • يطالعني منظر ى حمرين الجميل جدا بمسيلاتـه وأخاديده وسفوحه التي تشكل شبكة ظلال الزرقاء • واستطعنا رؤية الصدع الذي يتحدر منه نهر دجلة عند مرو من السهل العلوي لبلاد الآشور الى السهل المنخفض لبابل في الماضي•ولا من أن تكون هضاب حمرين هي الحد الفاصل بين مسلكتين كانتا تقومان في ا ي •

شكت فرسي طرفاء من ج واضح في قدمها ، ولهذا اضطررت لركوب

الجمل فتبين لي أن ظهره وسيلة مريحة جدا في السفر ، ولكنها مملة لأنـك تضطر للملازمة غيره من الجمال بدلا من أن تركب وترى كل ما يحدث بالاضافة الى ذلك أرى حركة الابل سلسة وهادئة مما يجلب علي النعاس دون أن أطايبه. وفي هذه الاثناء كان ولفرد يمتع نفسه بالعدو خلف الثعالب وبنـات آوى ، فجرح واحدا منها ، ولكنه اختفى بين صخور الجرف . شعرت بالغيرة لرؤيـة هاجر وهي تعدو بعيدا نحو الافق وبات من الصعب علي أن أراها بوضوح وبدت لي عن بعد بحجم الخنفساء .

مررنا بمضارب الجبور ثانية حيث أعطونا الحليب واللبن ، ووصلنا الى خان متهدم يعود الى العصور الاسلامية ، كـان معلما على الخريطـة باسم الخرنينه ... بناء جميل مجهز ببوابات على شكل حذوة الحصان ، فجاوزناه الى مخيم آخر للجبور ، وعلمنا منهم أن المطني[1] وقبيلة شمر يخيمون تحت هضاب تبعد خمسة الى ستة أميال الى الشمال الشرقي ، بينما كان طريقنا الى الشرقاط باتجاه الشمال الغربي . اعترضتنا الهضاب ونحن في طريقنا الى قبيلة شمر ، وتطلب منا أن نقوم بالتفافة لنعبر شعبا يؤدي الى وادي جهنم ، ولهذا تدخل النجراني ليحثنا على تجنب المخاطر وعموم الشمر ، لأنه حضري ويخاف مثلهم من البدو ، واقترح بدلا من ذلك أن نقيم عند معسكر للزوبع يقع على خط سيرنا . حتى الآن لا أحد من جماعتنا يعرف وجهتنا بعـد الشرقاط . فالعقيليون يظنون أننا نريد الموصل غير أن حنا يعرف بطريقة غامضة أن لدينا موعدا مع السيد « سكين » في الدير ، ولكن معلوماته الجغرافية كانت ضحلة ولا تجدي نفعـا .

لم نعر اقتراح النجراني أي اهتمام ، لأن ولفرد يعرف بدقة الاتجاه الذي حدده الجبور ولاول مرة تقدم علي المجموعة بعصبية والتصق بولفرد عندما كان يعدو من أجل الاستطلاع . لا شيء أمامنا سوى البادية والتلال طوال الساعتين اللتين سرنا فيهما ، وأخيرا أبصرنا رجلا يختاس النظر من فوق تـل فركب ولفرد اليـه لاستجوابـه .

---

(١) من وجهاء شمر .

من أنت ؟ عربي . من أين أتيت ؟ من عرب هناك ــ مشيرا الى المكان الذي جئنا منه ــ من شمر ؟ لا . من الجبور ؟ لا . من الزوبع؟ لا. اذا لمن هذه الجمال ؟ انها لشمر. أين هم الشمريون؟ في مكان بعيد ــ مشيرا الى الهضبة ــ تعال وأرنا أيها الرجل الطيب فنحن أصدقاء للشيخ فرحان ، ونحن في طريقنا الى الشرقاط ، ونريد مواجهة مطني والتحدث اليه . فأجاب الرجل : حسنا أنا من رجال مطني . فقال ولفرد ومن شمر ؟ قال نعم . فقال ولفرد ماشاء الله هيـــا بنـــا .

سويت القضية وتم التعارف وكان مخيم شمر بجوارنا تحجبه عنا الارض المرتفعة . أخذنا الرجل الذي تعرفنا عليه حديثا ليدلنا على شمر . قال الرجل : مطني نفسه كان خارج المضارب ليقود غزوا ضد العنزة ، وعليكم أن تأتوا حمود ابن هيات في بيته وسيكون سعيدا لرؤيتكم . ان الشمر في هذا المكان هم جماعة الاصلان[1] الذين رأينا خيامهم تتبعثر هنا وهناك وحولها عدد كبير من الابل وقليل من الخيل قدرنا عددها بستة . ركبت فرسي لكي أصلهم بشيء من الوقار ، وترك ولفرد بندقيته عند حنا وتوشح السيف الذي كـــان يحتفظ به لمثل هـــذه المناسبات الرفيعة .

علمنا السيد « سكين » معاملة البدو وتقاليد الزيارة ، غير أنا شعرنا بالخجل في مثل هذه المواقف المحرجة . لقد وصلنا كالغرباء ودون سابق انذار، ولم ينهض أي شخص لاستقبالنا ولم يهتم بنا أحد ، غير أنا تابعنا السير دون أن ننظر يمينا أو شمالا الى أكبر خباء ، وهناك ترجلنا ومشينا باتجاهه . كان استقبال العرب لنا باردا ، ولم نكن نعرف المعاملة الرسمية بـــين البدو ، لأن المسافرين الاوربيين في البوادي الجزائرية والمصرية معروفون جدا ويعاملون وفقا لتقاليدهم الاوربية،الا أن البدو هنا معذورون! فقد نكون أول الاوربيين الذين يشاهدونهم ، ولهذا لم يتحرك أي شخص حتى أصبحنا داخل الخيمة

(١) يذكر الاصلان قديما في شمر الجزيرة العربية ، ويلقبون العصلان في بعض الاحيان .. والعصلان اسم حصان أصيل كانوا يعتزون به .

فصاح ولفرد بصوت عال: السلام عليكم في وجه اثني عشر رجلا كانوا يجلسون فأجابوا بصوت عال : وعليكم السلام ثم نهضوا على أقدامهم وأفسحوا لنا بأدب كي ندخل ، فاستعجل كبيرهم في مد بساط وسرج للجمل لكي تتكىء عليه وفقا لعادة البدو • وجلسنا بدون تكلف ونحن نرد السلام برفع أيدينا الى الفم والرأس ، وأبدينا في شخصينا الوقار والحشمة غير آبهين لما حولنا • كل هذا بفضل توصيات السيد « سكين » من قبل ، ولكن سرعان ما ذاب الجليد بيننا وبين البدو ، وأخذ حمود يحادثنا ويرغب مع رفاقه بعمل كل ما يجعلنا نألف ونرتاح •

أصبح رفيقنا علي معروفا بحديثه المتواصل ـ وتلك معاناتنا معه في الطريق ــ الا أنه يقوم بواجبات خاصة مستخدما ذكاءه في نصب الخيام وجاب الذرة للخيل ، ويقوم بأشياء أخرى بهدوء دون أن تطلب منه ، وباعتبار أنه لا يتوجب علينا دفع شيء في هذا المكان أصبح علي في لياقة واعتبار •

كانت خيمة حمود بائسة ، وخاب ظننا في ايجاد علامات استثنائية للعظمة بين هؤلاء الشمريين الذين كنا نظن بأن حالهم أفضل من حال القبائل الادنى منهم كالجبور والدليم والعقيدات ، ولم نجد في خيامهم أكثر من بساط وسرج، وهي غالب ما يملكونه من أثاث • أما القهوة فقد وضعت في قدور ليست أفضل من قدور سطم والجغايفة الذين مررنا بهم على الفرات ، الا أن الرجال يتصرفون هنا أفضل من غيرهم ، ولم يسألونا أسئلة وقحة • ولم تمض الدقائق الاولى على وصولنا حتى تجمع أكثر من ثلاثين من الرجال حول نار حمود ، ولم يكتموا سر شيخهم ، وأخذوا يقولون بأن المطني يذهب بعيدا قرب عنة على رأس غزو قوامه ألف فارس[1] من الاصلان مع بقية شمر • كان مطني عقيد القوم وبذلك فسروا غيابه وغياب كل الرجال المسلحين عن المعسكر ، ولم نشاهد الا القليل من الرماح « الاستقراطية » أمام بعض الخيام •

---

(١) كان هذا الوصف ضربا من المبالغة .. قد علمنا ذلك فيما بعد .

كان على مطني أن يجتاز الفرات في مكان قرب رواه[1] لمهاجمة المهيد والفدعان هناك • وعندما سألنا عن اسم مخيم الاصلان فقالوا انه الهوشويش، فكان الاسم صعبا علينا لفظا وكتابة • تحدثنا نصف ساعة ثم انسحبنا الـى خيمتنا التي نصبت خلف خيمة حمود ، وبترتيبات من علي وصل عشاؤنا الى هناك وفق خطة رسمناها لكي لا نأكل مع البدو ، ولم يعترض أحد على هذا الاقتراح • عوت الكلاب كثيراً حول المخيم ، ولم نجد بينها الا القليل من كلاب الصيد الرمادية التي يسمونها تازي • وهكذا انتهت أمسيتنا الاولى بين مضارب شمر المخيفين ، والذين كنا نسمع عنهم القصص الكثيرة ، والذين ظهروا لنـا في الماضي كأعداء من خلال مغامرات السيد « سكين » •

في الرابع من آذار أخذنا بعين الاعتبار اخفاء حقيقة ما ننوي القيام به ، وكان من الضروري أن نجيب على بعض تساؤلات مضيفنا والاخرين ، ولن نذكر فارسا حتى تتأكد من موقفه الحقيقي من فرحان والشمر الجنوبيين •

تحدثنا اليوم كثيرا عن الاثار ، وهو أمر مألوف بالنسبة للاوربيين، وبهذه الطريقة حصلنا على بعض المعلومات المفيدة التي نريدها • فعندما تحدثنا عـن آثار الشرقاط الجميلة التي حدثونا عنها في بغداد ، قـال محدثنا : « أوه » لا وجود لها ، واذا أردتم أن تشاهدوا الاثار فعليكم الذهاب الى الحضر[2] حيث المناظر الحجرية والبيوت القديمة التي لا تحصى ، وعندما سألناه عـن مكانها أشار الى الشمال الغربي وهو الاتجاه ذاته الذي نود أن نسلكه • فسأله ولفرد عن الاعراب الذين هم في طريقنا فقال الرجل « آه » نعم ستجدون سميرا الذي يخيم مع جماعته قرب الآثار ، وهذا ما جعل أعناقنا تشرئب لسماع الخبر لأن اسم سمير يثير فضولنا بسبب رحلته الاخيرة الى جبل شمر ، فقررنا أن نراه اذا كان ذلك ممكنا لنحصل منه على المعلومات التي تهمنا في الابحاث •

اقترح حمود في هذا الصباح أن يذهب معنا الى الشرقاط ــ وهو ما كنا

---

(١) راوة بلدة على الفرات باتجاه الشرق . تقابل عنة .
(٢) الحضر منطقة اثرية جنوب غرب الموصل .

تتمناه ـ ، لأنه سيعرفنا على فرحان ، ويوفر لنا نوعا من الحماية في الطريق في حال مصادفتنا للفرسان ، لذلك وافقنا حالا • انطلقنا عند الساعة الثامنة في صقيع أبيض كان يغطي الارض والخيام على الرغم من الشمس المشرقة طوال هذا اليوم • وعند الانطلاق تيبست أقدامنا من البرد ، ولهذا مشيا مسافة ميل أو ميلين مما أغضب السيد حمود وأخذ يصدر أوامره ويقول : اركب •• اركب وكأنه هو الذي يقدم لنا فرسه ، ولكن يبدو أنها الطريقة التي يتبعها كل شخص في هذا البلد ، غير أن قاعدة تذكير المرء بعمله تعتبر غير مقبولة بالنسبة لنا • وعلى كل حال فهذه قضية تافهة ولا داعي لأن تتذمر منها • يبدو أن كل شيء يسير بلطف ، هو ورفيقه يمتطيان الخيل ، فجاء هو على فرس كميت صقلاوية والآخر على ظهر مهرة عمرها سنتان تسمى الجلفا ، وقد أعجبا بفرسنا هاجر ، وعندما سمعا أنها من سلالة كحيلة عجوز وضعا أيديهما فوق الرؤوس كعلامة على الاحترام ، وأسرعا في مقدمة الجمال ، وتوسلا أن لا ندع الجمال ترعى خوفا من وجود كمائن للفرسان ، وقاما باستطلاع المنطقة بشكل جيد •

كانت تلال جبل مكحول على يميننا ، وهي استمرار لتلال جبل حمرين . فكانت جرداء حمراء تتخللها المسيلات التي تتهادى الى السهل وبين حين وآخر كنا نمر بمجار مائية عميقة ، يصعب على الجمال عبورها ، ركبت الذلول ثانية طوال هذا اليوم ، لأن طرفاء عرجت وأثارت مخاوفي ، ولهذا نصحنا حمود عند المساء أن نلف قدمها بضمادة من الملح واللبن •

ظهر أمامنا زوج من الجمال ، فأرسلنا أحد الرجال لاستطلاع الخبر ، فعاد حالا بصحبة اثنين من الاصلان ليتابعا المسير معنا • أحدهم كان عجوزا شاهدني أقضم تفاحة من عطايا النواب فسألني ماذا تأكلين ، فناولته قطعة فأكلها قائلا : خوش بصل[1] ، وبعدها بقليل ظهرت مجموعة كبيرة في الافق لم نستطع تبيان معالمهم بسبب السراب ، وكانوا يسيرون على خط مواز لخط

---

(١) خوش كلمة استحسان •

سيرنا فارتعبنا منهم وخشينا أن يكونوا من الفرسان ، فتبادلنا صيحات الخطر وعند اقترابهم منا ثبت أن مخاوفنا ليست في محلها ، فقد كانوا من الناس الفقراء الذين يركبون الحمير ويرتحلون من بغداد الى الموصل ، وقد أمضوا سبعة أيام في هذا الطريق الذي فضلوه على الطريق السلطاني العـام قـرب الحدود الفارسية ، لقربه وليس لديهم ما يخافون عليه ، وعلى كل حال أصبحوا سعداء بمرافقتنا ، وهم يرغبون في السفر معنا الى أبعد مسافـة تجمعنا في الطريق • كانت بينهم امرأة سارت بجانبي وتحدثنا قليلا فأخبرتني كم هي متعبة مع زوجها عبد الله وصبي في السنة الثانية عشرة وطفل في السنة الثالثة من عمره، وهم يتناوبون على حمار واحد • شاهدت عبد الله على ظهر الحمار مع الطفل الصغير الذي وضعه أمامه أما الولد الاكبر فقد جاء ماشيا • وتوسلت المرأة ان أدعه يمتطي ظهر أحـد الجمال ، وكانت ممتنة جدا عندمـا وافقت ••• يا للمسكينة كيف كانت الحياة عبئا ثقيلا عليها • فهي التي تنتظر الولادة بعد شهرين ، وتمشي وقدماها بريتا من الحصى ، وعندما تركب يهزها الحمار هزا عنيفا ، ولهذا فضلت المشي على الركوب طوال الطريق • انها تريد بيتها في الموصل الذي فيه ستكون راحتها الوحيدة • الموصل جميلة وتعتبر أفضل من بغداد ــ البلد التعيس ــ مسقط رأس زوجها عبد الله • وتخيل رفيقتي فاطمة بيتها في الموصل جعلها تعيش مع الامل • جاء مع فاطمة أخوان يتناوبان على ركوب حمار آخر • وهنا ترجل أحد البدو عن طيبة خاطر ليمكن الماشي من الركوب ••• سرنا اليوم في البادية سيرا طويلا مرهقا ذاق مرارة تعبه كل من سار في قافلتنا على هذا الطريق •

ركب ولفرد مع حمود عند الساعة الرابعة • فشاهدتهم يعدون نحو بعض الخيام التي كانت بعيدة ، وعندما وصلنا ألصق الشمريون رماحهم في الارض في واد جميل حيث العشب الوفير على بعد ميل أو أكثر من الخيام • وشك الرمح في الارض تعتبر علامة لمكان المخيم ، ولهذا نزلنا بسرور منفردين عن الموصليين الذين ذهبوا الى مضارب العرب •

نخشى أن نكون قد ارتكبنا حماقــة بحق العرب الذين حرصنا علــى استرضائهم أشد الحرص ولم نكن نود جرح مشاعرهم • فبينما كنا نستريح في خيمتنا متعبين ونهمك في كتابة المذكرات جاء حنا ليخبرنا بأن المعسكر المجاور أرسل خروفا • وعلمنا من جنود بأن القوم ليسوا من شمر بل من الحديديين القبيلة الكثيرة العدد ؛ والتي تهتم بالتجارة وبتربية الاغنام بمشاركة سكان المدن في حلب والموصل • لم نكن تتوقع أن يكون الخروف هدية ، ولهــذا رددناه لأننا نحمل ما يكفينا من اللحوم •

جاء كثير من رجال الحديديين برفقة شيخهم عبد الله[1] الذي أرســل الخروف وكان عابس الوجه ؛ ولم نشعر بهذا الرجل العجوز المحترم الا وهو أمام خيمتنا بادية على محياه علائم عدم الرضا ، فبذل حنا ما بوسعه لتهدئته ، وخرجنا لاستقباله وترضيته،ولننسيه الاساءة،وما ان جلس قربنا حتى أخرجنا خرائطنا ، وأخذنا نسأله عن قبيلته ، الا أنه لا يزال واجما ــ مثلما يفعل العرب عندما يساء اليهم ــ ولهذا اعتذرنا اليه بكلام لطيف واستدرجناه الى الحديث معنا • انه الشيخ عبد الله شيخ الحديديين في الجزيرة •

عندما علمنا منه ذلك أمرنا حنا لتقديم الفاكهة التي زودنا بها النواب في الكاظمية ، وهي من الهدايا المقبولة عند البدو ويحبونها كثيرا ، وتوسلنا اليه أن يقبلها هدية لعائلته بشكل مؤدب يتناسب مع الشكل الاعتيادي لتقديــم الهدية ، غير أن الرجل العجوز وضعها جانبا بهدوء وبساطة وقال موبخا : لماذا لم تقبلوا خروفي في وقت تريدون مني أن أقبل هديتكم ؟ وهنا تقدمنا بعذرنا بطريقة واهية ، وقلنا : اننا لم نكن نعرف أن الهدية كانت قادمة من الشيخ عبد الله ، ولم نكن ندري أن المعسكر الذي نجاوره هو معسكر الحديديين ، ولو كنا نعلم ذلك لحللنا ضيوفا في بيته ، وقررنا الآن أن يذبح الخروف في

---

(١) الحديديون قبيلة كبيرة في انحاء الموصل وفي سورية قرب حلب . ويبدو ان الشيخ الذي مرت به الليــدي هو عبد الله المضحي شيــخ الشويفات و « البودروبي » من الحديديين في العراق .

الحال . فاهتم الجميع بهذه المناسبة وتوقعوا وليمة ستقام الليلة فساعدونا في تسوية خلافاتنا مع الشيخ وقالوا حصل خيرا . ذبح الخروف وضاع بين أيدي الحضور ، وانصرف الرجل العجوز الطيب حاملا معه البرتقال والرمان في وقت كنت مغتاظة بسبب هذا الخطأ الذي ارتكب . غير أن الاحداث بدت ممتعة بعد ليلة قضيناها البارحة في معسكر شمر حيث لا صوت في البادية حولنا غير صوت الجمال وهي تجتر ما تخرجه من بطنها .

في الخامس من آذار دونا أخبار الحديديين من أقوال الشيخ عبد الله .. كانوا يسلكون خمسمائة خيمة ، وهو العدد الذي أتوقعه تحت امرته ، وقال حمود : ان الحديديين قبيلة كبيرة تتألف من ثلاثة أو أربعة آلاف بيت . كان الثراء باديا على الحديديين بشكل واضح .. فبالاضافة الى المائة بعيرالتي يملكونها لحمل البضاعة والخيام لديهم عدد كبير جدا من الاغنام ، ولا نماثلها في الكثرة الا الغنم التي شاهدناها في سهل الملاح على الفرات .

أخذت القطعان تمر أمام مخيمنا قبل حلول الظلام ، وامتدت فوق الارض حتى توارت في الافق ، وعددت على الاقل عشرين قطيعا ، وقدرت كل قطيع بخمسمائة خروف أو شاة . وبعض القطعان كان يضم سبعمائة شاة . ويكون الرقم الاجمالي التقريبي عشرة آلاف شاة تملكها اثنتا عشرة خيمة فقط . ويملك أهل الموصل نصف هذه الاغنام ، حتى ولو كان ذلك صحيحا فنصفها في كل قطيع — أكثر من أربعمائة شاة — يعتبر ملكية محترمة في كل بيت . وبعد ساعة من هذا التاريخ تحولنا نحو اليمين لنعبر التلال عبر شعب كلسي متفسخ ، ووصلنا الى ارتفاع مائتين وخمسين قدما فوق مستوى السهل وفقا لجهاز الضغط الجوي الذي كنت أحمله ، والى ارتفاع ستمائة وخمسين فوق مستوى نهر الدجلة عند الهوشوش ، ثم وصلنا الى أعلى نقطة عند الساعة العاشرة ، ومن هناك طالعنا منظرا جميلا باتجاه الشمال عبر سهل نينوى والتلال خلف الموصل التي لا تزال تغطيها الثلوج .

كان الانحدار سريعا ، وبعد نزلتين وصعدتين وصلنا الى واد مضحك

الاسم انه وادي جهنم أو وادي جهينة ، وهناك أدركنا جماعة من العقيليين وبصحبتهم ثلاثون أو أربعون جملا محملة بالامتعة في مكان أمين ، كانوا في غاية السعادة عندما شاهدوا رفيقينا ــ من جماعتهم ــ نجران وفرحان • وعندها طلبوا منا التوقف لشرب الماء اذ لم تكن لديهم القهوة بينما قدموا لولفرد « نرجيلة » • انطلقوا من بغداد وقد مضى عليهم واحد وثلاثون يوما في الطريق ، وهم يسيرون الهوينا بمحاذاة النهر طوال الطريق •

أعطت هذه المحادثة نجران مبررا ليتذمر من سيرنا البطيء ، وطلب منا مضاعفة السرعة • غير أني كنت أشك فيما اذا كانت السرعة تجلب علينا الفائدة أكثر مما تجلبه على قافلة العقيل • كان العقيليون في معنويات عالية ويشعرون بالخير والطمأنينة •

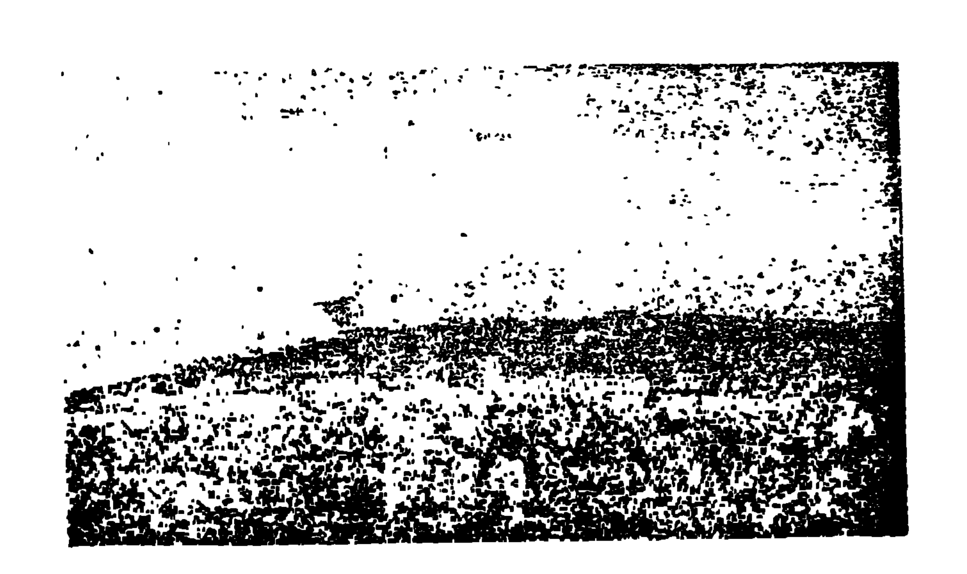
بدا النجراني اليوم قلقا ، ويقوم بنصف العمل الذي يقوم به فرحان : ويصر على ركوب الجمال طوال اليوم • انه رجل صغير ، ولكنه يجنح الى الاستبداد : ويقدم خدماته بمناسبة وغير مناسبة • والخدم الاخرون لايحبونه، وحتى حنا كان يشتكي من شهيته غير العادية ، الا أننا لم نفضل التشاجر معه في هذه الديار •

أخذنا نقترب من الشرقاط ، فبدت المنطقة كئيبة بما فيه الكفاية ، كما هي الحال في كل مكان مأهول بالناس الذين يستقرون فيه لمدة طويلة • ولم يكن في الشرقاط بيوت باستثناء مقر للحراسة بائس وصغير لا يمكن التبجح به • ويبدو أن فرحان باشا قد جعل منه مقره الثابت منذ ثلاث سنوات ، ولهذا أكلت كل ورقة من عشب ووطيء كل شبر من الارض ولوث المكان بالوحل عدة أميال • كانت رؤية المخيم تبعث في النفس الكآبة بشكل لا يمكن توقعه ، ولهذا لم أمر عبره أبدا لأنه كان وسخا وقذرا وكريها بشكل لا يطاق •

نصبت خيمة الباشا على أطراف كومة جرداء من النفايات ، وهي واحدة من عدة أكوام في الشرقاط ، وكانت منصوبة بشكل منحرف لا يريح محاطة

بخيام صغيرة ربما تجاوزت في عددها الخمسين خيمة ، لتضفي علــى المكان طلعة جميلة . الا أنني أتصور لو أن جيشا كاملا عسكر في هذا المكان لبــدا متواضعا لا قيمة لــه ... حططنا الرحال فيه لنقيم اقامة مؤقتة مدة يومين.. تؤجل وصف الشرقاط ومراسيم استقبالنا عند الباشا الى يوم غد .





ابل شمر تعود من المرعى الى المضارب

الفصل الثالث عشر

من جاء بك الى القلعة ايها الشبل ؟ مرافقتي سيدة اوسبالدستون الشابة ، وهم قوم لا يهابون ، وابناؤهم من جماعة نبيلة غير مبهرجة لا تمل العين من النظر اليهم .

● روب روى

مقر فرحان في الشرقاط ــ أبناؤه وزوجاته ــ تصرفنا بدبلوماسية ــ بدأنا في عبور الجزيرة ــ اسماعيل على حصان من لحم ودم ــ سمير كان في استقبالنا ــ وصفه لنجد وحكامها وخيولها .

لو قدر لي أن أكون واحدا من أبناء صفوق أو تقمصت نفسي شخصية فرحان شيخ قبيلة شمر ، لما تخليت عن حياة البادية حتى وإن نصّبت باشا ، ودفعت الي ثلاثة آلاف جنيه في السنة ، ولما تناولت المعول من أجل الفلاحة ، ولا حتى من أجل التظاهر ولما طفت بحفنة من الصعاليك لكي يساعدونني بعد التقاطهم من كل المنبوذين في قبائل العرب الوضيعة على نهر الدجلة ، ولما ركبت خيولا غير أصيلة ، ولما احتفظت « بسلا » ديني من الموصل ليعلم ابنائي التركية. وآه وألف مرة ما كنت لأعيش في الشرقاط واذا ما تذكرت الاماكن البائسة في العالم ، فاني أعتقد أن الشرقاط ستكون أتعسها على الاطلاق غير أني أعتقد أن اقامة فرحان في هذا المكان ما هي الا من قبيل التظاهر بين قومه كما يفعل بقية الشيوخ .

كان فرحان في سفر خارج الشرقاط عند نايف[1] ولا احد يعرف متى يرجع الى دياره ولا ندري لمن نسطي الرسائل التي نحملها اليه !. كان هذا الغياب كارثة بالنسبة لنا ، ولكن رب ضارة نافعة في بعض الاحيان ، لأنه قد

(١) نايف بن محمد الفارس الحميدي هو ابن عم فرحان الصفوق .

هيأ لنا العذر للحاق به بينما كنا نريد في رحلتنا القادمة قلب الجزيرة ، فانطلقنا حالا لأننا لا نتحمل الصعاب اذا لم نذهب حيث نريد •

استقبلنا في خيمة الباشا ببرود ، ومثّل الشيخ الغائب شاب من أبنائه كان في الخامسة عشرة من عمره •

عجبنا لهذا الفتى كيف بقي جالسا حتى بعد ان أدينا التحية ! ولا ندري فيما كان دافعه انعدام الذكاء أو ضعف الخبرة بأصول استقبال الغرباء !•• تظاهر بأنه غير قادر على فهم كلامنا ، واستدعى مترجما سعيا وراء تقاليد جوفاء فارغة ، الا اننا لم نكن نعرف التركية • وعربية المترجم كانت بلهجة غير مألوفة• ساد الصمت في المجلس ثم واصلنا التحدث الى الجالسين معلنين عن مكانتنا بين الناس ، ولم نكن نبالي لأننا ضيوف يحق لهم ذكر كل الاشياء المشرفة ، ومثلنا لا مجال لانكارهم •

كانت طريقة عبد العزيز في استقبالنا غبية ثقيلة مثل وقع اسمه على أسماعنا ، ويبدو أنها كانت سجية غير مقصودة ، ولم يقصد بها ازعاجنا • طلع النهار فبقينا في خيمتنا حتى جاءت من الفتى رسالة يعتذر فيها عما حدث في الليلة الماضية ، ويدعونا فيها لتشريفه بشرب القهوة معه ••• ويبدو أنه سيستجيب لكل رغباتنا ، لأن رسالة النواب قد قرئت وفيها ترجيه لفرحان تسهيل مهمتنا في أي منطقة نريدها من شمر •

ربما كنا مخطئين بحق الفتى ، ونعتقد أن هدية عباءة وزوج من الاحذية كانت تكفي لجعل كل شيء على ما يرام ، ولكن فات الاوان على ذلك • وأظن أن ولفرد الآن لا يرغب في تكريمه ولو بحبل • ولهذا نصحنا علي أن تبقى القضية عند هذا الحد فاختصرنا الهدايا التي اقتصرت على بعض الحلوى والسكاكر التي أرسلت الى زوجة فرحان المفضلة ، تلك المرأة ذات النفوذ بالاضافة الى أولادها ، والملا الذين يعيشون في خيمة الشيخ ، بينما يعيش عبد العزيز وعبد المحسن وفتى آخر في خيام أخرى خاصة بهم بعد أن تزوجوا• وباعتبار أن فرحان باشا من الباشوات فقد تزوج عدة مرات ولا تزال لديه

ست زوجات يقطن في الشرقاط ، وكل امرأة كانت تعيش في خيمة منفصلة ، ولها كيان خاص ، ولا يزرن بعضهن الا في ظروف العلاقات العامة • كانت فصال أصغر نسوة فرحان وأقربهن الى قلبه لأنها ابنة الشيخ سعدون الزعيم الكردي في الجزيرة العليا • وتعيش وحدها معه ومع ولديها بدر وحامد ابني السنتين والثلاث سنوات ، بالاضافة الى أن فرحان هو ابن امرأة بغداديــة • وجدنا هؤلاء الاولاد بطبيعة الحال من دم مختلط لا يمثل الشق العربي ربــع مجموعــه •

في ظهر اليوم الذي وصلنا به الى الشرقاط ذهبت مع ملا عبد الله ممثل الباشا لأقوم بزيارة فصال خاتون ، فوجدتها في وسط خيمة كبيرة مفصولة بسوق القصب[1] عن الجزء المخصص للعامة • كانت جميلة بعينيها العسليتين الناعستين وبمظهرها الحسن على الرغم من يديها الكبيرتين اللتين نقشتا بالوشم الكثير • كان حامد ابنها الصغير بعمر ثلاث سنوات ويلعب مع هذا وذاك في حشد من الناس وفيهم الرجال والنساء والبنات والاولاد الذين تحلقوا حول نار في حفرة أرضية ارتكز عليها قدر نحاسي مليء بالرز ويخنة اللحم •• نهضت فصال وقبلتني وجلسنا معا على فراش واحد خلفه مهد ناولتها منه فتاة طفلا صغيرا لف في أسمال وسخة ، فأرضعته قليلا ثم أرجعته الى الفتاة ثانية،وبعدها قام شخص يكشف غطاء القدر الكبير ، وأخرج قطعا من اللحم المسلوق . وأعطاه للصبي حامد كي يمضغه • طوال هذا الوقت لم أتجاذب أطراف الحديث مع الخاتون لعدم لباقتها ، ولم أستطع فهم كثير مما قاله الوكيل الذي جلس على يساري • أما بنت فصال الصغرى ـ اسمها شمس ـ كانت بعمر خمس سنوات ، ولها وجه جميل جدا • وفجأة حصل هرج ومرج بين الحضور ليعلن عن وصول امرأة أخرى •• قال الوكيل : انها عريفة أخت الشيخ فرحان • كان الحشد في سواده الاعظم من الخدم والمربيات والناس الوضيعين ، ولــم يكن يبعث على الارتياح وكنت مسرورة عندما حانت لي فرصة الخروج من

---

(١) حاجز نسيج من سوق القصب والخيوط يفصل بين القسم المخصص للرجال والقسم المخصص للنساء في الخيمة العربية .

مقر الحريم ، لأن الرجال لديهم ما يقولونه أما النساء هنا على الرغم من طيبتهن غير نافعات ، ولا يحملن أية أفكار عامـة •

وجدت ولفرد يتحدث الى رجل من ضاحية هرمز في الموصل ، يعمل هنا بائعا للتبغ ويلم بأنساب القبائل • ومنه ومن الملا ومن اثنين أو ثلاثة من خدم الباشا استطاع أن يعد قائمة بقبائل شمر وبجدول تقريبي لعددهم • واستنادا الى ذلك تقول : ان قبيلة شمر كلها[1] لا تزيد في تعدادها عن أحد عشر أو اثنتي عشر ألف خيمة ، وأحلافهم وروافدهم من القبائل لا يزيدون عن ثمانية أو تسعة آلاف خيمة • وربما تستطيع شمر أن تدفع عشرين ألف رمـح الى ساحة المعركة اذا اجتمعت كلها •

قدم العشاء لنا في خيمتنا بشكل وافر جيد الصنع ، وكان من البرغـل ويخنة اللحم المتبلة حولها اللبن والزبدة والخبز الجيد • وحسب رواية حنا ذبح خروفان لنا دفعة واحدة وبعدها تركنا لننـام بسلام ، باستثناء عـواء الكلاب المتواصل •

ما فعلناه بالامس كان كثيرا ، ويبدو أن اليوم أكثر مللا وضجرا بالنسبة لنا . غير أننا خرجنا لرؤية الاثار ، أو بالاحرى التلال لأنه لا يوجد شيء فوق الارض في الشرقاط • كانت تلك الروابي تشبه الى حد ما الروابي في نينوى قرب الموصل لأن الشرقاط ـ حسب ما يقول الدكتور كولفيل ـ هي احدى مدن نينوى ، الا أنها لم تكن ممتعة على الرغم من أن ولفرد اعتبر من واجبه الطواف في الاقنية التي حفرها الاثريون على أمل أن يجدوا شيئا جديدا • ولم بتعد زمن حفرها أكثر من ثلاثين عاما ، ومع ذلك فقد نسي العرب تاريخهـا ؛ واعتبرت قديمة قدم الروابي ذاتهـا •

شاهدنا ذئبا بعيدا الا أن الارض كانت وعرة لا تسمح بمطاردتـه • الشابـان أوزبالدستون ركبا معنـا : ديكـون الفارس الجوكي وولفـرد المهرج لا يمكنني أن أشبهما بأفضل من ذلك • فأحدهما كان يحاول امتطـاء

---

(١) شمر الشمال •

فرسه ، والآخر لا يقول شيئا[1] . أقول هذا لأن عبد العزيز عندما سأله ولفرد عن سلالة فرسه أجاب : كحيلة ، فاقترح عليه المصلاوي الذي يركب بجانبه أن يضيف كلمة عجوز فأسرع الفتى وقال : لافهي ليست أصيلة،لقد أتت من بغداد .

ردت لي فصال الزيارة بعد الظهر ، بينما كان ولفرد خارجا في نزهة ، وجاءت تصطحب أخت زوجها والاولاد يتبعهم بعض الخدم الذين انحشروا جميعا في الخيمة الصغيرة ومعهم الوكيل ، أرادت فصال أن تكون لطيفة ، الا أنني وجدت صعوبة بالغة في التحدث معها وسرت عندما تكلمنا عن والدها الشيخ سعدون الذي كان يعيش قرب ديار بكر ، وفي هذه المناسبة قدمت لهم الحلوى البغدادية ذات اللون الالماسي التي زودنا بها السيد نيكسون فترددوا في أخذ أي منها . فأخبرهم حنا الذي كان خارج الخيمة بأن الحلويات تصلح للأكل وأضاف الوكيل ملا عبد الله القول : انها من شغل الاسلام ، ثم انقض الاطفال على الصندوق ــ خصوصا شمس ــ وحملوه خارجا .

حضر ولفرد وطلب مني أن أعطيه كفية ليقدمها هدية للخاتون... تناولها وقال : خذيها للصبي فقبلتها وقالت : ان من عادتي أن أضع السواد[2] في أغطية رأس الاطفال في غالب الاحيان وما ان مضت نصف ساعة حتى غصت الخيمة بالزوار . وتمنيت لو أن الخاتون بقيت لمدة أطول غير أني ضجرت وعلي أن أنام ... أدرك الزوار ذلك فانصرفوا جميعا .

التقى ولفرد في نزهته بالعقيليين الذين تعرف عليهم في وادي جهنم فجلس معهم ، وتناول حساء العدس الذي كانوا يعدونه من أجل العشاء ، مما أثار اشمئزاز عبد زنجي للباشا كان يرافقه ويعتقد أن مثل هذا التصرف يحط من قدره ، لأن القوم هم خلطاء ، ويندر بينهم من هو الشمري الحقيقي . لم نجد آثار الزراعة في هذا المكان . ولكن الموصلي عبد الفتاح يقول : انها واسعة الانتشار بين الشرقاط والموصل .

---

(1) مشهد من المشاهد القرقوزية الانكليزية .

(2) تفعل ذلك حتى لا يصاب بالعين حسب الاعتقاد الشعبي في المنطقة .

أعددنا كل شيء لرحلتنا في يوم غد ، وباعتبار أن الملا هو المسؤول المباشر هنا فقد نجحنا في جعله صديقا يساعدنا في تدبير الخطط • ولم نقل له شيئا عن فارس باستثناء السؤال عن مكانه ، الا أنه لا أحد يعرف مكانه بالضبط ، بينما يعرفون أنه وأخيه فرحان كانا في تنافر وخصومة • تحريت بعض الاسماء في قبيلة شمر ، فوجدت ثلاثة رجال[1] على الاقل كانوا يحملون اسم فارس • وأن والد نايف هو من أعمام فرحان وليس من اخوته ، وبالتالي لم يكن هو الشخص الذي نرغب بزيارته ، ولهذا همنا بالرحيل عن الشرقاط دون تأخير• كنا نريد المرور بالحضر كمرحلة أولى في طريقنا ونحتاج الى توصيات النواب للحصول على المساعدة • على الرغم من أن فرحان لا يزال في طريق رحلتنا •• تحدثنا أمام القوم بالذهاب اليه عندما نفرغ من مشاهدة الحضر ، ولهـذا وضعوا تحت تصرفنا اسماعيل من شمر ليوصلنا بسلام الى الباشا مرورا بآثار الحضر ، وكم من مرة سمعنا الشمريين يتحدثون عن الخطر والحرامية وقطاع الطرق والغزو وعصابات السلب ، واذا ما أخذنا ذلك بعين الاعتبار نستطيع القول : ان الشمر في هذا المكان من وادي الدجلة في خوف دائم من العنزة ؛ الا أننا منذ مدة تخلينا عن فكرة التصديق بكل ما نسمعه في هذا المجال •

في السابع من آذار طالعنا صباح ماطر بغزارة ، الا أنه لن يعيقنا عـن الانطلاق ؛ ثم اكتشفنا مشكلة تعاني منها فرسي طرفاء ، فقد كانت تضطجع وتتدحرج بين لحظة وأخرى ، ثم تنهض ثانية • قال العرب : انها ممغوصة لأنها أكلت كثيرا من الشعير مع كسية كبيرة من العشب فوصفوا لها عدة علاجات • وجربوا عليها اثنين أو ثلاثة • ففي البداية ربطوا حبلا حول خاصرتيها ثـم تركت تمشي وتركض وربطوا خيطا في ذيلها ، وأخيرا همس اسماعيل في أذنها بآية من القرآن الكريم •ويبدو ذلك أفادها•• لقد انطلقت ونشطت من جديد•

وجدنا أهل الشرقاط يؤدون شعائر الصلوات تقليدا لعادة فرحان التي أثر بها على من حوله لأن نصف تعاليمه تركية • وبناء على ذلك أصبح سائق

---

(1) فارس الاول الذي جاء بهم من نجد، وفارس الحميدي، وفارس الصفوق.

الجمال العقيلي نجران تقيا يصلي صلاته في مناسبة وغير مناسبة ، وقـدم لنـا نصائح لامبرر لها ولم تطلب منه في وقت كان فيه كسولا يترك كل شيء لفرحان الذي بعمل بجد ، ويؤثر الركوب على المشي ، ويأكل حتى يصاب بالتخمـة • والشيء الذي نكرهه فيه أكثر من غيره التصاقه بخيمتنا ليسمع كل ما يدور فيها على العكس من علي الذي كان يكبر في أعيننا يوما بعد يوم ، فهو لا يبرح مكانه ويفعل كل ما يطلب منه ، ويتقن فن الدبلوماسية التي نكلفه بها • أما بالنسبة لحنا فلم يستسلم ، وتخلص من عقدة الخوف في البادية •

اختلفنا مع رفاقنا حول توقيت ساعة الانطلاق ، وكانت حجتهم المطر الهاطل ، الا أن ولفرد كان صارما في وقت أسرج عبد العزيز فرسه واستعد لمرافقتنا • ولهذا أعتقد أنه وأمثاله من أبناء الفرحان ليسوا نوعا سيئا مـن الصبية ، بل كانوا يعانون من مشكلة قلة التعلم ، ولا يحبون الخيول الهجينة التي يتوجب عليهم ركوبها ، ويتمنون الانضمام الى اخوتهم الكبار أمثـال عاصي ومجول اللذان كانا لا يفضلان العيش في البادية بأفكار حضرية •وتبقى الفرصة سانحة أمام هؤلاء الشبان لتعلم تقاليد شمر البدوية الخالصة ، حتى ان عبد العزيز حاول أن يلقي خطابا في مراسيم وداعنا ردا على الخطاب الذي ألقاه ولفرد ، وابتسم ممتنا وهو يودعنا •

سرنا فوق سهل واسع مرتفع ذي تربة متموجة ومغطاة بالعشب الناعم والزهور الكثيفة وتناثرت المسيلات التي تصب عادة في مرج رعوي خصب ، ثم انتظم سيرنا نحو الغرب ليؤدي بنا الى الحضر وفقا لخريطة شيسزني العامة لسورية والجزيرة التي قدرت المسافة بخمسين ، وحسب طريقته الخاصة بمسح أراضي الدجلة التي قدرت المسافة بثمانية وعشرين ميلا • سار معنا في القافلة بالاضافة الى اسماعيل عبد أسود وصبي ورجل عجوز يضع على رأسه عمامة ويمتطي حمارا ، وجميعهم كانوا في طريقهم الى فرحان ، ويرغبون بمواكبـة القافلة • كان اسماعيل يثرثر بشدة • ومن أحاديثه ان ذهاب سمير الى جبل شمر في نجد صحيح في هذا الشتاء ، ولكنه لا يعرف ماذا دار فيه وما أسفر

عنه من نتائج . قال اسماعيل : ان العلاقة بين شمر الجزيرة وشمر نجد هـي علاقة جيدة ، لأن ابن رشيد واحد منهم . ويبدو أن اسماعيل يعرف كل شيء عن تلك الديار على الرغم من عدم زيارته لها بنفسه ، ويقول : ان ابن رشيد يملك ثلاثين مدفعا وكثيرا من البنادق، وهو على درجة كبيرة من الغنى، ويروى أنه أرسل ثلاثة جمال محملة بالذهب الى مكة كهدية . ولا يوجد ماء في جبل شمر غير مياه الابار ولا أعشاب ولا ذرة غير التمور ، والابار هناك عميقة من هنا الى الجمل ـ مشيرا الى جمل يبعد عنا حوالي ثمانين ياردة ـ أو بمقدار ذراعه الذي يمده أربعين مرة ، وأشار الى نوع من العلاقات الحميمة بين قبيلة جربا شمر والرولة ، لأن المرحومة أم فيصل الشعلان[1] كانت من الجربا .. وهكذا استطعنا معرفة سر العلاقة بين شمر في الجزيرة وبين قبيلة الرولة . دهش اسماعيل لمعرفتي الواسعة بنسب الخيل ؛ وتحدثنا طويلا بهذا الشأن . فوجدته متعصبا لنسب الخيل العربية كأي شخص آخر في هذه الديار ، على الرغم من قوله : ان الباشا وأتباعه لا يعيرون ذلك أي اهتمام ، لأن فرحان كان تركي النزعة بعد أن أمضى ثماني سنوات من عمره في القسطنطينية ، ويتكلم التركية أكثر من العربية ، فنشأ أولاده على الافكار نفسها ، الا أن ولده الاكبر شذ عن القاعدة ، وعاش بعيدا قرب عنة . لا يملك الاتراك خيولا أصيلة خاصة بهم ؛ وليست لديهم الدراية بخيول العرب ، ومع ذلك أخبرنا اسماعيل بأن الفرس ـ عبية شراك ـ التي كنا قد شاهدناها في بغداد كانت في الحقيقة مرسلة من فرحان الى الباشا وهي أصيلة حقا . وفي السابق كان فرحان ووالده يملكون سلالة الصقلاوي الجدراني ، ولكنها تفرقت من بين أيديهم . ويبدو أن ابن شعلان شيخ الرولة[2] هو المالك الوحيد لتلك السلالة في هذه الايام . ولم يصدق اسماعيل عندما أخبرته ما كنا سمعناه من أن ابن نديري من القمصة وابن سبيني من المهيد كانا يمتلكان السلالة ذاتها . وعندما أخبرته عن قصة

---

(١) فيصل بن عبد الله الشعلان : ورد ذكره في مذكرات السائح الانكليزي دوتي شيخا على الرولة عام ١٨٥٨ م .

(٢) هذا غير صحيح لأن سلالة ابن شعلان هي صقلاوي العبد .

فرس والي بغداد ضحك كثيرا منها حتى كاد أن ينقلب عن ظهر حصانه ، واستمر طوال اليوم يتندر باسم النسب المزعوم لتلك الفرس ويقول : كحيلة عجوز سميري ، ثم ينفجر بالضحك . وكان بودي لو أن السيد روبينيرام كان قد سمعه .

استدرجنا اسماعيل للحديث بهذه الطريقة ، وجعلناه في مزاج حسن يقبل فيه الحديث عن فارس ، وهنا أخذ يتحفظ ، وعندما سألناه عن نمط العلاقة بين فرحان وفارس اكتفى بالقول : انهم اخوة الا أن فرحان هو شيخ شمر كلها . والشيء الوحيد الذي تأكدنا منه هو أن فارسا الذي نقصده هو غير محمد الفارس والد نايف ، أو فارس بن محمد الاخ الثاني لنايف . وهناك وصلنا الى آراء كانت متضاربة بيننا وبينه ، ولو أن نعمان الذي شاهدناه في بغداد كان معنا لما استفدنا منه شيئا مطلقا .

وأخيرا علمنا بأن فارسا المطلوب يقيم اليوم على ضفاف نهر الخابور[1]، ولا يبعد كثيرا عن وهاد جبل سنجار ، ولم نعلق كثيرا على الموضوع حتى تتدارس المسافة التي تفصلنا عنه حتى الآن . توقف المطر بعد أن انطلقنا الا أن الريح كانت قاسية طوال اليوم ، بينما كنا نحتمي بأحد الوديان حيث الماء والعشب والصيد الذي قتل منه ولفرد البط والحذف والشنقب[2] لعشاء الليلة . كان الطريق خاليا من السكان لحسن الحظ ، ولهذا تابعنا الحديث عن نايف وعن أحمد أغا وعن الرسالة التي نحملها منه الى الباشا فرحان ، الا أن اسماعيل حذرنا من أن نقول أي شيء للباشا ، لأن أحمد والباشا كانا دشمان[3] وضم اصبعيه الخنصر والبنصر الصغيرين كعلامة على العداء ــ وعكسهما وضع السبابتين بجانب بعض دليل على الصداقة عند البدو ــ وفورا سألناه : أعداء .. كيف ؟ فقال أحمد أغا شاب عديم التفكير ، كان يحاول شفاء فرحان من قصر

---

(١) الخابور من روافد الفرات .

(٢) طائر الشنقب Snipe من الطيور التي تألف العشب والماء وتزور الفرات والدجلة خلال فصل الشتاء وهو طائر لذيذ اللحم .

(٣) دشمان : اعداء .

في البصر . فصب في عينه سلفات التوتياء أو دواء معينا دون أن بسدده في الماء فاطفأ نور عينه كلية ، وهكذا فقدت عينه بسبب أحمد أغا • يبدو أني قد سمعت مثل هذه القصة في بغداد ، ولكن دون تفصيل ••• والآن علينا أن ننعم بليلة هادئة •

في الثامن من آذار اعتقدنا أننا قد قصرنا في سيرنا البارحة ، ولم نقطع أكثر من اثني عشر ميلا الا أننا في هذا اليوم مشينا عشرين ميلا ، بدأنا واغرد هذا الصباح بهدم الخيام على رؤوس الخدم لأنه نهض مبكرا مع الرجل الاسود والغلام والرجل الموصلي والراعي الذي عرض خدماته مرشدا • استاء رفاقنا وضجوا لأنهم لم يناموا جيدا ، ولكننا لم نمهلهم بل انطلقنا عند الساعة السابعة مبكرا عما كنا نفعله من قبل ، وبعد لحظات أصبحنا خارج الوادي في الارض السهلية المرتفعة • وما ان شرعنا في المسير حتى لفنا ضباب كثيف كاد أن يجبرنا على التوقف لولم تكن لدينا بوصلة حددنا الاتجاه بواسطة البوصلة تساعدنا الريح التي كانت تهب علينا من الخلف واليمين مداعبة آذاننا باطلف • وأتعجب في هذا المجال من العرب الذين يملكون مقدرة محدودة في تحديد الطريق • ويبدو أنهم يعرفون طريقهم على طريقة البحارة بواسطة المسطرة والابهام ، انهم لا يستطيعون السير خارج ديارهم في خط مستقيم بواسطة الشمس أو الريح أو بأي وسيلة غريزية ، الا أنهم كانوا يرتحلون استنادا الى العلامات التي يجدونها في الطريق وهذه تقودهم في خط متعرج مما يزيد مسافة الطريق أميالا عديدة ؛ ولهذا فعليهم الاعتماد علينا في تحديد اتجاه الحضر المكان الذي لم نشاهده أو نسمع به الا منذ يومين • ان طريقتنا في تحديد الاتجاه على الرغم من بساطتها كانت مثار دهشة العرب • وعندما انقشع الضباب الذي استمر منوال هذا الصباح كانت دهشتهم أكبر عندما كنا أمام الحضر مباشرة وفي خط مستقيم . الا أنها لا زالت على بعد عدة أميال أخرى ، وكنا في طريقنا اليها في اتجاه صحيح ••• كان هذا الضباب مناسبة سعيدة رفعتنا في نظر أتباعنا الذين اعترفوا بقدرة البك على حل مشاكل القافلة وتذليل الصعاب ببساطة نزلنا حالا الى أرض منخفضة ، ووصلنا الى نبع ماء قربه خيام للحديديين

فأعطونا حليبا وأخبرونا أن سميرا أمامنا مباشرة في وادي الثرثار • الحدبديون هم من القبائل ذات الاخلاق العالية ، ويودون الضيف ويبالغون في اكرامه . ولهذا كنا على ثقة من حسن الاستقبال الذي تتوقعه في مضاربهم •

بدت كل المنطقة بين الثرثار والدجلة تتخللها المسيلات والوديان العميقة المروية جيدا الغنية بالاعشاب ، فعجبنا كيف أنها لا تزال قليلة السكان ، الا أن سكان البوادي عادة لا يثبتون بمكان في سنين الخير والربيع كهذه السنة ، ولكنهم يثبتون فقط في فصول الجفاف والافات الزراعية • يعتبر الثرثار دائم الجريان طوال السنة ، وليس له مثيل من الانهار التي شاهدناها في آسيا ، كان يجري في واد يتلوى عبر المراعي الخصبة ، وكأنه من الانهار الكثيرة التي يمكن للمرء أن يشاهدها في انكلترا ، اذ تحيط بضفافه أشجار صغيرة من الصفصاف كانت بحركة أغصانها تيهج الطرائد من أمام الصيادين ••• كان الثرثار يركد في بعض المناطق ليترك ضفافا متعفنة ، ويجري بعرض قدرناه بثلاثين الى عشرين قدما أما عند المخاضة التي قطعناها كان بعمق خمسة أقدام ، الا أنه ترك في بعض المواضع مخاضات تستطيع الجمال اجتيازها بسهولة •• دخلت هاجرا بشجاعة وعبرت بهدوء ، ثم تبعتها فرسي وطفت تسبح في الماء دقيقة أو دقيقتين، أما حنا وحماره الابيض وعلي فقد وقفا طويلا يرتجفان على الضفة ، ولم أسمع بعد كيف توصلوا الى العبور ، لأننا لم ننتظرهم بل اندفعنا مع اسماعيل الى مخيم سمير الذي قام في مكان مجاور •

توقفنا عند خيمة كبيرة استقبلنا فيها رجل نحيف في الخمسين من عمره وبلحية قد شابت ووجنتين شاحبتين وتعابير قلقة على وجهه • في البداية كنا نشك فيما اذا كان سيرحب بنا ، الا أنه طلب منا أن نجلس وأحضر الوسائد والسجاد ، وانفرجت أساريره عندما همس في أذنه اسماعيل بكلمات سمعت واحدة منهن تقول : بنت الملك ، وأصبحت طريقته لطيفة في التحدث الينا • انه سمير[1] الذي كان مبعوث فرحان الى ابن رشيد •

---

(١) يلفظ اسمه في لهجة عرب شمر سمير •

ابتدأنا الحديث مع سمير بكلمات المجاملة اذ سألناه عن صحته : وهل هو بخير ، ثم سألناه عن الحضر وأبدينا شيئا من الفضول لرؤيتها • فقال : انها ممتعة وتحتوي على أضرحة ونقوش ، غير أنه لم يعاينها بنفسه الا عن بعـد ، وقال : انه سيكون مسرورا في أن يرينا اياها ، وأكد بأننا أول الاوربيين الذين يزورون الحضر ، وهـو يعرف السيد راسام القنصل الانكليزي السابق في مدينة الموصل ، واستفسر عنه وعن الخاتون زوجته ، ولم يزر الحضر الا أوربي واحد[1] كان قد أرسل الى فرحان في الشرقاط بقصد رؤية الاثار ولكنه لم يسمح له بالتقدم أكثر من ذلك خشية أن يكون من الجواسيس ، لأنالاوربيين فضوليون في مثل هذه الامور • ثم خاطب ولفرد بحدة وهو يشير الي : آصحيح آن الخاتون أفضل منك ؟ ولم نفهم ما يريد الا أن ولفرد أجاب آعتقد ذلك — مجاملة لي — أوه •• نعم ! أفضل مني بكثير • ثم تابع قائلا : انه سمع ذلك وأنه بغاية السرور للتعرف علينا ، كانت بعض الاحاديث الغامضة والهمسات تدور حولنا مع بعض التلميحات •• سببتها تصريحات اسماعيل لشمر والتي جعلتهم في هرج ومرج طوال هذا اليوم • وعندما رجعنا الى الخيمة سألنـا اسماعيل عن معنى ذلك ، فقال : اني سمعت من نجران بأنك ابنة ملك ، وآن البك الآن اعترف بالحقيقة ، وليس هناك من سبب لاخفاء ذلك وعلم سمير بكل شيء ، ولا يوجد شيء يدعو للحياء من هذه القضية ، وعبثا كانت محاولتنا لنفي ذلك ، ورفض تصديقنا بالنفي لأن البك قالها بلسانه ، وبقي كل شيء عقيما أمام المناقشة وبقيت في أذهانهم ابنة الملك ••• فمن أين جـاء نجران بمعلوماته ؟ لا أعرف الا أنني أعتقد أن سبب ذلك كله الهدايا التي قدمهـا النواب لي في بغداد لأن عطاياه كانت لا تقدم الا للملوك ، وهذا برهان عالي المنزلة في بلاد الشرق •

---

(١) اخطأ سمير في هذا الاعتقاد فقد زار الحضر السيد اينسورت عام ١٨٤٠ والسيد ليارد في السنة التي تلتها مع السيد راسم وزوجته .

سعد ولفرد بلقاء سمير ، وقرر أن يقدم له عباءة كان ينوي تقديمها للباشا. معتقدا أن بمصادقته لسمير يمكننا التخلص من اذن فرحان بالذهاب الى فارس. واذا ما تم ذلك سيوفر لنا الوقت ويجنبنا المشاكل ، ولم نكن نملك الرغبة بمشاهدة ذلك الباشا نصف التركي • لأننا كنا نظن أن علاقته السيئة مع أخيه — اذا ما صحت — ستحبط كل مشاريعنا للذهاب الى فارس جملة وتفصيلا • وعلى كل حال نحن لا نعرف أين يوجد فرحان اليوم ، وصديق مثل سمير في اليد يساوي اثنين مثل فرحان على الشجرة ، ولهـذا أوكلنا عليا في مهمة دبلوماسية الى خيمة الشيخ سمير محملا بعباءة موشاة بالذهب وزوج من الاحذية الحمراء وثلاثة أرطال من التبغ وسكاكر للحريم •

قوطعت توقعاتنا بعودة علي ، وقد نجح في تدبير الامور بشكل جيد . ولم يكتف بطرح الموضوع أمامه بل حصل منه على موافقة رسمية على كل طلباتنا • لا ندري فيما اذا كان الحظ أو المهارة كانت وراء كل هذه الانجازات !! ولن أبحث في تفاصيل المفاوضات التي تمت مع الشيخ ، ولكن سأعطي النتيجة كما هي بعد كل المناقشات التي دارت •

اتضح أن الشيخ بعد أن شاهدنا لأول مرة في خيمته ، أخذ حذره وأنذر قومه ظانا بنا مجموعة من الجنود أرسلت للقبض عليه ، لأنه منذ بضع سنين في أيام مقتل عبد الكريم قام هو وقومه بقتل بعض الجنود الذين أرسلتهم الحكومة ضدهم ، ومنذ ذلك الحين أصبح سمير مطلوبا في بغداد • تقدمت الحكومة بعدة طلبات الى الباشا فرحان لتسليم ابن عمه لهم ، ولكن فرحان يماطل حتى اليوم ، ويقول انه لا يعرف مكانا محددا لسمير ومع ذلك فسمير لا يثق تماما بزعيمه ، وهو يتلهف الى التوصل الى أناس ذوي نفوذ خوفا من عمل غادر يقوده الى حبل المشنقة • كان من المألوف لدى البدو — اذا ما أرادوا أن يعقدوا صلحا مع الحكومة — أن يوسطوا أحد القناصل الاجانب لكي يشفع في مصالحهم • وكان سمير قد كتب الى الكولونيل نيكسون بهذا الشأن ، ولم

يتلق أي رد حتى الآن ، ويأمل أن ترتبط زيارتنا الى الحضر بتطورات قضيته.
وباعتبار أن عليا يرى كل الفائدة من ذلك بالنسبة لخطط المستقبل فقد عمل كل ما بوسعه لتعميق الفكرة دون أن يوغل في التفاصيل ، فقبلنا التوسط وعمل ما بوسعنا لتوسط ثانية مع الكولوفيل بالنيابة عنه ، أو أن نحمل رسائل استعطاف الى حسين باشا عندما نصل الى الدير . كان سمير يعلم أنه ليس بيدنا شيء نفعله مع الحكومة ؛ لأننا لا نصطحب معنا جنودا ولا ضباطا ولا حتى ممثلين عن السلطة . وأفهمناه أننا نتمنى له الخير وربما نكون قادرين على مساعدته ! سر كثيرا بالعباءة — كما سمعنا — التي لم ير مثلها في هذا الجزء من الجزيرة في حياته أي انسان ؛ ووصف لنا حنا الطريقة التي سلمت بها له في الخيمة حيث قيست وأعجبت وبدت لائقة بما فيه الكفاية . وجدنا سميرا في مزاج حسن ولهذا تحدثنا معه بصراحة عما نريد فأجاب هو بصراحة مماثلة. وقال : انه طلب معقول ، وعلينا أولا زيارة الحضر ، فمن غير المعقول أن لا نزورها وهي قريبة منا ، ومن ثم علينا أن نشق طريقنا دون أن نلتفت الى الوراء لأن الخابور نهر صغير من روافد الفرات قرب الدير ، وفي مكان ما على تلك الضفاف يخيم فارس الذي تفصلنا عنه مسافة مائة وثلاثين ميلا ، فيما لو سرنا في أقصر طريق يؤدي اليه . وطبيعيا أن يكون الطريق كله في البادية سنقطعه بصحبة رجل موثوق كان يرافق سميرا في رحلته الى جبل شمر .

أصر سمير أن نذهب الى فرحان اذا ما كان في طريقنا ، فأبدينا الموافقة..
وليس من المعقول أن لا نمر عليه بعد أن حللنا ضيوفا في بيته في الشرقاط ، اقترح سمير أن نبقي على اسماعيل — رجل الباشا — معنا ، لأنه يخشى أن نسيء اليه اذا ما أمرناه بالعودة . أما بالنسبة لرجله الخاص فتوجب علينا أن ندفع له عشرة مجيديات في اليوم — ما يعادل جنيهين — اكراما لسمير بالذات.
كنا نثق بسمير ثقة كبيرة لم يسبق لنا أن أوليناها لأي عربي من قبل لأنه أفادنا عن خصوصيات زيارته لجبل شمر دون أن يوغل في التفاصيل أو أن نطلب منه

قول كل شيء . ولكن يبدو أن مهمته قد فشلت ، ولم يستقبل استقبالا منا سبا هناك ، الا أنه تكلم بحرية زائدة عن البلد وساكنيه وعن الخيل[1] التي كانت تهمنا معرفتها . وسأدون كل ما أستطيع تذكره من حديث سمير : آكد أن جبل شمر هو عبارة عن سلسلة من الهضاب على الرغم من أن الدكتور كولفيل كان قد أخبرنا بأنه كان قمة مخروطية واحدة أعلى من قمة جبل حسرين . وتنبه جبل سنجار مع فارق بسيط في الارتفاع ، وقال : ان المطر ينزل في جبل تسر خلال فصل الشتاء ، وأحيانا يسقط الثلج ولا توجد ينابيع في المنطقة ولا ماء فوق الارض ،بينما تكثر الابار العميقة بعمق يماثل العمق الذي قدره اسماعيل على طول قدره على سطح الارض .

يعيش سكان حائل والمدن الاخرى بالاضافة الى شيخهم ابن رشيد معظم السنة في بيوتهم خلال فصل الشتاء . وفي بداية فصل الربيع يخرجون الـى الجبل ليسكنوا في الخيام حيث العشب الوفير في هذا الوقت من العام ، أي لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر . وعندها تعيش الخيول في العراء كما هو الحال هنا ، أو في بقية العام فتعيش على الشعير الذي لا تتوفر منه الكميات المناسبة ، ولهذا يدعم بالتمور في بعض الاحيان . وليس هناك من أشجار غير النخيل ولا من بساتين سوى البساتين التي كانت حول المدينة .

قال عن ابن رشيد : انه من عرب شمر ، ويعيش بينهم شيخا وليس بملك وربما كان وكيل ابن سعود في الرياض أو من معاونيه الا أنه كان واسع الثراء ثم أعاد قصة الجمال الثلاثة المحملة بالذهب التي أرسلها الى مكة .

طلبنا من سمير أن يصف لنا ابن رشيد غير أنه لم يكن على علاقات تمكنه من تقديم المعلومات الدقيقة الواضحة ، وأضاف قائلا لولفرد : لو كنت أخي لما نصحتك بالاقتراب من ابن رشيد ، لأنه لا يحب الغرباء . ومن يذهب الى حائل كمتفرج كما تفعل هنا من أجل السياحة فسوف يظن أنك تبيت شرا ،

---

(١) مخطط نسب الخيل العربية الذي جمعته الليدي من خلال رحلتها الفراتية يعتبر من أوثق المخططات التي دونت .

وانتقل مع ولفرد الى موضوع الخيل العربية الموجودة في جبل شمر ، وسأله فيما اذا كان العرب يملكون السلالات ذاتها التي يمتلكها شمر الجزيرة، فأجاب بأنها من السلالات نفسها وعلى الاخص : الكحيلات والجلفات والدهسات والمليحات ، ولا توجد سلالات كثيرة عند ابن رشيد • وهو يشتري الخيل من عموم البدو ، وأفضلها لديه هي المشتراة من العنزة ، وهناك قليل من السلالات النادرة التي تتميز بها حائل دون غيرها • ونفسر هذه الحالة بسبب انعدام المراعي في قسم كبير من أشهر السنة كما هو الحال في الشمال •

قال ولفرد : سمعنا بأن سلالات الخيل النجدية تختلف عن الخيول الموجودة هنا . وأن العرب لا يعيرون الاهتمام الكافي لسلالات الخيل ــ ملمحا الى وصف بالغريف عن اصطبلات الرياض ــ فأجاب سمير :من أخبرك بهذا فقد كذب، وليس في نجد من سلالات سوى سلالات البدو كالصقلاويات والجلفات مع البقية التي ذكرت • واذا كان ابن سعود يملك سلالات معينة من الخيل فهو يحصل عليها من البدو ، كما أن خيول نجد تعتبر من الخيل الجيدة الاصيلة ولكن خيول العنزة هي الافضل ، ولكنه لا يعلم بسلالة نجدية خاصة • وكل البدو لديهم سلالات الخيل نفسها ، ولا أعلم بوجود خيول أصيلة أخرى •

كان سمير قد جاب معه فرسا سوداء اللون من جبل شمر من سلالة جلفا سطام البولاد ، ودفع ثمنا لها فرسا أخرى أراد التخلص منها وخمسة جمال وعشرين خروفا • وبشكل عام تعتبر الخيل نادرة في جبل شمر • أثارنا خبر الخيل التي تحضر من جبل شمر بعشرين جملا ، بعد أن بيعت هناك وخرجنا لنلقي نظرة على هذه الفرس التي كانت تقف خارج خيمة سمير ، فكانت الفرس كستنائية اللون محجلة الثلاث بالبياض ، وجيدة ، الا أنها لم تكن على ذات المستوى الرفيع من الجودة وكانت ترتفع عن الارض بمقدار يزيد عن أربع عشرة قبضة واثنين •

لقد تأثرنا بالكلام الجميل الذي حدثنا به سمير •• انه السيد النبيل على الرغم من حاجته الى التهذيب العالي • وهو رجل يكره العاطفية «الرومانسية»،

ولكنه يتمتع بأدب الاستقبال والاصغاء ، عندما نريد الكلام معه على انفراد .
وهو شيء لم نكن نعهده من قبل • لم يزر سير المدينة منذ زمن طويل ، وكأنه رجل من عالم آخر نسي جزءاً من أخلاقه أكثر من مولده وأصله الريفي • وهو لا يهتم بالمظاهر ، فبدا أقل اجلالا مما هو عليه • وأعتقد بأنه مسكين كان يتحكم به فرحان وأولاده • وحتى الآن لم أستطع فهم ماهية العلاقة بين فارس وسمير ، وبالتأكيد يوجد شيء من البرود ان لم يكن الامر أسوأ مما هو عليه الحال بين فرحان وأخيه • وابن سير هو ابن عمة لكلا الاخوين لأن أمه هي أخت صفوك والد فرحان وفارس ، وله أخ أصغر يدعى غضبان كان يعيش هنا في خيمة منفصلة مع زوجته الوحيدة وعدة أطفال كبار • ويبدو أن الناس هنا يختلفون عن الناس في معسكر فرحان ، وعلي أن أقول : انهم من رجال شمر الاصليين بسبب الادب الرصين والطبيعة الرائعة • كانوا لا يجتمعون حول خيمتنا ليسألوا أسئلة مملة ، وهم أفقر من الحديديين من الناحية المادية .
ولا يمتلكون الا بعض الخيول • ولم أجد في المعسكر ثرثارا كالمصلاوي على عكس من حوله ، فهو شاب سمين بوجه ناعم وشعر بني أحمر ، وتسمع في صوته نبرة غريبة رائعة ، ومع بدانته قصر في القامة وبياض في يديه • قلت في نفسي ماذا يفعل هنا ؟ وهو الشيء الذي يصعب علي فهمه ، الا أن ولفرد قام بشراء بعض التبغ منه ، ورآه يكتب في بعض الاحيان بعض الرسائل ، ويرثي الشباب للعرب • فربما هو تاجر عام في المنطقة ، ويبدو أن القوم يحبونه ويجلسون فاغري الفم وهم يصغون الى قصصه التي لا تنتهي عن كل شيء وعن مجريات الامور في العالم وعن أخبار الحرب بين موسكو والسلطان • كان شمر يتعاطفون مع الاتراك أكثر من أي عرب صادفناهم على الفرات ، ومتدينون ، فحتى سمير وقومه كانوا يؤدون الصلوات بانتظام • ومن جملة الاسئلة التي طرحها علينا فيما اذا كنا من المسكوف[1] • كانت سكر زوجة سمير امرأة في

(1) جواسيس الحكومة الروسية .

سن متوسط من العمر ، تظهر عليها علائم الاصل والذكاء والوجه الحسن ، استقبلتني بشاشة عندما زرتها في بيتها هذا المساء، فقامت بمراسيم التشريفات الممكنة ، اذ وضعت الوسائد وقدمت التمر والزبدة وأشياء أخرى، وكان يحف بها كثير من البنات والاولاد ، فهم لزوجة واحدة ولحفيد وصهر ، بالاضافة الى أخ دخل مسلما ، بينما كنت هناك فقبل رأسها وجلس واضعا يديه حول عنقها، أمام المرأة قدر ضخم من حليب الابل كان يغلي على النار ، بعد أن أضافت اليه الرز من سلة خاصة ، وعلى مواقد أخرى كانت قدور مليئة باللحم ، وشاهدت سروج الابل وبعض الفرش الوسخة التي كانت كل الاثاث الذي شاهدته ... أحببت هؤلاء النسوة أكثر من أي نساء شاهدتهن كن في غاية البساطة والمرح مع لطف وحسن في المعشر هذا كل ما رويته هذا اليوم .

الفصل الرابع عشر

قلت للزمن :

هـذا الصرح المتطاول الجليـل
الـذي ارضـه الثـرى وسقفـه
السمـاء لمـن كـان يا تـرى ؟...
لـم يجبني وهـرب مسرعا كعادته !
التفت الى الاعـلام وسألت عـن اسمـه بينهـا
لعله يكون معروفا !... وقلت تكلمي
ولكنها لـم تجب وتنهدت مطرقـة
الـى الارض في تأمـل حزيـن ...
قـدمت نفسي الـى عالـم النسيان .. الـى شبـح
مخيف كان يجلس عند البوابة فصاح بـي
صوتا من اصوات اهل القبور وقـال :
لا يعنيني لمن كان فيما مضى ولكن يهمني انه
في قبضتي حتى الان .

● روجرز

مدينة الحضر ــ المتاعب التي عانيناها في الاثار ــ سمـير يضعنا علـى الطريق ــ طوينا بيتنا وانطلقنا نحو الغرب ــ مشاجرة مع اسماعيل فيتركنا ــ بحيرات الملح ــ في مخاضة عبر الطين ــ الرجل العجوز السخيف ــ وأخيرا مـع فـارس .

في التاسع من آذار كنا نقضي يومنا في الحضر[1] لنستمتع بعظمتها التي فاقت حد التصور ، وفي ليلة وضحاها نقل سمير أهل مخيمه معنا الى الاثار في

---

(١) لمن كانت الحضر ؟ سؤال طرحه علينا الشاعر روجرز بأسى وتأثر بالغ انها مدينة قديمة يعود تاريخها على وادي الثرثار الى القرن الثالث والثاني قبل الميلاد غزاها الرومان اكثر من مرة وفتحها الساسانيون في عهد الملك سابور الاول وخربتها الزلازل.اكتشف فيها العالم الاثري العراقي ناجي الاصيل عام ١٩٥٤ أصنام عرب الجاهلية كاللات والعزى وغيرها .

صباح هذا اليوم ، ولذلك ما ان شربنا القهوة ، واستعرضنا الترتيبات مع حنا لمسيرة هذا اليوم ، حتى انطلقنا الى الاثار التي لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال حيث عدونا بخيلنا في الطريق تاركين سميرا واثنين من رجاله يركبون خيولا ولدت مؤخرا فلم يبالغوا في الضغط عليها ، وعندما اقتربنا دهشنا لرؤية مدينة واسعة حقا حافظ عليها الزمن الى حد معقول بأجزاء كبيرة من الاسوار والابراج وحتى ان بعض البيوت لا تزال قائمة[١] . انها في موقع ساحر كان في بادية حقيقية يحسبها المرء المرتفعات المنحدرة والمكسوة بالعشب على مد البصر في ولتشاير[٢] . الا أنها تختلف عنها بنوع الازهار المختلطة بالاعشاب ، في هذا المكان نشاهد التوليب القرمزي المشابه لزنابق حديقتنا وأزهارا ارجوانية ونبات القطيفة وزهورا زرقاء جميلة يسميها العرب : البختري[٣] ازداد العشب كثافة في الحضر في مراعي تكفي لأمثال القطعان الموجودة هناك بعشرين مرة . لقد برزت الاثار من خلال مرج أخضر وكأنها الاثار التي يحتفظ بها للزينة في انكلترا . وكانت المدينة على أرض مربعة عرضها ميلان ، والاسوار والتحصينات بنيت من الحجارة الضخمة المنحوتة ، ويبدو أن قسما منها تهدم بسبب الهزات الارضية ، وعرفت ذلك من الصدوع العميقة في الجدران التي تدل على رسوخ الارض تحتها . والبيوت القائمة كانت عبارة عن قوالب مربعة وبدون تقسيمات داخلية ، وخالية من الابواب والنوافذ الفردية ، زودت بفتحة أو فتحتين في

---

(١) قال عبيد بن زيد العبادي في الحضر :

واخو الحضر اذ بناه واذ دج	لة تجبى اليـــه والخابور
شاده مـرمـرا وجلله كلـ	ـسا فللطير في ذراه وكـور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ	ـملـك عنـه فبابـه مهجور

(٢) ولتشاير : مقاطعة بريطانية .

(٣) البُختري : نبات عشبي من الفصيلة الفرنوقية Geraniaceae ومن جنس الايروديوم Erodium في تلك الفصيلة .
أما التوليب فهو نبات من الفصيلة الصليبية ويعتبر من الازهار الجميلة المزروعة والبرية . ينمو في بوادي الجزيرة حتى صحارى ايران ، والقطيفة Tagets مـن الفصيلة المركبـة ، صفراء تشبه الاقحـوان وتكثر في البراري العربيـة .

أعلاها لتسمح بمرور النور ، أما سقوفها فكانت مقوسة تذكرنا قليلا بأكثر البيوت الحديثة في سورية ، ومع ذلك كانت تعود الى أزمان قديمة • ربما كانت هناك بعض المحاولات لاعادة بناء المدينة ، الا أنه لا دليل على وجود الفن المعماري في عهود الخلفاء الذين رمموا أكثر من مدينة قديمة • كان القصر ينتصب وسط المدينة ببناء جليل حقا يحيط به السور الخارجي كما يحيط بأي بناء في الحضر • تطاول البناء ليشكل واجهات تطل على الساحة مسافة ربع ميل من البنيان القوي مثل جدران المدينة ذاتها ، وبدت ساحة القصر مستوية ، والظاهر أنها كانت مغطاة بالبلاط كلها ، كما عثرنا في المدينة على أبنية ومعابد وأقواس فردية كانت تعلو على مجموع الابنية وحتى على القصر نفسه • وكل هذا يدل على عظمة ساكنيها وجلال قدرهم وعلى الاخص الواجهة الشرقية التي لا بد وأنها كانت بقصر المدائن فان نجد بينهما شبها كافيا • فالباحة المفردة المكشوفة ذات الابعاد الكبيرة هناك يماثلها هنا أربع باحات صغيرة ، ويتماثلان في بقية الترتيبات ، وكل قاعة تقود — عبر باب منخفض — الى شقق صغيرة كانت تقوم في الخلف • ان صالة تلك القاعات كانت مخصصة للانتظار ومزينة بأعمدة مستطيلة عليها تيجان وقواعد نافرة من الجدران ، ويحمل كل منها مجموعة مؤلفة من ثلاثة وجوه بشرية نحتت في الصخر يعلوها طنف (كورنيش) يمتد على شكل بيضة ولسان مع بقايا سطح مقوس ينبثق من طنف ثان ، والوجوه لم تكن من أجل الفن الخالص ولكنها نحتت من أجل الزخرفة فقط ، أما قوالب وعتبات الابواب فقد نفذت بعناية فائقة ، وكنت قد رسمت أشكالا لبعضها ، واذا ما جمعت مثل هذه القطع فستشكل أجزاء لمدخنة جميلة في انكلترا ••• شاهدت ثلاثة من تلك الوجوه نحتت بواسطة ازميل ، ولكنها تشوهت فيما بعد ، ولم أعجب بشيء مثلما أعجبت بجناح الغرف الداخلية الذي يمتد خلف قاعات الانتظار ، حتى ان بعضها لايزال جيدا يمكن السكن فيه بعد عمليات الكنس والتنظيف، وستصبح بعدها في الحال غرفة عملية ، أو غرفة يمكن اعدادها في لندن صالة للطعام ،

وذلك بسقفها المقعر وأفاريزها الكورنيتية[1] الطراز وعتباتها الجميلة •وبسهولة نستنتج أن الجدران كانت مزدانة بالصور والرسوم لأنه على ارتفاع معين تركت الحجارة خشنة بينما صقلت المساحات فوقها بشكل جميل • ويبدو أن القصر كله قد بني من حجارة حمراء جبيلة[2] لا تزال تحافظ على شكلها جيدا وخصوصا حجارة الغرف الداخلية التي لا زالت تحمل علامات البناء التي بدت كالاحرف الهجائية ولكن أي هجائية ؟ شاهدت نقشا بالعربية • وعلى جدار آخر حرف مشابه لعلامات البناء الحر •

كانت الحجارة مبنية بأيد خبيرة حيث رصفت مع بعضها بشكل جميل دون أن تترك بين الشقوق والفرغات ومن دون عجلة في العمل • تجولنا في هذا المكان طوال اليوم نرسم ونأخذ القياسات ولا يمكنني أن أدون على الورق جمال كل ما شاهدته في الحضر •

نحن لا نعرف تاريخ الحضر ، ولا نجد من يعرفه في هذا المكان[3] • وفي غمرة تأملاتنا في القصر فوجئنا بتدفق الشباب وعموم الناس من مضارب قوم سير ، بعد أن انتهت عمليات نصب الخيام وتفريغ أثاث البيوت • فنحن اليوم في أمسية خاملة من اللهو الصاخب البريء الذي يحبه البدو ••• وفي البداية تركونا وشأننا ولم يتحرش بنا أحد واكتفى الحشد بالركض حول الآثار وهم يضحكون ويصرخون ، ثم أخذوا يتجمعون تدريجيا حولنا ، وكما هي العادة بعدم رفض أي شخص يقتحم عليك خلوتك وجدنا أنفسنا في وسط حشد صاخب من الرجال والنساء ، وكان الرجال مهذبين جدا ، وربما كانت النساء كذلك ، غير أن الا طفال تجمعوا على مسافة قريبة منا مما أجبرني على التخلي

---

(١) الطراز الكورنيتي : تيجان واعمدة مزدانة شبيه بأوراق نباتية .

(٢) يبدو ان حجارتها كانت قد جلبت من سنجار لأن حجارة ارض الحضر كلسية سهلة التفتيت .

(٣) الحضر مدينة اغريقية من عمر مدينة تدمر ذكرها بنيامين التطيلتي . على الطريق المؤدي الى بغداد ومن المحتمل انها خربت بيد التتار وتدمر مثل الحضر لم تسكن منذ مئتي عام .

عن اتمام رسم القصر ، وأن أهرب قدر استطاعتي الى كومة من الاعمدة المحطمة تحت الجدار ، غير أنهم لحقوني الـى هناك ، وتجمهرت الفتيات الجميلات بوجوه ضاحكة براقة وأسنان لؤلؤية بيضاء ، وأصرت العجائز على جذب طرف ثوبي لكي يرين ما أصنع بينما جلس الاطفال في حجري • وفي هذه الاثناء بدا الاولاد والصبية يلقون الحجارة على الوجوه المنحوتة في الجدران ، ومما لا شك فيه بأنهم يستمتعون بهذا العمل ولكن العملية كانت محزنة ومزعجة بالنسبة لنا•ومن حسن الحظ كانت حجارة الحضر أطرى من حجارة تلك الابنية، ولم يحصل ضرر حقيقي عندما كنا هناك، بل طاشت الحجارة وتناثرت عشوائيا• كل هذا والرجال الكبار يبتعدون • وكان الاحرى بهم أن يتدخلوا لفرض النظام من جديد •

في غمرة الاحداث رأى ولفرد أنه من الافضل لنا أن ننسحب قبل أن يقع أي حادث وفعلا أخذنا ننسحب بهدوء من القصر المهدم •

سعدت بعودتنا الى المخيم بسلام فبادرنا سمير بالاعتذار عن تصرفات قومه عندما سمع بها وقال : انهن السيدات يا سيدتي • سألنا سمير عن دواء يشفي عينه من قصر النظر فحاولنا أن نشرح له أنه لا يوجد دواء يشفي مثل هذه الحالة ، فطلب منا سكر مصر وكنا نعتقد أنه يقصد سلفات التوتياء التي نملكها ، ففكرنا أن نعطيه شيئا ولكن تبين أنه ينوي أخذها عن طريق المعدة • وعلى كل حال فكلمة سم قد أخافته وأفقدته صوابه ، ومع ذلك طاب قليلا منها•

شكا سمير كواحد من أبناء بلده من عسر الهضم ، ولا عجب في ذلك فهم يقضون حياتهم بين الموت جوعا تارة وتارة أخرى بين الولائم الدسمة والمخثرات التي لا تهضم والخبز الفطير الذي يلتهمونه ، وحالا سوينا القضية معه وجعلناه يرتاح بكمية من الحبوب الزرقاء وقررنا أن نودعه في غد •

في يوم الاحد العاشر من آذار لم نكن نأسف على شيء وبمقدار ما كنا نأسف على استئذان مضيفنا بالانصراف هذا الصباح • لقد كان سمير لطيفا جدا ، وورطناه في رسم خططنا بطريقة لم تتوقع منه فيها كل هذه الاستجابة :

والتي ستسبب له المشاكل الكثيرة مع زعيمه • كل ذلك دون أن تتوقع العودة اليه ثانية ، ومع ذلك فالمغادرة حتمية ولا مجال للتأسف لأن استمرار العيش في مخيم عربي مزدحم يعتبر مرهقا للاعصاب بطقوسه البدوية ، وليس لنا أن نستبدله بحرية البراري غير المأهولة بالسكان ، ولهذا لم نخف سرورنا ولحسن الحظ كنا نجد الاكثار من العرفان بالجميل غير محمود في العادات الشرقية ؛ ولكن من غير المقبول أن تأكل وتشرب مع غريب دون أن تتمنى له وداعا حسنا ، ولذلك أبدينا شيئا من الامتنان لنشعر الرجل بقيامه بواجبنا • وكلمات سمير الاخيرة خففت عنا جزءاً من الشعور بالامتنان لأنه طلب منا أن نرسل له مسدسا من الدير ليحمي نفسه به من الجنود ، على أن يكون مسدسا خماسي الطلقات كمسدس البك ، وقطعنا على أنفسنا وعدا بذلك بشرط أن تتاح لنا فرصة ارساله • وعند خيمة الباشا أعطينا هبات كثيرة للخدم كما لو كنا نقيم في بغداد ، الا أنهم هنا لا يتوقعون أكثر من كروان لمعد القهوة وشلنغ للذي أمسك الركاب ، وهكذا غادرنا المكان وسط الدعاء والتبريكات • سرنا عبر الاثار في طريق وجدناه يتطاول كثيرا نحو الغرب أكثر مما كنا نتوقعه البارحة وأمامنا نصف ساعة قبل أن نجد طريقا سالكا نحو الخابور الذي يجب أن يكون نحو الشمال الغربي أو الغرب ، والى الجهة الاخيرة توجهنا بقيادة داثان المرشد الامين الذي وضعه سمير تحت تصرفنا ، كان رجلا عجوزا ضعيف البصر تقريبا ولهذا نشطنا في رحلة جديدة غير خطرة ، فكان من أول مهامنا جعل رفاقنا يتقيدون بالنظام قدر الامكان ، ولن نعطل امكانياتنا في كل الاحوال ؛ ولهذا اقترح ولفرد أن يخلص المجموعة من العناصر غير المفيدة • فالكردي والغلام والرجل الاسود والراعي جميعهم لا زالوا في صحبتنا ، ولم يظهروا أي اشارة أو نية لتركنا : الا أننا قررنا أن نفرقهم على مبدأ عصية واحدة في كل مرة من مجموع عصي الحزمة • ورأى ولفرد أن يتخلص منهم تدريجيا فاعترض سبيل الاربعة الذين كانوا سوية وسألهم أين تريدون ؟ قالوا : نحن من خدم الباشا ، ونريد السفر معكم حتى نصل مخيمه • فقال ولفرد : وهل هذا الفلاح الكردي من خدم الباشا • فقالوا : أوه ••• لا انه مجرد تاجر يبيع التبغ • فقال ولفرد:

كردي .. تاجر .. فلاح لا يمكنني اصطحاب كل هؤلاء الناس معي ، وذلك عار على جماعتي فليذهب بعيدا فهوى الاخرون الثلاثة على زميلهم المدني الذي كانوا يحتقرونه وأشاروا عليه أن يبتعد ، وتركوه يواجه مصيره . وحالا صرخ ولفرد في وجهه وأمره بالانصراف فتردد الرجل قليلا ثم تباطأ ثم أطاع وانصرف، وعندما ذهب نادى ولفرد على الراعي ، وأمره أن يتبع صاحبه لأن الاثنين على ما يبدو كانا على اتفاق مسبق وهكذا تخلصنا من كليهما ... جاء الراعي الذي اتخذه ولفرد صديقا ، فكان نافعا لنا في تحديد اسم الاعشاب ، وأحيانا يساعدنا في تحسيل وتفريغ الامتعة وتقديم الجمال . جاء ليودعنا بأدب فقدم له ولفرد هدية تافهة لم يكن يتوقعها ، ونظر بدهشة الى قطعة الفضة داعيا لنا بالخير والبركة ، ثم انصرف تابعا الكردي ، وكان بامكاننا رؤيتهما وهما يبتعدان حتى بعد ساعة من رحيلهما . فأحدهما ذهب على حمار ، والاخر يسير على قدميه باتجاه الجنوب الغربي . والآن تركنا العبيد وحدهم بيننا ، وتوقعوا أن نعاملهم معاملة طيبة . فلأول مرة يظهرون بأنهم نافعون للقافلة ، وتبين أن كبيرهم هو خادم فعلا لفرحان ، وتركناهم يتبعوننا لليلة واحدة فقط ، لأننا على دراية بأنهم سيتركوننا عندما يعرفون وجهتنا الحقيقية. ان العبيد السود يظهرون في أنفسهم كبرياء مصطنعة كبيرة بين البدو على عكس ما كنا نفترضه في شخصياتهم . ففي بعض الاماكن تراهم يتصرفون بحصافة ورزانة ، وينتج ذلك من عيشهم الدائم في خيام شيوخ القبائل وأصحاب المكانة ، ولأنهم ينشؤون كخـلان للاولاد في البيوت ، ولأنهم نسبيا مسلمون وأكثر صرامة من أسيادهم وهـم يعاملون هنا بمساواة[1] ولهم نفوذ معتبر حيث يذهبون ويأتون على راحتهم وكما يحلو لهم . ولولا خوف التشاجر مع فرحان لما استرضينا عبيده .

لا نزال نرتحل فوق أرض قاحلة توجب علينا حمل الماء والطعام الذي نتوقع أن يكفينا لأشهر اضافية،وهو ما يشكل علينا عبئا ثقيلا في هذه الاقطار .

---

(١) لم تعرف ديار العرب المسلمين معاملة العبيد كعبيد كما هو الحال قديما في العالم الغربي ولهذا نجد دهشة الليدي من حسن معاملتهم حتى بين البدو .

كان علمي بالطفيليين يحاولون استرضاء من يعيشون معهم بجعل أنفسهم أناسا نافعين ولكن لا شيء يمكن توقعه من هؤلاء الذين يصطحبوننا ، فلا العبد الاسود ولا الكردي كان قد تنازل أبدا حتى ولو بمسك حبل أو الاعتناء ببعير ، بينما الغلام الصغير كان يربض في الخيمة بمجرد أن تنصب ، ويضحك بوقاحة ، واذا ما طلب منه أنيسير يتذمر بصوت عال طالبا الركوب على أحد الجمال . انه الزنجي الصغير المنبوذ الذي تركته احدى القوافل وراءها منذ عدة أشهر كان يعيش مشردا على صدقات الناس أينما حل . يقول الآن أنه ذاهب الى الدير لملاقاة أصدقائه ، وعلى كل حال قضية تابعينا قد سويت ،وقلقنا الآن مصدره التوصل الى تفاهم كامل مع داثان الذي لم يعلن لاسماعيل بأن معسكر الباشا هو هدف ثانوي بالنسبة لرحلتنا ، وأن فارسا والخابور هما غايتنا الحقيقية ، ولكي تتدبر ذلك كان لا بد من الانفراد بداثان ، ولهذا انتدبت لمحادثة اسماعيل وتأخيره عن الركب ، بينما تقدم ولفرد مع مرشدنا وسوى القضية معه وفعلنا ذلك لأن اسماعيل كان يناور داثان في أمر الطريق ، وكاد العجوز أن يستسلم لما يقول . وباعتبار أن داثان قد فهم ما نريد بوضوح فعلينا الآن أن نعتمد على اخلاصه ولكنه كان يخشى اسماعيل المستأسد الكبير ، ويحتاج الى دعم ثابت من وجودنا معه ليبقي طريقه مستقيما بدلا من الالحاق باسماعيل الذي كان ينحني نحو الجنوب . ولحسن الحظ تكيفنا مع السفر في البادية ، والا لكنا تحت رحمتها ، ولكن بفضل المثابرة والانتباه وتحديد موقع الشمس في كل وقت استطعنا أن نقوم بمسير ممتاز هذا اليوم ... ثلاثين ميلا قطعناها جميعا في الاتجاه الصحيح ، على الرغم من قلة المعالم التي تثير الانتباه في الطريق . فهناك طريق يقود من الموصل الى عنة ، وآخر يقود من الموصل الى السبخة أو بحيرة الملح التي كانت تسمى الاشقر . انها الشيء الوحيد الذي اعترض سبيلنا خلال السهل .

علمنا أن قافلة كانت ترتحل في يوم من الايام على طول الطريق السابق تواكبها مفارز من شمر والعنزة ولم تمر الا بعد أن دفعت لهم المكوس . أما الطريق الاخير فهو طريق معترض تسلكه المجموعات التي ترسلها الحكومة

لجاب الملح • تقع بحيرة الملح على بعد مسيرة ثلاثة أيام من الموصل . أما عن الطريق الذي نسلكه فكانت تبعد مسافة سبعين ميلا في أقصر طريق •

انتصف النهار فشاهدنا بعض الجبال تلوح في الافق ؛ وكالمعتاد خشينا من الغزو ولكن لو كانت هذه قافلة غزو لتابعت طريقها على الاقل دون أن تتبادل معنا الاشارات : وبعد وقت وصلنا الى حافة بحيرة كبيرة مالحة قليلا . فيها أسراب كثيرة من طائر النحام[1] وتسمى النعاج التي كانت تبحث عن الغذاء ، وهي كما يقول مرافقنا داثان سبخة أم الذيابة[2] التي تمتد طولا الى ثلاثة أميال باتساع واحد كما تطاولت نحو الشمال ••• طفنا حول شاطئها الشمالي ، فوجدنا بجانبها بحيرة أخرى أكبر منها تدعى سبخة بويرات التي تمتد اثني عشر ميلا كما يقول داثان ؛ وتغذيها جداول صغيرة تنبع من جبل سنجار وتحتوي على ماء مناسب لتترب الجمال ، وتجف صيفا ولا تصلح لحيوانات أخرى غير الجمال ، وفي مكان غير بعيد وصلنا الى مخيم للحديديين حيث أعطتنا النسوة حليبا ، لأن الرجال غير موجودين في البيوت وكانت ساعة الحلب عند الظهيرة ، والحليب الطازج من الغنم كان منعشا جدا لأنه لم يكن لدينا شيء منه طوال اليوم • كانت النسوة ينشغلن بالقيل والقال وفي طبيعة مرحة ويفرحن كثيرا عندما تتاح لهن فرصة التحدث •

تابعنا سيرنا في وقت أصبح فيه اسماعيل تعبا وينظر من خلف كتفه الايسر وهو يقول : اننا نسير في اتجاه خاطىء ، وعلى الرغم من أننا حاولنا أن نخوض معه مساحكات ، الا أنه ولحسن الحظ كان يركب كديشة تعيسة ؛ بحيث لا يستطيع أن يتقدم بها الركب ، ولهذا فهو يكتفي بالتذمر ، وأخيرا افتعل معنا أزمة عندما رأى خياما على تلة مرتفعة في الجنوب الغربي فقال : لا بد أن تكون هذه للباشا ثم صاح يا بك •• يا بك انهم هناك الجربا هناك ، خيام نايف وفرحان • ولكننا لم نصغ الى حديثه قائلين : انها أربعون خيمة ومثل هذا

---

(١) النحام هو طائر البشروش المعروف اما النعاج في لهجة بلاد الرافدين هو طائر البجع .

(٢) ام الذئاب .

العدد الصغير لا يمكن أن يكون للباشا • فقال بتبجح لنمر عليها لنحصل على الاقل على حمل نأكله وخبز ولبن ، واذا ما واصلنا فلن نجد أمامنا سوى « الچول » أي البادية • قال ذلك مضيفا على الكلمة نبرة حزينة كما يفعل سكان المدن عندما يتحدثون في البادية ، ومع ذلك لم نهتم باحتجاجاته ، وتابعنا السير بثبات وحتى جمالنا كانت تقوم بعملها بشجاعة وتقطع معدلا قدره ثلاثة أميال في الساعة، وعندما تبدأ الشمس بالغروب كنا نتركها تتغذى وهي تمشي• وهذا بالطبع يؤخر سيرها قليلا ومع ذلك فجمالنا تأكل وهي تمشي بمعدل ميلين ونصف في الساعة • وقبل ساعتين على الاقل من موعد غروب الشمس تتوقف عن السير ، ونحل رباطها لترعى بحرية قبل حلول الظلام • واذا ما كانت الليلة مقمرة فستقوم الى المرعى في منتصف الليل ولن تجتمع حول الخيام قبل الفجر حيث تجثم بهدوء لتجتر طوال الليل ما أكلته في النهار • ولا تحتاج الابل الى الماء في الشتاء • وجمالنا لم تمس قطرة من الماء : منذ أن غادرنا بغداد ؛ لأنها تحصل على العشب الرطب الذي ينمو في الربيع ، أما اذا أكلت الفول كما في مصر فعندها يتوجب عليها أن تشرب في الجو الحار كل أربعة أيام مرة ••• في هذه الديار لا تحصل على أي طعام سوى ما تلتقطه من الارض •

قطعنا اليوم مسافة أكثر من المعتاد ، وكانت الساعة تقترب من الخامسة قبل أن نتمكن من نصب الخيام لأننا كنا نعاني من مشكلة العثور على بقعة تصلح لأن نخيم فوقها • فالنصف الاخير من يوم رحلتنا قطعناه فوق أرض قاحلة ، وعندما دب اليأس في نفوسنا ، لمح ولفرد تلا بعيدا عن الطريق نوعا ما، وظن أنه أخضر اللون : فعدا بفرسه اليه فوجده يعج بنبات البختري — نبات أخضر له زهرة زرقاء كنبات النيموفيلا — النبات الذي تفضله الخيول والجمال على حد سواء • وها نحن الآن في مكان بهيج : رابية وحيدة في وسط سهل غني بهذا العشب حتى القمة ، وفي أعلى ومنتصف التلة توجد جحور الثعالب ؛ وفي أسفل منها مستعمرة لليرابيع حيث كانت في هذه الامسية الدافئة عند مدخل جحورها تحدق بنا بدهشة واستغراب •

في الحادي عشر من آذار وصلت الامور الى حدها الأعلى مع اسماعيل ؛ في وقت تركنا فيه العبدان الاسودان وافترقا عن القافلة . وطوال الليلة الماضية وهذا الصباح واسماعيل لا يكف عن سرد الحكايات القديمة عن الغزو والخطر مسهبا في شرح الطبيعة المرعبة في البادية شمالنا التي كانت على النقيض من مناطق الجنوب المأهولة الرائعة . فعور الماء ونقص العشب ، وحتى كل العرب يسكن تحملهم باستثناء عصابات النهب والسلب التي يقوم بتشكيلها العنزة . قال اسماعيل : انها تطوف تلك الديار غير المضيافة بشكل دائم فتسلب وتقتل كل من يغامر ويذهب الى هناك ، فوقعت تلك القصص على حنا وعلي والعقيليين وقع الصاعقة فتأثروا بحزن وحتى داثان كان يقاطع الحديث ليعلن موافقته على ما يسمع من القول : لا نعرف الطريق لا يعرف من سنقابله أين نجد فارسا ؟ الذهاب الى فرحان هو الافضل أولا ، أو على الاقل الى نايف الذي سيرسل رجالا معنا من أجل الحماية . كانت الامور ليست على ما يرام بين فرحان وأخيه ، وفرص مرورنا على الخابور للوصول الى الدبر قد استنفذت ... الخ . وهكذا كان الرأي العام في القافلة ليس معنا ، وكل ما استطعنا قوله لدعم وجهة نظرنا : ان الجمال تعود لنا ، وان من يحب أن يتركنا فليفعل ، وبهذا نكون قد حسمنا النقاش بيننا وبين صحبنا ؛ وكان واضحا أن اسماعيل كان لا يرغب في مغادرتنا حبا وطمعا بالهدية التي ستقدم له في القريب العاجل . وحالما انطلقنا اتضح لنا بأن داثان كان قد رشي أثناء الليل ، لأنه لم يعد يحافظ على خط السير الذي نحدده له وأنه يعاني من تضليل اسماعيل الذي كان يلازمه ، ويفعل ذلك كلما صرفنا انتباهنا الى جهة أخرى. وكان من السهل أن يتدبرا العذر المناسب : كانت هناك سبخة في طريقنا . ويتوجب علينا الالتفاف في دائرة نحو الجنوب الغربي .. توغلنا كثيرا الى الشمال البارحة ، ويجب أن نذهب الى اليسار قليلا كي لا نضل السبيل . وتطورت المنافسة بين ولفرد واسماعيل الى مرحلة العراك من أجل السيطرة على الرجل داثان ، وكلاهما كانا يركبان الى جانبه صفا بصف ، وكل منهما يحاول أن يجعله يتجه يمينا أو شمالا بدفعه من هذا وردة من ذاك تماما كنزاع

الخير والشر في النفس البشرية ، وتأزم الموقف الى درجة الخطورة ، وفي هذه الاثناء تخلف اسماعيل ليصلي عدة دقائق ، فاستغل ولفرد الموقف ووجـه القافلة شمالا ، وعندما عاد اسماعيل ليلحق بنا فقد أعصابه وأعلن أنه لن يتقدم خطوة واحدة . رحل العبد الاسود وغلامه من قبل ، وأصبحا أبعد من خط النظر . وباعتبار أننا قد شققنا طريقنا من الجنوب أمرنا بايقاف سير القافلة وجلسنا على الارض لبحث الامور ، وانطلقنا من نقطة هامة في النقاش وهي أننا نستطيع بقوة البدن أن نوجه رؤوس جمالنا الى أي نقطة تشير اليهـا البوصلة . ونقطة ضعفنا تكمن في كوننا من الصعب أن نذهب بدون من يعرفنا بفارس ، ومن الضروري أن نحافظ على أحد الشمريين بيننا ، وكانت حجة اسماعيل القوية هي تشبثه بالوعد الذي قطعناه على أنفسنا بزيارة فرحان . وسيكون من العار أن نمر بخيمته دون أن نتوقف هناك .. وهكذا كانت المناقشة حامية الوطيس . قال اسماعيل : آه اذا أنتم لا ترغبون برؤية الشيخ ! مع أن الشيخ سيسر برؤيتكم كثيرا .

ولفرد : نحن نرغب برؤيته ، ولكن أين هو منا الآن ؟

اسماعيل : هناك مع نايف مشيرا الى نصف دائرة حول الافق الجنوبي .

ولفرد : وفارس أين هو ؟

اسماعيل : في منطقة نائية على الخابور قرب الدير ... مشيرا الى نفس الاتجـاه .

ولفرد : هراء هذا الطريق يقود الى عنة ، بينما أريد مقابلة صديق في الدير خلال خمسة أيام ، وأرغب برؤية فارس .

اسماعيل : خمسة أيام ! ان مكان الباشا قربنا وسير سلك من هناك غدا

ولفرد : ولكن أين الباشا ؟

اسماعيل : هل ترى تلك الهضبة عند الافق ، تعال معي الى هناك وسوف أريك بيتـه .

ولفرد : سأذهب ولكن حذار ان لم أجده هناك فعندها سأودعك .

لم يكن هناك من خوف بسبب ابرام هذا الاتفاق ، على الرغم من أن الهضبة كانت على بعد خمسة أميال عن الطريق ، واعتقدنا أنه من الحكمة أن نذهب الى هذا الحد من مجاملتنا مع اسماعيل • فنحن لا نود رؤية سيده ، كما لا نرغب بالاساءة اليه ، وأن نمر قريبا من مخيم رجل ذي مكانة دون أن نتوقف عنده فذاك شيء خطير ولهذا غيرنا مجرى سيرنا واتجهنا جنوبا ، وعندما رأى اسماعيل أنه كسب القضية انفرجت أساريره وأصبح في مزاج حسن • ولرغبتنا في المحافظة على صداقته شرحنا له صعوبة موقفنا بالنسبة لفرحان وفارس حيث لا نملك الوقت بزيارتهما كليهما • واذا كان علي أن أبين الحقيقة في سبب مماطلتنا بلقاء فرحان أقول : لم تعد بين أيدينا الا عباءة واحدة موشاة بالذهب فقط ، لأن العباءة التي نفترض أن نعطيها لفرحان أعطيت لسمير ، ونحن لا نرغب أن نظهر في خيمته وأيدينا فارغة •

تبعنا داثان بصمت لأنه ليس من مدمني كثرة الكلام ، بينما علي وبقية الرفاق في سرور عظيم • قال اسماعيل بحماس : بين لحظة وأخرى سنرى الخيام ، وسيذبح لنا خروف وربما جمل صغير ، وسوف ننام على أية حال بين العرب الليلة ، فرد عليه القوم جميعا كأفراد فرقة تمثيلية « الكورس » بقولهم: ان شاء الله وهكذا تابعنا المسير •

عندما اقتربنا من الهضبة المزعومة تبين أنها لم تكن أكثر من رابية شوهها السراب وكانت ترى كبيرة لأننا كنا ننظر اليها من أرض منبسطة • ومن هناك كانت الارض تنحدر بسرعة في منظر جميل ساحر،فتوقفنا هناك ودرنا بأبصارنا في كل اتجاه ، لعلنا نرى البقع السوداء التي تدل على مخيم عربي • ولكن لم نر شيئا في الاميال البعيدة التي ترامت أمامنا • وعلى كل حال لم يخجل اسماعيل مما حدث بسهولة . وأشار الى هضبة مسطحة القمة ، وأشار اليها وهو ينعم بنشوة النصر وقال : هناك ••• هناك بيت نايف حيث يقيم الباشا • فقلنا له : يعني أنها مسيرة يوم كامل ، فصمت الرجل ، فقلنا عليك أن تصل اليها في يوم غد ، ونحن الآن سنذهب في طريقنا ، لكنه توسل أن نتقدم قليلا لعلنا نرى

الخيام على الرغم من علمنا بأنه لا توجد خيمة في اتجاه ما أشار اليه ، فقبلنا أن نرضيه وأمرنا القافلة بالتوقف ثم عدونا بخيلنا الى أسفل المنحدر • وعندما تفحصنا المكان ثبت أنه لم يكن أكثر من كومة من الاغصان وضعت كعلامة في الطريق حيث كانت تنتصب خيمة منذ زمن بعيد • وفي هذه الاثناء بدت على مرأى منا جمال اصطفت على شكل خيط رفيع على بعد ميل أو ميلين ؛ فتوجس اسماعيل خيفه . وقال : ربما هناك فرسان معهم وادركنا سر اللعبة فعدونـا باتجاههم راغبين أن نسوي قضية مكان شمر • فيبدو أن الجماعة كانت ترتحل نحو الجنوب . وقررنا أن نحصل على معلومات أكيدة نحسم بها الاراجيف التي يروجها اسماعيل لذلك هيزنا خيلنا لتسرع . بينما تركنا اسماعيل في المؤخرة على كديشة ، وكنا نفعل ذلك وبنادقنا مشرعة بأيدينا ، غير أن القوم تنبهوا للخطر . فتوقفوا وشكلوا مربعا لكي يتلقوا ضرباتنا • لقد كانوا عشرة رجال مسلحين بالرماح ، ولم تكن بأيديهم أسلحة نارية ، فتوقفنا على بعد ياردات منهم . وسألناهم من أين هم قادمون وأين يذهبون فقالوا : انهم قادمون من فرحان . وانهم في طريقهم الى تل عفر — بلدة قرب سنجار — لشراء الذرة . ولم تكن الجمال محملة بشيء • وأخبرونا بأن معسكر نايف كان أبعد من التلة المسطحة المسماة بالملفية[1] ، ولكن فرحان غادرها مع ابنه مجول وأصبحا على بعد مسيرة يوم منها • وصل اسماعيل عند سماعنا للخبر ، وأدرك أن لعبته قد انتهت • وعندما انصرف الرجال بعيدا على ظهور جمالهم جاء الينا تعلو فمه ابتسامة صفراوية ، وطلب الوداع في هذا المكان لأنه يريد أن يكون في خيمة نايف الليله ، واذا لم نأت معه فسوف يتركنا لقدرنا •• لم يستطع أن يسير شمالا لأنه ليس من جماعة فارس ، فأجبناه بقولنا : افعل ما تريده وأعطيناه رسالة لسيده وهدية سر بها كثيرا • لقد كسبنا معركتنا معه وعلينا أن نكون كرماء . لذلك تمنى لنا الخير وانطلق بكديشه يخب ببطء شديد •

خدعتنا الظروف كثيرا لأن داثان وبقية الرجال في القافلة كانوا أبعد من

---

(١) انها قمم مرتفعات منيفة الكائنة بين المالح السابقة ومملحة سنيسله .

مجال الرؤية ، ولا مجال لمناقشتهم بما حصل • وعندما عدنا اليهم أعلنا بأن مغادرة اساعيل حتمية ، فوجدنا ارتياحا عند داثان ، وقد تخلص من أعباء اساعيل ولم يبد أي اعتراض وأعطانا الاتجاه الصحيح ، فدارت رؤوس الجمال الى الشمال الغربي الذي نريده ، فبدت بعض تعابير خيبة الامل من مرافقينا . الا أنهم مضوا في صمت مطبق وتابعنا المسير ساعتين لنعوض مافاتنا من تأخير • كان ولفرد محظوظا جدا عندما اكتشف بركة ماء كونها المطر ؛ وهي أول ماء عذب نصادفه منذ أن غادرنا مدينة الحضر ، ومنها ملأنا القرب بالماء، ورغبنا أن نخيم قربها• ولكن داثان كان يشعر بالخطر الحقيقي في الديار التي ندخلها ، وتوسل أن تتقدم قليلا • فنحن الآن نعسكر في واد بعيد عن كل المخلوقات ، ولا نحتجب بشكل مناسب عن السهل المحيط بنا ، فكان حنا وعلي في هدوء وجدية هذا المساء ، ونأمل أن ننعم بنوم عميق في ليلة غير مضطربة ويكفينا ما حل بنا من مشاكل طوال هذا اليوم • اننا في ذنب الجزيرة فوق الصفر الثاني المعلم على الخريطة ، ولم تنصب الخيام مباشرة خوفا من العيون البعيدة ، ولأن هذه الارض التي نسكنها تعتبر أرضا محايدة بين قوم فارس وقوم فرحان ولا يقف فيها أحد وهو يضمر خيرا •

في الثاني عشر من آذار جاء علي ــ الرجل الذي كان الى جانب خططنا ــ الى خيمتنا الليلة الماضية ، وجلس ليشرح لنا بأن من واجبه أن يسدي لنا النصح . وحذر من متابعة الرحلة الى مكان أبعد في الاتجاه الذي نسلكه ، وهو يقتنع بأننا ذاهبون الى أرض غير مأهولة ونحن في اتجاه معاكس من الاتجاه الذي نريده ، وأضاف بأن داثان أعمى ولا يمكن أن يكون دليلا موثوقا ــ كان ذلك صحيحا ــ ولم يبق لدينا سوى قربتين من الماء يحتاجها سبعة أشخاص من أجل الشرب بالاضافة الى الجياد الاربعة والحمار ••• وعانينا صعوبة بالغة في تهدئته لأننا كنا في قلق مماثل ولكن أخرجنا الخريطة، وأريناه موقعنا عليها وموقع الخابور الذي لا يبعد عنا أكثر من ثمانين ميلا ، وعلى الرغم من تأخرنا البارحة في المسير فسنسير اليوم بخطا طويلة ، فلم يقتنع ولكنه لم يصر على اعتراضاته • وبالتأكيد لن نستطيع الاعتماد عليه •

داثان نفسه كان مكتئبا في هذا الصباح ، لأن التفافنا البارحة خلط أوراق حساباته . بالاضافة الى عجزه البصري الذي منعه من رؤية تل الملفية ، وقد ضل السبيل ، وكان في قلق دائم من الاعداء ، وطلب منا أن ننتبه لاحركات المفاجئة للفرسان ، ومع ذلك لم نشاهد سوى بعض طيور الحباري وثعلبا واحدا .

ركبت مع ولفرد لنقود القافلة يتبعنا داثان عن بعد بصورة لا نفقد فيها رؤية الجمال . وتسارعت الارض بالارتفاع فلم تعد منبسطة ، وبعد ساعة أو ساعتين وصلنا الى موقع مرتفع ، عنده كانت فرحتنا الكبرى برؤية الهضاب العالية في الشمال التي توقعنا أن تكون هضاب جبل سنجار ، بينما ظهرت الاجراف العالية الكبيرة أسفل منا والى اليسار ، فترجلنا ننتظر البقية . وعلى الرغم من آن داثان لم يتمكن من رؤية ما نرى غير أنه تعرف عليها من الوصف مؤكدا صدق معرفتنا لجبل سنجار . أعطى داثان اسم سنيسلة للبحيرة التي صادفتنا ، وأخبرنا أن علينا أن نتقدم لكي نلتف حول رأسها ، وسألنا بقلق فيما اذا كنا نرى خياما ، وبعد مكابدة بصرية للارض خلف البحيرة لمح ولفرد ببصره الطويل بعض البقع السوداء في ساحة عليها بقع فاتحة ، وبكثير من التدقيق عرفنا أنها تتحرك وأعلن أنها خيام وجمال ، وظهر المخيم على بعد ستة أميال . واتفقنا حالا بالتوجه اليه عندما كان يمتد نحو الغرب . وعلى كل حال هناك سبخة يجب أن ندور حولها ، ففي البداية اضطررنا أن نغير خط السير نحو الشمال لنطوف حول شاطئها باحثين عن مكان يصلح للعبور ، لأن القسم الشمالي كان ضحلا على الرغم من عرضها الضيق الذي لا يتجاوز ثلاثة أميال . وأخيرا وصلنا الى طريق يناسب مرور الجمال ويقود عبر الطين الرطب الذي مشينا فيه مسافة طويلة حتى اختفى السراب ، وعندها قرر ولفرد أن يذهب دون صبر الى الخيام مباشرة ، وعلي أن أتبعه ، بينما داثان وبقية المجموعة يجب أن يلتفوا حول رأس البحيرة . فتابعت معه بحماقة لأنني كنت أشك بصحة العمق فنسيت على الاقدام؛ولكنني ما إن مرت بضع مئات من الياردات حتى شعرت بأني منهمكة في وقت كان حذائي « وتنورتي » تثقلان بالطين . ولم أستطع التقدم لمسافة أبعد وكنت خائفة لأن السراب كان يلفنا . ولم نعد

نرى سوى الطين ، ثم تركنا طريق الجمال الذي كان يتلوى في المكان. واعتقدت بأننا سنقضي نحبنا في هذا المكان التعيس لا محالة ، ولكن ولفرد لم يتراجع. وأخيرا تعلقت بفرسي فوجدت الامور أقل يأسا ، لأن الطين لم يعد يلامس أكثر من خط الشعر عند حافة الحافر ولم تتأذى من ذلك ، ومن موقع مرتفع استطعت الرؤية بشكل أفضل وشاهدت التلال المقابلة التي كانت تخفق عبر السراب ، وبعد مكافحة دامت أكثر من ساعة ونصف وصلنا الى الجانب الآخر بسلام .

وعندما وصلنا الى أرض مرتفعة نظرنا الى الخلف نحو السبخة والجمال : فلم نر شيئا لأنها كانت بعيدة جدا ، وعلينا الالتفاف حول رأس البحيرة : ولكن على بعد نصف ميل أمامنا شاهدنا رجلا واقفا فركبنا اليه . لقد كان يراقب الموقف منذ زمن طويل ، فسألنا لماذا أتيتم عبر البحيرة بدل الدوران حولها : وأخبرنا بعد الاجوبة التمويهية التي يبدأ بها البدو عادة في التعرف على الغريب. ان الخيام التي رأيناها من الطرف الاخر للبحيرة تعود لقومه ، وكان مندهشا جدا لأننا أحصينا عددها عبر تلك المسافة الهائلة ، وعندما تأكد أننا لسنا من جماعات السلب والنهب بل من المسافرين الذين كانوا في طريقهم الى فارس ، أصبح لطيفا جدا . بينما كانت الخيل ترعى جلسنا نحن الثلاثة نتحادث منتظرين قدوم القافلة ، وبعد لحظات ظهرت وشعرنا بالارتياح .

أفادنا الرجل بأنه من جماعة القعيط احدى قبائل شمر ، وأن شيخه هو بدر ويخيم على بعد مسير يقدر بخمس أو ست ساعات الى الامام . كان بدر من أصدقاء فارس ، وفارس في منطقة الشدادي على الخابور على بعد مسير يوم من معسكر بدر .. كانت هذه هي البشرى السارة والاخبار العظيمة التي أفرحت المجموعة عندما وصلت وسمعتها .

وكان الرجل طلق المحيا شريفا ، فوضعنا الآن على الطريق مشيرا الى صف من التلال معلنا أننا سنرى ديار بدر من هناك .

ارتفعت الارض بشكل سريع عن مستوى البحيرة ، وارتحلنا عبر انحدار

غير نظامي أكثر من ساعتين ، ثم مررنا ببركة ماء جميلة كونها المطر كان يعيش فيها البط حيث شربت الخيول ، وكان الصعود فوق أرض السبخة يقدر بمائتين وخمسين أو ثلاثمائة قدم ، وصف التلال المذكور تبين أنه حافة أرض مرتفعة ومنبسطة ، ومنها يمكن للمرء أن يشرف على مشهد رائع يقع في الجنوب حيث بدت السبخة كصفيحة من الذهب في منتصف سهل منخفض ، وخلفها لا تزال نرى هضبة الملفية بقمتها العلوية التي كانت تشكل نقطة علام واضحة في المنطقة ، وكانت الارض تنحدر شمالا وجنوبا بنفس المقدار وعلى بعد عشرين ميلا امتدت تلال جبل سنجار وجبل عبد العزيز الذي يعتبر استمرارا لامتداده الجنوبي • ولم نجد أية خيام في المنطقة ، ولهذا قررنا التوقف حيث نحن الآن قانعون بما معنا من ماء وعشب ، ولكن داثان وبقية المجموعة تنتابهم حمى القلق ، ويرغبون بالتقدم للنوم في مخيمات العرب • ومرة ثانية عاد الحديث عن الغزو ، ولهذا قررنا المتابعة على الرغم من أن الوقت كان متأخرا •

تقدمنا نحو تل صغير كان على بعد ميلين ومنه شاهدنا خياما بعيدة نحو الشمال ، فانتظرنا بينما عدا ولفرد بفرسه الى تل آخر ، ومنه قرر أن يعطينا اشارة بالتحرك الى اليمين أو اليسار أو البقاء حيث نحن الآن وربما التراجع • وبعد لحظات وقف ثابتا في مكانه وعرفنا أنه شاهد شيئا وعلينا التقدم • لقد اكتشف معسكرا لا يبعد أكثر من ميلين ، ونحن الآن مع صياح شيخ جماعة من الثابت من قبيلة شمر • انه الرجل العجوز السخيف صاحب العائلة الكثيرة العدد وله أطفال تنقصهم التربية ، والذين كانوا مصدر ازعاج لنا جدا ومع ذلك ذبح خروفا وأحضر تمرا وزبدة ، ووعد بأخذنا الى الشدادي في مهلة أقصاها يوم غد ، وقال ان متاعبنا قد انتهت بوصولنا اليه ، غير اني آسفت لهدوء البادية الذي كنا ننعم به بالنسبة الى هذا المخيم الصاخب المليء بالكلاب•

الثالث عشر من آذار، علمنا بأن ضيافة صياح لم تكن خالصة،فقد حصل من حنا مجيديا ليلة البارحة ثمنا للخروف ، والتهم هو نفسه قسما منه ، ولم يبق لنا سوى الكبد والقلب والمؤخرة الدهنية حيث لم نستطع أكل شيء منها ،

وأكثر من ذلك استعارت زوجته أدوات الطبخ منا من أجل الوليمة وأزعجتنا بصحبتها بعد ذلك • وتلك أمور أدونها دون تفصيل •

في الليل حدث الصقيع القارص حتى ان بعض الماء الذي صببته في كأس من « التنك » الساعة السادسة وجدته وقد علته طبقة من الجليد في الساعة السابعة • واختلاف الطقس بين الامس واليوم يفسر بالثلاثمائة قدم الاضافية التي صعدناهـا •

غادرنا وادي عدج[1] ـ اسم الوادي الصغير الذي وجدنا فيه مخيم الثابت ـ عند الساعة السابعة والنصف ، وتوقعنا أن نصل الى مضارب فارس هذا المساء ، ولكن صياحا الذي تطوع أن يكون دليلنا قد قادنا في رقص دائري طوال الصباح • وبعد تسع ساعات ونصف من المسير الشاق طلب منا أن نتوقف ، وفي كل قصص المغفلين القديمة أعتقد بأنني لم أعثر على شبيه لصياح ، فعندما سألناه عن الاتجاه عند الانطلاق أجاب بلهجة رجل كان يريد الملهاة لطفل : لا بأس يا أعزائي بقليل من الصبر سترون حالا ••• أنا صياح هل تفهمون ، ودق على صدره ، وقال : أنا ••• سأريكم الطريق وان شاء الله سنكون عند فارس قبل الظهر ، بينما سار نحو الشمال ثم انعطف بعد نصف ساعة نحو الغرب ومن ثم شمالا غربا ، ثم توقف ليتشاور مع داثان ، ثم احتكم الينا ـ لضعف بصره ـ لنقل فيما اذا كنا نرى خياما ، فقلنا : خيام من ؟ فقال أوه ••• أية خيام تفي بالغرض لنسأل أين يكون فارس •

بدأت الشمس تجعل الارض حارة تحت أقدامنا ، وغرقنا في سراب شديد؛ ومضى وقت طويل لم نكن نرى فيه أكثر من عدة مئات من الياردات ؛ وبدأنا نقترح خطا مستقيما ليوصلنا الى أقرب طريق الى الماء ، حتى وان لم يكن الشدادي ، الا أن صياحا أخذ يخطب بنا واعظا ، ويقول : أمضينا عمرنا ونحن نسير في طرق البادية والسفر فيها هو غير السفر عبر المدن ، وأنتم لا تعرفون

---
(١) حداجة احد وديان الجزيرة .

الطريق مثلما أعرفه لأنني بدوي ابن بدوي ، وعشت ولا أزال في البادية منذ الصغر ، وسترون الخيام حالا ان شاء الله وعندها سنعلم أين يكون الطريق .

كنا تتجول في خط متعرج طوال الصباح ، وأخيرا وصلنا أرضا مرتفعة حيث كانت بعض القبور ، ومنها شاهدنا مخيما كبيرا كانت فيه أربعون أو خمسون خيمة ، يبعد عنا كثيرا تحت تلال سنجار تلك السلسلة الجميلة جدا والتي لا تبعد عنا أكثر من اثني عشر ميلا الى خمسة عشر ميلا بحيث نستطيع رؤية بقع الاشجار الخضراء والحدائق على سفح المنحدرات . أخبرنا صياح أن في سنجار خمس عشرة قرية يقطنها عرق كردي يعرف باليزيدية[1] وهم من عبدة الشيطان ، ويزرعون بساتين التين والعنب والرمان ، ويلبسون العمائم السوداء فوق رؤوسهم . رغب صياح بالذهاب الى تلك الخيام ، ولكنها كانت بعيدة عن طريقنا ويريد أن يعلم منها فيما اذا كان فارس لا يزال على الخابور وأصر على الانتظار حتى يظهر شيء يدل على الاتجاه الصحيح .. الا أننا واصلنا المسير ولم يمض وقت طويل حتى مررنا بمجموعة من البدو يريدون الرحيل ، وهم منشغلون بهدم الخيام في منظر جميل جدا ، فجاءتنا منهم مجموعة من الفرسان يحملون الرماح في وقت صفت فيه أحمال ستين جملا على الارض ، وحملت بعض الخيام على الجمال وقدور الطبخ والهوادج المليئة بالنساء والاطفال ، وهناك شباب وأطفال يسيرون على الاقدام ، ويقودون الحمير تحيط بهم الكلاب وكلاب الصيد ، وأخيرا جاءت قطعان الابل الحلوبة وقطعان الاغنام ، وسارت الجموع من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي فعبرت خط سيرنا لتشكل معه زاوية قائمة .

أخبرنا الفرسان بأن فارسا قد ترك الشدادي ونزل الى أسفل الخابور . بينما شاهدنا في الشمال البعيد خيام بدر ، وأخبرونا أن مضارب قبيلة طي

---

(1) اليزيدية طائفة قرب الموصل وفي جبل سنجار معتقداتها مزيج من النصرانية والاسلام .

تقع غربنا ، فعزمنا على الذهاب اليهم لأن داثان أخبرنا بأن أم فارس منهم ، وأن اسم شيخهم هو عبد الرحمن[1] ، ويبلغ تعدادهم حوالي ألف خيمة •

عند الساعة الثانية عشرة والنصف قطعنا طريقا يقال انه يقود من نصيبين الى مداحة بويران وأن نصيبين تقع على مسيرة ثلاثة أيام من هنا ؛ وعند الساعة الواحدة عدا ولفرد بصحبة صياح ليحصلا على معلومات من خيام طي التي أدركناها تمتد بعيدا • كان صياح يمتطي فرسا كميتا جيدة الرأس من سلالة الصقلاوي الرجيبي • كنت أعاني من تعب شديد وفرسي كذلك ، ولهذا تخلفنا عنهم بأسى وتأثر بالغ ، وعندما أصبحا على بعد ثلاثة أميال من معسكر طي توقف ولفرد لانتظاري بينما ذهب صياح وحده ليستقصي الاخبار ، وقد أخذنا بعين الاعتبار حصول ردة فعل عند الرجل العجوز الذي تُرك على هواه ، وتوقعنا أن لا نراه ثانية بعد اليوم غير أن ولفرد عدا ثانية بعد أن أعطاني التعليمات عما أفعل بالجمال عندما تصل ، وكان عجبي في هاجر التي واصلت السفر الشاق في هذه البوادي دون كلل أو ملل ، وأراها الآن تنطلق كالسهم لتقطع الاميال الثلاثة التي كانت تفصلنا عن مضارب طي بأقصى سرعة لتلحق بصياح •

انتظرت نصف ساعة حتى جاءت القافلة ، فذهبت معها الى تلة صغيرة قرب الطريق جعلناها نقطة تجمع لكل من كان في القافلة •

جاء ولفرد وقال : بصعوبة بالغة استطعت التخلص من ضيافة الشيخ حامد ، الرجل الكبير الوقور الغني ، وقال ولفرد : كانت خيمته واسعة ومؤثثة بشكل جيد على النقيض من خيمة فرحان في الشرقاط • والاخبار التي حصلنا عليها كانت تفيد بأن فارسا هو ابن اخت حامد ، وانتقل الى الخابور الاسفل باتجاه الدير في هذا الصباح وهو ليس ببعيد • أضعنا الكثير من الارض هذا اليوم ، ووقفنا في أول مكان يصلح لنصب الخيام بعد مغادرتنا لقبيلة طي •

---

(1) عبد الرحمن بن حسن بن حسين العبد الله من آل العساف المشهورين في طي الجزيرة •

وبرأيي : انه خير مكان يناسبنا ، لأنه يقع في أرض مرتفعة نوعا ما ويطل على مشهد رائع لتلال سنجار .

قطعنا حزما من الاغصان الخضراء لخيولنا لتأكلها في الليل ، لأن الذرة قد انتهت منذ بضعة أيام وأمضينا أمسية جميلة رعت فيها الجمال بعد منتصف الليل لأن القمر آخذ يدخل في ربعه الثاني ، أمسية دفعت عنا هموم هذا اليوم الذي أمضيناه بالارهاق والتعب ومآسي المعسكر الذي نمنا فيه البارحة بين كلاب الثابت ونسائهم اللاتي كن يتلصصن الى خيمتنا في كل لحظة .



الفصــل الخامس عشر

الآن وبعد ذلك أطلب منك أن تقسم بي وبالله بأنك لن تعاملني بخداع ولن تعامل ابني او ابناءه .. وكما مننت عليك بالجميل يجب أن تعاملني بمثله وتعامل الارض التي تقيم فيها مؤقتا بمثل ما تعاملني .. قال ابراهيم : سوف أقسم

● سفر التكوين

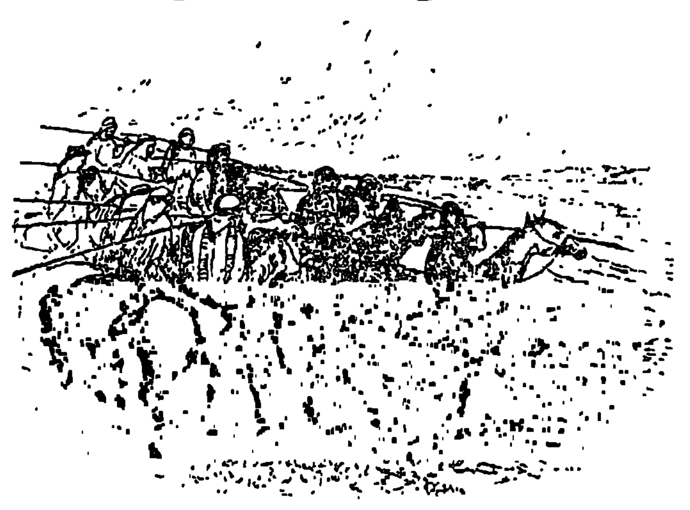
زعيم من البادية وأمه الخاتون عمشه ــ الاولاد المؤدبون ــ طــلال ــ فارس في رحلة صيد ــ يعبر النهر سباحة ــ قسم الاخاء ــ رشيد بن علــي وشيخ السموكا ــ اليزيدية ــ طوف في الخابور ــ ابل تسبح ــ وداعا لفارس ــ عدو على فرس في الدير .

في الرابع عشر من آذار كنا عند فارس ، أقولها بفخر واعتزاز ، وعندما أستعيد الذكريات أقول : كم من المعوقات وقفت في طريقي ! وكم من النجاح المشوب بالشكوك أظل متأخرا منذ أيام ثلاثة ! ومع ذلك كله نصل الى نتيجة حتمية لا صعوبة فيها ولا خطر نواجهه ، وكل ما نحتاجه القليل مــن الصبر والتصميم ، وها نحن قد وصلنا .

في فجر يوم الوصول نادينا على صياح ليذهب كالغراب من سفينة نوح مستطلعا الاخبار عن معسكر زعيم شمر ، فعاد بأسرع مما كنا نتوقعه وفي أقل من ثلاث ساعات ، وهو يصرخ من بعيد وبأعلى وتيرة من صوته لقد نجحنا ، ففارس في مكان قريب وفي متناول اليد ... رأيته وتحدثت اليه شيل .. شيل « حمل .. حمل » سنكون هناك في غضون ساعات . انها أخبار مفرحة بتعابير بدوية ، وهذا الخبر من صياح لا يمكن تصديقه، لأنه لم ير الشيخ ولم يتحدث اليه ، وكل ما فعله مقابلة راع من رعاة الشيخ ، ومع ذلك لم نصل المخيمات

المنشودة الا عند الظهيرة ، وأول خيمة شاهدناها خيمة كبيرة شاهدناها من مرتفع، وتبعد عنا مسيرة نصف ساعة وحبذا لوكنا قد بحثنا عنها الليلة الماضية.

تناثرت خيام قوم فارس على طول واد متموج ، وربما تطاولت أكثر من ميل . وعند الظهيرة كان وصولنا ، وهذا الوقت لم يعطينا المشاهد الحية لمضارب البدو ، لأن الاغنام ومعظم الجمال كانت في المرعى وبقيت فقط الخيول قرب الخيام في واد أبيض كالثلج كسي بأزهار البابونج المتفتح ، ولهذا السبب



طلال الصغير يقود الغزو

اختيرت هذه البقعة لأن البابونج هو طعام الابل المفضل ، وعموم الخيول التي مررنا بها لم تكن جذابة جدا لأنها كانت هزيلة وتكاد أن تموت من الجوع ولا تزال معاطف الشتاء فوق ظهورها . وأظن أن الشمريين لا يملكون الا القليل من الخيول الجيدة على الرغم من قصص صياح عن خيول فارس التي قال عنها : ان كل فرس تساوي ألف ليرة . وكان الشيء الاكثر جاذبية المواليد الجديدة بين الابل ، والتي كانت تتلصص هنا وهناك من خلال الاعشاب ، وهي مخلوقات من سيقان ورقاب ، وعندما تربض يحسبها المرء طيورا عملاقة برؤوس صغيرة وعيون كبيرة .

وصلنا الى خيمة كبيرة عند منعطف الوادي تقوم على سبعة أعمدة ، عرفنا من حجمها أنها لا بد وأن تكون خيمة الشيخ ، كانت تنتصب وحولها مجموعة من الخيام ، حيث يأخذ الوادي بعدها بالاتساع نحو السهل ، فركبنا اليها دون اعلان مسبق ، وبدأنا نشعر لأول مرة بقلق عن طبيعة الاستقبال الذي يمكن أن يستقبلنا بـه الرجل الذي جئنا من ديار نائية لنراه ولكن لا داعي للقلق ؛ فالقوم شاهدونا وتسابق الخدم لاستقبالنا ، وهم يهمون لمسك أرسان خيولنا. بينما كل هؤلاء الذين في الخيمة وقفوا على أقدامهم ، وردوا على سلامنـا بصوت ودي مطمئن • أقبل فارس في هيئة شاب طلق المحيا وسيم التقاسيم من الخيمة الداخلية ؛ وحيانا بابتسامة كانت تنطوي على شرف كبير ونيـة طيبة ، وشعرنا في الحال أننا في أمان بين يديه • أمرنا فارس بالجلوس وأراحنا على الفرش والوسائد ، وجلس بنفسه الى جانبنا مصغيا الى تحياتنا التي رد عليها بأحسن منها ، فانسابت تحياته رائعة من انسان يعود لأصول نبيلة • سألنا بلطف عن كل مغامراتنا منذ أن غادرنا الدير ، لأنه قد سمع عن وصولنا الى الدير • وعن محاولتنا لزيارته في الشهر الماضي ، وأخبرنا أنه كان يتوقع وصولنا منذ زمن بعيد وطالما أننا جئنا فعلينا أن نبقى معه فبيته بيتنا وقومه قومنا • على الرغم من هذه العبارات التقليدية في بلاد الشرق فقد كانت كلماته تنطوي على صدق كبير في كل حرف ينطقه ، وطريقته كانت تختلف عن طريقة أي شخص قابلناه حتى الآن في البادية ، لأنها كانت صريحة وقلبية من شخص يثق من نفسه ومن مكانته في قومه ، وقادر على التصرف دون احراج أو تصنع كما يفعل البدو عندما يلتقون الغرباء ، ويندر أن نجد رجلا بهذه الصفات الا ذوي الاصل والنبلاء ، كانت هذه انطباعاتي الاولى عن هذا الشخص أكتبها حالا دون تأخير • ويبدو أننا قد وجدنا ضالتنا في هذا الشخص ، بعد أن كنا نأمل بصعوبة بالغة أن نرى سيد البادية •وباعتباري متعبة يجب علي تأجيـل الوصف المطول حتى يوم غد ، لأننا باقون هنا بضعة أيام •

في السادس عشر من آذار يجب علي تكثيف ما أكتب لأن مفكرتي أصبحت

مجرد ركام من الملاحظات ولأن الناس الذين تتحدث اليهم هنا تختلف مشاربهم ويستعون محدثيهم ومستمعيهم بجميل القول وكلام يحتاج اعادة الكتابة .

كانت أهم شخصية بعد الشيخ فارس نفسه في هذه المضارب هي دون شك شخصية أمه الخاتون عمشه[1] التي تشتهر بين القبيلة بلقب أم عبد الكريم. وأعتقد أن مناداتها بهذا الاسم له مدلوله وتأثيره السحري بين شمر ، وكان بمثابه الشمس الساطعة ؛ وعليهم بتبجيل المتوفى ، لأن عبد الكريم في الحقيقة بطل من أبطال شمر سيبقى يذكر بينهم بفخر حتى في الاجيال القادمة ... كانت القبيلة في حياته غنية قوية وتتمتع بهيبة في كل البادية، ومن الصعب اليوم أن نعود لسابق عهدها ثانية لأن وحدتها قد تحطمت ، وانقسم الشمريون الى معسكرين ولن يستطيع أي معسكر وحده مقاتلة أعدائهم العنزة ... لقد كانت حياة عبد الكريم حياة بطولة « رومانسية » يصعب أن تجد مثيلا لها . ونجد ذلك في ذكراه التي تضفي على حياة العائلة والقبيلة من ورائها الفخر والاعتزاز . وهو عامل من ثلاثة عوامل تجعل قبيلة شمر تعطي الولاء لشيخها الحالي . كانت أم عبد الكريم شخصية نسائية من النوع الوقور الجليل . ومحط تقدير واجلال بين كل القبائل في الجزيرة الشمالية ، لأنها كما قلت من أصل طائي وتعتبر أختا للشيخ حامد الذي تعرف عليه ولفرد قبل وصولنا اليه بيوم واحد ... عمشه لا بد من أن تكون في يوم من الايام امرأة جميلة جدا شأنها شأن النساء الطائيات اللواتي يتمتعن بجمال رائع يجعلهن أجمل نساء البادية . انها الآن عجوز سمينة ـ والبدانة مقبرة الجمال ـ وعلى الرغم من وهن جسمها وعجزها فهي امرأة في شخصية مبجلة ، ومشيئتها تعتبر بمثابة قانون في كل المخيم .

قام فارس اليوم كالطفل المدلل بتسلية نفسه باطلاق النار من بندقية ولفرد قريبا من الخيمة ، وأخيرا اتخذ من بعض الماعز هدفا له ، فلم يعجب السيدة

(١) هي عمشة بنت عبد الله الحسين من قبيلة طي . وصفها ليارد عندما كانت امرأة شابة عام ١٨٤٣ .

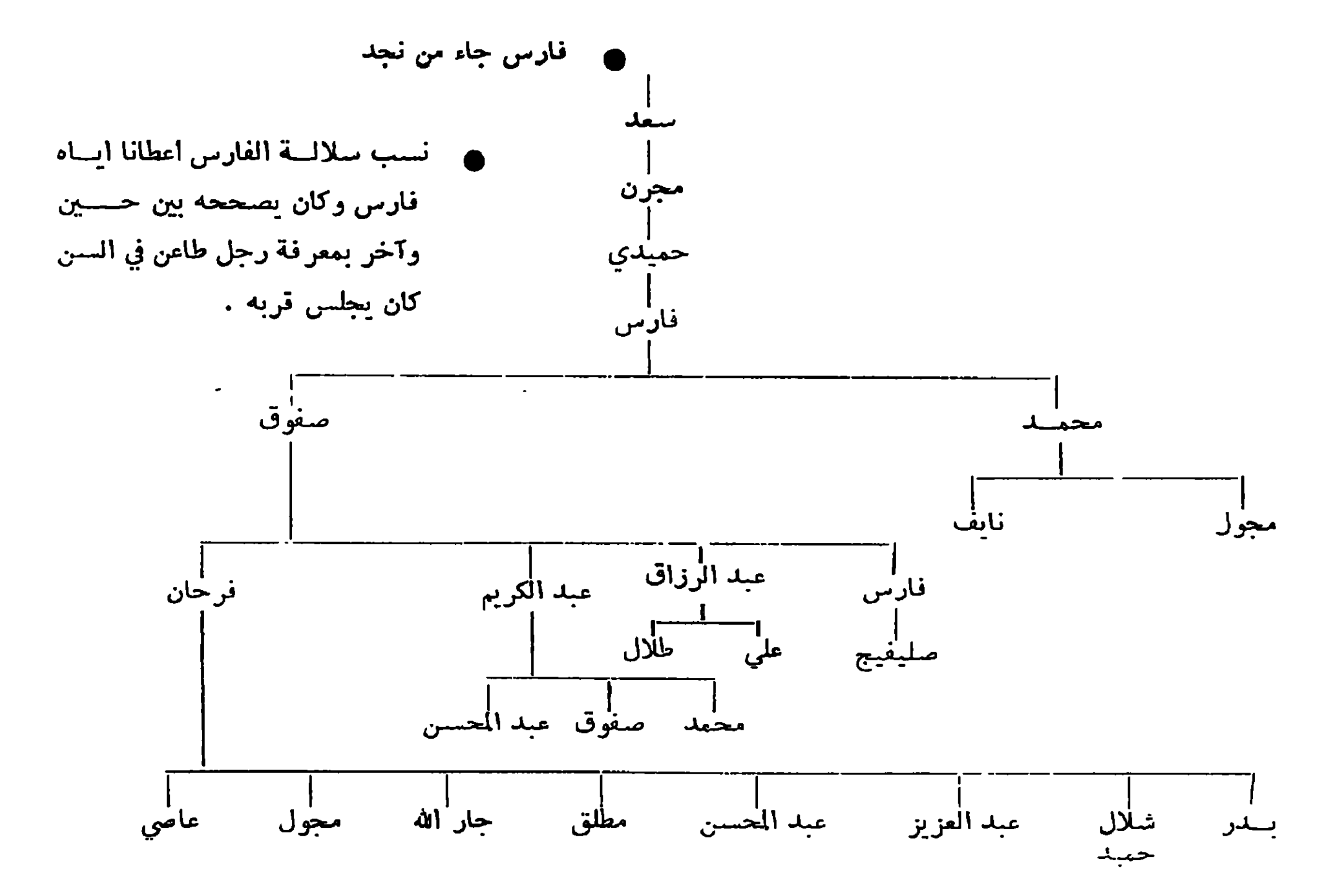
العجوز هذا التصرف الذي لا يليق بشيخ مثله فأرسلت من يخبره بذلك فما كان منه الا أن ترك البندقية في الحال وسار دون أن ينبس بكلمة ، أما داخل بيت فارس فالسيدة تحكم بشكل مطلق ولا نسمح لأي امــرأة أخرى أن تشاركها في السيطرة عليه • كان فارس متزوجا من فتاة من طي ، وتسكن في خيمة مجاورة • أما زوجته السابقة فمن أصل نبيل ، ولكنها توفيت تاركة ولدا جميلا عمره تسع سنوات يسمى « صليفيج » ضمته الخاتون الى محمد بن عبد الكريم الذي في العاشرة مــن عمره[1] ، وأخته منيمه في الثالثــة عشرة بالاضافة الى ولد جميل في الثانية عشرة من عمره يدعى طلالا كان ابن أخ لفارس مات من قبل • كان هؤلاء الصبية يحتلون مكانة خاصة في خيمة فارس، ويحبهم أكثر من أولاده لأنهم من الايتام ؛ وهم اليوم جميعا يربون تربية مهذبة جدا ؛ ويتصرفون بأخلاق عالية في صراحة وشجاعة لا يماثلهم فيها أحد مــن الفتيان في العالم • ولم أر في حياتي منظرا أجمل من طلال وهو يمتطي فرسه الكميت في اليوم التالي لوصولنا.ويتسلح برمح أطول منه بمقدار ثلاث مرات. وكان يؤدي أناشيد حربية مع عمه وعشرين من الخدم المخلصين ، وفي وقت كان فيه الجميع يعجبون بشجاعة طلال ، بدأ الخوف يسيطر ودعوا الله لكي يحفظ طلالا من الاذى ، غير أن الولد لم يكن يفكر بشيء من هذا الخطر الذي يحدق به وبالاخرين ، وأخذ يمارس بجواده الكر والفر حاملا رمحا ذات رأس فولاذية على ظهره طولها ستة « انشات » ، وكثيرا ما كان يكر على عمه ويمر بجانبنا متحديا ، ويتظاهر بمهاجمتنا وفقا لأعراف الفروسية ، ثم ينطلق مبتعدا كالسهم برفقة عمه الفارس الشجاع الماهر ، ويعود ثانية من خلفنا يرعد ويزبد ورمحه يهتز فوق رأسه ، ثم يرجع ويستدير مستفيدا من خفة وزنه هاربا من جديد في مشهد جميل من مشاهد الفروسية •

كان طلال يأتي الى خيمتنا دائما لكي يتمعن البنادق والسكاكين والحلي

(١) محمد ومنيفة ابنا عبد الكريم الصفوق الذي شنقه الاتراك في الموصل . وطلال هو ابن عبد الرزاق الصفوق الذي قتله الاتراك عند القاء القبض على اخيه . وكان الشمريون يرون فيهم بقية الشجعان الذين ماتوا .

الاوربية التافهة الغربية التي نملكها ، ويتكلم معنا كطفل في مدرسة انكليزية معلنا عن وسائل تسلياته وعما يرغب تحقيقه من طموحات عندما يكبر بصراحة واضحة ... نظر اليوم الى قراب سيف ولفرد المزخرف الذي أعطاه اياه السيد « سكين » ليتوشحه في المناسبات الجليلة ، ومال الى الاعجاب به لأنه كان مطليا بالذهب ويشد بحزام جميل ، وعندما امتشقه وتحسس حافته وجدهـا كليلة فبدت على وجهه علائم الاشمئزاز ، وألقى به الى الارض ، وقال : انه لا يليق بالبك ، وقال لولفرد : تحسس سيفي ، ثم أرانا نصلا قديما حاد كموس الحلاقة في غمد مهلهل كان لوالده ويعجب به كثيرا . أما محمد فهو الولـد اللطيف الخجول على العكس من طلال لأنه أصغر منه ببعض السنين ، وكـان يركب جوادا صغيرا بينما صليفيج لا يزال في مرحلة الحضانـة .

والاولاد الثلاثة هم مهجة كل بدوي في المخيم ، لأن الرجال يحنون على الاطفال أمل المستقبل وهؤلاء أولاد شيوخهم ، والشمريون بشكل عام يبدون شعورا بالولاء لما يمكن أن نسميه العائلة المالكة ، فجد فارس هو الـذي قاد أجدادهم من نجد ، وفتح هذه الديار منذ مائتي عام ، ولم يجرؤ أي شخص لتحويل الولاء عن ذراريهم . ولهؤلاء الاطفال اعتبار مزدوج في أنفس الناس لأنهم أبناء الابطال وممثلوهم الوحيدون مع الشيخ الحالي ، ولأنهم من عائلة شيوخهم . كان عبد الكريم سليل هذه الاسرة وشيخها وبطل شمر الذي ألقى عليه الاتراك القبض وشنقوه مثل قطاع الطرق على جسر الموصل ، وهو مما يثير غضب شمر اليوم ويجعل دماءهم تغلي ونخص بالذكر الشمريين المستقلين الذين لا يعترفون بفرحان شيخا شرعيا للقبيلة ويحتقرون أتباعه في الجنوب . لأنه ابن امرأة بغدادية ولا يمت الى البدو بصلة بل كان مجرد فلاح وراع ... انها كلمات فارس التي تعبر عن الاشمئزاز مما يفعله فرحان أخوه أما أولاد فرحان فقد طعموا بدم كردي . كانت انطباعاتنا الاولى عن فارس ايجابية اذ بدا طلق المحيا معقولا ، وأصبح صديقا لولفرد أكثر من المعتاد ، ووثق بنا منـذ البداية ، وأخذ يشرح لنا علاقاته بفرحان وبالحكومة التركية كما لو كان مقتنعا بولائنا المطلق له ، ووصف لنا سياسته في البادية التي تتوقع له أن يلعب دورا


فارس جاء من نجد
سعد
مجرن
حميدي
فارس
نسب سلالة الفارس اعطانا اياه فارس وكان يصحصه بين حين وآخر بمعرفة رجل طاعن في السن كان يجلس قربه .
محمد
صفوق
مجول
نايف
فارس
عبد الرزاق
عبد الكريم
فرحان
صليفيج
علي
طلال
محمد
صفوق
عبد المحسن
بدر
شلال
حمد
عبد العزيز
عبد المحسن
مطلق
جار الله
مجول
عاصي

بارزاً فيها • وكم كنا نهتم بقصة موت أخيه بالطريقة المأساوية التي ذكرت،ومقتل أخيه الاخر عبد الرزاق • وهروب أمه الى نجد واقامتهم المؤقتة هناك • فعندما عاد فارس منذ ثلاث سنوات وجد الشمريين يعترفون بفرحان شيخا عليهم ، ووجد خارا بتهدد القبيلة بكاملها لتتحول على يد هذا البغدادي الذي قبل برتبة الباشا من أولئك الاتراك الذين شنقوا أخاه ، ووافق على أن يحرث قومه الارض مقابل مكافأة سنوية اضافية ، وأصبحوا مجرد فلاحين ورعية •

لهذه الاسباب هبطت الروح المعنوية العالية بين الشمريين،وجاء فارس اليوم ليرفعها وبظهوره عادت ذكرى الزعيم الذي فقد ، فانضم اليه نصف شمر الجزيرة تقريبا ، وهو لا يرضى بالترتيبات الجديدة التي أعدت لشمر •

لم يقم فرحان بأية محاولة نشطة للسيطرة على طموحات فارس لاحتلال مكانته التي كان يحافظ عليها في بغداد أكثر من تطلعاته الى البادية ، وربما لشعوره بمكانته التي لا ترقى الى مكانة أخيه في البادية الا أن فارسا كان يتذمر بمرارة من مكائد أولاد الباشا ـ عاصي ومجول ـ اللذين يحرصان دوما لتوريطه مع الحكومة التركية بالاغارة على قبائل الفلاحين على الفرات ، ثم يلقون اللوم على جماعة فارس ، وعلى الرغم من كون الطرفين لم يكونوا في حالة حرب فقد اصطدم فارس مع أولاد فرحان مرة أومرتين ، وفي احدى المعارك جرح مجول برمح عمه •

كان المعسكران على علاقات غير طيبة ولا يكلمان بعض ، والمنطقة غير المأهولة التي عبرناها بالامس كانت قد تركت من كلا الطرفين كمنطقة محرمة بين المعسكر الشمالي والمعسكر الجنوبي • في هذا اليوم علمنا أن فارسا سيتخلى عن مجالستنا لحاجته الماسة الى القيام بحملة لتأديب أبناء أخيه ، لأنهم هاجموا تاجرا من الموصل كان يسافر بطريقة مشروعة في المنطقة فسلبوا أغنامه وجماله ، ولهذا فالمعسكر في شغل شاغل ، والفرسان ينعلون خيلهم تحسبا للغزو في خيمة الشيخ لأن البيطار الوحيد يسكن هناك ، ولم يهدأ القوم الا بوصول رسول يقول : ان الماشية التي سرقت قد أعيدت ، أما مجول فقد رجع الى دياره ولهذا نقول : ان فارسا لن يذهب عنا بعيدا •

عن علاقته مع الاتراك تكلم فارس كثيرا فهو منذ أن قتل أخواه لم يدخل بلدة ولا يثق بأي سلطة تركية على الرغم من أن الباشا حسينا كان قد أرسل ـ بناء على نصيحتنا ـ في الشهر الماضي دعوة مؤدبة لفارس يدعوه فيها لزيارة الدير ، وسيقدم له معونة ودعما حكوميا اذا ما رغب بالمحافظة على الامن والنظام في الجزيرة مساعدة للحكومة التركية • ولم يفوت فارس الشاب البائع هذه الفرصة ، وكان مبهورا باهتمام الحكومة به ـ لأن النفوذ في المدينة كانت له جاذبية قوية في ذهن البدوي ـ وذهب الى الدير واستقبله الوالي بكل ترحاب وهو الرجل اللبق الكبير الحكيم الذي يتعاطف مع سكان المنطقة خلافا للاتراك ، واتفق مع فارس على أن يحفظ الاخير النظام في البادية مقابل مبلغ معين من المال يدفع له شهريا •

ان مثل هذا الاتفاق كان شائعا في المنطقة ، وعلى فارس أن ينتظر دعم الباشا حسين وتأييده في شجاره مع أبناء فرحان •

أسفنا لسماع مثل هذه الروايات على الرغم من كونها خطة ممتازة لحفظ الامن ، لأننا نعلم أن فائدتها ستكون زهيدة بالنسبة لفارس . ومثل هذه الاتفاقات ستنعكس على البدو ، فكلما كانوا بعيدا عن الباشوات والحكام كلما كانت قراراتهم أكثر استقلالية • وعلينا أن نقول أن صراحة فارس وبساطته لن تجاري دبلوماسية حسين وحنكته وعليه أن لا يضع نفسه بين يدي عدوه في بيته • واذا ما كانت نوايا حسين باشا جيدة وحسنة فقد يجد نفسه مجبرا في يوم من الايام على القاء القبض على أخي عبد الكريم . ومكانه فارس كضيف على « السراي » عندها لن تشفع له • نحن مسرورون لأن نرى الرجال الكبار في القبيلة ـ الذين يولونه اهتماما كابنائهم ـ يشاطروننا هذا الرأي. وسروا عندما شرحنا لفارس مخاطر ذهابه الى الدير ثانية ، وطالما أنه لا يمتلك بيتا في المدينة وأهله وقومه في البادية عليه أن يتذكر المصير الذي لاقاه ابن مرشده

على الرغم من احتجاجات حسين الى السلطات العثمانية علمنا بأن المال المقرر لم يدفع لفارس رغم ضآلته ويبدو أن فارسا مارس دور الدركي بدون

مقابل « بلاش » ، الا أن البدو كالاطفال في حبهم للقطع الفضية وربما يتابعون العمل من أجل الحصول على مجيديات أكثر ... انه أمل خادع لا يتناسب مع حجم ما يقدمونه . وبالتأكيد لو أن الباشا كان قد أرسل ألف نعجة الى فارس لما تحرك الاخير لاستقبالها ولكن مائة ليرة تركية شيء آخر.ويختلف تماما عن الماشية وله تأثيره السحري كتأثير قطعة نقدية من فئة الاربعة بنسات التي تدفع للاطفال ترضية عند قلع سن أحدهم . وكان لا يبقي المال عندما يحصل عليه حتى ليوم واحد ، ولكنه يوزعه على من حوله كما وزع عباءاتنا وأحذيتنا . ولكنه سيجد متعة كبيرة في الحصول على هذا المبلغ . قدم ولفرد مزيدا من النصح بهذا الشأن فتقبلها منه بروح عالية وقال : أنت كأبي وتطلع على الامور أكثر مني .

على كل حال من المستحيل على المرء أن لا يكون مغرما بهذه الشخصية الجذابة . واذا ما وصفته أقول : ان فارسا كان صغير الحجم كما هو الحال عند البدو الحقيقين ، ولكنه مثال للقوة والنشاط والتمتع بالنعمة . فعلى ظهور الخيل لايوجد أحد في القبيلة يستطيع مجاراته أو اللحاق به،ويصبح مدهشا عندما ينطلق بمهرته كالسهم ورمحه يتأرجح فوق رأسه حتى تظن بأنه يحمل رمحين، وعندها يصبح من السهل فهمنا لما يقوله أبناء قبيلته عنه : ان وجوده في الغزو يعادل وجود ثلاثين من الفرسان وبالاضافة الى لياقته البدنية كان حسن المنظر بملامح عربية أصيلة ، فبشرته سمراء زيتونية أغمق لونا من بشرة الاسبان : معقوف الانف حواجبه سوداء تلتقي عند الجبهة . وعيناه مهدبتان بأهداب طويلة سوداء ، وابتسامته جذابة لا يمكن للمرء أن يرى مثلها، واذا كان هناك من عيب في وجهه فهو الضعف الواضح في تصميم المنطقة تحت الحنك ... كنت أخشى عليه نهاية مأساوية تماثل مأساة أخيه نتيجة لعناده ومشاكسته .

ان المشاهد لفارس يقدر عمره في السنة السابعة والعشرين ، ولكنه يبدو أصغر من ذلك . وفي بعض الاحيان يتعرض لنوبات صبيانية لا تليق بمكانته على الرغم من أنه في كل الاحوال يستطيع فرض احترامه على كل الناس . أما أخلاقه ومعاملته لأبناء قبيلته كان يحسد عليها . اذ يحترم الطاعنين في السن

ذوي التأثير القوي عليه ولا يتظاهر بالتعالي على أقرانــه ، الا أن قدراتــه الشخصية دوما تجعله مألوفا بينهم دون أن يفقد مــن كرامته الشخصية ؛ وبشكل عام كان قومه يحبونه الى درجة العبادة ، ويفتخرون به فارسا ورجلا يعتبر أفضل فارس في الجزيرة .

في اليوم الخامس عشر ، أي بعد وصولنا بيوم واحد تخلى رجال فارس عن فكرة الغزو ؛ ولهذا خرجنا جماعة الى أرض جديدة تصلح لنصب الخيام على ضفاف الخابور حيث العشب الوافر والبابونج للاغنــام والجمال . وفي هذه المناسبة نفذت « العرضة[1] » على شرفنا ، فقام طلال بعرض ممتاز وأداء جيد على فرسه الكميت الكستنائية . أما فرس عمه فارس فكانت طويلة من سلالة : شويمة سباح قوية الكتف عريضة الخصر، عدت بأرجل قوية كالحديد. جزؤها الخلفي كان في غاية الجودة ، ولكنها بشكل عام ليست جميلة المنظر . وفي الحقيقة لم نشاهد أكثر من ثلاثة خيول كانت في منظر جميل خلال رحلتنا عبر الجزيرة كلها ، والفرس الجميلة التي سررت برؤيتها كانت من سلالــة السعدة ... رمادية اللون تعود ملكيتها لأحد رجال فارس ، عمرها أربــع سنوات ، ويبلغ ارتفاعها خمس عشرة قبضة ، الا أنني لم أشاهد أي دم خايط في خيول شمر كما يقول بعض الناس ، فالخيول هنا تبدو أصيلة تماما ، واذا ما أخذنا الرأس كدليل على الاصالة فاني أعيب على خيل شمر الشكل والجمال؛ الا أنه بشكل عام نقول : ان أفضل السلالات نجدها بين أيدي شمر . في فترة الظهيرة أخذ ولفرد الشيخ فارس في رحلة صيد وحدهما ، لأن فارسا يرغب أن يرى كيف تصاد الطيور وهي طائرة ، فأبدى سرورا طفوليا لرؤية البندقية وهي تقدح ، وكان يصوب بدقة بالغة الى غراب على بعد مائة ياردة ويطلق طلقة ويطلق على طيور أخرى بمرح وربما يطلق على ذعرة[2] صغيرة تحط على غصن من الطرفاء أمامه.. كان عملا طائشا خطيرا ولحسن الحظ لم يقع حادث. اصطاد ولفرد دراجا سقط في النهر وفي لمح البصر خلع فارس ثيابه وقفز الى

---

(١) العرضة رقصة الحرب وتقاليد الفروسية .

(٢) عصفورة صغيرة .

النهر .. ونهر الخابور نهر عميق المجرى ، وماؤه قوي الاندفاع ، ومنحدرات ضفافه طينية ، ولهذا عانى صديقه ولفرد من صعوبة تناول يده من الماء ثانية في وقت كان الماء في النهر على درجة عالية من البرودة ، ولكن فارسا خرج منتصرا مسرورا بالطائر ، وكان شيئا ممتعا أن ترى الشيخ القوي الذي تعتبر كلمته قانونا في الجزيرة مبتهجا كالطفل بمغامراته ، الا أنني كنت أحبه وأحترمه وأجعل ذلك فوق كل اعتبار . ان تلك القصة الصغيرة ومساعدة ولفرد التي قدمها له عندما أخرجه من الماء جعلت من الرجلين صديقين بشكل سريع ، ففي هذا المساء وبينما كنا نجلس نتسامر في خيمتنا حول مشاكله وآماله ومشاريعه المستقبلية وسروره بزيارتنا له قال : انه وولفرد يجب أن يكونا أخوين اليوم وغدا وفي كل حين ، فاستجاب ولفرد وكلانا شعر بعاطفة حقيقية نحوه — وتمت صداقتنا له بشكل عفوي — . ومن دون مناقشة اتفق الطرفان على قسم الاخوة والولاء ، وقال ولفرد خلقت مجردا من الاخوة وحيدا في هذه الحياة ، غير أن أصدقائي كانوا هم عزائي الكبير ، وأعلن بأنه سيصبح أخا لفارس بقية عمره . أمسك كل واحد منهما بحزام الاخر بيده اليسرى ، ورفع كل منهما يده اليمنى وبديا كما لو كانا يدعوان الله ، وردد كل منهما العهد بشكل جدي — وهو عهد لا يستخف به البدو مطلقا — بدأ فارس يقول: والله والله ويجيب ولفرد والله والله. وكررا هذا القسم حوالي عشرين مرة ثم بالله بالله .. تالله تالله اخوان اخوان اليوم وبكرة ، وبعدين اخوان . كان قسما مؤثرا كالذي تؤديه في مراسيم الزواج عندنا ، ويعتبر ملزما لمن يحلفه ، وهو قسم بالاخوة لا يمكن حله أو الرجوع عنه ، ويصبح المتآخيان بموجبه كما لو كانا من أم واحدة ، ولهم حقوق الاخوة يستثنى من ذلك حق زواج الواحد من قريبات الثاني . أما العراك والتخاصم فغير مسموح به حتى وان كانت قبيلتا الطرفين في حالة حرب، وحتى ملكية الاخ تعتبر محرمة عليه وعلى جميع قومه،وللمقسم الحق بمساعدة الاخر في حالة العوز ، واذا ما استغاث الاخ بأخيه فعلى الاخ أن ينتقم ويثأر لشجار أخيه ، كان حفل القسم مؤثرا جدا ، وبعد دقائق من الصمت نهض

فارس متذكرا شيئا ونادى على ملا[1] — كان سكرتيره الخاص — في الخيمة المجاورة وجعله يثمن صلاحية النص والاقرار له بما حدث • علما أن القرار يحتاج الى شاهدين ليصبح النص ملزما الا أن ما حدث كان كافيا ، فجاء الملا ووضع يده على رأسه وقال بهدوء • البك الآن هو واحد من قومنا ودعه يأتي الى خيمتنا ، ثم ذهب لينقل الخبر الى عائلة الشيخ وحاشيته • وعندما دخل ولفرد انتصب الناس قياما ، وقدم كبير القوم خطابا مختصرا وقال : ان هذه الخيمة وعموم خيام شمر هي خيامه وابلهم ابله •• فقال فارس : يا ولفرد يجب أن تبقى معنا فقومنا سيضعون لك خيمة كخيامنا ، وسوف نعطيك جمالا وستعيش معنا ولا نفضل أن تسافر بعيدا الى بلدك • أخبرني ولفرد بكل ما حدث واستطيع تصديق ذلك • وكم كنت متأثرة وبكل تأكيد ان فارسا سيعامل ولفرد كأخيه على الرغم من أنه سيكون يوما ما بعيدا عنه ، وغير قادر على أن يناديه ليثبت صحة قسمه •

في السابع عشر من آذار أخذت علاقتنا مع شمر تتطور وتختلف عن السابق • فبعد أن كانوا يعاملوننا بشكل رسمي ، أصبحوا يظهرون لنا عاطفة كبيرة • فالخاتون عمشة أرسلت في طلبي وقبلتني ، وقالت : انها الآن بمثابة والدتي ، وسألت فيما اذا كنا نعاني من أية مشكلة ، وقالت : ان ولدها على استعداد لتقديم المساعدة التي نريدها • وهذه حقيقة وليست مجرد كلمات فارغة جوفاء فنحن في حماية شمر فارس بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى •

كان فارس أيضا يعاملنا بطريقة خاصة ، فهو قبل التآخي كان يرفض دعواتنا ليأكل أو يشرب في خيمتنا لأنه يعتبرنا ضيوفه ، وكان دائما يكتفي بالوقوف عند باب الخيمة بدلا من الدخول اليها ، فأرسل ولفرد رسالة مع حنا ليدعوه الى طعامنا ففعل وقدمنا له أفضل الطعام بنكهة الكاري[2] والبرغل والحلويات ، وجعلناه يجلس بيننا وسكبنا في قهوته كيلة اضافية من السكر الذي يحبه — لأن البدو يحبون السكر كثيرا — •• كان العشاء ناجحا جدا ،

(١) رجل متعلم كانت له مهام دينية وتعليمية .

(٢) صنف من التوابل .

ووعد أن يأكل عندنا ثانية وكنت أخشى أن تترك ديارهم ويعود الى طعامه البدوي الخشن في خيمته • انني آمل أن يتذكر فارس أخته وأخاه طوال الزمن الذي نعيشه ، وبالمقدار الذي سنذكره به • كان يقيم في مضافة فارس أهله وحاشيته مع ضيفين يقيمان بشكل دائم ، أولهما : رشيد بن علي الذي ذكره بالغريف، وابن علي هو العضو الوحيد من العائلة الحاكمة القديمة لشيوخ شمر الذي هرب ونجا من المذبحة التي دبرها ابن سعود لبيت علي • كان رجلا في الخامسة والخمسين أو الستين من العمر ببشرته السمراء وبمحيا عربي جميل ، الا أنه كان يلف وجهه طوال الوقت ولا يمكن تمييزه عن البدو الاخرين في هذا المكان • وعندما تعرفنا عليه جيدا أدركنا أنه رجل أصيل ، وعلمنا بأنه من حكماء العرب ــ كما قال العجوز داثان ــ الذين يعرفون منطقة نجد وجبل شمر ، وهو على علاقة غير ودية مع ابن رشيد لأن الاخير قد قتل أربعين رجلا من أقربائه، وهكذا حظونا بهذا الرجل وحصلنا منه على معلومات ممتعة كثيرة• سألناه ولفرد بدقة عن خيول نجد ، وقام الرجل بالتأكيد على ما قاله سيير وداثان بأنه لا توجد سلالة من خيول نجد الا ويسمع بها في حائل ، ولا توجد خيول في وسط الجزيرة العربية الا خيول البدو المعروفة السلالة ، والتي نجدها بمواصفات متماثلة في أي مكان هناك وقال : لا توجد خيول خاصة في جوار الرياض ــ البلد القليل المراعي ــ وفي الاجزاء الاخرى من ديار العرب لن نجد أفضل من خيول العنزة ، ثم كرر القول : ان ابن رشيد كان يحصل على كل خيوله من البدو ، وعلى الغالب من العنزة ، وان ابن سعود يحصل على ما يريده من الخيول من ابن رشيد ، الا أن الامام الحالي ليس غنيا مثل والده فيصل ، ولا يملك كثيرا من الخيول ، ولا يملك الناس في الرياض خيولا تذكر• وختم قوله بالاعتراف بجودة خيول السبعة والفدعان ، وعموم العنزة في الجزيرة العربية •

وصف ابن علي جبل شمر بأنه مجموعة من الهضاب التي تتطاول بارتفاع أعلى من جبل سنجار ولكنه لم يتحدث عن ثلج يغطيها ، وقال : في حائل ألف بيت مبنية من الحجر وخارج العمران عشرون ألف خيمة ، وقليل منهم من شمر

ابن رشيد نفسه ، وذكر واحدا أو اثنين من الاوربيين الذين زاروا حائـل في السنة الماضية ، الا أن ابن رشيد لم يستقبلهم ، ولكن لا خطورة من زيارة جبل شمر على الرغم من أن ابن رشيد لا يحب الغرباء ولا يتحدث معهم • وقال رشيد بن علي : اذا ما رغبتم بالذهاب الى هناك فأنا على استعداد للذهاب معكم وقال انه عائد الى هناك في غضون شهر ويستطيع استضافتنا في حائل اذا ما رغبنا في ذلك ، وسيعود على الطريق الذي جاء منه مرورا بالحسينية أو مشهد علي وأعطى مخططا لخطوات الرحلة كان على الشكل التالي :

١ ــ من الحسينية الى جريمان يوم واحد
٢ ــ من جريمان الى حسيب يوم واحد
٣ ــ من حسيب الى شيباشي يوم واحد
٤ ــ من شيباشي الى شبرم يوم واحد
٥ ــ من شبرم الى بريجة يوم واحد
٦ ــ من بريجة الى خضرة يوم ونصف اليوم
٧ ــ من خضرة الى ترابا يومان
٨ ــ من ترابا الى بقعا يوم واحد
٩ ــ من بقعا الى حائل[1] يوم واحد •

وقال توجد في جبل شمر قبائل بدوية ثلاث هي الدوبان وجماعـة ابن هايت والفرم وفي المناطق الغربية منها توجد قبائل الشرارات •

أصغيت الى حديث رشيد بن علي باهتمام ، وبودي قبول دعوته لزيارة حائل ، الا أننا لم نكن من الرحالة المحترفين ، بالاضافة الى قدوم الصيف الى الجزيرة العربية • وظروفه لا تسمح لنا بالتفكير برحلة كهذه •

أما الشخص الاخر الذي كنت أشاهده في مضافة فارس كان « ماطو » شيخ « السموكا » القرية الهامة في جبل سنجار • وبطبيعة الحال هو مـن اليزيدية ، ويقيم هنا للتشاور مع فارس بشأن شجار وقع بين جماعته وأهـل

---

(١) مدينة حائل يلفظها بدو شمر « حايل »•

قرية سكينة[1] • وأظنه جاء يطلب المساعدة من فارس • كان ماطو كردي الاصل ، ويختلف في ملامحه عن العرب ، بالاضافة الى خصوصيات لباسه ، وباعتبار أنه من رؤساء اليزيدية فهو يلبس غطاء أسود فوق رأسه ، ولاحظنا بأن قميصه قد قص حول العنق على شكل مربع بدلا من الشكل الدائري ، وهذه ـ كما سمعنا ـ علامة تميز بين اليزيدية والعرب ، والفارق الكبير يقع في معتقده لأن اليزيدية يعبدون الشيطان بدلا من الله ، الا أن تقاليدهم في اللباس كانوا يتمسكون بها أكثر من مفردات دينهم ••• حدثنا هذا الرجل كثيرا عن دينه ، وكان شرحه أكبر من قدرتنا على فهمه ، فهو يرفض بالطبع عبادة الشيطان، وحسب قوله ان اليزيدية يؤمنون برب واحد ونبي كبير واحد، بالاضافة الى الانبياء الاقل منه مرتبة ، وجميع اليزيدية يعترفون بحسين بك ـ الزعيم الروحي لاحدى قبائلهم في سنجار ـ زعيما روحيا للديانة اليزيدية • ومن شروح ماطو قوله : ان الملك طاووس هو نبينا ، وهو بالنسبة لنا بمثابة عيسى عندكم ، وحسين بك عندنا بمثابة البابا عندكم ولدينا كتابان دينيان : أحدهما زبور داود ، والثاني انجيل عيسى ، فالاول مقبول عند كل اليزيدية والاخير يقبله بعضهم بجانب الكتاب الاول،ويجلون الشمس مثل الزرادشتيين، وليس لديهم حصر بالنسبة لعدد الزوجات ، ولكنهم يتزوجون عادة أربع نساء. اما الرجل الغني فلهأن يتزوج كثيرا من النساء ، ويأكلون حمار الوحش الذي يكثر في ديارهم ، ولا يأكلون الحمار الاهلي ولا الخنزير •

هناك أربع وعشرون قرية في الجبل فيها حوالي ألفا منزل مبنية من الحجارة وبعضها من الخيام • وأعطاني الرجل أسماء ثمانية من الينابيع والعيون في الهضاب هي . ارة وسكينة التي كانتا تجريان حتى سبخة سنيسلة.والجدالة والقيارة والبلعد والشنقال والصلاحية التي تمتد حتى وادي الثرثار والخرصي• كان اليزيدية يزرعون بساتين الفاكهة كالتين والرمان والفواكه الاخرى ، ولكنهم لا يزرعون النخيل •

---

(١) السموكا وسكينة من قرى سنجار .

جاء ماطو هذا الصباح ليودعنا بعد أن جاءته أخبار سارة من أهله • فقلنا لـه : أيـة أخبار ؟ قال أجل أخبار سارة ، فقد هاجم أهل سكينة بلدتـه فتصدى لهم آخوه وقتل اثنين من رجالهم وغنم سلاحهم وخيولهم ، فوعده فارس بارسال مجموعة من الفرسان معه ، وتوقع متابعة حربه مع السكينيين بنشاط ، ورغب بذهاب البك معه برفقة سلاحه ، فكان العرض مغريا جدا لأن السموكا لا تبعد عن مكاتنا أكثر من ستين ميلا ، الا أننا لا نعرف عدد اليزيدية فهل هم قلة أم كثرة ؟! ودياناتهم ممتعة ، وعاينا أن نقبلها ، ولكن بعد دراسة مع السيد « سكين »• انطلق ماطو بخمسين من رجال فارس ، وطلال واحد منهم ، كنت أشبهه بضابط صف صغير في البحرية يقود مركبة بافتخار • ابتهجنا لتوديعه غير أنه لم يكن يصغي لأي شيء غير الحرب •

كانت لدي ولفرد مدية جيب كان ينوي اعطاءها لطلال فيما مضى ، وقد أعجبته ، فحان الوقت لتقديمها له ، الا أن الصغير كان مشغولا بأمور مهمة، وترك كل الامور الصبيانية ، وأخذ ينظر الى رأس رمحه ليرى فيما اذا كان حادا ، ويتفحص سرج جواده ليتأكد من حزمه جيدا • ولا يمكن لأحد أن يلهيه عن الحرب ، تناول السكين وأعطاها لخادم عجوز ليحفظها له حتى عودته ومن دون مراسيم للتوديع قفز على ظهر فرسه يحيط به الخدم الكبار ، وهم يسدون النصائح اليه ، وانطلق بعيدا عن المكان ليجمع الخوة من جماعة في سنجار ؛ وهو في طريق العودة وان رفضت عليه أن يجمعها بالقوة بمساعدة رجالـه الخمسين •• لم يكن عمر طلال أكبر من اثني عشر عاما ولكني كنت متأكـدة أنه سيعود بالغنيمة •

في الثامن عشر من آذار ازددنا قلقا ، لأننا بانتظار أخبار هامة عن السيد « سكين » الذي اتفقنا معه على الالتقاء في الخامس عشر من آذار في الدير ، ولهذا كان يرغب بالوصول الى الدير قبل يوم أو يومين من الموعد المحدد ، ليتصل بنا عندما تسنح له الفرصة في مخيم فارس • لقد تأخرنا يومين عـن الموعد المذكور ، ونحتاج الى يومين آخرين لنصل الى الدير •• اننا على علم بأنه سيسمح لنا بالسفر من أجل مواعيدنا التي لا نحب أن نخلف فيها آخذين

بعين الاعتبارمشاق السفر الذي نروم القيام به ، الا أنه ليس بمقدورنا أن نظهر بمظهر غير لطيف مع مضيفنا وصديقنا وأخينا الجديد فارس ، ونريد أن نقترح عليه موضوع سفرنا بدون عذر مرتب • وعلى كل حال وصلتنا أخبار من بعض الموسيقيين المتجوابين[1] عن قرب وصول شخصية رفيعة المستوى من حلب الى الدير ، ولهذا فلم نتردد في ذكر رغبتنا للرحيل على الرغم من أسف فارس لمغادرتنا اياه بهذه السرعة ••• أصغى الرجل لكل ما كان علينا قوله بطريقة لطيفة جدا ومعقولة • وعندما اقتنع بحتمية سفرنا فعل كل ماباستطاعته لتسهيل سفرنا • على الرغم من المقابلة الودية التي تمت في الدير بين فارس وحسين باشا • فلا أحد من قوم فارس يستطيع أن يظهر في الدير خوفا على نفسه من الخطر الا الملا الذي كانت شخصيته الدينية تضفي عليه سلوكا آمنا ، ولهذا أعلن اسم الملا مرافقا لنا ، ولينجز بعض الاعمال لسيده في المدينة بآن واحد •

كان الملا موظفا هاما لانجاز بعض المهام غير الدينية — ليس عند البدو واجبات دينية تذكر — لأنه الرجل الوحيد الذي يتمتع بثقافة أولية ، ويستفاد منه في قراءة وكتابة رسائل المعسكر ، ويتابع المفاوضات الدبلوماسية بين الشيخ وجيرانه ، وتلك مهمة صعبة في مضافة شيخ كبير كانت تجعله دائم العمل والنشاط • وباعتبار أن فارسا أصبح من اخوتنا فلم تعد تخفى عنا الاسرار • ومن هذه الاسرار المفاوضات التي قام بها فارس مع حسين باشا ، وتوجب دفع الدين الذي ألزم به حسين نفسه لقاء الخدمات التي قدمها فارس • وعلى الملا أن يذهب الى الدير في شخصية الممثل الوحيد لفارس ، وليطالب الباشا بالحاح لاستيفاء الدين • وتبين أن المبلغ المطلوب لم يكن يتجاوز الستين ليرة ؛ ولكن المال يعتبر شحيحا في مضارب شمر • وبدأ الناس يتحدثون بصخب عن نصيبهم من المجيديات ، وليس لأحد منهم أن يطالب فارسا بتفسير ما حدث ، ولكنهم كانوا يعتبرونها بمثابة اهانة لشيخهم وهو يستجدي الحق ، واهانة لهم بعد أن أدوا الخدمات للباشا مقابل لا شيء، ويقولون لقد كنا هنا ولشهر

(1) اما انهم كانوا من الفجر « القرباط » أو من حملة الربابة الذين يقصدون مضارب الشيوخ لمدحهم باشعارهم الشعبية .

كامل نقوم بمهمة الدرك ، ونحافظ على الامن بدون مقابل • سألنا فارس عما يفعل ، فنصحناه اذا ما كان في حاجة ماسة للمال أن يزحف ويعسكر برجاله قرب الدير ، ويرسل الملا مفاوضا الى الباشا ، الا أنه لم يكن يرغب بافتعال أزمة مع حسين باشا ، وكان يفضل الطرق السلمية ، واقترح أن نقوم باقناع حسين لإنصافه ، وقال : كما ترون الحالة في ديارنا ، اذ لا يوجد لباس على ظهور النساء ، وقد نفذت القهوة والسكر في بيوتنا ، وقومي غاضبون ولن يطول بهم الامر بتحمل هذا الواقع على الرغم من أنني سأبذل قصارى جهدي لإبقائهم هادئين ، وربما في وقت قريب سينقضون على بعض فلاحي الباشا لتحقيق العدل وانصاف أنفسهم منه • ولكن عندها ستكون غلطة من ؟ وطلب منا أن نشرح للباشا بأن بعض الغارات الحالية التي شكا منها الفلاحون لم تكن من صنع رجال فارس ، بل كان سببها أبناء أخيه : مجول وعاصي فطلبنا منه أن يقسم بأن هذا هو ما حدث بالفعل فرفع يده وكرر القول والله •• والله وحتى بعد أن أقسم فنحن على ثقة من أن الباشا لن يصدقه • وكم كان بودنا لو أقر ببساطة دون أن يقسم ، ومن المؤسف أن تثار قضية كبيرة حول مثل هذا المبلغ التافه • سأله ولفرد فيما اذا كان باستطاعته الانتظار أو الاستغناء عن هذا المبلغ • فقال : ان في المخيم تاجرا مدينا له بعشر ليرات وقد جاء ليأخذها • وفعلا شاهدنا الرجل يتجول في المخيم ، بمظهر ذلك التاجر الكردي الذي لحق بنا عند مغادرتنا لمضارب سمير ، وقد أرسلنا من يستقصي عن عمله في وقت كنا نملك بعض المجيديات الزائدة عن حاجتنا لأن السفر هنا لا يكلف شيئا ، وكنا سعداء برد جزء من جميل الشيخ ، ولهذا عرضنا عليه أن يأخذ منا المبلغ الضروري ويوفي دينه كاملا الا أنه تردد طويلا ومانع قبل أن يقبل • وعشر ليرات ليست مبلغا كبيرا ، ولكنه كان شاكرا ووعد بأن يردها حالما تتوفر لديه ورغب بتقديم ايصال أمانة لولفرد ، الا أن ولفرد رفض ذلك وقال : انه أخ وليس بتاجر •• ان كلمات الشيخ كانت أفضل لنا من كل صك . وأخذنا نتساءل فيما اذا كان سيتذكر مثل هذا الدين البسيط !• وقد أعطى الملا أمرا بارجاع المبلغ لنا في حال حصوله على مال من الباشا ، فأجبنا فارسا بأن لا يزعج

نفسه بهذا الامر ، وسنأخذ المبلغ في السنة القادمة عندما نعود ان شاء الله الى الجزيرة ، ثم بكى ونحب لأنه لم يكن يملك مهرا ليعطينا اياه تذكارا للزيارة ؛ ولكنه وعد بأنه سيكون بانتظارنا في العام القادم ، ورفض أن يقبل البندقية أو المسدس على الرغم من محاولاتنا المتكررة لاقناعه بقبولها ، وقال لا ... انني سأكون أفضل عندما أسير على طريقة أجدادي في الحرب التي لا تستخدم بها الاسلحة النارية ، بالاضافة الى أنه كان لا يملك مهرة يقابل بها الهدية بهدية . قال هذه هي استطاعتي يا أحبة ؛ وسيقوم قومي بصنع الطوف الذي نحتاجه لعبور الخابور . وهم لا يقومون بمثل هذا العمل الا للباشا أو السلطان لأنه من أعمال الفلاحين ولا يليق هذا الا بالجبوري ويشرفهم أن يقوموا بهـذا اكراما لكما لأنكما منا .. من شمر . وقررنا أن يتم ذلك في اليوم التالـي وسيركبه الملا معنا قاصدا الدير .

في التاسع عشر من آذار غادرنا معسكر شمر في الساعة التاسعة ، وركب فارس معنا ومعه بعض قومه للمرافقة الى شاطىء النهر . وقام من بقي في المضارب بوداعنا الوداع الحسن،وردد الناس القول:قبيلتنا هي قبيلتكم وخيامنا خيامكم .عودوا إلينا حالا وسننصب لكم الخيام،وسنعطيكم الجمال والخيول، وستعيشون معنا في الشتاء وفي الصيف.سنخصص لكم دارا من الحجارة،تأوون اليها من الحر في الدير . أما شيخ جبل شمر رشيد بن علي صديق ولفرد فقد جاء مودعا بحرارة ، وجدد دعوته لزيارة حائل . ان نهر الخابور من روافد الفرات ، ويتطاول في مجراه الى كل البادية ، ويصعب اجتيازه لأنه بعرض ستين ياردة . عميق المجرى سريع الجريان ، الا أنه لم يكن ممتعا عندما أشرفنا عليه من تل الفدغمي المجاور ، لأنه يجري بين ضفتين عميقتين من التربة اللحقية تحيط به مساحات ضيقة من الشجيرات التي كانت تكسي عريه على كلا الجانبين ، وتناثرت هنا وهناك شجيرات الصفصاف التي كافحت لتطاول الاشجار في الارتفاع دون جدوى . وفي جذع احدى هذه الاشجار ربط حبل وشد بقوة الى الضفة الاخرى ليربط الى جذع احدى أشجار الطرفاء ، وبقي الحبل عائما في النهر ، وشاهدنا كذلك الطوف المتداعي والذي لا يثق أحد به وسيلة عبور

الساعات القليلة القادمة يرافقه زكي بك ابن حسين باشا • وسنحصل من المسافرين على آخر الاخبار القادمة من الشمال • وباعتبار أن السيد « سكين » من أصدقاء الوالي الجديد غمرنا الامل في أن يصل القنصل مع الركب القادم لأن قدومه كان ضمن الخطة المرسومة ، وكان عليه أن يتواجد لانتظارنا في الدير •• ولكن لماذا خذلنا القنصل؟ انه الامر المحير الذي لم نجد له تفسيرا حتى الآن !•

شغل حسين باشا في اليوم التالي مع الوالي الضيف ، فتركنا وحدنا مده طويلة من الزمن وعندما التقينا ثانية وجدناه فاقد الاعصاب ، وفسرنا ذلك على ضوء حالة الحرب المتردية مع الروس : ووضع الحصون المجردةمن الحماية على الحدود التركية ، والمؤمرات التي كانت تحاك في البادية من حوله • ومن البديهي أن اصرارنا على زيارة قبائل البدو ــ على الرغم من كل المصاعب والتحديرات ــ قد أثار الشكوك حولنا في نفس حسين • وأتوقع أن الرجل الطيب يتشاور مع زميله القادم حول الطريقة التي يجب أن يقنعنا بها لنعدل عما كنا نخطط له ، ففي المساء التالي لوصول الوالي استلمنا من الاخير رسالة مؤدبة يطلب فيها أن نمثل أمامه في دار الحكومة ، وهنا أخذنا نضرب أخماسا بأسداس • فلو كان الوالي رجلا من المدرسة التركية القديمة كعاكف باشا وبقية زملائه لكان ذلك لطمة قاسية لكل المشاريع التي نخطط لها ، لأن هالة من الشكوك تحيط بنا ، ولأن الرجلين الشرقيين يتشاوران معا ويتبادلان الرأي عن طريقة التعامل المجدية معنا • ونتيجة لمخاوفهما ربما يستجمعان الشجاعة لوضع حد نهائي وقاس لمغامراتنا في البادية ، وربما نرسل مخفورين الى حلب، فيما لو تذمرنا أو اشتكينا من المعاملة•ولكن لحسن الحظ كان الوالي الجديد رجلا من نوع يختلف عن أي رجل كنا قد شاهدناه حتى الآن في تركيا • ومن الاجحاف أن نصنفه في تعداد الرجال الشرقيين مطلقا ؛ لأنه أدرك حقيقة مواقفنا وعرف ماهيتنا ، فلم نعد في نظره أكثر من سياح ومتفرجين يدفعهم حب الاستطلاع والفرجة لارتياد المناطق المجهولة • وبحسن تمييزه أنقذنا من الورطة التي نحن فيها ••• انه قادرلي باشا التركي المتطبع بطباع الاوربيين

مع كومة من أمتعتنا وفارس معنا ، ولم نستطع الوقوف بل تدلت أقدامنا من حافة الطوف وتمسكنا ببعضنا لنحافظ على التوازن ، وعندما وصلنا الى منتصف النهر تعب الرجل العجوز ، وأفلت الحبل من يده فجرفنا التيار بعيدا دون أن يتمكن من ايقافه أو ارشاده ، وتوقعنا أن ننقلب في كل لحظة . وعندما شاهد الشمريون ما حدث قفزوا الى الماء بعد أن ابتعدنا حوالي خمسين ياردة فلحقوا بنا وأخذوا يرشدوننا الى الشاطىء ؛ وهناك وجدنا حنا يصفق ويذرف الدموع خوفا علينا ؛ فكان هذا الفعل مصدر متعة وتندر لفارس الذي لم يشاهد في حياته قط رجلا يبكي ويذرف الدموع من قبل ، فسرت عدوى المرح بين الجميع ، وكان كل شخص يتلهف للضحك وكان بطل هذه المسرحية المسكين عليا السمين الذي اضطرب وخاف في وسط النهر والجموع تضحك منه ، لأن البدانة كانت موضوع تندر عند البدو ؛ والبدوي كعادته نحيف كالسوط وينظر الى مثل هذه الحالة على أنها نوع من التشوه الجسمي .

حان الوقت لنستأذن فارسا بالمغادرة لأنه لم يعد بامكانه التقدم الى الامام ، لأن المنطقة ــ بين نهر الخابور والفرات ــ كانت مقاطعة تسيطر عليها الحكومة تساعدها القبائل المسالمة كالجبور والبقارة والقبائل الاخرى ... كانت لحظة الوداع مؤثرة على الرغم من أننا لم نقم طويلا في دياره . لقد كسبناه صديقا وقريبا ، ومن يعرف فقد نلتقي ثانية ! أعاد على أسماعنا ما يجب أن نقوله للباشا ، ونصح الملا ثانية أن يعتني بنا جدا . أتيحت الفرصة لولفرد ثانية بعرض البندقية على فارس ، وعلى الرغم من حبه لها فقد رفضها رفضا نهائيا لذلك وعدناه أن نرسل له بندقية من انكلترا ، وتابع ولفرد تقديم النصائح للاخ الجديد ومنها أن يبتعد عن المدن . فقد يكون حسين باشا رجلا شريفا وصديقا ، ولكنه يخدم وينفذ سياسة الاتراك الذين قتلوا أباه وأخويه من قبل، وقد يجدون في يوم من الايام مصلحة في قتله ، وقال له ابق في بيتك ولديك كل ما تريده في الجزيرة ، وما دمت فيها فأنت في مأمن ، واذا كان ولا بد من رؤية الباشوات دعهم يأتون اليك في البادية . فانضم الملا الذي كان يقف الى جانبنا وأيد ما نقوله بحرارة ، ووعدنا أن فارسا سيكون حكيما ، وهنا تعانق

ولفرد وفارس كما هي عادة الوداع عند البدو وتابعنا المسير في رحلتنا الجديدة الى الديـــر .

نصبنا الخيام الليلة في تلال الماعز[1] وبتنا نصغي الى نعيق البوم في بلدة مهجورة كانت على مقربة منا ونحن نفكر بالانطلاق الى الدير في صباح غد . فلا بد وأن يكون السيد « سكين » قد وصل الى هناك . لأن حنا قد سمع نبأ من الجبور . مفاده أن شخصية كبيرة بلحية بيضاء كانت قد وصلت الـــى الديـــر منـــذ أيام .

في العشرين من آذار تركنا حنا وعليا وبقية الركب يتبعوننا ، وعدونـــا بخيلنا مع الملا الى الدير ومن سفوح الهضاب التي مررنا بها الى ضفاف الفرات مررنا بسهل مستو لايقاطعه شيء ولا حجارة ولا حتى كومات العشب الخفيفة. كانت أرضا تصلح لسباق الخيل فقطعنا المسافة البالغة اثنين وأربعين ميلا في أقل من ست ساعات .

كانت الشمس مشتعلة ، تلفحنا بحرها طوال اليوم مثلما كانت تلفحنا في الاسبوع الماضي ، ولهذا فالخيول قد أنهكت لأنها لا تـــزال مجللة بمعاطف الشتاء ، ولا تزال تغذى على العشب فقط لأن مخزوننا من الذرة قد نفذ منذ زمن طويل . ومع ذلك لا نزال نتأخر كل خمس ساعات أو اربع ليلحق بنـــا الملا لأن جواده من الخيل البطيئة . ولا يستطيع مجاراتنا في العدو ، وكنا في هذا الوقت نترك خيولنا ترعى العشب ثم نتابع ثانية وهكذا ...

مررنا اليوم في طريقنا بخيام نعود للبقارة حيث حصلنا على الحليب واللبن ولم نتناول غير ذلك طوال اليوم حتى لا نعاني من ضربة شمس . وذات مرة مررنا بقطيع ضخم من الغزال فيه آلوف الغزلان كانت تتجـــه نحو النسمان ، فسقنا طريدتنا أمامنا ميلا أو ميلين . واقتربنا منها كثيرا . ولو كانت البندقية التي تركت مع الحقائب معنا لاصطادها ولفرد بدون شك . ثم وصلنا الى صيادين كانوا يلتقطون الكمأ فأخبرونا أن المدينة قريبة جدا وهي أمامنا تماما

---

(1) تلال كانت في الطريق .

بعد الهضبات المنخفضة المنعزلة الثلاث التي تحدد الاتجاه من تل الماعز الى الدير وتدعى جحيفات الوسطين وجحيفات الزورات وجحيفات الشامية والاخيرة كانت وراء النهر •

أصبحنا في شوق مستعر لمعرفة أخبار اوربا ، وبشوق للرسائل التي سيجلبها لنا السيد « سكين » معه من حلب ،لأنه لم تصلنا آية رسالة منذ ثلاثة أشهر . وبشوق لرؤية الشخص الذي سيقدر مغامراتنا ومتاعبنا والنجاحات التي حققناها ، ووصول القنصل أصبح ضرورة ملحة بالنسبة لنا ليشفع لنا عند السلطات . ولنصل الى حلول وسط معهم بسبب هروبنا من بغداد كما كنا نشتاق لمن نتحدث معه اللغة الاوربية مرة ثانية بعد أن كنا نتعثر جاهدين بتحدثنا مع الناس باللغة العربية • ان هذه الافكار جعلتنا نستمر بالعدو الى النهاية على الرغم من صعوبة اجتياز الخمسة أميال الباقية عبر الوادي المنخفض من نهر الفرات ؛ لأنها كانت محروثة ويصعب اجتيازها بالنسبة للخيل •

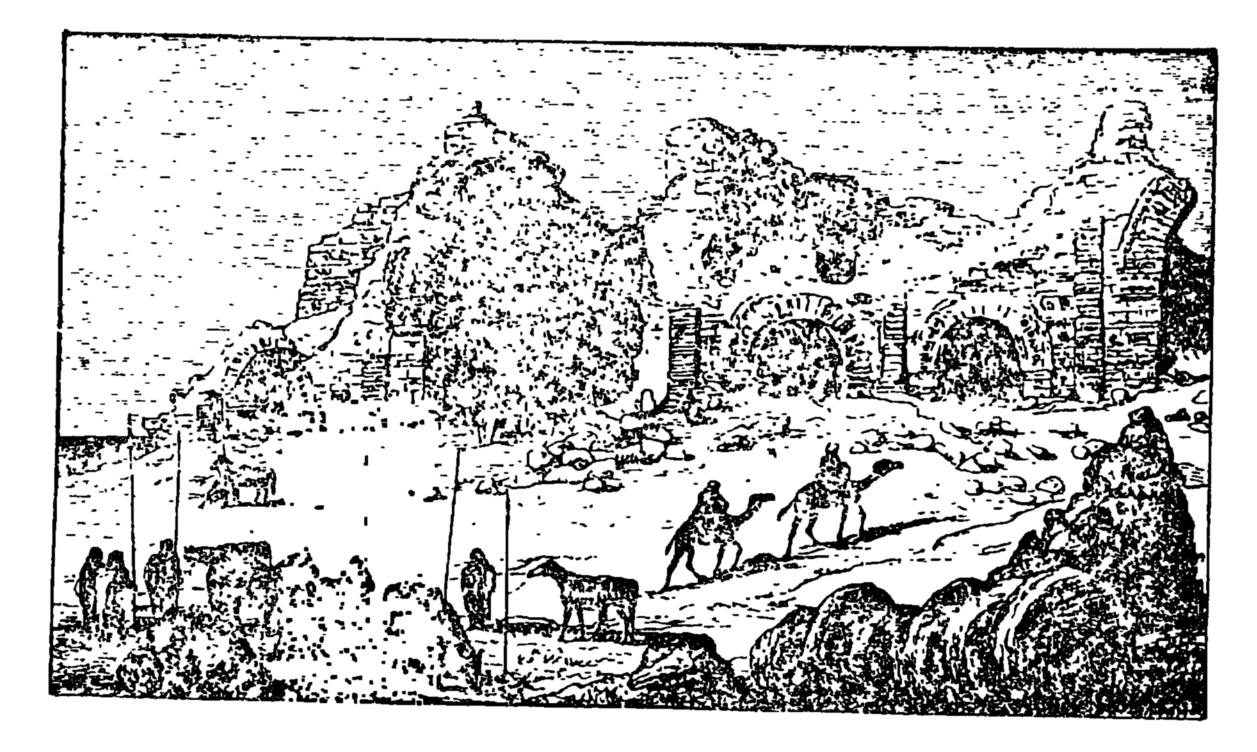
شككت بقدرة طرفاء على المضي ميلا آخر،فركبتها باتجاه النهر ، وتركتها تعب الماء حتى تشبع •• يا للحيوانة المسكينة ! لقد حملتني وأدت دورها خير الاداء •

كان الملا خارج السباق ، وتخلف كثيرا عنا على الرغم من وقوفنا مدة ساعتين قبالة العدية • ولم يسمع المعدي كل الصرخات التي آطلقناها من أجله، فكان هذا هو أصعب شوط من أشواط رحلتنا ، لأننا كنا نجلس على ضفة النهر من الساعة الواحدة الى الساعة الثالثة تحت وهج الشمس . مع اننا على يقين من ان غرفة باردة قد أعدت بانتظارنا في الدير وربما مدت على شرفنا مائدة طعام فاخرة ؛ ولا تبعدان عنا أكثر من نصف ميل ••• وما ان يمد السيد « سكين » رأسه من النافذة حتى يرانا هنا ، وعندها سيوقظ المعديين المغفلين من نومهم في منتصف النهار ليحررونا من اسر الوقوف عند النهر !•• كانت هذه مجرد تمنيات لم تحدث • عبرنا أخيرا بعد طول انتظار . وأسرعنا الى دار الحكومة . فوجدنا الباب مشرعا على مصراعيه والغرف التي تركناها كما هي

على حالها ، فاستقبلنا خدم الباشا بابتساماتهم المعروفة • يبدو أنهم لم يكونوا يتوقعون وصولنا ثانية ! فبادرناهم القول : أين البات — أي القنصل — فقالوا عاد البك الى حلب في اليوم نفسه الذي غادرتم به الدير منذ شهرين ولم يشاهد في الدير منذ ذلك الحين • وماذا عن الشخصية الكبيرة التي وصلت الى المدينة قالوا : ان الشخصية المرموقة هي فادرلي باشا الوالي الجديد لبغداد ، جاء مسافرا ليلتحق بعمله الجديد •

لقد قمنا برحلة طويلة نغذ السير ونعدو الى الدير ، الا أن السيد«سكين» لم يكن فيها • انها المفاجأة التي لم نكن نتوقعها •

* * *



لهو في الحضر

خارطة الانتشار القبلي في العراق والجزيرة وبلاد الشام

الفصل السادس عشر

« علي أن اقول : ان الانسان في ملابس سوداء يبدو كأنه اجمل بشر يعيش في العالــم »

● آرتيماس وارد

نواجه المصاعب مع صاحب الموت الشريف ـ يظن بنا من الجواسيس ـ قادرلي باشا ـ مبادئه السامية ـ تركيا بلاد الحرية ـ وعدنا بدوي من المهيد ليأخذنا الى جدعان •

تركنا بغداد دون أن نودع الوالي خلافا لآداب الزيارة • وبارتحالنا غير المأذون نكون قــد خرقنا القانون ، وهو ما سيوقعنا بمشاكل مــع السلطات التركية ، عندما نمثل بين أيديهم مرة ثانية • ولهذا فنحن في قلق بالغ عن طبيعة الاستقبال الذي نتوقعه من صديقنا القديم حسين باشا ، لأننا عدنا الى الدير ثانية • ومن المؤسف أن نعلم من الملا تفاصيل المهزلة التي مثلت أمامنا منــذ شهرين عندما كنا في وصاية الباشا أثناء رحلتنا غير المريحة الى الدير • كان الملا في الدير عند وصولنا اليها فرآنا ، وهو يعلم برغبتنا في زيارة زعيمه فارس • وفي احدى المرات كان ينتظرنا في ساحة دار الحكومة عندما مر به الباشا حسين. فأمره أن ينصرف بهدوء وهدده بغضب فيما لو رآه في هذا المكان . ولهذا فان زيارتنا الناجحة لفارس لن تكون أخبارها مفرحة بالنسبة لمضيفنا القديم • ودار الحكومة بدون وصاية القنصل لن تكون مريحة لنا بعد اليوم ، لأنهــا تغيرت في نظرنا من مكان آمن نحتمي به الى ما يشبه السجن • لقد توقعنــا وجوده في الدير الا أن غيابه أربك تعاملنا مع السلطات ،ولهذا كان لزاما علينا أن نتظاهر بالجرأة • فعندما ظهر حسين بعد وقت من وصولنا طلب منه ولفرد بصوت متهدج أن يقدم لنا التهاني لنجاح مغامرتنا ، لأننا رأينا كل شيء في الجزيرة على ما يرام • فأبناء فرحان وسمير وفارس كانوا من كرام الناس ،

والبادية وجدناها كجنة عدن • وكل قصص الغزو كانت هراء • والمنطقة آمنة لكل المسافرين كأي جزء من الامبراطورية أو من أوربا نفسها • وأبدى ولفرد تأسفه لأن سعادة الباشا لم يكن قادرا على مشاركتنا الرحلة ، ولو فعل لوجد السرور العظيم والمتعــة • وأخذ يلوم الباشا ويردد كلمات التعجب : واه ، واه ، واه : بدا ولفرد مسرورا على الرغم من شعورنا بالذنب • فأجاب الباشا بتعبير غريب يدل على عدم الرضا الكامن في نفسه : كل ما انتهى الى خير فهو خير • وفرح لأنه لم يقع لنا حادث ، لأن البادية باعتقاده هي منطقة خطرة ، والبدو لا يمكن أن يوثق بهم بشكل دائم • وعلى كل حال عدنا بسلام ، وهو الشيء الاهم • ووعد أن يبذل ما بوسعه لكي يواسينا عما لحق بنا من تعب •

وجدنا غرفتنا القديمة في دار الحكومة مشغولة ، أو انها على وشك أن تشغل من قبل والي بغداد الجديد الذي كان يسر بالدير ، ولهذا قررنا أن نحط الرحال في بيت تاجر مسيحي يدعى « زد ــ أفندي »[1] ومع ذلك سنبقى في تعداد ضيوف الباشا • وتمنى الباشا أن يكون بيتنا الجديد مريحا لنا أكثر من بيته المتواضع الذي أمضى فيه أياما تعيسة منذ أن غادرنا الدير ، اذ يعيش في عزلة أبدية في وقت أخذ فيه يحن الى بيته في حلب والى معاشرة أصدقائه . وظن أن الدير ربما قادته الى القبر في أيام مبكرة من العمر • ويبدو أن المسكين كان صادقا في مشاعره ، وقد تغير به الحال منذ أن تركناه مؤخرا وبدت عليه علائم الشيخوخة ، واشتعل رأسه شيبا ، واصبح نحيفا أكثر من اللازم • ولهذا تعاطفنا معه وقدمنا له شرحا موجزا عن علاقاتنا الرسمية مع الجهاز الاداري في بغداد • وكل ما حدث يهون أمام القلق الذي ينتابنا بشأن خططنا من أجل المستقبل • فنحن قد عقدنا العزم لزيارة العنزة في وقت لا تتوقع فيه آية مساعدة رسمية من الحكومة ، ولهذا كتمنا ما ننوي القيام به ، ولم نصرح به لأحد • أما عن السيد « سكين » فالباشا لا يعرف عنه شيئا باستثناء ما سمع من أخباره بأنه كان في حلب في الشهر الماضي • ودهش لتوقعنا وجوده في الدير ثانية • وعلى كل حال سيصل قادرلي باشا ــ الوالي الجديد لبغــداد ــ في غضون

(١) رمزت الى اسمه بحرف واحد فقط !

الساعات القايلة القادمة يرافقه زكي بك ابن حسين باشا • وسنحصل من المسافرين على آخر الاخبار القادمة من الشمال • وباعتبار أن السيد « سكين » من أصدقاء الوالي الجديد غمرنا الامل في أن يصل القنصل مع الركب القادم لأن قدومه كان ضمن الخطة المرسومة ، وكان عليه أن يتواجد لانتظارنا في الدير •• ولكن لماذا خذلنا القنصل؟ انه الامر المحير الذي لم نجد له تفسيرا حتى الآن !•

شغل حسين باشا في اليوم التالي مع الوالي الضيف ، فتركنا وحدنا مدة طويلة من الزمن وعندما التقينا ثانية وجدناه فاقد الاعصاب ، وفسرنا ذلك على ضوء حالة الحرب المتردية مع الروس ، ووضع الحصون المجردةمن الحماية على الحدود التركية ، والمؤمرات التي كانت تحاك في البادية من حوله • ومن البديهي أن اصرارنا على زيارة قبائل البدو ــ على الرغم من كل المصاعب والتحذيرات ــ قد أثار الشكوك حولنا في نفس حسين • وأتوقع أن الرجل الطيب يتشاور مع زميله القادم حول الطريقة التي يجب أن يقنعنا بها لنعدل عما كنا نخطط له ، ففي المساء التالي لوصول الوالي استلمنا من الاخير رسالة مؤدبة يطلب فيها أن نمثل أمامه في دار الحكومة ، وهنا أخذنا نضرب أخماسا بأسداس • فلو كان الوالي رجلا من المدرسة التركية القديمة كعاكف باشا وبقية زملائه لكان ذلك لطمة قاسية لكل المشاريع التي نخطط لها ، لأن هالة من الشكوك تحيط بنا ، ولأن الرجلين الشرقيين يتشاوران معا ويتبادلان الرأي عن طريقة التعامل المجدية معنا • وتتيجة لمخاوفهما ربما يستجمعان الشجاعة لوضع حد نهائي وقاس لمغامراتنا في البادية ، وربما نرسل مخفورين الى حلب، فيما لو تذمرنا أو اشتكينا من المعاملة•ولكن لحسن الحظ كان الوالي الجديد رجلا من نوع يختلف عن أي رجل كنا قد شاهدناه حتى الآن في تركيا • ومن الاجحاف أن نصنفه في تعداد الرجال الشرقيين مطلقا ، لأنه أدرك حقيقة مواقفنا وعرف ماهيتنا ، فلم نعد في نظره أكثر من سياح ومتفرجين يدفعهم حب الاستطلاع والفرجة لارتياد المناطق المجهولة • وبحسن تمييزه أنقذنا من الورطة التي نحن فيها ••• انه قادرلي باشا التركي المتطبع بطباع الاوربيين

مع كومة من أمتعتنا وفارس معنا ، ولم نستطع الوقوف بل تدلت أقدامنا من حافة الطوف وتمسكنا ببعضنا لنحافظ على التوازن ، وعندما وصلنا الى منتصف النهر تعب الرجل العجوز ، وأفلت الحبل من يده فجرفنا التيار بعيدا دون أن يتمكن من ايقافه أو ارشاده ، وتوقعنا أن ننقلب في كل لحظة . وعندما شاهد الشمريون ما حدث قفزوا الى الماء بعد أن ابتعدنا حوالي خمسين ياردة فلحقوا بنا وأخذوا يرشدوننا الى الشاطىء ; وهناك وجدنا حنا يصفق ويذرف الدموع خوفا علينا ؛ فكان هذا الفعل مصدر متعة وتندر لفارس الذي لم يشاهد في حياته قط رجلا يبكي ويذرف الدموع من قبل ، فسرت عدوى المرح بين الجميع ، وكان كل شخص يتلهف للضحك وكان بطل هذه المسرحية المسكين عليا السمين الذي اضطرب وخاف في وسط النهر والجموع تضحك منه ; لأن البدانة كانت موضوع تندر عند البدو . والبدوي كعادته نحيف كالسوط وينظر الى مثل هذه الحالة على أنها نوع من التشوه الجسمي .

حان الوقت لنستأذن فارسا بالمغادرة لأنه لم يعد بامكانه التقدم الى الامام ، لأن المنطقة ـ بين نهر الخابور والفرات ـ كانت مقاطعة تسيطر عليها الحكومة تساعدها القبائل المسالمة كالجبور والبقارة والقبائل الاخرى ... كانت لحظة الوداع مؤثرة على الرغم من أننا لم نقم طويلا في دياره . لقد كسبناه صديقا وقريبا ، ومن يعرف فقد نلتقي ثانية ! أعاد على أسماعنا ما يجب أن نقوله للباشا . ونصح الملا ثانية أن يعتني بنا جدا . أتيحت الفرصة لولفرد ثانية بعرض البندقية على فارس ؛ وعلى الرغم من حبه لها فقد رفضها رفضا نهائيا لذلك وعدناه أن نرسل له بندقية من انكلترا ، وتابع ولفرد تقديم النصائح للاخ الجديد ومنها أن يبتعد عن المدن . فقد يكون حسين باشا رجلا شريفا وصديقا ، ولكنه يخدم وينفذ سياسة الاتراك الذين قتلوا أباه وأخويه من قبل ، وقد يجدون في يوم من الايام مصلحة في قتله ، وقال له ابق في بيتك ولديك كل ما تريده في الجزيرة ، وما دمت فيها فأنت في مأمن ، واذا كان ولا بد من رؤية الباشوات دعهم يأتون اليك في البادية . فانضم الملا الذي كان يقف الى جانبنا وأيد ما نقوله بحرارة ، ووعدنا أن فارسا سيكون حكيما ، وهنا تعانق

وصلنا في الحديث الى نقطة هامة أخرى ، لأن الاصلاح الذي أريد له أن يسود في تركيا كان من مبادئه تحقيق مساواة دينية حقيقية • وعلى الرغم من توفر مبدأ التسامح من قبل الا أنه لم يكن كافيا ، ولهذا فقد طالبنا بالمزيد منه • والقانون يجب أن لا يفرق في التعامل مع الناس بين دين وآخر لأن الامبراطورية العثمانية تقيم على أجناس وعقائد دينية مختلفة •

قال ولفرد : ان الدين الاسلامي أوجد التسامح الديني قبل قرون عديدة من قبول الحكومات المسيحية لهذا المبدأ السامي •

نادرلي : أو قل بالاحرى ان مبدأ التسامح قد أعيد ابتداعه لأن التسامح كان دائما القانون السائد في روما القديمة ، وفي اعلانه حصلت خطوة كبيرة نحو تقدم البشرية • ولكن الاسلام قد تأخر اليوم عن تحقيق هذا الهدف : وحان الوقت لايقاف المرارة الدينية في آسيا وأوربا على حد سواء •

لم نجرؤ على المساس بنزاهة الدولة العثمانية ، لأننا وصلنا الى قضية بالغة الحساسية وشعرنا بأننا نخوض في حديث بالغ الخطورة على الرغم من صعوبة تصورنا لرجل نبيل يماثل الوالي في مبادئه الممتازة ، وفي الوقت نفسه يمد يده لتطول الاموال العامة في الدولة ولأن فرص اكتشافنا لحاكم طاهر الذيل في تركيا كانت ضئيلة جدا • ومن الوقاحة أن نقول شيئا أمام الوالي : فربما يكون بمثابة اهانة لا نود توجيهها لأحد • تطرقنا الى موضوع آخر بدلا من الاستمرار في الحديث السابق ••• انه موضوع الحرية في تركيا : الذي تكلمنا عنه بصدق ووضوح • وساق ولفرد قصة حواره مع دركي في آسيا الصغرى مثالا على ذلك ، لأن في طياته مغزى يستحق الذكر • كان هذا الدركي يشتكي لنا من بعض الممارسات الوظيفية السيئة التي تقلقه في بلد يحتاج كلية الى الاصلاح • وتحدث عن تقرير سري بين زملائه يعلن فيه أن انكلترا هي أرض الحرية • كان يقول هذا وهو نفسه موكل بتنفيذ القانون • فعقب قادرلي باشا على الحديث بقوله : نعم كل واحد هناك كما نعرف يعتبر

حرا وسيدا ، وكل الناس الشرفاء يمكنهم ممارسة ما يحبون بدون تدخل من أحد • فأجبنا بأن ذلك صحيح وهذه الحالة عندنا وليست عندكم فأنت محمد — مثلا — لن يسمح لك بتناول شفرة محراث وجدتها في حقل لتوقد فيها النار، ولا تستطيع أن تترك زمام حصانك ليرعى في حقل ذرة ناضجة ، كما أن المقاطعات والبلدان ليست متساوية في الفرص وأقساط الحرية • فماذا تقول عن أرض يرتحل فيها رجل فقير على طريق عام ولا يمكنه جمع عدة أعواد جافة ليضرم النار فيها ، أو ليدع حماره يرعى العشب على جوانب الطرق ، وليس له أن يضطجع في ظل سور دون أن يلقي عليه الدرك القبض وسوقه الى القاضي ليمضي الليل مودعا في السجن • فأجاب الرجل : لا لا فأنت تسخر مني ولا وجود لمثل هذا البلد ، والا لهجره الناس الى بلاد أخرى منذ زمن طويل • سر قادرلي باشا عند سماعه للقصة ، ووافق معنا على أن أمور السلطان لا ترضي تماما • فالسعادة شيء والتقدم شيء آخر • أما عن السياسة الاوربية فتبين أن الباشا على معرفة كاملة بها ، وحتى الاحزاب البريطانية يعرف مناهجها الحزبية بدقة ومنها الخلاف الذي أثير السنة الماضية بين صفوف حزب الاحرار حول المسألة الشرقية • وقادرلي باشا يتقن فن الادب والمجاملة ، اذ لم يسهب في نقد سياسة حكومتنا المتذبذبة ، واكتفى بالقول : ان انكلترا ارتكبت خطأ فاحشا بتركها لحليفتها تركيا تتقطع أوصالها دون أن تفعل شيئا • وهكذا وجدنا أنفسنا نتحدث الى رجل رائع سام ليس له أية حجة ولن يعذر فيما لو فشل بالقيام بواجبه الجديد في بغداد •

ان النتيجة التي خلصنا اليها من هذه المحادثة أعادتنا الى موضوع علاقتنا بالسيد حسين — الرجل الحلبي — صاحب القول المأثور : « الموت الشريف ، أو العزة المطلقة » الذي عومل من قبل ضيفه الوالي بلطافة جافة في جوف بيته عندما ترك ليجلس على حافة الكرسي ، في الوقت الذي أخليت فيه لنا أفضل المواضع على الاريكة لنتحدث بلغة أجنبية مفهومة لا يفهمها الآخرون ، فأعطتنا

شمولا في التصور أكثر من تحويل الكلام الى العربية ومن العربية الى التركية لغة العرق المفضل • وعلى الرغم من أن الوالي كان قد غادر الدير في صباح اليوم التالي فان هيبة الاستقبال الذي وفره لنا أعادت العلاقة بيننا وبين حسين الى سابق عهدها ، وكما كنا نأمل أو نرغب به • لم نستطع حتى الآن طرح قضية فارس أمام الباشا على الرغم من ملاحقة الملا لنا داخل وخارج المنزل ، والذي لمح في أكثر من مرة بأنه قد حان الوقت للبدء بالتفاوض • ولكننا نشعر أننا سوف نضر بمصالح صديقنا فارس فيما لو تبنينا مواقفه ودافعنا عنها مباشرة بعد أن زال سوء التفاهم بيننا وبين حسين • ولكن الآن لم يعد يمنعنا أي مانع لاستغلال أول فرصة لفتح الموضوع معه من جديد •

وصل زكي بك الابن الاكبر للباشا الى الدير قادما مع الوالي ، فوجدنا فيه فتى لطيفا يناهز الثامنة عشرة أو العشرين من العمر : طلق المحيا ، مثالي في أخلاقه وثقافته • كان يعمل كاتبا في ديوان الكتابة العام في حلب • ولم نجد أية صعوبة في التعرف عليه وتمتين عرا الصداقة بيننا وبينه بسرعة . كما لم نجد أية صعوبة في جعله يهتم بأخبار البدو ، لأن مثله كمثل أي شاب متفتح الخيال ، لا بد وأن يكون لديه الميل لمعرفة المفاجآت المثيرة • وهو على علم بعلاقة والده الاخيرة مع فارس ، وصداقته الرسمية معه • فقال ببساطة : من البديهي أن يكون والدي أبا لكل الناس ، والبدو هم من أولاده ولا بد من أن يكون فارس ولده المدلل الخاص ، ولو سمح لي لذهبت بنفسي لزيارة أصدقائك الشمريين ، وعندها سوف أسوي الامور بينهم وبين السلطة بشكل نهائي • ولكنني أخشى أن تقع لي حوادث وأنا في طريقي اليهم • فطلبنا منه أن يشرح لوالده خطورة الوضع الراهن ، وسوء الفهم الذي ينظر به قوم فارس الى الباشا • ففارس كان قد أنجز عملا للباشا ، ولم تدفع له أجور أتعابه وغليان قومه يوشك أن يتحول الى ثورة • فاهتم زكي بما قلناه ووعد أن يوصل ما سمع الى والده في القريب العاجل •

جاء الباشا في صباح اليوم التالي لزيارتنا كعادته • وفي هذه المرة بادرنا بقوله : أعترف بصراحة بأن المبلغ المطلوب يستحق الدفع ، الا أن خزينة دار الحكومة فارغة ولا أستطيع الحصول على أي مبالغ من حلب ولو كان ستة بنسات « نصف شلن » ورواتب الموظفين بما فيهم راتبه قد أصبحت منذ زمن طويل في تعداد المتأخرات•وعندما انتهى الباشا من حديثه وأنا أؤكد ما يقوله•• أردف قائلا : يجب أن لايظن فارس بأنه الشخص الوحيد الذي يؤدي خدمة مجانية للسلطان هذا العام • فنحن جميعا نفعل ذلك على قدم المساواة معه • ويبدو أن الباشا كان قد قدم الى البدو أوراقا مالية ، ولكن البدو أغبياء ولا يعرفون التعامل الا بالقطع الفضية • وطلب الباشا من فارس التحلي بالصبر حتى تأتي العملة من حلب . وهي التي ينتظرها بفارغ الصبر •• وبهذا كان علي الاستعداد لتصديق ما يقوله الباشا والتصديق على حسن نوايا فارس • وان تذمرات « البقارة » من اعتداءات البدو لا أساس لها من الصحة • والشيخ مسؤول عن تصرف رجاله فقط ، ويستطيع كبح جماحهم في كل وقت اذا أراد ذلك • وهكذا كان لزاما على الجميع التحلي بالصبر والحكمة • اقتنعنا نسبيا بما وصلت اليه المفاوضات ، وأبلغنا النتيجة الى الملا وقدمنا له هدية متواضعة لتواسيه ، وتفرغنا بعدها لقضايانا الخاصة وخططنا التي نزمع تنفيذها • فها نحن قد مضى على وجودنا في الدير أربعة أيام وحتى الآن لم تصل أية اشارة أو كلمة من السيد « سكين » ، ولهذا بدأنا في تدبير أمورنا بأنفسنا • وأول عمل قمنا به : طرد الجاسوس نجران ، حيث أمره ولفرد أن ينصرف دون أي تكلف أو حرج • فأجاب كما تشاء « على كيفك » ثم انصرف • أما عن أخبار العنزة فأخذنا نلتقطها بهدوء دون أن نثير شكوك ومخاوف الباشا • وعندما غادرنا مضارب قوم فارس قدم لنا الاخير صبيا كان يعمل في خدمته هدية تصلح لأن تكون سائق جمل بدلا من نجران • انه الفتى غانم الذي بدا مناسبا لأغراض الرحلة ، وغانم شاب غريب وحشي المظهر بابتسامة جميلة وأسنان

بيضاء وبريق خاص في عينيــه ، نصفه أخضر ونصفه الاخــر حنطي ، وعيناه كبيرتان كعيني القطة بينما تدلت الجدائل وخصل الشعر الطويلة على جانبيه ووجهه في تناثر رائع ويملك شيئا من الجاذبية في أخلاقيته وسلوكه وكــان صوته عذبا فيه نغمة تضرع لفتت انتباهنا في الحال .

أخبرنا غانم بأنه من الجلاس ... من قوم ابن شعلان . ولكنه تــرك قبيلته مبكرا ليخدم سائسا للخيل عند الشيخ عبد الكريم، لأنه كان من الفرسان الممتازين ، وقد عاش مع الشمريين حتى موت عبد الكريم ، وساهم في هروب الشيخة عمشة الى نجد ، ولكنه عاد وذهب الى بيت سليمان بن مرشد ، وعاش مع القمصة حتى سقط سيده الجديد ضحية من ضحايا الاتراك، وعندها استعاده فارس الى شمر من جديد . وهو يرغب الآن بالعودة الى قومه وسوف يرافقنا حيث نريد في الوقت الحاضر .

أقامت القافلة والخيول خارج المدينة كاجراء احتياطي يؤمن لنا حريــة الحركة في حالة نشوء أية مصاعب ، الا أننا كنا نذهب اليها كل يوم لنقضي بضع ساعات بين الجمال والخيول ، لنتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام ، ولعلنا نحصل على معلومات خارجية تفيدنا في رحلتنا القادمة . وفي هذه المناسبة كــان غانــم يجلب معه « كمانــا »[1] صغيرا غريب الشكل مصنوعا مــن « البرشمان »[2] مع قوس ربطت عليه أوتار من شعر الحصان . وعلى هذه الآلة المتواضعة كان يغني لنا أغنيات ارتجالية، وكان بعضها ممتعا الى حد بعيد. ومن تلك الاغنيات أغنية كانت مفضلة لدينا تخلد موت عبد الكريــم وتبعثر قبيلته وأخرى لحنها وكأنها من ألحان « مالاغوانا » في اسبانيا . وفي كل مرة يغني فيها غانم كان وجهه ينطق بنظرة الهام بحاجبين بديعين وشفتين مرتجفتين. وكان يقدم أنغاما متناوبة متآلفة في بعض الاحيان ونشازا في أحيان أخرى لا تليق الا « بفاغنر »[3] نفسه ، ثم غنى عن أمجاد الجياد السابقة التي كــان

---

(1) انها آلة الربابة المصنوعة من الخشب وجلد الغزال وشعر الخيول .
(2) البرشمان : نوع من الرقائق الجلدية .
(3) فاغنر (١٨١٣ ــ ١٨٨٣) : مؤلف موسيقي الماني ادخل الدراما في الاوبرا.

يسوسها • بالاضافة الى ذلك كان غانم فتى ذكيا يستطيع أداء كل عمل يوكل اليه ، ولهذا وثقنا به وعهدنا اليه مهمة العثور على أصدقاء من العنزة ، لأن مثل هؤلاء لا بد وأن يكونوا في المدينة ، وعليه أن يجلبهم الينا بسرعة ••• قبل غانم المهمة ولم يمض زمن طويل حتى أنجزها • ففي مساء اليوم الثاني والعشرين جاء يصطحب معه رجلين أحدهما من الدير رفض أن يعرفنا على اسمه والآخر بدوي نحيف أسمر اللون عرفه غانم باسم علي من المهيد من أتباع الفدعان وتربطه قرابة بعيدة بجدعان بن مهيد نفسه • وحدثنا هؤلاء بهمس سري مخافة وجود من يسترق السمع وقالوا : ان العنزة في طريقهم الى الشمال ولا يبعدون عن الدير الا مسيرة أيام معدودة ، وهم في مكان ما من الحماد : ذلك السهل الكبير الذي يمتد من جبل البشري في الشمال وحتى جبل شمر في الجنوب ••• انها أخبار سارة ووافق علي على اصطحابنا الى جدعان لقاء مبلغ صغير لا يتجاوز المجيديين ، ولكنه حذرنا من أن تنبس ببنت شفة ونخبر حسينا عن وجهتنا ، لأنه يعتقد بأن الباشا رجل محتال ، وقال انه هو الذي منعكم من رؤية جدعان من قبل عندما كان على مقربة من الدير ، وسيمنعكم من رؤيته ثانية ان استطاع ذلك • أما جدعان فيعرف أنكم كنتم هنا مع البك القنصل في الشهر الماضي ، وهو حانق على الباشا لأنه تدخل بشؤون زيارتكم له • وهكذا قررنا الانطلاق الى تدمر ، وعلى علي أن يراقب الركب لينضم الينا بعد أن نغيب عن الانظار ، وعندها سنغير مجرى سيرنا وننطلق الى الحماد مباشرة حيث يقيم جدعان والعنزة في موضع لم يحدده علي لنا ؛ اما عن جهل أو لعدم رغبة منه ولكن فكرنا أننا لا نخاطر عندما نأخذ بارشاده ، ولهذا عزمنا على رؤية العنزة والابتعاد عن الدير • ومن حسن الحظ أن كل ما خططناه قد حصل • ففي صبيحة اليوم التالي أخبرنا الباشا بأننا قد مللنا الانتظار طمعا برؤية السيد « سكين » وعلينا الانطلاق بدونه ، لأن الفصل شارف على الانتهاء ، ومن المتوقع أن يتحول الجو الى حار ، بالاضافة الى مشاغل ملحة

الجنود • وعندما انبلج الصبح توسل هذا الجندي للعودة الى الدير ، وحذا رفيقه حذوه متذرعا بأنه لم يمض على وجوده في الدير سوى يوم حتى كلف بهذه المهمة بعد أن كان قد عاد من الحرب في أرمينيا ، وأنه من الصعوبة بالنسبة لهما أن يرسلا في حملة كهذه بدون قضاء ليلة واحدة في البيت على الاقل ، فتعاطفنا معهما بحرارة وفي الحال اتفقنا على أن ندعهما يعودان مع وثيقة انصراف رسمية ، لذلك كتب ولفرد سطرا بالفرنسية وجهه الى زكي بك الذي يفهم بعض كلماتها ، وشرحنا فيه بأننا حقا لم نكن نرغب بمن يرافقنا ، ولم يكن لدينا ما نطعمهم به بينما نثق بمحمد جدا كحام مخلص لنا • وبهذه الوثيقة وشلنغ من « البخشيش » غادر الجنديان المكان الى الدير بسرور بالغ •

لا يزال علي المهيد غائبا وقد توقعنا ظهوره حالما يتوارى الجنديان عن الانظار • غير أن الذي كان يهمنا هو توثيق عرى الصداقة مع محمد التدمري الذي كان يصدق من الرجال المتازين ، ولهذا أشركه ولفرد في حديث يوصلنا الى موضوع العنزة ، فتبين أنه يعرف بعضهم أو على الاقل قد رأى بعضهم الآخر لأنه أخذ يتكلم عن سليمان بن مرشد وظروف وفاته في الدير وأخبرنا بأنه يعرف أحمد بك الموالي فوصفه بقوله : انه أفضل رجل عرفه في البادية ، وشبه قامته بطوله الذي نقدره بستة أقدام • أما عن جدعان فقد قال : انه ليس بالرجل الذي ينظر اليه ، ولكنه فارس بارع في ميدان الحروب •

ولم يكن محمد يعرف شيئا عن الاماكن الحالية للبدو ، ولكنه يقول : هذا هو زمن مرورهم بتدمر في فصل الربيع بعد نجعتهم في الجنوب • يفعلون ذلك كل عام وهم في طريقهم الى الشمال ، وعرفنا بنفسه قائلا : انه ابن شيخ تدمر وتنحدر عائلته من سلالة رجل من الطالبيين الذين تربطهم مع النبي صلة قرابة ، وهو الذي حول قرى تدمر ومنطقة الآراك الى الاسلام ولكن لا يعرف متى حصل ذلك بالضبط • أما عائلته الحالية فقد انحدرت من بني لام في نجد التي تستقر في الجوف من نجد ولا يزال على صلة مع قرابته هناك ، وهو ذاهب في العام المقبل ليجلب زوجته من هناك ، ولم يبد أية اعتراضات للذهاب معنا لمشاهدة العنزة ولكنه لا يعرف ــ اليوم ــ أي مكان محدد لهم ، ولهذا

اقترح أن يكون من الافضل لنا التوجه الى تدمر ، وأضاف بأن عمه والقافلة سيدركوننا الليلــة .

لم نبتعد كثيرا حتى شاهدنا قافلة كبيرة مؤلفة من مائتي جمل ، ترتحل نحو الشرق باتجاهنا فعدونا بجيادنا لنستطلع الاخبار ، فوجدنا أنهم من السخنة ــ عبارة عن قرية بيننا وبين تدمر ــ ورجالها يريدون الوصول الى الديــر لشراء الــذرة .

كان محمد يعرف بعضهم ، وطلوعنا عليهم جعلهم يحتاطون للامر بتهيئة البنادق . وبعد التعارف دار حديث ودي عن أسعار الحبوب في منطقة الفرات، ولم نغفل عن سؤالهم الواحد تلو الآخر : هل شاهدتم العنزة في الطريق ؟ فأجاب كلهم : الحمد لله لم نشاهد أي بدوي ، وعندها نادى علينــا آخــر رجل في القافلة ، وسأل ولفرد أن يعطيه أخبارا عن فارس ، فكان سؤالــه غامض الهدف . فتوقفنا وتحادثنا معه ، وعلمنا منه بأنه كان شيخ السخنة ، وتربطه مع فارس آل الجربا رابطة أخوة ، وهو ذاهب اليه لأن قومه أغاروا على السخنة وساقوا ابلها لعله يسترجعها بحق الاخوة التي بينهما . وعندما أخبرناه أخوتنا لفارس دهش لهذه المفاجأة حيث قلنا له : ان فارسا في دياره على الخابور . فأجاب بدوره : على الرغم من أنني لم أشاهد العنزة في هذا الربيع الا أنه يروى بأنهم في طريقهم الى الشمال ، ولا يبتعدون أكثر من مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام عن البئر الذي ستمرون بها هذا المساء وعندها ستجدون مقرا لجند الحراسة . وقبل أن تنصرف القافلة سطر ولفرد ملحوظة موجهة الى القنصل يخبره فيها باخفاقنا في اللقاء بشريكنا من المهيد ، ويقترح عليه موعدا للقاء في السخنة ونحن في طريقنا الى تدمر ، ثم سلم الرسالة لمحدثنا الاخير في القافلة الذي وعد أن يسلمها بأمان الى القنصل ان كان هناك ، وتابعنا بعدها المسير حتى الظهيرة حيث لم نصادف أحدا في الطريق ، غير أننا شاهدنا عن بعد بعض الخيام خارج الطريق ، فذهبنا اليها لنستطلع الاخبار .. انها مجموعة من خيام « البوسرايا » احدى قبائل الفرات . وأعتقد بأنهــا احدى فــرق العقيدات . ولكن لم نجد فيها غير النساء والطاعنين بالسن ، لأن الرجال ذهبوا

الفصل السابع عشر

سيخطو حصاني بيغاسوس(١) بنعلين حديديين فوبين لانـسـر، اسير في طريق صواني وعر تفرش ارضه الحجـارة والتراب والطـين .

● اوين ميرديث

في الصحراء ثانية ـ المرشد يخذلنا ـ محمـد الطالب ـ نجمع الكمأ ـ يُلقى القبض علينا ـ في الطريق الى تدمر ـ صيـد الثعالب ـ زيارة الـى لصوص العمور ـ الوصول الى تدمر .

يوم الاحد في الرابع والعشرين من آذار غادرنا الدير الى البادية ثانيه . والبادية باديتنا لأننا نطمئن فيها أكثر مما نطمئن في المدينة ، الا أنني أشعر اليوم بمعنويات هابطة ، لأن هذه المغامرة لم تبدأ بأشياء مفرحة تبشر بالنجاح على الرغم من أن ولفرد كان على خلاف ذلك،لأنه تخلص من حياة الحبس داخل البيت . وكم كنت راغبة بتأجيل الرحلة بضعة أيام لكي نعطي القنصل فرصة أخيرة للوصول ، ولأنه من الضروري أن نضع المقدمات للناس الذين نبحث عنهم. ونحن الآن نفقد علي المهيد الذي خذلنا وتخلف . ويبدو أن بحثنا عنه الآن كمن يبحث عن ابرة في كومة من القش ، وربما ننطلق وحدنا في الحمـاد بحثا عن العنزة الا أن خطوط سيرهم لا نعرفها على الخريطة بدقة .

انتظرنا قدوم البريد في هذا الصباح فعاد ولم تتسلم أية أخبار من حلب . ولهذا أضحى من الحماقة أن نضيع وقتنا سدى ، ولا أمل لنا في الانتظار لأن طريق القوافل أسفل النهر لا يزال مفتوحا والا لما وصل البريد هذه الليلة على

---

(١) بيغاسوس : فرس مجنح جعل الماء يتدفق برفسة من حافره ، من نبـع هيبوكرين كما تقول الاسطورة .

الرغم من فيضان النهر وارتفاعه الى تسعة أو عشرة أقدام في الايام الثلاثة الاخيرة ••• فالطريق لم يقطع بعد وقضية القنصل وموضوع تأخره يجب أن نبحث عنه في مكان آخر ، ولهذا أعلن ولفرد اليوم عملية انطلاقنا بجلب الجمال الى المدينة ليلا وحملها في الصباح ، ثم أرسلت بانتظار الاوامر خلف تلة خارج الدير بعيدا عن الانظار ، ثم ذهب الى دار الحكومة وأعلن عن الرحيل • تظاهر الباشا بدهشة بالغة عند سماعه لأخبار المغادرة على الرغم من علمه بها بالاسس ، وسأل مباشرة عن الجهة التي سنأخذها فأجاب ولفرد : سننطلق على طريق تدمر ، واذا لم نستطع مصادفة العنزة ومن نرغب رؤيتهم فسوف نذهب الى تدمر ومن ثم الى دمشق • ونحن نعتقد أن القنصل تأخر في حلب ، وربما انطلق الى تدمر ليوفر الوقت ، ومن المحتمل أن نجده قد وصل قبلنا الى هناك •

حسين : ولكن الطريق غير آمن ومن المستحيل أن تذهبوا وحدكم في طريق يشح فيه الماء ويكثر فيه اللصوص •

ولفرد : لقد سرنا عبر الجزيرة وحدنا ولم يصبنا أي مكروه• فنحن نركب جيدا والاسلحة الفتاكة بأيدينا • وأنت أخبرتنا بأن العنزة في الجنوب يقاتلون الرولة بعيدا عن الطريق واللصوص العاديون لن يغامروا بمهاجمتنا •

حسين : يجب أن تنتظروا على الاقل الى يوم غد لتنطلقوا مع القافلة المغادرة ، وسأرسل في طلب المسؤول عنها لتحميلهم مسؤولية الحفاظ على سلامتكم •

ولفرد : لسوء الحظ شرعت الجمال في المسير • واذا لم ننطلق في الحال فاننا لن ندركها أبدا •

حسين : مخاطبا خدمه •• أرسلوا التدمريين وأخبروهم أن يهرعوا الي في الحال • ظهر رجال تدمر ولم يكونوا أكثر من اثنين ، بدت عليهم علائم الثراء والنعمة من الملابس التي يرتديانها • فأكبرهم في الخمسين من عمره بوجه وسيم

أتصور فيه المكر والدهاء • أما الآخـر فشاب حسن المظهر صريح السلوك يجذب مشاهده اليه بسرعة •

قال التدمريان : من المستحيل على قافلتنا أن تكون اليوم جاهزة ، ولكنها ستكون جاهزة تحت تصرف الباشا في يوم غد • فأجاب ولفرد : يجب علينا على الاقل الانضمام الى جمالنا ••• وبعد جدال طويل ومشاورات جانبيـة بين حسين والتدمريين أرسل الشاب لكي يركب فرسه على عجل ويرافقنا حالما نكون قد تناولنا طعام الافطار الذي لم نكن نرغب به مطلقا • ولكن بما أننا لا زلنا بين يدي الباشا لذلك رأى ولفرد أنه من الوقاحة الذهاب الى أبعد من ذلك في اعتراضاتنا فتبادلنا معه التحية الطيبة والوداع المعتاد بعد آخر وجبة نأكلها معه ، وركبنا مبتعدين عن الدير بمزيج غريب من الامتنان لحسن الضيافة والامتعاض من تدخل حسين بشؤوننا • وعلى كل حال نعتبر خروجنا من الدير شيئا عظيما وفي أذهاننا المثل القائل : أيها النبع لن نشرب أبدا من مائك مرة ثانية ، لأننا صممنا على أن لا نجلس على طاولة الباشا مطلقا في مرة ثانية • وكفانا ما أضعناه من وقت ثمين وعلينا اللحاق بالقافلة •

أدركنا الجمال في المكان المحدد ولم نجد علي المهيد فيها ، فماذا حل به ؟ لا ندري ، ولكن نعتقد أنه قد خاف وهرب عندما رأى جنديين يتبعاننا بأمر من حسين نفسه ، وهو ما جلب الحزن على ولفرد وعكر عليه صفاء ذهنه هذا اليوم، وجعله يكره أساليب الاتراك والحكومة التركية ، حتى انه أخذ يشتم كل سلطة فوق سطح الارض ، لأنه أصبح في البادية بلد الحرية • وعلى الرغم من كون السماء صافية فوق رؤوسنا والشمس مشرقة فقد سرنا في صمت مطبق جاعلين من أنفسنا أناسا في طبع سيء ضد الجنود المساكين ، الذين نعتقد أنهم غـير سعداء في هذه الرحلة وبطبيعة الحال نحن سبب تعاستهم • وبدت حالة من الاكتئاب تعصف بحنا ، لأنه حُرم رؤية الفرات وبسبب عنادنا في المغادرة الى مكان مجهول لا يعرفه • أما فرحان ذلك الرجل الامين اللامبالي بدا متبلد الحس ويرغب في الذهاب الى أي مكان طالما أن ابله تأكل وطالما أنه يؤدي واجبه معها • أما علي المرافق فلم يعد معنا لأن الحنين شده الى بغداد لخدمة

الوالي اذ ودعنا منذ أيام وانصرف . وظهر الفتى الجلاسي الشخص الوحيد الذي يخالطه السرور بين المجموعة لأنه في طريقه الى أهله . أما بالنسبة لمحمد التدمري فصعب علينا التفكير بماذا سنشغله على الرغم من تلهفه لأن يكون نافعا لنا في الرحلة . الا أنه علامة زينة في مجموعتنا لأنه كان يمتطي فرسا رمادية من سلالة شويمه سباح ، ويحمل رمحا بطول خمسة عشر قدما .

رأينا في محمد شخصا بدويا أكثر منه حضريا . ويعتقد ولفرد بأننا سنكسبه الى جانبنا من أجل المستقبل . ولكن علينا أن نتخلص من الجنود أولا عن طريق تجويعهم ، ومن ثم جعل الظروف غير مريحة بالنسبة لهم قدر استطاعتنا ، لذلك أخبرناهم أن يعتمدوا على مصادرهم الخاصة وعليهم أن لا يتوقعوا أي زاد يمكن أن نقدمه لهم ، كما أن عليهم أخذ الحيطة والحذر والقيام بالحراسة طوال الليل ... وبهذه الطريقة قررنا أن نقنعهم بالعودة الى أهليهم . خيمنا في واد على بعد عشرة أميال جنوب غرب الدير ، وهناك تعلم ولفرد من محمد كيفية العثور على الكمأ الذي تتوفر منه كميات كبيرة في المنطقة . ويمكن نبش التراب عنه بالعصي فحيثما وجدت شقا في الارض أو مظهرا يدل على ميلان التربة كميلان التربة حول بصيلات الخزامي في الربيع فهناك الكمأ تحت التربة بعمق بضعة انشات . ظهر الكمأ بلون أبيض وقوام طري كحبات البطاطا ، ولكنه أخف وزنا منها . وحبات الكمأ التي عثرنا عليها هذه المرة كانت بحجم قبضتي محمد كلتيهما . والكمأ يمكن العثور عليه في التربة الخفيفة المرتفعة نسبيا حيث لا تكثر فيها الحجارة أو الحصى . وعلى الرغم من أن ولفرد كان مبتدئا في تعلم هذا الفن الا أنه التقط كمية كبيرة منه بعد أن نصبنا الخيام . والكمية تكفي لطبخها في وجبة واحدة . ويؤكل الكمأ نيئا ولكن يفضل سلقه بالماء . وأظن أنه من المن الذي كان يؤكل في البراري منذ الازل .

في الخامس والعشرين من آذار خدمنا الحظ في التخلص من الجنود ، اذ جاء ذئب في الليلة الماضية وعوى حول المخيم فأقلق فرسا مع مهرها لأحد

في الوطن كانت في انتظارنا ولا تحتمل التأجيل • ويجب علينا أن نستفيد من الوقت بقدر ما نستطيع وننطلق في مسيرنا نحو الغرب •

اقترح علينا أن نأخذ أقرب طريق الى حلب ، الا أننا لم نصغ لهذا الاقتراح لأن الباشا أخبرنا عن العنزة وقال : انهم بعيدا في الجنوب يقاتلون الرولة ولهذا فليس من خطر يهدد طريقنا الى دمشق مرورا بتدمر • وربما ينضم الينا القنصل هناك في مرحلة ما من الطريق • واذا ما قابلنا جدعان في طريقنا فسنكون محظوظين لأننا نرغب دوما برؤيته • وعلى كل حال يجب أن نرحل ونبتعد •

اقترحنا على الباشا أن يدع ابنه « زكي بك » ينضم الى جماعتنا ، ولكنه لم يسر لهذه الفكرة قائلا : انه لا يملك العدد الكافي من الجنود ليرسلهم معنا في طريق تدمر غير الآمن • وبطبيعة الحال ليس من المعقول أن يسمح لولده بالسير على هذا الطريق • ونصحنا أن لا نفكر بهذا مطلقا • ولكننا أبدينا عنادا كبيرا وأصررنا على المضي ، وعندها قال : سأرى ما نستطيع عمله •

كان هناك بعض التدمريين في الدير ممن يرغبون السفر معنا • فأبدى الباشا رغبة في أن يرسل في طلبهم ، في وقت كنا نفاوضه من أجل فرس تكلسنا عن محاولة لشرائها منذ زيارتنا الاولى • وقد أقحمت القضية في وقت غير مناسب • بدا الباشا غير مسرور ، ولهذا اصطنعنا عدم المبالاة بشأن الترتيبات المتخذة وكنا نتوقع بوضوح بروز المصاعب ، وربما سنواجه أمورا مخبأة لنا قبل أن ننصرف من الدير • ومن حسن الحظ أن المفاوضات التي كنا نجريها كانت تحصل خارج منزل الباشا ، ولو حصلت هناك لأوقعنا أنفسنا في ورطة اتصالنا بالمهيد لأن الخدم سيسترقون السمع كلما دارت المناقشات • وحتى التاجر المسيحي نفسه وأمه البدينة كانا يقومان بزيارات غير متوقعة لنا من حين لآخر • ولدي بعض الشك بأن معلومات ما قد التقطت من قبلهما وأرسلت الى دار الحكومة مباشرة • تصرف هذان المسيحيان بوقاحة ليلة وصولنا الى

بيتهما ، اذ جلسا معنا على الطاولة وعلى الكراسي وأخذا يتحدثان قبلنا وهو ما نراه كثيرا ، ولهذا أوقفناهما عند حدهما وأنزلناهما للجلوس على الارض كعادة أهل البلد • فنحن لم نكن من ضيوفهما بل نحن ضيوف الباشا • كانت العجوز مريم ــ زوجة الطباخ ــ الشخص الوحيد بين المسيحيين في الدير الذي يؤتمن على الاسرار ، ولهذا تركنا عندها رسالة موجهة الى القنصل في حـال وصوله مصادفة الى الدير • ولكن يبدو أن الفرصة ضعيفة لاحتمال وصوله •



بشحنات من الكمأ الى دمشق ، فاستقبلتنا النساء بكرم كبير للضيافة ، وأحضرن الحليب واللبن ولم تحصل منهن على أية معلومات • وهذا الحي خرج من ضفاف النهر منذ زمن لجمع الكمأ على ما يبدو في هذا المكان • فبالاضافة الى الكميات التي ذهب بها الرجال توجد كميات منه مشرحة ومجففة على ظهر الخيام • وكانت النساء بسرور بالغ ومزاج لطيف • الا أنني لم أشاهد من قبل بينهن مثل هذه الاسراب من الاطفال • ومن هذا المشهد علمت أن البادية تنعم اليوم بأمان ، لأن هؤلاء تركوا وحدهم مع قطعانهم بحماية الشيوخ والصبيان ، بينما يغيب الرجال عنهم شهرا من الزمان ، ومع ذلك لم أجد بينهم أية علامة تدل على الخوف أو الفزع •

كنا في الصباح نمر بعدد من طيور دجاج الارض الكبير الحجم ، المتوحش ، الذي صعب علينا اصطياده • وعندما حانت الساعة الواحدة دخلنا وادي المفازة الذي نحت في السهل بعمق وتناسق ، فوجدنا هناك الحمام الصخري والحجل مما يدل على وجود الماء في مناطق قريبة ، فاصطاد ولفرد ثلاثة طيور من الحجل • وعندما تسلقنا حافة المسيل شاهدنا بيت الحراسة على البئر يرتكز على حافة الوادي وعلى بعد ميلين من مكاننا الحالي وكان بامكاننا تجنب المرور به ، لأن المكان مأهول وهناك خوف حقيقي من الجنود ورجال الحراسة • ولكن يتحتم علينا أن نملأ الجلود بالماء ، ولا يوجد مكان غيره — حتى عدة أميال — يحتوي على الماء • وفي هذه الحالة لا زال يسيطر علينا الخوف من أن يرسل الباشا في أثرنا أحدا ، وربما أتى بنفسه كفرعون الذي ندم على ترك بني اسرائيل يذهبون ، وكنا نود اخفاء مخيمنا الا أن الحاجة الى الماء منعتنا من ذلك ورب ضارة نافعة لأننا حصلنا على أخبار هامة تفيدنا ونحتاج اليها •

البئر أو « البير » هي بمثابة ميناء هام في هذا الجزء من العالم ، لأنها المصدر المائي الوحيد[1] بين الدير والسخنة • وقد احتلته السلطة منذ سنوات

(١) يوجد اكثر من بئر واحدة في الطريق ولا ندري ايها تقصد .

كمنطقة استراتيجية • وفي المكان بنـاء للحراسة مربع الشكل علـى الطراز الفراتي ، ويشغله رقيب وثلاثة رجال • وبدت على البناء علائم الخراب لأن جدعان أحرق كل ما استطاع احراقه من المبنى في الشتاء الماضي وهو في طريقه قادما من هضاب البشري التي شاهدناها عن بعد هذا الصباح •

يبدو أن البئر كانت من الآبار القديمة في المنطقة لأنها بطنت بحجـارة قاسية وتهبط بعمق ستين قدما ، الا أن ماءها ليس من الماء الجيد تمامـا • ولكنهم أخبرونا بأنه لا يفسد أبدا ويسحب بدلو جلدي • وبينما كنا هناك سقط عقال أحد الدرك في البئر فهبط ليحضره مستندا على بعض الدرجات الجانبية في البناء الحر •• كان الرجال على درجة من التهذيب ومتلهفين لكي نتوقف عندهم الليلة والمبيت في ثكنتهم ، الا أننا لا نستطيع ذلك لأن ولفرد استطلع واحة عشب على بعد ميل من الوادي حيث أقمنا هناك •

وبينما كنا ننصب الخيام ظهر رتل من الجمال قادما من الجنوب ، وعرفنا بأنه من عرب « البوخميس » ، قدموا من مضاربهم التي تبعد مسيرة يوم من أجل التزود بالماء • وعلى بعد مسيرة يوم من مضاربهم يقيم العجاجرة[1] الخط المتقدم لحماية العنزة ، بينما يقيم جدعان نفسه مع عموم السبعة خلفهم تماما•• انها بالطبع أخبار سارة • ونحن نأسف الآن بسبب اخبار السيد سكين عـن السخنة • وقبل أن تفوت الفرصة قررنا أن نعود في صباح يوم غـد مـع « البوخميس » ونمضي الليل عندهم ثم ننطلق في اليوم التالي الى العنزة • وكان خوفنا الوحيد من أن تصل قافلة قبل أن نتمكن من الانطلاق ، فقـد يكون بينها جنود يحملون الاوامر بابقائنا على طريق تدمر ، ومع ذلك أظهر محمد رغبته في الذهاب معنا ولهذا دعونا الله أن يتم كل شيء حسب ما نريد •

ان البقعة التي اخترناها كانت عبارة عن تجويف مليء بمرعى عميق حيث رعت الخيول والحمير البيضاء ، بينما جلس فرحان على قمة صخرية في الاعلى،

---

(1) العجاجرة فرقة من الولد في قبيلة الفدعان كان يراسها خلف بن حريميس.

وهو يصيح على الجمال بين وقت وآخر هو ٠٠ هو حيث تتوقف برهة لتدير رؤوسها نحو الوراء وتصغي الى الصوت • أعد حنا طيور الحجل الثلاثة في القدر وهو بمنتهى السعادة ، بينما أحضر غانم ربابته وأخذ يعزف عليها أجمل أغانيه ، وحلق في المكان زوجان من طيور العوسق وحوما ، اذ يبدو أنهما يعشعشان في مكان قريب منا •

كان هذا اليوم هادئا وسرت بين الجميع روح عالية • وفي السادس والعشرين من آذار أسفت لأنني فد نسيت قول : ان شاء الله عندما كتبت مذكراتي ليلة البارحة لأننا تناولنا العشاء بصعوبة ، وبينما كانت الخيول مربوطة وأسرتنا مفروشة عندما سمعنا ضوضاء عند البئر ، وأعلن أن بعض الناس هم في طريقهم الينا ، وظننا أنهم من اللصوص أو من « البوخميس » الذين يرجعون الى أهليهم • ولكن قلوبنا حدثتنا بأن شيئا مكروها قد حدث• وفي غضون دقائق ظهر أربعة من الدرك عند باب خيمة الخدم فكوموا بنادقهم عند النار ثم جاسوا، عندها فقدنا الشجاعة الى درجة لم نجرؤ فيها للسؤال عما حدث ، الا أن محمداً جاء بعد قليل الى خيمتنا بالرسالة التي ظننا أن تكون بمنأى عنه ، لقد أرسل الباشا رسولا على وجه السرعة يحمل الينا أوامر بأن لا تتقدم أكثر من ذلك ، وعلينا أن ننتظر القافلة التي ستصل في يوم غد عندها سنتلقى مزيدا من التعليمات • وقعت علينا هذه الاخبار وقع الصاعقة فخاطبني ولفرد بالانكليزية : علينا أن نعتبر أنفسنا قد ألقي القبض علينا • قال ذلك في وقت تظاهر فيه محمد والآخرون برضى مفرح لعمل كل شيء يظنه الباشا أنه الافضل لسلامتنا ، لذلك ذهب ولفرد الى الدرك وأوهمهم بأنهم بين أهليهم وفي ديارهم وقد أمروا بحراستنا طوال الليل ومن خلال الحديث معهم علم بأن علي المهيد قد مر بالبئر هذا الصباح ، وقد توقف كما تفعل العرب لتداول الحديث حيث أخبرهم بقصة المجيديات التي أعطيت له ويمكنني القول : انه كان ثرثارا هذا اذا لم يكن قد خاننا وأخبر الباشا بما نريد عمله • نمنا تعساء حقا ونحن نضرب أخماسا بأسداس وأسفنا للحماقة التي ارتكبناها عندما أرسلنا الجنديين في الحال الى الدير • فقد عادا الى الدير بسرعة ونبها حسينا

عما نريد فعله ، ولهذا أرسل على عجل في أثرنا وأمرنا بالتوقف • وكم كـان بودنا لو ابقينا الجنديين معنا حتى نصل الى البئر ثم صرفناهما • فلو حدث ذلك لسار كل شيء على ما يرام • ولكن كنا نأمل بوصول المهيد ولم نكن نعرف بوجود مركـز الحراسة في الطريق ، كما كنا نأمل أن تتدخل قوة ما لتخلصنا من معذبينـا •

كانت الاخبار نذير شؤم مليئة بالغم ، وأخذنا نتوقع العودة العاجلـة الى الدير تحت الحراسة • وأسوأ الاحتمالات أن نساق كجواسيس للروس لنعدم في أقرب وقت • فأمضينا ليلة بائسة أخذنا نفكر بالهروب فيها على ظهور الخيل أو برشوة الدرك وأحيانا باستعمال السلاح • وعندما أشرق الصباح انهالت علينا النصائح الوقحة فوافقنا مجبرين على انتظار القافلة وانتظار أسوأ الاحتمالات • الا أن هذا لم يكن سيئا كما كنا نتوقع ، ولم يكن الموضوع أكثر من أمرنا بملازمة القافلة حتى نصل الى تدمر • وأوكلت مهمة وصولنا سالمين الى محمد وعمه حسن اذا كانا مسؤولين عنا أمام الباشا • فأذعنا لمـا طلب منا في الوقت الحاضر وسرنا وفقا للخطة المرسومة آملين أن تسنح الفرصة التي نضلل فيها الحراس لنهرب بعيدا من جديد •

لقدخابت آمالنا وأحبطت خطتنا،فلم يعد بالامكان مواكبة«البوخميس»• ويبدو أن محمدا هو الشخص الممتاز الوحيد الذي كان يستخف بأوامر الباشا• وعندما لاحت القافلة في الافق قال محمد : علينا أن نسير ونمضي في طريق تدمر، ولا فائدة من انتظار الاخرين • وهكذا تابعنا الرحلة دون أن نجد أية مضايقات مـن الدرك •

تحدث ولفرد مع محمد بجدية ، وأخبره بحقيقة ما ينبغي الوصول اليه ، وطلب منه أن يساعدنا ووعده في الوقت نفسه بهدية سنية في اليوم الـذي نصل فيه مخيم جدعان • وتعهد التدمري بدون تكلف أن يفعل ما بوسعه ، وأصر علينا ــ في الوقت الحاضر ــ الذهاب الى السخنة على الاقل • وهناك لا بد وأن نجد معلومات وربما أشخاصا يدلوننا أو يرافقوننا الى جدعان وقال:

انه لا يستطيع تحقيق ذلك وحده من دون مساعدة ، لأنه مثلنا لا يعرف مكانا محددا للعنزة ، ولم يكن له في السابق الذهاب بعيدا في الحماد • ولا يمكن لنا السير فيه وحدنا حيث سيصبح الماء شحيحا ويكون همنا أن نبحث عنه في جو حار ولم يكن لدينا سوى قربتين منه ، ولهذا كنا في سرور لانتهاز فرص أفضل في المستقبل •

أصبح محمد موضع ثقه كبيرة لنا عندما أخبرنا بسرور ومرح بأنه تلقى أوامر خاصة من الباشا بأن لا نغيب عن نظره • كان حسين يسر بالكلمات الاخيرة اليه ويهمس في أذنه مقلدا نابليون العظيم : افتح عينيك لما يجري واياك أن تدعهم يقتربون من البدو ؛ خذهم مباشرة الى تدمر وودعهم بدون أية سخافات الى دمشق واحذر أي بدو ••• أي بدو عندها ضحك محمد عاليا وطويلا وهو يتذكر هذا المشهد في الوقت الذي كان الباشا يمسك بأذنه ويحذره ، ثم أضاف : هؤلاء الاتراك كلهم خنازير • على بعد ميلين من البئر وصلنا الى بقايا قناة كانت تجر الماء تحت الارض من البئر الى خزان كبير : ومن المحتمل أنها أنشئت في عهد الرومان لتروي السهل في الماضي في غير أيام الشتاء ، لأنه في هذا الفصل لا يحتاج الى الماء الجوفي ولأن ماء المطر يخزن في المنخفض من تلقاء نفسه ودعا محمد هذه المنطقة باسم الخبرة •

ان هذا هو الطريق العام بدون شك الذي كان يسير عليه الناس في الازمان الغابرة قادمين من تدمر • ومن المحتمل أن يكون هو الطريق الذي هربت عليه زنوبيا عندما هزمها الرومان ، أما اليوم فتسلكه الابل بشكل واضح والقوافل المحملة بالذرة بين دمشق وبغداد • كانت التربة خفيفة رملية مليئة بالكمأ الذي برز فوق الارض هنا وهناك ، فأخبرنا محمد بأن الناس يبيعون الاوقية بقرش ونصف ، وكل رطل بنسين ونصف في دمشق ، وبقرشين ونصف في حلب • والكمأ في هذا العام متوفرة بكثرة فبينما كنا ننصب الخيام في الليلة الماضية التقط محمد منه كمية ملأت سلة كبيرة في غضون ربع ساعة • فعددت ما فيها فوجدته أكثر من مائتي حبة تماثل البطاطا في حجمها وبعضها كان بقطر اثني عشر انشا •

وقدرت ذلك الكمأ بست أوقيات ، ولذلك يمكن للمرء أن يحصل على حمل جمل فدره مائتا أوقية بقيمة خمسة وثلاثين شلنا وربما أربعون في اليوم الواحد • ولكن عليه أن يسير مسافة مائتي ميل مسرعا ليوصله الى أسواق البيع لأن الكمأ لا يبقى طازجا أكثر من بضعة أيام ولن يستفاد منه بعدها الا اذا حول الى شرائح لتترك تجف عندها يبقى الى الابد • ولم يتذكر محمـد فصلا من فصول الخير في الربيع متل هذا الفصل الا في ربيع مر وهو صبي منذ عشرين عاما • وربما كانت غزارة الامطار وكثرة الثلوج وراء كثرة الكمأ هذا العام حيث ينعم بتناوله كل الناس في المنطقة في وقت كانت القبائل فيه تملك ما يكفيها من الذرة لمدة عام كامل •

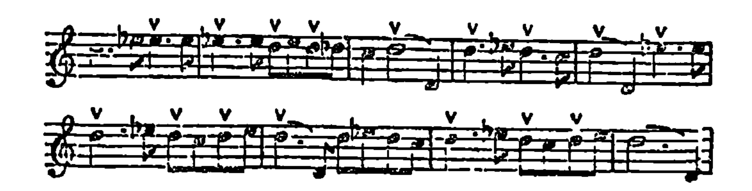
قمنا اليوم بمسيرة طويلة مملة تحت شمس وهاجة ، حيث بقي ولفرد على ظهر ذلوله طوال الصباح مهددا نفسه بالسقوط بسبب النعاس الذي غالبـه أكثر من مرة ، بينما كانت المتعة الوحيدة فيه مطاردة الثعالب التي استأثر بها محمد وولفرد دون مشاركتي لهم • فقد قاما بعدو متساو فوق أرض رخوة لمسافة ميلين وعادا منتصرين بجلب جلودها البيضاء • وعندما حل المساء خيمنا في سهل كبير واسع على مشارف الحماد تاركين هضاب جبل البشري في الشمال الغربي بسلسلة طويلة ، وهي امتداد لهضاب سنجار التي كانت تمتد بأسماء مختلفة على طول الطريق من الموصل الى دمشق • في السابع والعشرين من آذار مرت بنا قافلة أخرى قادمة من دمشق أمضت في الطريق أربعة عشر يوما • فأبلغنا أهلها بأنهم من هواة جمع الكمأ التدمري وقد مروا بالحماد وقابلوا جماعة من السبعة منذ أيام ، وهم يسوقون مائتي جمل أخذوها غنيمة مـن الرولة • ويقال بأن جدعان يتجه شمالا بعد أن دمر أعداءه • وهكذا أصبحنا على ثقة من حصولنا على أخبار مهمة في الطريق ، أو من أصدقائنا في تدمر ، لأن هؤلاء الجمالة لا يتلهفون لملاقاة العنزة كما نرغب نحن لأنهم في رحلـة جمع الرزق • وباعتبار أن البدو لا زال سوادهم الاعظم في الجنوب فنحن نعتقد أننا أول المسافرين على هذا الطريق يرون الرماح مشرعة في الافق دون خوف

سوى القلق البسيط . غير أن ولفرد هان عليه كل شيء وحتى الغزو تشجــع لملاقاتــه .

قنص آخر لثعالب في محاولات غير ناجحة هذه المرة ، لأن الثعلب المكار هرب بعيدا وبعد عدو ثلاثة أميال وصلنا الى هضاب منخفضة ؛ اختفى الثعلب بين أخاديدها على الرغم من الياردات القليلة التي كانت تفصلنا عنه . وفي هذه المطاردة أدت الخيول واجباتها بشكل رائع واضعة في الحسبان أن عليها المسير كل يوم ولن تطعم سوى العشب . وعلى حين غرة رأت هاجر ثعلبا يقفز ولم يوقفها شيء وهي تطارده ولحقت على فرسي طرفاء التي كانت أبطأ عدوا الا أنها تملك قوة تحمل عالية ، ثم شاهدنا ثلاث غزالات وحاولنا صيد الحباري ذات الريش الطويل في عنقها ، وأخذنا نعدو حولها على شكل دائرة كما نفعل في الصحاري . ولكنها رفضت أن تدفن رأسها بين الشجيرات فطارت مباشرة .

عند الساعة الحادية عشرةوصلناالىواد منبسط عريض ذي أطرافحوارية بيضاء . تحتل منتصفه بركة صغيرة من ماء المطر الذي جف بسرعة ولكنهـا لا زالت تحتوي كمية منه تكفي لنملأ بها قربنا الجلدية ، وشاهدنا عددا مــن طيور الشنقب تركض على أطراف البركة تصاحبها أسراب من طيور الذعريات. بعدها تركنا الطريق من نقطة لا أعرف اتجاهها وأخذنا نتجه نحو الجنوب ، لكي نتجنب الهضاب المنخفضة والمتدرجة التي كانت جزءا من السلسلة التي نطالعها عن بعد حيث تمكنا من رؤية الاجراف الحوارية البيضاء والتي تطل — كما أخبرنا محمد — على قرية السخنة أو الحارة ، ولا أظن أن اسمها يدل عليها ! وهل جاءت التسمية من كونها حارة في الصيف ؟ لا أدري ولكن ربما لتوفر الينابيع الحارة فيها . وعلى كل حال نحن لا ننوي الذهاب اليها ولكن نود أن نرسل غانما اليها في يوم غد عندما نكون في جنوبها لكي يلتقط لنـا بعض الاخبار . وجدنا سهلا رائعا غنيا بالعشب حيث توقفنا . وعشبه يكفي لرعي مواشي كل العنزة الذين يمرون في هذه المنطقة ولمدة أسبوع كامل . ودعاه محمد باسم وادي « الرواث » وقال : لا بد وأن يكون قد هطل مطر

غزير جدا هذا العام لأنه لم يكن قد شاهد في المنطقة عشبا يغطي التلال مثل هذا العام ، بينما كان غانم يغني هذا اللحن طوال اليوم •



في التامن والعشرين من آذار طالعنا صباح عاصف جدا حيث قرر نصف رجالنا التوقف حيث نحن • الا أن المطر قد توقف على الرغم من اعصار كان يهب علينا من جهة الغرب•ذهب محمد الى السخنة لجمع الاخبار اذ لم تكن تبعد عنا أكثر من خمسة أميال واتفقنا على اللقاء فيما بعد عند بركة ماء معينة حددها لنا محمد في الطريق عند واد معين • وهذا ما قادنا الى ان نفقد بعضنا لأننـــا وجدنا البركة ، الا أنها لم تكن البركة المطلوبة وعندها لم نشاهد محمدا طوال اليوم ، وعندما عرفنا بأنه لم ينضم الينا لم نكن في عجلة لمتابعة السير ، ولذلك تسلقنا قمة جرف عال ومن هناك شارفنا على مشهد رائع واحتمينا بملجأ صغير تحت جدار قديم حجب عنا الريح ، وأمامنا على بعد ثلاثة أميال تمكنا مـــن مشاهدة قرية السخنة البائسة الصغيرة تنبسط على واجهة منحدر حواري أبيض ، وكانت تنتهي عند أجراف تدعى الضحاك • وعلى يسارها انتصبت احدى عشرة شجرة زيتون في صف كبقعة عاتمة فوق أرض بيضاء • وفكرنا في وجود شخص خبير في القرية يمكن أن يأخذنا الى جدعان دون أن نذهب بعيدا، ولهذا أرسلنا غانما الـــى القرية على ظهر حمار أبيض وحسبنا زمن ذهابـــه ووصوله لأننا كنا نراه على طول الطريق • وعلى الرغم من كون المسافة كانت ثلاثة أميال الا أنه قطعها في ستين دقيقة لأن حماره كان سريعا ويخب خببا • ولم يغب غانم طويلا حتى عاد ، غير أنه لم يكن يحمل أخبارا ذات نفع • فمحمد كان هناك ولكنه ذهب وليس هناك من يستطيع اخبارنا عن أية أمور واضحة تتعلق بالعنزة ؛ لأن رجال القرية خرجوا في طلب الكمأ الا أن أحد بقاياهم في

المدينة تحدث عن جدعان وقال : انه كان في رحلة منذ ثلاثة أيام في الجنوب • وقال ذلك اما لأنه يخاف من مغبة الذهاب معنا واما لأنه فعلا لا يدري أين يقيم الآن •

سمعنا بعصابة من اللصوص كانت قد هاجمت القرية الليلة الماضيه . وساقت كل الجمال والخيول والاغنام لقافلة كانت تمر من هناك • وباعتبار أننا أمضينا شطرا من صباح هذا اليوم دون فائدة فقد واصلنا السير بانجاه تدمر الى الجنوب الغربي • فكان طريقنا يمتد طويلا عبر واد عريض في خط تنتظم فيه الاجراف على يسارنا والهضاب المرتفعة على يميننا • وأسفل الوادي عصفت الرياح العاتية التي شبهتها « بالمسترال »[1] في وادي « الرون » وكانت من القوة بحيث لم تستطع الجمال السير ضدها ، وهبت باردة ينفذ بردها الى العظام على الرغم من العباءات والالبسة التي كنا نلتف بها ••• جاهدنا لنسير عشرة أميال حتى وصلنا الى رأس الوادي حيث توجد أطلال لبرج من الابراج، وأصبحنا من هناك على طريق القوافل مرة ثانية وحالا طلع علينا محمد الذي كان يبحث عنا في طول المنطقة وعرضها ــ كما يقول ــ ولا بد ان يكون قد سار أربعين ميلا على فرسه البيضاء التي تبدو تماما كما وصف من قبل •

أخبرنا محمد بأن التلال التي على يمننا تدعى جبل العسور الذي يشتهر باللصوص وقطاع الطرق ، وطلب منا مواصلة السير الى أرك ثاني قرية نصادفها في الطريق ، ولكننا اكتفينا بهذا القسط من الصراع مع الريح اليوم ، ووجدنا ملجأ نأوي اليه وتوقفنا عنده في ليلة باردة جدا حيث ستقضي حيواناتنا مدتها في بؤس وشقاء •

في التاسع والعشرين من آذار أمضى كل من محمد وغانم الليل كله في حراسة جيدة للقافلة • وغانم لم ينم باستثناء بعض الوقت على ظهر الجمل أثناء النهار •وفي هذا اليوم انطلقنا مبكرا بعد أن أصبحت الرياح أقل عنفا

---

(١) المسترال : ريح شمالية عنيفة باردة وجافة تهب على المقاطعات الفرنسية الواقعة على البحر الابيض المتوسط .

عما كانت عليه بالامس ولم تعد تعصف في وجوهنا . وعند الساعة الثانية عشرة وصلنا الى أرك . كانت هذه القرية متواضعة كالسخنة ، وتضم خمسين بيتا محاطة بسور طيني واه يستطيع الانسان دفعه واختراقه بدفعة واحدة . وسبب وجود أرك نبع من الماء كان يكفي لارواء اثني عشر فدانا من الارض التي اخضرت بنبات الشعير — وحسب ما يروي لنا محمد — توجد سلسلة من هذه القرى الصغيرة تكونت في فترات زمنيه غير منتظمة على امتداد سموح الهضاب من دمشق حتى الفرات على شكل واحات متناثرة وأكبرها واحة تدمر ذات الاهمية الاستراتيجية . وربما كانت هذه الواحات بمثابة محطات هامة للتوقف على طول طريق تدمر : ولكنها اليوم تأخذ أهميتها من الينابيع وما ترويه حولها من مزروعات . وعلى كل حال عند أرك أو حولها يرقد جد محمد — كما يقول — المنسوب الى آل النبي . ولم يقر بعد بأن هذا المكان غير هام لأحد . فمحمد ابن الحنفية ابن علي بن أبي طالب اسم مقدس حوّل أرك من بلدة كافرة الى بلدة مؤمنة بالاسلام ، ومن هذا الطالبي يدعي محمد العبد الله بأنه ينحدر في الاصل[1].

ان الشيء الذي يلفت النظر في هذه القرية التي تقوم في البادية هو أنها تعطي فكرة واضحة عن مدن وقرى جزيرة العرب ، لأنها لا تختلف عن قرى الجوف . وعلى الرغم من أن التجمع السكاني منها لا يتحدر من أصل واحد الا أن سوادهم الاعظم من العرب الاقحاح . شأنها شأن بقية المدن السورية هذا اذا ما استثنينا اللهجة الدارجة بين السكان .

أخبرنا محمد بأن في تدمر العديد من العائلات النبيلة المتحدرة من بني لام التي استقر فرعها الاول وراء بغداد والفرع الآخر في الجوف . وفي هذا الوقت دخلنا لكي نتناول القهوة مع شيخ القرية فوجدناه رجلا عجوزا جديرا بالاحترام محاطا بأصدقائه . وفيهم مجموعة من لصوص العمور . فمازحهم محمد كثيرا حول مهنتهم اللصوصية وسألهم : لماذا لم يقوموا بزيارتنا الليلة الماضية قائلا لهم : ان البك كان في انتظاركم ليحسن الاستقبال ، وكان

---

(١) لا ندري كيف جمع محمد العبد الله في نسبه بين الهاشميين وبني لام ؟.

سيهديكم كل رصاصه الاحتياطي • فضحك الرجال وقالوا : ليتنا كنا نعلم بوجودكم وكماهي العادةكانوا اليوم قد سلبوا حمارا وبندقية من بعض المارة•

العمور قبيلة وليسوا مجرد عصبة من اللصوص ، كما أن هذا الوصف لا ينطبق عليهم كلهم لأن بعضهم على علاقة طيبة مع المجتمع . الا انهم يفتقرون الى قيادة شيخ يجمعهم • فكل واحد منهم ينصب خيمته حيث يريد وينصرف كما يحلو له • ويأوي الى العمور أحيانا بعض الهاربين والمجرمين الفارين ولكن بأعداد قليلة • وقرى تدمر وأرك والسخنة تترك ابلها وأغنامها ترعى بينهم في الربيع بأمان واحترام مطلق . ويأكل الاهلون ويشربون معهم عندما يلتقون على صعيد واحد ، الا أنهم بشكل عام قبيلة متواضعة غير ذات شأن ، ولهذا يتغافلون حتى عن واجب الضيافة للغرباء • وقال محمد : اذا ما ترجلت عن فرسك بين مضاربهم فربما نهبوك وجردوك من ثيابك • ولهذه الاخبار المثيرة رغب ولفرد بزيارة العمور في مضاربهم وعرض أحدهم على محمد أن يصطحبهما الى هناك ، لأن محمدا كانت تربطه علاقة طيبة مع كل الناس في المنطقة ، فرغب في ذلك لرؤية مهره الذي تركه يرعى في خيام العمور وربما ليطلب بعض الاغنام التي نحتاج اليها في تدمر •

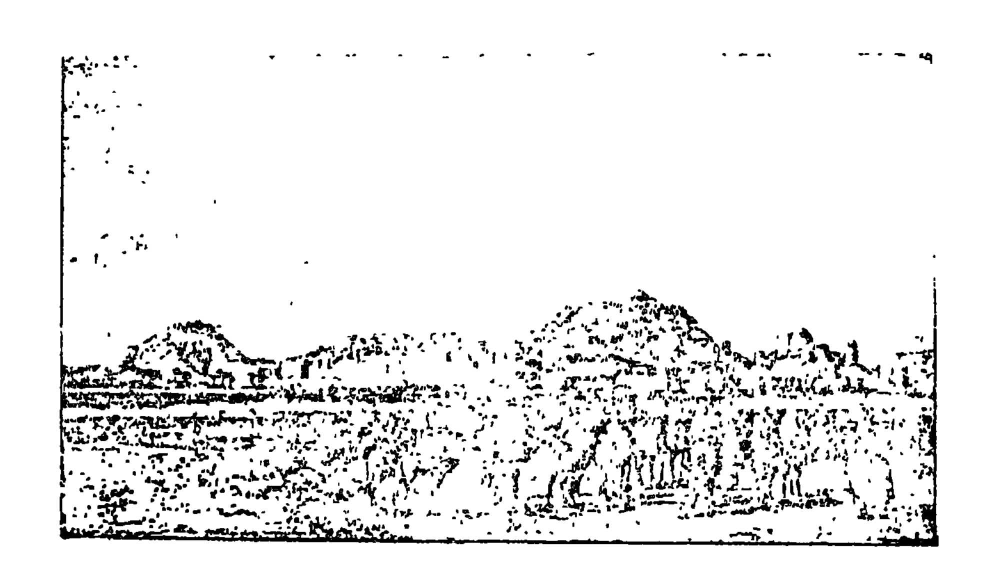
انطلق محمد وولفرد معا بينما اتجهت الى القافلة التي كانت لا تبعد كثيرا عن الطريق لأني كنت متعبة جدا • وعندما ذهبت وحدي لأستطلع الجمال وجدتها في السهل المؤدي الى تدمر ، عندها سرنا عبر هذا السهل بثبات طوال فترة الظهيرة •

شاهدت ــ في الساعة الثالثة ــ فارسا يعدو قرب الهضبات التي تقع يميننا ، وعلى الرغم من أنه لم يكن باتجاهنا بالضبط الا أنني من خطوات الفرس عرفت أنها هاجر التي عادت بولفرد مسرعة الينا ، بعد أن جلس في مخيم العمور مع محمد لشرب القهوة • لقد قام بجولة ناجحة وقال عنهم : انهم عرب كالآخرين باستثناء خيامهم الصغيرة ، وكانوا جميعهم يكنون المودة لمحمد . اذ عانقهم في الخيام كما لو كان شيخهم وهو ما كانوا ينادونه به فعلا اما على سبيل المجاملة أو لنسبه الشريف •

كانت المهرة « الصبحة » جيدة عندما أحضرها صلاح العمري مع ثلاث شياه الى تدمر في اليوم التالي • كان محمد يحاول الانضمام الينا بعد أن تركنه هاجرا بعيدا خلفها والتي قطعت المسافة ــ التي قدرناها بستة أميال ــ بأقل من عشرين دقيقة • انها هاجر فرسنا الرائعة الجميلة •

أخذت تظهر لنا أطلال تدمر بشكل واضح عند أقدام الهضاب التي تقع أمامنا • انها على ما يبدو بعسر أطلال الحضر نفسها • والمدينة الحديثة تحتل منطقة القصر وتشبه الحضر فيما لو كانت الاخيرة مسكونة مرة ثانية • تلف المدينة من الجنوب بعض أشجار النخيل والبساتين ومن هناك تنتهي ببحيرة على ما يبدو • ولكني أترك الوصف الى يوم غد • كان الوقت متأخرا لدى وصولنا الى تدمر وبذلنا صعوبة كبيرة في اقناع محمد بالسماح لنا بنصب الخيام خارج القرية بدلا من النزول ضيوفافي دار والده • ويبدو أننا قد نجحنا في امتصاص غضبه عندما وعدناه بزيارة مبكرة في يوم غد •• لقد شاهدنا وقواقا اليوم يجثم على الارض في وسط السهل بالاضافة الى عدة طيور من السنونو التي كانت تجوب المنطقة ونصل حتى الى داخل الخيمة • وفي الخارج سمع ولفرد طائرا يغرد فأخذ يتحدث عن انكلترا بكلمات لم أسمعهن منه طوال هذا الشتاء • فحنيننا الى الوطن دفعنا للمضي بسرعة في مهمتنا التي نترقب انجازها وهي زيارة العنزة ثم الرجوع الى الوطن ثانية •





تدمر

الفصـــل الثامن عشر

حيثما حـل الملوك ومستشاروهم وتطاولوا في البنيان توقـع التعاسة في النفوس .

● سفر ايوب

السياسة في البادية ــ الصراع الدامي ــ علي بك الشركسي ــ مؤامرات وخطط مضادة ــ لقاء في المخيم ــ المدير يوبخ من أجـل واجباته ــ أخبار عـن العنزة .

في الثلاثين من آذار علمنا أن عائلة محمد تتألف من والده عبد الله شيخ قرية تدمر الرجل العجوز الذي كان في السبعين من عمره . وكما هو الحال عند الاعراب عندما يدرك أحدهم الشيخوخة تخلى عبد الله عن كل شيء وترك قيادة العائلة لمحمد ، فأصبح البيت يضم اثنين من زوجاته في شقة منفصلـة بالاضافة الى أمه وبعض أخوته . وليس لمحمد من الذرية سوى طفلة واحدة في السنة الثالثة من عمرها ، ومحمد يتحرق بشدة لأنه لم يخلف ولدا . وجلب على نفسه العار لأنه سوف يدعى بالابتر ــ أي المقطوع الذرية من الذكور ــ ولهذا أخبرنا بأنه ينوي الذهاب في العام القادم الى الجوف لكي يحضر زوجة ثالثة من عمومته بني لام ، ويذهب الى هناك لقلة العائلات النبيلة في تدمر التي يصعب عليه تدبر عروسة له من بينها ، وسيذهب الى الجوف ليدفع أربعين ليرة مهرا لعروس من أصل نبيل على الرغم من وفرة العرائس المحليات التي لا تكلف الواحدة منهن أكثر من عشر ليرات . الا أنه يحتقر مصاهرة العائلة الوضيعة ولا يرغب في مصاهرة عائلة « برجوازية » حتى ولو قدمت عروسها لـــه على سبيل الهديـــة .

كانت أم محمد من عرب الموالي . ولكنه يعتز بنفسه كبدوي متحضر على الرغم من أن والدته من عائلة شيوخ الموالي . والعائلات النبيلة في تدمر

هي العائلات القادمة من نجد والتي تواجدت ـ كما نقول في انكلترا ـ مع الفتح ، بينما باقي العائلات هي عائلات سورية بحته واذا ما حسنت فهي من عـرب الفرات •

كان عبد الله الاول شيخا منذ عشرين عاما • وقبـل أن يحتل الاتراك المدينة كان ينافسه شيخ آخر من عائلة متواضعة ، أي أن ملكا آخر يوجد في هذا « البرنت فورد »[1] • وقوم كلا الشيخين في صراع مستمر ، وفي غالب الاحيان في حالة حرب ذهب ضحيتها عم محمد في احدى المعارك • ويبدو أن معظم أجداده كانوا يلقون المصير نفسه وتنتهي حياتهم نهاية عنيفة مأساوية • بيت عبد الله الذي دخلناه هذا الصباح كان داخل بوابة تدمر ، ويشكل جزءا منها لأن العديد من الغرف المستخدمة للاصطبلات وخزن البضائع بنيت في البناء الحر للبرج القديم ، ويطل بيته داخل المدينة على منظر جميل • وكـان بالنسبة لي أكثر متعة ، وجاذبية لا لأنه من البيوت الحديثة بل لبساطتـه ، ولوجود الاسوار القديمة والمعابد • ان هذه المدينة كانت في الازمنة القديمة ـ دون ريب ـ قصرا حصينا علـى غرار البناء الـذي شاهدناه في الحضر ، وكلاهما ـ على ما يبدو ـ بنيا في وقت واحد • كانت الجدران مبنية ثانيـة منذ زمن حديث ، ورقعت بمواد رومانية قديمة لأن البوابة كانت اسلاميـة الطراز • وهذا الخليط من البناء بطابعه المعماري البربري يشكل منظرا رائعا يخدم غرض الاخبار عن تاريخ القصر • ومما يثير الدهشة والاعجاب ضخامة الكتل الصخرية ، ويقول التدمريون عن تدمر : انها بنيت من قبل سليمان بن داود • وبعض الكتل الاخرى على العكس من ذلك تؤكد بأن الانكليز فيما مضى كانوا قد احتلوا المنطقة في سالف العصور[2] قبل سليمان بن داوود ، وكانوا هم البناة الحقيقيون للمدينة • وقد سئلنا كثيرا حول هذه الفكرة

---

(١) منطقة في بريطانيـا .

(٢) بطبيعة الحال قصدت الليدي بلنت الرومان القدامى الذين كانت تدمر جزءا من امبراطوريتهم الا ان تدمر حكمتها وانشات حضارتها القبائل العربيـة وعلى راسهم أذينة وزوجته زنوبيـا .

التاريخية الاخيرة هنا وفي الجزيرة ، ولكننا غير قادرين على تفسير هذا الاعتقاد السائد بلا ريب والذي يجعل انكلترا تدعي وجودها في كل هذه الاجزاء من جزيرة العرب • وسيكون هذا الاعتقاد حجة قوية لتبرير أي احتلال واسع فيما لو حدث في المستقبل •

بينما كنا ننتظر طعام الافطار الذي شغل محمد مع زوجاته في اعداده طلع علينا عمه حسن بوجهه الماكر • وهو الذي وصل مع القافلة قادما من الدير ليلة البارحة ولم نكن قد رأينا منه شيئا منذ أن غادرنا البئر • ولكن ربما مر بنا ونحن في استراحتنا في السخنة مواصلا السير في الليل والنهار ليصل بيته مبكرا خشية الحوادث • كان يرافقه المدير علي بك الشركسي صهر الباشا في حلب ، اذ بدا المدير مسرورا لرؤيتنا ••• ربما لأنه الاجنبي الوحيد الذي يسكن تدمر ، ولا يتكلم سوى كلمات محدودة من العربية • وعندما وصل أمطرنا بوابل من الاسئلة في خليط من العربية والتركية وفي صوت حزين شركسي اللحن بشكل يدعو للضحك • وكان مصدر حزنه هو انقطاعه في هذا المكان • وقص علينا بصوت عال وبطريقة ساذجة عدم تمكنه من الاختلاط بسكان تدمر لأنه لا يجد من يستحق معاشرته في المدينة • أما بالنسبة لمهام منصبه فلا يوجد ما يشغل به نفسه ، لأن كل واجباته كانت رمزية ، ولا تتعدى جمع الضرائب من الناس الذين يتهربون من الدفع ، بينما تحصل حالات سطو دون أن يستطيع تعزيز سلطته بعدد كاف من الجنود أو الدرك • انه في خوف دائم من الناس داخل المدينة وخارجها • ففي احدى المرات هاجمه العمور في البادية فأصيبت أصابعه أثناء شجاره معهم ، ولكنه هرب بعيدا على مطية سريعة • ولو كان يعلم أن مركزه هو هذا المكان البائس لما كان له أن يترك حلب مطلقا ، وكان قد كتب الى أخته زوجة الوالي يشكو من معاملته بهذه الطريقة ، ويهدد بأنه لن يبقى شهرا آخر في تدمر ، ولو أعطي كل الذهب في « استنبول » •• كان يروي ذلك في وقت كان التدمريون يصغون اليه بنظرات تدل على الاحتقار ، ولكنهم تدخلوا ورجوه أن يتحلى بالصبر ويستعين بالله ؛ غير أنه لم يستطع التكيف مع الظروف الصعبة على ضوء هذا الواقع • كان في

المجلس رجل تركي من مدينة « ايرزيروم » يعمل جابيا للضرائب ، ولهذا كان يثق به المدير ثقة مطلقة ، ولعله رفيقه الوحيد في المدينة • عمل هذا الرجل ردحا من الزمن في الدير ، وجاء اليوم يلبس ثيابا قسطنطينية ، ويضع على رأسه طربوشا شديد الانساخ • كان الجابي يتدخل أحيانا للتحدث بالتركية نيابة عن المدير ، ويصبح في بعض الاحيان وسيطا للترجمة بين المدير والتدمريين • كرهنا هذا الرجل بسبب ملامحه التي تدل على اللؤم على الرغم من تزكية محمد لــه ، والذي وصفه بالرجل الطيب • وعندما فرغنا من تناول الطعام جلسنا جميعا نتحدث بلهجة ودية ، فمال محمد الى الرجل وذكره بالرسالة التي وجهها حسين باشا الى المدير ، وجاء بها ليسلمها له بالذات •

سلم محمد الرسالة التي كان يحملها دون استشارتنا ودون علمنا مرتكبا بذلك خطأ فاحشا لم نكن نتوقعه • لكن لا مجال للوم بعد فوات الاوان ، اذ لم يعد بوسعنا التدخل ، وكل ما كنا نفعله هو مراقبة أسارير الموظف ــ وهو يقرأ الرسالة ــ أساريره التي كانت تدل على أن الرسالة لم تكن لصالحنا • وفجأة انقلبت طريقة علي بك الى طريقة حديث دبلوماسية ، وبدأ يتكلم عن مخاطر البادية وحالة قبائل البدو غير المريحة ، وعن الغزو واللصوص ، وباقي الحديث كان عن الاعراف الرسمية في المنطقة ، واقترح علينا بدلا من نصب الخيام خارج المدينة أن نجمع كل ممتلكاتنا ونستقر في بيت عبد الله ــ وهو ما يرغب به محمد مضيفنا الحالي ــ وهنا قاطعه حسن ذو الوجه الماكر موافقا على الاقتراح ، وطلب منا آن نضع أنفسنا تحت تصرف المدير ، وسوف يرينا كل شيء نرغب رؤيته ، وسيرتب متطلبات ما نرغب القيام به وبعدها سيودعنا بسلام الى دمشق •

أصبنا بالاحباط لهذا التحول الجديد في مجريات الامور ، ولم نجرؤ على ذكر أي شيء يتعلق بالعنزة • وعلى كل حال رفضنا أن نتزحزح عن مكاناتنا متذرعين

بأننا لا نملك الوقت الكافي لذلك ، وسنفعل هذا في مرات قادمة . فنحن نود رؤية الآثار أولا ، كما تتوقع وصول صديق حميم لينضم الينا قادما من حلب ؛ لأننا لا زلنا نحلم بوصول القنصل لينقذنا مما نحن فيه . كان القنوط يسيطر على ولفرد حول هذه الامور ، وتشاجر مع محمد ظهر هذا اليوم لأن الاخير كان قد أيد المدير في ازعاجنا بهذا الاقتراح . وتطورت الامور الى مرحلة الازمة عندما دق حداد وصفه محمد بالذكاء مسمارا طويلا في حافر هاجر لأن نضواتها كانت بحاجة الى تبديل . وبهذا المقدار قد طفح كيل المرارة فتركنا منزل عبد الله ونحن في غضب شديد . وربما كان هذا من حسن حظنا لأنه وضع محمدا على المحك ليقول كلمته بوضوح ، فيما اذا كان يرغب في مساعدتنا للوصول الى جدعان أم لا ، غير أنه يصر في الوقت الحاضر على أنه لا يملك أخبارا عن العنزة في تدمر ، ويعتقد أن علينا الذهاب الى دمشق الا اذا كنا على استعداد للانتظار هنا الى الابد . ولم يكن بوسعنا أن نفهم فيما اذا كان قوله من باب الصدق والحقيقة أم أنه من نوع اللف والدوران الذي يستعمله العرب عندما لايرغبون بفعل شيء ما،ومثلهم مثل الولد المذكور في الحكايات والذي يقول : انني ذاهب الى حقل العنب بينما يذهب الى مكان آخر ، وهم لا يرفضون بصراحة انجاز الخدمات أبدا .

وعندما كنا نهم بمغادرة المدينة انضم الينا المدير وموظفه ، واقترح علينا بأدب مشاهدة آثار تدمر فذهبنا معهم كمن يساق الى أعمال السخرة . ولكن كنا في شغل شاغل جعلنا نستمع أكثر من المشاركة . وعلى الرغم من تظاهرنا بعد الاعمدة وقراءة النقوش لقد كنا نأمل أن تتاح لنا فرصة أكبر للتفكير .

كان الجو حارا شعر فيه المدير بالملل وهو يتجول تحت وهج الشمس؛ ولهذا تخلصنا منه عندما غادر المكان لننعم بساعات قليلة من الهدوء . وقد شرعت الخيمة لتناسب مرور الهواء في جو حار ولنشعر براحة نفسية ، ونحن نرى الخيول والجمال ترتاح أمام أعيننا .

في الحادي والثلاثين من آذار قمنا بمداولات مضنية هذا الصباح ، ودار

الحديث بيني وبين ولفرد عما سنفعله في خطوتنا التالية ، بعد أن تقدمنا كثيرا وحققنا الشطر الاكبر من أهداف الرحلة • ولكن يبدو لزاما علينا الآن أن تتخلى عن الخطوة الاخيرة من هذه الرحلة المثيرة ، لأن الحظ أخذ يتحول الى غيرنا ، وواجهتنا صعوبات قليلة الا أنها أخذت تتراكم يوما بعد يوم لتسد الطريق ولتسدل الستار على المشهد الاخير من مسرحية مغامراتنا ، وبدا الامر شاقا جدا كما لو أن هاملت نفسه أسقط من المسرحية • وأخذنا نتأمل المستقبل الذي أخذ يهدد بانهاء الجولة التي نقوم بها بين البدو دون مشاهدة جدعان • واذا ما تم ذلك فستكون الخاتمة عقيمة واهنة مخيبة للامال • كان السهل الكبير الذي يتطاول أمامنا باتجاه الجنوب حتى الافق يضم هدف آمالنا ولكن كيف يتسنى لنا الوصول اليه ؟ فهل نتطلق وحدنا بماء لا يكفينا لأكثر من يومين أو ثلاثة بينما علينا أن تتوقع مسيرة أسابيع قبل أن نطل على مخيم العنزة ؟ ومما يؤرقنا ندرة المعلومات المؤكدة التي تحدد لنا الاتجاه الصحيح لمضارب العنزة . ولو حصلنا على ذلك لأعددنا العدة ولما بقينا هنا يوما واحدا ولكن من يجلب هذه المعلومات ؟!• اتفقنا في النهاية على أن يحاول ولفرد محاولته الاخيرة مع محمد • واذا ما فشلت فسوف أبقى هنا في المخيم ، بينما سيركب ولفرد وغانم فرسيهما الى حمص — أقرب مدينة الى المنطقة حيث تبعد حوالي مائة ميل من هنا — للحصول على معلومات عن السيد « سكين » ، لأن في حمص محطة مركزية للبرق في سورية ، وربما يجدان عميلا من عملاء العنزة في المدينة — الذين لا تخلو منهم مدينة مثل حمص — يمكن أن يساعدنا وقد لا يعودان في أقل من خمسة أيام ، وفي أثناء ذلك من يعرف ، فربما يصل القنصل ، أو تصل العنزة الى مقربة من تدمر ! في هذه الخطة ذهبنا لتناول طعام الافطار في منزل عبد الله ، وبعدها صممت على أن أخلد الى الراحة في هذه الفترة الصباحية ، ولم يكد ولفرد يغادر المكان حتى بدأ سكان تدمر يتوافدون على المخيم رجالا ونساء حيث جعلوا من أنفسهم مصدر ازعاج كريه لنا بسبب وقاحتهم ، ولهذا قررت أن أبقى ها هنا وحدي فيما لو ذهب ولفرد الى حمص كما كان يقترح • ولحسن الحظ قدم محمد مع بعض رجاله لزيارتي

في وقت كانت فيه مجموعات العذاب تحتشد كالنحل في الخيمة على الرغم من محاولات حنا المخففة لمنعهم من الدخول ، وبوصولهم تعزز موقفنا وأعدنا ترتيب خيمتنا من جديد .

أخبرتني بعض النسوة بأن سكان هذه المدينة ينقصهم كثير من الادب ، وهم شياطين الانس في وقت هم أنفسهم لا يجرؤون على التجول وحدهم ، وأحضرت لي هدية من اللبن والحلاوة وهي الحلويات التي كنت مغرمة بها جدا .
عند الساعة الثانية رجع ولفرد بأخبار سارة ، وأعلن أن كل شيء أصبح جاهزا الآن وقال : كم مرة كنا نخدع فيها ونصدق من قبل ! ولا يمكنني بالطبع عدها ، وفي مجال تمتين عرا الصداقة مع محمد أرسل ولفرد مع حنا البارحة عباءة وزوجا من الاحذية ، وقد عاملناه بهذا التصرف معاملة واحد من شيوخ البدو . وعلى الرغم من بساطة الهدية فقد جاءنا بالمقابل الثناء والتشكر والاطراء الكبير .

وصل ولفرد الى بيت عبد الله فوجد فيه نوعا من الاجتماع العائلي كان ينعقد لتقرأ فيه رسالة وصلت توا من الدير ، ولم يخبر في الحال عما تحويه هذه الرسالة لأنه يصعب أن تنفرد باثنين من هذه الجماعة المؤتلفة . ولكن بمناورة صغيرة انفرد بمحمد بحجة الذهاب لمشاهدة معبد الشمس الذي كان ينتصب داخل المدينة الحالية ويستعمل كاصطبل . ولحسن الحظ سُمح لمحمد بالذهاب مع ولفرد دون أن يتبعهم أحد من الفضوليين ، وعندما تسلقا أعالي البناء وابتعدا عن الاسماع تكلم ولفرد مع محمد بجدية وأخبره عزمنا على الذهاب الى جدعان رغم كل التحديات ، وبأننا لم نغادر الدير الا من أجل انجاز هذه المهمة . واذا لم يرغب بالذهاب معنا فسوف نبحث عن شخص آخر يرغب بذلك . فنحن أحببناه حقا وسوف نتخذ منه أخا لنا فيما لوساعدنا في اتمام هذه المرحلة من رحلتنا . وختم ولفرد الحديث معه ووعده بهدية كبيرة قدرها عشرون مجيديا تعطى له في أول يوم نصل فيه الى خيمة جدعان ...

ولا أعرف أي اسلوب من المناقشة أقنعه ولكن ولفرد قال : تحولت طريقة محمد في الحديث فجأة ووعد بأن يكون الخادم المطيع ، وسيفعل ما يطلب منه وكدليل على اخلاصه أخبر ولفرد بأن رسالة المدير تضمنت تعليمات من حسين باشا يأمر بارسالنا فورا الى دمشق ، وأردف قائلا : ان الدير بعيدة عنا الآن ويجدر بنا ألا نكترث لما يقوله الباشا بعد الآن ! أما بالنسبة لعلي بك فهو مجرد حمار ، وكل التدمريون يسخرون منه . وفي طريق العودة من هذا المشوار استرسل محمد في شرح الرسالة التي وصلت في هذا الصباح من الدير ، والتي محت من نفسه كل قلق كان يساوره بشأن ارضاء حسين ولهذا افترض ولفرد أن الرسالة كانت تحتوي بعض الاخبار غير السارة ، الا أن الحالة لم تكن كذلك بل على العكس تبين أن هناك منافسة قديمة بين عائلة محمد وعائلة « برجوازية » على رأسها شيخ آخر للظفر بزعامة تدمر ، والحصول على الاعتراف الرسمي من قبل الحكومة بشيخ جديد لتدمر . وبطبيعة الحال كان الباشا حسين يمني ويعد كلا الطرفين لأن تدمر تقع ضمن حدود مقاطعته . ويبدو أن قرارا بهذا الشأن قد صدر ولكن لصالح عائلة عبد الله ، ونفترض ذلك من الجاهزية التي أبداها محمد للعمل ضد الباشا . فهو قد ربح القضية ولا يطمع في أن يحصل على أكثر من ذلك ، وقد فكر في وقف التزاماته لأن مفعول الجميل لم يدم طويلا كما هو العرف الشائع عند العرب ، ويجب أن يؤخذ ذلك بعين الاعتبار عند تخطيط شؤون مصالحنا في المستقبل .

تأكد عبد الله حالا مما حصل ، ولهذا أصبح صديقا حميما لولفرد ، اذ أكد له بأنه يعتبره بمثابة ولده،ومن ثم توافد الزوار والمهنئون واحدا بعد آخر . وأظن أن الخبر قد عم المدينة كلها وعرف به الناس كلهم عدا علي بك .

وفي غمرة ما حدث تعهد محمد بأن ما اتفقنا عليه سوف ينفذ ، ولن يهمه بعد الآن من يعرف ومن لا يعرف . وأخذت تصلنا الاخبار ومنها : ما وصلنا عبر رجل أرسله محمد لجمع الكمأ منذ بعض الوقت في الحماد قال الرجل : ان السبعة على مسيرة ثلاثة أيام ويقدر المسافة بيننا وبينهم بستين أو سبعين

ميلا ، وهم يزحفون ببطء نحو الشمال ، ويؤكد الرجل أنه كان قد رأى بأم عينه الشاب مشهور بن مرشد شيخ القمصة ، وهو الرجل ذاته الذي يقال بأنه قتل ابن شعلان والذي أرسل لنا بطاقة دعوة لزيارته عندما كنا في حلب . ويبدو أنه من أصدقاء محمد الذي نجده اليوم أكثر حماسا ـ مثلنا ـ لكي ننطلق ، ومحمد دوما يفاخر بعلاقته مع البدو وصداقته لشيوخ العنزة على الرغم من اعتقادي بأنه لا يعرف جدعان بن مهيد .

وهكذا لم يبق الا المدير لكي نسوي الامر معه ، ولم تتردد طويلا في التحدث بصراحة عن نوايانا بعد أن حصلنا على دعم عائلة محمد ، ووعد ولفرد أن ينفذ ذلك في يوم غد . اشتد الحر بشكل لا يطاق وبدت البادية الى الجنوب وكأنها أتون تجيش في الغليان . ولكن جامع الكمأ الذي كان هناك عين لنا تلا صغيرا يلوح في الافق ، وقال عندما تصلون اليه فسوف ترون تلا آخر ، ومن التل الآخر يمكنكم رؤية مضارب ابن مرشد . ويبدو أن المنطقة لن تكون صحراء غير مطروقة كما كنا نعتقد في هذا الصباح .

في الاول من نيسان جاءني حنا في هذا الصباح ، وهو يبكي ليعلن عن عزمه على تركنا لأنه يعاني منذ أيام موجة حنين الى الوطن ، وقد صام جوفه عن الطعام . وأعتقد بأنه محموم كحرارة الشمس في هذا المكان ، وازداد قلقه لأنه سمع من ولفرد تفسيراً لعدم ظهور القنصل قولا يعتقد فيه أن القنصل قد مات .. وعندها اندفع خارج الخيمة وهو يصرخ بعويل مسموع ، ثم جلس على الارض وغطى رأسه بعباءته ، ورفض الحركة أو الكلام حتى المساء . وبعدها انتابته أحلام رهيبة حول مصير أطفاله ، وتشاءم بأنه لن يراهم ثانية أبدا ، وأصر أن يذهب الى البيت في الحال ، وليس هناك من فائدة في مناقشته ... يا لحالة المسكين البائسة ! اذ ليس لنا أن نغضب منه لأنه خدمنا مدة ثلاثة أشهر دون أن يتذمر ، وتحمل كل أنواع المشاق ، وأظهر مقدارا من الشجاعة لم نكن نتوقعها منه لأنه مجرد رجل مسيحي من حلب لا أكثر ولا أقل .

كان حنا يظن أننا كنا نضلله دوما بآمال كاذبة عن عودة القنصل وحتمية لقائه معه وهو الرجل الذي يتعلق به . وبعد كل هذا قال : تقولون ان القنصل ميت بوه ! بوه ! أما فرحان العقيلي المخلص ، فهو لا يزال يقوم بواجبه بصدق دون أن تصدر منه كلمة تذمر واحـدة ، الا أنه أصيب بعدوى حنا وأخـذ يتشكي من عمله المرهق الزائد ، وأنه قد خدع بتعهد رحلة لا يتناسب أجرها أبدا مع ما تقتضيه من عمل . فلا هو ولا حنا لديه الاستعداد للذهاب معنا الى الحماد . لقد اكتفيا من عناء البادية وهما يعتزمان الانضمام الى القافلة التي ستقلهم الى حمص بعد أيام ، للوصول الى بيوتهم بأسرع وقت ممكن . كان من الصعب أن تتصور حصول ذلك وماذا نفعل ازاء هذا الموقف ؟ غير أن الآمال قد انتهت عند هذا الحد . وأخذت أفكر في نفسي بأن المواد القيمة التي ستقتسم بين الخدم عندما تنتهي الرحلة ليست كثيرة ، وأن المخيم قد تحطم ، وحتى المال كما يزعمان لم تعد له قيمة ، وما فائدته طالما أنهم يساقون الى الموت في البادية ؟ وكنت متأكدة من أن فكرة ترك القدور وأدوات الطبخ لحنا فيما لو تابع معنا الرحلة ستفلح معه . وحتى فرحان ـــ هذا الرجل الطيب الذي نحتاجه ليهرج لنا ـــ سوف يبقى اذا مارأى حنا يعدل عن رأيه،ولهذا أعطيناهما مهلة اضافية لكي يعيدا النظر بما صمما عليه . كل شيء كان قد رتب وذهبنا هذا الصباح ومعنا قضية الى بيت المدير ، فاستقبلنا باعتذارات كثيرة في كوخه البائس الذي يسكنه ، اذ كانت أرضه غير مريحة ومن دون نوافذ أو أثاث أو أي شيء يمكن أن يجعله مريحا لساكنه ، فهو أشبه باصطبل فارغ مما هو المقر الرسمي للمدير ، ومع ذلك فعلي بك من أصل طيب ، ويستقبل الناس ويقوم بالتشريفات في هذه الدار بأدب بالغ عندها بدأت الملهاة الصغيرة لأن التفاصيل التي أعدت مسبقا مع محمد هم ولفرد بتبليغها للمدير بعد التحيات وتنـاول فناجين القهوة . وأخيرا قال ولفرد : نحن هنا قد جئنا لكي نودعك لأننا سمعنا بوجود العنزة قريبا من هذا المكان ، وسوف تنطلق الى مضاربهم في الصباح . أخذ علي بك يجادل بعنف مستخدما عربية ركيكة . ولكن محمدا وبقية القوم الذين جمعهم لهذه المناسبة لم يسمحوا له بالمتابعة وغمزوه بسيل من الكلمات

اللاذعة . وكان غير محظوظ بما يكفي ليقنعنا بأن البدو لصوص . وكانت تلك المجادلة بمثابة اشارة لرفع الصوت عاليا . وصاحوا : لا .. لا . ان العنزة يختلفون كلية عن العسور والناس الذين تعرفت عليهم يا علي بك في البادية[1] البك الانكليزي أخبر منك بهم . فأجاب المدير قائلا : ولكن مادا يريد البك من العنزة الذين يود الذهاب اليهم في يوم غد ؟ ولماذا لا ينتظر حتى يأتوا الى هنا . فرد ولفرد قائلا : نحن ملزمون أن نعود الى بلادنا ولا يمكننا الانتظار ، ونود أن نرى العنزة قبل مغادرة المنطقة . وليعلم المدير أن من السعادة أن نرتحل من أجل التفرج كما تسعدون في ترحالكم من أجل التجارة . والشخص الذي يطوف ويتشاهد كثيرا ينال الاكرام من شعبه . واذا ما عدت الى أصدقائي وأخبرتهم بأنني قد شاهدت بغداد وحلب وشاهدت قبيلة نسر في الدير والجزيرة وتدمر دون مشاهدة العنزة فسوف يسخرون مني ، وعندها ستكون رحلتي بمثابة عار عليّ واستخدمنا كلمة « عيب » التي تعني مسبة بين الاعراب، ونشبه أثر هذه الكلمة في أن نقول بلغة الانكليز : « من العار عليك ان لم تعطني ستة بنسات » . لاقت جمل ولفرد استحسانا من الحضور وصفقوا لها عاليا ، وصاحوا بعلي بك : ألا ترى أن ذلك سيجلب العار على البك اذا هو لم يشاهد جدعان ابن مهيد ؟!.

لم يفقد المدير الامل بالمقاومة ، ولكن بدأت قواه تخور ، واحتج بأنه لا يملك جنودا للحماية والمرافقة . عندها صوّت بالاجماع على أن الجنود لا مكان لهم في حملة من هذا النوع ، لأن الوصول تحت الحماية سيجلب العار على جدعان ، وهو ما لا يمكن التفكير به ، لأن جدعان رجل ذو نفوذ في تدمر . وكورقة أخيرة بقيت في يده اقترح علي بك الطيب مرافقتنا في الرحلة . وبطبيعة الحال عبرنا له عن سرورنا العظيم بالفكرة ، الا أن حسنا الذي يطمع بالحصول على العشرين مجيدي اخذ المدير جانبا وهمس في أذنه وقال له : ليس لرجل في مركزه ولديه أعمال كثيرة أن يرغب بالجري وراء بعض المسافرين الاوربيين

---

(١) فعند ذلك الحين سمعنا ان علي بك لم يتمكن من البقاء في منصبه سوى عشرة ايام وانتابته موجة من الرعب هرب بسببها الى الدير .

بين بدو ندمر فاحتار علي بك وسيطر عليه صخب واضطراب عام كأي موظف أحرج في موقفه وأخيرا غسل كلتا يديه من القضية وحملنا مسؤولية ماسيحدث لنا : وتركنا نختار الطريق الذي نريده • وفي الواقع لا أستطيع أن أفهم كيف يمكنه منعنا من المضي لو أراد ذلك ؟ وأخيرا علينا أن ننطلق في صباح يوم غد •

قضينا بقية اليوم ونحن نشاهد الآثار لأننا في وضع يسمح لنا بتقدير أهميتها أكثر من ليلة البارحة عندما ودعنا عبد الله • والقيام بصفقات قليلة ، اذ قدم محمد لولفرد هدية على شكل رأس حجري لا قيمة له وجده أثناء الحفر في العام الماضي ، ولكنه يصلح ليزين قوسا على غرار التماثيل والمنحوتات التي شاهدناها في الحضر ، لأن فن العمارة في الموقعين يكاد أن يكون متشابها • أخبرنا عبد الله أنه لم يزر تدمر أي أوربي في السنتين الماضيتين ، بينما كان بعضهم يأتي في الربيع لأسباب نجهلها لم يأتوا ثانية الى تدمر • وتدمر غنية عن أي وصف لها ولآثارها معا • وسألته فيما اذا كان يأسف على العهود الماضية قبل الاحتلال التركي فأخبرني بقوله لا لأن الحالة الآن أفضل من ذي قبل والضرائب عادت لتجبى بشكل منتظم من جديد أكثر مما كانت عليه تحت نفوذ البدو ، ولأن البدو لا تعرف ماذا يرضيهم ، أضف الى ذلك أن الاحقاد والضغائن في الماضي جعلت من الحياة في تدمر جحيما لا يطاق • ومهما تكن حالة الحكومة التركية الا أنها بشكل عام أفضل من لا شيء على الاطلاق • فالعرب من الرسالين في قبيلة السبعة من العنزة كانوا يجمعون الضرائب من تدمر ويفرضونها بأنفسهم ويمارسون حق مرافقة المسافرين هناك • الا أن الوضع قد تغير الآن • والطريق من تدمر الى دمشق عبر القريتين أصبح آمنا تماما •

كان الرجل العجوز عبد الله لطيفا جدا معنا طوال الوقت • أما الآن فقد استأذن وانصرف بتأثر بالغ •

يبدو أن محاولة أخيرة بذلت لتعطيل رحلتنا • فبينما كنا نركب خارجين من بوابة تدمر اعترضنا حسن ، وهو يهم بوضع يده على زمام فرسي ، وطلب

أن نصغي لما سيقوله ثم همس ليعلمني أخبارا سيئة وصلت من البادية تقول: ان شابا تدمريا ذهب لجمع الكمأ هناك فعاد مسرعا بعد أن جرده الرولة من ثيابه ، وقد جمعه بهم حظه العاثر وهم بقيادة شيخهم ابن شعلان .. كانوا يتقدمون لمهاجمة السبعة ، وأنه من الخطورة البالغة السفر في مثل هذه الظروف . ولم أعرف ما أقول له حول هذه القصة لأن حسنا من الرجال الذين كانوا يثيرون اهتمامنا، وكان يتحدث بالموافقة على رحلتنا . وحالما سمع ولفرد بذلك أعلن بأن هذه حماقة ، وعلى حسن أن يجاب الفتى لكي يستجوبه . ولم يطل بنا الوقت حتى عاد حسن برفقة شاب غبي فأمطرناه ببضعة أسئلة ليستبين الامر فوجدنا أن هذه الحكاية ملفقة من الأساس ، وكانت الاجوبة سخيفة جعلت محمدا يفقد السيطرة على نفسه ، وينفجر بنوبة من الضحك العالي ، وكان ضحكه رائعا جعل كل من يصغي اليه يشاركه بالضحك ، وحتى الشاب نفسه ضحك وعندها أمسك رجل بمشلحه المحترم وقال له : هل هذه العباءة ذاتها التي سلبه الرولة اياها في الليلة الماضية ؟ عندها لم يحاول الانكار واعترف بأن القصة كلهـا من نسج الخيال ، ولم نستطع أن ندرك هدف حسن من هذه اللعبة ، ولكنه بالتأكيد رغب في تعطيل رحلتنا يوم غـد .



الفصل التاسع عشر

الخدعة الغريبة والخيارات الاربعة ــ أربعون دقيقة سريعة حاسمة ــ وصل القنصل اخيرا ــ في طريقنا الى الحماد ــ اغنية قبرة البادية ــ غزو حقيقي ــ نبحث عن العنزة ــ جبل الغراب ــ نكتشف الخيام ــ جدعان يتزوج للمرة الخامسة عشرة لكنه غير سعيد ــ نبل البوادي ــ جدول حول سلالات الخيول ــ نكلف بمهمة الى الرولة .
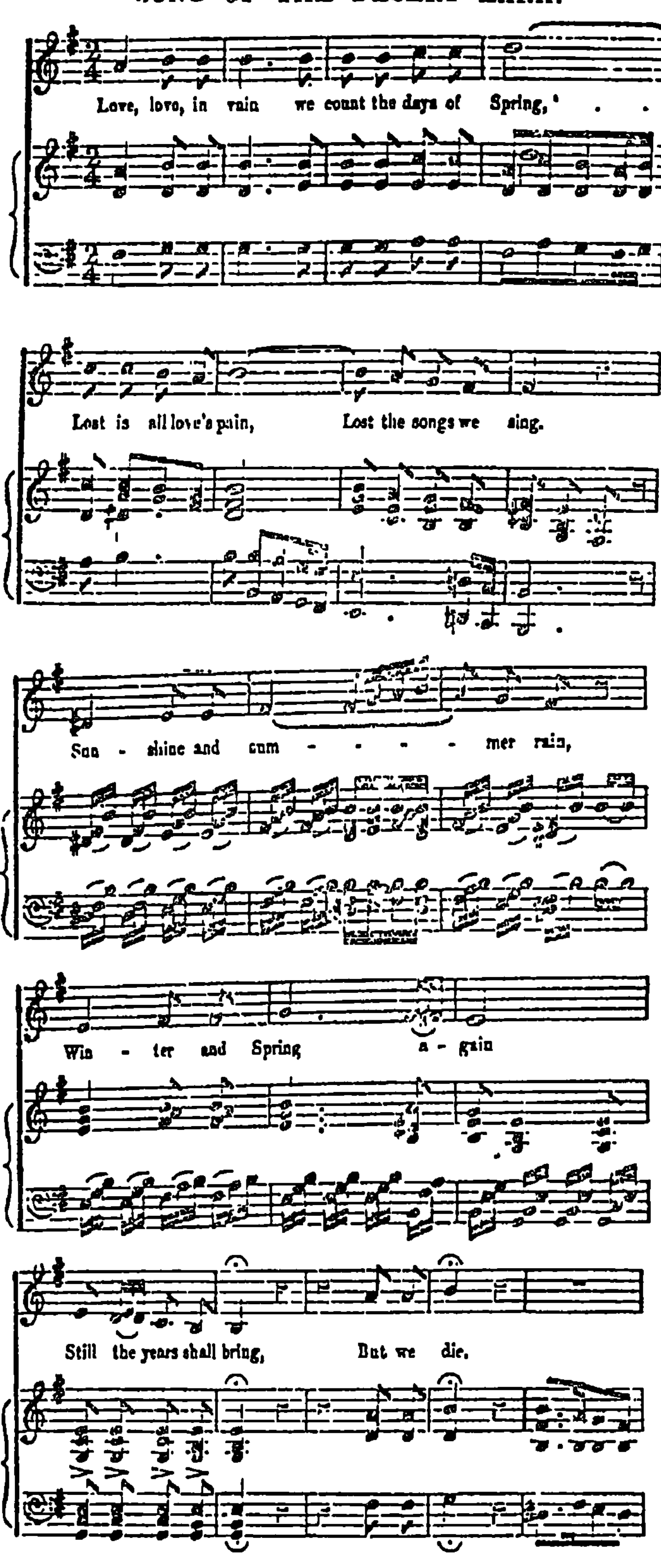
● **اغنية قبرة البادية[1]**
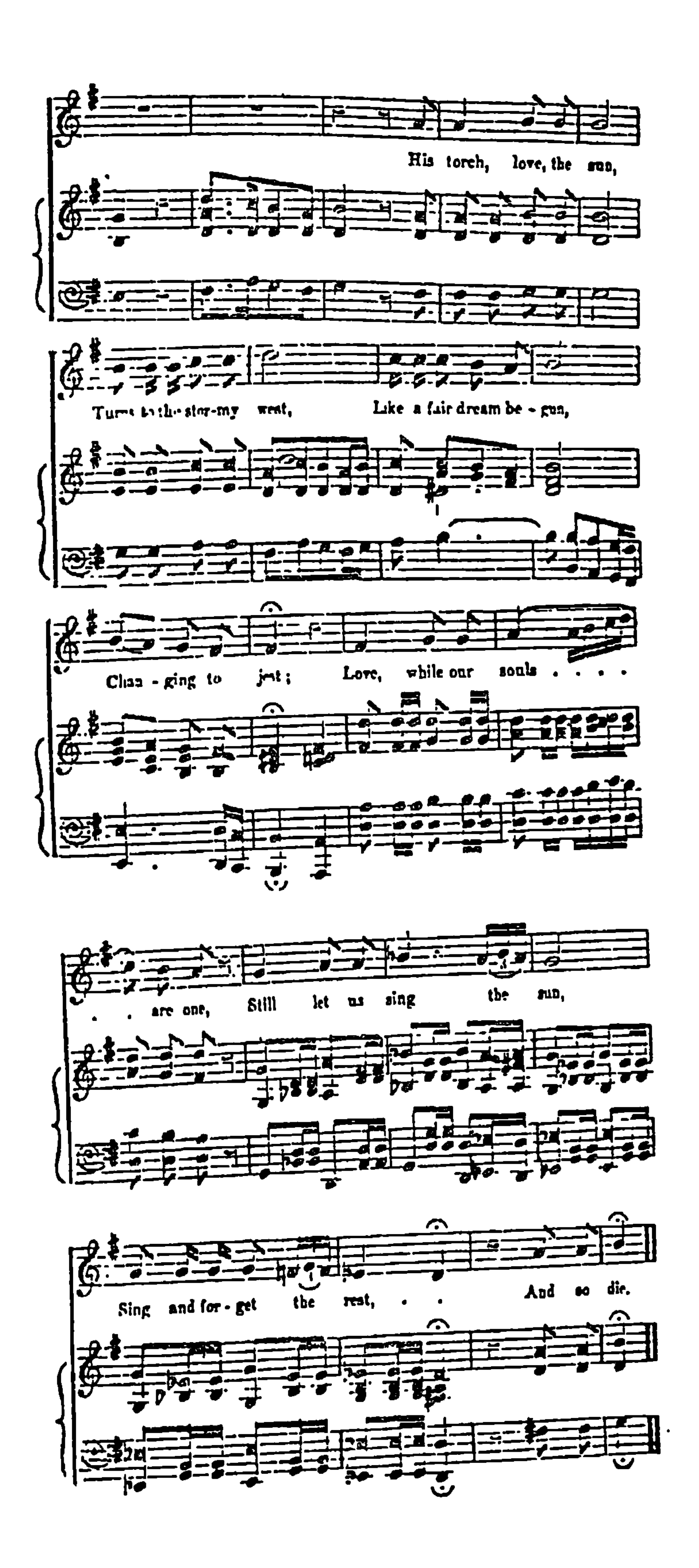
أيها الحب .. أيها الحب عبثا ما كنا نعده من أيام الربيع
لأن كل عذاب الحب قد ضاع
وضاعت معه الاغاني الحلوة
مثل سحابة صيف ... أو اشراقة شمس
شتاء يتلوه الربيع ... سنوات تذهب وأخرى
تعود
بينما نحن نغني ونموت
حب جذوته الشمس ... يتحول الى عاصفة هوجاء
ويبدأ الحلم الجميل ... فنلهو ونحب وتتعانق الارواح
وتتحد
عندها سنغني للشمس ... نغني لنتناسى الخلود
وبعد كل هذا نموت

---

(1) يبدو أن هذه القصيدة هي لليدي بلنت نفسها ! اذ لم تنسبها لأحد كما كانت تفعل من قبل في مقدمة كل فصل . وقد أوحت لها بهذه القصيدة اهازيج قبرة البادية العربية التي تعرف في بوادي العرب بأم سالم . الاسم العلمي : ALAEMON ALAUDIPES وهي فعلا تغني في نهاية الربيع اذ تنطلق الى السماء لترف بأجنحتها وهي تهزج ثم تهبط الى الارض من جديد ، مطلقة الحانا شجية رائعة . وفيما يلي نص القصيدة مع « النوطة » الموسيقية التي وضعتها الليدي لها .
وصف هذه القبرة أكثر من سائح انكليزي في ديار العرب .

SONG OF THE DESERT LARK.





His torch, love, the sun,
Turns to the stor-my west,
Like a fair dream be - gun,
Chan - ging to jest;
Love, while our souls . . . .
. . are one,
Still let us sing the sun,
Sing and for - get the rest, . .
And so die.

في الثاني من نيسان طار النوم من أعيننا ليلة البارحة ، لأننا كنا نعيش على أعصابنا ونفكر بقضية انطلاقنا الى العنزة ، وكنا نخشى أن نؤخر ثانية في آخر لحظة • وفي حوالي الساعة الثانية صباحا بينما كان ولفرد يطوف حول المكان سمع ضوضاء وأصواتا تقترب منا آتية من المدينة ، وعندها نهض فرحان ليتحدى القادمين ، بينما أصبنا بالهلع عندما سمعنا متحدثا يتحدث التركية ، وظننا بأنهم الجنود ، ووصولهم يذكرنا بما حدث لنا عند البئر الا أن هذا الصوت كان من أعذب الاصوات فيما بعد • صاح بهم ولفرد والبندقية في يده من أنتم ؟ ماذا تريدون ؟ فجاءه الرد : « يا واش ••• يا واش » أي مهلا بلطف ••• بلطف نحن جنود البك نحمل رسالة اليكم • فقال ولفرد : أي بك ؟ المدير؟ فأجابوا : لا •• لا جنود البك القنصل الذي وصل ليلة البارحة الى أرك ، وأرسلنا بهذه الرسالة اليكم •

أخيرا جاء القنصل حقا فسرت موجة من الفرح في المخيم ، وفاضت عينا حنا بالدمع وهو يعانق فرحان ليخبر الدنيا كلها بأنه لا يصدق أن البك حقا غير ميت • وبدورنا رفع عن صدورنا هم كبير • قال ولفرد : اننا كمن ربح الجولة الاخيرة بعد قتال مرير وكنا كمن يجد الوريقات الاربع بيد شريكنا مجتمعة •

اتضح أن السيد « سكين » لم يكن يغادر حلب الا في الايام الثمانية الاخيرة ، لكنه سافر مواصلا الليل بالنهار على أمل اللحاق بنا ، وقد أصبح في أرك القريبة منا على بعد خمسة عشر ميلا ، ولهذا قررنا حالا أن نذهب لاستقباله بأسرع ما تجري به خيولنا • وخيبنا في هذا القرار المبكر آمال تابعينا في الحصول على يوم آخر من الراحة • أمرنا رفاقنا بحزم الخيام والعودة سيرا الى أرك في ساعات الفجر الاولى • أما نحن فقد اعتلينا ظهور الخيل حتى قبل أن تظهر نجمة الصبح ، وانطلقنا عدوا حالما ظهر مرشدنا ، بينما أخذ الدرك يحاولون اللحاق بنا على ظهور خيولهم المتعبة ، معلنين أنه من المستحيل أن يسمحوا لنا بالذهاب ، لكن هاجرا كان لها رأي مخالف آخر فبعد أول ميلين جعلناهم وراءنا يغيبون عن الانظار ، وعدوت أطول مسافة عدو على ظهور

الخيل في حياتي ، وطوال المسافة بيننا وبين أرك ــ خمسة عشر ميلا ــ لم نشد العنان حتى وصلنا الى سفح الهضبة التي تقوم القرى خلفها ، اذ جاء ولفرد على ظهر الطرفاء التي أخذها لنفسه بينما ترك هاجرا لي • وفي الاميال الاولى تصرفت فرسي بشكل حسن ، وسارت بخطوات سهلة دون أي عجلة لا لزوم لها سامحة لطرفاء أن تجاريها في بعض الاحيان ، الا أنها ــ على الرغم من عدم اثارتها ــ لم توفر أي خطوة غير معقولة ، ولم تعد تهتم بالارض غير المستوية المليئة بجحور اليرابيع ، وانطلقت متسارعة حتى تركت ولفرد وطرفاء والجنود خارج السباق ، ومع ذلك لم تهدأ ثائرتها حتى وصلنا الهضاب والارض الحجرية الوعرة بعد أن قطعنا اثنتي عشر ميلا ، عندها شددت زمامها حتى توقفت حيث طلع الفجر ، وترجلت حتى وصلت طرفاء تجر نفسها في المؤخرة • ويبدو أنها ركضت فوق كل شبر في الطريق مع أنها غير متعبة ، الا أن سرعة هاجر كانت كثيرة بالنسبة لها ، اذ قطعنا اثني عشر ميلا بخمس وأربعين دقيقة في وقت لم تفتر فيه همتي أو همة ولفرد بعد عدونا هذا ، وبقية الاميال الاخيرة قطعناها بخطا متزنة • وما ان أشرقت الشمس حتى دخلنا بوابة أرك الحجرية ، عندها وجدنا السيد سكين يهم بالركوب لينضم الينا • وعجبا ما كنا نشاهد رجلين بعباءتين بيضاويتين وعمامتين صفراويتين يركبان نحونا وكأنهما من المتصوفة ؛ لأن لباسنا كان مهجنا بألبسة أوربية بدوية فلاحية ، وكان ذلك نتيجة المصادفة أكثر من كونه اختيارا • فليس من الحكمة بالنسبة للاوربيين أن يلبسوا لباسا بدويا خالصا في البادية ، لأن هذا يفقدهم هيبة جنسيتهم • بينمـا القبعات وعادات الركوب والملابس العادية في كل الاوقات تعتبر غير عملية ومستحيلة في الجو الحار ، فالمشلح البدوي يلبس فوق الثياب الخفيفة الاوربية ، وهي تؤدي فوائد كبيرة لأنها اللباس العادي في البادية ، أما المنديل « الكفية » المضاف اليها فيعتبر وسيلة مريحة لحماية الوجه ، غير أنا لبسنا العمامة بدلا عنه من بين جميع أغطية الرأس ، لأنها عملية في الرحلات وتفيد في الحر والبرد والريح والمطر ، وتحمي الرأس من ضربة الشمس بفعالية كالقبعة ، كما يمكن فكها لربط الجروح ، وتستخدم كحبل أو لجام في حالات الضرورة ، وفوق

كل هذا وذاك هي وسادة ضرورية للمسافر لا بد وأن يحملها معه في القافلة .
الا أن العمامة هي شارة الفلاح في هذه الديار ولا توحي بالاحترام مطلقا .

يلبس الموظفون الاتراك الطربوش فقط ، بينما يثبت البدو مناديلهم على الرؤوس بالعقال الذي قد يُصنع أحيانا من وبر الجمل...انه لباسنا الذي كان يدهش القنصل أكثر من مرة .

لا أعتقد أنني في حياتي قد استمتعت بالكلام من أجل الكلام غير هذا الصباح الذي أمضيناه بطوله ، ونحن نتحدث وبجعبتنا الكثير الذي نريد أن نقوله والكثير الذي نريد الاستماع اليه ؛ ولم تتوقف ألسنتنا عن الكلام لحظة واحدة لمدة ساعتين .

احتجز السيد « سكين » في حلب حتى يصل خلفه ، ولهذا السبب كان قد خذلنا ، ولكي يستدرك ما فاته سار في الليل والنهار آملا أن يجدنا في الدير . وفي الطريف[1] علم من بعض الدرك أننا قد غادرنا الدير الى تدمر ؛ فترك الوادي متجها مباشرة الى البادية ليصل الى هذا المكان مباشرة في ركوب شاق دون طعام أو ماء يكفي الحيوانات . وعندما وصل الى أرك عجز الحصان الذي يركبه عن مواصلة السير لمدة أطول . أما الفرسان اللتان جلبهما لنا فقد ظهرتا تعانيان من آلام حادة في الظهر ، لذلك تأخر بعض الوقت في الجزء الاخير من رحلته وجاهد للحاق بنا في هذا المسير . ومن حسن الحظ وصول رسوله في الوقت المناسب ، لأننا كنا سننطلق الى الحماد بعد ثلاث ساعات ولن يدركنا عندها أحد بعد ذلك .

كانت هناك أخبار سياسية نود سماعها . فالاتراك هُزموا قبل القسطنطينية ، وتوقيع هدنة وتغيرات في الوزارة قد حصلت ، وآلاف المواضيع الاخرى ناهيك عن حزمة من الرسائل الوافدة من انكلترا ، وهي الاولى التي تتلقاها منذ أربعة أشهر تقريبا . وعلى الرغم من تعطشنا لمعرفة الاخبار الا أننا قررنا عدم فتح أي منها الآن ، ولا حتى عندما نتجه الى الوطن باتجاه الغرب

---

(١) الطريف منطقة على مشارف دير الزور من جهة الشمال .

لأن الاخبار السارة غير ضرورية لتجلب لنا السعادة في هذا المكان ، بينما الاخبار السيئة ستحيل رحلتنا الى عذاب • وما فعلنا نعتقد أنه من الحكمة •

كانت الخيول الجديدة هي : السعدة طوقان الكستنائية التي اشتريناها من الدير ، التي كانت في واقع الامر رائعة الجمال ، باستثناء حاركها المعوج ، حتى انها لم تتأثر بالرحلة الشاقة التي قطعتها في الطريق الينا ، والحمدانية السري البيضاء التي اشتراها لنا السيد سكين من حاب فالفرس الاخيرة ولدت في نجد ، وأعطاها ابن سعود الى الحاكم التركي في مكة منذ خمس سنوات وجلبها الاخير الى حلب ليهديها الى عالم ديني ، والذي استخدمها هناك ومنذ ذلك الحين كفرس ولود ولتحمله مرة باليوم من والى المسجد مسرجة بالفيروز والذهب ، وباستثناء هذا التمرين لم تقم بأي جهد منذ ثلاث سنوات • أما في الايام الثمانية الاخيرة فقد مضت وليس من المدهش أن تقل مرونتها لأنها تشرف على الولادة• وعلى كل حال فأنا مسرورة جدا بوصولها • يبلغ ارتفاعها أربع عشرة قبضة وانشين ، ولها أجمل رأس كنت قد شاهدته في أجمل مزاح تتوقعه في الخيل • وكنت مسرورة لاستبدالها بطرفاء التي كانت خطواتها الخشنة ترهقني • وعند منتصف النهار وصلت قافلتنا بقيادة محمد ، وركض حنا أمام القافلة وأكب على يد القنصل يقبلها حتى يمكنني القول بأنه قد غسلها بدموعه •

نصبت الخيام في الوادي أسفل القرية ، وأمضينا يوما من أيام السرور كنا نمتع فيه الابصار بما نملكه من ابل وحمير وأثاث في المعسكر ، ولنزداد غبطة بالفرسين الجميلتين اللتين ستريحان كلا من هاجر وطرفاء المتعبتين ، ثم اشترينا حمارا جديدا للسيد سكين بخمس ليرات ، وتم طرد الدرك ، بينما أحضر محمد معه أحد رجال العنزة — مديد القامة طويل الارجل — في هذا الصباح ليكون دليلنا الى جدعان في يوم غد • ولحسن الحظ لم تكن أرك بعيدة عن الطريق المؤدي الى تلك الديار •

كان جاسر — رفيقنا الجديد — أسمر اللون زنجي الملامح ، الا أنه على ما يبدو من كرام الناس • وأسر لنا محمد بأن هذا الرجل ليس من الزنوج ،

وما لونه الاسمر العاتم الا لتعرضه طويلا لضوء الشمس • وكان غانم يمتعنا بموسيقاه ، ولكنه أخذ يتشاجر مع الارمني الجديد الذي جاء مع القنصل سائسا للخيل • فكل منهما يحاول كسب الثقة • وبطبيعة الحال أصبح لدينا الآن ثلاثة مسيحيين لأن القنصل أحضر بالاضافة الى سيمون الارمني خادما مسيحيا آخر • وهؤلاء مع حنا شكلوا عصبة كانت تنتمي الى طائفة واحدة ، وكثيرا ما يحدث مثل هذا الوضع في بلاد الشرق عندما يجد المتحدون أنفسهم قلة بين أغلبية وكانت عصبتهم ليستأسدوا على غانم ، اذ جاؤوا في هذا المساء بفرية ضد غانم يقولون فيها انه سرق بعض التبغ من حقيبة ولفرد • لكننا انحزنا الى جانبه ، وأخبرناهم بأنه ليس من خدمنا ولكن من خدم فارس الذي رجانا أن نعامله كضيف بيننا ، وأمرناهم بالمحافظة على الامن والهدوء في المعسكر •• يا لغانم المسكين ! يمكنني القول بأن أخلاقه العالية لا تتناسب مع ممتلكاته الشخصية ، ولكنه وبمنتهى المرح والعبقرية والطاعة ، وكانت ربابته متعتنا الاولى في الامسيات والعشيات ، وهو ما كنا نطلبه ونحتاج اليه •

الثالث من نيسان استقبل حنا جورجي خادم القنصل بكرم حاتمي، يبدو أنه تعلمه من البدو اذ وجدته في الليلة الماضية يستلقي على الارض المجردة بدون بساط أو غطاء في خيمة الخدم بينما التف جورجي متأنقا بمشلح حنا واحتل اللحاف القطني الذي يرقد عليه في عادته • سألت حنا عما فعل وفيما اذا كان جورجي مريضا • فأجاب ببساطة لا تطلب مني أن أزعجه •• انه ضيفي •

انطلقنا عند الساعة السادسة والنصف في جماعة مرحة نحو الحماد ، يتقدمنا العنزي جاسر صاحب الارجل الطويلة بخطاه الواسعة ماشيا على أقدامه • فامتد طريقنا الى الجنوب الشرقي ونحن نيمم الطريق مهتدين بتل على شكل سرج ، ويبدو أمامنا ماثلا في الافق •

كان الصباح جميلا بعد أن هب النسيم العايل في الليل ، وطاب الجو بعد أن كان حارا في الايام القليلة الماضية بينما كنا نجرب ركوب فرسينا الجديدتين • وعندما عبرنا السهل الجاف شاهدنا بعض الغزلان وطيور الحباري • وفي هذا

الصباح كذلك سمعنا لأول مرة صفيراً عذبا شجيا لقبرة صحراوية ، الطائر الذي يهزج بأغنية غريبة مدهشة ، وتساءلت ألا يكون هناك مسافر فطن ذو خيال فكر في لحظة « رومانسية » بأن هذه القبرة تستحق الاصغاء اليهـا ؟ انها طائر بني بصدر مرقش يقف عادة على القمم ، ويقوم بين حين وآخر بطيران قصير ماداً الريش الخفيف في جناحيه ثم يضمهما فجأة ويهوي الى مجثم جديد؛ وكلما قامت بهذا العمل تؤدي لحنا شجيا يمس شغاف القلب[١] .

وعندما سمعناها لأول مرة منذ أربع سنوات في البوادي ، دهشنا حيث كنا نظن بأن أحد الاعراب الذين معنا كان يصفر كي يسلي نفسه . ان طبيعة اللحن تشبه صوت الانسان ، وقدرنا أن يكون هذا الغناء صادرا من قبرة تحن به الى قرينها كما هي العادة عند الطيور التي تعيش بشكل أزواج ، حيث يغني أحدهما للآخر في مطلع هذا الفصل ويبثه شوقه وأشجانه ، وقد أوحت الي مقطوعة لحنها بلحن حداء في لحظة معينة كان يغنيه أحد الجمالة في قافلتنا .

وأخيرا اجتمع شمل جماعتنا لتتألف من حنا وفرحان وغانم من مجموعتنا ومن خادمي السيد سكين وجاسر المهيد ومحمد وابن عمه ، ومحمد الحمصي الذي يلتزم بسهام يؤديها للعنزة ، وقد قمنا بشراء الحمار منه ليلة البارحة وقام باتفاق ليرتين من سعره في شراء حمار آخر لا يزيد في قده كثيرا عن قد أكبر كلب من كلاب النيو فاوندلاند[٢] ، اذ يفرشخ أحيانا رجليه وأقدامه علـى الارض ، ومن الصعب علينا أن نحسبه مطية يمكن أن تركب .

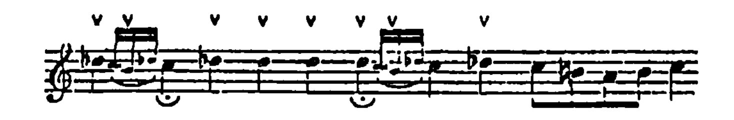
---

(١) أطلقت الليدي على هذه القبرة اسم قبرة الصحراء « DESERT LARK » بينما وصفها ينطبق على القبرة الهدهدية « HOOPOE LARK » وهي التـي يطلق عليها العرب اسم أم سالم وتتمتع بذات اللحن الجميل في مطلـع الربيع ونهايته . وباعتبارها من الطيور المغردة « SONGBIRDS » التي غالبا ما تعيش في موسم التكاثر الربيعي الصيفي زوجيا فغالبا ما يكون الذكر هو المغرد ليخطب ود أنثاه وبهذا تكون الليدي قد أصابت كبـد الحقيقة في قصيدتها الرائعـة .

(٢) كلب أوربي ضخم يتميز بقدرته على السباحة .

تخلفنا عن الركب لنتناول وجبة الغداء المؤلفة من الخبز والتمر ، بينما تركنا القافلة تسير بقيادة جاسر . وما ان فرغنا من تناول وجبتنا حتى ابتعدت القافلة ميلا أو أكثر باتجاه الامـــام . كان الوقت ظهرا والسراب في منتصف هذا النهار يبتلع عند الافق كل شيء ، حتى القافلة والجمال .وربما اختفت القافلة في منحدر سهل وأصبحت في منأى عن النظر ، ولهذا عدونا بخيلنا لكي نبقى على اتصال معها ، لأن فقدان الرفاق في السفر يعتبر أكبر وأخطر مشكلة في البادية . وكان حسنا ما فعلناه لأنه في الوقت الذي لحناهم به كانت مجموعة أخرى تاهت بدورها ولم نعد نراها ، ولهذا أرسلني ولفرد لكي أوقف القافلة بينما انطلق راجعا بسرعة لكي يجمع شتات من انتشر وتاه فوجد القنصل على رأسهم وهم يتبعون بعضهم بعضا دون وعي مشكلين زاوية قائمة مع الطريق الذي نسلكه . ولكن أين سيذهبون ؟ الله وحده يعلم . عندها عمل كـــل ما بوسعه ليقنعهم بتغيير مسارهم الا أنهم أصروا على سلامة الاتجاه الـــذي يمشون اليه . ان هذا الحادث البسيط جعلنا نلزم جانب الحذر لنبقى مع بعض سوية ، وأظهر لنا فائدة بقاء شخص منا على الاقل راكبا بشكل جيد ليحرس القافلة ، ولو كنا كلنا نركب الحمير أو الحيوانات المثقلة بالاحمال لكنا الآن قد تبعثرنا لا محالة على غير هدى في هذا السهل الفسيح .

سرنا بثبات حتى الغروب عندما توقفنا في واد عريض على مرأى مـــن هضاب معينة ، اذ أكد لنا جاسر بأننا سنرى خيام العنزة في يوم غد ، وبعد أن قطعنا في هذا اليوم ثلاثين ميلا غنى لنا غانم هذا اللحن :



في صباح الرابع من نيسان أخذ جاسر طريقا آخر لسبب غير واضح ، وانطلق باتجاه الجنوب الشرقي حتى عبرنا التل الذي شاهدناه في ليلة أمس ، ومن هناك ظهر في الافق صف من الهضاب كان يمثل أجراف حافة نجد علوي؛ فتقدمنا باتجاهه بتشكل مائل ، ونحن نترقب ظهور الخيام التي تتوقع وجودها في كل فج ، لأن جماعة من الصلبة[1] كانت تذكر في مكان مجاور من هـذا المكان • وعند الساعة التاسعة خيل لولفرد أنه شاهد رجلين يتلصصان من خلال أرض وعـرة على بعد ميل عن يسيننا ، فعـدا بجواده نحوهما ليعرف الاخبار تاركا السيد « سكين » معي في القافلة والذي لامه على ما فعل . وجعلني في قلق عندما قال : انه من التهور الفاضح أن يركب وحيدا الى أناس غير معروفين ، الا أن ولفرد مضى بعيدا غير مدرك لأهمية الانتقاد وهو كما أعرفه يمتلك مطية جيدة ويتسلح جيدا ولن يلقي بنفسه الى التهلكة ، وهنا تنبه محمد لما حدث فمضى في أثره ليساعده ؛ الا أنه من حسن الحظ أن القضية كانت سليمة ونافعة لأن ولفرد عاد بعد نصف ساعة ينطلق بأقصى سرعة ليخبرنا بأننا نسير في طريق خاطىء لأن العنزة قد رحلوا من أماكنهم التي تركهم جاسر فيها ، وأمرنا أن نأخذ جهة الجنوب • وعندما كان يركب ولفرد نحوهم وجد نفسه وجها لوجه مع عشرة رجال يختبئون في واد صغير بصحبة ثلاثة جمال عربية جثت متوارية عن الانظار وبتساحون بالرماح ، بينما أحدهم يمتلك بندقية فتيل وآخـر تسلح بسدس ، فتقـدم أربعة منهم وهـم يحملون الرماح في موقف تحد واضح ، ولكن دون أن يترجلوا وهم يقاربون المسافات • فسألهم ولفرد عما يكونون وماذا يفعلون في هذا المكان ، فتبين له أنهم عصابة غزو • لكن لم يكن يعرف هل هم من الفدعان أم من الرولة ؟ على الرغم من أنهم نسبوا أنفسهم للفدعان ويريدون سرقة ابل الرولة ، الا أن ولفرد يتوقع أن العكس هو الصحيح •

كانت العصابة بمزاج حسن ، ويتكلمون بطريقة بدوية عادية فظة،فأخبروا

---

(1) الصلبة جماعة مسالمة من سكان البوادي كانت تمتهن الترحال وصيد الغـزال .

ولفرد بأن جدعان في مكان قريب من هنا عند التلال التي كنا نتحدث عنها من قبل ، قائلين انكم في الطريق الخاطىء وعندما وصل محمد استجوبهم ثـم جلسوا جميعا بلطف وود حتى ان ولفرد أعطاهم بندقيته كي ينظروا اليها • انها من ماركة « وينشستر » ذات الطلقات الاربع عشرة ، فسروا برؤيتهـا وقالوا : لن يُخذل أبدا من يملك مثل هذا السلاح •• وهكذا تمنى لهم حظا سعيدا في غزوهم وعودة سالمة غانمة ، ثم انصرف برفقة محمد وهما يسمعان الكلمات الاخيرة من الرجال : جدعان ومحمد الدوخي وابن مرشد وابن هذال جميعهم خلف هذه التلة تماما « قريب •• قريب » وبناء على هـذه الاخبار المريحة للبال وجهنا جمالنا نحو الجنوب •

بدأنا نصعد من السهل باتباع واد طويل ومتعرج حتى وصلنا أعالـي التلال ، فوجدناها كما كنا نظن حافة متهدمة من نجد عاوي ، ومن هناك تطاول السهل متسعا أمامنا بشكل مستو غير وعر ، باستثناء هضبة تتألف من قمـم ثلاث عالية • وقال جاسر :انها فمم جبل الغراب على بعد عشرة أميال الـى الجنوب • لكننا لم نشاهد الخيام أو الجمال • وتطلب الموقف منـا بعض السرعة في اتخاذ القرار ، لأننا نتوقع أن تكون المعلومات التي قدمها رجـال الغزو كاذبة وربما نتوجه الى أرض عطشى قليلة الماء • احتار جاسر بين الطريق القديم والجديد ، بينما الآخرون يتفرجون لعدم خبرتهم بالمنطقة • وعلى كـل حال قرر ولفرد اعتلاء التلال واعتبارها أحسن مكان نراقب منه في أمل أن نشاهـد شيئا •

وانطلق الموكب يتقدمه محمد وولفرد حتى أصبحا على مدى البصر ، وعندما اقتربنا من الهضبة الكلسية المجللة بقمم ثلاث تمكنت من مشاهدة محمد وولفرد مثل نقاط صغيرة على قمتها ، وكأني أراهما يلوحان بعباءتيهما غير أني لا أشاهد المزيد ، لأن المسافة بعيدة جدا ، ثم نزلا الينا بوجوه كئيبة تظاهرا بها لتلك المناسبة بينما كانا يمتلكان أخبارا سارة يريدان قولها • انطلقا فوق القمم الثلاث بالتناوب ، ومن القمة الاخيرة نحو الجنوب الاقصى بدت لهما خيام على بعد عدة أميال • انها ـ بالتأكيد ـ خيام العنزة لأن بقع السواد

كانت تغطي مساحة واسعة تمتد من الشرق الى الغرب وأقربها الينا كانت الجنوبية . وعلى الرغم من الحرارة الكبيرة وتعب النظر في الارض الجرداء تقدمنا بمعنويات عالية . وصلنا بعد ساعات الى ابل ترعى فعلمنا من رعاتها بأنها تعود الى المهيد ــ قبيلة الفدعان ــ وأننا في طريقنا الى خيامهم مباشرة. ويبدو أننا أول أناس من العالم الخارجي يشاهدون مثل هذا الربيع ، الا أن القوم لم يعبروا عن أية دهشة أو استغراب لأحداث وجودنا ؛ واعتبروا وصولنا من الامور الاعتيادية جدا ، ولم يتدخل أحد بشؤوننا وعندما سألنا عن خيمة جدعان دلونا عليها ببساطة وتهذيب مثل عمال الارض في انكلترا عندما يدلونك على مالك الارض بهدوء . وهكذا مررنا بقطعان هائلة من الجمال ونحن في مسيرة ساعة حتى وصلنا الى الخيام ، فمشينا بينها اذ وجدنا خيمة الشيخ قد نصبت في أقصى المخيم وسط بقعة من نبات المنثور البري الارجواني ، وحولها عدد من الخيول والامهار ترعى بهدوء ، وعندها نهض أول شخص لملاقاتنا فوجدناه علي المهيد الذي نعرفه والذي تآمرنا معه في الدير ، الا أن اخفاقه باللحاق بنا كان سبب كل المصاعب التي واجهتنا ، فاعتذر برقة ولطف عما تركنا به من موقف حرج وقال : ان الباشا قد نسف كل الترتيبات وهددني بالشنق اذا لم أنصرف في الحال ، ثم أخبرنا بأن جدعان في مضافته وكان بانتظارنا ؛ وها هو يركب باتجاهنا انه رجل في العقد الاوسط من عمره يرتدي ملابس مهلهلة نسبيا ، ويركب على فرس رمادية عاتمة فرحب بنا ، ولكنه لم يكن مشهورا في طريقته أو ملامحه ومظهره . كان وجهه عاديا لا نكاد نميزه وملابسه لم تكن مهيبة ولا جذابة ، ويملك ابتسامة غريبة باهتة ، بينما كانت عيناه رائعتين تشعان ببريق خاص تحت حاجبين بارزين بوضوح ... رد على تحياتنا بوقار وسار معنا في صمت الى خيمته .. انه جدعان نفسه القائد الكبير للعنزة الذي يجلونه ويشرفونه ويطلقون عليه لقب : أمير العرب .

وأول ما تفوه به بعد تبادل التحيات العادية سؤاله عن نسب فرسي شريفة التي كانت تفتن العيون برأسها البارع الجميل . فصعقنا لهذا اللقاء الفظ ، ثم فطنت الى حلفه القديم وأخوته للقنصل الذي استقبله بسرور بالغ . وعموما

لن تتحمس كثيرا لهذا الرجل فالمركز الذي أحرزه في البادية قد قلب رأسه وأفقده صوابه •

ان الشيخ جدعان حديث عهد بالنعمة ، ويدين بمركزه الى كونه رجل حرب وسياسة وهو الذي بدأ حياته فقيرا من عائلة مغمورة في جماعه المهيد الجماعة غير الكبيرة في قبيلة العنزة • وجدعان رفيق الصبا بالنسبة لعبد الكريم وخصمه فيما بعد ويدين له بالمساعدة في مستهل حياته العملية ، ومن ثم جاءت شجاعته الفائقة وفروسيته اللامعة لكي تجعل منه رجلا مشهورا في قومه المحاربين الاشداء ، ولهذا انتخبوه شيخهم ولا يزال منذ سنوات الشيخ الوحيد للفدعان • ولم يمض وقت طويل حتى اختاره السبعة عقيدا بهم بعد وفاة سليمان بن مرشد الذي مات وترك السبعة كغنم بدون راع • ومنذ ذلك الوقت استلم زمام الامور لهذا التجمع المتحالف « الفدعان ــ السبعة » من العنزة • وكما قلت سابقا لم يكن مظهره يوحي بالجاذبية ••• حتى السمات وطريقته في التعامل تحتاج الى لمسة خفيفة من التربية الحسنة التي تميز أفراد الاسر النبيلة ، ولا يزال هناك أثر للعادة المسيطرة في البادية التي يكرم بموجبها العجوز تحت اسم الشيخ •

كانت ابتسامة جدعان صفراوية وعاداته محيرة وفظة كما لو أنه غير واثق تماما من مركزه ولو لم تكن عيناه تميزانه لكان كأي رجل عادي غير معروف • ولكن كانت عيناه كعيني الصقر باردة وثاقبة ومخيفة ••• أرسلنا اليه عباءة وأحذية مع حنا الذي أخبرنا بأن جدعان ــ عندما وصله ــ أمره أن يخفيها خشية أن يرى البقية[1] ما أهدي اليه ، وعندها سيكون ملزما لمشاركتهم بها • وكم كان يختلف عن فارس الذي وهب كل شيء قدم له بيديه سخيتين تماما : وعندما جاء ليرانا فيما بعد في خيمتنا تفوه ببضع كلمات ثم انصرف فجأة • فاما أن يكون قد شغل بأمر طارىء ، أو أن ترويه قد ورمت أنفه وطاش بها

(١) نظن ان هذه فرية من حنا لان جدعان ابن مهيد يعتبر من كرام البادية العربية •

رأسه ، لأن المرء قد يعرف أناسا في أوربا لا يطاقون لأشهر بعد فوزهم بثروة أو لقب أو بعد زواج بسيط !

قدّم لنا العشاء في خيمتنا : لحم حمل وكمأ ولبن وتمر ، أما الماء فكان عكرا جدا ولكنه بطعم حلو جيء به من بعض برك ماء المطر في منطقة مجاورة وماء المطر عذب دائما .

وفي المساء زارنا على التوالي : تركي بن جدعان[1] الولد الوحيد لجدعان والذي لا يستحق سمعة والده ، وفارس بن مزيد شيخ : مزينة[2] الذي أخبرنا محمد عنه بانه من أنبل الناس في الجزيرة العربية كلها . وأخيرا قبل أن ينتهي هذا اليوم أعطينا محمدا العشرين مجيديا التي كنا قد وعدناه بها من قبل في أول يوم نشاهد به جدعان وقلنا له : انه لا يستحقها بعد كل ما حصل ولكن لا بأس من الوفاء بالوعد .

في الخامس من نيسان كان العنزة في طريقهم الى الشمال والشمال الغربي، لأنهم لا يبقون أكثر من ليلتين في المكان نفسه ، ولهذا اقتلعت الخيام في هذا الصباح ، وجدعان ينتظر منا ـــ على سبيل المجاملة ـــ أن نفعل مثلما فعل القوم حتى يرمي خيمته أرضا . وبعد ساعتين من شروق الشمس كان كل شخص يسير في مشهد رائع لأن مخيمات المهيد غطت اميالا عديدة من الارض ، حيث تبعثرت على شكل مجموعات في الواحدة منها من عشرة خيام الى اثنتي عشرة خيمة ، وسارت على مراحل مقدار كل مرحلة ربع ميل على الاقل ، ولهذا فمن المستحيل تقدير عددها الكلي ، الا أن رتل الجمال امتد على مد الرؤية وعلى جانبنا . ويقال ان تعداد القبيلة يبلغ ألف خيمة .

ركب جدعان معنا طبعا لأنه اليوم الاول لزيارتنا فعزّف نشيد البدو على شرفنا كما فعله فارس وقومه من قبل ، الا أنه عزّف هذه المرة بهمة فاترة . ويبدو أن لا تأثير لشخصية جدعان بين قومه كالذي شاهدناه من احترام شمر

---

(١) قتل في احدى معاركهم مع الرولــة .
(٢) مزينة من قبيلــة حرب العربية المعروفــة .

لشيخهم ،حتى إن جدعان نفسه كان متقلب المزاج ودائم الانشغال . لقد أدى جزءا من النشيد كواجب أكثر منه متعة ثم توقف بسرعة . لقد سررت على أية حال عندما رأيته راكبا على اعتبار أنه أشهر فارس في البادية ويمتطي ظهر جواده العملاق ، وبالتأكيد سوف يعطي الانطباع الرائع عن براعة البدوي وقدراته في الفروسية ، فمقعده على صهوة الحصان يثير الاعجاب . ومن الطبيعي أن نقارن الاوربي بالعربي الذي يجلس عادة جاثما على أكتاف فرسه ؛ بينما جدعان على العكس من ذلك كان يجلس جيدا على ظهر جواده ، ورجلاه تتدليان بسهولة بعد الركبة ، بينما بدت يداه مثاليتان .

حصان جدعان ذائع الصيت في القبيلة .. قوي البنية في السنة الرابعة من عمره ويرتفع خمس عشرة قبضة على الاقل ويتيه به معجبا . الا أنني لم أتحمس له . انه كميت اللون من سلالة كحيلان الاخرس ، أقدامه الثلاث بيضاء بينما[1] يطلق الشمال ويملك بقعة بيضاء كبيرة أسفل الانف ، وله كتف مائل جميل وربعان قويان . الا أن الرقبة كانت ثقيلة والعراقيب عالية لأنه فرس قتال أكثر من كونه فرسا للسباق .

انضم الى الركب تركي ولد جدعان ، وأخذ يشارك في مناورات الخيل بشكل فظ موضحا بأنه ليس من الفرسان المهرة . ومن بعض التعليمات التي كان يلقيها عليه بعض الفرسان عرفت بأنه شخص يفتقر الى المرونة واللطافة . وركب معنا محمد أعزل وكيل جدعان بن مهيد . وهو مواطن من اورفا بعينين عسليتين ووجه شاحب نسبيا يعرفه القنصل معرفة قديمة ، والطبيب اللاهوتي الحلبي والعلامة عبد الرحمن العطار الذي كان يتمتع بنفوذ ملحوظ بين العنزة لا لمهنته الدينية فقط ، بل لأن والده كان تاجر خيل تربطه صلات حميمة معهم . ويبدو أنه اليوم بينهم في مهمة دبلوماسية تتعلق ببعض النزاعات بين القبائل ، فأخبرنا القنصل بأن عبد الرحمن هذا هو رجل مثقف يتقن الشرع الاسلامي والقانون ومحترم فوق كل ذلك على الرغم من أنه يتحدث التركية

---

(١) أي انه محجل في ارجله كلها عدا الشمالية وهو مصطلح من مصطلحات الخيل .

التي لا تستسيغها أسماعنا ، وبدت عليه سحنة ابن المدينة البائس ، ولهـذا تصادقنا معه لأنه على ما يبدو مرجع ومعين لا ينضب من المعلومات عن البادية وتاريخها ونظام السياسة فيها . انتهى النشيد الذي عزف فترجل جدعان عن جواده . وامتطى مهرا هزيلا رأيناه عليه البارحة وودعنا قائلا لدي عمل أنجزه في مكان آخر . ثم تركنا بصحبة ابنه وانعطف نحو اليسار . وبدا أن شيئا ما يدبر في الخفاء . ولكن لا يمكننا أن نعرف أحرب هو أم سلم ؟ وحالما ذهب بدت علائم الارتياح بادية على الخدم ، فأخذوا يتلهون بترك الصقر ينقض على الحباري ويقتنص الثعلب . ولكن على ما يبدو هنا لا يهتمون كثيرا بمثل هذه الاشياء ، ويختلفون في الهوايات كثيرا عن أقاربهم في البوادي العربية .. كان الصقر كبيرا جدا وأكبر من الباز الجوال ، ومدربا جيدا لأنه بمجرد فقـده لطريدته يعود في الحال اذا ما سمع نداء سيده . انه شيء رائع أن ترى هذه الصقور تجثم زوجيا على كفل فرس سيدها وربما على هودج زوجته ، وهـي تحافظ على توازنها بمد أجنحتها بينما انهمكت الكلاب السلوقية في عمل دائم طاردت فيه الثعالب والغزلان التي هيجها الصف الطويل من الجمال الذي شغل مـساحة واسعة ، وتطاول عدة أميال . كانت الكلاب صغيرة أصيلة ومعظمها[1] ينسب الى نوعية فارسية ، ولها آذان ناعمة وأذناب طويلة .

كانت القافلة تسير على غير انتظام . ففي المقدمة مجموعة الخيالة الذين لا يأخذون خطا محددا في السير . فهم يذهبون في هذا الاتجاه ثم يغيرونه ، اما لعدم المقدرة عند البدوي في السير على خط مستقيم أو للبحث عن المرعى المناسب وأماكن تصلح لنصب الخيام ! وعند كل ميل يقطعونه يترجلون للتشاور وانتظار قدوم الجمال التي كانت تتهادى ببطء خلفهم وترعى وهي سائرة . وفي كل مرة نظن أنهم سوف يخيمون يتابعون المسير ، استمر الامـر هكذا

(١) سلوق قرية في اليمن تنسب اليها الدروع والكلاب وقال بعضهم :

الناس طرا كـلاب حفوا بكـل طريق
فمنهـم قلطـى ومنهم كلب سوق
فـان ظفرت بحـر منهم فذاك سلوقي

حتى الساعة الواحدة عندها شك تركي رمحه أخيرا في الارض ليخبرنا أن مكان المخيم ها هنا • كان المكان بقعة كافية في واد عميق يدعى وادي الحلبة ، اذ يبلغ عمقه أربعين قدما تحت مستوى السهل ، ويشكل مرتعا واسعا من العشب والازهار • وكنا نستدير طوال اليوم حول جبل الغراب ، الا أنه لا يزال عند حد الافق على بعد خمسة أو ستة أميال الى الشمال والشمال الشرقي •

كان الجو حارا والشمس وهاجة بينما كنا بانتظار الجمال التي تحمل الخيام ، الا أن فرسي كانت لطيفة جدا عندما وقفت لأجلس في ظلها من أجل كتابة المذكرات ، ولطيفة جدا عندما تتركني وتذهب بعيدا في المساء •

لقد وجدنا تفسيرا لمشاغل جدعان بالامس • فلقد تزوج منذ يومين للمرة الخامسة عشرة !••• أسر بذلك وشكا بلواه للسيد « سكين » أكثر رجال مجموعتنا شهرة ، وقال : ان ولده أحمق فظ ــ مشيرا الى تركي الذي كان في الرابعة والعشرين من عمره ــ ولا ينفع القبيلة في حالة الحرب وفي حالة السلم لأنه بليد وغبي وأخرق ، حتى انه لا يستطيع ركوب الخيل كغيره • كان هذا هو سبب شقاء جدعان وسبب كل هذا العدد من الزيجات ، وكان يأمل بوريث جدير بتحمل المسؤولية ، لذلك تزوج اليوم ويتزوج في المستقبل لهذا الغرض، وهو الآن قد بلغ الخامسة والخمسين من العمر،وفي‌عصمته خمس عشرةزوجة• جاء الى القنصل هــذا المساء معتذرا : أمان أمان «سلام ــ سلام ــ سامحني» ثم أخذ يقص مشاكله على القنصل • انه في قلق دائم ويأسف لحربه مع الرولة، الا أنه يضطر لمتابعة الحرب بسبب كونه عقيد السبعة ، وربما في بعض الاحيان ضد رغبته الشخصية • ويبدو أن الامور تسير عكس ما يشتهي ، وهو الذي زوج ابنته تركية لابن شعلان شيخ الرولة • وعلى الرغم من تشاجرها معه فهي تعتبر سطام ابن شعلان من أقربائها العنزة •

كان جدعان قد تركنا اليوم بسبب وليمة الزواج الاعتيادية التي يقدمها والد العروس للعريسين في اليوم الثالث بعد زواجهما ، اذ ذبح على شرفهما جملا صغيرا ودعا كل الاقارب ، وكان حمو جدعان الجديد ينتمي الى السرحان من العنزة ويعيش مع أسرة ابن كعيشيش شيخ الخرصة •

يقال : ان العروس في غاية الجمال على الرغم من أنها تبلغ الثلاثين من العمر ، وتعتبر عجوزا عذراء بالنسبة للفتيات العربيات ، وقد منعها من الزواج طوال هذه الفترة ظرف عائلي خاص • فحسب تقاليد البادية تبقى الفتاة تحت تصرف ابن عمها ، وعليها أن تنتظر سنوات حتى يختارها للزواج أو يعتقهـا ، وهو ماحدث في هذه الزيجة ولكن شخصية جدعان القوية أقنعت والد العروس أن يتجاوز عن حق ابن عمها بها ، وقد ساعد على ترتيب الامور كون والـدة جدعان من عرب السرحان ، وكانت تتلهف جدا لرؤية الوريث الجيد لولدها جدعان ، ولم يهدأ لها بال الا بعد أن زوجته ونفذت خطتها ومع ذلك يبدو أن هناك نوعا من الشك حول مشروعية هذا الزواج •

ما ان وصلنا الى مكان التوقف حتى نصبت الخيام وخرجنا نطلب الماء لخيولنا تاركين الاخرق تركي بن جدعان منبطحا في خيمتنا ، لأن الخيول لـم ترد الماء منذ البارحة وتعاني من العطش تحت حر الشمس الوهاجة • وكان قوم جدعان كلهم بدون ماء ، ولكنهم كسالى في طلبه وربما لا يبالون براحة حيواناتهم على الرغم من أنهم يتحدثون بكلام غير واضح عن ماء قريب ، الا أنهم لم يتحركوا باتجاهه ، لذلك ذهبنا بأنفسنا مع محمد في الاتجاه الـذي وصف لنا • وما ان سرنا ثلاثة أميال حتى وجدنا بركة ضخمة من ماء المطر ينتصب خلفها مخيم للبدو •

ان الخيول المسكينة سعدت بغط أنوفها في الماء العكر • أما نحن فلم نفكر بالتوقف لنشرب وكانت فرسي النجدية تشرب الماء بشكل غريب •• تضع أعلى شفتيها في الماء وتستمر بعب الماء لعشر دقائق ، وأقدر بأنها تشرب ملء قربة ، بينما تقحم هاجر أنفها كله لتشرب بشراهة •

كانت الخيام تعود الى الموايجة ـــ احدى فرق السبعة ـــ وعندما شبعت الخيول ذهبنا لزيارة شيخهم ، فوجدناهم ينصبون الخيام ، ولم تكن خيمة الشيخ قد نصبت فاستقبلنا في خيمة عمه علي •• انـه فرحان بن هديب شاب في الثالثة أو الثانية والعشرين من عمره ، صاحب الاخلاق الحميدة الرائعـة

التي تميزه عن كل البدو الذين قابلناهم • قصير القامة يميل الى النحافة ولكن برشاقة وبيدين وقدمين صغيرتين جدا ، وبدت على محياه النقاوة مع نظرة كئيبة ومسحة زيتونية غامقة ، وكان يرتدي ملابس بسيطة على الرغم من أن شيئا واضحا في مظهره الخارجي يخبرنا بأنه من أصل نبيل • وعاداته بالنسبة لنا تؤكد ذلك ، فمن طبعه الصراحة والهدوء ولا يحب الفضول ويزخر باللطف، فاعتذر ببساطة وعزة نفس عن الاستقبال غير اللائق الذي قابلنا به • ولعل قبيلته هي الوحيدة التي عانت من ويلات الحرب مع الرولة • ففي مستهل الاحداث نهبهم جند الاتراك الذين أحضرهم ابن شعلان لمساعدته مما ترك المواييجة بدون خيام تظلهم • وما هذه الظلل البائسة التي يعيشون تحتها الا من صدقات السبعة ، وحتى قدور الطبخ والاواني وأشياؤهم الموروثة في خيمة الشيخ قد ذهبت وكل ما يستطيعون جمعه بين أيديهم الآن ابريق من النحاس يعدون به القهوة ، ولا يملكون الخبز ، ويعيشون فقط على التمر والكمأ • وقال فرحان : الكمأ خبزنا وهو أفضل من خبز المدينة • أما عن الحرب فقد تكلم — بطبيعة الحال — بشيء من المرارة ، وذكر تفاصيل الهجوم الغادر الذي قام به ابن شعلان والقوات التركية على قومه ، اذ حوصر معسكرهم أثناء توقفهم في جوار مدينة حماة ، الا أنهم استطاعوا أن يتدبروا أمرهم ويهربوا بكثير من الخيل والجمال ، وأكد أن الحرب يجب أن تستمر حتى تتم استعادة كل ما فقدوه • وعندما سألناه عن رأي جدعان في كل ما حدث • أجاب : الحرب طبعا ولكن لا أدري ماذا يبيت في قلبه • انهم يعرفون جدعان فاتر الهمة وتنقصه الحماسة لبدء الحرب• أما المواييجة فهم يختلفون جدا عن جماعة جدعان غير المتمدنيين الذين يتميزون بالفظاظة • ان هؤلاء القوم في منتهى الادب، حتى ان فرحان نفسه يذكرنا بنموذج رائع لأحد أبناء الاسبان العظماء، ويعتبر أصله من الاصول المفضلة بين السبعة • أخبرنا محمد بأن عائلته مع عائلة ابن مرشد تأتي في المقام التالي للعائلات الخمس الكبيرة ذات الاصالة المطلقة بين العنزة • والعائلات هذه : عائلة ابن مزيد من الحسنة ، وابن هذال من العمارات ، وابن جندل ، وابن الطيار ، وابن سمير من ولد علي •

أخبرنا محمد بهذا عندما كنا نهم بالركوب اليوم • وسألت فرحان عن صدق ما قال فأجاب : بنعم ، وسألته عن سر هذا النبل ! فأخبرنا بأنها كذلك • وهذه العائلات الخمس كانت تذبح طوال الوقت خروفا للضيوف ، بينما الباقي تعلم منهم هذا الصنيع فيما بعد • وجدنا عند علي مهرة ومهرا كميت اللون شغلا نصف الخيمة ، وكان الاخير في الاسبوع الاول من عمره ويتمتع بجاذبية عالية ، ربط كما هي العادة بحبل في عنقه بينما كانت أمه ترعى بعيدا عنه وتصهل باستمرار ، وكان أليفا جدا حيث تركني أربت عليه وأخذ يشم جيوبي كما لو كان يعرف بوجود بعض السكر فيها •

عرض علينا علي فرسا ثانية من سلالة عبية شراك ، كستنائية اللون قوية ولكنها غير جميلة حتى كنا نظنها من سلالة الكوب[1] الوسيم في انكلترا ، الا أننا سررنا بحصان فرحان أكثر من غيره ، لأنه من سلالة هدبان مشيطب الذي أفضله جداً على حصان جدعان ـ كحيلان الاخرس ـ ولم يكن ذلك الحصان يزيد في عمره عن الثلاث سنوات •

تلهف قوم ابن هديب لكي نبقى في ضيافتهم ، لكننا لم نكن نرغب المخاطرة بالاساءة الى جدعان ، لأننا تركناه دون أن نودعه ، ولهذا وعدناهم بالعودة اليهم ثانية في أقرب فرصة ، ثم ركبنا عائدين الى وادي الحلبة بعد أن واجهتنا عاصفة من البرد والمطر •

في السادس من نيسان حدث برق ورعد ينذران بمطر ، فجاء جدعان الى خيمتنا كأول شخص يصلنا هذا الصباح ، وتكلم بصراحة عن كل ما فعل في السابق • ومما قال إني لا أحبه لأنه رجل أناني ولا تهمه في الحياة الا خططه وطموحاته ، وأرى فيه بعض السلوكية الدونية تحجبها عن الظهور التربية الحسنة • وأعتقد أن السبعة كذلك لا يحبونه ولكنهم بحاجة اليه بعد وفاة سليمان بن مرشد الذي مات وتركهم بدون قائد ، لأن جدعان يتمتع بعبقرية عسكرية فذة مع أنه في قلبه كان لا يميل الى الحرب • ومن غرائب ما فعل في

---

(١) الكوب : جواد قوي البنية قصير القوائم .

الشتاء الماضي : تزويجه ابنته الى ابن شعلان زعيم الرولة ، على الرغم من كونه القائد العسكري للسبعة ولا ندري فيما اذا كان يبغي من ذلك دوافع سياسية، كما أنني لا أستطيع فهم حقيقة مشاعره تجاه هذا الزواج بعد أن كانت النتائج سيئة لأن ابنته عادت من زوجها منذ ثلاثة أشهر وأعلنت بأنها لم تعد تستطيع العيش معه ، ومع ذلك لا زال جدعان يتحدث عن ابن شعلان ويقول : انه يملك حقوقا مترتبة عليه بسبب المصاهرة •

وعن أسباب الحرب قدم لنا ايضاحا يقول فيه : منذ زمن لا يمكن تذكره كانت السبعة تحتل سهول حمص وحماه كمراع صيفية لمواشيهم ، وكانت تدفع نوعا من الايجار للحكومة التركية لقاء هذا الامتياز مقداره ستمائةجمل، فقامت الرولة في شهر أيار الماضي ــ التي تضاعفت عما هو عليه الحال في السنة الماضية ــ وقدمت عرضا بدفع ألف وخمسمائة جمل داعمة هذا الطلب بهدية تتألف من خمسين فرسا لتوزع بين موظفي الحكومة في كل من دمشق وحمص وحماه • ولكي تضمن الدعم زحفت قبل وصول السبعة واحتلت تلك المراعي ، وعندما وصلت السبعة دارت معركة انهزم فيها الرولة ، وذهبوا بقيادة سطام ابن شعلان يطلبون مساعدة الاتراك وقاموا بشراء مساعدة الباشا فحصلوا على مجموعة من المشاة الاتراك ، وعندما زحفت هذه القوة المشتركة حاصرت القمصة والموايجة في مكان منعزل • ويبدو أن السبعة لم تقم بواجب القتال كما يجب ، ولم تبد مقاومة تذكر فنهبت بشدة حيث حاصرت القوات المخيم وأسرت خمسين فرسا وساقت مائة وثمانين جملا وثلاثة آلاف شاة • ومنذ ذلك الحين والحرب تستعر لأخذ الثأر ، وأكد جدعان بأن القتلى من الطرفين لم تزد على الخمسين رجلا •

تبرز ملامح جدعان عندما يثار ويغضب ، ووجدت في عينيه الجميلتين اشعاعا غريبا مدهشا ، ولهذا اقترحت أن أرسمه فتشجع للفكرة ثم جلس بصبر غير عادي لمدة ساعة ، ثم نادى على وكيله ليكتب لنا تحت الرسم لقب أمير العرب ــ لقبه الجديد في البادية ــ ويبدو انه يسر ويفاخر بهذا اللقب كما تسر الناس بالالقاب في انكلترا • الا أن اللوحة لم تنصفه وأوحت بملامحه الخشنة

دون البريق العرضي الا أنني نجحت في رسم مخطط لابنته تركية ، المـــرأة الجميلة الجذابة التي شاهدتها بعد ذلك مباشرة .

انصرف جدعان وحالا قمت بزيارة «الحريم» وهناك في مكان التشريفات وجدت خزنة زوجة جدعان الاولى وأم أولاده الثلاثة . أما الزوجة الجديدة فكانت تقيم في خيمة منفصلة خاصة بها . كانت خزنة امرأة كريمة جدا وتقوم بواجبات الضيافة في بيتها اذ أجلستني بالطبع في مكانها وكانت لها بقايا هامة من سمات امرأة حسنة بدوية تملك أطفالا بالغين ، اذ أشارت الى تركي الذي جلس في الخيمة يداعب طفلا بأنه ابنهـــا .

دهشت بصدق لمحيا خزنة الجميل ولعاداتها الانيسة ، الا انهـــا كانت مُحرجة ربما لأنها كانت ترتدي عباءة بغدادية رائعة موشاة بالذهب والارجوان مع الملابس المبهرجة التي يبدو أنها لم تكن معتادة عليها ... انها المرة الوحيدة التي شاهدت فيها محاولة للبس الثياب الانيقة بين النساء البدويات . سألت خزنة عن زوجة ابن شعلان فالتفتت الى فتاة شابة تجلس الى يسارها وتحمل طفلا بين ذراعيها وقالت : هذه تركية فنظرت اليها واذ بها مخلوقة رائعة بوجه رائع الجاذبية على الرغم من ملامح وجه جدعان المتجسدة فيه ، وحتى العينين كانتا مشعتين ولكن لا تعبران عن نظرات الصقر التي كانت في عيني والدها . وكما قلت فيها ملامح والدها الا أنها كانت جميلة . صادقتها في الحال وطلبت منها أن تجلس كي أرسمها ، وبينما هي تجلس كانت احدى زوجات تركي ــ كان لديه ثلاث منهن وعدد من الاطفال ــ تحاول الضحك الا أنها تداركت نفسها وتصرفت بشكل لائق . تطفل علينا السكرتير محمد أعزل بحديث ممل لا ينقطع ومعه مجموعة الحضور التي دهشت لرسوماتي . والذين قاطعوني مرارا بمراقباتهم . وكانوا يقدمون النصح والتشجيع . وكـــانت الملاحظات تدفعني الى اظهار السمة العربية والنباهة لأن العرب يفهمون في الحال مدلول التخطيط والخريطة التي تبدو غير ذات معنى عند غير المتعلمين في أوربا .

كانت الطفلة التي تحملها تركية في السنة الرابعة من عمرها من زوجهـــا

السابق وزوجها السابق كان أخا لوالدها[1] مات مجنونا منذ حوالي الثلاث سنوات ، ويبدو أنها لا زالت تحبه وتتعلق بذكراه حتى انها تندبه وتنوح عليه كلما مرت مناسبة بينما تمقت زوجها الحالي وتتحين الفرصة للتخلص منه وقالت: انها لا تستطيع العودة الى سطام ابن شعلان وتريد أن تبقى في عائلتها. ولجدعان ابنة أخرى أجمل من تركية تدعى : عريفة ... فتاة في الحادية عشرة من عمرها رأيناها البارحة عندما أحضرها فارس بن مزيد شيخ الحسنة معه لكي نراها عندما جاء لزيارتنا .

جلس تركي صامتا طوال الوقت عندما كنت أرسم ، وعندما فرغت من الرسم وهممت بالانصراف أحضر ثلاثة أو أربعة مسدسات انكليزية وأمريكية الصنع لكي نراها . ويبدو أنه مولع بجمع مثل هذه الاسلحة النارية ، وكان يصوبها بطيش في كل اتجاه ليخيف الرجال والنساء والاولاد في الخيمة ، الا أن « السكرتير » أخذها بعيدا من يده ، ثم ألقى علي خطابا صغيرا علمت من خلاله بأنه ليس من الحمقى كما تصورت بل أراني كل هذه المسدسات لكي يتوصل الى طلب مسدسي ، والطلب قدمه عن طريق أمه التي لم تؤيد مطامعه عندها اعتذرت بقولي : انني لا أستطيع الاستغناء عنه ، ثم استأذنت للانصراف من خزنة وتركية عائدة الى خيمتي .

وجدت ولفرد يقرر الذهاب الى مخيم فرحان بعد ظهر هذا اليوم ، ووجدت حنا يشتكي من فظاظة القوم الذين لم يعد يستطيع منعهم من دخول الخيمة ، مما جعل حياته لا تطاق وأعلن بأن تركي بن جدعان جاء البارحة مع ستة من أصحابه ، وتمددوا منبطحين طوال اليوم على السجاد والوسائد ، وعندما كلمه حنا صاح به قائلا : خنزير ... كافر ... ومن المحتمل أن تكون هذه مبالغة من مبالغات حنا ، الا أن ولفرد يعتقد بأننا يجب أن نكون مرتاحين أكثر وننعم بالهدوء مع السبعة الذين هم في غاية الادب . وخلاصة القول : يتمتع رجال جدعان بسمعة سيئة في كل البادية باستثناء مقدرتهم على القتال .

---

(١) اخ بالاتفاق حسب طريقة التآخي عند البدو لا بالنسب .

عدنا الى بركة الماء التي غادرناها ليلة أمس لنجد صديقنا فرحان مسرورا لرؤيتنا ثانية • ومن حسن الحظ نحن اليوم بين الموايجة الذين هم في أدب رائع أكثر من غيرهم •

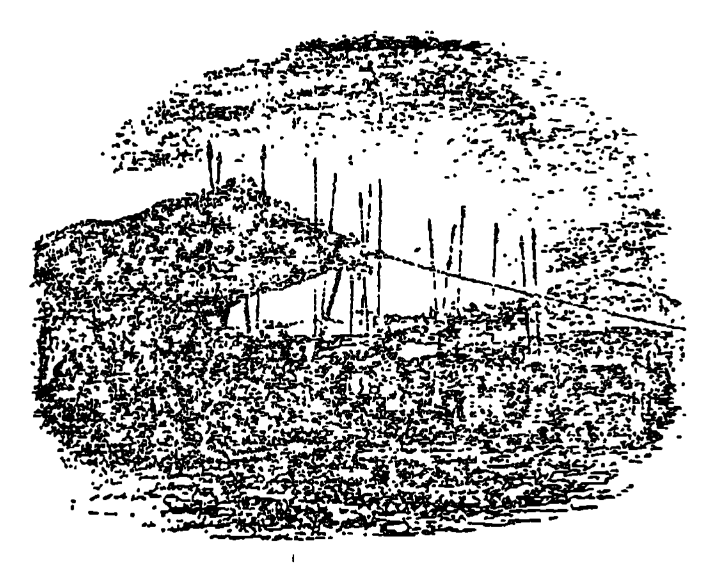
كان جدعان مملا عند فراقنا بطلبه غير المعقول لمسدسي الذي لا نستطيع الاستغناء عنه ، وبذلك كانت تنقصه مقادير كافية من الترفع وعزة النفس • ولم نأسف لشيء مثلما أسفنا لتوديعه • ولم نكد نغادر مضارب الفدعان حتى لحق بنا عبد الرحمن الرجل الحلبي المثقف ، وطلب الاذن بأن يشاركنا الرحيل لأنه يحمل موضوعا مهما يريد طرحه علينا نقله الى السيد « سكين » باللغة التركية . ثم تابع ليفشي سرا الينا عن مهمة تفاوض عهد بها جدعان اليه • ولا أستطيع أن أفهم لماذا اختار جدعان هذا الطريق الملتوي ليدعنا نعرف ما يريد خصوصا بعد علمه بأننا سنسر لتلبية طلبه ؟ وعلمت بأن جدعان قد صعق من بعض الملاحظات التي وجهتها صباح هذا اليوم عن حماقته بترك شجار تافه حول المرعى يحطم قوة العنزة ويبعثر صفوفهم بينما لو جمعت هذه القوة ضد البدو الاخرين أو ضد عدو قوي كالاتراك لكان خيرا لهم ، ولهذا قرر أن أقوم بمهمة دبلوماسية الى مخيم الرولة الذي يقع في طريقنا الى دمشق. وأن أحاول عقد صلح بين الطرفين المتحاربين بعد أن دُعي الى اجتماع ضم كل شيوخ السبعة وأحلافهم وناقشوا خلاله شروط الصلح التي علي أن أذهب بها الى الرولة • ويعتقد جدعان بأن الجميع يرغبون بنهاية عاجلة للحرب • واذا ما تم التوصل الى اتفاق مع ابن شعلان حول المراعي في حماة فان النزاعات الماضية يمكن تناسيها •

بطبيعة الحال كنت في غاية السرور اذا ما كنت ذات نفع في هذا المجال . الا أن المفاوضات تتطلب سفر السيد عبد الرحمن معنا كي تنجح والذي يعتبر مبعوثا ثانيا مطلق الصلاحية لشرح ملابسات الامور أفضل مما نستطيع شرحها نحن ؛ ولهذا عزمنا جميعا على انجاح المهمة • بدأنا بالخطوة الاولى عندما قمنا بجس نبض فرحان حول الموضوع فقال : على الرغم من أنه يستحيل عليه مكاشفة قومه بالصلح صراحة الا أنه يعتقد حازما بأنهم قد ملوا الحرب وأنه

هو نفسه يرغب بتناسي كل خسائره فيها ••• فرحان الذي نحبه بشدة كان صريحا وحساسا ويمتلك أفكارا تميزت ببعد النظر حول كل ما ناقشناه ، ولهذا أهديناه عباءة وحذاء فتبين أن المسكين كان بحاجة لهما ، وعلى العكس من الاخرين الذين تلقوا هدايانا فقد لبسهما بنفسه ظانا بأن ذلك يسعدنا ويرضينا•

يبدو أن القبيلة مدمرة تماما لأن أم الشيخ استعارت وعاء الطبخ من حنا لكي تسلق خروفا لعشائنا • وفرحان لم يتزوج ولكنه يعيش مع أمه وأرملة والده الهادئه الجميلة التي كانت تحمل طفلا أخا لفرحان في السنة الثانية من عمره ، لأن والده « معجون » قد توفي منذ سنتين • وقد لاحظت أن كثيرا من عرب القمصة يتحدثون بشكل خاص عن الخيول لأنهم من أشهر مربي الخيول في الباديه • فهم يتحدثون عن فرس جليلة من سلالة المليحه ، ويقولون : بأن أحد الاوربيين كان قد دفع ثمنا لها مقداره ستمائة ليرة ، عندما كانوا في ديارهم الصيفية قرب حلب • ولكن عادة بيع الفرس لم تكن سائدة بينهم ويعتبرونه مجنونا لأنهم لن يبيعوها وكانوا سعداء جدا بهذه الروايه • وهنا سألناهم السؤال الاعتيادي حول الخيول النجدية وعن وجود سلالات منفصلة هناك فكانت أجوبتهم عادية ، ثم سألناهم فيما اذا كانوا قد سمعوا عن سلالات من الخيل تأثرت بالسلالات الانكليزية أو خيول أخرى كما يدعي بعض الناس بأنها من سلالات خيول العنزة ••• ففي البداية لم يفهموا منا السؤال وعندما فهموه قالوا ناقمين : كذب ••• كل هذا كذب وسخف لأن خيولنا هذه هي كخيول أجدادنا نفسها قبل أن يأتوا من نجد ، وهي الخيول التي تملكها كل القبائل هناك • ولم أجد أيا منهم كان قد رأى أو سمع بحصان انكليزي مميز• ويتوقعون لو وجد ذلك الحصان فسيكون بطبيعة الحال من الخيول « الكديشة » وكل الخيول غير العربية عندهم تعتبر « كديشة » ، ويستثنون خيولهم من هذه المقارنة ، وكل الخيول الاخرى غير خيولهم يعتبرونها لا تستحق الحديث • وضحك عبد الرحمن من فكرة قالها أحد البدو ـــ لأن والده كان من تجار الخيل ـــ بأنه لن يدع خيوله تقع أبصارها على حصان أوربي مطلقاً ، وقال بأنه لم يسمع أبداً بأي تقليد من هذا القبيل الذي نذكره • والأمر كله يبدو من

المستحيلات لأن الجياد الاوربية الوحيدة التي جلبت الى البادية كانت بعض جياد السيد « سكين » منذ حوالي عشرين عاما وأثبتت فشلا ذريعا على الرغم من أنها من أفضل السلالات في انكلترا الا أن العرب لم يكونوا يرغبون بها •
وبينما كنا نتناول عشاءنا اللذيذ من لحم الضأن المقلي والكعك والزبدة الطازجة جلبت الينا غزالة صغيرة كي نتفرج عليها ، فكانت خشفا في الايام الاولى من عمره أمسك به البارحة بينما كانت القبيلة تواصل سيرها • انه أجمل مخلوق صغير يمكن تخيله •• لا يزيد حجمه عن حجم الارنب البري الا قليلا بأرجله وأذنيه وعينيه الحزينتين الكبيرتين • وكان بعض الصبية يمسكونه مربوطا من أرجله حيث يعجز عن الركض بسرعة ، وكانوا يرهقونه تدريجيا من خلال لعبهم الخشن معه • لقد أخذته في حضني وفي الحال استغرق في نوم عميق •••
يا للحيوان المسكين أعطوه لعنزة من الغزال كي تربيه • ولكنني متأكدة من أنه لن يحيا طويلا بين أيديهم ، وأتمنى لو أخذته معي كي أنقذ حياته •



اجتمـاع الحرب

الفصل العشرون

انذارات وترحال تم انسحاب

● شكسبير

فرحان بن هديب ــ القمصة وخيولهم ــ محمد الدوخي ــ دعوى قضائية في الصحراء ــ قبيلة من صيادي الغزال ــ فرس بطين ــ الرولة تهاجم السبعة ــ رعب يتلوه انسحاب ــ مشهور بن مرشد أخونا الجديد ــ شح الماء ــ نغادر مخيم العنزة ونضطر للمسير الى بئر سكر •

يوم الاحد في السابع من نيسان كان اسم البركة التي خيمنا بجانبها ــ أو بالاحرى مجموعة البرك ــ خبرة المشقوق التي تقع على مرأى من جبل غراب ، وربما على بعد عشرة أميال الى الجنوب منه ، وحوالي ستين ميلا الى الجنوب الشرقي من تدمر ، وتغطي عدة فدادين ، ولكنها ضحلة لأنها تستمد ماءها من المطر •

تشير التقارير على وجود سلسلة من المخيمات تمتد شرقا وغربا مكونة صفا مناسبا من المخيمات ، يجدها المسافر في طريقه وهو ذاهب الى دمشق ، وعلى طول هذه المخيمات نريد السفر الآن الى الرولة الذين لا يبعدون أكثر من مائة ميل عن هذا المكان ، هذا اذا ما صحت فيه مثل هذه التقارير • وعلمنا بأننا سنجدفي طريقنا مخيمات للصلبة،وسوف نعرف منهم المكان الحقيقي للرولة•

تحدثنا الى فرحان طوال هذا الصباح ، وأجاب على أسئلتنا الكثيرة المزعجة برحابة صدر • وكان شيئا جميلا أن نراه يمارس سلطته على قومه لكي لا يزعجونا ، ولم نر منهم ما يدل على قلة التهذيب • ويكفيه أن يحدق بالمرء ليفهم ما يريده •

وعندما يتدافع الصبيان والشباب حول خيمتنا فانه يصرفهم الى شؤونهم بكلمة طيبة أو كلمتين ، حيث لا يجرؤون على مخالفة توجيهاته لأن طريقته معهم تشبه معاملة الاخ الاكبر لاخوته لكي يحافظ فيها على النظام في منزل هائج • وكنا نرغب مع فرحان قضاء أطول وقت ممكن ولأكثر من ليلة واحدة الا أن الوقت قد حان لتنفيذ مهمتنا الدبلوماسية ، وعلينا أن نقوم بزيارة شيخ واحد أو شيخين من الشيوخ المعروفين ، ولهذا هدمت الخيام عند الساعة العاشرة عاقدين العزم على التوجه الى القمصة في مكان قريب من هذا المكان • فأسف فرحان لفراقنا عند توديعه • فأخذنا نعده بطيبة خاطر ونقول : سنعتبر خيمته خيمتنا فيما لو أتينا اليه مرة ثانية •

من الصعب علي أن أعرف أهي المحن أم المصائب والفقر التي جعلت هؤلاء الناس هكذا ؟ لأن الموايجة وشيخهم كانوا أطرف من قابلناهم على هذا الجانب من الفرات ! ومما لا شك فيه أن المعاناة تعتبر درسا رائعا لنا جميعا في بعض الاحيان •

ما ان ابتعدنا حتى مررنا بجماعة من الرجال والنساء والجمال تسير نحونا، وعند السؤال عنهم علمنا بأنهم من ولد علي — احدى فروع العنزة — أصدقاء الرولة ، ولكنهم في صف السبعة في شجارهم الحالي • وشيخهم محمد الدوخي ابن سمير له أهمية معتبرة • وأعتقد بأنه يتمتع بحماية القنصلية البريطانية في دمشق منذ سنوات ، ومن المميزات التي يسلكها ولا تزال سارية المفعول : احتكاره تنويض ايصال قافلة الحج سالمة الى معان[1] ، ولهذا لا نود أن نظهر بين قومه بهذه السرعة قبل أن نحصل منه على رسالة مؤدبة ، رجانا فيها أن لا نذهب بعيدا عن خيامه التي سينصبها على مسافة لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال عن مكان مخيمنا السابق •• وحالا فيما بعد ركب الشيخ بنفسه ليكرر دعوته لنا فقبلنا على الرغم من أننا قد أرسلنا خبر الى ابن مرشد شيخ القمصة نخطره بزيارتنا له •• اننا لا نستطيع رفض مثل هذه الدعوة الجديدة ، لأننا كنا بشوق للتعرف على محمد الدوخي لذلك نصبنا خيامنا مع خيامه •

(١) معان مدينة في شمال الاردن .

محمد الدوخي يبلغ الخمسين من عمره قصير القامة ممتلىء الجسم أشيب اللحية ، وعيناه سوداوان صغيرتان تلمعان وتعبران عن مزاج خاص . ووجهه لا يريح ومن الصعب على المرء أن يثق به ثقة تامة . ويقال بأنه ارتكب أعمالا وحشية غادرة في فترة من حياته . وعلى كل فهو بالنسبة لنا اليوم رجل ساحر ، ولكن من الطراز التركي المتقن أكثر من كونه بدويا .

ألقى محمد الدوخي علينا خطابات مطولة مليئة بالترحيب مبديا رغبته في خدمتنا وكنا في عسر لكي نقدم له عباءة ، لأننا عندما غادرنا الدير لـم نكن نتوقع أن نقوم بالتعارف مع كل هذا العـدد من الشيوخ سوى جـدعان . والشخص الوحيد الذي تركناه ونحن نرغب بزيارته هو بطين بن مرشد شيخ القمصة . وعلى كل حال تقدم السيد « سكين » شارحا بعض القضايا عن ابن مرشد ، وأشار علينا أن نرسل العباءة التي معنا الى محمد الدوخي لأنه غريب عنا جميعا . كانت العباءة جميلة من صنع القريتين[1] زرقاء غامقة الى بيضاء ، ولكن بدون التطريزات الذهبية . فأرسلناها كالعادة مع حنا ولكننا دهشنا لعودة العباءة ، ثم جاء محمد نفسه الى خيمتنا ليشرح لنا بأنه من غير الضروري لمسافرين مثلنا تماما وصلوا الى هذه المناطق البعيدة من الحماد أن يقدموا هدايا لأي شخص كان ، فقد نحتاجها للاخرين أو لأنفسنا ، ومن المناسب أن نقابل بهذا الاقتراح والذي نظنه من تدبير حنا نفسه . كيف حدث هـذا ؟ لا أعرف ولكن بذلنا قصارى جهدنا لاقناع مضيفنا بالاحتفاظ بالهدية دون جـدوى .

جلس معنا محمد الدوخي طوال فترة الظهيرة يروي الحكايات عن مختلف الاوربيين الذين قابلهم ، لأنه وقومه من ولد علي يمضون الصيف غرب دمشق . وهم على اتصال دائم مع المدينة ، ولهذا فاني أعتقد أنه يملك الاخلاق الحسنة المهذبة ، أما في شبابه فيروي أنه كان يتمتع بسمعة المحارب المعتبر . ولكنه فقد احدى ذراعيه في الحروب وهو راض الآن بتقديم المشورة العسكرية لقومه فقط .

---

(١) بلدة قرب مدينة تدمر .

طرحنا على محمد الدوخي فكرة الصلح ، وعن توقعات نجاح الصلح مع الرولة ، فتبين من تعبيره عن نفسه بأنه غير مبال بهذا الامر ، ووعد بمناصرة السبعة ومساعدتهم في محنتهم لأنهم قد عوملوا معاملة سيئة من قبل الرولة . الا أنه ليس لديه أي خلاف شخصي مع ابن شعلان ، وأعرب عن فرحته فيما لو سويت الامور سلميا ، وكان يود أن يرى صاحب « الموت الشريف »[1] في حماة معاقبا لأنه الشخص الوحيد الملام على كل هذه المشاكل التي أثيرت ، وقد أثارها لكي يسلأجيوبه وبشكل عام يعتبر تصرف الاتراك نحـو القبائل بغيضا في كـل الاحوال .

مضى اليوم كله والقوم يجلبون جيادهم وخيولهم كي تتفرج عليهـا ؛ لأننا كنا نرغب بمبادلة طرفاء الجمية بما هو أفضل منها . الا أن ولد علي غير معروفين بجيادهم ولكن شاهدنا بينهم حصانا رمادي اللون جميلا جدا مـن سلالة نصتلاوي وانجدراني التي كان يربيها ابن نديري[2] . ولـم يكن عيبه انوحيد سوى قده ، اذ كان بارتفاع أربع عشرة قبضة . وعلى كل حال أحضر أحد القمصة حصانا كميت اللون بنقط سوداء رائع الشكل وهو في عمر الثلاث سنوات . انه أقوى جواد كنت قد رأيته حتى الآن ويرتفع بخمس عشرة قبضة، وله قدمان وربعان هائلان ويسرح بحرية الا أن حركته كانت أقل من جيدة على الرغم من صعوبة الحكم عليه من الركوب السيء الذي يركبه ويدربه به هذا الرجل . والجياد هنا سيئة الترويض اذا ما قورنت بخيول البادية ؛ لأنها نادرا ما تستخدم لأغراض الركوب . ولكن سرورنا الكبير كان بوصول بطين ابن مرشد شيخ القمصة الذي ركب الى خيمة محمد الدوخي بقصد الزيارة . جاء بطين على فرس عمرها ثلاث سنوات من سلالة عبية شراك .. جاء بها نصف ملجومة بعد أن اشتراها من عشيرته ، وكان يركبها عائدا الى بيته من سفر ، ولكنه قصدنا بعد أن سمع أننا في خيمة محمد الدوخي . وباعتبار أن الفرس أكثر شهرة من الانسان فعلي أن أصفها أولا : فرس كميت داكنـة تنتصب

(١) كنايـة عن الباشا التركـي .
(٢) مر ذكره في الجزء الاول .

بارتفاع خمس عشرة قبضة أو أكثر ، ورأسها يناسبها بشكل رائع على الرغم من أنني شاهدت أجمل منه . والرأس جزء من الجواد ينظر اليه العرب لتقدير درجة أصالته . والمطبق ـــ انصال الرأس بالرقبة ـــ يعطي تمييزا لأي صورة جانبية ، أما الرقبة فكانت خفيفة منحنية بشكل جيد وحارك الفرس بدا عاليا مع كتف ينحدر تدريجيا . وربعاها رائعان قويان . ومن المستحيل وهي بهذا الوصف الا أن تكون من الخيول السريعة جدا ، يضاف الى ذلك طول الجزء الواقع فوق العرقوب ، وكذلك أرساغ الفرس التي بدت جيدة . كما أنها ترفع ذيلها عاليا مثلما تفعل الخيل العربية الاصيلة . وهناك أناقة ورشاقة في حركاتها التي تذكرنا بحركة الخنشف أو الغزال وأجمعت الآراء على أنها الفرس المثالية الممتازة التي لا تماثلها في هذه المواصفات أية فرس شاهدناها في هـــذا المكان أو في أي مكان آخر . انها تصلح لأن تكون فدية ملك تماما اذا كـــان الملوك لا يزالون يستحقون الفديـــة . دفع بطين أربعة عشر جملا ثمنا لحصته في الفرس ـــ سعر الجمل خمسة جنيهات ـــ أي ما يساوي سبعين جنيها بالاضافة الى عشرين جنيها دفعت نقدا ، وتكون كامل حصته ثمنها تسعون جنيها ، ولكن هذا المقدار في الحقيقة لا يمثل أكثر من ثلثي القيمة ؛ لأن ماسك الرسن أو ما يعرف بالشريك ـــ هو من كان يعتني ويركب الفرس ـــ له الحق اذا مارغب أن يبيع حصته المتبقية فيها بنصف المبلغ الذي كان قد دفع ، عندها يمكن للفرس أن تصبح ملكا خاصا لبطين بمبلغ لا يتجاوز مائة وخمسة وثلاثين جنيهـــا . والشيخ كان مسرورا ويرغب بهذه المقايضة .

بدا بطين بن مرشد رجلا كبيرا جديرا بالاحترام لأنه ابن مرشد ، ومن أصل نبيل ، ولا ينقصه شيء ليتأخر عن سمعة أجداده .. ضعيف الوجه شاحب اللون ، وينطبق عليه وصف القبائل التي قالت : بأنه الرجل غير الكفء لقيادة السبعة في الاوقات الحرجة الراهنة ، ونعرف ذلك من قبول الشيخ نفسه وضعه القمصة بجدعان كقائد حربي . وجدعان حديث العهد بنعمة القيادة وذلك من سوء حظ السبعة لأنها اليوم بدون قائد حازم . فالشيوخ الكبار باستثنـــاء بطين قد ماتوا ، والجيل الشاب بينهم لم تسمح له الظروف لكي يبرز نفسه

ويكسب النفوذ اللازم لكي يقود القبيلة في الحرب ، لأن رتبة العقيد أو القائد العسكري تعتبر انتخابية ومستقلة عن الاستحقاق الشخصي والنفوذ الموروث. ففرحان بن هديب يبدو ساحرا وحساسا ويريد الاندفاع ليحتل مثل هـذا المركز ؛ بينما تحدثوا عن مشهور بن مرشد ـ ابن أخ لسليمان ـ بأنـه من المحتمل أن يقوم بأعمال عظيمة يوما ما ؛ تؤهله لقيادة قومه الا أنه لا يزال صبيا . اذا بطين هو المرشح الحالي لقيادة القبيلة الا آن جدعان قائدهم الحقيقي في حالة الضرورة ، ولكن ليس بالاختيار . يبدو أن بطينا جاء الى محمدالدوخي بشأن اتخاذ قرار مهم فيقضية جرت وأوكل الامر الى محمد الدوخي ليبت فيها .

كانت الدعوى مقامة ضد جدعان ، أقامها عليه ابن عم زوجته الجديدة من شباب السرحان ، أقام الدعوى لكي يسترد ابنة عمه لأنهم لم يستشيروه ، ولم يعط موافقته على الزواج .. كانت القضية بمنتهى الغرابة . ونحن كنـا نهتم كثيرا بمعرفة القرار ، لأنه اذا ما أعطي ضد جدعان فسيكون مؤشرا رائعا على قوة القانون بين القبائل . ان جدعان لا يملك كامل الحقوق في هذا المكان، بينما ابن العم شخص بغير نفوذ ويتهم من قبل الجميع بضعف العقل ، لأنه قد عامل الفتاة بشكل سيء ولا يستحق التشجيع ، ومع ذلك يعتقد أنه سيربح القضيـــة .

تبلغ الفتاة الثلاثين من العمر ، بينما كان ابن عمها في الثالثة والعشرين فقط ، وادعاؤه لا يمكن أن يؤخذ به على محمل الجد ، لأنه رفض آن يتزوجها، وكان يؤجل الزواج بها سنة بعد آخرى حتى مل والد الفتاة من الانتظار . ويبدو أن جدعان لا يعلم بوجود مثل ابن العم هذا حتى تم زواجه وانتهى . وأعتقد أن القضية لم تكن الا من قبيل التنكيل بجدعان . فابن العم طالب بالفتاة نسيا من أبيها ، أو بأربع بنات أخريات بدلا عنها .! انه طلب مستحيل ولكنه على ما يبدو شريعة عند البدو لا بد من أن تنفذ ، وكحل وسط وافق الأب على أن يعطي ابنته الاخرى لابن عمها بدلا من ابنته التي تزوجت .ولكن ابن عم الفتاة لم ينصت لهذا الاقتراح ، ولكي يؤكـد على الاصرار ركض واحضر رمحا كان على جمل لرجل عجوز وهرع الى الداخل .

تركت القضية مطروحة أمام محمد الدوخي لكي يتخذ قراره فيها . في وقت كانت خيمة الشيخ مكتظة بالرجال لسماع النطق بالحكم ؛ بينما جلس المحلف الحلبي المتعلم عبد الرحمن مهتما بالقضية من الناحية القانونية؛ ولحسن الحظ قام ليشرحها لنا ، ولم يكن لنا أن نفهمها لولا وجوده .

لم تكن المداولات الاولى الا مجرد مناقشات حول تحكيم عرف البدو . أو الشرع الاسلامي المحمدي . وعلى الرغم من أن كل واحد في الخيمة كان يفضل عرف البدو الا أن بعض المحاولات جرت لتحكيم الشرع؛ وذلك لمصلحة جدعان . واستشير عبد الرحمن الخبير بأمور الشرع الاسلامي فأوضح بأن القضية لصالح جدعان ، وأن الأب لا تثريب عليه لأنه عرض ابنته الثانية تعويضا كافيا لما حدث على مبدأ اذا تنصل رجل من قضية في موقف أحدث فيه ضررا للاخرين ، ألزم بما عقد عليه العزم قبل حصول الضرر منعا للضر .

كان ابن العم يطالب بتطبيق العرف البدوي الذي لا يمكن له الا أن يبطل الزواج ، أو أن يدفع اليه مهر الفتاة على الاقل ، ومقداره في هذه الحالة ألفا قرش .

جاء النذير بغزو وشيك الوقوع يقوم به الرولة ، ولذلك نصحنا أن نأخذ جانب الحيطة والحذر في هذه المواقف العصيبة .

في الثامن من نيسان هطلت علينا زخة من المطر أنعشتنا جميعا . ولم تظهر طلائع الرولة الا أن كل فرد كان متوترا ، ولهذا تهرب محمد الدوخي من اعطاء قراره في هذه القضية موكلا اياها الى ثلاثة قضاة ، اختيروا كما يحدث في انكلترا من كلا الطرفين ، الا أن أحدهم رفضه كلا الطرفين ؛ بينما كان الثالث يخاف من المسؤولية فأعلن بأنه عاجز عن البت بها قبل سماع رأي شيخ السرحان الذي ينزل في مكان ما من الجوف على بعد مائة ميل . لذلك علقت

القضية حتى يتم استدعاؤه[1] .

سرنا جميعا ـ اليوم ـ حوالي ثمانية أو تسعة أميال ، بينما ركب محمد الدوخي مع ولده الصغير على ذلول . وأثناء المسير أدركنا القمصة ، وانضممنا الى جماعة منهم فيها شاب يمتطي مهرا مبهرجا من سلالة جلفان سطام البولاد. وقدم نفسه على أنه ابن مجول المصرب المعروف في دمشق بزوج السيدة الانكليزية ... كان مؤدبا ودعانا الى خيمته ، وطلب منا فيما اذا كنا في طريقنا الى دمشق أن نعرج على منزل والده .

المصرب جماعة صغيرة تتجول مع القمصة ، وليس لها كيان مستقل عنهم ، ان لم تكن هي فعلا من الرسالين في القمصة .

كان الاخ الكبير لمجول رجلا عجوزا مضحكا في كل شيء ، الا بمظهره المميز عندما قابلناه أخيرا في خيمة بطين . وكان الشاب يذهب بنفسه في كل شتاء الى الحماد ، ويعود ليقضي الصيف في حمص ودمشق حيث يوجد منزل والده . أما عن زوجة والده الانكليزية فلم نسمع من يتحدث عنها في البادية باحترام ، على الرغم من كونها محسنة وحسنة الارادة بالنسبة لقوم زوجها . اذ تمدهم بالمال والسلاح وكل ما يحتاجونه من تجهيزات . أما مجول نفسه فيتحدثون عنه كشخص محظوظ ووارث ثروة طائلة على الرغم من وجود من يعتقد بأن زواجه غير متكافىء ، لأن زوجته ليست من دم عربي وبالتالي فهي غير أصيلة أو عربية نبيلة .

وصلنا حالا الى خيمة بطين التي نصبت في واد يؤدي الى هضبة وعرة تقع الى الشمال من خط سيرنا ، وهناك حططنا الرحال في مكان قريب من

(1) علمنا بأن شيخ السرحان كان قد قرر بأن العروس لم تتخذ اية خطوة لالزام ابن عمها ليفي بوعده ولهذا فحقه بها لا يزال قائما ، ونقل هذا القرار الى جدعان الذي وضعها على جمل وأرسلها الى شيخ السرحان حالا ، وهناك اقيم للفتى وابنة عمه عرس كبير كان من ضيوفه جدعان الذي لم يفسد على العروسين السرور .

مصادر الماء التي كانت على شكل سلسلة من البرك كنت قد تحدثت عنها سابقا ، حيث أرسلنا الحيوانات كلها لتشرب وكل القرب لكي تملأ ، وأمضينا الظهر نستمتع برؤية جماعة من الصلبة تعيش في مخيم القمصة • كان رب العائله فيهم حيران ابن مالك الشيخ الاول للصلبة ، ولهذا سمح له بالجلوس في خيمة بطين بينما بقي الآخرون خارجها •

كان الرجل يناهز الثلاثين من العمر في طلعة سمراء غير جذابة وبنظرات ماكرة نسبيا ، الا أنه كان يلبس كالعربان حتى يظنه المرء لأول وهلة واحدا منهم • ووجدت من أقاربه شابين صغيرين كانا في منظر حسن جدا : ولهما قسمات بديعة وأسنان ناصعة البياض ومعهما ولد جميل جدا بعينين لوزيتين وبشرة تشبه العاج المعرق ، وامرأة عجوزا قدرت طولها بأربعة أقدام ، وفتاتين في الرابعة أو الخامسة عشرة من العمر كأجمل مخلوقتين كنت قد شاهدتهما . أكملتا تعداد الجماعة •

كان الصلبة من قصار القامة ولكن بشكل متناسب كامل • فالايدي صغيرة الى حد المبالغة وعلى شفاههم ابتسامة غريبة خائفة الى حد ما ، وفي عيونهم نظرات مندهشة تذكر المرء بمخلوقات وحشية أكثر من كونهم من النساء والرجال •

كان الصلبة يتجولون حول المخيم كما لو أنهم يتوقعون في كل لحظة الهرب طلبا للنجاة بأرواحهم ، وأنا على ثقة بأنهم سيفعلون ذلك وكأنهم من الغزلان ••• لباسهم صنع كله من جلود الغزلان ، ويتألف من ثوب طويل يصل الى الكاحل ، صمم على نمط العباءة العربية تقريبا ، ولكن بأكمام تصل الى الرسغين ، وأحيانا كانت تغطي اليدين ، وجعلت لهذا الثوب قبعة تغطي الرأس وجزءا من الوجه • وعندما يكمنون في هذا اللباس نجدهم كمن يظهر في صور سكان جزر الرأس الاخضر لولا الفرق الوحيد هنا وهو أن الغطاء خصص للوقاية من الشمس وليس من البرد •

لا يملك الصلبة جمالا أو جيادا عدا بعض الحمير والماعز ، وهم يرتحلون

على الحمير ولا يفرشخون أرجلهم عليها ، ولكن يتوركون جانبا على قتب مزدوج يكفي لرجلين أشبه بقتب الناقة ويعتليه الرجال والنساء على حد سواء • ولم أجد عند النساء أي نوع من الحشمة العربية ، ولا يبدين ميلا لتغطية وجوههم ، بل يذهبن مع أزواجهم أو أقاربهم في جولات استجداء تضمهم جميعا ، تماما مثلما يفعل الغجر في انكلترا • انني لا أصدق أن هؤلاء من العرب على الرغم من أن بعض البدو يقولون بأنهم من العرب ويطلق عليهم عبد الرحمن اسم المسلمين ، الا أن الجميع يعترف بأنهم يختلفون تماما عن الآخرين بعاداتهم وممارساتهم الخاصة ، التي لا يمكن للبدوي أن يقوم بها ، فهم يأكلون القنفذ على سبيل المثال ، ويقرؤون الطالع « يبصرون » ، وهم من أصل وضيع لا يرضى أي بدوي أن يتزوج من نسائهم مهما كان فقيرا ، الا أنه لا بد وأن يتذكر في نسائهم الجمال الرائع وكم هن من الجميلات ! أكد لي الشيخ حيران كل ما قلته بنفسه ، وقال ببساطة متناهية : نحن نعطي بناتنا للعرب اذا ما رغبوا بهن •

ان الصلبة هم الابناء الحقيقيون للحماد ، ولا يغادرونه صيفا ولا شتاء ، الا أنهم يطاردون قطعان الغزال في هجرتهم شمالا وجنوبا ، ويقتاتون بلحومها، وحتى الخيام واللباس من تلك المخلوقات التي يصطادونها •

كنا نتلهف لرؤية المزيد من الصلبة لنكتشف ماهيتهم ، اذ لم يكونوا غجرا صرفا ، كما أنهم ليسوا من العرب الاقحاح ، وربما كانوا هم والغجر من أصل واحد،ويعني ذلك أنهم جاؤوا من الهند•فالصغر المطلق في أيديهم وأقدامهم وقوامهم المنخفض ونقاء بشرتهم السمراء كل ذلك يؤكد هذه الفرضية • ومن المؤكد ان واحدة من القبائل التي كانت قد غادرت الهند في الماضي والتي تعرف اليوم هناك « بالبوهيميين » أو الغجر في أوربا،قد توقفت في الطريق واستقرت ـ هذا اذا اعتبرنا تجوالهم في البادية استقرارا ـ وكوّنت الصليب •

اتفقنا مع حيران أن يكون دليلنا الى مخيم الرولة ،لأن قومه يخيمون في مكان ما على الطريق ، وذلك على ضفاف البرك التي تكثر باتجاه دمشق ،

وهو بطبيعة الحال ذاهب الى هناك • والصلبة لا يشاركون بأي نزاع ينشب بين البدو ، ولا يتحرش بهم أحد من الاطراف المتحاربة ، لذلك يمكننا السفر معهم بسلام • واذا ما سارت الامور سيرا حسنا فسيكون موعد انطلاقنا معهم يــوم غــد •

اليوم مثل البارحة أمضيناه في رؤية الخيول والجياد ، اذ جلبت الينــا مجموعات من الخيول الرائعة لكي نشاهدها ، على الرغم من أننا لا نملك نيه للشراء • وأجمل ما شاهدناه منها : دهمة أم عمر ، وريشة الشرابي ، وكلتاهما تعودان الى سلالات ثانوية من الخيل العربية ، ولكن بأعين رائعة الجمال •

الفرس الريشة كانت كميتا بأربع أرجل بيضاء ، وعمرها لا يتجاوز الثلاث سنوات ، وترتفع عن الارض بمقدار خمس عشرة قبضة كاملة ، انها من الخيل القوية بشكل عام • أما الدهمة فكانت فرسا أصغر ، ولكنها آية من الجمال •

حاول السيد سكين اقناع الشيخ بطين لكي ينقل صفقته الجديدة ــ العبية شراك ــ الينا ، ولكنه لم ينجح ، ففي البداية وافق ، ولكنه تراجع فيما بعد بحجة الحرب التي تدور بينهم وبين الرولة ، وعليه أن يكون على ظهر فرس تفيده في الحرب • ولكن تتوقع أن تكون القضية قضية مال ، في وقت لم نكن نملك منه الشيء الكثير ، ولم نكن نقدر على عرض المبلغ المغري •

ان الانكليز الذين زاروا القمصة قرب حلب منذ سنوات قد أعطوهــم فكرة بأنه يمكن لهم الحصول على خمسمائة جنيه من الاوربي ، وبالنسبة له كمن يدفع خمسين جنيها • كنا في خيمتنا نستعرض الخيول عندما حضر شاب بمحيا جميل ، وجلس أمامنا بعد أن حيا السيد « سكين » ولم نعرفه في البداية ولكنه قدم اسمه في الحال قائلا : انه مشهور بن مرشد فتعرف عليه القنصل لأنه ابن مدبغ آل المرشد أحد أصدقائه القدامى ، والأخ الأكبر لسليمان ابن مرشد ، عندها قربناه من مجاسنا بحفاوة •

انه الشاب نفسه الذي قيل أنه قتل ابن شعلان في خيمته ، وهو نفسه الذي أرسل لنا دعوة تلقيناها ونحن في حلب في مستهل رحلتنا • وهذه الظروف

مكنتنا من رؤيته ، فسألناه عن شعوره نحو الحرب ، وفيما اذا كان يرغب في أن تدور رحاها من جديد ؟ أجاب بالطبع « أوف » يجب أن تستمر . فقلنا : ولكن قومك قد عانوا منها من قبل ، ولم يكونوا قد فقدوا كثيراً من الخيل والجمال كما فقد غيرهم . فأجاب علينا أن نستعيدها . فقلنا ألا تخافون على الارواح ؟ ألم تقتلوا ابن شعلان ؟ قال : أجل قتل ابن شعلان . قلنا من قتله ؟ قال : أوه .. واحد من العنزة قلنا من ؟ فلم يجب . فقلنا نحن نعرف بأنك أنت القاتل . فقال : حسنا حدث ذلك ولكن في المعركة ، قتلته برمح وانظر انه نفذ من ظهره وخرج من ها هنا ــ مشيرا الى جنبه الايمن ــ فمات في الحال . وعندما سقط أخذت فرسه . ولكنني لم أحتفظ بها ، وتركتها تذهب لتتبع خيل أهلها ؛ ثم استوليت على فرس أخرى وكذلك تركتها تذهب[1] . أخبرنا مشهور بكل هذا بوجه فتى نفي السريرة كان يتنافى بشكل غريب مع الافعال القاسية التي وصفها . قال : كان المسكين جدعان بعمري تماما وكان أمهر الفرسان ، ولكنه قدره المحتوم .. انه ابن أخ لسطام ويكون هذا الرجل خس العائلة التي قتلناها ثأرا لمقتل والدي ، لأن مدبغا ابن مرشد قتل بيد خمسة من رجال الرولة ، ولهذا يدعى مشهورا بأنه قتل خمس أنفس مقابل الاخير . ولكن كل هذا الثمن من الدم أريق ثأرا لنفس واحدة فقط .

رسمت صورة لمشهور ، وبينما كنت أقوم بذلك ، ركب الينا رجل متوسط العمر فحيا القنصل الذي تعرف عليه على أنه سعيد ابن برغش الذي أسدى اليه معروفا منذ بضع سنوات ، فكان الحادث على الشكل التالي : أرسل ملك ايطاليا عميلا الى حلب لشراء الخيول الاصيلة ، وكان القنصل الايطالي هناك قد التمس نصيحة السيد « سكين » ومساعدته في الحصول على الخيل . فقاما بتكليف السيد عبد الرحمن بالمفاوضة لشراء حصان معين كانوا قد رأوه ووافقوا على شرائه ، فذهب عبد الرحمن بالنقود ــ مائة جنيه ــ ليدفعها ثمنا للحصان ، فهاجمه ثلاثة وستون رجلا من القمصة قرب تدمر كانوا

(1) يعتبر من الفروسية أن يدع الشيخ فرس عدوه الذي قتله تذهب الى حال سبيله .

في غزو ، فتوسل اليهم عبد الرحمن لكي يدعوه يمر بسلام، وعبثا ما كان يفعل؛ على الرغم من أنه قد أخبرهم بأنه رسول القنصل الانكليزي لشراء الحصان . وباعتبار أنهم لا يعرفونه أصروا على سلبه ؛ الا أن سعيدا ابن برغش الـذي كان ضمن الجماعة كان صديقا للسيد « سكين » أصر على تركه يذهب الى حال سبيله دون أن يمسه أحد بسوء .

كان بطين ومشهور من الناس الذين زاروا منطقة حائل في جبل شمر . ولهذا فقد أعطيا الوصف نفسه للخيل النجدية ، مثلما أعطاه الاشخاص الذين قابلناهم من قبل . ولسنا بحاجة الى تكرار ما قيل ، الا أنهما ذكرا بأن ابن رشيد كان يشتري الخيول منهم . وأفادا عن الهجرة الشتوية للعنزة ؛ وقالا : انه ليس صحيحا وصولهم جنوبا الى أبعد من جبل شمر فمن عادتهم أن يتوقفوا شمال بادية النفوذ وربما على بعد مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام من تلك الهضاب؛ الا أنهم قد يذهبون أحيانا الى هناك في حالات الغزو أو لقضاء بعض الاعمال في المدينة.وعلى كل حال فابن رشيد لا يكن لهم الود لأنه شمري المولد والاصل.

كنا نتحدث ونساوم لشراء فرس بطين ، عندما وصله رسول على عجل يطلب منه أن يعود حالا ، لأنه قد شاهد غزوا للرولة يقترب منهم ومن المتوقع حدوث الهجوم بين ساعة وأخرى . واعتقدنا في البداية أن هذه ربما تكون مناورة « درامية » يمكن أن ترتب لمثل هذه المناسبات ، عندما تصل المفاوضات الى نقطة حساسة اما من أجل المجادلة أو لقطع الحديث في اللحظة المناسبة . لم يهتم بطين بما قيل له ، الا أن عدة رجال ركبوا اليه على عجل وترجلوا عند الخيمة وضربوا برماحهم الارض ، وصاحوا به بعد أن نفذ صبرهم ، وطلبوا منه أن يأتي على عجل ؛ عندها نهض مسرعا وهو يتنهد كما لو كان لا يرغب في مواجهة غير ضرورية في المعركة... انه — في واقع الامر — مخلوق مسكين؛ ومن السهل أن نلاحظ أن قومه لا يحترمونه كثيرا . فقد تكلموا اليه بلهجـة الأمر التي لا يمكن سماعها وهي توجه لشيخ ومع ذلك فهو لا يزال يضيع مزيدا من الوقت .

كان مشهور من طبيعة أخرى ، فعندما سمع أول كلمة تشير الى القتال وثب على قدميه وهرول راكضا • لم نلحق ببطين ، لأننا قد نكون عرضة للهجوم في الطريق ، بينما لا زلنا نملك أمورا هامة نود مناقشتها هناك • وفي هــذا الوقت أمكننا أن نرى خروج ودخول عدد كبير من الناس الى خيمة الشيخ • وفي الحال جاء محمد الدوخي ليودعنا قبل أن ينصرف في شؤون قومه ، فألقى خطابا يعتبر مثالا للادب الشرقي ، اذ رجانا أن لا ننساه ، وطلب من ولفرد أن يكون وكيله أو ممثله معي لكي يذكرني به • واذا ما احتجت الى أية مساعدة وفي أي وقت فعندها ما علي الا أن أصدر أوامري الى محمد الدوخي لينفذ • وعلى الرغم من وجود بعض التصنع في حديثه ، الا أنه رجل بشخصية ونفوذ. والطريقة التي يعامل بها قومه تختلف عن الطريقة التي يتبعها بطين • فولد علي تحت امرته ، ويطيعونه بشكل جيد ، ولا يجرؤ أي شخص منهم على الجلوس في خيمته ان لم يكن من ذوي المراتب العالية • واذا ما أخذ شخص ما حريته في خيمة الشيخ وهو ليس من ذوي الشأن فنبرة محمد الدوخي حاضرة : قم•• قم أي « انهض » وتسمع في كل وقت بينما يكون الامر مختلفا مع بطين • فالكل يفعل ما يحلو له وهو لطيف جدا ، ويتحرج من مواجهة أي شخص بهذه الطريقــة •

قمت بزيارة نساء بطين فأثرت فيّ شخصية حرمه الخاتون « فيده » التي كانت زوجة لسليمان بن مرشد ، وبعد موته تزوجت ابن عمه بطينا • « فيده » هي ابنة محمد الفارس أحد اخوة صفوق وعم فرحان باشا وعبــد الكريم وفارس • وكم كانت مسرورة بالحديث معي عن قومها وأهلها الشمريين • وتحدثت عن فارس قائلــة : انــه فتى حلو المعشر ومن أجمل شباب العرب • لقد أحببتها ، الا أن متعة زيارتي لها أفسدتها صبيانية ولدها الثاني هزاع ، الذي كان في الثانية من عمره ، وكان يصرخ من أجل فنجان من القهوة، ورفض أن يبدأ أو يسكت ، وأحدث ضوضاء وجلبة لم نعد معها نسمع الحديث •

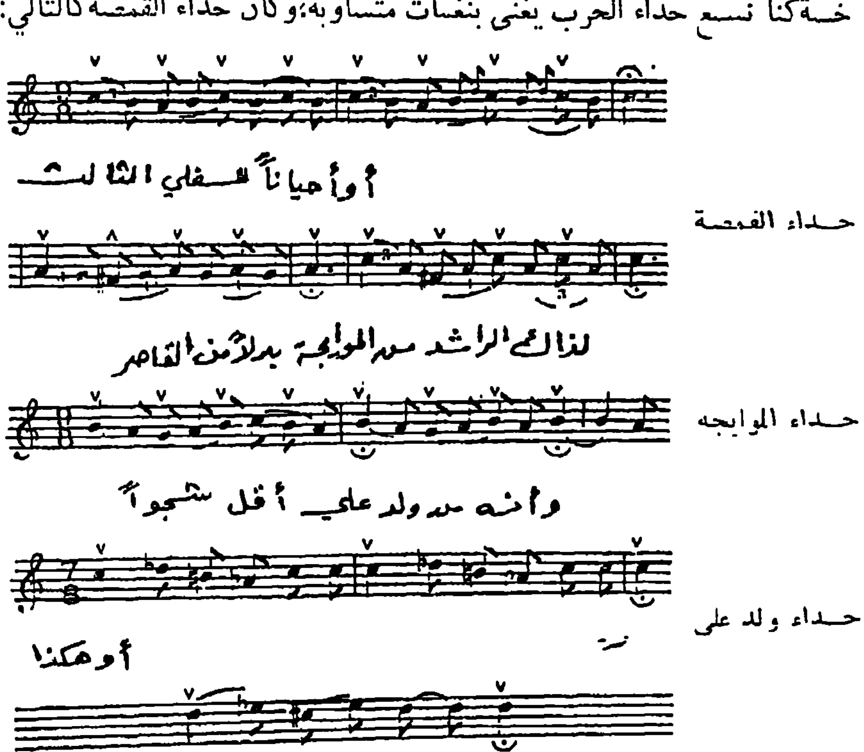
وبالاضافة الى هذا الولد المدلل كان لدى فيدة ولد في الخامسة من عمره يدعى عدوان ، وهوولد صغير ولطيف • وكلا هذين الولدين هما من أبناء سليمان ابن مرشد•وبينما كنا نتحدث كان يجلس حول الخيمة كثير من الناس المزعجين، حتى انني عجزت عن متابعة الحديث مع فيدة • وفي هذا الوقت شاهدت حنا قادما ليقول لي : ان البك يريد محادثتك في الخيمة •

لم تكن قصة الغزو خدعة هذه المرة ، لأن الاستطلاع جاء ليعلن عن اقتراب مجموعة كبيرة من الفرسان تقدر بألف فارس ، تتقدمهم جماعات من الرجال المسلحين على ظهور الابل . وبأيديهم المسكت ــ بندقية قديمة ستعملها جنود المشاة ــ وأفاد رجال الاستطلاع بأن جماعة من الغزو تقدر بخمسين فارسا قريبة جدا من هذا المكان . إد شوهدت في الوادي تماما على بعد ميلين عند حافة الهضبة •

وهنا بدا عجز القمصة عن ملاقاة القوم واضحا نظرا لحاجتهم الماسة الى زعيم، حيث لم يقوموا بأية محاولة لتشتيت هذه الجماعة الصغيرة ، ولم يأخذوا الاستعدادات لملاقاة العدو حتى يصل جدعان حيث أرسلت في أثره الرسل بالسرعة القصوى ، كما أرسلت رسل أخرى لتحدر الاقسام المتفرقة من القبيلة لكي تبقى مع الهيكل الاساسي وتبين بأن الفتى مشهورا الصغير هو القائد الحربي ، الا أنه لا يزال صغيرا لكي ينحي بطينا جانبا ويرأس القبيلة •

قورنا ربط خيولنا من عراقيبها الى باب الخيمة ، والاستعداد لكل طارىء، وربما انتظار السير المفاجىء ، لأننا في طرف المخيم ولا يفصلنا عن الخطر أية خيام للعنزة • الا أن غانما ــ من الرولة ــ أكد لنا بأن الغزو لن يتعرض لنا ، بينما كنا في قلق شديد على خيلنا على الرغم من أن ولفرد يأمل أن يرى جانبا من المعركة التي تبدو أنها وشيكة الوقوع ، وربما في صباح الغد •

كان مخيم الشيخ بطين يعج بالناس الداخلين والخارجين • ومن كل خيمة كنا نسمع حداء الحرب يغنى بنغمات متساوية؛ وكان حداء القمصة كالتالي:



كان ايقاع الترنيمتين الاوليتين من حداء القمصة وحداء الموايجة جميلا جدا ، بينما الايقاع الثالث لم أستطع كتابته بسباعية من ذات السن ــ نغمة موسيقية ــ في القدر ــ الفاصلة الموسيقية ــ فينتج تأثيرا غريبا شاذا • ويبدو أنه غير تام • في التاسع من نيسان سرت موجة من الرعب في مخيم القمصة ، وما ان بدت خطوط الفجر الاولى حتى هدمت كل الخيام من حولنا ، وبدأت بانسحاب عاجل عبر التلال • وعندما أرسلنا محمدا ليسأل عما يجري كانت كل الاجابات تأمره أن يلحق بجدعان الى الشمال من هذا المكان •• كان القمصة في عجلة من أمرهم حث وجدنا أنفسنا وحدنا في المكان بعد لحظات • فما كان

من ولفرد الا أن ركب فرسه الى أرض مرتفعة في اتجاه العدو المزعوم . لكنه عاد دون أن يرى شيئا . ولهذا قررنا أن نشرب القهوة بارتياح ؛ فأمرنا حنا ليوقد النار بينما كانت الجمال ترعى . وحنا كانت تبدو عليه علائم الاضطراب لكنه فعل ما طلب منــه .

أخذنا نراقب خط الانسحاب . وكنا لا نزال نرى مجموعات من الفرسان تغطي المرتفعات ، ولا خوف علينا من عدم اللحاق بأصدقائنا . ولم نكن نرغب باللحاق بهم لأن وجهتهم كانت بعيدة عن خط سيرنا . وباعتبار أن الصلبـة ذهبوا مع البقية فلم يعد أمامنا من خيار سوى اللحاق بهم ، في وقت لم نقطع فيه الامل من الحصول على فرس بطين ، حيث كنا جميعا نأسف لعدم حصولنا عليها . وبينما كنا نشرب القهوة والجمال تحمل ، ظهر فارس قادما من الجنوب فظنناه أنه من الاعداء: لكن تبين لنا بأنه مشهور الذي غامر وحده كي يستطلع. ولم يكن قد شاهد شيئا ، ولكنه نصحنا أن لا نبقى طويلا قريبا من الجماعه الرئيسة ، ثم ابتعد بفرسه ليلحق بالرجال على التلال . وفي الحال ارتحلنا الى الوادي حيث ارتحل بطين وقومه .

ان مسيرة العربي تعتبر بطيئة حتى في حالات الشدة ، وفي غضون ساعه أو أكثر وصلنا الى أطراف الضعينة ، ومن ثم الى مركز تجمعها ؛ وعرجنا في طريقنا على مرتفع ومن هناك شاهدنا منظرا بديعا لعشرين أو ثلاثين ألف جمل، يتناسب عددها مع عدد الفرسان والمشاة بما يقارب النصف ، توزعت في الوديان الملتوية باتجاه سهل أساسي يطل عليه تل مرتفع ، تجمعت عليه كواكب الفرسان. كان من الصعب علينا أن نفهم كيف يمكن لهذا الحشد الهائل من المحاربين أن يُرعب بخبر قدوم ألف فارس ؟.. يبدو أن الخطة الدفاعية ــ فيما اذا كانت هناك خطة ــ كانت تستهدف تجميع القوى في مكان مكشوف ، لأن القوم تبعثروا في الوديان في جماعات منفصلة ومتوارية عن الانظار بمجرد أن سمعوا بأخبار الغزو . وحتى الآن لم نفهم لماذا لم ترسل جماعة من الفرسان تماثــل الزولة في الشجاعة لملاقاتهم ؟! بل على العكس من ذلك قامت كل جماعــة

لتنسحب كينيا مع فرسان الحماية ، ولم يتخذ قرار الهجوم الجماعي ، وهو ما خيب آمالنا لأننا كنا نتوقع ردا حاسما من جماعة جدعان •

كانت جمالنا ذات قدرة هائلة على المشي • فبعد أن كنا في المؤخرة أصبحنا في المقدمة حيث وجدنا بطينا يمتطي فرسا غير فرسه مثلما يفعل الشيوخ في مثل هذه الحالة . اذ جاء على ذلول ومعه ولده المدلل في سلة بجانبه . بينما قرفص خلفه عبد أسود • وكنا نعتقد أنه سيخجل من رؤيتنا له في هذه الحالة • ولكن يبدو أنه ليس من رجال الحرب . وبعد قليل أدركنا محمد الدوخي في وضع مشابه يحرس أغنامه ، لأن من عادة ولد علي اصطحاب أغنامهم معهم ، بينما في العادة ترسل في طليعة المسير • ان محمد الدوخي معذور ، لأنه بذراع واحدة على الرغم من أنه أبدى حماسة في مجلسه ، في وقت لم يكن فيه جديرا بسمعته التي كنا نسمع بها •

توقف بطين على بعد ميل من التل ؛ وعلى مرأى من هضاب تدمر ، وبعد لحظات قامت خيام القمصة بعرض شجاع على السهل المستوي الذي اختاروه، بينما ولد علي في مقدمتهم وقبائل أخرى انتشرت الى الشرق والجنوب والجنوب الشرقي •

كان الجو حارا وخانقا ؛ وأمضينا ساعة في لهيب الشمس قبل أن تنصب الخيام • وما ان فرغنا حتى اكتشفنا أننا لا نملك الماء ؛ ولم نجلب منه شيئا معنا بسبب العجلة والانسحاب ••• انه من أكثر المعوقات المزعجة على طريق سنسلكه غدا في غالب الظن ، ولو لم نكن نأمل الحصول على فرس بطين لما بقينا هنا . ولعدنا الى البرك التي غادرناها ؛ ونحن لم نقطع في هذا اليوم أكثر من اثني عشر ميلا •

جاء مشهور من المؤخرة بأنباء تفيد أن الرولة تراجعت ــ على الاقل ــ عن قسم من المنطقة فابتهج كل شخص لهذه الاخبار السارة • وحتى الآن لم يقم أحد للحاق بهم ، حتى ولو بجماعة صغيرة من الفرسان ، وهم يستطيعون فعل ذلك دون أية مخاطر ، لأن خيول القمصة أفضل من خيول الرولة • وكل

هذا ــ كما يقول مشهور ــ بسبب فقدان القائد الموثوق فنحن هنا كالغنم بدون راع ٠

انتصبت الخيمة الكبيرة وخيمننا بالقرب منها ، واليها تقاطر الفرسان من كل حدب وصوب وكانت فرصة كبيرة لتتفحص خيول القصبه . اذ لم نفضل أيا منها ، ولكن لم نشاهد اليوم ما يستحق الذكر ؛ الا أن من بين الخيول التي أحضرت أم العبية التي نريدها ٠ انها فرس ولود عجوز رائعة على الرغم من أنها أقل جمالا من ابنتها ٠ ومن المفارقات التي شاهدناها : خيول مسومه بطلفات نارية ، بينما أخرى كانت بظهور غير مُرضية ؛ وخيول أخرى سوقت أقدامها الاصفاد الحديدية والوقوف الطويل بها وهذه الاصفاد يستخدمها العرب لمنع عمليات السرقة ٠ ومن خلال رؤية ما يستحق النظر اليه من الخيل وما لا يستحق أمكن وبصعوبة ايجاد « دزينة » من خيول الصفوة أو خيول الدرجة الاولى ؛ الا أن أيا منها لا يساوي العبية ٠ أو أن يكون أكثر جمالا من فرسنا السعدة ٠

وأخيرا وصل رهط من ثلاثين فارسا على رأسهم جدعان بن مهيد ٠ ستى كحيلان الاخرس وبوجهه تعبير غريب ، فيه من الرضى بمقدار ما فيه من الاشمئزاز ٠ اذ قرأنا في عينيه الاحتقار الذي شعر به تجاه أحلافه ٠ والسرور لأنه وجد نفسه مهما بالنسبة لهم ٠ وسرعان ما تبين أن الزولة عندما انسحبت لم تكن فارغة اليد ، فما المظاهرة التي قامت بها ضد القصبه سوى هجوم مخادع ٠ لأن مجموعاتهم الاساسية قد هاجمت قسما متطرفا من ... على الذين خالفوا محمد الدوخي وابتعدوا عن العربان ، وسلبت منهم ألف جمل وبعض الخيول وقتلت رجالا ٠٠ كان محمد الدوخي غاضبا جدا ٠ ولكن لماذا لم يمش على رأس رجاله ؟ كان مجلس الحرب منعقدا طوال الفترة الواقعه بعد الظهر في خيمة بطين ويبدو أنه انفض دون نتيجة تذكر،ولهذا بدأنا نشعر بالخجل من أصدقائنـــا ٠

ان الرجل الوحيد الذي كان محط اعجابنا هو الشاب مشهور ٠ الذي

كنا نتوقع له أن يكون قائد المستقبل في قبيلته • وبينما كنا نجلس معه ومع بطين في خيمتنا هذا المساء بدأ ولفرد يبدي اعجابــه ببعض المسدسات ذات المقابض الفضية التي كان يحملها في نطاقه • فأخبرنا أنها تعود الى عمه سليمان ابن مرشد . وبدون أية ضجة خلعها وسلمها لولفرد مصرا على أن يحتفظ بها كهدية • كان ولفرد مسرورا لهذا الكرم ، الا أنه لم يكن له أن يقبلها الا اذا قبل مشهور مسدسه بدوره . وحالا تبادلا القسم بحضور بطين الذي دهش للشرف الذي لحق بابن أخيه • ومنذ ذلك الحين كان مشهور الرجل العظيم الذي نحبه . وقد أظهر لنا المشاعــر ذاتها ، وقدم لنا كل أنواع الاستلطاف وقدم هذا المساء لكي يتعشى في خيمتنا . بينما كنا على كل حال نخشى أن يكون ما حدث من مثبطات مفاوضاتنا مع بطين بشأن الفرس . ولكن كل هذا لا يهــم •

قبل أن يسلم ولفرد المسدس لمشهور طلب منه وعدا بان لا يستخدمه ضد فارس أبدا . وهذا ما وعد به ، لأنه قال : ان فارسا من أصدقائه ، على الرغم من أنه لم يتقابل معــه •

كان غانم يطوف بالخيول على المخيمات التماسا للماء الذي لم يحصل الا على القليل منه ، لأن العنزة كما يبدو لا تهتم كثيرا بحمل الماء معها ، بينما كان الشخص الوحيد الذي يحمل فائضا منه هو ابن كردوش شيخ المسكة . بينما كان الآخرون يقدمون اللبن أو الحليب الى الخيل ، ولكنها تفضل الماء عليــه •

اختفى الصلبة من المخيم . ولهذا أخفقت خطتنا للذهاب معهم ، بينمــا أصبح الوقت مملا لنا ، وعلينا أن نقوم بمسيرة طويلة باتجاه الشمال الى بئر يدعى بئر « البوحارة » على بعد عشرة أميال جنوب تدمر في مكان لا يقع على خط سيرنا . ولكن علينا أن نحصل على الماء في يوم غد •

في العاشر من نيسان سرنا مسافة طويلة ونحن عطشى ، على الرغم من أن حاجتنا اليه كانت متفاوتة • ومما يؤسف له أن نفترق عن بطين ، ونحن في

حالة عدم الرضا ، ومن دون أن نكون أصدقاء ، لأنه كان غيورا من الود الذي أحطنا به الشيخ مشهورا ، وغيورا من الهدايا التي قدمناها اليه • فقد ألقى خطابا طلب فيه من السيد « سكين » أن يستحي مما فعل ، بينما كنا قد وعدناه بعباءة تناسب مركزه كشيخ حالما نقدر على شراء واحدة الا أنه لم يكن راضيا• وأنا آسفة لأن السيد « سكين » كان عليه أن يرد له القول : انك وطلبا لك لا تعبر عن مستوى يزيد عن مستوى الفلاح العادي •

كان من الممكن لمشهور أن يلتزم جانب عمه ، ولكن بطينا لم يهدأ • وبالتالي وصلت المفاوضات معه الى طريق مسدود ، الا أنني كنت مشغولة بالفكرة الكريهة التي صنعت لنا عدوا في البادية ، وقد يكون الوحيد في كامل الرحلة •

أسرعنا قليلا عن الركب . وابتعدنا لنرتحل مع طلائع جماعة ولد علي الذين كانوا يغذون السير نحو الآبار مع أغنامهم ، التي مضى عليها يومان دون أن تشرب • كان رعاة ولد علي أقسى من رعاة السبعة وينقصهم الادب . ولو كانوا يتوقعون الجبن فينا لعدو علينا • ولكننا كنا نركب بشكل جيد ، وبأيدينا أسلحة . ولم نعد نخشاهم بينما أخذت الارانب البرية تقفز من السهل بعد أن اكتسحته الاغنام والفرسان والجيش الكبير من الابل ، الذي كان يثير الطرائد من مكامنها . وكانت الكلاب تتبع الارانب . كما أن ولفرد قام بمطاردتها واصطاد اثنتين منها على ظهر فرسه هاجر التي كانت منتعشة ثانية . على الرغم من الحرارة وندرة الماء . ونستمتع بعدو مذهل • كنا نسير طوال اليوم باتجاه السفح حيث يقال بأن البئر هناك . وعندما نفذ صبرنا أسرعنا الخطا لنكون في مقدمة جيش العنزة الذين كانوا يسيرون كالجراد ، حيث غطت مسيرتهم عشرة أميال عرضا قاضمة كل شيء أخضر تجده أمامها •

الاعشاب قليلة في هذه المنطقة على الرغم من مرورنا بأودية تحتوي على أعشاب جيدة ، وبعدها أخبرنا بأننا سنرى برجا مدمرا توجد الأبار قربه . ولهذا اندفعنا حتى أصبحنا وحدنا تقريبا ، ومسيرة أيامنا الماضية قد تكون بحدود الاربعين ميلا •

وصلنا في الساعة الثالثة والنصف الى الظل الجميل للاثار ، الى أول بناء نراه منذ أن تركنا منطقة أرك • ويبدو أنه كان ديرا في يوم من الايام التي كانت فيها تدمر مدينة عامرة ، لأننا رأينا الصليب محفورا فوق العتبة الصخرية العلوية للبوابة ،واكتشفنا حجرات وأساسات الكنيسة • فلا بد وأن تكون منذ ذلك الحين مكانا منعزلا على الرغم من أنها تقود الى الطريق السفلي من تدمر الى دمشق • ولم تخل من آبار جوفية تحتوي مخزونا جيدا من الماء ، لأننـا يمكن أن نقتفي آثار الحقول والبساتين القديمة في الوادي ، التي كانت تسقى من هذه الآبار • أما اليوم فهي كلها مهجورة الا من زوج من الحمام الصخري وبعض طيور العوسق • وكان البرج مربع الشكل بني بحجارة منحوتة جيدا على غرار الابنية القديمة في تدمر ، والتي لا تبعد سوى اثني عشر أو خمسة عشر ميـلا •

وبالطبع كان محمد يعرف المكان جيدا ، ويدعو البرج بقصر حازم ويدعو الآبار بالسكري وهذه الابار عميقة ، ولهذا أجهدتنا ونحن ننضح الماء منها حتى وصول الجمال التي كانت خلفنا • وبينما كنا ننتظر تحت البرج المتهدم ، ونحن نكاد أن ننام ، سمعنا حداء حربيا للعرب • وعندما نظرنا الى مصدر الصوت شاهدنا فارسا يخب فوق التل خلفنا والرمح بيده ، فارتبكنا لحظة خوفا من أن يكون من الاعداء • لقد جاء وحده وسرعان ما عرفناه من صوته • انـه مشهور على ظهر فرسه الرمادية ، جاء ليودع أخاه ، ويتمنى له حظا سعيدا • وكنا مسرورين لرؤيته ثانية ولأنه أبدى شعورا طيبا بتركه قومه ليقوم بزيارتنا، ولأن القبائل قد توقفت على بعد عدة أميال من البئر • وعندما سألناه عن فرسه قال : انها من سلالة الهدبة السريعة جـدا ، وصدقنا ذلك لأن الفرس كانت وسيمة جدا ورشيقة الحركة • تبلغ الفرس الثانية عشرة من عمرها ، علـى الرغم من ذلك لا يظهر عليها ، وكما قال كانت ترعى باشرافه ولم يفترق عنها أبدا ، وكان يستطيها عندما قتل جدعان ابن شعلان في العام الماضي ، وهنا توسل من ولفرد أن يأخذها هدية فهي كل ما يملك ويستحق الاهداء الا أن ذلك بطبيعة الحال لن يكون • وفي هذه الاثناء وصلت الجمال ؛ وبينما كانت الخيام

تنتصب نشبت مشاحنة مخيفة بين الخدم ؛ وكان المتنازعان الرئيسان غانم وفرحان اذ وصل بينهما الامر الى درجة الضرب . وقبل أن تتدخل اندفع مشهور وفصلهما عن بعض دافعا غانما الى الوراء ، وهو يسحب مديته في منظر بشع . وعندما نظرنا في سبب القضية اتضح أن فرحات قد مل من عبء العمل كله في قيادة الجمال ، وقد أسخطه أخيرا ركوب غانم على ظهر الفرس الكستنائية . بينما كنا نغيب عن الانظار لمطاردة الغزال على الرغم من آلام الظهر التي تعاني منها . وبالطبع انحاز الخدم المسيحيون ضد غانم ؛ الا أننا لم نأبه للامر ، بينما طلب ولفرد من فرحان أن يقسم على صحة ما قال ؛ وعندها اعترف غانم بما فعل ، فأخبره ولفرد أن يغادر المخيم فانصرف غير بعيد في غضب وجلس ساعة او أكثر على قمة البرج ؛ ولكنه نزل بعدها وتوسل الي أن أشفع له . وتكلم مشهور لصالحه . وبما أننا حقا كنا نحب الولد وافق ولفرد على أن يسامحه شريطة موافقة فرحان ، وأن لا يعود لمثلها . وفرحان رجل طيب القلب وافق في الحال وأعطى غانما وعدا بالطريقة المعتادة : على رأسي . وهكذا انتهت القضية .

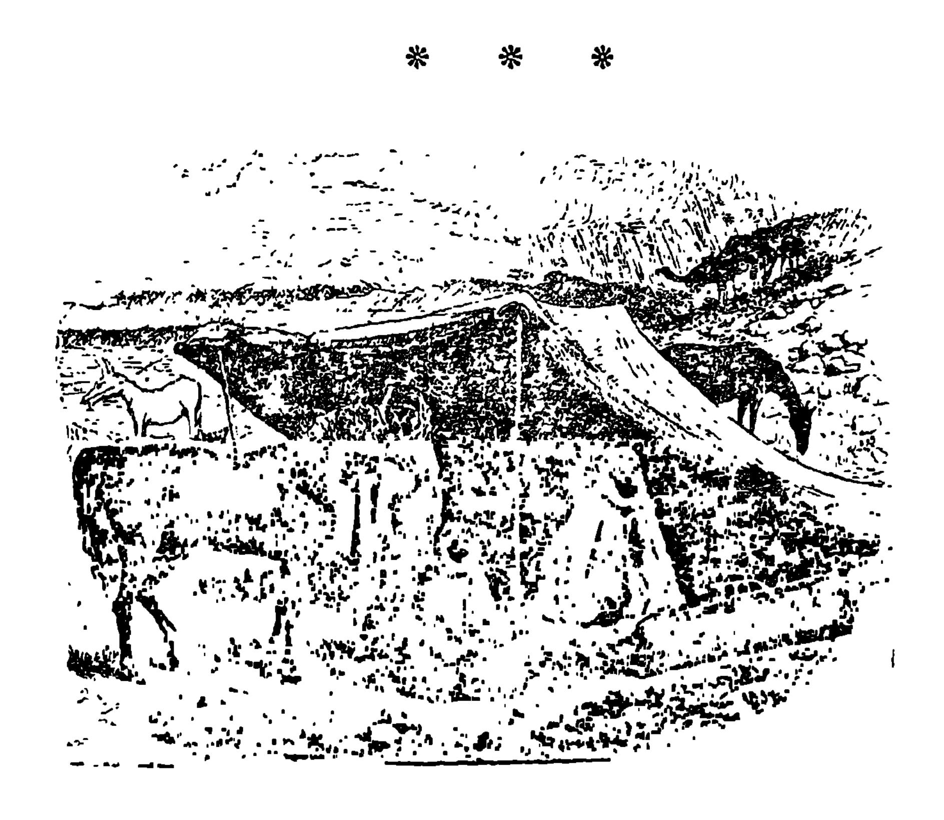
أنا مسرورة لأنها المشاجرة الوحيدة التي حصلت في الرحلة .

قدمنا لمشهور كل ما نستطيع من كرم الضيافة،اذ تناول معنا طعام العشاء. ولكنه لن يبقى هذه الليلة معنا ، لأنه من الخطورة بالنسبة له أن يبقى بعيدا عن قومه بسبب ضغينة الدم التي بينه وبين ابن شعلان . وعندما هم بالعودة أعطيته مدية ذات قبضة فضية على سبيل الاحتفاظ بها كهدية ، وأخبرته بأنها تعود الى جدي وقبله كانت لجدي الاكبر منه ؛ فقدرها كثيرا ثم امتطى فرسه وعاد يخب راجعا من حيث أتى . انه فتى شجاع دافىء القلب . واذا لم يدركه قدره في الحروب وضغائن الدم فانه سيكون رجلا ذا شأن في يوم ما .

سحبنا الماء من البئر . فكان مذاقه في البداية كمذاق البيض الناسد والكبريت ، الا أنه يتحسن عندما يلامس الجو ، ويبدو أن كل الماء كذلك .

ودعنا قبيلة السبعة ، وأدرنا رؤوسنا ــ كما تقول العرب ــ باتجاه الوطن. عندها أعلن ولفرد بأن اللحظة قد حانت لنقرأ رسائلنا ، لذلك غادرت وأنا وجله مرتعشة بسبب هذا لأننا كنا بانقطاع كامل عن أخبار الوطن منذ العشرين من تشرين الثاني أي منذ حوالي خمسة أشهر •

* * *



خيمتنا في سفوح جبل الحرمون

الفصل الحادي والعشرين

تحترق الارض .. وكل الحصى تحت الأقـدام !
وكـل حي صامد بقوة رغم الجراح .
والرمال البيضاء تمور حتى لم نعد نسمع فوقها وقع
الاقدام ... اقدام الابل التي تضرب الارض بصمت
وكانما تطأ الهواء بدلا من الارض .
وحتى ظلال الحيوانات اختفت وتراجعت نحو
الخلف ظهر هذا اليوم .. النار حولنا ...
اسفل منا بينما لهيب الشمس يصلينا من
فوق الرؤوس .

السير تحت الشمس المحرقة ــ ولد علي وأغنامهم ــ وصلنا الى مخيم الرولة ــ مائة وخمسون ألف جمل ــ سطام ابن شعلان في استقبالنا ــ مقابلات دبلوماسية ــ زوجة سطام ــ العطفة ــ اختبار لمحمد ــ وداعا أيتها البادية .

في الحادي عشر من نيسان كانت كل الاخبار سارة والحمد لله . ويمكننا الآن متابعة الرحلة بسرور حتى النهاية، وكلنا أمل وشوق للوصول الى الوطن.

غادرنا بئر السكر هذا الصباح في اللحظة التي بدأت فيها قطعان ولد علي بالوصول . يا للمخلوقات المسكينة التي كانت تعاني من شح الماء ثلاثة أيام متواصلة ، وقد مشت بصوفها التشتوي الكثيف خمسين ميلا تحت الشمس المحرقة.ولم نتوقف طويلا لنتحدث مع الرعاة،ولكننا شققنا طريقنا باتجاه الجنوب الغربي الى دمشق ، وكل شخص صادفناه يؤكد بأننا سنلاقي الرولة لا محالة في الطريق ، أو على الاقل جماعة من الصلبة الذين سيخبروننا عن مكان الرولة. ولم يكن محمد يملك معرفة أكيدة للمنطقة أكثر من عدة أميال وكذلك العبد الاسود الذي كلفه مشهور في خيمة بطين بحمايتنا كان يعرف بعضا من الطريق.

أخذنا طريقا في واد بين سلسلتين بارزتين ، وعند الساعة التاسعة مررنا

بخان مهدم على الطريق القديم لتدمر ، أطلق عليه محمد اسم خان حلب ، وكانت الارض مغطاة بنبات قرمزي من شقائق النعمان والبابونج الابيض والاصفر وأزهار السوسن ، وأزهار نجمية وردية أخرى تزاحمت وكأنها أزهار نمت في حديقة •

وأخيرا توقفنا لقضاء الليل في مسيل مائي جاف غطته الاعشاب الكثيفة ، وتصدح فيه طيور السماني • ويمكنني سماع صوت وقواق يجثم على شجرة بطم في مكان غير بعيد • والبطم[1] أول نوع نباتي نراه في البادية يماثل أشجار الدردار ، وهو معروف وشائع على طول الوديان الجافة في البوادي ، ويطلق عليه السكان اسم البطم في هذه المنطقة •

جاء المساء بموجة حر ثقيلة جدا ، بينما بدا غانم يغني على ربابته أخبار حرب الشعلان بعد أن قطعنا في مسيرة هذا اليوم حوالي ثمانين ميلا • وبعد أن نزلنا هذه الارض تسلق محمد قمم الجبال على يميننا ، وعاد بأخبار يقول فيها: انه رأى نيران معسكر خلفنا •

في الثاني عشر من نيسان طالعنا صباح حار آخر بشكل رهيب ، الا أن رياح الشمال الغربي هبت عند الظهر لتلطف حرارة الشمس ، وكان ذلك من حسن حظنا لأنه يتوجب علينا أن ننتظر ساعتين عند البئر دونما ظل نحتمي به •

لحق بنا رجلان يمتطيان جملا عربيا هذا الصباح ، أرسلهما مشهور لكي يدلانا على الطريق ، وهناك بعض الرولة كانوا في مضارب السبعة والفدعان يلتمسون الرضى لزوجة شيخهم التي آثرت العودة الى بيت والدها جدعان • وكم كنت أعجب من هؤلاء الرجال ومن درجة التسامح الفردي بين البدو حتى في زمن الحرب !•• ان هؤلاء الرجال كانوا يقيمون عدة أسابيع في خيمة

---

(١) نبات البطم كان يغطي مساحات كبيرة من الجبال التدمرية ، وكان ينفع بخشبه وعصير تمره المشابه لزيت الزيتون . كان الاعراب واهل سلمية يحتطبونه بشكل جائر ، وفتكت به مناشير عمال شركة نفط العراق عام ١٩٣٠ حتى لم يعد يذكر في المنطقة .

جدعان في اللحظة نفسها التي كان فيها سيدهم ابن شعلان يتقدم ضدهم ...
وعليَّ أن أقول : ان البدو أحرار في حالة السلم والحرب ويبدو أن الرجال قد عادوا دون أن يحققوا شيئا ، وأظن أن دعوتهم بهذه الطريقة كانت بحجة المحافظة على السرية ، على الرغم من أن الاستراتيجية البدوية كما هو الحال في السياسة البدوية لا توجد فيها أية احتمالات للسرية . فكل فرد في القبيلة له الحق بمعرفة كل ما يحدث وسماع الدعاية لكل ما يجري ، وباعتبار أنه لا جدوى من محاولة اخفاء الحقيقة فلا يوجد خوف من وجود الجواسيس . ولم تكتشف أية محاولة من هذا النوع سابقا .

كان العبد الاسود مريضا جدا ويستلقي في حالة متراخية على ظهر جمله. ورأسه يتدلى على كتف الجمل يلفحه وهج الشمس بشكل كامل ، وهذه هي الراحة التامة التي يتوقع العرب الحصول عليها عندما يصادفهم المرض على ظهور مطاياهم ، اذ ينامون في هذه الوضعية دون أن يسقطوا الى الارض . وعند البئر كذلك لحقت بنا جماعة من ولد علي تسوق أمامها مائة أو أكثر من الاغنام والحملان لكي تباع في دمشق بمناسبة قدوم العيد .. انني لا أعتقد بأن الكثير منها سيصل حيا الى هناك ، لأن مؤشر الحرارة أخذ يرتفع بشدة . وهم يجبرون أنفسهم على المسير في وقت أخذت الحملان الجيدة تموت ؛ فأعطونا حملا سررنا بأخذه لأن المؤن نقصت في رحالنا بشكل واضح.وعندما يرى الرعاة أن الحمل لا يمكن له أن يسير معهم مسافة أطول يقطعون رأسه ليصبح لحمه حلال الاكل ، بينما يحرم فيما اذا مات دون تذكية .

كنا سنجد البئر بسهولة لو لم يكن الرولة معنا ، لأنها تقع في مكان خفي لم يستخدم هذا العام ، كما أن الطرق الموصلة اليها معدومة . كانت البئر بعمق ستين قدما قسناها بحبل كان معنا الا أن ماءها عذب حلو ، وتسمى بئر « البوصيري » . شربت منها الاغنام والخيول حتى ارتوت ، وحتى فرسي التي عرفت فيها الاعتدال في مشربها لم ترض بأقل من أربع قرب .

أصر رعاة ولد علي على مرافقتنا طمعا بالمرور عبر ديار الرولة تحت

حمايتنا، الا أن محاولتهم بالمرور كانت بالنسبة لي لغزا محيرا، لأنهم يصطحبون بالاضافة الى الاغنام خمسة عشر جملا وفرسا جميلة المنظر معها مهرها ، ويبدو أنها من غنائم الحرب المحللة عندهم •

الثالث عشر من نيسان لـم تخف درجات الحرارة ، والاغنام تسـير ، وألسنتها تتدلى خارجا اذ لم تعد الحيوانات المسكينة تتحمل درجات الحرارة• وكان أصحابها قد جزوها طمعا بانقاذها وعندما انطلقنا مررنا بتلين عاليين : كوكل الى اليمين والرماح الى اليسار ، ولهذين التلين قصة شعبية عند البدو تقول : يوجد رجل محارب قديم يشتهر برمي الرمح حتى لقب بالرماح عاش على هذه التلة ؛ ويملك زوجة على الهضبة المقابلة ، وزوجة أخرى على هضبة ثالثة ، وكان اسم الزوجة الاولى كحلة • لأنها كانت تكتحل بالكحل والثانية عادة ؛ وكانت عادة أحب زوجة اليه ، وتتشاجر مع كحلة حتى ضاق رماح بهما ذرعا . وفي ساعة غضب جعل رمحه يخترق الزوجتين دفعة واحدة ، وهنا توقف الرولة بغباء ؛ وقال راويتهم : انه نسي بقية القصة •

قمنا اليوم بمسيرة ناشطة قاطعين ثلاثة أميال ونصف الميل في الساعة ؛ وقد ضللنا رجل من الرولة بتأكيداته أنه يعرف أصدقاء له في المنطقة • وفـي مكان قريب من هنا وعند الساعة الثانية وجد ولفرد حفرة في الصخر الكلسي تحتوي على بضع قرب من الماء شربته الخيول ، ومن ثم وصلنا الى جماعة من الناس تملأ القرب من حفرة كبيرة مماثلة على بعد ميل آخر ، وهكذا مضت على مسيرتنا ثماني ساعات ، ولا بد من أن نكون قد قطعنا ثلاثين ميلا • وعلى الرغم من أن الرولة حقا الآن على مقربة منا الا أننا توقفنا في واد جميل مليء بالعشب ، لنرسل غانما مع رجلين على ظهر ذلول ، لكي يعلن وصولنا في خيمة ابن شعلان بناء على نصيحة القنصل صونا لكرامتنا • وقد سررت لتوقفنا في هذا المكان لأن الجمال والخيول سوف تنعم بوجبة عشاء كافية لذيذة ، ولأن مخيم البدو اذا ما أمضى ليلتين في مكان واحد ، فانه يأكل كل شيء حتى تصبح الارض رفعة جرداء ، ولهذا سيعاني الضيوف غير المتوقعين من نقص الاغذية

لمطاياهم .. قتلنا حريشا في الخيمة بطول ستة انشات ، يدعوها غانم بأم أربع وأربعين نظرا لأرجلها المتعددة .

وصل الينا اثنا عشر أو أكثر من فرسان الرولة قادمين من مضاربهم القريبة عند أعلى تلة منخفضة ، وكانوا في سرور لنجاح غزوهم ؛ لأن ابن شعلاز عاد البارحة وهم يقتسمون الغنائم هذا اليوم ... قدمنا لهم القهوة كواجب من واجبات الضيافة ، ومن سيظنون رعاة ولد علي ؟ كبير ضيوفنا الجدد رجل يدعى « أبو جديلة »[1] سأل عما يكون هؤلاء ؟ وفيما اذا كانت الاغنام لنا ؟!. فقلنا : انهم من رفاق الدرب الذين لحقوا بنا ، والاغنام ليست لنا وليس لنا أن نتدخل ، ولهذا توقعنا حصول غارة سريعة ، لأن الرولة هم في حالة حرب ولهم كل الحق بأخذها غنيمة . لكن أبا جديلة ضحك فقط ، وقال : لقد اكتفينا وشبعنا جميعا . وهم هنا بمأمن من أن يتحرش بهم أحد .

عاد غانم ليرد الكلمات التي قالها سطام ابن شعلان عندما سمع بقدومنا من السبعة : هل أحضروا زوجتي معهم ؟ وعلى كل حال أرسل رسالة شفوية ليرحب بنا ، ويعتذر عن عدم قدومه لرؤيتنا بسبب التعب ؛ وخيمته لا تبعد عنا أكثر من ثمانية أميال .

يوم الاحد في الرابع عشر من نيسان شاهدنا أجمل منظر طبيعي يمكن أن يشاهد في البادية انه مخيم الرولة الذي وصلنا اليه فجأة ، بعد أن عبرنا سلسلة منخفضة في أرض مرتفعة وأشرفنا منها على سهل صيقل المترامي الاطراف والذي انتشرت فيه على مد البصر خيام لا تعد ولا تحصى ، وفيها الرجال والخيول والابل ، وعلى بعد عشرة أميال امتدت بحيرة صيقل التي كانت بيضاء لامعة تحت الشمس . الا أن المسافة التي بيننا وبينها قد شغلت ؛ وكان هناك بعد متساو لكل أجزاء المخيم شرقا وغربا عن مكان التجمع وقد قدرنا عدد الخيام بعشرين ألف خيمة ، والجمال بمائة وخمسين ألفا ، وشعرت

(١) ابو جديلة يملك افضل سلالة من الخيل العنقية ، حتى انها تفضل على سلالة ابن سبيل .

برهبة وخوف لهذا البحر الهائج من البشر ، كما لو كنت أشاهد البحر أول مرة ، لأننا لم نكن قد شاهدنا كل هذا الحشد من الخيام من قبل •

وربما كان السبعة وأحلافهم أكثر عددا ، ولكن ليس لديهم ربع ما في مخيم الرولة من الجمال التي لم نر مثلها في أي مكان آخر ، وهذا ما أعطانا فكرة كبيرة عن الحجم الحقيقي لقبيلة الرولة مجتمعة ، وأخذنا نكتشف ذلك ونحن نرتحل بخطاً عادية ، وقد أمضينا ساعتين قبل أن نصل الى خيمة سطام التي كانت تقوم وسط المخيم •

لم تكن هناك أغنام باستثناء ما شاهدناه منها على المنحدرات والتلال ، وقد صعقنا للعدد القليل من الخيول بينها • ويبدو أن الجمال هي كل شيء عندهم ، وأخذنا نعد القطعان التي مررنا بها قطيعا بعد قطيع •• مائـة •• خمسمائة وحتى الالف ، وكانت الخيام أصغر من خيام السبعة باستثناء خيمة الشيخ التي كانت رائعة وتقوم على تسعة أعمدة ، وربما تطاولت الى مائة قدم من طرف الى طرف آخر • وأما عن الراحة التي يجدها المرء فيها فينقصها بعض الشيء كغيرها من الخيام ، وكل ما تشاهده فيها من أثاث قطعة من « السجاد » وبضعة سروج أو قتب الجمال ، بالاضافة الى وعائين عاليين للقهوة ، ومحماس للقهوة بطول ياردتين يرتكز على عجلات ، وربما تجد في الخيمة مائة رجل في حالة جلوس • استقبلنا رجل في الثلاثين من عمره ، ووجهه يميل الى اللون الاسمر ، نقط بآثار الجدري ويضع على رأسه منديلا ورديا • وحالما ترجلنا كان من الصعوبة أن تتعرف عليه فقد كان سطام ابن شعلان شيخ الرولة •

ان عائلة ابن شعلان على الرغم من أنها لا تعد من ذات الاصول البعيدة تملك أكبر ارث عائلي في البادية • ويحق لسطام بحكم مولده أن يتباهى بحكم شعب يبلغ تعداده عشرين ألف نسمة على الاقل ، وبامكانه أن يقود خمسة آلاف رجل في ساحة المعركة • وكيف يمكن لعائلة أن تكسب مركزا وهي ليست قادرة على اكتشاف الماضي الا أنهم لا زالوا يحتفظون به الآن منذ عدة أجيال ، وحتى اليوم لا زالت المشيخة متوارثة بينهم • علما أنها لم تدم طويلا عند آل الطيار وآل الجندال •

لم نجد مثل هذا عند قبائل العنزة الاخرى ، لأن كل مجموعة يرأسها شيخ منفصل . ومركز جدعان بينهم ما هو الا من قبيل النفوذ الشخصي فقط . ولم نجد مثيلا لعائلة الشعلان الا عائلة الجربا في الجزيرة ، الا أن الرولة من حيث القوة والثروة تفوق التمريين كثيرا ، ومع هذا كله لم أجد لسطام سطوة كبيرة بين قومه . ومن السهولة أن تراه ضعيفا في اتخاذ القرارات ، وانما هو مجرد ألعوبة بين أيديهم ، حتى انه لم يكن القائد العسكري أو العقيد ، وهو لن يفشل في هذا المجال لو كانت لديه الصفات الضرورية للقيادة . كان عقيد الرولة رجلا عجوزا من المعجل ـ فرع من القبيلة ـ اسمه حمود ؛ وهو نفسه الذي قاد الغزو على السبعة في ذلك اليوم وليس الشيخ سطام ، على الرغم من أن سطاما كان ضمن الجماعة . .

كان استقبالنا في خيمة سطام مؤدبا لطيفا ، الا انه لم يكن حميما بصورة خاصة ، لأن سطاما كان يتذمر من التعب والارهاق ، لأن حملة الغزو قد أنهكته ، فتركنا وحدنا طيلة اليوم . وعند الظهر جاء الشيخ حمود ـ عقيد القوم ـ لزيارتنا وانتهزنا الفرصة لفتح باب المفاوضات معه في موضوع مهمتنا الدبلوماسية التي كلفنا بها جدعان ، وهو ما يهمنا كثيرا، ولدينا بعض التعليمات والشروط التي حملها جدعان لعبد الرحمن الحلبي ـ دكتور الشريعة ـ الذي كان يرافقنا وبملك صلاحية مطلقة في القضية على أن ترتب الامور على الشكل التالـي :

١ ـ الاسراع بعقد الصلح .

٢ ـ كل الخسائر في كلا الطرفين تعتبر منتهية .

٣ ـ يجب على ابن شعلان أن يسحب ادعاءه بمراعي حمص وحماه .

٤ ـ يستقبل السبعة الرولة ضيوفا في أعالي البادية لأنها تتسع لهم جميعا .

اقترحنا شروطا لطيفة جدا على سطام وعلى العقيد في ظهر هذا اليوم ، ودعمناها بمناقشات وشروح مناسبة . أخبرت الشيخ سطاما : ان رجلا مثله في هذه المكانة العظيمة عليه أن يضرب لقومه مثالا في الحكمة ، وألا تجرفه

شهوة المجد المجردة التي تجعل كثيرا من الناس العاديين حمقى لا فائدة منهم ، وعليه أن يعرف أن حربا كهذه بلا هدف بين قبيلتين من العنزة ستكون ماحقة للطرفين ، وأن الابل التي غنمها اليوم سوف يخسرها غدا ، لأن الحرب كر وفر، ولن ينتفع فعلا من هذا النزاع سوى الاتراك أعداء الجميع ، وعليه أن يدرك الامور بحكمة خيرا له من أن يكون ألعوبة بأيدي الباشوات .

وافق سطام في البداية على كل ما قلناه ، معترفا بأن الحكومة التركية منذ البداية كانت هي الملامة على تفجير هذا النزاع،الا أنه أصر على أن الحرب يجب أن تستمر ، لأن قومه يرغبون بها ولا يستطيع السيطرة عليهم ، بينما العقيد العجوز كان يميل الى السلم لأنه طاعن في السن ومن النوع المجرب الذي شهد الحروب الكثيرة ، ويعرف المنافع القليلة والامجاد الضئيلة التي تأتي بها الحرب الا أنه من عادته أن لا يقرر مثل هذه الامور في القبيلة ، ولكن يقودهم نقط عندما يختارون القتال . أما بالنسبة للباشوات فمن المستحيل التعامل معهم بدون تقديم الهدايا . وباعتبار أن القبيلة ترغب بالقيام بالمبادلات التجارية والمنافع مع المدن ، فلا يمكن تحقيق ذلك بدون الدفع المجزي . الليدي : ماذا لو اتحدت قبائل العنزة ؟ عندها لن يكون للشيوخ الحق في ارسال الهدايا للباشوات ، وسطام بدلا من أن يرسل الخيول الى حماه فانه سوف يتلقى المنح الحكومية وأثواب الشرف . ونزاعات العنزة أفقدتها السيطرة على المدن التي اعتادت أن تدفع لهم الجزية . الا أن الاتراك يستأثرون بها بطريقتهم الخاصة وجنبوا أنفسهم القتال لأن الدولة تمارسه بالنيابة عنهم .

سطام : لا يفهم قومي مثل هذه الاشياء ، ويرون الربح الوفير في بقائهم أصدقاء للحكومة وتنفيذ كل ما يقوله الباشا لهم .

الليدي : هكذا اذا شنوا الحرب على اخوانكم ! وستندم على ذلك في يوم من الايام عندما يطردكم الاتراك جميعا الى نجد من حيث أتيتم .

سطام : لا أستطيع فعل الا ما يرغبه قومي . فهم يريدون سهول حماه مراعي الابل التي ازداد عددها والحمد لله وتضاعفت في السنوات الاخيرة . والحماد لا يتسع لكل القبائل .

الليدي : السبعة تقبل استقبالكم ضيوفا في أعالي البادية ، وهناك منع للجميـع .

سطام : نعم . ولكن الاتراك لا يرغبون في أن نعقد صلحا .

كانت تلك قصتنا مع سطام . وقد بدا فيها ضعيفا في قيادة قومه ، ومع ذلك فقد وافق العقيد على أن يتدارس القضية مع الرؤساء الاخرين للقبيلة . وجلسوا فعلا على شكل حلقة على الارض على بعد مائة ياردة ، مجتمعين لمناقشة المقترحـات .

استقبلنا بالاضافة الى العقيد وسطام عددا لا بأس به من الزوار في خيمتنا وكل أحاديثهم كانت تدور حول الغزو الذي يعتبرونه ناجحا جدا . فقد غابوا خمسة أيام فقط وساروا ثمانين ميلا في اليوم الواحـد ، ورحلة العودة كانت بطيئة لأنهم كانوا يسوقون الجمال المأسورة ، ونيرانهم بالطبع هي النيران التي كان محمد يراها من فوق تلة البوصيري .

كنا في دهشة من أن نسمع بأن الرولة وهي في أوج قوتها لا يمكنها أن تجند أكثر من ألف فارس في حملة من هذا النوع ، ولكنهم فلسفوا القضيـة بمفاهيم أخرى : فهم كانوا يديرون القتال بطريقة حديثة وفعالة . فبدلا من الخيول كان معظم فرسانهم يركبون الابل ، ويجلس كل اثنين ظهرا لظهر على كل ذلول ، وبأيديهم الاسلحة النارية . وهذا النوع من المشاة المحمولة يدعى « السقمانية » . ويمكن لهم تجنيد أربعة آلاف أو خمسة آلاف محارب بهذه الطريقة ، والقليل منهم رافق الغزو كنوع من فرق الاستطلاع ، ومنهم الرجال العشرة الذين صادفناهم يجثمون في الوادي في اليوم الذي وصلنا فيه الى جدعان ، كانوا دون أدنى شك جماعة منهم ، أرسلوا للتجسس والحصول على الاخبار وتحديد نقاط الضعف عند السبعة .

كل الجلاس اليوم ينتشرون في السهل ، ولم يحدث مثل هذا منذ عشرين عاما ، كلهم هنا باستثناء خمسمائة خيمة بامرة طلال ابن عم سطام بن شعلان الذي تشاجر مع الشيخ لأسباب عائلية تتعلق بالزوجات ، والذي تخلف عنهم

قرب جبل شمر هذا العام • ومهما قيل يصعب علينا تحديد العدد الحقيقي لخيام الرولة ؛ لأن بعضهم يقولون : انها خمسة آلاف ، وبعضهم الآخر يقول : انها عشرون ألفا • وعلى هذا الاساس يبدو ليست لديهم فكرة عن الاحصاء وكثيرا ما كانوا يبالغون . الا أن ولفرد قال : ان الرقم العشرين ألفا هو العدد التقريبي لهم . والخمسين ألفا بعد المائة يبدو أنه العدد المنصف لجمالهم •

ان الالف جمل التي أسرت هذا الاسبوع أخذت تقسم بين الذين اشتركوا في الغزو ، ويمكن تمييزها من الاغلال التي وضعت في الاقدام الامامية لكي لا تشرد الى أهاليها من جديد •• وشاهدنا في المخيم ابلا سوداء كثيرة من ابل نجد التي كانت مهزولة وأصغر حجما ، وتعطي حليبا أقل من الحليب العادي ولا يفضلها البدو كثيرا • وصل الينا بين الوافدين ابن سطام الصغير برفقة مربيته • انه منصور الصغير ، وهو في عمر الاربع سنوات ولد جميل جدا بخدود ريانة وردية وبمزاج ودي شجاع ، اذ لم نجد فيه الخجل الذي نجده عند الاطفال الاخرين ، حيث مشى عبر الخيمة وحده كي يقبلني •

عاد حمود مع عبد الرحمن لكي ينقلا الينا أخبار مجلس الحرب الذي نشك في نتائجه السلمية على الرغم من عدم وضوح أي شيء حتى الآن •

يبدو أن الشيخ سطاما كان قد استلم رسالة من جودت باشا الوالي الجديد لدمشق[1] ونودي على عبد الرحمن ليقرأها •• كانت الرسالة جافة ؛ تأمر الرولة بالابتعاد عن الشمال هذا العام ، وانتهت بكلمات تقول : اذا كان لديك ما تقوله لي حول هذه النقطة فاني على استعداد لأن أراك في دمشق ؛ وسأصغي اليك برحابة صدر •

اعتبر سطام وكل شخص غيره هذا الكلام مأخذا على الباشا وكلاما شاذا لا يتوقع صدوره من مثله • وهنا سرت أقاويل : بأن الباشا الجديد جاء جائعا ويريد حصته من العطايا لذلك يستعد سطام للذهاب الى دمشق يوم غد محملا

(١) جودت باشا (١٨١٣ — ١٨٩٤) : سياسي عثماني من ولاية الطونة ، تقلد عدة مناصب حكومية ووصل الى مرتبة وزير . له مؤلف في احوال الدولة العثمانية يسمى تاريخ جودت .

بالهدايا . وهو أكثر تصميما للاستمرار في لعبته مع الاتراك ، ونهذا رأينا انه من العبث أن نحاول ونقنع سطاما بالخطر التشخصي الذي يتهدد ابن شعلان هناك ، ولأن الشيوخ وأصحاب المقام العالي البارزين فقط هم الذين في منأى عن الخطر في غالب الاحيان . اجتمعنا مع سطام أخيرا وجربنا كل ما تبقى لدينا من نصائح ، فأصغى لها بأدب بالغ . والتمس بتواضع أن نعذره لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا نرغبه ويخالف رأي القبيلة ؛ وقال : انه لم يتشاجر مع جدعان . ومع ذلك فقد تركته زوجته ، وأن السبعة قد عانت من الحرب أكثر من معاناة قومه في الحرب ، ولكن عليه أن ينتظر ويرى أي طريق يحب الرولة سلوكه . فهم اليوم يكلفوه بهذه الرحلة الشاقة الى دمشق لأنهم لا يستطيعون البقاء في أماكنهم الحالية ، لأن العشب سينفذ كله . وعليهم أن يعبروا التلال غدا باتجاه جيرود[1] . بينما سيذهب هو معنا الى المدينة .

كان سطام حزينا للطريقة التي يلزمه بها قومه ، ولأنه يضحي باهتماماته الشخصية لارضاء قومه ، وعليه أن يصبح فقيرا بينما هم يزدادون غنى ، وعليه أن يجد الخيول والجمال التي تشبع نهم « العصملية » ؛ لأن الرولة ترغب أن تتاجر مع سكان المدن والفلاحين بحرية ؛ وعليه أن ينهي المهمة حالا .

ليس لدي احترام كبير لسطام . ولكن لا يمكنني الا أن أشفق عليه . لأنه مجرد انسان ضعيف أمام رغبات قومه . تناولنا هذا المساء عشاء أنفق عليه بسخاء في وقت كان يدور فيه رقص وغناء في الجوار على شرف وليمة ختان .

في الخامس عشر من نيسان ، بينما كانت الخيام تهدم والجمال تحمل . تحدثت لمدة نصف ساعة مع جوزة — زوجة سطام الاولى — التي كانت تتشاجر مع ابنه جدعان . وباعتبار أن كل شخص كان مشغولا باستثنائنا تكلمنا بهدوء دون أن يقاطعنا أحد من المتطفلين الذين يحيطون بزوار خيمة النساء .

كانت جوزة جميلة ورشيقة بقسمات ناعمة ، وكانت لطيفة جدا ؛ اذ تبدو كما لو كانت بمزاج خاص يميزها من بين النساء ، وكانت بارعة وحادقة في

---

(1) بحيرة شمال شرق دمشق .

الحديث أكثر من كثير مـن نساء العـرب ، وتتقن فن المجاملة والاسترسال بالحديث أكثر منهن ، لأن من عادتهن أن يصلن معي الى نهاية مسدودة عندما كن يسألن عن عدد أولادي ، وكم تبعد بلادي عن هذه الديار • أما جوزة فقد أبدت اهتماما بما قلته عن رحلاتي ، وسألت عن الناس الذين تعرفت عليهم في البادية ؛ وكانت فضولية بسؤالها عن نساء شمر ؛ وهل هن من الجميلات كما يقول الناس ؟ وما هي امكانات لبساهن ، وهل هن نظيفات وأنيقات ؟

ان الشيخ سطاما هو ابن عمها الاول ؛ ولكنها تحكمه بالنار والحديد ؛ وبوجودها لا تطيق أية امرأة أخرى البقاء طويلاً في خيمته ، ولقد تخلصت من اثنتين أعرفهما • ويبدو أنها مصممة على الاحتفاظ ببيتها كأم منصور والسيدة الاولى • كان الطفل معها وقد جعل نفسه محبوبا لأنه توسل لأمه كي أبقى معهم . فأعطيته صفارة صغيرة جدلت خيطها وعلقته في عنقه ، وفرح جـدا عندما علمته كيف ينفخ بها •• لم يكن منصور مثل بقية أطفال العرب الذين كانوا يتشبثون بكل شيء ينالونه ويطالبون بالسكر ، ولكنه كان مؤدبا وبتربية حسنة عالية ، الا أنه كان وسخا لأن أمهات الاطفال هنا يدعن أطفالهن بهـذا الشكل خشية أن تصيبهم العين الشريرة •

هدمت الخيمة فوق رؤوسنا وكان علينا النهوض ، لذلك قلت لهـم : الوداع ، وودعت جوزة التي وعدت بأن الطفل لن ينساني • كانت العُطفة[1] آخر شيء حماه قوم ابن شعلان معهم ، وهي هودج ضخم يستخدمه الشعلان عندما يتوقعون حدوث معركة وأشبه بقفص ضخم من الخيزران يغطيه ريش النعام ، وربما يعود تاريخه الى تاريخ الرولة في نجد وقصة قدومهم الاولى من هناك ، لأن النعام ليس له وجود شمال جبل شمر كما أظن •

---

(١) هودج من الخيزران يغطي بريش النعام ويشد على جمل ، وفيه تجلس بنت عقيد القوم أو فتـاة جميلة نشيطة طلقـة اللسان تنشد وتزغـرد للمحاربين وتحرضهم على القتال ، وتسمى هذه الفتاة (المعمارية) وكانت آخر القبائل تمسكا العطفة الرولة في بادية الشام .

تحمل العطفة[1] على ذلول وفيها فتاة وظيفتها الغناء للمحاربين وشحد هممهم ، وهذه الفتاة يجب أن تكون رابطة الجأش طويلة النفس ، لأن المعركة تحتدم حولها في حالات الكر والفر . والرولة تعتقد اعتقادا خرافيا مفاده انهم سيهلكون فيما لو خسروا العطفة ولهذا فهم يستميتون في الدفاع عنها . كما أن العدو لديه رغبة مماثلة في أسر ساكنة العطفة. كانت لكل قبيلة من القبائل الكبيرة عطفة واحدة في الايام الماضية ، الا أن عادة اصطحاب العطفة في الحرب أخذت تندثر من بين قبائل البدو ، وربما بسبب ندرة ريش النعام وصعوبة تجديدها. الا أن الرولة لا زالت تحتفظ بها . وأعتقد بأن قوم ابن هذال لا يزالون يصطحبونها ، وفي هذا اليوم حملت العطفة فارغة على ظهر ناقة فارهة وجميلة. أرسلنا الخيل والحمير من أجل الماء الى التلال التي تنهض شمال السهل . والتي تدعى جبل الرواق حيث يوجد نبع ماء عذب يدعى بئر شدحه ولم نعد بعد ، على الرغم من أن خيام الرولة جميعها قد هدمت وبدأت بالمسير .

أبقى سطام خيمته منتصبة على سبيل الادب ، ولكنه لا يستطيع الانتظار لمدة أطول ، وجاء ليودعنا ، وعلينا أن نراه ثانية اليوم ليلا أو في يوم غد . ولكن عليه أن يواكب قبيلته حتى التلال أولا ومن ثم ينضم الينا في الطريق ليذهب معنا الى دمشق . اني أشاهده الآن يركب مبتعدا مع بعض رجاله وأربعة خيول وناقة مع صغيرها أخذت هدية للباشا . ويبدو أن الخيول لم تكن ذات قيمة ملحوظة . والآن ذهب جميعهم .

يصعب على المشاهد رؤية السهل يخلو تدريجيا من ساكنيه . اذ لا نزال نراقبهم ينسابون على شكل جماعات من الشعب وأعالي التلال . وكيف يمكن لكل هذا الحشد في المخيم أن يرحل ويخلف صمتا مطبقا ؟ ولنصبح وحدنا في البادية بين المراعي المسحوقة ، ولا أثر يذكر لأناس كانوا يعيشون في هذا المكان ، لأن العرب لا يخلفون شيئا خلفهم ولا حتى قصاصات الورق التي

---

(١) علمنا من بعض المصادر ان من يخسر العطفة ويوقعها بيد العدو ، لا يمكنه ان يتخذ عطفة بدلها ، ما لم يستردها ، او يأخذ عطفة من الاعداء ويغنمها. وكثيرا ما تكثر الضحايا حولها وتتجندل الابطال حتى النصر او الموت .

يجدها المرء في أماكن المتنزهين بعد انتهاء النزهة • كل هذا باستثناء جمابن ربما كانا من الجمال التي غنمت مؤخرا ، تركت لأنها كانت تعرج بشدة ، وبقيت لأي شخص تال يريد أن يستهلكها . وهنا تلهف غانم الى سوقها وبيعها في دمشق . الا أن ولفرد لم يسمح له بذلك • مساء لم ننطلق حتى الساعة العاشرة تقريبا ، وارتحلنا لمدة خمس ساعات فقط ، نصفها على الاقل عبر ما كان يسمى مخيم الرولة ليلة البارحة ، ولهذا فان المساحة الكلية التي كانت القبيلة تشغلها لا يمكن أن يكون عرضها أقل من اثني عشر ميلا ، ولم نكن نعرف هذا الا من خلال حركات الجمال التي لم تجد ما تأكله حتى جاوزنا تلك المسافة . ومن ثم تركناها ترعى كما تحب لأنها لم تأكل ما يكفيها منذ أربع وعشرين ساعة •

أصبحنا عند سفح جبل الرواق • فظهرت علينا غيمة بيضاء تدرجت فوق الافق أمامنا مباشرة ، وسرعان ما أخذت شكل جبل غطي رأسه بالثلج • انه جبل الحرمون المغطى بالثلوج . وهو المنظر الاول من الارض الموعودة • ومنها علمنا بأن دمشق لا بد وأن تكون أمامنا مباشرة وليست بعيدة ، ثم توقفنا في ظل خان مهدم كان يمثل العلامة الاولى لاقتراب الحضارة ، وعنده شاهدنا مرتع العشب الكثيف فقضينا فيه ظهرا رائعا شاهدنا من خلال جوه الشاعري آخر ما يمكن أن يذكرنا بالبدو •• انها ليلتنا الاخيرة في البادية ، وعلينا أن نستمتع بمعظم فترات الهناء فيها •

كنا على مقربة من الروابي البركانيه الغربية . وربما كانت تختلف عن العينات التي شاهدناها في تلال اللجاة • وعلى أحدها اصطاد ولفرد أرنبا بريا، وعلينا أن نقيم وليمة هذه الليلة احتفالا بترقية محمد الى رتبة الاخوة التي قررنا منحه اياها لاخلاصه وخدماته التي لا تقدر بثمن ، وتناقشنا طويلا فيما اذا كان جديرا بهذا الشرف لأن لقب الاخوة لا يستخف به اطلاقا ، أو أن يمنح لأي انسان الا للرجال من الطراز المعين•وبدا لي محمد في بداية الأمرخارج طبقة الأشخاص البارزين ، وعلى كل حال حان وقت التكريم • وكان على شيوخ

البادية الكبار أن يقسموا على التآخي مع شيوخ المدينة ، ومحمد هو الابن الاكبر والوريث لمشيخة تدمر ، وكلها يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ، يضاف الى ذلك انحداره من سلالة بني لام والطالبيين قد يرفعه فوق عامة الناس وجموع فلاحي القرى • وكاختبار نهائي قررنا اثبات فيما اذا كان جديرا بالتكريم عن طريق اغرائه بالمال عملا بمشورة السيد « سكين » ، وبهذا سيكون أمام امتحان صعب في الواقع بالنسبة لبدوي ومواطن مثله في جزيرة العرب . ولكنه نجح نجاحا باهرا وخرج سالما من هذا الامتحان •

لقد خيرناه بين أمرين : اما أن يُرسل الى تدمر بمبلغ محترم من المجيديات مكافأة لخدماته أو أن يختار اخوة وصداقة البك • فأجاب محمد بتعبير رائع مؤكدا بأن البك لو ملأ منديلي بالقطع البيضاء فاني سأعتبرها لاشيء أمام شرف الاخوة عندها سويت القضية وحلف اليمين بحضورنا • وسيجلس محمد الليلة ولاول مرة ليأكل معنا في خيمتنا ، وعندما حلف اليمين أضاف لنص القسم عبارة : حتى آخر يوم من عمري • وتأثرنا تأثيرا بالغا لوقار المناسبة • حصل هذا في وقت لم يظهر فيه سطام بعد ، وعلينا أن لا نتوقع مقابلته حتى نصل دمشق •

في السادس عشر من نيسان أصبح الجو عاصفا ، ولكن لا يهم فنحن في نهاية رحلتنا تماما • وفي الليل شاهدت حول القمر قوس قزح جميل • فالقمر يشع وحوله هالة قبيل هطول المطر الغزير ، وكان القوس مرئيا ، ولكن الالوان لم تكن تميزه •

مررنا حالا بعد الانطلاق بمعسكر متطرف صغير للرولة ، ولكن دون أن يحط رحاله • فانضم الينا اثنان من الفرسان التابعين للمعسكر وركبوا معنا ميلا أو ميلين • ولكننا لم نستطع الحصول منهم على معلومات مفيدة لأن الصغير منهم كان خجولا والاكبر كان معاقا عن الكلام الشيء الذي جعل من المتعذر علينا فهم ما يقول ، ثم افترقنا بعد أن عبرا التلال الى اليمين لكي ينضما الى الجماعة الكبيرة للرولة في جيرود • أما نحن فتابعنا المسير باتجاه مستقيم الى جبل الحرمون أو ما يسمونه جبل الشيخ •

وصلنا عند الساعة العاشرة الى أول الحقول المزروعة والى بعض الآثار الاغريقية الرائعة ، وعلى بعد منها شاهدنا نبعا[1] وافرا من الماء العذب الذي لم نشاهد مثله منذ أسابيع • ويبدو أن النبع غير طبيعي فكيف يمكن لمثل هذا الماء الوفير أن يتدفق من الارض ؟• وبعد ذلك وصلنا الى قرية دمر النقطة المتقدمة للحضارة باتجاه البادية • كان المكان مزدهرا ومحاطا بالجنائن وبساتين الذرة؛ وهناك شاهدنا سكان المدن من ذوي الوجوه الشاحبة ، وهم يلبسون العمائم ويركبون الحمير بدلا من الجمال ، وكانوا يردون على تحياتنا كلما مررنا بهم بلثغة متكلفة عند السوريين قائلين : مرحبا•أصبحنا ثانية تحت سيطرة القانون العثماني • انه المكان المتوسط بين الحرية المطلقة في البادية والقيود الاوربية • وأخيرا قابلنا رجلا يلبس ثيابا افرنجية ويضع الخواتم في أصابعه ويتكلم الفرنسية • فأخبرنا أنه يعمل مترجما لقنصلية أجنبية ولم يكن ممن يجلب النظر اليهم ، لأنه كان حاسر الرأس أصاع وبثياب هزيلة • وفي اليوم التالي انطلقنا راكبين باتجاه دمشق •



(١) نبع الفيجة شمال شرق دمشق .

الفصــل الثانــي والعشرون

« كان شكلهم غريبا مشوها ... اثار في شيئا من الاضطراب لذلك استلقيت خلف شجرة كــي اراقبهم بشكل افضل »
من رحلة الى هويناهز ـ سويفت(١)

كلمات أخــيرة ـ دفاع عن الجمل ـ سطام في المدينة ـ وداعــا ـ جماعــة الياهــو .

انها الكلمات القليلة التي أنهي بها قصة الرحلة ... مضى علينا اسبوع في دمشق ننتظر وصول النقود التي سننفقها للوصول الى الوطن . لأننا قــد استهلكنا كل ما نسلك واعتمدنا على بيع الجمال كي نعوض المبلغ المطلوب . اذ قام فرحان ومحمد بترتيب عمليات البيع بشكل رائع ، ووجدنا في غضون أيام ربحا صافيا في أيدينا بلغ خمسة عشر شلنا عن كل دابة اشتريناها من بغداد . وبعنا فرسنا طرفاء بخسارة طفيفة بينما تركنا الخيول الثلاثة الاخرى مع القنصل لكي يشحنها فيما بعد الى انكلترا . أما الحمار الابيض فقد بيع بالمبلغ الذي اشتريناه به ، والستة عشر جنيها التي دفعت كانت مناسبة لمثله . اذ لم تبد عليه علائم التعب حتى نهاية الرحلة على الرغم من أنه كان يحمل ما يوازي ثمانية عشر حجرا على ظهره ، ولم يعثر خلال المسيرة كلها .

لقد ذرفنا الدموع عندما فارقنا الجمال كتلك الدموع التي يذرفهــا الناس عندما يفارقون أعز ما يملكونه . وهذه الحيوانات المخلصة قد قامت بكل ما طلب منها دون تذمر ، حيث لم أقل لها أية كلمة . ومما يثير شجوني تذكري كم كانت هذه الحيوانات مطيعة ولطيفة ، بينما نقرأ ما كتبه بعض الرحالة عن نزعاتها الشريرة تعصبا لغيرها من المطايا فأحد الكتاب مثلا كان عليه أن يكون منصفا عندما كتب صفحة أو صفحتين عن الجزيرة العربية ، وذكر في

---

(١) سويفت جوناثان « ١٦٦٧ ـ ١٧٤٥ » . كاتب انكليزي . من اشهر آثاره : رحلات غاليفر عــام ١٧٢٦ .

مقالته ذما لقلب مشاعر الجمل ، بينما المجرب الحقيقي لهذا المخلوق لا يجد مثل هذا القول ، وألصقت تهم قاسية به على الرغم من أن الرفسات النادرة لا يمكن أن تتوقعها صادرة عن الجمل • ومهما كانت هفوات الجمل فلا يمكن عده من الحيوانات ذات المزاج السيء ولعل هدير صوته سيكون مرعبا لأي شخص في أول وهلة ، باستثناء ابن الشارع من أحياء« كوكني »الذين يعتبرون صوته كخوار البقر • والرغاء هو طبيعة صوته الا أنه لا يعتبر مخيفا الى هذا الحد ••• والحقيقة ان الجمل يستخدم صوته على سبيل الانذار ، عندما يُحمل فوق طاقته ، أو عندما يجهد في العمل فانه يتوسل بواسطة الصوت طالبا الرحمة • واذا ما ضجر المسافر من رغائه فعليه أن ينظر تحت قتبه قبل امتطائه فلعله يجد سببا لتذمراته العالية التي يصدرها هذا الحيوان المسكين• وبشكل عام يرغو الجمل غير المروض بسبب الخوف ، ويرغو الجمل عندما يجرحه السرج • فكم من مرة تنبهت على صوت جملي وهو يتوسل بادارة وجهه الواجم ليوكز ساعدي ، فأجد عندها بأن السرج « القتب » يحتاج الى حملةحشو مرة ثانية • وفي أكثر من مرة يحين الوقت للترجل اذ لم أكن راغبة بتعريض نفسي لخطر السقوط • فهل هذا السلوك يعد من قبيل المزاج السيء ؟ أم أنه الحاجة الى اشعار الاخرين بما يحدث ؟ وكم أحببت الخيل ! الا انني أعتبرها أقل مرتبة من الجمل • ومن يشك في هذا القول عليه أن يصطحب الجياد والجمال في رحلة ويرى بعينيه تصرف كل منها • فالجواد ان لم يكبحه راكبه فسيبدأ يومه برفسات مضحكة في الهواء وينهيه بعدو متثاقل وئيد . ويتعثر ويتهالك في نهاية المطاف • واذا ما ركب فانه يركب بحذر قد يدوم اليوم كله ، ويجوع الجواد في الليل والجوع أكبر ظاهرة على المسافر أن يلاحظها في مطيته ؛ ولهذا يرخى له العنان لكي يأكل ، بالاضافة الى أننا لا نجد منافسا له في الصهيل والصياح الا بعض الانواع من الحيات « بسيفالوس »[1] ؛ اذ بولع بالصهيل والمماحكة • فاذا ما قدم له العشب وعرض لموقف قتال فانه سيترك العشب اللذيذ لأن القتال والروح العدوانية عنده أشد رغبة ، واذ لم

---

(١) بسيفالوس : نوع من الحيات الخبيثة تسمى أم العيون يكثر من الفحيح .

يتدخل صاحبه في الوقت المناسب فلن يكون صالحا في رحلة اليوم الآخر • ومن المخاطرة أن يترك دون تكبيل أو ربط من أقدامه الى وتد كبير • وفي الصباح الباكر ستجده إن لم ينفلت رباطه وقد تلوى في رسنه بشكل يصعب تخليصه منه • وكم من مرة تراه يتضور جوعا لأنه لا يستطيع الوصول الى العشب • واذا ما غطاه صاحبه بدثار غليظ ليبقي جسمه دافئا ، فربما ينزعه وهو يحاول التدحرج على الارض فترى الدثار قد تدلى من حزام السرج • وعندما يمد صاحبه عباءته ويكوم فوقها الذرة أمامه يدفن الحصان فمه ويملؤه ثم يستدير لبعض خاصرته ويبعثر نصف طعامه على الارض ، وفي لحظات أخرى ينبش بحافره الكومة ليخلطها بالوحل تحت أقدامه •بينما الجمل الذي يوصف بالغباء وسوء الطبع يبقى مقتصدا لقوته على الرغم من أنه يسير طوال اليوم، ويحافظ على خطوة المتزن وكأنه بائع متجول درب ميلا بعد ميل وساعة بعد ساعة • وما ان تنتهي الرحلة حتى يمشي بعدها لتناول طعامه ••• انه يعرف قيمة الوقت ولا يضيع أية لحظة ، ويحرص على أن يبقى في المحيط الذي تنتشر فيه الجمال ، وكثيرا ما يصغي الى نداء سيده • وعند الغسق يتوقف ليدير رأسه وهو يرصد نيران المخيم ، وعندما يراها مشتعلة يعرف أنه قد حان وقت المبيت فيشق طريقه ببطء الى المضارب ليركع بارادته لكي يتلقى نصيبه من الفول أو كومة من بذور القطن ، ثم يجتر ما مضغ حتى الصباح • فأي من هذه الحيوانات يبدي احساسا عظيما بالمسؤولية خلال اليوم ؟ وأي منهما يكون في مزاج حسن ؟ ومهما قلت ، فكفى لأنني قد فقدت ابلي •

بعد هذه التوديعات الصامتة كان علينا أن نقوم بتوديعات أكثر رزانة••• حنا ، فرحان ، غانم ، محمد ، القنصل ، فكل بدوره ودرجته ونحن نعتصر النفوس من الالم •

كان غانم أول من انصرف لأنه كان في دمشق بدون مأوى ، وعوكس هناك في أول يوم اذ جرده الدرك من سلاحه الذي كان بمثابة عصاة حديدية يعتز بحملها ، وهو ما أثار اشمئزاز الفتى ، وانتهز أقرب فرصة ليودعنا بعد أن حظي بصحبة الشيخ الشرعي لقبيلته لكي يقوم بأداء الاغاني تمجيدا لأخبار

حرب الرولة • وهناك استعار اسم بندر بدلا من اسمه الحقيقي ، لأنه يعتقد أنه سيجد فرصة كافية لكي يصبح عظيما في نظر الاخرين •

ارتدى غانم ثيابا جميلة وعباءة ومنديلا من عائدات هدايانا له ، وأخذ يتبختر حول المدينة •• انه كما هو على حاله المخلوق الخالي السائح المتمتع، فاختفى أخيرا مع سيده ولم نعد نراه بعد اليوم •

كان حنا مسرورا جدا بأواني وقدور الطبخ بالاضافة الى استلامه راتبا مضاعفا عن كل الاشهر التي قضاها في خدمتنا، وبكى في الايام القليلة التي تبقت من الرحلة وأسال الدموع الغزيرة في يوم رحيلنا • أما فرحان فكان أقل تعبيرا عن عواطفه ومع ذلك كان مخلصا في كل شيء ، وكان الوحيد ــ بين خدمنا ــ الذي لم يطلب سوى أجرته ، ولهذا أخذ كل ما يستحق وما زاد اعتبره هبة من السماء ، حتى انه لم يعد نقوده وأكد بأنه على استعداد لأن يتبعنا حتى نهاية العالم ••• وكنت أصدقــه •

رفض محمد أي راتب ، ولكنه كوفيء ببندقيته وببعض النثريات الصغيرة التي لم يفكر في طلبها،وحتى نهاية الرحلة بقي مثالا للفتى الذكي المرح وكعهدنا به أصبح أخا للبك ، وأبدى استعدادا لمشاركتنا المصير حتى نهاية العالم ، ووعد أن يذهب معنا في شتاء العام القادم الى الجوف لنساعده على اختيار زوجة له من قومه بني لام هناك على أن تكون فتاة من أصل نبيل جديرة بالزواج من سايل الطالبيين • أما عبد الرحمن على الرغم من أنه لم يكن من خدمنا الا أنه خدمنا بطرق عديدة خلال الاسبوعين الاخيرين ، فتلقى هدية عامل والمال عنده ــ كما علمته التجربة ــ نعمة ضرورية أكثر من المجد والتفاخر ، وقد ضحك بهدوء من تطلعات محمد « الرومانسية » ولم نكن نرى مــن مبرر لسحب احترامنا منه ، لأنه من علماء حلب وابن تاجر من تجار الخيل المعروفــين •
جاء سطام لزيارتنا أكثر من مرة في الحديقة التي خيمنا فيها ، وقد بدا المسكين مسرورا لأن يجلس على عتبة أو باب الخيمة ، لأنه كان يشعر أننا بدو مثله • وفي كل مرة نراه يزداد شحوبا واكتئابا لأن البدو يهزلون بسرعة في جو المدينة• وفجأة رجع الى البادية دون أن نعرف نتائج زيارته الى الوالي ، لأنه كان مراقبا ومصحوبا بموظف من موظفي الحكومة ، ولهذا كان متحفظا من الخوض في

أي حديث . لقد عملنا واجبنا بشأن الصلح ، ولكن لم نكن نرغب بالضغط عليه أكثر من طاقته ، وعلمنا بأنه عاد دون خيوله الى القبيلة ، وأن قضية مسيرة الرولة الى الشمال قد سويت بالتراضي ، ثم وصلتنا أخبار متأخرة تفيد بأن سطاما أصبح مرة أخرى في مراعي السبعة في حمص وحماة تدعمه الحكومة التركية ، ولهذا خشينا أن تكون مهمتنا الدبلوماسية قد أخفقت ، ولا ندري فيما اذا كانت السبعة سوف تستكين لخسارتها المنطقة ، أم أن القضية سوف تعقبها غارات ومعارك جديدة !

حتى الآن لا نعرف شيئا ، وان كنت أود أن أضيف ملحقا تفصيليا عن آخر الاخبار في البادية . أما عن عودتنا الى الوطن فليس من الضروري ذكر شيء من تفاصيلها . فما ان وصلنا الى دمشق حتى شعرنا بأن حنيننا اليه قد توقف وأن ما تبقى من أيام العودة كان تأخيرا مزعجا .

لقد تغلبنا على مشاعر لقائنا لاول بأهل بلدنا قدر المستطاع ، وأظهرنا مقدارا من البشاشة في وجوهنا ، الا أننا قد أصبنا بصدمة لأننا لم نكن نعد أنفسنا للتحول الكبير من شتاء قضيناه بين العرب وما فعله ذلك في أذواقنا وآرائنا وأحكامنا المسبقة على الامور الى حياة بيروت حيث قابلنا أول موجة من الحياة الاوربية . لقد وجدنا الفندق مهجورا فتناولنا عشاءنا بسلام على طاولة بدلا من الارض وبدأنا نشرب الماء مع الكؤوس ونأكل بالشوكات والسكاكين بدلا من الايدي والاصابع ، وكل هذا حتى الآن لم يثر دهشتنا ، وبينما كنا نجلس على أريكة في نهاية صالة الطعام نحتسي القهوة بوقار وهدوء الآسيويين علت في المكان ضجة وأصوات ضحك مرتفع ، ثم فتح الباب بعنف واندفع الى الارض رهط من الرجال والنساء الصاخبين ، وهم يرتدون المعاطف « والبناطيل » والتنورات القصيرة وال « جاكيتات » كل حسب جنسه ، ولكن برؤوس عارية حاسرة بشكل غريب ، وقدرت عددهم باثني عشر شخصا بوجوه متقدة ومثارة كما لو أنهم كانوا يشربون الخمر فمروا أمامنا الى الطرف العلوي من الصالة دونما توقف أو تحية ، وهناك دون تكلف رموا بأنفسهم على الكراسي . كانت الالبسة والاصوات والايماءات ومواقف الرجال والنسوة صاعقة بالنسبة لنا لا لأنها غريبة أو مثيرة للسخرية ، بل لأنها كانت غير محتشمة

ولأنها كانت غير مهذبة ولا لائقة وكأننا نشاهدها لاول مرة •

تبهرجت النساء بين المجموعة بشكل غير لائق ، وكل فتاة تدلي شعرها الغزير الاشقر مرتخيا على ظهرها ، وحلق الرجال الذقون بشدة ولبس بعضهم النظارات وارتموا بطريقة مزرية على الكراسي وبدؤوا يقايضون مجموعة حقيرة من الباعة المتجولين اليهود الذين لحقوا بهم وبينما كانوا يعرضون سلعهم كانوا يرمقون الغرباء غير المبجلين بنظرات احتقار واضحة • جرت المحادثات بين الفريقين بطريقة مخجلة أتوقف عن ذكرها ••• باللغة الانكليزية مرة وفي مرات أخرى بلغات أوربية،ورافقها اهانات وجهت الى الباعة ممزوجة بمداهنات وتملق كانت أكثر خزيا وحقارة • وكل المواضيع التي تحدثوا عنها كانت عن الاسلحة الشرقية المزيفة وعن حلي الفيروز المزيف وعن مخاريط الصنوبر في لبنان •• نادى ولفرد على ساقٍ واستفسر منه عن ماهية هؤلاء الناس وما هو سبب دخولهم الى هذا المكان ؟ لأننا كنا نعتقد أنهم من الطباخين السياح • وعادات هؤلاء مشهورة وربما كانوا يتناولون عشاءهم في الخارج ! أجاب الرجل : أوه ••• لا هؤلاء المسافرين هم من أثرياء الانكليز ذوي الاهمية وصلوا ليلة البارحة على ظهر يخت من مالطة •• أجل كانوا رجالا نبلاء من أبناء بلدنا • وكنت مسرورة لأن محمداً لم يشاهدهم وهم على هذه الشاكلة •

انتهت الرحلة ونحن مرة ثانية في انكلترا حيث لم يعد هناك سجل ملحوظ لمغامراتنا الشتوية • أما عن أصدقائنا في البادية فلم نعد نشاهد غير مسدس مشهور الذي علق فوق رف الموقد في الصالون ، وستة من الخيول العربية ترعى في الحديقة خارج المنزل بصحبة شريفة ومهر كميت عند أقدامها ، بينما كانت هاجر تنعم بالعدو والقفز فوق الارض الانكليزية • وعلى الطاولة استلقى الرأس الحجري الذي أعطانا اياه محمد في تدمر بين السياط والمظلات • انه النواة لما جمعناه من لقيات أثرية مع مجموعة من الرسائل وصلت لتعلن خبر يوم مشهود : اتحاد جدعان مع فارس • انتهى كل شيء باستثناء الفصول الاخيرة المثيرة التي اقترح علي ولفرد أن أنهي بها الكتاب ، اذ تضمنت معلومات جمعت خلال رحلتنا • وباعتقادي أنها لن تكون بدون فائدة على الرغم من أن ولفرد يقول : انها ستكون باهتة •

الفصـل الثالث والعشرون

قسم كبير من الارض كان قـد استوطن وعمر اكثر مما يعرفه الجغرافيون عنـه

● السير توماس براون

جغرافية شمال الجزيرة العربية ــ معالم البادية الطبيعية ــ هجرة القبائل ــ وادي الفرات ــ القرى في البادية ــ بعض الاشارات لواضعي الخرائط •

يحد الجزيرة العربية التي حددت على خرائطنا خط في الشمال يبدأ من رأس الخليج العربي وينتهي بخليج العقبة • وذروتها وضعها الجغرافيون عند خط العرض « ٣٤° » الى الجنوب بعدة أميال عن مدينة تدمر القديمة ، وهذا التقسيم يمتد عبر التاريخ الى أيام الامبراطورية الرومانية ، وهو يمثل بشكل دقيق حدود السلطة الثابتة نحو الجنوب باتجاه الجزيرة العربية • وخط الفرات في ذلك الزمن كان محروسا كطريق عسكري عام يصل النهر بالتلال الواقعة فوق دمشق • وبهذا الشكل تكون القبائل في الجزيرة العربية مغلقة وبعيدة عن المراعي في الجزيرة السورية والبادية العليا •

وضمن هذه الحدود انتظمت حياة مستقرة وآمنة ضد الطامعين وسيطر القانون العام للامبراطورية ، ولكن بعد أن مضت قرون عديدة على فقدان الفرات أهميته في أن يكون الحدود الحقيقية للجزيرة العربية ، أو أن يكون الطريق العام المؤدي عبر حاجز تدمر الى القبائل هناك • فقد حان الوقت لكي يزول الخط الوهمي الذي حدده الجغرافيون القدماء من خرائطنا • لأن الجزيرة العربية الشمالية تضم في الوقت الراهن كل المقاطعة الواقعة ما بين سورية وبلاد فارس ، وتمتد شمالا حتى خط العرض «٣٧°» خط أورفا وماردين وعلى كل حال فالجزيرة والعراق والسهول الواقعة شمال تدمر هي بطبيعة الحال جزء من

الجزيرة العربية حيث تشكل مع الحماد وحدة متجانسة فريدة تتفق سماتهـا الطبيعية مع العرق الذي يستوطنها . فقبائل شمر والعنزة والمنتفك هـم عرب أقحاح كأقاربهم في نجد ، وقرويو الفرات والجوف هم كأولئك الذين في كل اليمن والحجاز . ومن المحتمل فعلا أن تكون القبائل الكبيرة المالكة للجمـال في البوادي الشمالية تمثل الحضارة القديمة للجزيرة العربية أكثر مما يمثلـه السكان المسلمون في الجنوب : ويرتبطون كثيرا وبشكـل تقريبي بالفكرة والطريقة لمؤسسي التاريخ البدائي والتي يدعي الكل بالتحدر منهـا ، وعلى هذا يمكن القول بأن الجزيرة العربية ليس لها حدود أخرى غير حدود البادية.

ان السمات الطبيعية للبادية هي التي تخص السهل الواسع أو سلسلة السهول والنجود ذات التربة الفقيرة ضعيفة الري حيث لازراعة فيها غير مروية وسطحها كان في يوم من الايـام مهـد بحر داخلي [1] لان التربة السطحية لاتزال مركبة من الحصى واللحقيات الرملية التي تغطي طبقة سفلية من الحوار والصخور التجمعية . ويؤسفنا أن نقول بأن المنطقة بدون جبال أو جداول أو بحيرات ماء عذب لان النهـرين العظيمين اللذين يقطعان الزاويـة الشمالية لا يؤثران بالمنطقة التي يعبرانها : فهما يعبران السهل كغرباء يسرون دونمـا تفاعل مع البادية التي يجريان فوقها . والسلسلة المعتبرة الوحيدة من الهضاب التي هـي تربط دمشق بالموصل وذلـك في اسماء متتاليـة كجبـل الرواق وجبل العمور وجبل عبد العزيز وجبل سنجار ، إذ تشكل خطا متصلا تبدأ من الضفة اليمنى للفرات وهذا الخط يتوضع فوق مستوى السهل شمالا وجنوبا وتتوزع الخضرة فوق التلال كما تتناثر مراعي الاغنام بشكل دائم وفي أسفل منها لانجد سوى مراعي الجمال .

انني استغرب كيف أن واضعي الخرائط الحديثة كالالمان يقلقهم تحسين النماذج القديمة من الخرائط ، وقد تخلوا بشكل واضح عن الوضع الطبيعي

(١) كانت جزيرة العرب وبادية الشام مغطاة بمياه البحر ، وتكشف عنهما في عصر الباليوجين من الحقب الثالث الجيولوجي . . . اي منـذ خمسين مليون سنة تقريبا .

لهذه السلسلة من التلال والتي كان الجغرافيون القدماء حريصين على ابرازها وهي مبادلة غير موفقة تجد فيها المساحات الفارغة القديمة من البادية مليئة بعلامات جديدة ، فاما أن تكون خيالية بشكل كامل أو بعيدة كل البعد عن التناسب الحقيقي الذي يمثل قيمتها على الارض ، ولا نجد شيئا أكثر اثارة لمسافر يريد شق طريقه عبر البادية بمساعدة احدى تلك الخرائط الالمانية من وجود عدد من التلال الرائعة والوديان المعلمة عليها ، والهضاب والمجاري المائية ، ولم يكن هذا لعرض مفيد الا لتبدو الخريطة مقبولة لعيني صانعها . وكم من مرة تتبعت فيها واحدة أو اثنتين من تلك التحسينات استناداً الى مصادرها بدقة .

وهكذا في عام ١٨٧٢ عبر ضابط فارسي يدعى « تيلمان » الحماد من بغداد متوجها الى دمشق وباعتباره ضابطا فطنا دون كل ما رآه أو شاهده في طريقه ، ولاحظ من بين الاشياء الاخرى نطاقا معينا من التلال ـ الحافة المتهدمة للنجد أو الارض المرتفعة ـ وعندما سأل مرشده العقيلي أجاب : انها البرية أو البادية ، ويعني هذا أنه لم ير شيئا يمكن التعرف عليه . وفي الطبعة الثانية لاطلس « كيبريت » يظهر جبل البرية كسلسلة جبال ، وفي خريطة اخرى يعلم جبل الرواق بقمة واحدة ، وفي ثالثة نجد تدمر تنتصب في واد ، وفي حقيقة الامر يمكن القول : انه باستثناء منطقة الفرات التي مسحها الكولونيل شيسزني منذ أربعين سنة لايوجد جزء من الجزيرة العربية الشمالية فحصته يد خبير حتى اليوم ، وصنّاع الخرائط يحسنون صنعا عندما يقلدون « ستاندفورد » والذي ـ نتيجة لعجزه عن الحصول على معلومات يعتمد عليها الرحالة المعاصرون ـ يتمسك بشجاعة بالتقاليد القديمة ، فخريطته تبدو جرداء ولكنها صحيحة دقيقة ، وهي الوحيدة التي وجدناها مستعملة .

ولكي اتابع البحث أقول : ان السمات الطبيعية للبادية هي تلك السهل المغطى بالشجيرات ذات الرائحة العطرة ، والتي توقفت عن النمو ؛ ولكنها تعيش بغزارة كالخزامي البري الجيد النوعية ، ومن الملاحظ أن هذه الشجيرات كثيرة التنوع ، الا أنها لاتكون متساوية في قيمتها للمرعى ؛ فبعضها

تكون مفيده للجمال وأخرى مفيدة للاغنام ، وقليل منها يعتبر عديم الفائده وعلى التربة الغنية بعد هطول الامطار نجد الاعشاب وأنواعـا من النباتات الزهرية واذا ما سبهت الاجزاء الشمالية من الجزيرة وصحارى سورية العليـا بشيء فاني اسبهها بمنحـدرات « ويلتشاير » الكبيرة المكسـوة بالعشب وخصوصا عندما تنظر اليها في أيام الربيع ، والتشابه سيكون سطحيا لان هذه لم تحرث ابدا ولانه لاتوجد مروج دائمة في أي جزء من البادية مطلقا . في السهول العليا يجتمع البدو في الربيع لجز الصوف من قطعان الغنم ، ولعقد الصفقات التجارية مع سكان المدن . وفي هذه الاماكن يمكن ايجاد المراعي الكافية حتى في أيام الحر الشديد فعندما بجف العشب ويصبـح أبيض في حزيران تظهر أوراق جديدة على الخزامى البري وعلى الشجيرات التي مـن فصيلتها ؛ وعندما تهطل أمطار الخريف الاولى يعود اللون الاخضر الزاهي ولا يحتاج الى مزيد من الماء . أما في فصول القحط الكبيرة يصبح واديا دجلة والفرات مرتعا لكل السكان الذين تجد جمالهم الكلأ في المراتـع الكبـيرة للطرفاء التي تحاذي الانهار . وعند أول موجة للصقيع تتحرك العنزة جنوبا ؛ وما ان يحل كانون الاول حتى يختفي كل جمل من شمال السلاسل والهضاب والسبب المباشر لايعود كله الى البرد . لان الجمال تتحمل الطقس القاسي . بل في كون الشجيرات تفقد أوراقها ولا تصلح بعدها غذاء للاغنام ، كما ان المراعي لم تعد مناسبة . فيتحولون جنوبا الى المناطق ذات الشجيرات الدائمة الخضرة . أما القبائل التي لاتربي طوال العام سوى الاغنام فلا تغادر المنطقة ، بينما البدو الذين يملكون الابل فهم في ترحال دائم ؛ فالعنزة تذهب جنوبا في الشتاء حتى تصل على بعد مسيرة أيام من جبل شمر عند الخط الذي يصنفه الجغرافيون بخط العرض « ٢٨° » ، فهم يتجولون في نطاق واسع قدره عشر درجات ، وفي بعض السنوات يرتحلون بصورة استثنائية مسافة الفي ميل ما بين شهري تشرين الثاني وأيـار .

تتوالد الجمال في شباط وأوائـل آذار عندما تكون العنزة في أقصى حدود النجعة الجنوبية ولذلك فان الحيوانات الحلوبة ستجد الفرصة مواتية

للتغذي على الشجيرات العصيرية الريانة . ومنها : الغرقد[1] أو كما يكتبها بالغريف « الغـارة » وهي النبات المفضلة والتي تكون شجيرة شوكية تنمو بارتفاع خمسة أقدام ، ولها ساق يميل الى الحمرة ، وأوراقها خضراء لحمية . وتذكر المرء بنبات القرانيا الصغيرة عندما تنمو بهذه الطريقة . ومع ذلك تعود القبائل للتحرك ثانية نحو الشمال بعد أن يبدأ موسم التوالد . وهي تسير من ثمانية الى عشرة أميال في اليوم محافظة على خطوات ثابتة تمر بأماكن نمو العشب والبابونج النباتات الاخرى التي تحبها الابل ، ومعدل السير لايتجاوز الميلين في الساعة على مقدار ما يستطيع الجمل الصغير أن يسير به .

في هذا الوقت من العام عندما يكون الفصل في شروطه الفضلى نجد الحماد منطقة من أجمل مناطق العالم فهو عبارة عن سهل واسع متموج بالعشب والازهار ، فالمنثور بلونه الارجواني يغطي التربة الخصبة ويضفي على المنطقة لونه الجميل . والجمال تفضله على غيره في المرعى ، أما التجاويف والمنخفضات فتملأ بعشب المروج الكثيف وبالشعير البري والجاودار البري والشوفان . وتطاير من بين وريقاتها طيور السماني «الفري» بينما يتناثر هنا وهناك «الغرنوق» الازرق « البختري » وهو ما يسمى بابرة الراعي يتخلل البابونج . بينما نجد على التربة الفقيرة الازهار التي ليست أقل شحوبا كالخزامي والقطيفة والازهار النجمية وأزهار السوسن وبعض أزهار المنثور القرمزي . ومن أجمل الازهار هنا الانواع التي نجد ما يماثلها في حديقتنا لاننا لانشك بأن الصليبيين كانوا قد جلبوا لنا كثيرا من أزهار البادية التي نعتبرها اليوم من الأزهار الانكليزية المنشأ . ويحق لي أن أقارن ما أجده هنا بأزهار حدائقنا .

ان رعاة قطعان الابل يتحركون ببطء طوال الربيع ، بينما تكاد الخيول أن تموت جوعا خلال ثمانية أشهر من العام . ولكن الأمهار تسمن على أعشاب الربيع العشبية التي تنمو بين المنثور . والتي عادة ماتكون جافة وطيبة وحلوة كالسكر .

---

(١) NITRARIA RETUSA من النباتات الصحراوية المطلة على سواحل البحار في الوطن العربي ولكن المقصود هو نبات العوسج الذي يطلق عليه البدو أسم « العرقد » وبين النباتين بون شاسع .

لاترافق رحلة البدو نحو الجنوب أية أغنام ، فأغنام العنزة على سبيل المثال تترك خلفهم في السهول العليا عند الولدة أو العقيدات أو القبائل الرافدة الاخرى يرعونها حتى يعود أصحابها ، لان الاغنام تحتاج الى سقاية مستمرة بينما يكون الماء شحيحا في آبار الحماد . وحالما يبدأ موسم التوالد يتوفر الحليب في المخيمات . بينما يقل الماء حتى بالنسبة للخيول . والتي قد تبقى اياما بدون ماء باستثناء مايقدم لها من لبن : ومع ذلك توجد آبار اخرى في بعض الاماكن مع برك للماء تجمع ماء المطر . لكنها قد تجف أو يتوفر فيهـا الماء حسب الفصل . والقبائل تعرف أماكنها بدقة . وما ان ينتصف شهر نيسان حتى تبدأ الشمس بابراز عضلاتهـا فيجف العشب وينضب الماء من البرك ، وتسقط بذور النباتات ، ويختفي كـل ذلك النعيم ، وعندها تعبر القبائـل التلال لترجع الى قطعانها في الشمال ، وتدخل في مبادلات تجارية مع سكان المدن حيث يبدأ جز الصوف في أيار ، وتجد المهار والجمال وهي بعمر الثلاث سنوات أسواقا لها ، ثم تبدأ مواسم جديدة وهكذا .... تكون طبيعة الحياة في البادية .

وبقي علينا أن نصف النهرين العظيمين الذين يقطعان البادية ويعطيان سمات غريبة للجزيرة العربية حيث يتوفر المـاء الجاري والاشجـار . وكلا الواديين يتشابهان وينطبق عليهما الوصف نفسه . ووصفنا لوادي الفرات يغنينا عن وصف نظيره . يظهر الفرات عند حافة البادية بهيئة نهر ناضج تكون منذ القدم . وهو نهر كبير يماثل نهر الدانوب في بلغراد ، ويجري بسرعة أربعة أميال ونصف الميل في الساعة ، ومياهه هائجة ولكنها حلوة وصافية صفاء مياه النيل . وهو والنيل يخصبان التربة عند الري بخاصية تفوق خاصيـة معظم الانهار في العالم ؛ لانهما يتركان مخزونا من الطمي والتراب الغني بالمواد العضوية حيثما مرا .

كان الفرات في الازمنة الغابرة وحتى خلال الخمسمائة سنة الاخـيرة منطقة زراعية غنية ، اذ يدعم سكانه الذين يعيشون على ضفافه سكان المدن التجارية الغنية والمتعددة . وخـلال قرنين من الزمـان يمكن أن نقول بأنه

لا يوجد أي محراث أحدث أخدودا على تطآنــه • والحقول قد هجرت وتحولت الى مراع للبدو ، بينما الاراضي المنخفضة التي هي معرضة للغمر السنوي قد أصبحت أدغالا من أشجار الطرفاء • وعندما ينساب النهر بعيدا نحو الجنوب يغير من مظهره ويصبح واديه ضيقا ، فتحل بساتين النخيل مكان أشجار الطرفاء ، بينما تحيط البادية احاطة تامة بمياه النهر ، وهناك تكثر القرى بعد أن قلت أهميتها القديمة ؛ الا أنها كانت تشغل الاماكن نفسها التي كانت تشغلها أيام نزول الانجيل على سيدنا عيسى ونزول الكتب المقدسة • فهيت هـي المدينة التي سكنهـا أيوب عليـه السلام ، وجباب هي موطن الحثيين والعبرانيين • وهناك قرى أخرى يمكن التعرف عليها بسهولة ؛ وفيها آثـار عظيمة من آثار الماضي •

ويبدو أن النهر قد شق طريقه في بعض المناطق بقوة وعمق حافرا لنفسه واديا يصل عمقه الى مائتين أو ثلاثمائة قدم تحت مستوى السهل ؛ وله صلة طبيعية به تشبهها قليلا بصلة سكة حديد تعبر مقاطعة زراعية في انكلترا • فهو لايستقبل الروافد من المناطق المجاورة ولا يقدم أي شيء من واديه للري • وطريقة استمرار الحياة فيه تختلف عن طريقة الحياة في الباديه • لانه يحمل معه وعلى جانبيه نباتاته الخضراء وطيوره وحيواناته الخاصة • فاذا ماجاء الغزال اليه ليشرب من مياهـه في الصيف فانه يفعل ذلك في الليـل ثم يترك الوادي حالا • ويطير القطا فوقه ولكن نادرا ما يتوقف • وحجل البادية هـو الطائر الصغير الوحيد الذي يستوطن أجرافه في كلا الجانبين • بينما نجد أن الاسود والذئاب وبنات آوى نادرا ما تغادره ، وبينما تعيش الخنازير البرية قريبة جدا ضمن أشجار الطرفاء • ومن الملاحظ أن طيوره هي طيور آسيا الصغرى وأوربا نفسها • فالحجل والدراج والعقعق والبط والاوز وطيور الشنقب ودجاج الارض ؛ فكل هذه الطيور نجدها قرب هذا النهر • ولكننا لانجد هذه الطيور في المناطق المتاخمة أبعد من ميل واحد •

وأخيرا لابد من مقارنة لمعرفة الاختلافات العادية في الاعمـال المتنوعة والفعاليات عند رجال الوادي وسكان البادية • فالاخيرون نادراماينزلون الى

النهر باستثناء فصول القحط المدمرة ، أو عندما يعتزمون عبوره بقصد شن الغزو على الشاطىء المقابل ، ولان المراعي في السهول العليا أفضل ، ومناسبة لهم كثيرا لرعي الجمال من الوادي الغني بالنبات . وخلال قسم كبير من السنة يعتبر النهر غير موجود بالنسبة لهم على الرغم من أنهم يخيمون في مناطق قريبه منه . ويعبر النهر عندهـا في متناول آيديهم . فهناك مثلا مئات العنزة لـم يكونوا قد شاهدوا الفرات قط في كل حياتهم . ومن جهة اخرى نجد قبائل الفلاحين مع قطعانهم من الحيوانات ذات الفرون وحقولهم الزراعية تلتصق بالوادي بشدة ، وحتى تلك المدن في البادية البحتة كالدير وعنة يتحدث آهلها بخوف وهمس عن « الچول » أو البراري والبادية .

يعتبر الكولونيل تيسزني المهندس الذي مسـح الفرات بدقـة ، اذ لا يحتاج المسافر الا مراجعة بسيطة للاسماء والاماكن حتى يجد طريقه . وهذه اذا ما أعطيت بشكل صحيح نجد بعضها قد غير كلية بسبب الاحتلال التركي للوادي وظهور مناطق بأهميات جديدة ، وأماكن ذات آهمية عسكرية تحتاج الى تثبيت جديد على الخريطة . ولكنني وجدت مسح دجلة أقل جودة من مسح الفرات . الا أن الكولونيل شيسزني لا يعتبر مسؤولا عن ذلك ، بينما خريطته عن الباديه تعتبر عديمة الفائدة . فهو ــ على سبيل المثال ــ يضع تدمر جنوب موقعها الحالي بخمسين ميلا . ويضع الحضر غرب موقعها الحالي بثلاثين ميلا مبتعدا بذلك عن الحقيقة .

اذا ما استثينا سلسلة المـدن والقرى على النهرين في الجزيرة العربية الشمالية لايوجد مايحق لنا أن نسميه مدينة . عدا بعض القرى التي تقوم في الواحات . وهذه القرى تكون عادة في الجنوب محاطة ببساتين النخيل ، بينما في الشمال تكون محاطة بالحدائق والحقول المفتوحة ، وفيها محاصيل الذرة وغيرها التي تعتمد مبدأ الري في غالبيتها . وآكثر وصف لهذه المناطق ينطبق على الوصف الذي وصفه «بالغريف» لمنطقة الجوف المزدهرة نسبيا،بينما عندما نتجه الى الشمال فلا نجد شيئا مما ذكر ، حتى نصل الى سلسلة التلال التي تقسم السهول العلوية عن السفلية . وعلى سفوح تلك التلال تتبعثر القرى

البائسة القليلة ، اذ تشكل كل واحدة منها موقع نبع هزيل ، وحوله أرض لاتزيد مساحتها عن الخمسين أو المائة فدان ، وغالبا ما تكون مروية . وكل قرية تكون عادة محاطة بسور طيني تخترقه بوابة وحيدة ، بينما البيوت في الداخل مبنية بالطين وعلى نفس الطراز ، اذ تكون منخفضة وذات سطح منبسط . وكل قرية تضم من البشر مايقارب المائتين الى خمسمائة نسمة ؛ وهي من أكثر المناطق تعاسة يمكن تصورها في العالم ، لان المناطق الصحراويـة المجاورة لها تكون جرداء وخالية من الكلأ بسبب الرعي الجائر . ولانها قد وطئت واجتثت أعشابها دونما رحمة ولعدة أجيال .

وأهم تلك القرى : القريتان وتدمر غرب الفرات ، وقرى سنجار شرق الفرات . لقد علمت أماكنها على خريطتي التي صنعها « ستا نفورد » لانني وجدت جغرافيتها دقيقة نوعا ما .

ان البادية العليا مع التلال تضم « دزينة » من التلال والاماكن الصغيرة وعلى الاخص في منطقة سنجار ، ونجد في النهرين التنوع ذاته من حيث المظهر بين قرى الشمال وقرى الجنوب ، فالاخيرة تحاط باشجار النخيل الكثيرة . بينما الأولى تبدو بائسة ، ويعود السبب الى أن البدوي لا يعرف زراعة التمر . والارض التي تشغلها بساتين النخيل لاتصلح للرعي ولهذا فهو يتركها لمالكيها بينما تكون الحقول المفتوحة للقمح والشعير دوما مصدر اغراء مستمر لقطعان ماشيتهم . وهكذا نجد مدينة عنـة وقرى النخيل تعاني من خسارة التجارة . بينما دمرت مدن الفرات الاعلى بشكل كامل .

اننا نجد شمال خط العرض « ٣٤° » أن وادي الفرات لايمكنه أن يفخر بست من القرى التي تعيش بين المـوت والحياة ، وكأن الامر في السـنوات الاخيرة لايتعدى محاولات جـرت للقيام بزراعات محدودة تحت الحمايـه التركية . والدير هي القرية الوحيدة الباقية من تاريخ الاحتلال التركي عـام ١٨٦٢ . ويعود الفضل لاستمرار وجودها الى بساتين وحقول الذرة التي تقوم فوق جزر يحميها النهر . أما بالنسبة الى البصرة والقرى التي تقوم على النهر جنوب بغداد فلا يمكنني أن أقول شيئا لانني لم أقم بزيارتهـا . انما

أقول : انها مشهورة بسبب المدن المقدسة ككربلاء ومشهد علي ، وتزدهر نوعا بالنسبة لغيرها •

بينما الضفة اليمنى لشط العرب التي تسكنها قبيلة المنتفك قد وصفت لي كأفضل منطقة مزروعة في كل الوادي ، وهناك القليل من الواحات الصغيرة غربي الفرات مثل : كبيس والشدادي التي يمكن أن نعتبرها من الاسواق المهمة بالنسبة للبدو •

ومن خلال رحلتي أخشى أن نكون قد قدمنا الشيء القليل من المعلومات الجغرافية بالنسبة للرصيد العام من المعلومات • فالمدن الاغريقية القديمة مثل : الحضر تعتبر معروفة قليلا بالنسبة للاوربيين ، لانها وصفت من قبل السيد « ليارد » وعلى الاقل من قبل رحالة انكليزي آخر •

وأعتقد أن طريقنا عبر الجزيرة يعتبر من الطرق الجديدة ، وأن بحيرتي سنيسلة وأم الذيابة سوف تدون الآن لاول مرة على الخريطة ، كما تأكدت بأنه لايوجد فرع للخابور اسمه سنجار ولا أي فرع آخر اطلاقا ، لذلك يجب أن يزال اسمه من الخريطة ، لان المياه المتحدرة من سنجار الى الجنوب تنتهي كلها بالسبخات والبحيرات المالحة • أما في الحماد فقبل تثبيت موقع جبل الغراب الذي رأيته على خريطة « كيبرت » يبعد سبعين ميلا جنوب غرب موقعه الحقيقي ؛ علينا أن نؤكد على وجود سلسلة من البرك ذات المياه العذبة التي تغذيها الامطار في كل شتاء ، والتي تقع بين الغوطة قرب دمشق والفرات• ولم تحدد في هذه المنطقة أي شيء ذي قيمة حتى الآن !؟ فالطريق بين تدمر ودمشق أيضا معروفة ، ولكنها تحتاج الى بعض الملاحظات واعادة النظر فجبل الرواق لايسلك قمة منفصلة كما يفهم البعض ، الا أن الاسم أطلق على السلسلة الجنوبية القصوى لسلسلة الرئيسية من التلال ، وان سهل صيقل على بحيرة واسعة من الماء العذب وأخيرا حددت مواضع عدة ينابيع ، وبعض الآبار لكي يستفيد منها المسافرون في المستقبل • وبهذا العمل البسيط أعتقد أنه لا أحد بيننا سيسمح لنفسه أن يطالب بمدالية أو وسام R. G. S. •[1]

---

(١) انه نوع من الاوسمة البريطانية الخاصة بالمكتشفين والجغرافيين .

الفصل الرابع والعشرون

تاريخ البادية ـ غزوات العنزة وشمر ـ انهيار الحضارة في وادي الفرات ـ اعادة فتحها من قبل الاتراك ـ مكانتهم الحالية في الجزيرة العربية ـ سجل القبائل البدوية ـ بحث عن السبعة .

ان تاريخ الحديث للجزيرة العربية الشمالية يمكن اعتباره بداية لفتح تلك المنطقة من قبل بدو شمر الذين جاؤوا من نجد بقيادة فارس منذ مائتي عام تقريبا وحتى ذلك الوقت نجد الامبراطورية العثمانية قد ورثت تقاليد أسلافها من الرومان والاغريق والمسلمين والتتار ، بمحافظتها على حدودها الجنوبية عند خط الفرات والطريق العام العسكري الذي يصل بغداد بدمشق وضمن هذه الحدود نجد ساكني البادية من رعايا السلطان ، وينطبق عليهم القانون العام للدولة العثمانية .

كانت الجزيرة والبادية السورية العليا قد سكنت في ذلك الوقت من قبل قبائل رعوية مختلفة ، بعضها عربية جاءت مع موجات الفتوحات الاولى تحت لواء الخليفة عمر ، وبعضها من القبائل الكردية التي اندفعت الى الامام نتيجة للغزوات المعاكسة من الشمال في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وقبيلة أخرى مختلطة الاصل ألا وهي قبيلة الموالي التي تدين بوجودها وفقا للاحداث الجارية الغريبة التي تذكرها كتب التراث :

ففي أيام الخلافة في دمشق أرسل ولد الخليفة في سفارة الى بلاط قسطنطين الثاني في القسطنطينية [1] فلفت انتباه الامبراطورة « تيودورا » التي أكرمته بعطفها ، حتى انها عندما غادر بلاطها قررت أن تمنحه منصبا مستقلا في بلاده ، اذ حملته بالهدايا وأعطته عددا كبيرا من العبيد الذكور

(١) رددنا على هذه الفرضية من قبل في الجزء الاول .

والاناث ، ليؤسس بهم قبيلة عربية لم تكن معروفة من قبل هي قبيلة الموالي أو المماليك . وكدليل على صحة هـذه القصة نجد البدو من ذوي العروق الصافية يزدرون عامـة الموالي ، بينما يحترمون شيـوخ الموالي ويعظمونهم مضيفين عليهم لقب بك . وهذا الشيء لم يكن معروفا في البادية من قبل[1] .

يشغل هؤلاء الموالي الضفة اليمنى لنهر الفرات . ويبدو أن قبيلة طي التي هي من أصل عربي نبيل في السهول العليا من الجزيرة تخضع لهم مـع الولدة والعقيدات والجبور والحديديين ومن يأتي منهم ، اذ لايزالون يعيشون ظروف القهر على طول واديي الفرات والدجلة .

يعتبر واديا الفرات والدجلة من المناطق التي لازالت تعتمد على الزراعة والتي تمر عبرهما التجارة مـع الهند على الرغم مـن التدمير الجزئي الذي تعرضت له من قبل التتار وفتوحات بني عثمان .

يعتبر « بنيامين التطيلي »[2] مصدرنا الوحيد بالنسبة لوضع العشائر في العصور الوسطى ، اذ يصف ديارهم بأنها كانت مزدهرة وعديدة . فقلعة جعبر والرحبة كانتا وحدهما على الفرات في زمنـه تضمان السكان العرب بالاضافة الى الآخرين ، وفيهما أربعة آلاف من اليهود ، بينما كانت تدمر تضم ألفين فقط والحضر خمسة عشر ألفا و«عكبرا»على دجلة تضم عشرة آلاف[3] .

ان معظم هذه المدن قد اندثر بشكل كامل الآن . وماذا كان وضعها في القرون الخمسة الماضية ؟.. لانعرفه لعدم وجود سجل يخبرنا بدقة . ويبدو أن تحولها النهائي تم بفتح شمر لها في منتصف القرن السابع عشر ، أي منذ مائتي عام على وجه الدقة .

---

(١) يطلق نيبور اسم البشر كاسم لعائلة شيوخ الموالي .

(٢) بنيامين التطيلي : رحالة يهودي اندلسي رحل من سرقسطة عـام ١١٦٥ فزار فرنسا وأيطاليا وقبرص واليونان وسورية وفلسطين وبـلاد ما بين النهرين وبلاد العرب ومصر وايران وعندما عاد كتب أخبار رحلته وتوفي عـام ١١٧٣ .

(٣) عكبرا : مدينة ذكرها الحميري في الروض المعطار شرقي دجلة ، وتبعد عن بغداد سبعة فراسخ على الطريق المؤدي الى الموصل .

كان السلطان محمد الرابع مشغولا بحصار « بلغاريا » ، بينما كانت الحدود الجنوبية للامبراطورية يجتاحها البدو الذين قدموا من نجد واحتلوا الحماد ، لان الحدود لم تكن محميــة فاستولوا على تدمر وقطعــوا طرق مواصلاتهــا البرية مع بغداد ودمشق ، واجتازوا التــلال الشمالية وهزموا الموالي ــ اكثر القبائل المولعة بالحرب ــ في بوادي سورية العليا ، وأجبروا القبائل على الخضوع ، ومن ثم اجتاحوا وادي الفرات وجعلوا مدنه ترفدهم بدلا من أن ترفد السلطان ويبدو أن آخر صورة للحضارة قد طمست مــن الضفة اليمنى للنهر ، وسيطر بدلا عنها القانون البدوي حتى بئر الشيخ في الشمال ، ومع ذلك يقول العرب : ان الموالي طوال عشرين عاما استمروا في الحرب من أجــل مراعيهم على الرغم من الدمار الشامــل الذي لحق بهم ، واستطاعوا بضربة واحدة أن يحققوا مكاسب معينة • فبحجة عقد مجلس للتشاور استدرجوا شيوخ شمر الى مضاربهم ، وبينما كانوا يأكلون غدروا بهم جميعا ، فبقيت تلك الجريمة البشعة تذكر عــن الموالي في طول الباديــة وعرضها ، ومنه قول العرب : بيت الموالي هو بيت العيب ــ أي البيت الذي تم فيه العمل الغادر ــ ومع ذلك لم تنته العشرون سنة الماضية حتى تم النصر لقبيلة شمر عندما قهرت الموالي بقسوة • ولكن ظهر في الساحة غاز جديد قلب موازين الحرب القبلية ، وكان هذا الغازي هو قبيلة العنزة التي جاءت من نجد هي الاخرى ، بعد أن سمعت بالمراعي الخصبة التي اكتسحها أسلافهم• وجاءت العنزة لتزاحم القبائل الاخرى على جمع الغنائم • فانحاز الموالي الى جانب القادمين الجــدد ، ودفعوا معهم الشمريين عبر الفرات الى الشرق • وجــد الشمريون في الجزيرة أرضا أخصب من الاراضي التي فقدوها ، فتخلوا عن البادية السورية للعنزة، وفيها أخضعوا قبيلة طي وعبروا الدجلة ليشنوا الغارات على الموصل والحدود الفارسية فعوملت مدن دجلة من قبلهم كما عوملت مدن الفرات ، حتى ان بغداد نفسها كانت مهددة • ومن الغريب أن تقف الحكومة العثمانية مكتوفة الايدي أمام هذه الاحداث المروعة ، وتنظر الى ما حدث نظرة اللامبالاة ، اذ لم تقم بأية محاولة للسيطرة على الغزاة • وكل ما فعلوه

اقناع الباشوات في الموصل وبغداد باصلاح أسوار المدن وانتظار الاحداث بصبر وثبات . شلت التجارة مع البادية بشكل كامل ، وهجرت القوافل الطرق المباشرة القديمة ، وأخذت تسلك الطريق الطويل الذي كان يمر خارج البادية مرورا بماردين وأورفا ، وذلك بسبب الخوف والرعب من البدو . وفي هذه الاثناء احتل بنو لام والمنتفك العراق وكل المنطقة الواقعة بين سورية وايران ، باستثناء عدة مدن مهجورة أصبحت جزءا من الجزيرة العربية المستقلة . .وهكذا استمرت حالة توزيع القبائل فوق هذه الرقعة حتى في وقتنا الحاضر .

ان حالة القبائل البدوية في بواديها كانت في تغير مستمر ، فتعاقب فصول الخصب وتوالد الجمال بكثرة يجلب لها الثراء العاجل ، يضاف لها حنكة وشجاعة شيخ القبيلة ، لذلك نجد في بعض الاعوام أسهم القبيلة تصعد وتمتلك النفوذ اللازم ، وفي سنة أخرى تهبط لتصعد أسهم الاخرى وهكذا . الا أن نفوذ قبيلتي شمر والعنزة وسيطرتهما على القبائل الاخرى لم يكن موضع مناقشة منذ أن ظهرتا على مسرح الاحداث في الجزيرة والشمال .

كانت العنزة تمتلك الحماد وشمالا حتى حلب . أما شمر فكانت سيدة الجزيرة . أخذت الحرب تندلع بين هاتين القبيلتين منذ زمن بعيد ، فتنشط أحيانا وتهدأ في أحيان أخرى بسبب الهدنة . الا أن الصلح المطلق لم يعقد بينهما أبدا . وغارات شمر على العنزة وغارات الثأر التي تقوم بها العنزة لا يمكن أن تعد بسهولة ؛ وتبدأ في كل صيف منذ أن تظهر طيور السنونو في المنطقة في آيار . وكلا القبيلتين لها تاريخ حافل في الصعود والهبوط . فشمر بقيت قوية في أذهان الناس ، ويذكرها المعمرون حتى أنها كانت تهدد بغداد بالحصار . واذا ما أخذنا وصف فتح الله[1] بعين الاعتبار يمكن القول : ان ابن شعلان شيخ الرولة كان يغزو ايران خلال السبعين عاما الماضية . الا أنني لا أملك فكرة كاملة عن معدل هبوط أو صعود أسهمهم ، لأن العنزة ومنذ زمن طويل لم تعد

(١) هو فتح الله سيجر أو الصايغ شاب ارمني من حلب كان يرافق السياح وضباط المخابرات أمثال لاسكاريس الفرنسي وغيره .

القبيلة المتحدة ، وتشتتهم هذا أنقذ شمر من الدمار ، وشمر أقل عددا منهم ، الا أن النزاع بينهم لا يزال مستمرا • ويمكن القول : ان عدد الخيول التي تمتلكها الاطراف المتحاربة كان له الحظ الاوفر في احراز النصر • وحسن الطالع في القبيلة كان يترافق مع العدد الضخم من الخيول الاصيلة في مضاربها• ويبدو أن هذا كان متوفرا في القبائل التي تعيش في البادية العليا صاحبة الامتياز الاول في الغزو • وحسب اطلاعي تعتبر قبيلة الفدعان والحسنة حتى وقت قريب من أشهر القبائل ، ان لم تكن من أكثرها عددا وتليها قبيلة العمارات ــ ابن هذال ــ والسبعة وولد علي جاؤوا بعدهم • ثم ظهرت الرولة بعد مدة طويلة لأول مرة في منطقة دمشق في نهاية القرن الماضي ، بينما غادرت منطقة نجد جماعة الطوف[1] والرفدي [2] في العشرين سنة الماضية •

دونت تلك المعلومات التراثية عن تاريخ الجزيرة العربية الشمالية منذ مائتي عام تقريبا • أما الآن فقد بدأت عهود جديدة • ففي الستين عاما الاخيرة استعادت الحكومة التركية جزءا من الاقاليم الضائعة من الامبراطورية منذ زمن طويل • وكانت ذروة الحركة الاصلاحية والنشاط في عام ١٨٦٢ عندما وجد الباب العالي نفسه وفي حوزته الجيش العظيم والمال الوفير ، وذلك بعد حرب القرم التي انتهت منذ مدة ، عندما قام عمر باشا حاكم حلب وقاد جيشا مجحفا الى الفرات ، فاحتل قلعة جعبر والدير القريتين المأهولتين على ضفاف الفرات الاعلى •

كانت الدير في ذلك الوقت مأهولة بالفلاحين العرب الذين ينحدر قسم منهم من المؤسسين للمدينة زمن الخلفاء ، وقسم منهم جاء من الموصل وأورفا • وعاشوا في استقلال مطلق عن العنزة تحت ظل الحماية ، ولكنهم استاؤوا من تدخل الاتراك في شؤونهم ودافعوا عن المدينة ببسالة • الا أن عمر باشا كان قد جلب معه المدفعية واحتل الموقع بالقوة ولم يواجه مقاومة تذكر • تمركزت

(١) الطوايف : عشيرة صغيرة تقيم في الجولان قرب دمشق وترحل الى انحاء حمص •

(٢) رفيدة الشام قسم من ربيعة ، ورفيدة بن عز بطن من عنز بن وائل •

حامية تركية في الدير وبنت مواقع الحراسة على الطريق بينها وبين حلب . ثم أصبحت الدير باشوية تحت حكم والي حاب • وأعلن بأن الجزء الاعلى من الفرات يعتبر جزءا من الامبراطورية ، بينما أخذت العنزة تكتفي بسلب القوافل التي تسير على طول الفرات الاسفل ، ودون أدنى جهد أخذت تبسط سيطرتها علـــى المــــدن •

أخذت السياسة التي اتبعها مدحت باشا تعطي ثمارها كاملة في السنوات الماضية عندما كان حاكما لبغداد ، اذ أكمل أبنية مواقع الحراسة حتى أوصلها الى الرمادي ، و « عنة » بالنسبة لبغداد كالدير بالنسبة لحلب ••• وهكـــذا استقرت حاميات الحراسة على طول وادي الفرات ، فأخذت القوافل تسير على الطرق بسلام ، كما وضعت عدة مدن على الدجلة تحت حمايتهم • ومنذ ذلك الوقت بذلت جهود كبيرة لتشجيع القبائل الصغيرة على الزراعة: فحققت بعض النجاحات جنوبي بغداد ، كما أمنت الحماية لقبيلة الدليم وشمر طوقـــة و « البومحمد » ، لكي تسقي من ضفاف النهر وتزرعها بالقسح • حتى انني سمعت دون أن أكون شاهد عيان بأن قبيلة المنتفك ـــ القبيلة القوية في جنوب العراق ـــ قد أصبحت مؤخرا قبيلة فلاحية مجدة • أما فرحان شيخ قبيلـــة شمر فقد أنعم عليه بلقب باشا وبراتب سنوي قدره ثلاثة آلاف جنيه لقاء تعهده بتحويل قومه البدو بالطريقة ذاتها الى فلاحين مخلصين • وكم من مرة سمعنا فيها أصداء نجاح هذه السياسة ، الا أنه لم تجر أية اختبارات حقيقية • ويبدو أن الامر يرتكز على حقائق وهمية ، لأن فرحان هذا كان قد جمع بالفعل عدة مئات من العرب في الشرقاط ، فبعضهم من شمر ومعظمهم ممن نبذتهم قبيلـــة الجبور والقبائل المغمورة الاخرى على نهر دجلة ، وبمساعدة هؤلاء تظاهر فرحان منذ عدة سنوات بأنه يزرع الوادي • وكان هذا الادعاء واضحا في اقامة مخيم فرحان في الشرقاط ، الا أنه من خلال كامل رحلتنا كلها بين قبيلة شمر لم نر أي أثر للزراعة المزعومة ، غير أن المشروع كان في بدايته ، ولم يحالفه الا قليل من النجاح من أجل جعل العنزة رعايا مسالمين للباب العالي •

سار أرسلان باشا — خلال فترة حكمه في الدير — بفرق كبيره من المشاة ضد قسم من السبعة الذين وجدهم يخيمون قرب الفرات ، فطوقهم وأمرهم بأوامر السلطان أن يتخلوا عن حياة البداوة ، ويصبحوا مثالا مخلصا للوجود والاستقرار في الارض من أجل الزراعة • الا أن البدو لم يجدوا موقفا يبعث على القرف ، ويعتبر بمثابة اهانة لهم مثل ما وجدوه في هذا الاقتراح ، فاحتجوا في البداية الا أنهم وجدوا جبالهم يهددها الفناء • وباعتبار أنه لا خيار لهم وافقوا أخيرا تحت حراب الجنود . فتبدوا سلسلة من البيوت الطينية في مناطق مختلفة من الوادي • وفي هذه البيوت كانوا في حالة تذمر لا توصف ، لكنهم تظاهروا بالعيش فيها طالما وجد الجنود بينهم للحراسة • وما ان مضت على هذا الوضع ثلاثة أشهر حتى وجد الباشا أنه يحتاج لرجاله في مكان آخر فسحبهم دون تأخير عندها عاد البدو الى البادية ، وبقيت القرى الطينية فارغة على الوادي بدون سقوف • وبقاء آثارها هو النتيجة الوحيدة لتجربة أرسلان باشا ، ومع دلك لا زالت الاراء متفائلة بان الباب العالي سينجح في محاولاته ، وبدون شك لو حصل ذلك لكانت فوائده عظيمة في المنطقة ، ويمكن عندها تحقيق بعض السيطرة على شمر والعنزة ، لأن ذلك سيضعهم تحت سلطة القانون • وطالما أنهم لا يملكون مواقع ثابتة فان الحكومة حتى وان كانت مدعمة بأقوى جيوش العالم لن تستطيع فرض الجزية عليهم ولا مراسيم الدولة الاخرى • أما الحملات التي تحصل بين وقت وآخر ، فالبدو يسمعون بها ولا يسمحون لأنفسهم بالمباغتة كما حدث لأرسلان باشا مع السبعة • فهم على علم مسبق بكل ما يجري في المدينة ، وعند سماعهم أخبار أية حملة تتحرك نحوهم يزيلون خيامهم بسرعة ، وما داموا في البادية فان تجد قوة في العالم يمكنها السيطرة عليهم لأنهم يتفرقون في مجموعات صغيرة ، وتتفرق بهم السبل في السهول والمراعي الجافة غير النافعة • ويبدو أن الامر يختلف جدا مع القبائل الصغيرة • فهم بدو فقط عندما يتحركون بخيامهم وأغنامهم الى أميال عديدة أعلى أو أسفل الوادي ، لكنهم لا يبتعدون عن النهر أبدا • وهم يدركون مسبقا فوائد العيش تحت ظل سلطة مستقرة تحققها الحكومة التركية •

ان هذه القبائل تعتبر اليوم في أمان من التحرشات الدورية التي تأتيهم من البادية فبدأ رجالها يحرثون ويبذرون الذرة ، ومع ذلك تعتبر حالة تعلفهم بقطعان الماشية لا توصف ، ولهذا يفضل تركهم في خيامهم على اجبارهم للسكن في البيوت المبنية لأنه لا توجد حياة أتعس من حياة الرعي والعيش في أبنية ثابتة .

ان القبائل ذات الحياة المزدهرة هي التي استقرت ، بينما بقيت تحيا حياة بدوية خالصة وكفت أذاها عن القبائل الاخرى . وحيثما وجدت الانعام والجواميس تكون القبائل التي تملكها مزدهرة فقبيلة الجبور على الدجلة ، والسبخة على الفرات تعتبران مثالين ممتازين من السكان المجدين الشرفاء ، ولكنهم عرق رعوي بحت يعيشون مع ماشيتهم على مدار العام في نفس المنطقة جاعلين من أنفسهم رعايا صالحين كما يريد السلطان ويرغب . والحديديون هم ايضا مثال رائع لما يجب أن يكون عليه البدو الخالصون . اذ لا يربون سوى الاغنام مع جمال معدودة تستعمل في النقل ، ولهم سمعة ممتازة من النزاهة والاخلاق الحميدة في البادية . فمواطنو حلب والموصل يعهدون بأغنامهم اليهم كل شتاء ، وهم قانعون بهذا الترتيب . والحديديون هم أكثر القبائل ازدهارا كنا قد زرناهم ، والولدة الى الغرب يتمتعون بسمعة مماثلة من الشرف الا أن سنين القحط والجفاف الاخيرة وابتزاز حكومة حلب قد أفقرتهم عما قبل . ولكن التشجيع المناسب والضرائب المخففة يمكن أن تبقي البادية الشمالية بسكان الرعي الاثرياء الكثيرين ، وهو الشيء الذي لم ينو فعله أي شخص حتى الآن .

ليس من الخطأ من الناحية الاقتصادية تشجيع الزراعة في كل أرض يمكنها أن تعطي محصولا . ولكن من أجل جني الفائدة كاملة في البادية على مدار العام يجب أن تبقى بعض المراعي كاحتياطي يعتمد عليه في سنين الجفاف وأيام الحر الشديد في الصيف . وأظن أن احتلال المزارعين الاوربيين لمثل هذه المراعي في الجزائر لم يكن اجمالا ذا فائدة للريع الاستعماري . وهدف الحكومة الرشيدة في الجزيرة العربية الشمالية يجب أن لا يحصر في اجبار سكانها من البدو على حياة الاستقرار كالقرويين . ولكن يجب أن يترافق مع

تشجيع القبائل التي تمتهن الحرب بالتخلي عن الحرب • ويمكن تحقيق هذا الهدف باظهار فوائد السلم واعطاء الامان لكل من لا يرغب بالقتال منهم • فالبدو الاغنياء والناس الاخرون دوافعهم قليلة باتجاه السطو على الطرق العامة •

تهيمن الحكومة التركية في الوقت الحاضر وللمرة الثانية على الفرات وعلى جزء كبير من وادي الدجلة مع السهل العراقي الواقع جنوب بغداد : بالاضافة الى حيازتها بعض الواحات المعزولة في البادية نفسها • فقد احتلت تدمر ويديرها اليوم مدير تركي ، وفرضت الضرائب على المدن الصغيرة والقرى في جبل العسور وجبل سنجار . والقوافل المحمية يمكنها أن تمر بأمان من حلب الى بغداد عن طريق الفرات ومن دمشق الى الدير • وباستثناء ما حول هذه الطرق والخطوط لا يزال البدو يتمسكون بطرقهم • وعلى الرغم من أن مرورنا الآمن عبر ديارهم قد أثبت أن السفر عبر الجزيرة لا يعتبر من المستحيلات كما يظنه الكثيرون حتى دون حماية • الا أن جماعات من تجار بغداد ، ذوي السفر الدائم لا يزالون يفضلون الطرق الملتوية الآمنة عبر ديار بكر الى الموصل •

وفي مجال مقارنة شمر بالعنزة من ناحية العدد سمعت من يؤكد بأن النسبة ثابتة ألا وهي ثلاثة الى سبعة • وأعتقد بأن هذه النسبة صحيحة لأن العنزة أكثر من شمر ، على الرغم من أن الارقام الحقيقية عبر معلوماتي بلغت الآلاف وعشرات الآلاف • ويبدو أن التعامل بالارقام يبدو أكثر صعوبة •• ولكن أبقي على التناسب السابق المسموح به حسما للمبالغات • وأعتقد أن اثني عشر ألفا وخمسمائه تسري الى ثلاثين ألف خيمة من العنزة لن يكون بعيدا عن الحقيقة • واذا ما حسبنا معدل أربعة أشخاص في الخيمة الواحدة فتصبح الارقام على الشكل التالي :

خمسون ألفا مقابل مائة وعشرين ألف شخص بشكل شامل • وفيما يلي سجل كامل لقبائل شمر قدمته لي لجنة الاعراب والفلاحين والبدو في الشرقاط، وراجعه لي فارس بنفسه :

شمر الجزيرة :

جميعهم من البدو الاصلاء ويملكون الإبل والخيول ويحملون الرماح ، ويعترفون بسلطة شيخ عام هو من آل الجربا الذين يتحدرون من فارس زعيم القبيلة ، الذي قادهم من بلاد نجد في القرن السابع عشر • شيخ شمر الحالي هو فرحان ابن صفوق على الرغم من أن قسما من القبيلة وربما ربعها قد انشق عن فرحان ويعيش بامرة آخيه فارس ، وشمر الجزيرة هم فرع من شمر في جبل شمر . ولا يزالون يحافظون على علاقات طيبة مع أقربائهم هناك •

يهاجر شمر الجزيرة شمالا وجنوبا حسب الفصل ، ولكنهم لا يبتعدون جنوبا في فصل الشتاء الى أبعد من مدينة « عنة »،ويفرضون الخوة على القبائل الصغيرة في الجزيرة وهم مستقلون عن الحكم التركي •

انظر الجدول

الجربا(١)	رئيســهم فرحان ابن صفوق	خيامهم ٢٠٠٠
الهضبة	رئيســهم محمد ابن جليدان	خيامهم ٥٠٠
العصلان	رئيســهم مطني	خيامهم ٤٠٠
الصايح	رئيســهم ميزر	خيامهم ٥٠٠
العليان	رئيســهم عرسان ابن دايس	خيامهم ٣٠٠
العبــدة	رئيســهم فردي ابن شرهان	خيامهم ١٠٠٠
الشديد	رئيســهم بــداي	خيامهم ٣٠٠
القعيط	رئيســهم بــدر	خيامهم ٥٠٠
الدغيرات	رئيســهم حيزة ابن هشمي	خيامهم ٥٠٠
الفداغــة	رئيســهم هجر أبو وتيد	خيامهم ٧٠٠
العامود	رئيســهم سلطان ابن عرفان	خيامهم ١١٠٠
العفاريت	رئيســهم مرائي ابن شيهان	خيامهم ٥٠٠
المنيــع	رئيســهم ابن رشام	خيامهم ٨٠٠
الثابت	رئيســهم جاسم الاحدب	خيامهم ١٠٠٠
اللهيب	رئيســهم حسان الدرويش	خيامهم ٤٠٠
الصديد	رئيســهم ميزر	خيامهم ٤٠٠
الحمير	رئيســهم جلاد الدوبا	خيامهم ٤٠٠
مجموعات اخرى		خيامهم ٧٠٠

المجموع ١٢٠٠٠ خيمة

(١) تقسم شمر الى القبائل الكبيرة التالية : الاسلم عبدة، الخرصه، سنجارة. وقد ركزت الليدي على المجموعات الفرعية من شمر ، وجاء التقسيم مشوها : فالعصلان فرقة من الاسلم ، والدغيرات من عبدة ومعهم الشديد. والمنيع من الاسلم ، والحمير من سنجارة ، واللهيب من الصايح، والصديد هم رؤساء الصايح ولهذا جاء اسم ميزر مكررا .

احلاف شمر :

قبائل ترفد شمر . وتعتبر مستقلة في معظمها عن السلطة التركية :

١ ــ الزوبع : قبيلة بدوية تملك الابل والخيول وتحمل الرمح ، يسكنون جنوب الجزيرة حتى ملتقى نهر دجلة بالفرات . شيخهم الحالي : زاهر الحمود وخيامهم « ٥٠٠٠ » خيمة .

٢ ــ الحديديون : قبيلة رعوية غنيه مسالمة شريفة، تملك بعض الابل أو الخيول . يعهد اليها فلاحو الموصل وأورفا وحلب بأغنامهم لكي يرعوها أثناء الشتاء . ينتقلون أعالي الجزيرة وتلال شمال سنجار . شيخهم من عائلة ابن رونسان وخيامهم « ٢٠٠٠ » خيمه .

٣ ــ طي : قبيلة بدوية صافية في البداية ، وكانت قوية في الجزيرة العليا، ومن أحلاف طي في جزيرة العرب . يملكون الابل والخيول ويحملون الرماح ولكنهم من الاغنياء المسالمين ولديهم قطعان كثيرة من الاغنام . وشيخهم الحالي هو عبد الرحمن ، ويعتبر من عائلة نبيلة جداً . وخيامهم « ١٠٠٠ » خيمة .

٤ ــ جيس : قبيلة مولعة بالحرب ولكنها ليست ذات أصل عربي خالص [١] . يملكون الجمال والخيول ويحملون الرمح ويشغلون أقصى الشمال الغربي من الجزيرة . وشيخهم عبد الله وخيامهم « ١٠٠٠ » خيمة .

٥ ــ البوحميد : قبيلة صغيرة شبه بدويه تشغل المنطقة مابين جبل حمرين وجبل سنجار . شيخهم فرحان وخيامهم « ١٠٠٠ » خيمة .

٦ ــ الجبور : قبيلة فلاحية غنية ومعظمهم غير مسلح يشغلون دجلة فوق تكريت والخابور . حيث يرعون قطعانا ضخمة من الجاموس والمواشي، يضيفون الغرباء . ولكنهم يقبلون النقود عما يقدمونه . خيامهم « ٤٠٠٠ » خيمة .

---

(١) يبدو أن الليدي لا تعلم بأن النسابة في الجزيرة وبعض المصادر تعتبرهم من قبيلة قيس العربية المعروفة التي كانت تعيش حتى قبيل القرن التاسع الهجري على الفرات .

٧ ــ الجواري : قبيلة صغيرة كالجبور خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة .

٨ ــ الجغايفة : قبيلة رعوية على وادي الفـرات ، تعيش قرب مدينة رواه . وهم الى حد ما من الفلاحين . خيامهم « ٥٠٠ » خيمة .

٩ ــ البقارة : مثل الجغايفة ، ولكنها تعيش في مكان أبعد والى الشمال خيامهم « ٨٠٠ » خيمة .

السجل التالي : هو لقبائل العنزة حسب الاماكن التي تشغلها في نجعتها الصيفية من الشمال الى الجنوب .

العنزة في شمال جزيرة العرب : جميعهم من البدو الاقحاح ، إذ يملكون الابل والخيول ويحملون الرمح . ويفرضون النخوة على القبائل الصغيرة ، وفي حالة حرب دائمة من الآخرين . ويتوزعون بشكل مندرج من حلب في الشمال وحتى جبل شمر في الجنوب .

١ ــ الفدعان : أكثر القبائل الصحراوية ولعاً بالحرب ، وهم قوم يتميزون بالخشونة وينقصهم التمدن ، ابلهم قليلة ويملكون قليلا من الخيول من أجل التوالد ، ويعتمدون على السلب والنهب بشكل اساسي ، وينقسمون الى الفروع التالية : ولكل فرع شيخه المعروف .

ــ المهيد : شيخهم جدعان وعدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة .

ــ التسيلات : وعدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة .

ــ العجاجرة : عدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة .

ــ الخرصة : وشيخهم نايف ابن كعشيش وعـدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمـــة .

ومن الجدير بالذكر أن عائلتين من الفدعان هما عائلة ابن سبيني وعائلة « أبو سنون » تعتبران من العائلات الغنية التي تملك خيولا كثيرة ، الا أنهما لا تشتركان بالحرب مع قبيلتهما . ولكن يدفعون الضريبة للقبيلة .

٢ ـ السبعة : قبيلة غنية بالابل والخيول • وهم يملكون أفضل سلالات الخيل في جزيرة العرب ، ويعتبرون من ذوي الاصول النبيلة ••• ويتميزون باللطف وكرم الضيافة والشرف ولا يقاتلون الا دفاعا عن النفس • ينقسمون الى الفرق التاليه :

ـ القمصة : شيخهم بطين ابن مرشد • خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

ـ الرسالون : •••• خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ـ العبادات : •••• خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ـ الدوام : •••• خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ـ المسكة : شيخهم ابن كردوش خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ـ الموايجة : شيخهم فرحان ابن هديب خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ـ العمارات [1] ••• خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ومن الجدير بالذكر أن المصرب مع شيخهم محمد يعتبرون نسبا من الرسالين •

٣ ـ ابن هذال : قبيلة قوية كثيرة العدد • ويعتبر شيخهم عبد المحسن الحسيدي هو وقومه من أنبل الاصول البدوية في البادية باستثناء ابن مزيد شيخ الحسنه • والهذال أقوياء وأغنياء ويملكون خيولا كثيرة العدد • وخيامهم « ٤٠٠٠ » خيمة •

٤ ـ الحسنه : كانت فيما مضى القبيلة التى تقود العنزة ، الا أنها تراجعت نتيجة لحالف الروله مع السبعة منذ حوالى ستين عاما • وعائلة شيخهم فارس بن مزيد تعتبر انبل وأشرف أصل في البادية • وتعيش القبيلة اليوم تحت الحماية التركية قرب دمشق وعدد خيامها ربما « ٥٠٠ » خيمة •

---

(١) العمارات قبيلة مستقلة من العنزة بقيادة آل الهذال . ولكن يبدو انها تقصد العميرة من السبعة .

٥ ـ الرولة أو الجلاس : تعتبر هذه القبيلة أغنى وأقوى قبيلة بين قبائل العنزة ، وعلى الرغم من أن القبيلة كلها تعرف باسم الرولة ، الا أن هـذا الاسم لاينطبق الا على قسم ضئيل مستقل منهم •

تعتبر عائلة شعلان أهم عائلة بين الرولة على الرعم من أنها ليست عريقة في البادية ومشيخة الجلاس فيها وراثية • تستلك الجلاس في الوقت الحاضر القليل من الخيول لانهم تخلوا جزئيا عن استعمال الرمح واستبدلوه بالاساحة النارية • يملك الروله « ٥٠٠٠٠ » جمل • ويروى أن القبيلة جاءت من نجد منذ سبعين عاما تقريبا • ولايزالون يحافظون على صلات حميمة مع جبل شمر • حيث لايزالون يعودون اليه في الشتاء • وهم الآن في حالة حرب مع بقية العنزة ، وخيامهم تقدر بـ « ١٢٠٠٠ » خيمة •

٦ ـ ولد علي : قبيلة قديمة اشتركت مع قبائل اخرى بالاسم نفسه في وسط الجزيرة العربية ومع ولد علي في مصر الغربية • لديهم ابـل وخيول كثيرة • وحتى وقت قريب كانت قوافل الحج المنطلقة الى مكة تذهب بحماية محمد الدوخي ابن سمير الذي يحتل مكانة رفيعة في البادية • وخيامهم تقدر بـ « ٣٠٠٠ » خيمة •

٧ ـ السرحان : قبيلة في الحماد الادنى ونادرا ما تذهب الى الشمال • واعتقد أن لديهم قليلا من الخيول ، ولكنهم غير معروفين كثيرا في البادية •

٨ ـ ٩ الرفدي : شيخهم رجـا • والطوف [1] : شوهـدوا فقط في الصحراء الشمالية خلال الاثني عشر سنة الماضية • ويعرفون قليلا في البادية •

احـلاف العنزة :

ـ الموالي : قبيلة قوية في السابق ومولعة بالحرب ولا تعتبر من الاصول

---

(١) الطوايف من عشائر الجولان السورية . ولا ندري فيما اذا كانت تقصدهم ام تقصد الطوقان من الموالي ، أم الطوقة من بني صخر ؟.

العربية الخالصة على الرغم من أن عائلة الشيخ تنحدر من سلالة أحد الخلفاء وتملك سمعة واسعة ، وتعتبر من القبائل التي تستخدم السلب والنهب فلا يعتمد عليها ، ولكنها في حلف قديم للفدعان والسبعة . وخيام الموالي تقدر بـ « ١٠٠٠ » خيمة .

ـ الولدة : رعاة شرفاء كالحديديين . لديهم قليل من الخيول الاصيلة ولا يملكون الجمال ، وهم من القبائل المحترمة ، ويحسنون الدفاع عن أنفسهم وخيامهم تقدر بـ « ١٠٠٠ » خيمة .

ـ العفادلة : قبيلة تربي الماشية مثل الجبور ، ولكنها تسكن أدغال الفرات حيث يصنعون لانفسهم الاكواخ من أغصان أشجار الطرفاء . أناس شرفاء ومسالمون ويتسلحون بالرماح القصيرة وبالبنادق ذات الفتيلة لاستعمالها في قتل السباع التي ترتاد أدغال النهر . خيامهم ربما « ٤٠٠ » خيمة .

ـ البوسرايا ، البوخميس ، الدليم : بعضهم من الفلاحين وبعضهم من غير الفلاحين ويرفدون العنزة ، الا أنهم تحت الحماية التركية . وهم قبائل رعوية مسالمة يقطنون الضفة اليمنى من نهر الفرات . والدليم منهم يملكون في بعض الاحيان خيولا جيدة .

القبائل المستقلة في الصحراء العليا والحماد

ـ اللهيب : قبيلة رجالها يقطعون الطرق ما بين حلب وحماة . وهم من الفرسان القساة .

ـ العمور : قبيلة صغيرة من الرعاة اللصوص في جبل العمور .

ـ بنو صخر : يجعلهم بعض المصنفين مع العنزة . ولكن لا أعتقد بذلك . وهم يعيشون جنوب حوران ويستقرون هناك . وهناك من يقترح بأنهم من اليهود[1] في قبيلة عساكر أو عسكر .

(١) اعتمدت على مذكرات بنيامين التطيلي .

ـ العدوان : قبيلة تقطع الطرق في شرق الاردن ، ولهم سمعة غير محمودة في البادية وشيخهم : قبلان ٠

الشرارات : قبيلة كثيرة العدد من البدو الخلص ويقطنون وادي السرحان جنوبا حتى نجد ٠ لا يملكون الخيول بل يكاثرون الابل العربية ٠ وأخبارهم لا تسر ٠

ـ العليون : قبيلة صغيرة تحالف الشرارات ٠ شيخ القبيلة محمد أبو نجاد ويقطن العليون في وادي عربة وجوار البتراء ٠٠٠

ـ الصلبة : قبيلة من أصل هندي تقطن الحماد وتذهب بعيدا حتى نجد٠ يأتي الصلبة شمالا حتى تدمر في الصيف وهم يطاردون الغزال الذي يعيشون عليه ٠ ولا يملكون الابل بل بضعة قطعان من الاغنام ٠ يكاثرون الحمير ويبيعونها لضواحي المدن من الكويت وحتى حلب ويعتبرون من العشائر الوضيعة ولهم سمعة سيئة بسبب قافلة ضللوها في البادية منذ عشرين عاما ثم سلبوها ولكنهم بشكل عام لا يعتبرون من ذوي الضرر الا أنهم من الهمج الذين لا يشتركون في حروب البادية ٠

قبائل تحت السيطرة الجزئية لباشوية بغداد

ـ المنتفك : قبيلة قوية كثيرة العدد تجمع بين البداوة والفلاحة ٠ ويقطن المنتفك الضفة اليمنى لوادي الفرات أسفل الحلة ٠ وشيخهم عادة يعينه باشا بغداد ٠ وعلى الرغم من أن هذه القبيلة كانت في سالف عهدها من البدو الاصلاء الا أنها اليوم تزرع سهول الفرات الادنى وقد أصبحت غنية ومزدهرة وشيخهم الحالي يدعى باسم : ناصر ٠ خيامهم « ٨٠٠٠ » خيمة ٠

ـ بنو لام : قبيلة بدوية خالصة تحولت الى قبيلة فلاحية ، ولكن ليس الى الحد الذي وصل اليه المنتفك ٠ يقطن بنو لام الضفة اليسرى لنهر الدجلة وعبر الحدود حتى ايران ، وخيامهم تقدر بـ « ٤٠٠٠ » خيمة ٠

ـ المعدان : قبيلة نصف بدوية كبيرة ، تقطن العراق ووادي الدجلة الجنوبي •

ـ البومحمد : من قبائل جنوب العراق •

ـ شمر طوقة : من قبائل جنوب العراق •

ـ البطـة : من قبائل جنوب العراق •

هناك قبائل أخرى صغيرة ، وبعض الاقسام من القبائل حول بغداد • ولكن لم أجد بينها من يستحق الذكر باستثناء الصابئة •

الصابئة قبيلة تعيش اليوم في سوق الشيوخ ـ قرية على شط العرب أسفل الحلة ـ ويبلغ تعدادها كلها « ٣٠٠٠ » شخص • ووفقا لتقاليد الصابئة يرجع تاريخهم الى بدء الخليقة وهو كالتالي :

يقولون : قبل عهد نوح كان العالم كله من الصابئة ، يؤمنون بالله الذي لا يرى ويتكلمون لغة واحدة • وكان لنوح أربعة أولاد : سام وحام ويسان ويافث • فبدؤوا في مرحلة ما بعد الطوفان يتحدثون بلغات منفصلة • وسام هو الوحيد الذي كان يحافظ على لغة والده ـ لا يعرفون أي شيء عن برج بابل ـ والصابئة هم المتحدرون الحقيقيون من نسل سام ، وحتى يومنا هذا فهم يحافظون على لغتهم القديمة ولم يبدلوها ، وهي اللغة التي يدونها كتابهم• ويصفونها على أنها نوع من السريانية •

استوطن الصابئة مصر في بادىء الامر ، وهم المصريون الذي حكمهم فرعون عندما كان يضطهد بني اسرائيل • والقبيلة الحالية تدعي أنها متحدرة من « أرديوان » أخي فرعون الذي غرق في البحر ، ومن ثم أسسوا مملكة في دمشق دامت مائتي عام بعد وفاة نبيهم يوحنا المعمدان قبل ثلاثمائة وستين

عاما من الهجرة،ثم ارتحلوا الى بغداد حيث ازدهروا حتى أطاح التتار بالخلافة. وفي ذلك الوقت استولى التتار على أربعمائة كنيسة مدمرة ، فنقل تيمورلنك كل كتبهم الى أصفهان حيث يعتقد بأنها لا تزال موجودة هناك . وهم أنفسهم تواروا عن الانظار في العراق وربما حتى في الاحساء ، وتناقصوا الى ثلاثة آلاف نسمة . ولعل ديانة الصابئة هي القضية الاكثر اثارة ، ولهذا سنذكرها في سياق هذه القصة .

يقولون : انهم يعبدون الله الجبار خالق النور والظلام ، والذي لاتدركه الابصار . ونظامهم الديني الرئيس يعتمد على المعمودية ــ كما يقولون ــ شرعة الله في جنة عدن . وآدم نفسه كان معمدا باسم الحياة الاولى والحياة الثانية والحياة الثالثة ، وكلها أسماء الله . ولكن هذا التعميد هُجر وأصابه الاهمال ، ولكنه استعيد من قبل نبيهم المبشر يوحنا المعمدان .

لا يعترف الصابئة بنبي آخر ، ولا يبالون بقصص العهد القديم أو الجديد باستثناء قولهم : ان عيسى هو روح القدس ، وقد رفع من الارض ولكنه ليس الله ويؤمنون ببعث الجسد يوم الحساب ولقاء كل انسان بزوجاته في الاخرة . واذا كان الانسان من غير المتزوجين سوف يهبه الله زوجات أخريات. أما في الحياة الدنيا فالمسموح بزواجهن من النساء أربع . ولديهم أسرار مقدسة بخبز خال من الخميرة والخمر يناوله لهم قساوستهم على انفراد وفقا لطقوس سرية معينة ، ويعتقدون بهذا على أنه أنشيء في جنة عدن . أما طقوس التعميد عندهم فيجب أن تتم في ماء جار ، تغسل الخطايا ويؤمن الخلاص من الذنوب. ويعمدون الاطفال وهم بعمر الثلاثين يوما ، وتجدد هذه الشعيرة باستمرار ، والرهبان يعمدون أنفسهم مرة كل أسبوع .

يصوم الصابئة ستة وثلاثين يوما في السنة ، ويمتنعون فيه عن تناول اللحم ، ولهم أعياد أربعة : عيد رأس السنة ، وعيد القديس يوحنا ، وعيد اليوم الخامس بعد الذكرى السنوية لعمادهم ، وعيد آخر يدعى : ديما دباس ، وهم لا يعرفون مضمون هذه الاعياد .

حصلت على هذه التفاصيل من الدكتور كولفيل في بغداد لأنه يعرف شيخهم . وبشكل عام تعتبر دياناتهم نمطا غير شرعي من المسيحية. ومن المدهش أن نجد امتداد المسيحية في الجزيرة العربية يحصل بهذا الشكل .



الفصل الخامس والعشرون

ابناء سام اول مولود لنوح
على حالهم والى الابد كالاطفال عند الباب
في جنة عدن ... واي عار جلبوه
وهم يتثاقلون .. بينما سبقهم الى المجد الاخرون
يفخرون جدا بحراثة الارض ولا يبالون بالفقر
يعيشون بنعمة الله دون شكر .. لا يؤدون
حقه ولا يتضرعون اليه ولا يتوسلون اذا ما اشاح
بوجهه عنهم ! يارب ! منك الغيث والضياء
ولك الحكمة الازلية في عالمنا المنسي وانت
على عهدك الذي لم يعرف الفناء .
هل لنا ايضا نحن ابناء يافث ان نعيش الخوف ؟
علينا ان نوقف الانفعالات الفارغة ، وأن نستمر في الحياة .
وكلما تطلعت اليك يا رب ... انحني ولا اجادل .

السمات الطيبة للبدو الاعراب ــ قصيرو الاعمار ــ أفكارهم الخاطئة ــ انسانيتهم ــ احترامهم للقانون ــ يتخلفون عن غيرهم في مجال الصدق والاعتراف بالجميل ــ حبهم الطفولي للمال ــ كرم الضيافة ــ نساء البدو .

يبلغ طول البدوي العربي الاصيل غالبا أكثر من خمسة أقدام وستة انشات ، ولكنه دوما بأطراف طويلة لا تتناسب مع قده ، بينما القماش الذي يخيط منه لباسه يتماشى مع هذه الهيئة وهذا الطول . أما من حيث الشكل والمظهر فيتميز بالخفة والرشاقة ولا أتذكر مثالا يثبت العكس ، الا اذا كان ذلك المثال هو محمد الدوخي شيخ ولد علي الذي كان فعلا يميل الى البدانة!. والسمنة الحقيقية غير المعروفة بين البدو الاقحاح ، واذا ما شاهدوها عند الآخرين فسوف ينظرون اليها بشفقة مزرية على أنها نوع من التشوه الجسدي.

شباب البدو غالبا ما يكونون من ذوي المظهر الحسن والعيون اللامعة وعلى شفاهم ابتسامة جميلة ، وفي أفواههم أسنان ناصعة البياض • ولكن بعد سن الثلاثين تجد في وجوههم العبوس بسبب عادة تقطيب الحاجبين الدائمة لحماية العينين من أشعة الشمس ، وهذا ما يضفي على الوجه تعابير قاسية تتنوع بتنوع شخصياتهم الحقيقية •

ان المران القاسي وندرة الطعام قد أذبلت في الماضي وجناتهم ، بينما قلبت الشمس بشرتهم الى الالوان السمراء الهندية على وجه التقريب • وفي سن الاربعين تشيب لحى البدو ، وفي الخمسين يتحولون الى شيوخ • ونادرا من يصل منهم الى سن الستين ان سبب هذا الفناء المبكر يجب أن يبحث عنه في طريقة عيشهم • فهم ومنذ عهد الطفولة يشبون على التدريب الشاق وشظف العيش،اذ يأكلون مرة واحدة في اليوم من أجل الاقتصاد وينامون على الارض، وكل هذا يؤمن لهم صحة ممتازة ومتعة كبيرة تنسي قدراتهم في الوقت الذي تعتاد فيه أجسامهم على السرعة ثم تعقب هذه الفترة من النشاط فترة خمول معينة لا يقومون فيها بأية اجهادات غير ضرورية لأنه لا توجد أمام الرجال الا أعمال قليلة يجب أن تنجز اذا ما زالت دوافع المغامرة والاثارة • وفي مثل هذه الظروف لا يوجد أي سبب يدفع الفرد لمغادرة خيمته لذلك لا تجد سوى عدد محدود من الرجال خارج الخيام •

ان المكائد السياسية تجعل البدو يتحسبون لخزن المؤن ، وهذه المهمة تأخذ منهم الوقت والعمل العضلي • وكثيرا ما تترك حملات الغزو آثارها في سلوكيات الشباب • واذا ما توقف الغزو تجد أيام البدوي تمضي في كسل وخمول •

يتميز البدوي بردة الفعل السريعة والانفعال • والرجال وهم في سن الاربعين ــ ونخص منهم ذوي المراتب العالية ــ يشتكون من عسر الهضم ومن الروماتيزم مع بعض الامراض التي تسببها حياة الخمول • وعند أول مرض

يتعرض البدوي لموت أكيد لأنه لا توجد لديهم فرص للشفاء • وهم كأحياء البراري يموتون في السهول المفتوحة وحدهم ، لأن الاطباء لا وجود لهم هناك • والبدوي لا يعرف الاعشاب الطبية ، والمريض ملزم مهما كانت حالته المرضية بالتحرك مع القبيلة عندما ترحل ، فيوضع على جمل يتشبث به قدر استطاعته في الحر والبرد وفي الريح والمطر وتحت الشمس ، ورأسه يتدلى نحو الاسفل وربما أخفض من أرجله ، ويمنعه من السقوط مساعدة أبنائه وزوجته التي تمشي بقربه • أما في الخيمة فيستلقي محاطا بأصدقائه الذين يواسونه في محنته ويسامرونه حتى يموت • وحتى الجروح ربما تكون مميتة على الرغم من الحالة الصحية للبدو نتيجة الحاجة الى الهدوء ونقص المعرفة بأساليب المعالجة •

ان البدو يفضلون أن يموتوا هكذا ، ويواجهون نهايتهم دون خوف • وفي بعض الاسر يكون شرفهم في ألا يموتوا حتف أنفهم • وبشكل عام نجد اعتلال الصحة وضعف القوى في مرحلة الشباب شيئا غير معروف بين البدو • ومن أجل متعة الحياة نجد البدوي يفعل في حياته القصيرة أكثر مما نفعله نحن في كامل حياتنا •

لقد قيل الكثير عن حاسة البصر القوية وعن حاسة السمع عند البدو • ولكنني لا أجد أنهم يفوقون الاخرين بهما ، وعلى العكس من ذلك أجد حسر البصر شائعا بينهم • والبدوي العادي لا يرى ويسمع أكثر من الايطالي أو اليوناني أو الاسباني • وعندما كنا في البادية كانوا يطلبون منا باستمرار أن نبين لهم ماهية الاجسام البعيدة • أما عن قدرتهم على الاهتداء في البادية فربما تكون من باب المبالغة • فالبدو بطبيعة الحال يعرفون المنطقة التي يعيشون فيها جيدا ، وهذه المنطقة غالبا ما تكون كبيرة ولكن اذا ابتعدوا مرة خارج حدودها فستجدهم عاجزين تماما عن السير • والعنزي من البدو لا يماثل سكان أمريكا الجنوبية الذين يشقون طريقهم بمساعدة الريح أو الشمس ، ويحافظ على هذه المعرفة يوما بعد يوم حتى يصل الى غايته ، بينما نجده يرتحل من نقطة علام

الى أخرى • واذا ما خذلته هذه فسوف يعتمد على المعلومات التي يقدمها الرعاة الذين تصادفهم في الطريق وربما من ساكني الخيام • واذا ما كانت المنطقة غير مأهولة فانه يصاب بالهلع • والعيش في البادية يتحدث عنه البدو دوما بخوف، ويدعونه بلهجتهم « الجول » أو البراري • ولم يكن بمقدورهم أن يفهموا كيف أمكننا المغامرة بدون مرشدين في أراض مجهولة ! وهم يعجزون عن السير في طريق مستقيم طوال اليوم لانهم لا يعرفون حساب الحركة التدريجية للشمس من حولهم • والشخص الوحيد الذي قابلناه ويمتلك تلك المقدرة هو رجل شمري طاعن في السن رافقنا في الجزيرة على الرغم من كونه ضعيف البصر •

تسير القبيلة البدوية في هذا الاتجاه وتذهب الى آخر ، وتتخبط في اليمين واليسار نحو غايتها، ولا تسير بخط مستقيم، وكأنهم في غموض ذهني في المسير• لا تبرز القوة العضلية جلية واضحة عند البدو ، الا أنهم من البشر النشيطين الذين يتحملون الصعاب ••• يسرعون في المشي وفي الركض ، أما على ظهر الخيل فهم لايكلون ولايملون•وهم من الفرسان على كل حال وذلك بالمقاييس العادية ، أما اذا قارناهم بفرسان السباق فلا نجدهم من المتفوقين • وقليل منهم من يتقن الركوب الجيد ، بينما عن أيديهم فمن الصعب علي أن أحكم لأنهم يستخدمون الرسن فقط ، ولا يعرفون المهارة القليلة ، في اظهار فائدة الحصان، ولا يقتصدون في صرف جهده • وطريقتهم الوحيدة بالعدو بالحصان هي ركوبه بالايدي والارجل من البداية وحتى النهاية ، ولكنهم يمتلكون مهارة فائقة في الاستدارة والانعطاف بقوة والاستفادة من الارض في المطاردة أو الهرب • وجدارتهم كمروضي خيل هي في صبرهم الذي لا يعرف الحدود أو التعب ، والغضب مع الحيوان ليس من طبعهم • ولم أرهم أبدا يضربون أو يسيئون معاملة خيولهم ولا بأي شكل • والصبر في الواقع من الميزات الرئيسة التي يتميز بها البدوي • أما عن الشجاعة ــ على الرغم من أنها تحتل المقام العالي ــ

فتعتبر غير ضرورية للبدوي وحتى للشيوخ وأحيانا يقولون لم يمنحني الله الشجاعة في فعل كذا •• لذلك لم أقاتل ، وهم يعترفون كما يعترف الصياد الانكليزي بأنه قد فقد السيطرة على نفسه • وأصحابهم لا يوجهون النقد لمثل هؤلاء الناس ولا يضحكون منهم •

يولع الشباب البدوي بالمغامرة . وينطلقون في حملات السلب من أجل المجد والمكاسب • وغالبا ما يتعرضون لضربات قاسية • وكثير منهم من يحمل الجروح الكثيرة التي تظهر بادية على جسده ، بينما لا تلصق بهم فكرة العار اذا ما هربوا في يوم من الايام حتى وان كان الهاربون يتمتعون بقوة أفضل ؛ والبدوي في جوهره انسان طيب يحب الخير ولا يبطر ؛ فاذا ما قتل رجلا في الحرب تجده يخفي الحقيقة ولا يجاهر بها ؛ بينما الجريمة لمجرد الجريمة أو القتل العمد فغير معروفة بين القبائل . وهم لا يتلذذون باراقة الدماء كما تفعل بعض الاجناس البشرية الاخرى •

والصدق عند البدو لا يعتبر في الامور العادية فضيلة ؛ والكذب لا يعتبر عيبا ، وهم يقولون : لكل انسان الحق في أن يخفي ما ينكر به • أما في الامور ذات الاهمية فيؤكد الحدث بقسم يمين • واذا ما تم ذلك يمكن اعتبار الحقيقة التي أقرت مؤكدة ويمكن الاعتماد عليها • وهناك استثناء لهذه القاعدة العامة• فالبدوي لا يكذب اذا ما سئل عن سلالة فرسه ، فقد يرفض أن يجيب ، وربما يقول : لا أعرف ولكنه لن يعطي اسم سلالة أخرى غير السلالة الاصلية التي تنتمي اليها الفرس، وربما يكون السبب بأن الخداع لا يمكن تبريره بين البدو؛ اذ لا توجد أسرار في المعسكر البدوي ؛ وكل شخص يعرف فرس جاره كما يعرف فرسه • وعلى كل حال تعتبر القاعدة المستثناة محدثة ومعترفا بها • وقد لاحظت أمثلة كثيرة أخبرت فيها بصدق عن هذا الموضوع المثير للتشكوك . ان وجد الشاهد أو غاب على حد سواء •

سألت رجلا مسكينا كان قد أحضر فرسه لبيعها : ما هي سلالة الفرس ؟

فأجاب قائلا : شويمة . فقلنا : اذا هي ليست من سلالة شويمة سباح . فقال : لا شويمة قال هذا وهو يعرف بأن السلالة الأولى لو ذكرها لارتفع ثمن الفرس ثلاثة أضعاف . وهذه القاعدة بطبيعة الحال لا تجلب نفعا لتجارة الخيل ، بينما نجد في بعض الاحيان اضطرابا في تحديد عمر ونوعية الملكية بالنسبة للحصان. وقد تعطى خاطئة لعدة أسباب .

أما فيما تتعلق بالشرف والاخلاص فالبدوي على عكس القبائل المولدة. فبين هؤلاء تكون السرقة قاعدة ولا يتحرجون من كلمة الحرامي التي يمكن أن تطلق عليهم . فالقبائل الكردية وشبه الكردية في الجزيرة السورية العليا لا تعتبر السرقة مسألة تمس بالشرف . بينما العربي البحت يعتبر ذلك عارا .

ان الاعمال اللصوصية التافهة تعتبر غير معروفة بين العنزة أو شمر ، وخلال كامل رحلتنا لم نفقد بهذه الطريقة أكثر من شلنغ واحد ، بينما تعتبر أعمال اللصوصية على الطرق العامة مسموحا بها ، وأكثر من ذلك تعتبر حقا مكتسبا لهم . وعلى المسافرين الذين يمرون دون مواكبة مناسبة من احدى القبائل أو بتعريف منها ، فعليهم أن يتوقعوا خسارة حيواناتهم وبضائعهم وثيابهم وكل ما يملكون . ولا يلحق هذا النوع من السلب أي عار أكثر مما يمكن أن يلحقه السلب واستعباد الغرباء على الحدود الرومانية . وبموجب قوانين البادية تجب مصادرة البضائع المارة مهما كانت شخصية مالكيها .

ان احترام القانون هو في الواقع من معالم الشخصية البدوية . ولكن يجب فهم هذا القانون من زوايا هم الخاصة فقط دون الاعتراف بالقانون التركي أو الاوربي . لأن القانونين الاخيرين يحتقرهما البدو كثيرا . والعدالة بمعنى العدالة لا يمكنهم تحقيقها في البادية ، الا أن الفقير هناك لا يجار عليه ولا يصيبه الحيف كرجل فقير . وكل القضايا تقرر وفقا للمعنى الصارم للقانون ومن المستحيل أن تطبق حرفيا لأن القانون غير مدون في هذه الحالة .

تحل كل القضايا التافهة من قبل شيخ العشيرة ؛ أما أكثر القضايا . . . يناقشها قاضي المنطقة فهي مسائل التشرد وتحديد النسب ، بينما القضايا الهامة تحفظ لكي يبت فيها شيخ اعلى وربما يكون غريبا . وفي بعض الاحيان تترك للتحكيم من قبل ثلاثة أو سبعة أو اثني عشر محلفا . وأسوق قضية قررت من قبل محلفين يمكن أن توظف كايضاح ممتاز عن نوعية النزاعات المثارة وطريقة تقريرهـا :

في فرقة من السبعة تعتبر كل الخيول التي من سلالة المعنقيه التي تؤخذ في الحرب من حق عائلة معينة حسب عرف قديم من اعرافهم . والشيخ هو احد أفراد هذه العائلة . وصادف في احدى الغزوات أن فرسا معنقيه قد استولى عليها رجل فقير من القبيلة ، في الوقت الذي فقد فيه فرسه الخاصة ؛ فأخـذ الشيخ منه الفرس بموجب امتيازه في الحصول على هذه الخيول . وعندمـا احتج الرجل الفقير وقدمت القضية امام اثني عشر محلفا للنظر فيها والنطق بحكمها . وبعد المشاورة والمداولة اعترف المحلفون بحق الشيخ فيها ؛ ومع ذلك أصدروا حكما لصالح المدعي فأعطيت الفرس للرجل الفقير . أما القضيه الغريبة الاخرى فهي الدعوى التي شهدناها في مضارب ولد علي حول جدعان وزوجته والغريب أيضا في مثل هذه المحاكم البدوية أنه لا يوجد موظف من أي نوع لتطبيق القرارات بالقوة ، لأن الرأي العام وحده يجبر الناس علـى اطاعة القانون . وفي حالات العقوبة القصوى تطرد المعاقب كليا من القبيلة . وفي حالات القتل يترك القانون القضية لعائلة المقتول لتثأر لنفسها ، وأخذ الثأر واجب على كل أقربائه مهما كانت هذه القرابة بعيدة . والقاتل نفسه قد يقتل وهو ما يطلب دوما ، والرجل الكبير من قومه قد يستهدف بالقتل وفق المبدا الذي يقول : قتلت ابن عمي وسأقتل ابن عمك ، ودم ميت يغفر دم ميت آخر . وتنتهي الضغائن عند هذا الحد . ولكن قد يقتل من القبيلة أكثر من فرد واحد عندما يكون الثأر لرجلين وليس لواحد وتستمر الاحقاد لسنوات قبل أن يتم التعـادل .

ان الالتزام بأخذ الثأر شيء مقدس جدا • ويسير الرجال مسافات طويلة لكي يجدوا أعداءهم ، وفي هذا المجال أخبرنا محمد بن طالب بأنه عندما قُتل عمه من قبل جماعة معادية في تدمر ؛ قام رجل من بني لام وقطع مسافة طويلة من الجوف الى تدمر لأخـذ الثأر •

يمكن أن يوضع حد لاستمرار الضغائن بدفع الدية التي تقدر بخمسين جملا أو مائتين وخمسين جنيها عن كل مغدور ••• هذه هي الحالات الواضحة من الخصومات والنزاعات وحالات اراقة الدم المعروفة في البادية ، وهي حالات نادرة بشكل عـام •

ومن الاخلاق الممتازة عند البدو كونهم في حالة حذر دائم من اراقـة الدماء ؛ لأن القاتل لا يتوقع انتقام أعدائه فقط . ولكن عليه توقع غضب أقربائه الذين ورطهم معه في هذا الشجار • ونتيجة لهذا القانون البربري الواضح نجد أن اللصوص والخارجين على القانون نادرا ما يتعرضون للقتل خوفا من الثأر • والبدوي معتدل في ممارساته • وقد وجدت ذلك في المثال التالي : منذ سنوات كان شاب فرنسي يدعى « دابو دوانجر » يسافر مع حارسه الزواوي[1] من حلب الى تدمر فسقط في أيدي جماعة كبيرة من الحسكة وكانا مسلحين بشكل جيد • فعندما ركب اليهم العرب ترجل الفرنسي وبدون أي مقدمات فتح النار فقتلت فرس الشيخ برصاصة ولم يمس العرب بسوء ، فشنوا هجوما على الفرنسيين الذين دافعوا عن أنفسهم جيدا ؛ وقتل الزواوي في العراك واستسلم سيده • وعلى الرغم من أن موت الفرس قد أغضب البدو لأنها كانت بقيمـة كبيرة ، الا أنهم قد رضوا بتجريد أسيرهم من سلاحه وتركه يذهب بسلام • والقتل في بعض الاحيان لا يثار ؛ وفي بعض المناطق القليلة قد لا تكون فيهـا العقوبة بسببه قاسية • ونستطيع القول بأن أضعف نقطة في شخصية البدوي هي بلا شك حبه للمال ، وهذا ليس لمجرد الجمع والحرص على لم الثروة . انما هو حب حقيقي للقطع النقدية الفضية البيضاء التي يفضلونها على الذهب. علما أن حب النقود والمال يبدو من الامور العادية في حياة الاجناس البشرية .

---

(1) فرقة مشاة فرنسـية كانت تتألف في الاصل من جنود جزائريين يلبسـون الملابس المزركشة .

وغوته تتناسب عكسيا مع قيمة العملة ... وهكذا فان الاطفال لديهم حب لتعلوس عندما تنتابهم فكرة التملك مفضلين اياها على أي شيء يمكن ان يقدم لهم،على الرغم من أنها عديمة القيمة العملية بالنسبة لهم . وبالطريقة نفسها نجد البدوي الذي يعيش في البادية على مدار السنة ، وهو بغنى عن الحاجيات التي يقدم من أجلها النقود . ولم تتح لهم الفرصة حتى لانفاقها ، نجده يسافر الى مسافات كبيرة معرضا نفسه للهلاك وللمشاكل ويبذل مجهودا كبيرا حتى يحصل على بعض القطع النقديه . ولو كانت سفرته من أجل الاغنام أو الجمال لما كلف نفسه كل هذا العناء . أما بالنسبة للشيخ الذي لن يجهد نفسه في أن يُغرى باقتراحات عملية للحصول على الغنائم فهو غالبا ما يخرج عن وقاره عندما يرى النقود .. ونتيجة لاستغلال نقطة الضعف هذه حقق الاتراك كثيرا من المكاسب والانتصارات الدبلوماسية في البادية . وعلى الرغم من حب البدو للمال نجدهم أقل مهارة في عمليات التجارة ، ودائما عرض شراء ما يمتلكونه يعتبر عندهم من الامور البغيضة التي تصل الى درجة الاهانة . وليس لديهم مبدأ صارم في التعامل مع زيادة السعر المطلوب يتناسب مع رغبة المشتري المفروضة في الشراء ، ولهذا نجد أحيانا بأن الجمل أو الحصان الذي يرفضون بيعه في بداية الامر يباع فيما بعد الى شخص آخر بثلث السعر الاصلي ، ومع ذلك فالمهارة التجارية تختلف بشكل ملحوظ من قبيلة لأخرى . فبنو صخر الذين يعدون من البدو الاقحاح يقال بأنهم من التجار المهرة كاليهود أنفسهم. وحتى بين العنزة نجد من هو ماهر بالتجارة الا أن هذه الفكرة لا نجدها دوما محبــذة .

ان الرأي العام البدوي يعترف بمباهج الثروة ، الا أنه يحترم دوما الرجل غير المبالي بها . وشيوخ البدو هم أحرار فيما يمتلكونه . ويقتسمون غنائم الحرب مع أتباعهم . وحتى الهدايا التي يمكن أن نقدم من الغرباء .. والشباب أكثر بروزا في هذه الصفة من الشيوخ الكبار . ففارس زعيم قبيلة شمر الذي يمثل أعلى قيم الماضي لا يبقي شيئا لنفسه الا عن طريق الهدايا أو الغنائم . وكل شيء عنده يذهب الى خدمه . وعلى الرغم من حب البدو للمال

الا أنهم لا يقبلونه من الغرباء الذين يعيشون في خيامهم الا تحت ظروف معينة. ولعل فضيلتهم الكبيرة هي في حسن ضيافتهم ، وحسن الضيافة بالنسبة للاوربي لا يزكي النفس مثل العدل والرحمة لأنه فضيلة طبيعية ، أو كما يعتبرها علماء الاديان بالفضيلة فوق الطبيعية وهي أن الامر يتطلب شيئاً أكثر من غريزة الشعور الطيب العادي لكي يبقي المرء بابه مفتوحا على مصراعيه للغرباء وأن يذبح في كل مرة خروفا ، ويشارك الاخرين في رغيف خبزه ، ومع هذا فالبدو لا ينظرون الى هذا الامر من هذه الزاوية . بل ينظرون الى الضيافة على أنها مجرد واجب مفروض بأمر النبي وعمل أولي يدركه كل ذي عقل صحيح . ورفض ايواء الغرباء أو عدم تقديم الطعام لهم لا يعتبر عملا شريرا فقط وانما هو اهانة لله وللانسانية ويعتبر قمة في الانحطاط الخلقي . والذي يتصرف مثل هذا لا يمكنه أن يكسب مرة ثانية احترام أو تسامح جيرانه ، وهذا هو الشعور السائد بين كل القبائل العربية بدوية كانت أو غير بدوية . ولكن شدة الالتزام بكرم الضيافة قد يختلف بين قبيلة وأخرى كالجبور والعقيدات والقبائل الفلاحية الاخرى . وقد يقبل بعض العرب أن يدفع لهم تعويضا عنها ، بينما نجد العمور يسلبون الغرباء الذين يمرون بديارهم أو الذين يستدرجونهم بحجة الضيافة . ويبدو أن فضيلة الضيافة لها معنى أوسع شمولا عند بعض القبائل . فالضيف ان لم يكن من قبيلة معادية فهو آمن من كل التحرشات وحتى ان كان من الاعداء ، فبمجرد أن يترجل ويلمس حبل خيمة واحدة من المخيم فهو آمن . أما الغريب العادي فهو حر بالذهاب الى أي مكان يشاء ؛ وأن يحل ضيفا حيثما رغب ، وعادة يختار أكبر خيمة لأن حجمها يدل على مكانة صاحبها ، وهناك يبقى يأكل وينام حسب رغبته وحدود الضيافة بالنسبة للزمن غير محدود تماما ، ولم يحدد لي أحد مقدار ايامها ولا أظن بأن في خيمة الشيخ عادة لمثل هذا ، ولم أسمع بهذه الحالة . ولكني أتخيل أنه بعد بضعة أيام نجد صديقا ممن يعتمد عليهم المخيم يلمح للوافد بأنه قد حان وقت الرحيل . وربما يندس بعض الفقراء ليتحدث عن بيت المؤونة الفارغ . فيحث الرجل على الرحيل . ولكن ذلك مجرد تخمين مني لا دليل عليه .

في الحالات الاعتيادية يبقى الضيف ليلة واحدة ، ثم يغادر حيث لايتوجب أن يؤدي أية تحية أو وداع أو شكر ، وحتى في الخيام الفقيرة نجد أن المال لا يطلب ثمنا للاقامة أو الطعام ، وعندما نسأل في بعض الاحيان عن جدي أو خروف نأكله يعتذر البائع بقوله : لقد جلبته من خيام أخرى • وعندما تقيم طويلا في خيمة الشيخ فمن المألوف أن تعطي كروانا لصانع القهوة أو للطباخ أو لكليهما معا ان وجدا ، وهم من الزنوج طبعا ، كما يمكن أن تقدم قطعة فضية صغيرة لمن يمسك ركاب جوادك عند الركوب • أما للرجال الكبار فيمكن تقديم الهدايا عند الوصول فقط حتى لا يحمل معناها على أنها من قبيل الاجرة• وعباءة وزوجان من الاحذية وكيس من السكر للنساء هي الهدية المعتادة في البادية ، وقد ترافقها حبوب القهوة والتبغ بشكل دائم وتقبل بسهولة • والمسدس يعتبر هدية مناسبة ، ولكن لا يقبلها الرجل الكبير بدون أن يقدم هدية مقابلة • وبالتالي فمن الضروري تقدير رتبة المضيف والضيف بعناية حتى يمكن تجنب الاساءة • ويستقبل الفقير تماما كالغني وان كان على الغني أن يجلب عباءة اذا كانت الزيارة موجهة الى شيخ القبيلة •

ان الهدايا هي دائما من قبيل التشريف وليست من قبيل الاجر . وتعطى عادة للاصدقاء والى من يعتمد الشيخ عليهم • ولا يوجد هناك أي شك على صفاء نية ودوافع الشيخ في هذا المجال • والمسافرون الفقراء غالبا ما يمضون أسابيع في خيمة واحدة وقد يمرون من خيمة الى أخرى • والبدوي على حدة طبعه دائما يحتفي بهم ونادرا ما يسمحون لعواطفهم أن تنساب دون سيطرة • وكثيرا ما يقود الشجار الى تبادل الكلمات وقد يؤدي الى سحب السكين في حالة الغضب الا أن الرصانة تعد من الاسباب المهدئة الرائعة •

لا يشرب البدو مشروبا أقوى من اللبن أو الحليب الحامض المعروف بينهم ، وهم ينظرون الى كل السوائل المخمرة على أنها عار وشيء مشين ، وعلى الافرنجي الذي يأخذ الخمر معه الى البادية أن يتوقع خسارة لكل احترام هناك• والجرائم البشعة لا يمكن أن تجد لها مكانا في قاموس الذنوب البدوية مطلقا • حتى الآن تكلمت عن رجال البدو ، أما عن النساء فان وصفا قصيرا قد

يفي بالغرض عنهن ، فهن أطول أو يماثلهن الرجال في الطول ، ومن المعتاد أن ترى الكبيرة منهن بدينة أو ثقيلة المشية•أما بالنسبة للفتيات فهن من الجميلات اذا ما نظرنا اليهن نظرة تصور ذهنية ، وهن عادة بوجوه صبوحة باشة ، ونشيطات في تأدية كل الاعمال في المخيم ، يحضرن الحطب ويسحبن الماء وينصبن الخيام ويهدمنها ويحلبن النعاج والنوق ، ويقمن بعمليات اعداد اللبن وبطبخن الطعام ، ويعشن بسعزل عن الرجال ، ولكن لا يحجر عليهن أو يوضعن نحت الحصر والمراقبة •

تخرج النساء في الصباح لجمع الحطب ومعهن الجمال أو الحمير • وكل من صادفناهن وجدناهن يعملن في هسة عالية وبمعشر حسن ، اذ يختلطن ويزرن خيام بعضهن بعضا ومعهن الاطفال ؛ ولديهن القدرة على الاختلاط بالاقارب الذكور كل حسب درجة قرابته • الا أن مكانتهن الاجتماعية في حالة يرثى لها ؛ ولكنهن لا يتذمرن من ذلك •

ولم أجد من يلاطفون الاطفال كالبدو • فابن الشيخ يُعتنى به ويلاطف ويلاعب من قبل الرجال في خيمة الشيخ طوال اليوم • ولا يوبخ الاطفال ولا تساء معاملتهم • والبدو الاصلاء يربون أولادهم بشكل جيد ويحرصون على جعلهم بأخلاق حسنة • وكثيرا ما يترك الاطفال في ثياب متسخة حتى سن الثالثة ، مما يضفي عليهم مناظر قذرة ، ولكنهم يقومون بذلك عمدا عن قصد لكي يحفظوهم بعيدا عن العيون الشريرة ، ثم ينظفون ويعتنى بهم كبقية الكبار فيما بعد •

ان الصفات الفكرية لنساء البادية تعتبر أقل مستوى من الرجال بكثير ، وأفكارهن محدودة جدا ، ويندر أن تجد منهن من يملك القدرة على التأثير على أزواجهن أو من خلالهم على القبيلة • الا أن أكثر من مشاهدة تثبت أن في خيمة الشيخ امرأة واحدة على الاقل بيدها أمر تقرير السياسة العامة في القبيلة •

* * *

الفصل السادس والعشرون

تأمل الشجرة اذا ما قطعت ان تنشأ ثانية ، وفروعها عند ذلك لن تتوقف عن النمو .. ولكن الانسان يموت ويفنى عندما تغادر روحه الجسد ، ولكن مسيرته الى اين ؟

● ايــوب

ديانة البدو لا تتعدى حدود الايمان ـ لا يقيمون الشعائر والاحتفالات ـ الايمان والقسم ـ ايمانهم غير واضح بحياة الآخرة ـ تندر الخرافات بينهم ـ الفضيلة نظام مطلق ـ طقوس الزواج .

يعتبر ايمان البدو ايمانا موروثا منذ القدم ، الا أن البدو لا يعترفون بأية عقيدة معينة مهما كانت ، ولا يعرفون وضوح العقائد ولا الخرافات ، الا أنه لن نجد من البشر في هذه الدنيا من لا يهتمون بما وراء الطبيعة . وايمان البدو بالله يعتبر أبسط أنواع الايمان ولا يتعدى كون الله موجوداً وقد يقرن بقوى الطبيعة كالشمس والسماوات الا أن هذه لا تعتبر قاعدة عند البدو .

ان الله هو الله ، جملة يعبر بها البدو ببساطة عن كل ما يعرفونه عن الله . أما عن الكيفية والوجود والحقيقة فلم أجد أية مناقشة عنها بينهم ، وأما عن الوحي الالهي فيبدو أنهم لا يعرفون شيئا عنه . والله هو القوة التي يجب أن يخضع لها الجميع ، مصدر الخير والشر في هذه الحياة ، والمسببة للمطر ووجود الشمس وعلة توالد القطعان ، والمسببة لأمراض الماشية ، الا أنهم لا يتضرعون الى الله في صلاة ، ولا يشكون من قسوته عند المرض ولا يعرفون الشكر . كما أنهم لا يسبون الله ، ويتساوى عندهم الحب والخوف منه . واذا ما كانت لهم علاقة مباشرة مع الله فهو شاهدهم الصامت في كل قسم يقسمونه في نزاعاتهم

وحتى في هذه الحالة فهم لا يتوقعون شيئا من لدنه ، ولا المغفرة من خطأ ، أو العقوبة في قسم كاذب •

ان الصلاة – من الاعمال الجسدية – لا يمارسها البدوي البحت • وحتى القبائل التي تأثرت بالديانة الاسلامية نتيجة لاحتكاكها بالمدن تكتم تدينها عن أنظار وأسماع الغرباء • وشمر وحدها من بين كل القبائل النبيلة التي زرناها كانت تملك « الملا » ودوره بينهم لأغراض دينية دون أدنى شك • ووجود الملا سببه قناعات شخصية لشيخهم صفوق وتأثره بالقناعات التركية • وسار على نهجه ولده فارس ذو الاصل النبيل، اذ لازال يمارس صلواته دون انقطاع •

ان تلك الاستثناءات الفردية تعقبها ممارسات دينية تؤخذ كمؤشرات على تدني الفضيلة في القبيلة • فالانحطاط بين فلاحي العراق واضح على الرغم من أنهم يتعصبون لاحكامهم الاسلامية الشيعية • أما عن العنزة فلا أتذكر أنني شاهدت مصليا بينهم • وعلى سبيل العادة دون المعنى الديني يكثر البدو من استخدام اسم الله وبشكل عرضي لتأكيد شيء ما ، وعايلت أن تسمع منهم طوال اليوم كلمات : ان شاء الله والحمد لله ، ومعنى هذه الكلمات عندهم أقل من معنى الكلمات التي نستخدمها نحن : شكرا لله •• وان سر الله • وعبارة ما شاء الله ربما تكون مختلطة بشيء من الخرافة في مسناها ، فهي تستخدم مع حديث الاعجاب خشية الحظ السيء ، ولهذا يعتبر الامر من باب قلة الادب أن تذكر جمال فرس دون أن تضيف معها كلمة ما شاء الله • وكم من مرة صحح لنا صاحب الحيوانات التي نذكرها الكلام الذي نقوله بحقها دون ذكر الله •

ولعل الاستخدام الرزين الوحيد لاسم الالوهية هو عندما يراد تأكيد القسم . اذ ترفع اليد اليمنى ثم يشهد الله • اذا ما قال البدوي ذلك فيمكن الاعتماد على ما قال ولكن هذا الصدق في القسم لم أجده نتيجة لعوامل خوف ،

بينما نجد القسم الكاذب سائدا بين القبائل الفلاحية الوضعية ؛ على الرغم من أنها تدين بالاسلام . وقسم البدوي هو في واقع الامر مناشدة للشرف بمقدار ما يملك من معان دينية ، وهو يماثل الوعد القائل : على رأسي : عندما لا يستخدم معه اسم الله .

ان قسم الاخوة له سمة دينية حقيقية عند الذين يقسمونه وعندما يذكر فيه اسم الله . ويدخل هذا في جوهر الميثاق الذي أبرمه ابراهيم مع أبيمليخ[1] في بئر السبع ، وهذا القسم يلزم الذين يقسمون به أن يتصرفوا تصرف الاخوة وفي كل الظروف، والعون والمساعدة يجب تقديمها حتى في حالة الشجار الفردي.

واذا تم عقد الاخوة بين شيخين فسوف يتبادلان العون في حالة الحرب. مع التزام كل من الشيخين بعدم القيام بعمل عدواني ضد قوم الشيخ الآخر المتآخي معه وعندما تؤخذ ابله مع غنائم قوم معادين يأتي الاخ ليناشد الغزاة استعادة الجمال بحكم الاخوة في الحال ، وأكثر من ذلك اذا كان الاخوة من قبائل متحاربة فهم لا يشتركون ضد بعضهم في صدام مباشر ، بل يترك الامر لمحاربين غيرهم . ان قسم الاخوة لا يستخف به أبدا ، أو أن يؤخذ على غير محمل الجد حتى ان كلماته تتلى بصوت هادىء خاشع وقور ، ولا يخامرها وهم أو شعور بالتفاهة قبل أو بعد القسم ، ويطلع على القسم شاهدان ، وقد يكتفى بواحد . ولم أسمع عن نقض لمثل هذا القسم ، وقد يجري هذا القسم نتيجة تعاطف حقيقي بين المقسمين لليمين ، وهم من شيوخ القبائل الذين تدفعهم الى ذلك دوافع سياسية وربما دوافع المصلحة . الا أن التآخي يعتبر خطوة أولية نحو السلام على الاقل . ان معظم شيوخ البدو يتآخون مع شيوخ المدن المتناثرة في البوادي الذين هم من دم عربي

---

(١) شخصية من شخصيات القصص الديني الذي كانت تنقله الليدي من كتب الاسفار .

صاف ويعرفون تقاليد الشرف في البادية • وقسم الاخوة في هذه الحالة خدمته عظيمة لكلا الطرفين للبدوي في المدينة وللحضري في البادية ، والاخوة ملزمة في كل شيء ويستثنى من ذلك حالات الزواج ، وأخت هذا الاخ لا تحرم على الآخر وهكذا نجد الايمان عند البدو موجودا بشكله الساري ألا وهو الخضوع للمشيئة الالهية وهو ما يتطابق مع تدين البطارقة القدماء • أما في وقتنا الحاضر فلم يتعد الامر كونه انعكاسا غامضا لاعتقاد قديم يعتمد على العرف أكثر من اعتماده على التصور الفكري عند البدو •

شاهدنا في مضارب شمر رجال اليزيدية الذين وصفهم العرب بعبدة الشيطان وهم يلبسون القمصان التي قصت مربعة عند العنق • وهؤلاء يتميزون بخصوصية تنتهي عند حدود البادية • ان الايمان بالعشيرة يسعد الا أن الحياة الآخرة يبدو انه لا مكان لها في تفكير البدوي • وهم كأيوب ينظرون الى القبر بمثابة أرض الظلام وبالاحرى هي الظلام بذاته ، ولا يأمل البدوي بتحقيق أية رغبات بعدها•ومن الصعب على أوربي اقناع نفسه بأنه ينتهي هكذا ، والذي لا يؤمن لن تجده ييأس لأنه لايؤمن•والبدوي يعرف أنه سيموت ولكنه لا يخاف الموت ومع علمه بالهلاك نجده لا يرتجف عند رؤية القبر،وهو لا يفكر بأكثر من التذمر مما نفعل لأنه ليس لنا أجنحة ننجو بها من المصير المحتوم • أما عن تصور البدوي لعموم الكون فليس هناك مكان عنده للجنة أو النار :والكلمات التي دونتها في مقدمة هذا الفصل تعبر تعبيرا دقيقا عن التفكير البدوي هذا اذا ما كان يفكر بالموت فعلا ، ولكنه في واقع الامر نادرا ما يشغل باله في مثل هذه الامور لأن طريقة حياته تمنعه من ممارسة مثل هذا التفكير •

نعاني نحن في الغرب من مرض التفكير نتيجة لزيادة اهتماماتنا وبسبب البطالة بمقدار يتناسب مع الذكاء•أما البدوي في شبابه فليس لديه وقت يمضيه في البطالة أو الخمول ، فهو في نشاط دائم •• ومعظم حياته يقضيها في الهواء

الطلق مما يكسبه الصحة ، والحمية من الاطعمة الزائدة والتمارين اليومية القاسية لا يؤديان بذهنه الى التفكير الخطير أو الكآبة السوداء ، والعقد التي تقود الى أفعال منعكسة لا ارادية نتيجة للعوامل الخفية ، وهو ما لمسناه في أنفسنا خلال هذه الرحلة ، اذ كانت عقولنا مشغولة اليوم كله بالاشياء التي تنتظرنا . ولم نعد نفكر الا قليلا بالماضي أو المستقبل ؛ ولكن جل تفكيرنا ينصب على تدبير وجبة العشاء . وعندما كنا نمضي ساعة بعد ساعة ونحن على ظهور الجياد نراقب الافق الذي يستدير حولنا أو عندما كنا نراقب تقدم الشمس عبر ظلال أعناق الابل ، أمام كل هذا نعترف أننا لم نستطع المضي في التفكير ؛ فآمالنا كانت تنحصر بالبئر التي علينا أن نصلها في المساء . ومخاوفنا تكمن في السلسلة المنخفضة من التلال خشية أن تخفي عدوا كان بانتظارنا . ان متعة اللحظة التي نعيشها ومتعة العيش لمجرد العيش كانت قد امتصت كل خيالنا ؛ لأن الحاضر الذي نعيشه أغلق علينا أبواب الماضي والمستقبل وحتى في لحظات الخطر لم يكن لدينا وقت للتفكير بالموت ... هذه هي الحالة عند البدو في أيام الشباب ، أما في الشيخوخة وعندما تخذلهم القوة والظروف الصحية فلن نجدهم بظروف أفضل . والبدوي يمكن أن يتم كامل أيامه من المهد الى اللحد دون أن يكون وحده لأن حياته من حياة المجتمع الذي يعيش فيه . ففي الخيمة الخارجية عندما يكون غنيا لن تمر ساعة من النهار أو يوم من السنة دون أن ترى مجموعة من الاصدقاء أو الاتباع عنده في الخيمة ، بينما في الخيمة الداخلية يمكث الاطفال والنساء والعبيد والاقارب بشكل دائم . أما اذا كان البدوي فقيرا فسوف يجلس اليوم كله في خيام الاخرين . ولن تجد البدوي يركب وحده ولو لبضعة أميال حتى وان كان على ظهر فرسه،وسيخامره شعور بالخوف ان كان بدون أصحابه ولو كان من أشجع الرجال .

سبب آخر في تقديري يجعلنا نحن في أوربا نقدر ونخاف الموت ألا وهو مواجهتنا له روحيا بين وقت وآخر . أما في البادية فلا يتعرض أحد لمثل هذه

المقابلة لأنه عند أول اصابة خطيرة بالمرض يهلك الفرد . والبدو يعرفون انهم سيموتون لأنهم يرون الاخرين يموتون من حولهم ، ولكن لا يعرفون ماذا سيكون بين فكي الاسد . وهكذا مع الخوف من الموت تتوقف الحاجة الى التفكير بحياة أخرى ؛ والموت لا يسيطر على مخيلتهم ، ولا يفكرون في ماوراء حالة القبر أبدا . أما عن الخرافات فهي نادرة في البادية ، ولا واحدة منها يمكن أن تستحق التضحية بمنفعة حقيقية .

يمكن أن نجد عند البدو آراء مسبقة عن الالوان والعلامات في الخيول : فيعتبرون بعضها جالبا للحظ وبعضها الآخر جالبا للنحس . ولم أجد بينهم من يرفض حيوانا جيدا لأسباب وهمية أو خيالية . ولا تجد عند البدو أياما للنحس أو أياما لحسن الطالع . وهم لا يتطيرون لطير في الجو ولا لحيوان في السهل، ولا يحلمون ولا يرون المنامات والاشباح ، ولكنهم يلبسون أطفالهم اللون الاسود ويبقونهم في حالة اتساخ خشية العين الشريرة، ولكن أفسر ذلك بالعادة المتبعة التي تكون دون معنى .

وهتافاتهم هي كذلك معتدلة خرافية ، ولم أجدهم يستخدمونها في حالات التشاجر[1] ولا يالون كثيرا لمثل هذه الاشياء مثلما يالون لما تجلبه من منافع مادية . أما بالنسبة لأخلاقية البدو فهم يختلفون فيها عنا كما يختلفون في طريقة التدين فنحن نلتزم بأخلاقية تنبع من تشريعات الهية معينة ، أما بالنسبة لهم فان هذه الاخلاقية تكون نتيجة لممارسات طبيعية للامور : وهم لا يناشدون الضمير أو الذات الالهية لتبيان الحق من الباطل ، ولكن يلجؤون الى العرف والعادة ، ويعتبرونه حقا لأنه أقر على أنه حق وكذلك الباطل ، ويقولون :

---

(١) كان غانم — رفيق الدرب — يضع تميمة على ذراعه جلبها من جبل شمر لتحميه من الرصاص ، وكان يخجل من أن يدعها مرئية .

انهم يبرون بالقسم لأنهم من البدو . والاتراك يحنثون بأيمانهم لأنهم من الاتراك ، ولا يعدون ذلك عيبا .

ينظر البدو الى الخمر واللحوم المحرمة بالطريقة نفسها ، وهم يقولون : ان الصلبة يأكلون القنفذ ونحن لا نأكله . والخوض في مثل هذه القضايا لا يعتبر مجرد قضية احصائيــة .

نجد عند البدو ــ فيما يتعلق بالحق والباطل ــ بعض المبادىء الصارمة التي تكون واضحة بشكل عام. وتلقى دعما أدبيا من قبل الراي العام البدوي. فليس من أحد في البادية يعجب أو يوافق على الاثم والعدوان حتى ولو كان ناجحا ، ويبقى العار ملتصقا بصاحبه على الرغم من قوته وثروته . أما الشجاعة والكرم وحسن الضيافة والعدل فتعتبر من الفضائل التي يجب أن تحترم في البادية ، بينما الكذب والسرقة في ظروف معينة لا تحتمل العقاب في القانون البدوي العام ، بينما الجرائم الاخرى التي قد تتسامح معها في حالة الانحلال لا يمكن أن تغتفر عندهم بسهولة . فنقص الثقة والخيانة التي هي عامة في أوربا الحديثة تدان عندنا قليلا . بينما تعتبر عند البدو من الامور المخزيــة الفاضحة : وربما لا تصدق الاذن الانكليزية أن البدوي البسيط تعهد أموال ثمينة للاصدقاء ولا يسيء استعمالها ! نسكان حلب والموصل يعهدون في كل شتاء بآلاف الاغنام الى قبيلتي الولدة والحديديين ، ثم تعود بفائدة مربحة الى أصحابها في الربيع .

ان النظام البدوي لا يعرف الملكية الجماعية لا في الخيل ولا في غيرها . ودرجة النزاهة قد تختلف من شخص لآخر ، ولا يمكن اعتبارها قاعدة عامة . وفي كل القبائل قد ترى الارامل والايتام يحصلون على ملكيات هامة من الابل والاغنام دون أن يكونوا في خطر معين ، أو في خوف من أن يجار عليهم من الاقرباء . والعقيل في البادية يضرب بهم المثل في النزاهة والثقة . ولن تجد

رجلا منهم لا يحمل مقداراً كبير من المال والامانات • وقد نجد بعض المحتالين الاوغاد في البادية الا أن صفة انعدام الامانة لا نراها سائدة كما في أوربا الحديثة على شكل قاعدة عامة ، ونستثني من ذلك الحالات النادرة من اللصوصية ، فاللصوص غالبا ما يجتمعون بشكل عصابات صغيرة منفصلة عن البقية ، وربما كان أفراد هذه العصابات ممن طردوا من قبائلهم ، ومن مثل هؤلاء علينا أن لا نتوقع أي خير • أما الاشخاص المعروفون بعدم الأمانة في القبائل الكبيرة فلا يمكن مسامحتهم أو تحمل وجودهم ، وبالطريقة نفسها فان الظلم من جانب هؤلاء بالقوة يعتبر شيئا مستحيلا ، والرأي العام سيواجه ذلك فورا • وكل شيخ يحاول تجاهل القانون البدوي سيجد نفسه وبسرعة معزولا وحيدا وقد تفرق الناس من حوله •

وكثيرا ما نجد مرونة كبيرة يسمح بها القانون البدوي في أمور الطلاق والزواج والفجور وذلك في المعنى الفني لمقدار الاساءة للقوانين • ويبدو أن هذه الظاهرة تعتبر أقل شيوعا مما هي عليه الحالة في الامم الاوربية • وبطبيعة الحال يصعب على مسافر مثلنا أو على عابر سبيل غريب أن يحصل بسهولة على معلومات تتعلق بهذه المواضيع ، ولكن من كل الذين سمعت منهم أقول : ان الخيانة الزوجية غير معروفة في البادية ، ولهذه الحالة أسباب عديدة : فأولها أن كل شخص في خيمة البدوي رجلا كان أو امرأة عليه أن يعيش بشكل دائم وبوضوح . ومن الصعب أن تحاك المؤامرات أو ان تنفذ بسهولة • والنساء لا يحق لهن محادثة أي رجل سوى الاقرباء ، ولا يستطعن مثل هذا دون مشاهدة عشرين شاهدا على الاقل ، وكثيرا ما تغتاظ الاخوات والحموات وحتى الخدم من أي امرأة صممت على خرق قانون الزواج ، وأسهل عقوبة تتبع مثل هذا الخرق هي الطلاق بطبيعة الحال وأدنى شك في أي سبب حقيقي سيكون مبررا كافيا لطرد المرأة الى والديها دون أية صيغة أخرى أكثر من قول زوجها لها أمام الشهود : أنت طالق ، كما أنها تملك الحق بمفارقة زوجها دونما

سبب ولا يمكن أن تبرر الخيانة الزوجية على أساس التعاسة وعدم السعادة البيتية • ويتظاهر الرجال الكبار من البدو بعدم الاكتراث بالجنس اللطيف . وهو فوق ما يحسون به لأن ذلك لا يتلازم مع السمعة الحسنة ؛ ولا يتم تشجيع يذكر للاعمال الناجحة في هذا المجال ؛ كما أن الاهتمام الزائد بالنساء ينظر العرب اليه دوما بازدراء ، ويوصف صاحبه بالمخنث أو التركي •

سألت محمد الطالب الذي أمضى شهرا وهو بغيب عن بيته وأهله ؛ فيما اذا كان غير متلهف للعودة الى زوجته وأولاده • فأجاب بحرج كما لو أن مشاعره قد جرحت بشحنة من الضعف وقال : لماذا على أن لا أرغب بذلك ؟ وأنا الذي غادرت البيت بصعوبة •

ان الدعارة العلنية غير معروفة في البادية • ويبدو أن البدو الفقراء نادرا ما يتزوجون أكثر من زوجة واحدة على الرغم من عدم وجود القيود التي تمنعهم من ذلك ، ولا حتى الاغنياء يرغبون بزواج آخر طالما أنهم ينعمون بالسعادة في زواجهم الاول • والمرأة التي ترضي زوجها وتلد له البنين هي آمنة نوعا ما من مزاحمة امرأة ثانية لها في خيمة زوجها • والسبب الشائع للخلاف بين الزوجين هو فشل الزوجة في انجاب الذرية ؛ لأن نقص الورثة من الذكور لا يعتبر حظا سيئا فقط ولكنه يعتبر بمثابة العار عند البدو • وقد ينتظر الزوج سنتين أو ثلاث سنوات حتى يزمع اقامة عقد زواج جديد وربما يعيد الزوجة الاولى الى أهلها • ولكن غالبا ما تبقى الزوجتان معا في بيت الزوجية ، وهو ما يحدث شجارا حادا بين الزوجتين المتنافستين • وربما تترك المرأة زوجها لأنها لا تستطيع العيش مع ضرتها الكبيرة لأن الزوجة الاولى تبقى عادة تحتفظ بسكانتها كربة للبيت الذي تديره بنفسها ، وكثيرا ما تسيء استعمال هذا الحق مسببة كثيرا من الخلافات • ومن الطبيعي أن تطفو الخلافات الزوجية على السطح عندما تتعدد الزوجات ويعشنَ مع بعضهن في بيت واحد •

ان مثل هذه الامور تعتبر كريهة بالنسبة للاوربيين ٠ ولكن العرف والعادة يجعلان النساء العربيات يقبلن بهذا الواقع والا يعتبرن العيش مع أكثر من زوجة عملا يحط من تدرهن ٠ ويبدو آن الشجارات في مثل هذه البيوت لاتكون عميقة الجذور أكثر من النجار الذي يحدث بين أفراد البيت الانكليزي ٠

وأخيرا ان نساء البادية لهن حقوقهن التي يجب أن تحترم ، وهن لا يتذمرن اذا ما أسيئت معاملتهن ، الا أنهن لا يحلمن بأن يحصلن على معاملة متساوية مع أزواجهن واخوانهن ٠٠ ان نساء البادية سعيدات ومجدات ٠



الفصــل السابع والعشرون

دستور البدو السياسي ـ الحريـة ـ المساواة ـ تعصبهـم للسلطـة ـ قوانـين الحرب ـ الظعائن •

يعتبر النظام السياسي عند البدو بمنتهى الغرابة ، لأنه يعطي مثالا راقيا لأفضل أنواع الديمقراطية في العالم ؛ وربما ديمقراطية البدو هي الوحيدة التي تتحقق فيها الشعارات التالية : الحرية . المساواة . الاخوة •

الحرية عند البدو هي أساس النظام كله . ولا نقصد الحرية القوميـة فحسب . ولكن الحرية الفردية كذلك التي لا تقيدها أية ضوابط كضوابط الولاء للملك أو الدولة ، والبدوي لا يدين بشيء لا يقرره على نفسه ، وهو يستقل بالعمل الحر الشخصي وبالاهتمامات الخاصة • فاذا ما استاء البدوي مـن شيء يمكنـه أن ينعزل عـن المجتمـع الـذي ينتمي اليـه في أي وقـت دون أن يســأل ؛ أو يخـاف مـن عقـاب • ومكانـة البـدوي في مجتمعه تذكرنا بأنه عضو في ناد أكثر من كونه من مجتمع أو رعية • ولكن طالما أنه من قبيلة فعليه أن ينصاع لأحكامها وضوابطها ، وعليه أن يشارك في كل المداولات التي تجري من أجلها • واذا ما رأى آراءه مهملة فله الحق أن يتحرر من سلطتها اذا كانت تحول دون استقلاليته • ولن تجد بدويا في البادية يتذمر أو يشتكي من الظلم لأن مواجهة ذلك وعلاج الظلم تبقى معطياتها دوما بـين يديـه •

ان الحس الجماعي يطغى على الحس الفردي في القبيله ؛ والاقلية اذا كانت لا تفضل الخضوع للاغلبية عليها أن تنسحب من الهيكل العام للقبيلة لتعيش وحدها دون أن تجلب على نفسها عداوة الدولة أو أن تعرض نفسها لاتهامات

الخيانه . وحتى الفرد الوحيد يمكنه أن ينعزل عن المجموعة دون أن يسأله أحد ، وله الحرية في نصب خيمته حيث يريد . وفي أيام السلم من النادر أن تجد أكثر من خمسين أو مائة عائلة بدوية تعيش مع بعضها في علاقات يومية ؛ أما في أيام الحرب فالخوف يجمع أفراد القبيلة قرب بعض خشية هجوم الاعـداء . وشعورهم بالخوف أكبر من شعورهم بالواجب . فالرولة على سبيل المثال كانوا يجمعون عندما زرناهم في سهل صيقل حتى بلغ تعداد خيامهم اثني عشر ألف خيمة لأن الحرب كانت على الابواب . وأخبرونا بأن خمسمائة خيمة بقيت منهم في نجد عندما زحفت القبيلة نحو الشمال ، وذلك بسبب الخلاف بـين شيخهم وابن شعلان الشيخ الاعلى للقبيلة ؛ ومع ذلك لم يتحدثوا عن ذلك بمرارة على الرغم من أن تخلف تلك المجموعة الهامة قد أضعفهم في مواجهـة المخاطر ، ولم يناقشوا الاقلية في حقها أن تفعل ما تشاء .

ان الفرد هو الاساس . وعليه يعتمد حكم الدارس للنظام السياسي في البادية . واذا ما قارنا رجل البادية بالرجل الانكليزي المتباهي بحريته نجد كل بدوي يشعر في خيمته وكأنه في قلعة حصينة ، حيث يكون حرا فيها ويفعل ما يشاء دون تدخل أو ممانعة من جاره ، بينما يتمتع بميزة اضافية عن الانكليزي: كونه يستطيع هدم خيمته ثانية حيث يشاء ، ونجده كذلك في حل من كـل سيطرة سواء أكانت من جامعي الضرائب أو من رجال الشرطة ، اذ لا يترتب عليه دفع أي مبلغ . وحتى خدماته نجده غير ملزم بها بمعنى الالزام لجيرانه زمن الحرب . غير أن الامور تجـري لمصلحته اذا ما تنازل قليلا عن هـذه الاستقلاليه المطلقة . فهو في هذا التنازل يحمي نفسه لأنه لا يستطيع أن يعيش وحده بشكل عملي دون أن يتوقع سلب رجال القبائل الغازية لـه والذين سيكون حقا طبيعيا في سلبه . عندها عليه أن يعيش مع قبيلته ــ باستثناء بعض الامثلة النادرة ــ ويشاركهم في الدفاع العام عن القبيلة ويشرع رمحه عنـد الحاجة لشد آزر المدافعين وقد يشارك مع أصحابه في أعمال الحرب والنهب التي تحتاج الى جهد جماعي . كما أنه يخضع للقوانين العامة وللانظمة الضرورية

في المجتمع البدوي • وعلى الرغم من فقره فليس لديه شعور بأنه سبل الانقياد لقوانين يضعها الاخرون لا من أجله بل من أجل مصالحهم •

ان النظام القبلي أشبه بنظام حكومي بسيط ، لأن القبيلة أو قسما منها على الاقل يقع تحت حكم اسمي لشيخ اختير باقتراع أصحابه • ولم نجد من مؤهلات مطلوبة محددة بالنسبة للناخب أو المنتخب ، ومع ذلك نجد الحكم المسبق الشائع هو في مصلحة القوة العليا التي توكل لعائلات معينة يختار الشيخ من بينها • والشيخ يجب أن يكون من أصحاب الثروة حتى يتمكن من تحمل أعباء الضيافة • والقيادة الموروثة يبدو أنها من الامور المسلم بها في البادية لأن ابن الشيخ الراحل أو أخاه أو عمه هو الرجل المرشح لخلافته ، ولا يتطلب الامر سوى الذكاء والجدارة غير العادية للقيادة حتى يتمكن الرجل الجديد من مزاولة مهام منصبه • ان السلطة الحقيقية زهيدة بين يدي الشيخ على الرغم من أن آلاف الرجال يطيعونه رسميا، وهو حقيقة لا يمثل الا الارادة المشتركة للقبيلة ، لأنه في الامور السياسية عليه أن يجاري الرأي العام أكثر مما عليه أن يقوده • ان الشيخ الذكي جدا أو الشجاع سيجد نفسه بعد مدة مزودا بقوة داعمة حقيقية لا لمركزه ولكن لشخصيته • ويبدو أن مثل هذا الرجل يبقى بشكل عام هو المفضل بينما يكون الشيخ الضعيف مجرد مثل أو رمز للقبيلة •

على شيخ القبيلة مجموعة من الواجبات يقابلها القليل من المنافع • وعلى عاتقه تقع مسؤولية حل قضايا النزاع الصغيرة والشجار بين الزوج وزوجته ونزاعات ملكية الجمل أو الشاة ، وعليه يقع عبء توجيه العمل السياسي للقبيلة وتوقيع الرسائل التي تكتب باسم القبيلة ، ويقوم بنسخها كاتب عام غالبا ما يكون من أبناء المدينة ، وعليه أن يستقبل الغرباء ، وفوق كل هذا عليه أن يبقى بيته مفتوحا أمام قومه في كل وقت •

والشيخ يدعى لوقف الشجار بموجب سلطته التي تسمح له بوضع معكري صفو الامن • ومن مهامه الاساسية قيادة القبيلة من مكان الى آخر محددا مكان خيمته الخاصة التي تتوزع حولها خيام القبيلة •

تخصص للشيخ بعض الخصوصيات الاضافية من الغنائم الحربية لأن بيته يعتبر مكان التشريف العام الذي تعقد فيه الاجتماعات ومجالس الحرب ، ومع ذلك هو لا يستطيع فرض اية ضريبة بموجب سلطته : ولا أن يقرر أيـة قضية ذات اهتمام كبير ، كما أنه مجرد من الحرس أو الشرطة لكي يفرض سلطته . وكثيرا ما تطاع في الامور التافهة لأن الرأي العام الى جانبه ، أما في غير ذلك فالبدو لا يعيرونه اهتماما كبيرا ، ومع ذلك نجد احترام الشيخ ظاهرة ملموسة لدى معظم القبائل لأنهم هم الذين قاموا باختياره . فالرجال ينهضون وقوفا له عندما يدخل الى خيامهم : ويظهرون له نوعا من الاجـلال المألوف بسبب سيره على نهج آبائه . وقلما يسيء الشيخ استخدام هذا المنصب وأجواء السلطة المطلقة لا يعرفها البدو،ويعتبر شيوخهم هذا الامر ممنوعا منه. لا يعتبر البدو التظاهر باللباس الحسن أو التباهي بالسلاح من صفات الذين تربوا تربية حسنة أو من صفات ذوي الاصل النبيل . والشخص الوحيـد الذي شاهدناه يتظاهر بذلك هو تركي بن جدعان بن مهيد الذي كان يلبس قميصا مدرعـا .

يمكن تمييز شيوخ القبيلة من السيف الذي يحملونه ، أو من سلاح دمشقي قديم يوضع في غمد مهلهل غالبا ما يكون الشيخ قد ورثه من أسلافه القدماء . ولكن السمو الحقيقي الوحيد الذي يظهرونه هو في أخلاقهم العالية وفي التربية الحسنة والاصل النبيل ، ولا تتوفر غالبا الا في البادية . وهناك عائلات معينة تحترم الى درجة التعصب . وعندما تجد فردا منها بمكانـة كبيرة فسوف يكون نفوذه كبيرا : وعندها سيمتلك قوة معنوية حقيقية . ونذكر ان هذه الرتبة كانت لعبد الكريم وسليمان بن مرشد وفيصل ابـن شعلان الا أنه في وقتنا الحاضر لا تجد من يصل الى مراتبهم .

ومن حيث المبدأ يعتبر كل أفراد القبيلة في درجة واحدة من التساوي . فأفقر راع يتكلم مع شيخه كما لو كان يتكلم الى قريبه . وقد يناديه باسمه الاول فقط . ويبدو أن هذه المساواة قد هذبتها التغيرات الكبيرة لموالدهم . والثروة نفسها ليس لها تأثير كبير في كسب احترام الاخرين ، ولكن النبـل

والتحدر من سلالة الابطال المشهورين أو من العائلات ذات التربية الحسنة والمتوارثة كلها يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار ، ولهذا فالعنزي أو الشمري هو أسمى من الجبوري أو من بدو الحديديين ، وابن جندال وابن الحميدي هما أسمى من العنزي العادي ، وابن مزيد ـ شيخ الحسنة ـ على الرغم من كونه فقيرا فله الخيار دون شيوخ البادية باختيار أصهاره ، ويمكنه أن يطلب مهرا لبناته مقداره خمسون جملا .

وفيما يلي سجل للعائلات المحترمة في البادية تسلسل حسب مرتبتها :

ـ ابن مزيد شيخ الحسنة .
ـ ابن جندل شيخ[1] الرولة .
ـ ابن الطيار شيخ الرولة .
ـ ابن الحميدي شيخ الهذال .
ـ ابن سمير شيخ ولد علي .

ويروى أن هذه العائلات الخمس كانت تذبح الشياه للضيوف طوال الوقت . ويلي هؤلاء :

ـ ابن صفوق من الجربا .
ـ شيوخ قبيلة طي .
ـ ابن هديب شيخ الموايجة .
ـ روس المهيد .
ـ ابن مرشد شيخ القمصة .
ـ شيخ الموالي

بالاضافة الى آخرين لا يتسع المجال لذكرهم . أما ابن شعلان شيخ الرولة الحالي وجدعان بن مهيد فيمكن اعتبارهما من الشيوخ الحديثي العهد بالنعمة. وتلك ما هي إلا بعض الفروق الاجتماعية . أما من الناحية السياسية وأمام القانون فكل الافراد متساوون سواء أكانوا من الاصل النبيل أم من غير النبيل

---

(١) ابن جندل من السوالمة ، وابن الطيار من ولد علي وليس من الرولة .

وفقراء كانوا أم أغنياء ، وتستثنى من ذلك بعض الاسر التي سمح لها أن تحصل على بعض الامتيازات في توزيع غنائم الحرب • وعندما تنتقل من القاعدة الى القمة في القبيلة نجد أن السيادة تملكها كل القبيلة ، وكل قبيلة في الواقع تعتبر بمثابة أمة منفصلة لها حقوق اقرار السلم أو اعلان الحرب ولها استقلالها السياسي الكامل ، فالرولة وحدها على سبيل المثال تملك القوة الكافية لأن تكون وحدها في الميدان ، وكذلك شمر الا أن معظم القبائل تجتمع بموجب روابط الدم القديمة لتشكل وحدة متكاملة حتى تتمكن من حماية نفسها مشتركة ، ولهذا نجد السبعة يتألفون من سبع قبائل مستقلة ، وكل قبيلة لها شيخ خاص وترتبط مع البقية بروابط الدم ، وكل واحدة تكون على قدم المساواة مع القبيلة المجاورة • وهم لا يعترفون بسلطة مدنية عامة الا أنهم ساروا مع بعض منذ زمن غير محدد ، وفي زمن الحرب يقاتلون تحت قيادة موحدة • والشيء ذاته ينطبق على عشائر الفدعان الاربع ، بينما لا تزال تربط بين هذه القبائل بما فيها الرولة أواصر القربى العامة التي تجمعهم في قبيلة العنزة الكبيرة • ولم يمض وقت كبير على بقاء العنزة موحدة وتقاتل تحت راية واحدة •

تتفرع قبيلة شمر الى عشرين فرعا مختلفا ، ويرأس كل فرع شيخ ، الا أنهم يعترفون بشيخ عام هو ابن صفوق من آل الجربا ، كما يعترف الجلاس من الرولة بابن شعلان شيخا أعلى لهم •

في زمن الحرب تبقى سلطة الشيخ في مجال القضايا المدنيه ، أما في المجال العسكري فيحل محله قائد عسكري تختاره القبيلة نتيجة لمؤهلاته القتالية . فيصبح قائدهم الذي يأمر الجميع فيطيعونه كلهم بما فيهم شيخ القبيلة ،ويدعى هذا الضابط بالعقيد ، ويعهد اليه بكل العمليات والخطط العسكرية وقيادة الغزوات والحملات والانسحابات ، وربما يكون الشيخ نفسه هو القائد ، ولكن القاعدة لا تكون عامة • فسطام بن شعلان هو ليس العقيد على الرغم من أنه شيخ أقوى قبيلة في البادية • والسبعة في هذه الايام يفتقرون الى رجل

تتمثل فيه الموهبة العسكرية ، ولهذا أجبرو على القبول بجدعان قائدا لهم على الرغم من أنه دخيل على القبيلة .

ان الحروب تعتبر من الامور الاعتيادية بين القبائل . والعقيد هو الرجل الهام بينهم وعليه يتوقف ارتفاع شأن القبيلة ، ولهذا فهو يعامل باجلال كبير.. وبعد كل هذا أرى من الضروري أن أقدم تمهيداً عن أسباب وسير العمليات العسكرية في البادية .

ان الحروب البدوية لا تصل الى المراحل الدموية المهلكة ، ولا تصل الى مرحلة اللاعودة على الرغم من أن السلام قد لا يعقد الا بعد عدة سنين من الحرب . وعلى كل حال يعتبر العنزة وشمر نفسيهما العدوين الطبيعيين اللذين لا وجود لسلام مفترض ممكن بينهما . وقد تكون هناك فترات من الهدنة . ولكنها لا تدوم مطلقا غير أن هبوط روح المغامرة عند أحد الفريقين قد يبقي الهدنة قائمة ، ولكن ذلك لا يمنع من حصول غزوات وقيام مجموعات السلب والنهب بدورها عبر حدود الهدنة ، وفي بعض الاحيان قد يتوصل الشيوخ افراديا الى شروط من الهدنة أو التحالف ، حيث وصلتني بعض الاخبار في هذا الصيف تفيد بأن فارسا شيخ شمر الشمال ــ الذي يتعرض لضغوط من أخيه ــ قد عقد حلفا مع جدعان عقيد السبعة . واذا صحت الاخبار فستكون هذه سابقة لا مثيل لها في البادية .

نقوم حرب عابرة أو مؤقتة بين بطون العنزة المختلفة . وأسباب هذه الحروب تبدأ عادة بتحريض من الاتراك الذين يرفعون شعار « فرق تسد » والذي هو شعارهم العملي في رسم سياستهم في البادية ومن السهولة اثارة الشجار بسبب المراعي . فالقبيلة التي تزدهر وتزداد غنى بقطعان الماشية تبدأ تحس في ضيق من تحقيق السلام ، فباشا دمشق أو حمص عندما يسمع بهذا يرسل رسالة مؤدبة الى الشيخ يدعوه لمقابلته في دار الحكومة ، وهناك يتلقى رداء الشرف والمجاملات اللطيفة ، فيذهل الشيخ ــ كما هي الحال مع كل البدو ــ لقوة وثروة الحياة المستقرة ، ثم يسأله الباشا بعدها عن أخبار القبيلة

ويواسيه عن نقص المراعي مقترحا عليه أن يذهب الى سهول ومراع أكثر خصبا تشغلها قبيلة أخرى ، ولكنها تكفي القبيلتين ، عندها يسر الشيخ وينبع كبرياءه بفكرة حماية الحكومة له التي وعده الباشا بها مباشرة ، ويعود الشيخ محملا بالهدايا الى مضارب قومه ليخبرهم بأنه أصبح صديقا حميما للوالي .

يقبل القوم بفكرة غزو المراعي الجديدة ويرسلون الشيخ مرة ثانية الى الوالي ولكن يصطحب معه هذه المرة فرسا أصيلة وبعض الجمال العربيه لتوضع في خدمة الباشا . وفي الحال تجري صفقة بين الاتراك والبدوي يدفع بموجبها مقدار معين من المال ليعلن الباشا أن المراعي المذكورة أصبحت تخص الشيخ فيغزو القبيلة الاخرى ، وتكون الحرب هي النتيجة النهائية لهذه اللعبة . يقتل بعض الرجال في الحرب من كلا الطرفين وتؤسر بعض الخيول . عندها ينصل الباشا من كل وعوده ليترك صديقه الشيخ بخوض الحرب بمفرده .. ان هذه القصة تعبر عن أسباب نصف حروب البدو في هذا القرن . وهناك قصص أخرى كثيرة عن الحروب في البادية ، وكأن التاريخ يعيد نفسه فيها من جديد وبسرعة . ومع ذلك فالحرب ليست كارثة رهيبة كما هي الحال بين الامم المتمدنة التي تقوم حروبها على القتل والحرق والتدمير الشامل حتى يستسلم العدو ، بينما تكون القاعدة في البادية ألطف منها . فالهدف هو ملكية العدو وليس العدو نفسه ، وفي القتال لا يتمنى المتقاتلون الخراب الشامل بل تقتصر العقوبة القصوى للاندحار على خسارة قطعان المواشي والخيام والاثاث والخيول .. ان حروب البدو لا تتجاوز هذه الحدود ، ويكون العدو مقدسا ومحميا عندما يكون أعزل من السلاح ، أو عندما يكون راجلا ، كما أن الاسرى لا يستعبدون ولا يطلب عنهم من الفدية غير الخيول . ومن النادر أن تجد العداء الشخصي في كلا الطرفين ، أوأن تجد الدم يراق دون مبرر وفي غمار المعركة يتبادل الشباب المتحمس طعنات الرماح ، ولن يقتل أي شخص الا عن طريق المصادفة . وفي الواقع يعتبر من الاعمال الفظيعة أن تقتل رجلا بدون حق ، لأن هدف القتال قد تحقق بجعل العدو يترجل عن فرسه ليداوي جروحه . تبدأ المعركة البدوية كما في أيام البطولة بسلسلة من القتال الفردي

حيث يهرب فيه الضعيف ويلاحقه القوي ، ثم تتحول العملية الى مراوغة وكر وفر تتحكم بنتائجها مرونة وسرعة الخيول ، وربما تقود المطاردة المتقاتلين بعيدا عن ساحة المعركة ، فتبدأ قوة الهارب بالتلاشي فيستسلم ملقيا بنفسه على الارض ويصيح : « دخيل » أي أنا أستسلم ! بعدها يقوم المنتصر فيضع عقاله في عنق المستسلم ليصبح بعدها أسيره • والعقال هو حبل من شعر الجمل يلبسه البدوي ، ولكنه في الحرب يدليه على كتفه لأن البدو يتحاربون ، وهم حاسرو الرؤوس •

تصبح فرس الاسير وسلاحه ملكا للمنتصر حتى عندما يتم اطلاق سراحه فيما بعد ، والاسير لا يمكنه المشاركة بعدها في القتال • واذا ما أسرت فرسه عند استسلامه فسوف يترك ليأخذ طريقه بسلام راجعا الى أهله مشيا على الاقدام • ولكن اذا هربت الفرس وأنقذها قوم الاسير عندها يجب على الاسير أن يرافق آسره الى خيمته حيث تتم استضافته بشكل جيد ، الا أنه سيبقى رهينة حتى تسلم الفرس عوضا عنه ، ثم يسمح له بعدها بالمغادرة •

علينا أن نتساءل لماذا لا تستهدف الحياة وحدها في الحرب ؟ والجواب علينا أن نبحث عنه في طبيعة الاسلحة المستخدمة • فالاسلحة النارية لا تستخدم في الحرب كما أن تبعة ادعاء الاضرار في نهاية الحرب له ثقله في الموضوع • فالقبيلة التي تتسبب في قتل خمسين روحا يتوجب عليها دفع دية ثقيلة في نهاية الحرب • والخيول الأسيرة قد تستعاد أحياناً في شروط السلام المعقود بين القبيلتين ، الا أن هذه من الناحية العملية غير واردة لأن الذين غنموا الخيول يتلهفون لبيعها أو مبادلتها مع قبائل غير متورطة في الحرب ، عندها يتجنبون احتمال مثل هذه الاستعادة ، وعندما تعود المياه الى مجاريها وتدفع دية الرجال من الابل وأعتقد أنها تقدر خمسين جملا عن كل قتيل ، كما هو الحال في القتل العمد والقاتل ذاته غير معني بدفع المبلغ لأنه يفرض على القبيلة كلها • والموت في الحرب لا يسبب ضغينة بين عائلة المقتول والقاتل ، أما لو قتل شخص في الحرب من قبل آخر كان يطلبه ثأرا فان في موته نهاية حتمية للشجار •

ان هذا القانون الانساني في الحرب تظهر فيه بعض الثغرات لأن حياة شيخ القبيلة تستهدف دون أن يلفظ كلمة « دخيل » التي قد لا تقبل ، ولهذا فان مدبغ بن مرشد قتله جماعة من الرولة الذين قابلوه بقوة كبيرة في حالة حرب بين السبعة والرولة ، وعندما هرب بفرسه الجيدة سقط بعد أن تعثرت في حفرة يربوع • وعلى الرغم من ترجله وتركه للسلاح فقد انقضوا عليه وقتلوه • الا أن هذا المثال يعتبر من الامثلة غير العادية لأن السبعة كانت مشغولة بموت زعيمها ، وحملوا الفرس مسؤولية سقوطه واللحاق به • وفي هذه الحالة بقيت الضغينة قائمة بين ابن مرشد وابن شعلان لأن موت مدبغ اعتبر غير نظامي ، ولهذا قام صديقنا مشهور منذ بضعة أشهر بقتل خمسة فرسان من الرولة ثأرا لدم والده •

ان حياة الشيخ لا يمكن اعتبارها أكثر من حياة شخص عادي ، أما في هذه الحالة فقد طولب بخمسة أشخاص من الرولة لأن الذين قتلوه كانوا خمسة•

ان حكايات سفك الدم التي رواها « بالغريف » وآخرون في مذكراتهم قد تكون صحيحة عند القبائل الاخرى التي زاروها ، الا أنها غير صحيحة بين شمر والعنزة حتى أن التقرير الذي وصف أسرى يقتلون في مخيم الرولة تبين لنا فيما بعد أنه لا أساس له من الصحة ، وقد أنكر صدق الحادث كل من عرف البدو وعاش بينهم •



الفصـــل الثامن والعشرون[1]

ملحـــق

مشروع سكة حديد وادي الفرات ـ النقل النهري ـ الادارة التركية ـ نجاحها الجزئي ـ الفشل ـ تطلعات نحو المستقبل •

اقترح علي أن أقول كلمات تتعلق بمستقبل البلاد التي زرناها أو التي ذكرت في هذا الكتاب ، وعلى الاخص فيما يتعلق بحصولنا على طريق بري نحو الزند ومشروع الخط الحديدي المقترح بناؤه بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربي • فليس من المستغرب أن يقوم خط حديدي في البادية ؛ وكل شيء يمكن حدوثه في أيام الانتصارات الهندسية الرائعة في وقتنا الحاضر •

ولكن هناك مجموعة من التحديات التي تواجه خطة التنفيذ والتي أخذت تواجه البناء ذاته وان لم يكن في البناء والتشييد فهي في كيفية العمل في مثل هذا الطريق • ويبدو أن الآمال في تحقيق المكاسب المالية من وراء هذا المشروع تعتبر الآن ضربا من الوهم والخيال فاما أن يقام الخط في سهل النهر ، واما أن يقام فوق الهضبة المطلة على النهر • وفي الحالة الاولى سوف يتعرض الخط لخطر الفيضان واحتمال تغيرات المجرى المستمرة في النهر ، بينما يتطلب الامر في الحالة الثانية شق الاقنية ومـد الجسور لأن هناك شبكة مـن المسيلات والوديان التي تقطع البادية متجهة نحو النهر ، يضاف الى ذلك كله معدلات ارتفاع سهل النهر في بضع مئات من الاقدام فوق سرير النهر نفسه ، وقـد لا يثبت الماء في مستوى واحد دوما ، والتلال الوعرة التي يجب شق الطرق من خلالها ، وهذا يتطلب جهودا مكثفة لشق طريق عبر البادية •

---

(1) موضوع الخيل الذي وضعه ولفرد في هذا الفصل سينشر في بحث مستقل ان شاء الله .

ومن الملاحظ أن المنطقة الواقعة بين « دمشق » وعنة تمتلك مجموعـه من الاحواض المائية السطحية ، يجري فيها الماء العذب ولكنها تعتمد في تغذيتها على أمطار الخريف علما أن المطر لا يهطل بشكل منتظم ، ولهذا فقد تجف تلك الاحواض صيفا بشكل كامل • غير أن العقبة الاكثر خطورة ستكون فـي كيفية استخدام الخط بالنسبة لأشهر السنة ، فباستثناء الاشهر المعتدلة الحرارة لا أعتقد بأن كثيرا من المسافرين يفضلون ركوب القطار في رحلة تطول آلاف الاميال تحت حرارة الشمس المحرقة في الحماد ، ما بين شهري أيار وتشرين الاول كل عام • ان الحد الاعلى لدرجة الحرارة اليومية في أبرد البيوت في بغداد خلال شهر حزيران هو « ١٠٧° » ، بينما قد يرتفع الميزان[1] هناك الى «١٢٠° ــ ١٢٢°» وستكون الحرارة في البادية أشد من ذلك بكثير،وما لم نقام محطات استراحة تأوي المسافرين في ساعات الحر الشديد فسوف يكون السفر على ذلك الخط شبه مستحيل على الاوربيين ، وبطبيعة الحال ستحتاج هـذه المحطات الى الحراسة والحماية لأنه من غير المحتمل أن يحترم العنزة حرمـة هـذه المحطات •

أما من الناحية التجارية فسوف نأخذ بعين الاعتبار وفرة البضائع التـي تنقل في نصل الشتاء في وقت لا تتوفر فيه المواصلات المحلية ، غير أن قرويي الفرات هم فقراء جدا ولن يتمكنوا من دفع الحد الادنى من الاثمان التي تطلبها منهم قيادة السكة ؛ بينما قوافلهم التجارية على ظهور الابل ستكون أرخص لهم بكثير مما يترتب عليهم دفعه الى سكة الحديد ، والوقت بالنسبة لهم لا قيمـة لـه مطلقا •

ان شعبية نهر الفرات ضعيفة الى أدنى حد في هذه الايام ، كما أن الكثافة السكانية قليلة على هذا الطريق • فمن المفترض أن هناك خمسين ألف نسمة بين بغداد وحاب واذا كان العدد الحقيقي أكبر مما افترضه فسيكون خمسهم على

---

(١) لم تذكر الليدي اسم الميزان الحراري ، ولكن الارقام العالية هذه لا بد ان تكون لمقياس فهرنهايت •

الاقل يتمركز في السهل المنخفض جنوب مدينة « عنة » وعلى الرغم من أن المسافة بين «عنة» وحلب تقدر بثلاثمائة ميل فلن تجد قرية واحدة جديرة بالاهمية على هذا الطريق ، ومن المحتمل أن لا يزيد عدد السكان المدون هناك أكثر من عشرة آلاف نسمة .

ومن الجدير بالذكر أن الخط الحديدي النافع سيكون مجديا اذا ماشيد قرب طريق القوافل القديم بين أورفه والموصل ، لأنه سوف يمر في منطقة زراعية وفي ضواحي المدن الكبرى . ولكنني لن أتوقع تحقيق النجاحات على الصعيد المالي في مثل هذه الظروف لأن السنوات الاولى من عمر الخط الحديدي ستكون عديمة الفائدة بالنسبة لبقايا الشعب الاشوري وللمساحات الكبيرة من التربة غير المحروثة والتي هي في متناول اليد بين حلب والبحر . ومن الصعوبة على المهاجرين اختيار أدغال شجر الطرفاء على دجلة والفرات كمكان لائق لمستعمراتهم الجديدة ، لأن أرض الطمي على ضفاف الواديين تكون محدودة جدا لاتفي بمتطلبات الاستثمار بشكل كاف .

ولم أجد ميزة حسنة لاقامة مثل هذا المشروع سوى عودة الخصب الى السهل البابلي جنوب بغداد ، لأنه كان في الماضي من السهول الخصبة في العالم، الا أنه من غير المعقول أن يعاد ازدهاره مثلما كان بدون النفقات الهائلة لترميم وبناء أقنية الصرف البابلية . وبدون شبكات الري لا يمكن للمنطقة أن تنمو من جديد،وبطبيعة الحال ستكون الكلفة المالية باهظة حتى لأغنى بلد في العالم.

ان الخطة الوحيدة لتحسين الاتصالات بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربي أراها ناجعة بانشاء خط للقوارب البخارية يمخر عباب نهر الفرات فيما لو خطط لها بشكل صحيح ، وسوف تعطي ثمارها ، وربما ريعها سيغطي التكاليف المصروفة .

وعلى مدار العام يصلح نهر الفرات لملاحة القوارب في غاطس ثمانية عشر انشا . وقوارب مدحت باشا أخفقت في مواصلة سفرها في النهر لأنها كانت كبيرة جـدا .

ان خطـ القوارب البخارية الذي اقترحه سيلبي الحاجات المحلية بشكل كاف ويستطيع أن يبحر بمعدل أسعار زهيدة جدا اذا ما قيست بمتطلبات الخطـ الحديدي • يضاف الى ذلك كون القوارب في مأمن من خطر تدخل البدو ؛ وسوف يكون وقود آلاتها البخارية من حطب الطرفاء المتوفر على نهر الفرات• وان خطة كهذه ستكون على أية حال ذات فائدة محدودة بالنسبة للهند •

ان انشاء شبكة النقل المائية أصلح مساوىء الاتراك ونظام حكمهم الحالي في هذه المنطقة ومن المحتمل أن تتطور البلاد بشكل طبيعي على الرغم من أنه لن يتم ذلك سريعا أو في الغد المنظور • انني لا أتعاطف مع الاتراك في جزيرة العرب ، وأقل ما يمكن قوله في نظام ادارتهم : انه فاسد كليا ، ولكن لا اعتقد أن نظرية حكمهم لتلك الديار سيئة ، وهي التي تقوم على حماية القبائل الامنة وكبح جماح الحروب وتشجيع كل الذين يرغبون بزراعة الارض وجعل الطرق العامة آمنة واحتلال الريف عسكريا وعقد التحالف مع زعماء البدو وتقديم الاغراءات لهم للعمل في مهمة « البوليس » في البادية • ومثل هذه الافكار لن يأتي الاوربيون بأفضل منها • ونقطة الخلاف تكمن في الممارسات التي يفشل الاتراك بسببها في تحقيق أهدافهم • وأخاف حاليا من الاخطاء التـــي لا تقبل العلاج •• الا أنهم لم يفشلوا كلية حتى الآن •

أما من الناحية العسكرية فكم تبجح الباشوات ببعض الحقائق والنتائج التي تم انجازها في هذا المجال بالمقارنة مع السنين الماضية ، الا أن البلد لم يحقق خطوات حثيثة باتجاه المدنية والحضارة المعاصرة ، غير ان قوة قبائـــل البدو قد أضعفت بشكل كبير خلال تلك الفترة وان لم تحطم تماما ، ومـــن المنتظر ــ اذا ما تحقق نفس المقدار من التقدم ــ في العشرين سنة أن يختفي العنزة من البادية السورية العليا ، وقد تستجيب قبيلة شمر لظروف الحياة المستقرة في بلاد مابين النهرين ، في وقت يتم فيه زرع وادي الفرات اللحقي بشكل كامل ، وقد يضعف ماء النهر في المستقبل ، وقد يجف في أشهر الصيف! •

ان البدو الحقيقيين يجب أن يعودوا الى نجد من حيث أتوا • وان لم يفعلوا فعليهم أن يهجروا حياتهم المستقلة في البادية •

ان هذه التفاؤلات التركية لها ما يبررها اذا ما ساروا في طريق تحقيقها بدقة • الا أنني لا أؤمن في استمرارية التجديد في تركية ولا حتى بالمحافظة على القوة العسكرية لوقت غير محدود من الزمن • وخطيئة النظام التركي الاولية ــ كما شاهدتها في البادية ــ هي الخطيئة ذاتها التي تؤثر في مجريات الامور في كامل الامبراطورية • والضربة القاضية تكمن في أن الاوزة التي تبيض البيض الذهبي تقتل كل يوم في تركيا ، أو أنها تسرق دون رحمة ، وقد تنهب لادخار بيضتها الاخيرة وعلى سبيل المثال : قبائل الرعاة الامنة المستقرة ــ على الرغم من أنها محمية من غارات العنزة وشمر ــ تسلب من قبل الحكومة ولم يطرأ عليها أي تغيير سوى تغير السيادة غير المحترمة • فالولدة قبيلة غنية منذ عشرين سنة عندما كانت في حلف العنزة ، غير أنها اليوم في فقر مدقع بسبب ابتزاز الباشوات في حلب • والجبور على نهر دجلة كانوا من الرعاة المجدين • ويبدو أن حياتهم وظروف عيشهم تغيرت عما كانت عليه عندما عاش بينهم ليارد عام ١٨٤٥ م •

ان البدو الوحيدين الذين يملكون القوة تحت الحكم التركي هم الحديديون لأنهم على احتكاك دائم بسكان المدن ، ومن المحتمل أنهم في احترام بمنأى عن غارات السلب العام والغزو المتواصل ، ومن الصعب والمدهش أن تظن بأن ذلك هو وراء حالتهم الجيدة بالنسبة للقبائل الفقيرة من حولهم•

ان أكبر القبائل المالكة للابل تكون في ترحال دائم وغالبا ما تكون بعيدة عن متناول يد الحكومة • وقد رفضت كل العروض لتهجر حياة البداوة وتقبل بالاستقرار والزراعة • ان القوة العدوانية عند البدو قد تقلصت كثيرا بسبب اقامة المواقع العسكرية على جانبي النهر ، وبسبب توفر الاسلحة النارية الدقيقة بين أيدي الجنود الاتراك ، يضاف الى ذلك قطع الدعم والامداد الذي كانوا يتلقونه من البادية مصدر ثروتهم القديم • ولكن لم يؤثر فيهم ذلك حتى الآن •

ان العنزة وشمر ما زالوا في استقلال مطلق عن السلطات ، كما كانوا عليه في الايام الاولى من وصولهم الى البادية ، وبقيت شخصيتهم القديمة ونمط حياتهم بدون تغيير يذكر .

انني أتصور بأنه سيأتي اليوم الذي تنفد فيه كنوز القسطنطينية ، لأن طرق الامداد العسكري وخط سكة الحديد المقترح على طول الفرات وطريق النقل النهري بالقوارب البخارية ستهجر كلها عندما يستبدل البدو رماحهم بالاسلحة النارية الحديثة ، وستتمسكن قبائل البدو من احكام قبضتها على الوادي من جديد وبقوة هائلة .

وسوف لن تندم قبائل الرعاة وسكان القرى بعودتهم الى الحياة المستقرة من جديد وسيكونون كما كان أسلافهم في المنطقة منذ مئات السنين ... عندها سيكون تعاطفي معهم وليس مع التقدم الحضاري . ومن أجل مصلحتهم سأهتف : يحيا السلطان ولكن هل تظهر قوة أخرى في البادية ؟ لا أدري ؟



الفهرس

رقم الصفحة | الموضوع

رقم الصفحة	الموضـــوع

طبع من هذا الكتاب ١٥٠٠ نسخة ــ مطبعة الملاح ــ دمشق